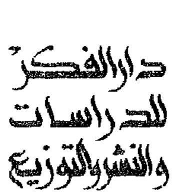
القدس
في العصر المملوكي

تصميم الغلاف والخطوط : عـماد حـليم

الطبعـة الأولى
القـاهرة - ١٩٨٦

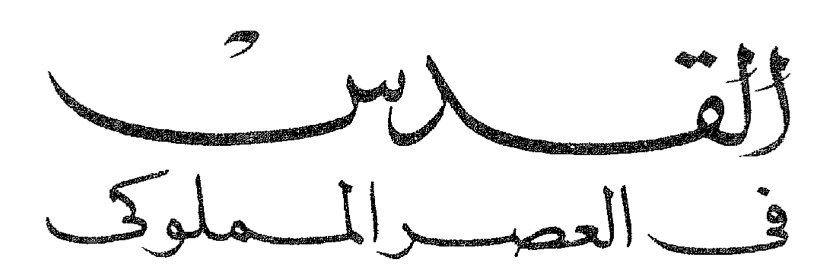




دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع
القـاهرة - باريس

القاهرة: ش هشام لبيب - رقم ٤٢/٢٥
مدينة نصر - المنطقة الثامنة





د. على السيد على



تقديم

القدس ، ليست مجرد مدينة من عشرات الألوف من مدن الأرض ؛ ولكنها رمز دار من حوله الصراع على مدى أجيال عدة فى تاريخ المنطقة العربية .

والقدس اليوم رمز فى صراع جديد قديم بين القوى العربية فى المنطقة وقوى البغى والعدوان الآتية من خارج المنطقة تفرض منطق الاستيطان العنصرى المتسربل برداء الدين .

والقدس فى ماضينا القريب كانت رمزاً لصراع بين العرب والقوى الصليبية التى وفدت إلى المنطقة تزرع فيها كياناً دخيلاً ، فما أشبه اليوم بالبارحة !

والمثير للانتباه أن القدس كانت محور الدعوة الصليبية بالأمس ، كما هى محور الدعاوى الصهيونية اليوم . فقد جاء الصليبيون فى أخريات القرن الحادى عشر تحت راية الصليب بدعوى تحرير القدس من العرب المسلمين . وادعوا أن فلسطين أرض الميعاد وأنهم شعب الله المختار الذى اصطفاه للمهمة المقدسة لتحرير ضريح المسيح من المسلمين . ولا غرو فقد ورث المسيحيون العهد القديم (التوراة) بكل ما فيها . وها نحن اليوم نواجه العدوان الصهيونى/ الأمريكى تحت الراية نفسها ، وفى ظل المزاعم ذاتها ، فالصهاينة يزعمون أنهم شعب الله المختار وأن القدس وفلسطين هى الأرض التى وعدهم الرب بها .

وفى غمار الهجمة الصليبية والعدوان الصهيونى على السواء ، ارتكب الأوربيون والأمريكيون – قديماً وحديثاً – أبشع صنوف الجرائم والمذابح وهم يرفعون راية الدين ويتمسحون فى القدس ... مدينة السلام . وبعد أن عرف العرب كيف يواجهون الهجمة الصليبية تحت راية واحدة ، نجحوا فى دحر العدوان الصليبى وقضوا على شراذم القادمين من الغرب الأوربى للاستيطان فى أرض العرب . ولن يستطيع العرب هزيمة الصهيونية وحلفائها من قوى العدوان الأوربية والأمريكية سوى حين يعرفون أن وحدتهم هى الطريق ..

وبينما كانت القدس رمزاً وستاراً للعدوان فى كل من الحركة الصليبية والحركة الصهيونية ، كانت

المدينة المقدسة مركزاً للبناء ، وبؤرة حضارية وثقافية هامة فى الحضارة العربية الإسلامية .

لم تكن القدس بالنسبة للعرب مجرد مدينة على الخريطة ، وإنما كانت بالنسبة لهم أولى القبلتين وثالث الحرمين . ولم تكن القدس فى الحضارة العربية الإسلامية واجهة تخفى النوايا العدوانية ، والمقاصد الهمجية ، والأغراض الاستيطانية ، ولكنها كانت قِبلة للعلماء ، ومقصداً للدارسين ، ومناراً مرشداً لصناع الحضارة من كل مكان ..

فتحت القدس العربية قلبها واستقبلت الحجاج والزوار المسيحيين واليهود طوال عصورها العربية ، ولم ترد حاجاً أو تصد زائراً . وتفتحت عيون القدس العربية للعلوم والمعارف لرفعة بنى الإنسان ورقيهم فكانت مجمعاً للمدارس ومزاراً لكل راغب فى العلم والمعرفة ، وأثبتت القدس العربية على مدى التاريخ إنها مدينة السلام لكل بنى الإنسان .

ولم تعرف القدس التعصب سوى حين احتلها الصليبيون فطردوا منها المسلمين واليهود ، ومات التسامح فى بلد التسامح . وصارت وقفاً على المستوطن الغريب القادم من الغرب الأوربى . ولم تعرف القدس العنف والدمار سوى حين اقتحمها القادمون من أوربا ، واستشهد السلام فى مدينة السلام ، حين جرت سيوف الصليبيين بتلك المذبحة الرهيبة على المسالمين من سكان القدس ؛ مسلمين ويهوداً .

وعاد السلام لمدينة السلام حينما استعادها العرب تحت راية صلاح الدين ، وتدعم السلام حين تم طرد الصليبيين من فلسطين . وعادت مدينة الحب والتسامح تبنى الحضارة وتزرع الثقافة وتعلم الإنسان .

إلى أن كان زمن ردىء . تشرذم فيه العرب ، وتباغضوا ، وتنافروا فسقطت مدينة السلام فى أيدى أعداء السلام . ومرة أخرى عاد التعصب والرعب لمدينة التسامح والسلام ، وداست أقدام الصهاينة تراب المدينة المقدسة ولا تزال .

ولأن الحب والسلام والحق ينتصر دائماً فى النهاية ، فسوف تعود مدينة السلام إلى سابق سيرتها الأولى . ليس بالأمانى ، ولكن بتوحيد الجهد العربى وبمواصلة العمل والكفاح ضد عدونا الحقيقى فى الداخل والخارج .

■ ■ ■

والكتاب الذى بين أيدينا ، يقدم لنا صفحة من صفحات تاريخ مدينة بيت المقدس ؛ حافلة بالمعانى والدلالات الهامة . فهو كتاب يكشف عن القدس « المدينة الحضارة » . يكشف عن القدس العربية فى حياتها السياسية والعلمية والاجتماعية والاقتصادية ويرسم صورة حية لمدينة السلام فى حياتها اليومية فى حقبة غنية بالحركة من تاريخها الطويل الحافل .

هذا الكتاب الذى يحدثنا عن القدس فى عصر سلاطين المماليك (١٢٥٠ – ١٥١٧ م) يرسم لنا صورة متكاملة وحية عن المدينة المقدسة خلال ما يزيد عن قرنين ونصف قرن من الزمان . وهى

دراسة متكاملة تكشف عن مدى ازدهار القدس باعتبارها من مراكز الحركة الثقافية والسياسية الهامة فى ذلك الزمان من ناحية ، كما يوضح ، من ناحية ثانية ، كيف أن الحضارة العربية استخدمت المدينة المقدسة لبناء الحضارة والسلام ، ولم تتخذها ستاراً للعدوان وواجهة للاستيطان مثلما فعل الصليبيون بالأمس وعلى نحو ما يفعل صهاينة اليوم .

والكتاب أطروحة تقدم بها الدكتور على السيد على لنيل درجة الدكتوراة من قسم التاريخ بآداب الزقازيق . واختار المؤلف أن تكون مدينة بيت المقدس محوراً لدراسته التى استهدفت توضيح حقيقة الدور الحضارى للمدينة المقدسة فى إطار الحضارة العربية الإسلامية . وقد اتبع منهجاً تحليلياً يقوم على أساس موضوعى يعالج كل فصل على حدة فى إطار الدراسة كلها . ولم ينزلق إلى منهج السرد التاريخى الكرونولوجى الذى يقوم على أساس ترتيب الحوادث فى سياقها الزمنى وحسب .

ولكن أهم ما يطرحه الكتاب فى تصورى ، هو أنه يكشف للعرب – قبل غيرهم – أن المدينة المقدسة ليست بالنسبة لحضارتنا وماضينا وحاضرنا مجرد مدينة احتلها العدو ، وإنما هى قطعة حية من تاريخنا ، ومعرض حى لإنجازات الحضارة العربية الإسلامية . ولست أعتقد أننى قادر على تقديم صورة متكاملة لجهد استغرق عدة سنوات من الدكتور على السيد على ، ولذا فإن الأفضل أن أترك للقارىء مهمة كشف جوانب هذه الصورة بنفسه .

د . قاسم عبده قاسم
أستاذ ورئيس قسم التاريخ
آداب الزقازيق

مقدمة المؤلف

لعله ليس من بين بلدان الدنيا بلد يحق لها أن تفاخر غيرها بما حوته من مقدسات كمدينة بيت المقدس ، فهي موطن كثير من الأنبياء والرسل . يقول عنها القزويني « وهي المدينة المشهورة التي كانت محل الأنبياء وقبلة الشرائط ومهبط الوحي .. وما فيه من موضع شبر إلا وصلى فيه نبي أو قام فيه ملك ..[1] » كذلك يروى لنا ابن الجوزي أن الكثير من المحدثين يجمعون على أن الله عز وجل منذ خلق آدم إلى الدنيا لم يبعث نبياً إلا جعل قبلته صخرة بيت المقدس ، وقد صلى إليها نبينا ﷺ[2] . لذا فهي مهوى أفئدة المسلمين وقرة أعينهم ، هذه المدينة التي يقدسها المسلمون مقدسة أيضاً عند المسيحيين .

ففيها كثير من الأماكن المقدسة التي ترتبط بتراث المسيحيين مثل كنيسة القيامة ، حيث يحج إليها المسيحيون من مختلف الأقطار ، وبها كنيسة صهيون التي يقال أن المائدة نزلت على سيدنا عيسى عليه السلام والحواريين بها ، بل إن المسيحيين الغربيين كانوا يعتقدون فى العصور الوسطى بوجه خاص أن زيارة بعض الأماكن بها قد تهب التحلل والتوبة من الذنوب[3] .

وما زال اليهود يزعمون نسبة بعض الأماكن بها إلى كثير من أجدادهم الأول . وحسب هذه المدينة أن اجتمعت فيها مقدسات الأديان السماوية الثلاثة ، وشهدت أرضها آثاراً لموسى وعيسى ومحمد عليهم جميعاً صلوات الله وسلامه ، الأمر الذى جعل هذه المدينة تحظى بعناية بعض الكُتاب والمؤرخين ، لدرجة أن ما كتب عنها من الفضائل يفوق ما كُتب عن غيرها من المدن الأخرى .

وهكذا حظت مدينة بيت المقدس بمكانة خاصة فى جميع أنحاء العالم قديمه وحديثه بالرغم من أنه ليس لها كثير من الخواص الطبيعية التى تحالف المدن الكبرى ، فهى لا تقع على مجرى مائى عظيم ، ولا هى ميناء ، ولا هى واقعة على طريق رئيسى أو عند ملتقى عدة طرق ، كما أن أراضيها بركانية فلا

---

(١) آثار البلاد وأخبار العباد ، نشر دار صادر بيروت ١٩٦٠ ص ١٥٩ - ١٦٠

(٢) فضائل القدس ، بيروت ١٩٨٠ ، ص ١١٤

(٣) رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ترجمة د . السيد الباز العريني بيروت ١٩٦٩ جـ ١ ، ص ٧١

يصلح الكثير منها للزراعة التى كانت عنصراً رئيسياً فى قيام كثير من الحضارات القديمة . ومع هذا فهى تعتبر من قديم الزمان ذات مركز دينى أكثر منها ذات وضع سياسى .

ومع انتشار المسيحية والاعتراف بها فى أوائل القرن الرابع الميلادى ، صار فى وسع المسيحيين فى مختلف الأقطار أن يرتحلوا إلى الأرض المقدسة وأضحى من شعائرهم الدينية زيارة بيت المقدس من أجل العبادة والعظة والعبرة ، وهكذا حتى ازداد نفوذ الكنيسة الغربية وعندئذ حرصت على فرض سيطرتها على تلك الأماكن المقدسة ، وعلى ضم أبناء الكنيسة الشرقية لنفوذها ، واتخذت من الحروب الصليبية وسيلة لتحقيق أطماعها هذه ، حتى تم استيلاء الصليبيين على بيت المقدس سنة ٤٩٢ هـ/ ١٠٩٩ م وظلت تحت حكم الصليبيين حتى استردها السلطان صلاح الدين الأيوبى عام ٥٨٣ هـ/ ١١٨٧ م عقب معركة حطين الشهيرة .

وبعودة المدينة إلى الحظيرة الإسلامية عقب الفتح الصلاحى لها ، وبتوقيع معاهدة الرملة بين صلاح الدين وريتشارد قلب الأسد عام ١١٩١ م ، ساد المدينة نوع من الاستقرار النسبى ، لكن هذا الاستقرار لم يتم له الدوام فى عهد خلفاء صلاح الدين من بنى أيوب ، وبخاصة من أبناء الملك العادل الأيوبى ، مما ترتبت عليه نتائج خطيرة بالنسبة لمدينة بيت المقدس بحيث غدت كالكرة تتلاقفها أيدى المسلمين تارة ، وأيدى الصليبيين تارة أخرى .

ومع قيام دولة سلاطين المماليك فى مصر فى منتصف القرن السابع الهجرى ، الثالث عشر الميلادى ، تعرضت بلاد الشام لخطر الغزو المغولى ، وما تلا ذلك من انتصارات المماليك على المغول فى عين جالوت ١٢٦٠ م ، مما أدى إلى إنقاذ بيت المقدس من براثن هؤلاء الغزاة الوثنيين ، وبذلك نجت المدينة من التخريب والإحراق وانتهاك مقدسات الإسلام والمسلمين .

ومهما يكن من أمر فإن ظهور المماليك على مسرح الأحداث السياسية فى تلك الفترة ، وما ترتب عليها من قيام دولتهم بالدفاع عن الكيان الإسلامى ضد الخطر المغولى والخطر الصليبى ، فضلاً عما أحاط بظروف نشأة هؤلاء المماليك وما لمسوه من نظرة المعاصرين لهم بسبب أصلهم غير الحر ، إلى جانب أنهم اغتصبوا الحكم من سادتهم بنى أيوب ، مما كان له أكبر الأثر فى رسم سياسة المماليك ، تلك السياسة التى انعكست آثارها على أوضاع مدينة بيت المقدس ممثلة فى شقيها الحربى والدينى . وعلى هذا الأساس يمكننا القول إن عصر سلاطين المماليك يمثل مرحلة جديدة تماماً فى تاريخ مدينة بيت المقدس ، لها طابعها الخاص الذى يتصف بالأمن والاستقرار ، وهو ما لم يتوفر للمدينة فى العهد الأيوبى ، فضلاً عن الثراء والازدهار ، مما جعل من المدينة مرة أخرى عنصراً إيجابياً وفعالا فى الحياة الإسلامية .

والله أسأل أن أكون قد وفقت فى إبراز بعض مظاهر الحياة فى مدينة من أكثر المدن قدسية فى عصر سلاطين المماليك والله ولى التوفيق .

دراسة للمصادر الخاصة بهذا البحث

تتناول هذه الدراسة بعض المصادر التى تحدثت عن مدينة بيت المقدس فى عصر سلاطين المماليك . وحسب هذه المدينة أن اجتمعت فيها مقدسات الأديان السماوية الثلاثة ، مما جعلها تحظى بعناية كثير من الكُتاب والمؤرخين ، كذلك كانت لها جاذبيتها الخاصة عند مثقفى ذلك الزمان ، كما كان لها عشاقها الكثيرون وخاصة بعد تلك الغيبة الطويلة التى انتزعت فيها من بين أحضان الدولة الإسلامية الأم فترة الحكم الصليبى التى قاربت مائة عام . أضف إلى ذلك أن أحوال العالم الإسلامى المتدهورة فى المشرق والمغرب ، نتيجة لاستيلاء المغول على بلاد ماوراء النهر والعراق وإيران ؛ ولحركة الاسترداد التى شنتها القوى المسيحية ضد مسلمى الأندلس ، مما شجع الكثير من العلماء على الهجرة إليها والاستقرار بها كواحدة من الحواضر العربية الإسلامية المزدهرة فى عصر سلاطين المماليك ، تلك الحواضر التى غدت بمثابة الحصن الأخير للحضارة العربية الإسلامية ؛ بحيث تجمع فيها العلماء من شتى البلدان ، مثل العراق ، وإيران ، وتركستان ، وبلخ وشيراز ، واذربيجان ، وهراة وقرمان ، والمغرب والأندلس ، واليمن ؛ بل إن الكثيرين من كبار العلماء فى العصر المملوكى فضلوا الإقامة بها على غيرها من حواضر الدولة المملوكية .

ولقد ارتأيت فى كتابة هذه الدراسة طريقة الالتزام بما توفر لدىّ من معلومات ، والاعتماد عليها اعتمادا مباشراً فى تدوين تاريخ مدينة بيت المقدس فى ذلك العصر وهو عصر سلاطين المماليك ؛ ذلك لأن العودة إلى ينابيع التراث ضرورة تفرضها هموم اليوم فى محاولة لتأصيلها ، دون أن تكون هذه العودة شغفاً بهذا الماضى المجيد ، بل وعياً به وشحذا لعواطف وإثارة لنفوس دب فيها اليأس — ولو إلى حين — فى مواجهة عدو عنصرى لايرحم ، ولا يستحى فى السطو على تاريخ أمتنا العربية ، واستجلابه تاريخاً كاذباً يدعم به سيطرته وهيمنته على أرضنا العربية فى فلسطين وفى قلبها القدس الشريف . ولأن دور التاريخ دور بارز فى إنهاض الأمم وتذكيرها بماضيها وتبصيرها بحاضرها لأنه سجل الحياة ، يحكى قصتها ، ويصور صراعها الدائم فى سبيل الكمال ، ويقص تجربتها ، وما انطوت عليه أعمالها من خطأ وصواب ، رائده تقصى الحقيقة فى كل ما يصدر ويقول ، لذا سنلجأ للتاريخ

لكى يصور لنا جوانب الحياة المختلفة فى مدينة بيت المقدس فى عصر سلاطين المماليك .

والحقيقة أن التراث التاريخى فيما يتعلق ببيت المقدس يضم العديد من المؤلفات فى شتى مجالات المعرفة وأنواع العلوم ، وفى بحثنا هذا عن بيت المقدس فى عصر سلاطين المماليك اعتمدنا على أكثر من خمسين من المصادر العربية منها المخطوط ومنها المطبوع ، بخلاف العديد من المصادر الأجنبية المسيحية واليهودية منها ؛ بالإضافة إلى كثير من المراجع الحديثة العربية والأجنبية ، والتى تضمنتها القائمة الخاصة بمصادر ومراجع البحث الملحقة بآخر هذا البحث . ولقد وجدنا أن من العسير أن نتناول بالتحليل كل مصدر من هذه المصادر المختلفة مراعاة لطبيعة البحث ، وعلى هذا الأساس قسمنا هذه المصادر إلى مجموعات مختلفة ، منها بعض الوثائق التى تعنى بمجتمع بيت المقدس فى تلك الفترة ، والتى تصور العديد من جوانب حياته ؛ ثم تأتى بعد ذلك مجموعة المصادر التى تتحدث عن جانب واحد من جوانب الحياة مثل الجانب الاقتصادى ، ثم المصادر التى خصصها مؤلفوها للحديث عن عصر من العصور التاريخية أو أسرة حاكمة ، مثل العصر الأيوبى والعصر المملوكى ، ثم المؤلفات الشاملة التى تتحدث عن العديد من أنواع المعارف الموسوعية ، تليها المؤلفات التى تختص بالتاريخ المحلى للمدينة فقط ، ثم الحوليات التاريخية العامة والتى جاء بها ذكر المدينة بشكل عارض أو خصص مؤلفوها جزءاً من حديثهم للمدينة ، وأخيراً تأتى مجموعة الرحلات . وعلى أساس هذا التقسيم سوف نورد بعض الأمثلة لكل نوع من أنواع هذه المصادر .

والحقيقة أن الاطلاع على الوثائق يبدو على جانب كبير من الأهمية ، وخاصة إذا وضعنا فى اعتبارنا أن المصادر التقليدية من مخطوطات وكتب مطبوعة ، لم تعد كافية للبحوث الحديثة ، ذلك لأن الاطلاع على الوثائق يضيف إضافات متميزة إلى ما ورد فى تلك المصادر التقليدية ، وبخاصة فيما يتعلق بالجوانب الاجتماعية والاقتصادية والثقافية . ويهمنا أن نشير إلى أن من بين هذه الوثائق التى اطلعنا عليها تلك الحجة الشرعية الخاصة بالأوقاف التى أوقفها السلطان الأشرف قايتباى على مدرسته بالقدس والجامع بغزة ، وهى محفوظة بأرشيف وزارة الأوقاف بالقاهرة تحت رقم ٨٨٧ ، والمؤرخة بتاريخ الحادى والعشرين من شهر شوال سنة إحدى وثمانين وثمانمائة للهجرة . وترجع أهميتها إلى أنها بعد أن عينت حدود المدرسة الأشرفية بالقدس ، وذكرت الأوقاف التى حبسها السلطان عليها ، نراها توضح بعد ذلك الوظائف المختلفة الخاصة بتلك المدرسة ، ومرتب كل منها بالدراهم فى الشهر . فضلاً عن أن وثيقة الوقف هذه كانت بمثابة اللائحة التنفيذية والأساسية ، والتى تضم الأسس التى يجب أن تراعى فى العملية التعليمية ، والشروط الواجب توافرها فى القائمين عليها .

وإذا كانت وثيقة المدرسة الأشرفية تعتبر الوحيدة التى تنص بالكامل على منشآت أقامها أحد السلاطين المماليك بفلسطين ، فإن بين أيدينا الآن وقفية الأمير سيف الدين تنكز أحد كبار أمراء المماليك ، والذى تولى نيابة السلطنة بدمشق فى عهد الملك الناصر محمد بن قلاوون ، فى الفترة من سنة ٧٢١ هـ إلى ٧٤٠ هـ . وتقدم وقفية الأمير سيف الدين تنكز معلومات هامة عن بعض المنشآت الدينية والخيرية والاجتماعية التى أقامها فى القدس وفلسطين ، منها المدرسة التنكزية بالقدس

الشريف ، ورباط للصوفية ، وحمامان هما المعروفان الآن بحمام العين وحمام الشفا فى سوق القطانين بالقدس ، وكذلك المطهرة أو المتوضأ وغيرها من المنشآت الأخرى . وجدير بالذكر أن هذه الوثيقة بعد وصفها لتلك الأوقاف ، تتحدث بالتفصيل عن المدرسة وأقسامها وصفة العاملين بها والشروط الواجب توافرها فيهم ، كما تحدد لنا واجبات كل منهم ، بالإضافة إلى المبالغ التى كانت تصرف لهم ، وكذلك المبالغ التى كانت تصرف لضيافة الصوفية من الرجال والنساء ، إلى جانب غير ذلك من المعلومات التى تهم الباحثين فى تاريخ بيت المقدس فى ذلك العصر .

وتجب الإشارة إلى أن الأستاذ الدكتور كامل جميل العسلى قد قام بنشر هذه الوثيقة ضمن مجموعة من الوثائق الأخرى فى المجلد الأول من كتابه بعنوان « وثائق مقدسية تاريخية » ، ولا يفوتنى أن أتوجه لسيادته بجزيل شكرى لتفضله بإهدائى نسخة منه فور اتصالى به لهذا الغرض ، هذا إلى جانب العديد من الوثائق التى قام الأستاذ الدكتور محمد عيسى صالحية بنشرها فى حولية كلية الآداب فى عددها السادس عام ١٩٨٥ م ، وهى من وثائق الحرم القدسى الشريف ، والتى نأمل أن تتاح الفرصة لكل الباحثين فى التاريخ للاطلاع عليها .

ومن المصادر التى تخصصت فى دراسة جانب واحد من جوانب المعرفة يأتى كتاب « نزهة النفوس فى بيان التعامل بالفلوس » ، لمؤلفه عالم الرياضيات شيخ الإسلام شهاب الدين أبو العباس أحمد المشهور بابن الهائم « ت ٨١٥ هـ/ ١٤١٢ م » . وله العديد من المؤلفات فى علوم الحساب والجبر والمقابلة والهيئة وغيرها من العلوم ، لكن مؤلفه هذا قد أمدنا بكثير من المعلومات عن الحياة الاقتصادية فى القدس ، وبخاصة المعاملات المالية المختلفة التى كانت مستخدمة فى المدينة آنذاك ، وما طرأ عليها من تعديل ، وما تبع ذلك من اضطراب فى الأحوال الاقتصادية نتيجة للتضارب فى قيمة النقد المستخدم عندئذ ، مما دعاه إلى كتابة تلك المخطوطة ، لكى يستعين بها كل من يهمه الأمر فى عقود البيع والشراء ، وفى المعاملات اليومية ، وكذلك فى شروط الأوقاف وعقود الزواج ، وكيفية حساب الزكاة من الذهب والفضة . وقد عاش هذا المؤلف بنفسه فى مدينة القدس منذ عام ٧٩١ هـ ، وقام بتأليف هذه المخطوطة فى القدس عام ٨٠٣ هـ ، وتقع فى إحدى وستين صفحة من ذات القطع المتوسط ، قسمها إلى خمسة أبواب ، وهى موجودة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٥٨٧١ .

كذلك له مخطوطة أخرى تحت اسم « المناسخات » ، يتحدث فيها عن كيفية توزيع التركات ، والفصل بين الورثة وخاصة إذا تعددت مصادر إرثهم ، ويعتبر ابن الهائم من الرواد فى هذا المجال ، إذ يذكر أنه تعلم هذا الفن من أستاذه أبى الحسن الحلاوى رحمه الله ، ولم ير ذلك مسطوراً فى مصنف من قبل ، وقد أوضح فيه لطلبته كيفية الفصل فى المشكلات التى تعترضهم باستخدام الجداول الرياضية ، حيث عرض لهم عدة جداول لحالات مختلفة من الأشخاص الذين اختلفت مصادر إرثهم وتضاربت ، وقام بحل تلك الحالات باستخدامه للجداول المختلفة التى أوردها . والمخطوطة تتكون من عشرين ورقة ذات القطع المتوسط ، وفى كل ورقة منها سجل العديد من الجداول الرياضية المختلفة

التى يمكن الاستعانة بها فى هذا الغرض ؛ وهى محفوظة أيضاً بدار الكتب المصرية تحت رقم ب ٢٣٢٠٥ ؛ وهى إن دلت على شيء فإنما تدل على أن ذلك العصر لم يكن كما يصفه البعض من أنه كان عصر جمود فكرى ، اقتصر فيه جهد العلماء على مجرد النقل أو الشرح أو التلخيص ، بل هو عصر ابتكار ونبوغ فكرى . ويندرج تحت هذا النوع من المصادر كتاب « عيون الأنباء فى طبقات الأطباء » لموفق الدين أبى العباس أحمد بن أبى أصيبعة المتوفى سنة ٦٦٨ هـ .

ومن المصادر التى اهتمت بالحديث عن فترة زمنية موحدة أو أسرة حاكمة يأتى كتاب « مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب » لمؤلفه ابن واصل « جمال الدين محمد بن سالم ت ٦٩٧ هـ » ، وترجع أهمية هذا المصدر إلى أن مؤلفه كان معاصراً لكثير من الأحداث ، وبخاصة ما ساد أبناء البيت الأيوبى من خلافات ووحشة وعداء وحروب ، وما كان من أثر تلك الأحداث على أوضاع بيت المقدس والمسلمين بها ، وهو فى روايته لتلك الأحداث يرويها كشاهد عيان ، فضلاً عن أنه فى بعض المعلومات التى ذكرها ولم يشهدها بنفسه يروى أنه سمعها من رجال مسئولين ممن يحتلون مكانة خاصة فى العصر الأيوبى ، هذا فضلاً عن كبار القضاة والعلماء والمعاصرين الذين جالسهم واستمد منهم معلوماته . وهو كتاب لا غنى عنه فى التاريخ بصفة خاصة لأحوال بيت المقدس عقب الفتح الصلاحى لها ، وهو من كتب التاريخ التى خصصها مؤلفوها للحديث عن أسرة صلاح الدين الأيوبى ، وكيفية وصوله للحكم وتكوينه دولة موحدة مترامية الأطراف ، واتخاذه من الجهاد وسيلة لتدعيم الأساس الذى قامت عليه دولته لمواجهة أخطر أعداء الإسلام والمسلمين وهم الصليبيون ، ومن خلال سياسة الجهاد يذكر حروب صلاح الدين ضد الصليبيين ، ومعركة حطين واسترداد بيت المقدس ، ثم العناية بها وإقامة كثير من المؤسسات الدينية والخيرية والاجتماعية بها ، وتحصينها . ثم يذكر طوائف السكان بها ، وكيف أن السلطان صلاح الدين الذى عرف بسماحته وعدم تعصبه سمح لليهود بسكنى المدينة بل وفلسطين بعد أن خلت منهم فى فترة الحكم الصليبى ، كما سمح لهم ببناء مدارس ودور عبادة .

ويندرج تحت هذا النوع من المؤلفات كتب كل من : العماد الأصفهانى « ت ٥٩٧ هـ » وهى « سنا البرق الشامى » و « الفتح القسى فى الفتح القدسى » ؛ وابن شداد ت ٦٣٢ هـ « كتاب سيرة صلاح الدين الأيوبى المسماة بالنوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية » ، وأبو شامة ت ٦٦٥ هـ « كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين » و « الذيل على الروضتين » ، وابن عبد الظاهر ت ٦٩٢ هـ « الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر » ، « تشريف الأيام والعصور فى سيرة الملك المنصور » ، وابن أيبك الدواداری ت ٧٣٤ هـ « الدرة الزكية فى أخبار الدولة التركية » ، « الدر الفاخر فى سيرة الملك الناصر » ، وابن حبيب ، الحسن بن عمر ت ٧٧٩ هـ « تذكرة النبيه فى أيام المنصور وبنيه » ، والمقريزى ، أحمد بن على ت ٨٤٥ هـ « كتاب السلوك فى معرفة دول الملوك » ، وابن حجر العسقلانى ت ٨٥٢ هـ « إنباء الغمر بأنباء العمر » و « الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة » ، والبدر العينى ت ٨٥٥ هـ « السيف المهند فى سيرة الملك المؤيد » ، وابن تغرى بردى ت ٨٧٤ هـ « النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة » ، وابن طولون الصالحى ت ٩٥٣ هـ « إعلام الورى بمن

ولى نائباً من الأتراك بدمشق الكبرى » و « مفاكهة الخلان فى حوادث الزمان » ، وغيرها من المصادر العديدة .

وكنموذج للمؤلفات الشاملة يأتى « كتاب مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار » لمؤلفه ابن فضل الله العمرى ، شهاب الدين أحمد القدسى الأصل ، كاتب السر بالديار المصرية (ت ٧٤٩ هـ / ١٣٤٨ م) . وترجع أهمية هذا المصدر إلى أنه شمل معارف وعلوماً عديدة ، مع أن عنوانه يعطى انطباعاً بأنه من كتب الجغرافية ، إلا أنه يعتبر بحق موسوعة علمية ، إذ يشتمل على معلومات فى الأدب والديانات والتاريخ والآثار ، فضلاً عن المعلومات الوافرة المتعلقة بالحياة الاجتماعية ، والأقليات الدينية ، وعلاقتها الرسمية بالدولة . وعلى عادة كُتاب تلك العصور نجد العلوم تمتزج بالآداب . ومن الواضح أن موقع ابن فضل الله العمرى كواحد من رجال الإدارة فى العصر المملوكى ، وعمله فى ديوان الإنشاء هو الذى حدا به إلى اختيار الموضوعات التى عالجها فى هذه الموسوعة التاريخية الجغرافية الأدبية ، لكى تكون مرجعاً عاماً لمن يشتغل بالكتابة فى ديوان الدولة المملوكية . ولقد أمدنا الكتاب بكثير من المعلومات ، حيث تطرق فيه لذكر مدينة بيت المقدس ضمن فصل عنوانه : « باب عن مملكة مصر والشام والحجاز » ، وقد أفدنا من كتاباته فى مجال اهتمام سلاطين وأمراء المماليك بالمدينة ، كما ذكر معلومات هامة عن جغرافية المدينة ومدارسها وأربطتها وحماماتها وموارد المياه فيها .

ويندرج تحت هذا النوع من المؤلفات أيضاً كتاب « صبح الأعشى فى صناعة الإنشا » لمؤلفه أبو العباس أحمد بن على القلقشندى ت ٨٢١ هـ . وكذلك كتاب ابن شاهين ، غرس الدين خليل ت ٨٧٣ هـ « كتاب زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك » . وياقوت الحموى ت ٦٢٦ هـ « معجم البلدان » .

كذلك يأتى كتاب « الأنس الجليل فى تاريخ القدس والخليل » كمثال لكتب التراث التى تخصصت فى التاريخ المحلى أو فى الحديث عن مدينة بعينها ، ومؤلفه هو مجير الدين الحنبلى ت ٩٢٨ هـ ، أحد أبناء بيت المقدس ، وكان معاصراً للفترة الأخيرة من حكم سلاطين المماليك ، وتميزت كتاباته بعدم التصنع ، ونعنى بذلك أنه لم يكتب هذا التاريخ حباً فى استجلاب الرضا عند سلطان أو أمير ، كما لم تكن كتاباته ذيولاً وتكملات لكتب سبقته زمنياً ، حيث يذكر فى مقدمة كتابه هذا ، الأسباب التى دفعته لتأليفه هذا الكتاب بقوله : « وإنما دعانى لذلك أن غالب بلاد الإسلام قد اعتنى بها الحفاظ وكتبوا ما يتعلق بتاريخها مما يفيد أخبارها الواقعة من الزمن السابق ..... ورأيت الأنفس متشوقة إلى شىء من هذا النمط الذى قصدت فعله ..... » . ويعتبر كتابه هذا موسوعة تاريخية لمدينتى بيت المقدس والخليل ، ضمت التاريخ والسير ، والعلم والأدب والمقدسات فى العصرين الأيوبى والمملوكى . وفى مجال الحياة الاقتصادية فقد أمدنا بمعلومات قيمة عن الأسواق والخانات والقياسر ، وما كان يحدث من اضطراب فى الحياة الاقتصادية وأسبابه ، إلى جانب التركيبة السكانية والطوائف المختلفة بها ، والعلاقات بينها . كما تجب الإشارة إلى أنه كان معاصراً للسلطان الأشرف قايتباى ، وذكر لنا الأحداث التى وقعت لنا فى فترة حكمه ابتداء من سنة

٨٧٢ هـ إلى سنة ٩٠٠ هـ كشاهد عيان ، وبذلك انفرد بذكره لكثير من المعلومات عن هذه الفترة فيما يختص ببيت المقدس ، وقد أوردنا كثيراً منها فى بحثنا هذا .

ويندرج كتاب الواسطى ، أبو بكر محمد بن أحمد من علماء القرن الخامس الهجرى « فضائل بيت المقدس » تحت هذا النوع من المصادر ، كذلك كتاب الشيخ أبى فرج ابن الجوزى ت ٥٩٧ هـ « فضائل القدس » ، وابن سرور المقدسى ت ٧٦٥ هـ « مثير الغرام بفضائل القدس والشام » .

ومن أمثلة الحوليات التاريخية العامة المطبوعة يأتى كتاب « الكامل فى التاريخ » لمؤلفه ابن الأثير ، الشيخ عز الدين أبى الحسن على ت ٦٣٠ هـ ، والذى يقع فى اثنى عشر جزءاً ، اعتمدنا فيها على الجزءين الحادى عشر والثانى عشر . وترجع أهمية هذا الكتاب بالنسبة لهذا البحث فى أن مؤلفه كان معاصراً لفتح السلطان صلاح الدين الأيوبى لمدينة بيت المقدس ، وأنه وإن أورد بعض المعلومات المبسطة خلال ذكره للفتح إلا أننا قد أفدنا منها كثيراً ، وبخاصة فى حديثه عن الطوائف المسيحية المحلية فى المدينة واستقرارهم بها عقب الفتح ، وكذلك فى حديثه عن اهتمام السلطان صلاح الدين بالمدينة وإقامته لكثير من المنشآت بها عقب الفتح ، وتقويته لأسوارها لتحصينها فى مواجهة الخطر الصليبى ، إلا أنه يؤخذ عليه أنه أوجز بشكل ملحوظ فيما كان ينبغى فيه الإطالة ، وهذا راجع إلى حقد ابن الأثير على صلاح الدين باعتبار أنه سلب السلاجقة ملكهم ، وهم الذين يدين لهم ابن الأثير بالولاء .

ويندرج تحت هذا النمط كتاب « المختصر فى أخبار البشر » و « تاريخ أبى الفدا » للمؤلف أبى الفدا ، الملك المؤيد اسماعيل الذى توفى سنة ٧٣٢ هـ . وكذلك كتاب « البداية والنهاية فى التاريخ » لابن كثير الذى توفى سنة ٧٧٤ هـ ، كذلك كتاب « تاريخ ابن خلدون » لمؤلفه ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد بن محمد الذى توفى سنة ٨٠٨ هـ .

وأخيراً تأتى كتب الرحالة والحجاج المسيحيين واليهود ، التى دونوها عند زيارتهم لبيت المقدس . فقد كتب بعضهم ذاكراً ما شاهده فى المدينة من عمران ، كما وصف الحياة الاجتماعية فيها ، والعلاقات بين مختلف الطوائف الدينية بها ، بالإضافة إلى جغرافية المدينة . وإلى هذا الصنف من المصادر يرجع الفضل فى ذكر أكثر ما يتعلق بالحياة الدينية والاجتماعية التى كان يحياها كل من اليهود والنصارى ، وتزيد قيمة هذه المصادر عندما نعلم أن المصادر العربية لم تهتم فى غالب الأحيان بذكر نشاط غير المسلمين فى القدس .

ويجب ألا يغرب عن بالنا أن أجهزة الدعاية الصهيونية حاولت وتحاول عن طريق التشويه المستمر للتاريخ العربى ، أن تختلق دوراً تاريخياً لجماعة اليهود التى استقرت فى المدينة عقب الفتح الصلاحى ، لذلك فقد أعطينا ما أورده الرحالة اليهود الذين زاروا بيت المقدس فى عصر سلاطين المماليك عناية خاصة ، أمثال الرحالة اليهودى « نحمانيدس » الذى زارها سنة ١٢٦٧ م ، وكذلك الرحالة « موشلام الفولتيرى » الذى زارها سنة ١٤٨١ م ، وكذلك الرحالة « عوبديا » الذى زارها سنة

١٤٨٨ م ، واتضح لنا بما لا يدع مجالاً للشك عدم صحة تلك المزاعم ، مع رسم صورة واقعية لوضعهم الحقيقي بلا أى تعصب أو تحيز يتنافى مع المنطق والتاريخ .

ومن بين كتب الرحالة الأجانب اخترنا كتاب الرحالة « بركارد » Burchard of Mount Sion الذى وصل إلى الشرق سنة ١٢٣٢ م ، وعاش فترة فى بيت المقدس ، حيث يقال أنه قضى عشر سنوات فى جبل صهيون . ويمتاز كتابه بعنايته بالآثار ، ودقة وصفه لطبوغرافية المدينة ، وقد ترجم كتابه من اللغة اللاتينية إلى الانجليزية عام ١٨٩٦ م تحت عنوان : A Description of the Holy land.

كذلك من كتب الرحالة الهامة يأتى كتاب « جوسى وفريسكو بالدى » الذى نشر تحت اسم A visit to the Holy Places ، وقد تمت هذه الزيارة عام ١٣٨٤ م ، وتضمنت الكثير من المعلومات التى لفتت أنظار الرحالة لعدم رؤيتها فى الغرب ، وهى معلومات تهم كل الباحثين فى تاريخ فلسطين بوجه عام وبيت المقدس بوجه خاص ، وقد أمدنا هذا الكتاب بمعلومات على جانب كبير من الأهمية عن المعاملات المالية ، وتكاليف الرحلة إلى بيت المقدس ، والمبالغ التى كان يتم دفعها عند زيارة كل مكان من الأماكن المقدسة المسيحية ، إلى جانب أسعار بعض السلع ، فضلاً عن الطوائف المسيحية المختلفة التى وجدت فى القدس فى ذلك العصر .

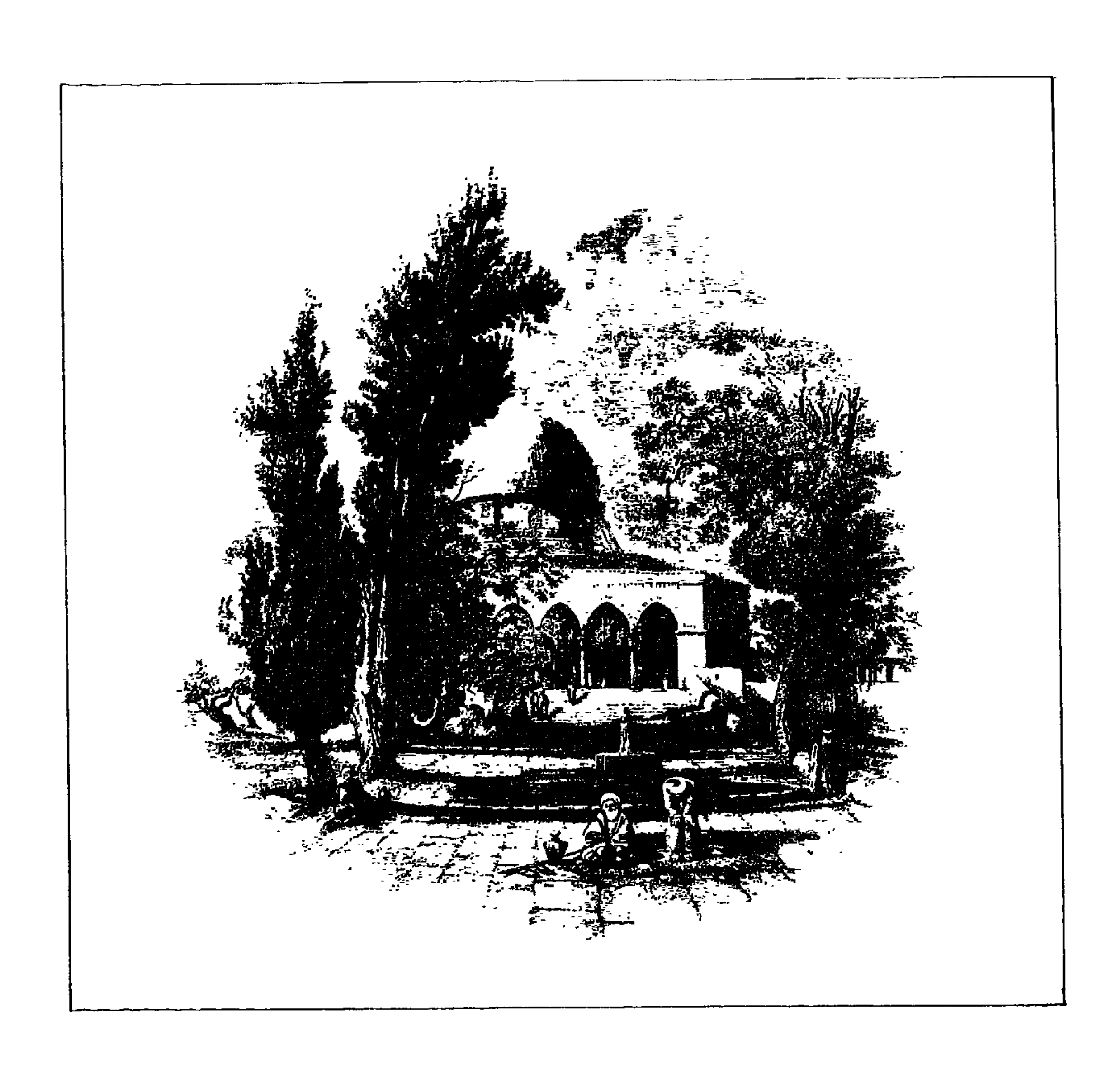
كذلك تأتى رحلة « فيلكس فابرى » ، الذى زار بيت المقدس مرتين عام ١٤٨٠ م ، ١٤٨٣ م ، وفى زيارته الثانية عاش فترة فى المدينة ، مشاهداً فيها لكثير من معالمها ، وقد دون ملاحظات قيمة عن الحياة التعليمية لدى المسلمين ، والطوائف المسيحية بالمدينة وبخاصة طائفة الرهبان الفرنسيسكان ، وكذلك تحدث كثيراً عن اليهود ، فضلاً عن أنه ذكر كثيراً من المعلومات عن الحياة الاقتصادية فى ذلك العصر ، وما كان يقوم الحجاج المسيحيون بشرائه من أسواق المدينة فى رحلة العودة إلى الغرب الأوربى ، أو عند استعدادهم للتوجه لزيارة دير سانت كاترين ، كما أمدنا بصورة واقعية وحية عن الأماكن المسيحية المقدسة فى الربع الأخير من القرن الخامس عشر الميلادى ، وعن حياة البدو وأحوالهم الاقتصادية ، كما تحدث عن العلاقة بين الحكام المسلمين وأبناء الطوائف المسيحية .

كانت هذه إشارة لبعض نماذج للمصادر التى اعتمدنا عليها فى دراستنا للجوانب المختلفة لهذا البحث ، إلا أن القارىء لهذا البحث سيجد العديد من المصادر الهامة ، والتى تلقى كثيراً من الضوء على شتى جوانب الحياة فى مدينة بيت المقدس على عصر سلاطين المماليك ، والله أسأل أن أكون قد وفقت فيما ذهبت إليه وهو نعم العون ونعم النصير .

د . على السيد على

الفصل الأول

الحياة السياسية في مدينة بيت المقدس



تمهيد

قبل الشروع فى الحديث عن مدينة بيت المقدس تحت حكم سلاطين المماليك لابد لنا من وقفة نستعرض فيها كيف كان تفكك الدولة الأيوبية – التى كانت ترتكز إلى شخصية صلاح الدين الأيوبى – عاملاً من عوامل عدم الاستقرار فى مدينة بيت المقدس ، وكيف أن الصراع الإسلامى/ الصليبى من ناحية ، والصراع الأيوبى/ الأيوبى من ناحية أخرى قد أثرا على استقرار الحياة فى المدينة ، ثم ظهور المماليك كقوة تدافع عن الإسلام ورسوخ قيمة سلطنة المماليك كقوة ضاربة تدافع عن الإسلام والمسلمين وما تلاه من خضوع الأيوبيين فى الشام لسلطانهم ، وكيف أدى ذلك إلى خضوع بيت المقدس لهم ، بالإضافة إلى أهمية المدينة فى السياسة المملوكية التى اعتمدت على القوة العسكرية والواجهة الدينية ، ثم رصد مظاهر هذا الاهتمام .

من المعروف أن مدينة بيت المقدس عادت إلى الحظيرة الإسلامية بعد فتح صلاح الدين الأيوبى لها عام ٥٨٣ هـ/ ١١٨٧ م عقب معركة حطين[١] . كما أن اتفاقية الرملة بين صلاح الدين وريتشارد قلب الأسد عام ٥٨٧ هـ/ ١١٩١ م أدت إلى حالة من الاستقرار النسبى فى المدينة[٢] ، إلا أن هذا الاستقرار لم يدم طويلاً فى عهد خلفاء صلاح الدين مما ترتبت عليه نتائج خطيرة بالنسبة لمدينة بيت المقدس[٣] ، ويرجع ذلك إلى الصراع الذى نشب بين أبناء البيت الأيوبى المالك ، بسبب اعتبار المملكة إرثاً خاصاً يقسم أنصبة متساوية وغير متساوية بين أبناء البيت الأيوبى ، ولحرص صلاح الدين الأيوبى على أن تكون أهم أقاليم المملكة لأبنائه دون غيرهم ، وأن تكون لبقية أبناء البيت الأيوبى بقية الأقاليم ذات الأهمية الثانوية[٤] ، هذا الصراع الذى أدى إلى نشوب كثير من الحروب والفتن بين أبناء البيت الأيوبى[٥] .

وفى الوقت الذى اشتد فيه الصراع بين أبناء صلاح الدين وتناوب على حكم مدينة بيت المقدس الملك الأفضل صاحب دمشق ثم الملك العزيز صاحب مصر ، مما كان له أثر على استقرار المدينة نتيجة لانتقال تبعيتها من حاكم لآخر[٦] من أبناء صلاح الدين ، وعقب استيلاء الملك العادل أخى صلاح الدين على مصر سنة ٥٩٦ هـ/ ١١٩٩ م بقيت بيت المقدس تحت حكم العادل حتى وفاته سنة

٦١٥ هـ/ ١٢١٨ م ، وبموت العادل عادت مدينة بيت المقدس تابعة لابنه المعظم عيسى صاحب دمشق حتى سنة ٦٢٥ هـ/ ١٢٢٨ م حيث استولى عليها الملك الكامل محمد ابن العادل صاحب مصر[٧] .

وفى وسط تلك الفوضى الضاربة التى عمت العلاقات بين حكام المسلمين فى مصر والشام من أبناء البيت الأيوبى ، حرص كل حاكم على تكوين عصبية لنفسه يعتمد عليها فى الاحتفاظ بإمارته أو فى صد عدوان جيرانه ، وذلك عن طريق الإكثار من المماليك أو الرقيق الأبيض ، فاشتروا منهم أعداداً كبيرة ، وعنوا بتدريبهم وتنشئتهم ليكونوا لهم عدة وسنداً[٨] . والحقيقة المؤلمة فى هذا الدور الجديد من الصراع بين أبناء العادل الأيوبى ، أنهم لم يكتفوا فى حروبهم ومنازعاتهم الداخلية فيما بينهم بالاستعانة ضد بعضهم البعض بالقوى الجديدة من المماليك ، والذين غدوا الفيصل فى تلك المنازعات ، بل إنهم استعانوا ضد بعضهم البعض بقوى خارجية من الصليبيين[٩] . وإن دل هذا التصرف على شىء فإنما يدل على مدى التشرذم السياسى وعدم الوعى بحقيقة الخطر الذى كان يهدد العالم الإسلامى فى ذلك الوقت . ونقصد بهذا الخطر ، هدف الصليبيين وهو القضاء على الإسلام والمسلمين فى السواحل الشرقية والجنوبية للبحر المتوسط ، ويبدو أن هذه الحقيقة لم تكن خافية عن أعين المعاصرين ، فمن ذلك ما يرويه لنا المؤرخ المعاصر « ابن واصل » من أنه عندما شرع حنادى برين فى غزو مصر سنة ٦١٤ هـ/ ١٢١٨ م ، على رأس الحملة الصليبية الخامسة قال الصليبيون : « إن الملك الناصر صلاح الدين إنما استولى على الممالك ، وأخرج القدس والساحل من أيدى الفرنج بملكه ديار مصر وتقويته برجالها . فالمصلحة أن نقصد مصر ونملكها وحينئذ لا يبقى لنا مانع من أخذ القدس وغيره من البلاد[١٠] » . مما يؤكد لنا تلك الحقيقة بما لا يدع مجالاً للشك أنه منذ أواسط القرن الثانى عشر الميلادى سيطرت على الغرب المسيحى الفكرة السائدة أنه مادامت مصر باقية على ما هى عليه من القوة والبأس ، فإن المشاريع الصليبية فى الشام فاشلة لا محالة ، ولابد من حرمان الجبهة الإسلامية من تلك القاعدة الحربية الهامة[١١] . والتى جعلها لويس التاسع وسيلة لتحقيق نياته وأحلامه الصليبية فى حملته السابعة فقد « حدثته نفسه بأن يستعيد بيت المقدس إلى الفرنج وعلم أن ذلك لا يتم إلا بملك الديار المصرية[١٢] » ..

وكانت النتيجة الطبيعية لتفريط بعض ملوك بنى أيوب من أبناء العادل الأيوبى أن استرد الصليبيون بيت المقدس دون قتال سنة ٦٢٦ هـ/ ١٢٢٨ م ، فى عهد الملك الكامل صاحب مصر ، ذلك أنه نتيجة الخلاف الذى نشب بينه وبين أخيه الملك المعظم صاحب دمشق فقد استعان كل طرف منهما بقوى خارجية حسبما يشير « المقريزى » أنه بعد أن « تأكدت الوحشة بين الكامل وبين أخويه المعظم والأشرف ، وخاف الكامل من انتماء أخيه المعظم إلى السلطان جلال الدين بن خوارزم شاه فبعث الأمير فخر الدين يوسف ابن شيخ الشيوخ صدر الدين بن حموية إلى ملك الفرنج[١٣] يريد منه أن يقدم إلى عكا ووعده أن يعطيه بعض ما بيد المسلمين من بلاد الساحل ، ليشغل سر أخيه المعظم ، فتجهز الامبراطور ملك الفرنج لقصد الساحل . وبلغ ذلك المعظم ، فكتب إلى السلطان جلال الدين يسأله النجدة على أخيه الكامل ووعده أن يخطب له ، ويضرب السكة باسمه[١٤] » ..

وعلى الرغم من وصول فردريك الثانى بعد موت الملك المعظم فإن الملك الكامل على حسب قول المقريزى « لم يمكنه دفعه ولا محاربته ، لما كان تقدم بينهما من اتفاق ، فراسله ولاطفه[١٥] » .. ولم يكن أمامه « بد من المهادنة وتسليمه القدس[١٦] » .. وبذلك تم توقيع الاتفاق على أساس تسليم القدس وبيت لحم والرملة وشريط من الأرض بين عكا وبيت المقدس ، مقابل تعهد الامبراطور بعدم قدوم أية حملة من أوروبا لمدة عشر سنوات[١٧] وقد كانت هذه المعاهدة مكسباً كبيراً لفردريك الثانى ، إذ أتاحت له سرعة العودة إلى الغرب لتسوية مشاكله مع البابوية[١٨] .

وقد كان لتسليم بيت المقدس للفرنج دوى هائل فى نفوس المسلمين ، ويصف لنا أحد المؤرخين المعاصرين ذلك ومدى حزن المسلمين لضياعها بقوله « ووصلت الأخبار بتسليم القدس إلى الفرنج فقامت القيامة فى جميع بلاد الإسلام واشتدت العظايم بحيث أن أقيمت المآتم[١٩] » .. وظلت المدينة بعد ذلك كالكرة ، تتلاقفها أيدى المسلمين والصليبيين ، حتى استردها المسلمون نهائياً سنة ٦٤٢ هـ/ ١٢٤٤ م ، عندما استردها السلطان الصالح أيوب بمساعدة الخوارزمية ، وهو السبب الذى أدى إلى قيام الحملة الصليبية المعروفة بالسابعة بقيادة لويس التاسع على مصر ، وفى ظل هذه الأوضاع كان لا يمكن أن تعود الحياة الطبيعية إلى المدينة بسهولة ، وإنما استمرت تعيش فى حالة من الخوف والقلق والترقب حتى بعد عودتها إلى أحضان الأمة الإسلامية . ذلك أن أهالى بيت المقدس ظلوا لا يأمنون على أنفسهم وحاضرهم ومستقبلهم ، وفى مواجهتهم على الساحل تقوم مملكة صليبية حاضرتها عكا ، تترقب اليوم الذى تعود فيه عقارب الساعة إلى الوراء لتحيى مجدها القديم على أرض بيت المقدس ، هذا فضلاً عن وجود العديد من الإمارات ، والمدن والقلاع الصليبية المنتشرة فى أنحاء بلاد الشام ، والتى كان أهلها جميعاً يتطلعون إلى كنيسة القيامة فى بيت المقدس ، ويتحينون الفرصة تلو الأخرى لاستعادتها[٢٠] .

وفى ظل هذا القلق وعدم الاستقرار الذى شهدته مدينة بيت المقدس فى تلك الفترة من تاريخها ، رغب كثير من المسلمين عن الحياة فيها ، الأمر الذى جعل القزوينى فى النصف الأول من القرن السابع للهجرة – الثالث عشر للميلاد – يردد نفس العبارة التى سبق أن ذكرها المقدسى قبل ذلك بقرنين ونصف تقريباً من أن مدينة بيت المقدس « قليلة العلماء كثيرة النصارى[٢١] » .

وفى الوقت الذى كانت فيه قوات لويس التاسع تخوض مياه البحر المتوسط قبالة دمياط ، وكانت جحافل المغول بقيادة هولاكو تطوى بلدان الشرق الإسلامى ، وهى تقترب من عاصمة الخلافة العباسية بغداد ، وكان على العالم الإسلامى أن يلتزم جانب الدفاع إزاء الهجوم الذى كان يتعرض له من الشرق والغرب على حد سواء ، كان انتصار فرسان المماليك فى مصر على الصليبيين بين المنصورة وفارسكور سنة ٦٤٦ هـ/ ١٢٥٠ م ، ذلك الانتصار الذى كان بمثابة صرخة الميلاد لدولة سلاطين المماليك[٢٢] ثم تلا ذلك سقوط بغداد فى أيدى المغول سنة ٦٥٦ هـ/ ١٢٥٨ م ، وبهذا خيل للمسلمين أن العالم على وشك الانحلال وأن الساعة آتية عن قريب[٢٣] .

وبقيام دولة سلاطين المماليك فى مصر عند منتصف القرن السابع الهجرى – الثالث عشر

الميلادى – ظلت بلاد الشام ميداناً لصراعات عديدة بين المسلمين والصليبيين ، وبين الأيوبيين فى الشام والمماليك فى مصر ، فضلاً عما كان بين ملوك بنى أيوب بعضهم البعض . ومع بداية تلك الفترة التاريخية دخلت مدينة بيت المقدس دائرة الصراع بين الأيوبيين فى بلاد الشام ممثلين فى الملك الناصر يوسف صاحب دمشق ، وبين المماليك بزعامة الملك المعز أيبك[٢٤] . ويهمنا من هذا الصراع أن كلا من الطرفين حاول الاستعانة بالصليبيين ضد الطرف الآخر ، ويؤكد لنا جوانفيل – وهو معاصر لتلك الفترة – ذلك بقوله إنه بينما كان الملك لويس التاسع « القديس لويس كما يسميه » فى عكا سنة ١٢٥٠ – ١٢٥١ ، فإن حاكم دمشق أرسل بعض مبعوثيه لكى يروا الملك وليشكوا مر الشكوى من أمراء مصر الذين قتلوا ابن عمه ، وقد وعد حاكم دمشق لويس إذا ساعده أن يسلمه مملكة بيت المقدس ، ثم يقول فى موضع آخر : « ونسيت أن أذكر لكم رد الملك لويس على سلطان دمشق بأنه ليس لديه النية للانضمام إلى سلطان دمشق ، إلا إذا عرف هل أمراء مصر سوف يقدمون له تعويضاً أو ترضية مقابل المعاهدة التى نقضوها ، ولذا سوف يرسل لهم ، فإذا رفضوا التعويض فإنه سوف يسعده أن يساند سلطان دمشق للثأر من ابن عمه ، وعندما أرسل لأمراء مصر يطالبهم بذلك التعويض ، ردوا عليه أنه يسعدهم أن ينفذوا ذلك على افتراض أن الملك سوف ينضم للتحالف مع سلطان دمشق ، وقد أقنعهم مبعوثه بضرورة تلك الترضية عن طريق افتكاك أسرى الصليبيين المحجوزين لديهم ، وفعل الأمراء كما نصحهم مبعوث الملك ، ثم عاد مبعوث الملك إلى عكا ومعه مائتان من الفرسان المأسورين بالإضافة إلى عدد آخر من ذوى المراتب البسيطة » . ثم يقول : « إن الملك أعطى رده لمبعوث أمراء مصر بأن أخبرهم ، بأنه لن يتحالف معهم ضد سلطان دمشق إلا إذا أرسلوا له رؤوس القتلى الصليبيين التى علقوها على أسوار القاهرة ، » .. كما يروى أنه فى عام ١٢٥٢ م وصلت موافقة أمراء مصر على طلبات الملك ، متعهدين بأن يصل الملك فى يوم محدد إلى يافا وهم سيكونون فى غزة فى ذلك اليوم لكى يسلموه بيت المقدس ، ومعنى هذا أننا عن طريق تمسكنا بإيماننا أصبحنا مرتبطين بمساعدة أمراء مصر ضد سلطان دمشق[٢٥] » .

وفى هذه الرواية خير دليل على استعانة كل منهما بالصليبيين . كما يرى بعض الباحثين العرب أن السلطان أيبك ، لكى يضمن توطيد نفوذه فى مصر ، قرر أن يواصل زحفه نحو الشام عقب الصراع الذى نشب بينه وبين الناصر يوسف ، ولكى يضمن النجاح لمشروعه ، حاول أن يضم لويس التاسع إلى جانبه ، ووعده ببيت المقدس بمجرد استيلائه عليه من الملك الناصر يوسف[٢٦] إلا أن تدخل الخليفة العباسى المستعصم هو الذى أنقذ الموقف ، فأراد توحيد الجبهة الإسلامية ، نظراً لشعوره بخطر المغول ، وتمكن رسوله نجم الدين البادرائى من عقد صلح بينهما سنة ٦٥١ هـ/ ١٢٥٣ م على أن يكون للمماليك مصر وجنوب فلسطين بما فى ذلك غزة وبيت المقدس ، بينما تظل الشام للملك الناصر[٢٧] . وفى رأينا أن مدينة بيت المقدس لم تخضع طويلاً لسلطنة المماليك نتيجة لهذا الاتفاق ، فبعد ما يقرب من ثلاث سنوات تم توقيع معاهدة بين السلطان أيبك والناصر يوسف صاحب دمشق تنازل فيها أيبك عن فلسطين بما فيها مدينة بيت المقدس بناء على توسط الخليفة العباسى[٢٨] ، وبذلك ظلت المدينة فى الفترة ما بين ٦٥٤ هـ/ ١٢٥٦ م – ٦٥٨ هـ/ ١٢٦٠ م بأيدى الناصر يوسف صاحب دمشق ، وهى السنة التى شهدت اجتياح المغول لبلاد الشام من شمالها إلى جنوبها .

وفى أثناء الغزو المغولى ظهر جليا تقاعس الأيوبيين عن الدفاع عن بلاد الشام ، من ذلك أن الناصر يوسف صاحب دمشق وحلب أوجس خيفة من هولاكو وجيشه ، وقدر أنهم سيستولون على الشام بين عشية وضحاها ، لذا أرسل ابنه الملك العزيز محمد سنة ٦٥٦ هـ/ ١٢٥٨ م إلى هولاكو يخطب وده ، ويسأله أن يعينه على أخذ مصر من المماليك(٢٩) . وفى الوقت الذى بدا فيه تخاذل الأيوبيين عن الدفاع عن الإسلام والمسلمين ضد الغزو المغولى ، انهارت أيضاً معارضتهم لقيام دولة المماليك الذين أبدوا ثباتاً وصلاحية للبقاء لمواجهة هذا الخطر(٣٠) ، ثم كانت موقعة عين جالوت سنة ٦٥٨ هـ/ ١٢٦٠ م بمثابة تأكيد للدور الذى اضطلعت به دولة سلاطين المماليك منذ مولدها ، وهو دور القوة الضاربة المدافعة عن العالم الإسلامى ، حيث تمكنت جيوش الدولة الجديدة من كسر الموجة المغولية الطاغية ، وبذلك تأكد دورها كقوة حامية للعالم الإسلامى(٣١) . هذا فضلاً عما ترتب على هذه الموقعة من نتائج كان منها خضوع بلاد الشام ومنها بيت المقدس لسيطرة سلاطين المماليك ، وما ترتب على ذلك من تجنيب المدينة الكثير مما لحق بغيرها من مدن بلاد الشام من دمار وفناء وإحراق وانتهاك لمقدسات المسلمين وبيوتهم ، مثلما أصاب حلب ودمشق وغيرهما من المدن الشامية التى وقعت بأيديهم حيث نشروا الرعب والفزع أينما حلوا(٣٢) .

والأهم من هذا أن انتصار المماليك فى موقعة عين جالوت قد حقق لدولة سلاطين المماليك الناشئة مكانة لا يستهان بها فى نفوس المعاصرين ، كما دعم نفوذها فى بلاد الشام وألقى على كاهلها مهمة إتمام ما قام به صلاح الدين الأيوبى من حركة الاسترداد ، فضلاً عن رسوخ قيمة دولتهم كمدافعة عن المسلمين والإسلام ، فكل غزوة للمغول على بلاد الشام كانت تقابل بجيوش المماليك فى بلاد الشام ، وبهجوم مضاد على أرمينيا والأناضول حيث تحالف الأرمن مع المغول ضد السلطات المملوكية ، وفى نفس الوقت فقد طرد سلاطين المماليك البقايا الصليبية من بلاد الشام ، فضلاً عن أنهم تمكنوا من كسر شوكة المغول وحلفائهم من الأرمن بل وأخضعوهم لنفوذهم ، وبذلك أصبحت دمشق كموقع متقدم للدفاع عن مصر ، وحلب للدفاع عن المناطق الداخلية من بلاد الشام ، كما أن قيليقية وأرمينية غدت ضمن المناطق الدفاعية الشمالية للبلاد ، فضلاً عن أن المناطق الساحلية قد حشدت بالمحاربين من التركمان والأكراد ، وبذلك أصبحت بلاد الشام شبه مغلقة ضد الغزوات والأخطار الخارجية التى هددت أمنها(٣٣) .

أما عن أهمية مدينة بيت المقدس فى السياسة المملوكية فترجع إلى أن طبيعة المدينة الدينية ، باعتبارها أحد الأماكن المقدسة التى تتعلق بها قلوب المسلمين فى شتى أنحاء البلاد ، كانت تمثل أحد أركان النظرية السياسية لدولتهم التى اعتمدت على القوة العسكرية من جهة والواجهة الدينية من جهة أخرى . أما عن القوة العسكرية لدولة سلاطين المماليك فيتضح لنا مما سبق وأوردناه أنه قد رسخ فى نفوس المعاصرين أن قوة المماليك الناشئة أثبتت فعاليتها فى الدفاع عن الإسلام والمسلمين ضد الأخطار المحيطة بالعالم الإسلامى فى ذلك الوقت ، ومع هذا فإن بطولات هؤلاء المماليك فى المنصورة وفارسكور وفى عين جالوت لم تكن لتشفع لهم أو تغير نظرة المعاصرين لهم باعتبارهم عبيداً لا يحق لهم الجلوس على عرش البلاد ، حيث من المعروف أن النظرية السياسية الإسلامية تجعل من

شرط الحكم أن يكون الحاكم حراً[٣٤] ، لذا فمما لا شك فيه أن السلطان الظاهر بيبرس — والذى يعتبر المؤسس الحقيقى لدولة سلاطين المماليك — لم ينس مطلقاً مدى استياء وتذمر المعاصرين من سلاطين المماليك . بدليل قول ابن تغرى بردى « إن أهل مصر لم يرضوا بسلطان مسه الرق ، وظلوا إلى أن مات السلطان أيبك وهم يسمعونه ما يكره حتى فى وجهه إذا ركب ومر بالطرقات ، ويقولون لا نريد إلا سلطاناً رئيساً مولوداً على الفطرة[٣٥] » . لذا كان على سلاطين المماليك أن يبحثوا لسلطتهم الوليدة عن سند شرعى يدعمون به حكمهم فى نظر المعاصرين ، وسارع الظاهر بيبرس إلى تلقى أحد أبناء البيت العباسى واسمه أبو العباس أحمد سنة ٦٥٩ هـ / ١٢٦١ م ومعه حشد من العلماء والأعيان والشهود والمؤذنين حتى اليهود بتوراتهم والنصارى بإنجيلهم ، ثم عقد له مجلساً بقلعة الجبل بالديوان الكبير ، حضره القضاة والعلماء وجميع كبار الدولة وكبار التجار ووجوه الناس ، وبعد أن أثبتوا صحة نسبه بايعوه بالخلافة ، ثم قلد الخليفة الجديد وهو المستنصر بالله السلطان بيبرس البلاد الإسلامية وما ينضاف إليها ، وما سيفتحه الله على يديه من بلاد الكفار[٣٦] . كما تم إحياء الخلافة العباسية مرة ثانية عام ٦٦١ هـ بعد مقتل الخليفة العباسى الأول فى حربه مع التتار ، بالعراق ، وفى هذه المدة حرص بيبرس على أن تكون الخلافة العباسية بمصر ، فتستفيد الدولة المملوكية من وجودها بالقاهرة ، وبنفس الطريقة السابقة ، عقد مجلساً عاماً بالإيوان الكبير بالقلعة كما حدث للمستنصر من قبل وبايع الخليفة الجديد الذى قام بدوره بتقليد السلطان أمور العباد والبلاد ولقبه بلقب « قسيم أمير المؤمنين » . ويعتبر بيبرس أول من تلقب بهذا اللقب من قبل خليفة ، وهذا اللقب من أجلّ الألقاب[٣٧] . واستفاد سلاطين المماليك من إحياء الخلافة العباسية بالقاهرة حيث شملتهم بالحماية الروحية إذ صاروا منذ ذلك الحين وحتى الفتح العثمانى سنة ١٥١٧ م ، يفرضون لأنفسهم مقاماً سامياً على ملوك العالم الإسلامى ، وينكرون عليهم حق التلقب بلقب سلطان لأنهم وحدهم أصحاب هذا الحق شرعاً باعتبارهم حماة الخلافة والمتمتعين ببيعتها ، وفى ذلك يقول ابن شاهين : « ولا يطلق لفظ سلطان إلا لصاحب مصر نصره الله ، فإنه الآن أعلى الملوك وأشرفهم مرتبة ، سيد الأولين والآخرين ، وتشرفه من أمير المؤمنين بتفويض السلطنة له على الوجه الشرعى بعقد الأئمة الأربعة[٣٨] » .

كذلك كان على سلاطين المماليك أن يترجموا سياستهم الدينية إلى واقع ملموس لكى يحظوا بتأييد المعاصرين لهم وتغيير نظرتهم إليهم ، لذلك ظهرت لهم كثير من التسميات الدينية العديدة والتى وضحت فى مكاتباتهم الرسمية وعلى العملة ، مثل « نصير أمير المؤمنين » ، « سلطان الإسلام والمسلمين » ، « محيى العدل فى العالمين » ، « ظل الله فى أرضه » ، « القائم بسنته وفرضه » ، « حامى الحرمين الشريفين والقبلتين » ، وأعلاها « قسيم أمير المؤمنين[٣٩] » ويبدو أن هدفهم من وراء تلك التسميات التى اتخذوها فى مراسلاتهم المختلفة وعلى السكة هو التأكيد على الشرعية التى أصبحوا يتمتعون بها بعد إحياء الخلافة .

ويهمنا فى هذا المقام انعكاس سياستهم الدينية على بيت المقدس ومظاهر الاهتمام بها ، وفى الجدول التالى سنورد بعض مظاهر اهتمام سلاطين وأمراء المماليك بالمؤسسات الدينية والاجتماعية والخيرية فى

بيت المقدس على عصر سلاطين المماليك ، بما يكفل لنا إعطاء صورة واضحة عن هذا المجال ، باعتبار أن القدس بما لها من مكانة مقدسة لدى المسلمين جميعاً تمثل ركيزة هامة كان عليهم أن يولوها من الرعاية والعناية ما يبرزون به الجانب الدينى من سياستهم .

اسم السلطان	المنشآت ذات الدلالة الدينية التى تمت فى عهده	المصدر أو المرجع
١ – السلطان الظاهر بيبرس	١ – عمر قبة الصخرة سنة ٦١٦ هـ ورتب برسم مصالح المسجد الأقصى فى كل سنة خمسة آلاف درهم ، كما عمر قبة موسى ، وفى سنة ٦٦٨ هـ زار المدينة وعمر خانا كبيراً وجدد قبة السلسلة ، ورمم شعث الصخرة ، وبنى على باب عبيده بن الجراح منها مشهداً ، ووقف عليه شيئاً للواردين .	المقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٤٩١ ، الصلاح الكتبى : فوات الوفيات ، طبع بولاق القاهرة ، ١٢٨٣ هـ ، جـ ١ ، ص ١١٤ .
	٢ – أوقف على الخان الذى أنشأه وعرف بخان الظاهر نصف قرية لفتا وغيرها من القرى بأعمال دمشق وجعل بالخان فرناً وطاحونا ، وجعل للمسجد الذى فيه إماماً وشرط فيه أشياء من فعل الخير من تفرقة الخبز على بابه وإصلاح حال النازلين به .	ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ ٧ ، ص ١٢١ ، مجير الدين : الأنس الجليل ، جـ ٢ ، ص ٤٣٤ .
	٣ – أمر بارتجاع عدة ضياع من أوقاف الخليل عليه السلام كانت قد دخلت فى الإقطاع وعوض الأمراء عنها ، ثم وقف وحبس القرية المعروفة باذنا عليه وقفاً صحيحاً شرعياً .	ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر – تحقيق فاطمة صديق ، اكسفورد ١٩٥٦ ، ص ٨٩ .
	٤ – فى عهده تم إنشاء دار الحديث بجوار التربة الجالقية على طريق باب السلسلة .	•
	٥ – كذلك تم فى عهده إنشاء المدرسة الأباصيرية تجاه الرباط المنصورى بجوار باب الناظر .	عارف العارف : تاريخ القدس ، دار المعارف ١٩٥١ ، ص ٨٧ – ٨٨
٢ – المنصور قلاوون	١ – تم فى عهده إنشاء الرباط المنصورى ، وهو يقع بباب الناظر أحد أبواب المسجد الأقصى ، وهو رباط غاية فى الحسن والبناء المحكم .	
	٢ – عمر سقف المسجد الأقصى من جهة القبلة عند جامع الأنبياء .	مجير الدين : المصدر نفسه ، جـ ٢

اسم السلطان	المنشآت ذات الدلالة الدينية التى تمت فى عهده	المصدر أو المرجع
برقوق	التى يراها الداخل أمامه إذا ما دخل من باب المسجد الأقصى من الباب القبلى ، تجاه المحراب .	ص٢٩٠، سعيد عاشور «بعض أضواء جديدة على مدينة القدس» ص١٦ .
	٢ – كذلك أنشئت فى عهده المدرسة الغزية على مقربة من باب الأسباط .	عارف العارف : نفس المرجع ، ص ٩٦ .
	٣ – تم تعمير البركة التى بظاهر القدس من جهة الغرب وهى بركة السلطان .	
	٤ – كما تم تجديد القيسارية الموقوفة على الحرم الشريف بالقدس .	سعيد عاشور : نفس المرجع ، ص ٩٦ .
٨ – الناصر فرج بن برقوق	١ – على الرغم مما اشتهر به فى التاريخ من سوء السيرة، إلا انه فى زيارته لبيت المقدس فرق على الناس خمسة آلاف دينار ، وهو مبلغ لا شك كبير بالنسبة لمقاييس ذلك العصر وعشرين ألف فضة ، كذلك زار الخليل ، وعلق بالمسجد الستائر الحريرية على الأضرحة التى به .	المقريزى : السلوك ، جـ ٤ ، ص ١٠٨ فى حوادث سنة ٨١٢ هـ ، سعيد عاشور : نفس المرجع ، ص ١٦ .
٩ – المؤيد شيخ	١ – زار القدس سنة ٨٢٠هـ وفرق فى أهله مالاً جزيلاً ، وصلى الجمعة ، وجلس بالمسجد الأقصى بعد الصلاة ، وقرىء صحيح البخارى بين يديه من الفقهاء القادمين إلى لقائه من القاهرة والقدس .	المقريزى : السلوك ، جـ ٤ فى ذكر حوادث سنة ٨٢٠ هـ .
١٠ – الأشرف برسباى	١ – فى عهده عمرت الأوقاف بالقدس الشريف ، واشتريت عدة جهات للوقف من القرى والمسقفات برسم المسجد الأقصى والصخرة الشريفة وأصلحت قبة الصخرة .	مجير الدين: الأنس الجليل الجليل جـ٢ ، ص ٤٣٨ .
	٢ – كما تم فى عهده إنشاء المدرسة الباسطية شمال الحرم بالقرب من باب الغنم، والمدرسة القادرية بين باب حطة من الغرب ومئذنة إسرائيل من الشرق ، وكذلك المدرسة الحسينية بباب الناظر غربى الحرم فوق رباط علاء الدين البصير ، هذا بالإضافة إلى المدرسة العثمانية بباب المتوضأ تجاه سبيل قايتباى .	عن هذه المدارس راجع: عارف العارف: تاريخ القدس، ص٩٦– ٩٧ .
١١ – الظاهر	١ – أنعم على الحرمين بألفين وخمسمائة دينار	المرجع السابق ،

اسم السلطان	المنشآت ذات الدلالة الدينية التي تمت في عهده	المصدر أو المرجع
		ص ٤٣٥ ، عارف العارف : نفس المرجع ، ص ٢٩٦ .
	٣ – رسم أن تكون جوالى الذمة بالقدس والخليل وبيت لحم وبيت جالة مرصدة لعمارة بركة فى بلد الخليل .	المقريـــــزى : نفس المصدر ، جـ ١ ، قسم ٣ ص ٧١٢ .
٣ – العادل كتبغا	١ – جدد فصوص الصخـرة الشريفـة كما جدد عمـارة السور الشرق المطـل على مقبرة باب الرحمة .	سعيـد عاشور : بعض أضواء جديدة على مدينة القدس ، ص ١٥ .
٤ – المنصور لاجين	١ – جدد عمـارة محراب داود الـذى بالسور القبلى عند مهد عيسى عليه السلام بالمسجد الأقصى الشريف .	
	٢ – بنيت فى عهده مأذنة باب الغوانمة فى الزاوية الغربية التالية للمسجد الأقصى .	عارف العـارف : تاريخ القـدس ، ص ٢٢٩ ، سعيد عاشور : المرجـع السابق ص ١٥ .
٥ – الناصر محمد بن قلاوون	١ – فى عهـده تم إنشاء ربـاط بالقـدس وحمامين وقياسر .	ابـن تغـرى بردى : النجـوم ، جـ ٩ ، ص ١٥٨ ، ابـن حجـر الدرر الكامنة فى أعيـان المائة الثامنة ، حيدر اباد ١٣٤٨ هـ ، جـ ١ ، ص ٥٢٢ .
	٢ – عمر السور القبلى الذى عند محراب داود عليه السلام ، ورخم صدر المسجد الأقصى ، ومسجـد الخليل عليه السلام ، كذلك فتح فى المسجد الأقصى الشباكين اللذين عن يمين المحراب وشماله وجدد تذهيب القبتين قبة المسجد الأقصى وقبة الصخـرة . وعمـر القناطر على الدرجتين الشماليتين بصحن الصخرة التى	

اسم السلطان	المنشآت ذات الدلالة الدينية التى تمت فى عهده	المصدر أو المرجع
	إحداهما مقابل باب حطة ، والأخرى مقابل باب الدويدارية أحد أبواب المسجد الأقصى ، كما عمر باب القطانين أحد أبواب المسجد الأقصى بالبناء المحكم .	
	٣ – عمر قناة السبيل الواقعة عند بركة السلطان بظاهر القدس من جهة الغرب .	مجير الدين : نفس المصدر ، جـ ٢ ، ص ٤٣٨ ؛ عارف العارف ، نفس المرجع ص ٢٩٦ .
	٤ – فى عهده بنى الأمير تنكز نائب الشام مئذنة باب السلسلة ، كذلك جدد مئذنة باب الغوانمة .	عارف العارف : نفس المرجع ص ٢٩٩ .
	٥ – وفى عهده أوقف الأمير تنكز نائب الشام عدة أوقاف كثيرة بالقدس وبنى دارا للحديث ، وبنى مدرسة وخانقاه ورباطا وله سوق موقوفة على المسجد الأقصى .	ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ ١٤ ، ص ١٨٧ ، ابن فضل الله العمرى : مسالك الأبصار ، جـ ٥ ، ورقة ٩٣ .
	٦ – كذلك تم إنشاء المدرسة الجاولية نسبة للأمير علم الدين سنجر الجاولى وكذلك المدرسة الكريمية بباب حطة .	عارف العارف : نفس المرجع،ص٩٠– ٩١.
٦ – الأشرف شعبان بن حسين	١ – عمر المغارة التى عند باب الأسباط ، كما جدد الأبواب الخشبية المركبة على بوابات الجامع الأقصى .	
	٢ – جددت فى عهده القناطر التى على الدرجة الغربية فى صحن الصخرة المقابل لباب الناظر .	
	٣ – جددت المغارة التى عند باب الأسباط وهى بين باب الأسباط وباب حطة فى الناحية الشمالية الشرقية من الحرم .	
	٤ – كذلك أنشأ بعض أروقة فى الحرم من جهة الشمال .	المرجع السابق ، ص ٣٠٠ .
٧ – الظاهر	١ – عمرت فى عهده دكة المؤذنين ، تلك الدكة	المرجع السابق ،

اسم السلطان	المنشآت ذات الدلالة الدينية التى تمت فى عهده	المصدر أو المرجع
جقمق	ذهب ومئة وعشرين قنطارا من الرصاص لعمارة سقف الصخرة الشريفة .	ص ٢٩٠ .
	٢ – كما تم فى عهده إنشاء المدرسة الأشرفية بجوار باب السلسلة .	المرجع نفسه ، ص٩٨
١٢ – الأشرف إينال	١ – فى عهده تمت عمارة المسجد الأقصى الشريف .	نفس المرجع ، ص ٩٧
	٢ – كذلك أنشأ السبيل المعروف بسبيل قايتباى	
١٣ – الأشرف خشقدم	فى عهده عمرت قناة السبيل .	نفس المرجع ، ص٩٧
١٤ – الأشرف قايتباى	١ – فى عهده صنعت الأبواب النحاسية للمسجد الأقصى .	نفس المرجع ، ص ٢٩١ .
	٢ – كما تمت عمارة المسجد الأقصى وكذلك قناة السبيل .	مجير الدين : نفس المصدر جـ ٢ ، ص٦١٩ – ٦٢٠ .
	٣ – وتم إنشاء كل من المدرسة المزهرية بباب الحديد ، والمدرسة الزمبينية غربى الحرم فوق الإيوان الذى بباب القطانين ، وكذلك المدرسة الأشرفية وهى التى سنتناولها بالوصف فى الفصل الرابع من هذا البحث .	عارف العارف ، نفس المرجع ، ص ٩٨ .
١٥ – قانصوه الغورى	١ – فى عهد قانصوه الغورى وهو آخر سلاطين المماليك بمصر جددت عمارة المسجد الأقصى ، كما أُصلحت الفصوص ، وتم بياض الجدران ودهان الأبواب وعمليات الترميم وغير ذلك .	سعيد عاشور : نفس المرجع ، ص ١٩ .

من هذا الجدول تتضح لنا مدى العناية التى أولاها سلاطين وأمراء المماليك للمنشآت الدينية فى مدينة بيت المقدس فى ذلك العصر ، مما يعطى انطباعاً بأن قيام دولة سلاطين المماليك فى الحكم ، ليس ضرورة لحماية البلاد والعباد من الأخطار الخارجية فحسب ، بل أيضاً لرفع راية الإسلام عن طريق إحياء شعائره ورعاية مقدساته ، هذا بالإضافة إلى أن تلك العناية لم تكن قاصرة على سلاطين المماليك وحدهم ، بل شاركهم فيها كثير من الأمراء .

وفى نفس الوقت يبين لنا الجدول أن سلاطين المماليك قد رصدوا جزءاً من ثرواتهم الضخمة التى عادت عليهم من وراء التجارة فى رعاية مقدسات المسلمين ، ليظهروا دائماً فى صورة رعاة الدين الساهرين على علومه وأركانه ، المنفذين لأحكامه وشريعته .

كذلك يعكس لنا الجدول أن العناية بمدينة بيت المقدس لم تكن قاصرة على المؤسسات الدينية ، بل كانت عنايتهم بالمؤسسات العلمية والخيرية والاجتماعية لتوفير أسباب الحياة الطيبة فى المدينة وتنشيط الحياة فيها ، بعد أن تحررت من الخوف الذى خيم عليها نحوا من قرنين من الزمان ، كما يعكس لنا أيضاً بعض ما أوقفه المماليك والخيرون على هذه المنشآت من الأوقاف الجليلة ، ذات الايرادات الوفيرة ، ليضمنوا لها البقاء والاستمرار .

كما يبين لنا الجدول ، أنه على الرغم من حالة الاضطراب السياسى التى كانت تتعاقب على دولة سلاطين المماليك ، مثل الفترة التى أعقبت مقتل الأشرف خليل بن قلاوون ، وكذلك فى أواخر عصر سلاطين المماليك أيام قانصوه الغورى ، فإن اهتمام السلاطين ببيت المقدس ورعاية مقدساتها كان واضحاً ، حيث لم يغفلوا أمرها .

هذا إلى جانب أنه بقيام دولة المماليك الثانية سنة ٧٨٤ هـ/ ١٣٨٢ م ، ازداد حرص سلاطين تلك الدولة على رعاية تلك المقدسات ، ولعل السبب فى ذلك راجع إلى حرص سلاطين المماليك فى تلك الدولة على ألا يكونوا فى نظر معاصريهم أقل مرتبة ممن سبقوهم ، وهذا يتضح بجلاء من حرص الكثيرين منهم على بذل كل جهد ممكن للعناية بالحرم القدسى الشريف وقبة الصخرة المباركة ، سواء بالإضافة أو الإصلاح أو الترميم . وإن دل هذا على شيء ، فإنما يدل على أن اهتمام سلاطين المماليك كان دائماً هو أن يرسخوا فى نفوس معاصريهم أنهم حماة الإسلام والعقيدة الإسلامية ، وإن كان هذا لا يمنع من وجود بعض السلاطين الذين اشتهروا منهم بالتقوى والصلاح فعلاً أمثال السلطان جقمق .

وأخيراً تجب الإشارة إلى أننا نلاحظ أن المؤسسات الدينية والخيرية كانت كثيرة فى عهد سلاطين المماليك البحرية ، أى دولة المماليك الأولى كما يسميها البعض ، بينما نرى أنه فى دولة المماليك الثانية أو الجراكسة فقد قلت هذه المؤسسات ، ولم يكن هذا بسبب أن المماليك قد دعموا نفوذهم وسلطانهم ومحوا ما فى نفوس معاصريهم من شعور نحوهم بقدر ما هو راجع إلى حالة الانهيار الاقتصادى الذى عم دولة سلاطين المماليك منذ القرن الخامس عشر الميلادى .

كما تجب الإشارة أيضاً إلى نقطة بالغة الأهمية بالنسبة للعمارة الدينية المسيحية ، فى بيت المقدس فى عصر سلاطين المماليك ، وهى أن بعض المؤرخين يروون دائماً أن سلاطين المماليك كانوا يمنعون الطوائف غير الإسلامية من بناء أى مبنى دينى لهم فى القدس[٤٠] . إلا أن الحقيقة التى لا تدع مجالاً للشك هى أن أبناء الطوائف المسيحية المختلفة فى ظل حكم سلاطين المماليك تمتعوا بالحرية الدينية ، وممارسة شعائرهم داخل مؤسساتهم الدينية ، كما سمح لهم بإصلاحها وترميمها وإعادة ما تهدم منها ، ليس هذا بالنسبة لأبناء الطوائف المسيحية المحلية فحسب ، بل المسيحيين الغربيين المقيمين فى بيت

المقدس . وقد أورد أستاذنا الدكتور أحمد دراج فى كتابه « المماليك والفرنج فى القرن التاسع الهجرى – الخامس عشر الميلادى[41] – » دراسة وثائقية هامة جداً تفند تلك الآراء وتبين مدى بطلانها ، كما يتضح منها تسامح حكام بيت المقدس معهم ، وكذلك السلاطين ، وحرصهم الدائم على تأمينهم ومؤسساتهم التى يقيمون فيها . كما يؤكد لنا المقريزى ذلك بما لا يدع مجالاً للشك فى حديثه عن سنة ٨١٣ هـ/ ١٤١٠ م حيث يقول : « .. وفيها قدم إلى يافا مركب فيه فرنج ، معهم أخشاب ، وعجل ، وصناع ، برسم عمارة بيت لحم ، بالقدس ، حيث مولد عيسى عليه السلام ، وبيدهم مرسوم السلطان بتمكينهم من العمل . فدعوا الناس للعمل بالأجرة ، فأتاهم عدة من القلعة والصناع ، وشرعوا فى إزاحة ما بطريقهم من الأوعار . كان سبب هذا أن موسى – صبى بطرك النصارى الملكانية – سأل السلطان لما قدم إلى القدس ، بعد نوبة صرخد ، فى سنة اثنتى عشرة وثمان مائة ، أن يمكن النصارى من إعادة عمارة مولد عيسى – بيت لحم – على ما كان عليه فكتب له بذلك مرسوماً ، فطار به كل مطار ، وبعث إلى بلاد الفرنج فاغتنموا الفرصة ، وبعثوا هؤلاء .. »[42]

الوضع الإدارى لبيت المقدس

سبقت الإشارة إلى أنه تم لسلاطين المماليك بسط سيطرتهم على بلاد الشام كلها عقب موقعة عين جالوت سنة ٦٥٨ هـ/ ١٢٦٠ م ، فقسموا بلاد الشام إدارياً إلى ستة أقسام كبرى ، أطلقوا عليها اسم نيابات ، لأن كلا منها على رأسها نائب لسلطان المماليك فى القاهرة يتبعه وينوب عنه فى حكمها ، وقد ظهرت هذه النيابات تدريجياً ، وليس بقرار واحد أو فى وقت واحد ، وهى على حسب ترتيب ظهورها : نيابة دمشق ونيابة حلب ونيابة حماة ، ونيابة الكرك والأردن ، ونيابة صفد ، ونيابة طرابلس . وكان على رأس كل نيابة من هذه النيابات أمير كبير من أمراء المماليك ، يتمتع بلقب نائب السلطان ، وأكبرهم مقاماً هو نائب دمشق الذى كانت نيابته أجل النيابات الشامية وأرفعها فى الرتبة ، حتى أطلق على نيابته اسم « نيابة الشام » أو « مملكة الشام[43] » . ومن ناحية أخرى فإن كل نيابة من هذه النيابات الكبرى انقسمت بدورها إلى أقسام إدارية صغيرة ، أطلق عليها القلقشندى اسم « ولايات » أو « نيابات صغار[44] » .

أما عن وضع مدينة بيت المقدس فمن المعروف أن إدارتها فى العهد الأيوبى كانت تناط بعهدة أمير من أمراء السلطان ويطلق عليه « وال[45] » . ومن المرجح أنها استمرت كذلك فى أوائل عصر سلاطين المماليك ، أى أنها كانت ولاية صغيرة تتبع نيابة دمشق ، كما كان يوجد فى قلعتها نائب صغير يعينه نائب دمشق[46] . وتذكر بعض المصادر أنه كان بالمدينة « نائب » ، الأمر الذى يوحى بأنها كانت نيابة مثل سائر النيابات ، فعلى سبيل المثال يذكر لنا ابن عبدالظاهر فى حديثه عن اتفاقية الهدنة التى أبرمها السلطان قلاوون مع الفرنج عام ٦٨٢ هـ/ ١٢٨٣ م « مملكة القدس الشريف » مما قد يوحى بأنها كانت نيابة مثل نيابتى الشام وحلب وغيرها من النيابات الكبار[47] . كذلك فإن المقريزى فى حديثه عن الظاهر بيبرس يقول : « ... وفى ذى الحجة نزحت بئر السقاية التى بالقدس

حتى اشتد عطش الناس بها ، فنزل شخص إلى البئر فإذا قناة مسدودة ، فأعلم الأمير علم الدين الحاج الركنى نائب القدس[٤٨] » وعلى الرغم من ذلك فإننا نستطيع أن نؤكد أن القدس كانت ولاية صغيرة أو نيابة صغيرة ، تابعة لدمشق ولعل خير دليل على ذلك ما يرويه لنا ابن تغرى بردى فى قوله : « ولما كان الوالى على نيابة دمشق كان يولى نائب القدس والرملة وصيدا وبيروت وبعلبك وغيرها على عادة من تقدمه ..[٤٩] » ويؤكد لنا الدمشقى هذه الحقيقة بقوله : « ... ومن أعمال دمشق وجندها أيضاً البيت المقدس بمدينة القدس ...[٥٠] » وعلى أية حال ، فإن القدس بوصفها « نيابة صغرى » – على حد تعبير القلقشندى – جعلت المؤرخين يتحدثون عن واليها باعتباره « نائباً صغيراً » على ما يبدو .

كما تضاربت أقوال المؤرخين فى تحديد التاريخ الذى تحولت فيه إلى نيابة مستقلة بذاتها[٥١] ، إلا أن المؤرخ ابن حجر فى حديثه عن سنة ٧٧٧ هـ/ ١٣٧٥ م يقول : « وفيها استقر تمراز فى نيابة القدس وهو أول من ولى نيابتها ، وكانت قبل ذلك يكون فيها وال من جهة وال الولاة بدمشق ..[٥٢] » . ويؤكد القلقشندى – وهو رجل يمثل نموذج الإدارى المورخ والعليم بالشئون الإدارية بحكم عمله فى ديوان الإنشاء – تلك الحقيقة بقوله : « نائب القدس الشريف وهو ممن استحدثت نيابته فى الدولة الأشرفية » شعبان بن حسين » فى سنة سبع وسبعين وسبعمائة ، وكانت قبل ذلك ولاية وهو طبلخاناه ... » ، كذلك قوله فى موضع آخر : « أنها كانت فى الزمان المتقدم ولاية صغيرة يليها جندى ثم استقرت طبلخاناه فى سنة سبع وسبعين وسبعمائة ، وأن العادة جرت أن يضاف إليها نظر الحرمين : حرم الخليل عليه السلام ، وحرم القدس ...[٥٣] » . وعلى هذا فإن تحويل القدس من ولاية إلى نيابة قد حدث زمن الأشرف شعبان وفى سنة ٧٧٧ هـ/ ١٣٧٥ م على وجه التحديد . ومن الطبيعى أن نميل إلى أقوال كل من ابن حجر والقلقشندى لقربهما الزمنى من تلك الأحداث ، فضلاً عن أن القلقشندى فى كتابه « صبح الأعشى » كان يهتم بالنواحى الإدارية بالدرجة الأولى ، هذا بالإضافة إلى أن أقوالهما عن التغيير الذى حدث كانت صريحة بما لا يدع مجالاً للشك .

ونعود فنؤكد اهتمام سلاطين المماليك بمدينة بيت المقدس تدعيماً لنفوذهم فى تلك المدينة ، ولربط إدارتها مباشرة بسلطنتهم فى القاهرة ، عقب تحويلها إلى نيابة لها نائب يعينه السلطان ، بعد أن كان واليها يعين من قبل نائب السلطنة فى دمشق ، هذا فضلاً عن ربطهم المدينة بالقاهرة عن طريق أبراج الحمام ، التى تقوم بتوصيل الأخبار بسرعة ، حيث كان بمدينة بيت المقدس أبراج للحمام تخرج منها الرسائل إلى غزة ومنها إلى القاهرة مباشرة ، كذلك ارتبطت مدينة الخليل بغزة ثم القاهرة[٥٤]

ولا نريد أن نمر على ظاهرة تحويل بيت المقدس من ولاية صغيرة تابعة لنائب دمشق إلى نيابة مستقلة قائمة بذاتها تتبع السلطنة المركزية فى القاهرة مباشرة ، دون أن نحاول تعليلها تاريخياً . ذلك أن النظرية السياسية التى قام عليها الحكم فى دولة سلاطين المماليك يمكن بلورتها فى أن أمراء المماليك اعتقدوا أن عرش البلاد حق لهم جميعاً يفوز به أقواهم وأقدرهم على الإيقاع بالآخرين ، وقد أدى ذلك إلى اعتماد سلاطين المماليك فى حكمهم على قوة ذات جناحين ، أحدهما يتمثل فى القوة

العسكرية للسلطان ، وهى القوة التى يجسدها بمماليكه ، ويتمثل الجناح الثانى فى الواجهة الدينية التى حرص السلاطين على التخفى وراءها طوال العصر[٥٥] . أما الشق الثانى من هذه السياسة فقد تحقق لهم بما شملوا به مقدسات المسلمين فى المدينة من عناية ورعاية وهو ما سبق أن تناولناه فى الصفحات السابقة ، كذلك كان عليهم لتحقيق الشق الأول من تلك السياسة بالإضافة إلى الإكثار من شراء المماليك ، أن يتقربوا إلى كبار الأمراء بتوزيع الاقطاعات عليهم وكذلك الوظائف[٥٦] . وعلى هذا الأساس يمكننا أن نفسر هذا التحول فى ضوء التطور الإدارى الحتمى لدولة سلاطين المماليك ، وخلق مناصب كبيرة لأمراء الطبلخاناه .

كذلك لعله من المرجح أيضاً أن يكون هذا التحول قد جاء نتيجة لما شعر به سلاطين المماليك عقب طردهم للصليبيين من بلاد الشام ، من أن بيت المقدس لم تبرح تفكير كل رجل وامرأة فى الغرب الأوروبى[٥٧] . وتتضح هذه الفكرة صراحة فى أقوال حجاج بيت المقدس من المسيحيين الغربيين ، فمن ذلك ما يرويه لنا سير جون مانديفيل الذى زارها سنة ٧٢٢ هـ/ ١٣٢٢ م فى قوله : « إن الرب لن يدع بيت المقدس تظل طويلاً تحت حكم الخطاة والمذنبين » يقصد بذلك حكام المسلمين من المماليك[٥٨] . بل أن الغرب الأوربى كان لايفتأ يطالب صراحة وفى جرأة ببيت المقدس ، من ذلك ما يرويه المقريزى فى حوادث سنة ٧٣٠ هـ/ ١٣٢٩ م عن وصول سفارة ضخمة من مائة وعشرين رجلاً ، موفدة من قبل ملك فرنسا فيليب السادس دى فالوا « فى طلب القدس وبلاد الساحل ، فأنكر السلطان عليهم ، وعلى مرسلهم وأهانهم ...[٥٩] » . كما سجل لنا ابن فضل الله العمرى الحديث الذى دار بحضوره بين أحد السفراء الفرنسيين وبين السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، بخصوص طلبهم القدس قال فيه الناصر للرسول الفرنسى : « وما كان يشغلنا عنكم إلا قتال التتار ، ونحن اليوم بحمد الله صلح ، نحن وإياهم من جنس واحد ، ما يتخلى بعض عن بعض ..[٦٠] »

هذا إلى جانب النشاط الصليبى فى شرق البحر المتوسط ، وخاصة بعد أن تولى بيت لوزنيان عرش جزيرة قبرص ، سنة ١١٩٢ م – هذا البيت الذى أفقد صلاح الدين عرش مملكة بيت المقدس سنة ١١٨٧ بعد معركة حطين الشهيرة – ومنذ ذلك العهد غدت قبرص حجر الزاوية فى الحروب الصليبية ، فقد أسهمت قبرص فى الحملة الصليبية المعروفة بالخامسة والقاصدة دمياط ، ثم فى عهد بطرس الأول ملك قبرص (١٣٥٩ – ١٣٦٩) م أنشأ الملك القبرصى طائفة من أجل فلسطين أطلق عليها اسم « طائفة السيف » لتخليص الأرض المقدسة من قبضة المماليك ، وفى عهده تمت آخر محاولة صليبية لتنفيذ الفكرة الفرنسية القديمة ، القائلة بوجوب الاستيلاء على مصر أولاً وتحطيم قوتها ، تمهيداً لهدم القوى الإسلامية العربية فى الشرق الأدنى واسترجاع بيت المقدس[٦١] . ونقصد بذلك قيام بطرس الأول بحملته الشهيرة على الاسكندرية سنة ٧٦٧ هـ/ ١٣٦٥ م . ويصور لنا القلقشندى مدى خطورة الوضع فى ذلك الوقت فى حديثه عن الرسالة التى بعث بها صاحب غرناطة السلطان أبو عبد الله محمد بن أبى الحجاج يوسف بن نصر بن الأحمر ، إلى السلطان الملك الأشرف شعبان بن حسين يقول فيها : « اتصل بنا مارامت الروم من المكيدة التى كان دفاع الله من دونها سداً

والملائكة جنداً ، والعصمة سوراً ، والروح الأمين مدداً منصوراً ، وانها استنفدت الوسع فى احتشادها ، حتى ضاقت اللجج عن أعوادها .. حتى غص كافر البحر بكفارها ، يصبح بهم التأليب ، ويذمرهم الصليب / وقد سول لهم الشيطان كياد ثغر الاسكندرية ، شجا صدروهم ، ومرمى آمال غرورهم ، ومُحَوَّم قديمهم ، ومتعلل غريمهم ، ليهتموا ثغر الإسلام بصدمتها ، ويقودوا خبائب الساحل فى رمتها ، ويرفعوا عن دينهم المعرة ، ويتلقفوا فى القدس كرة الكرة ، ويقلصوا ما امتد من ظلال الإسلام ، ويشيموا سيوف التغلب على الشام ، ويحولوا بين المسلمين وبين محط أوزارهم ، وحجهم ومزارهم ، وبيت ربهم الذى يقصدونه من كل فج عميق ..[٦٢] »

من هذا يتضح لنا أن السلطان الأشرف شعبان كان مدركاً لذلك الخطر المحدق بالإسلام والمسلمين فضلاً عن أن هذه الحادثة كانت « من أشنع ما مر بالاسكندرية من حوادث ومنها اختلت أحوالها ، واتضعع أهلها وقلت أموالهم ، وزالت نعمتهم[٦٣] » . وهذا ما حدا به إلى رفع مدينة الاسكندرية إلى نيابة بعد أن كانت ولاية ، ولعل السبب نفسه هو الذى دفعه إلى تحويل بيت المقدس إلى نيابة لأنه خشى أن يحل ببيت المقدس ما حل بمدينة الاسكندرية .

ومما لا شك فيه أنه كان من العوامل التى شجعت السلطان الأشرف شعبان على تحويل بيت المقدس إلى نيابة ، حالة الاستقرار التى تمتعت بها البلاد بوجه عام وبيت المقدس بوجه خاص ، عقب تخلصه من سيطرة الأمراء المماليك وخاصة الأمير طيبغا الطويل ، ويلبغا العمرى وهو الأتابك واسندمر الناصرى ، والأمير طغيتمر النظامى ، ويؤكد ابن تغرى بردى هذه الحقيقة بقوله إنه ابتداء من سنة ٧٦٩ هـ/ ١٣٦٧ م « قوى أمر الملك الأشرف فى السلطنة وصار تدبير ملكه إليه يعزل ويولى من غير مشورة الأمراء وصار فى الملك من غير منازع ولا معاند وحسنت سيرته وحبته الرعية إلى الغاية وصار يقصد المقاصد الجميلة كما سيأتى ذكره ..[٦٤] » . كذلك يؤكد ابن اياس تلك الحقيقة بقوله : « وكانت الدنيا فى أيامه هادئة من الفتن والتجاريد إلى البلاد الشامية وفساد العربان ، هذا فضلاً عن اتصافه بالحكمة وحسن السياسة فقد ساس الناس فى أيام دولته أحسن سياسة[٦٥] » .

فإذا أضفنا إلى العوامل السابقة عاملاً سنتحدث عنه بالتفصيل فى الصفحات التالية ألا وهو توافر أعداد من أمراء المماليك بمدينة بيت المقدس ، سواء الذين فضلوا الإقامة بها لبعدها عن العاصمة وتقلبات الأحوال السياسية ، أم الذين نفوا إليها والذين تزخر بهم المصادر المعاصرة ، لأدركنا أنه توفر بالمدينة أحد العناصر العسكرية[٦٦] التى يمكن الركون إليها لحمايتها إذا ما تعرضت لخطر خارجى ، حتى تصلها النجدة من القاهرة أو دمشق .

هكذا رأينا أنه فى ظل التجارب والأحاسيس التى عاشها السلطان الأشرف شعبان بن حسين ، كان لابد له من الاحتياط والاستعداد ، فاتخذ عدة اجراءات وقائية كان من جملتها رفع مدينة بيت المقدس من الناحية الإدارية إلى نيابة ، على رأسها نائب للسلطان مسئول أمامه عن أمن المدينة وسلامتها ، كما أن هذا التحول كان نتيجة حتمية لطبيعة حكم سلاطين المماليك الذى اعتمد على القوة العسكرية والواجهة الدينية ، والذى انعكس بشكل واضح فى أن التعيين فى الوظائف الدينية

الكبرى فيما بقى من حق السلطان وحده ، وإذا كان تدخل السلطان المباشر فى بعض الأقاليم يرجع لأسباب حربية ، فإن حرصه على التمسك بحقه فى شغل الوظائف الدينية بالقدس يرجع إلى أهميتها الدينية والتى استغلها السلاطين كسند لهم فى ظهورهم بمظهر حماة الإسلام والمدافعين عن مقدساته[٦٧] .

ومن الأمور التى استرعت نظر الباحث فى دراسة تاريخ بيت المقدس طوال عصر سلاطين المماليك ظاهرة النفى إلى القدس ، فلا تكاد تمر سنة أو بضع سنوات قليلة إلا ونجد فى مصادر ذلك العصر إشارة إلى أن السلطان أمر بنفى أحد المذنبين أو واحد من خصومه إلى القدس . وهنا لابد للباحث من وقفة لتفسير هذه الظاهرة . كذلك تجب الإشارة إلى أن النفى إلى القدس كان لا يعنى السجن وإنما هو نوع من تحديد الإقامة بحيث يعيش الفرد المنفى حراً طليقاً ، كل ما فى الأمر أنه لا يستطيع الخروج منها إلى غيرها أو مغادرتها إلا بإذن السلطان[٦٨] . وليس أدل على أن بيت المقدس لم تكن سجناً وأن النفى إليها كان نوعاً من تحديد الإقامة ما يرويه لنا ابن الصيرفى فى حديثه عن بيبرس بن عبد الله الأمير سيف الدين الأشرفى برسباى خال الملك العزيز يوسف بن الملك الأشرف برسباى أنه « حبس فى الاسكندرية مدة ثم أفرج عنه ورسم له بالإقامة بالقدس بطالا[٦٩] » ، وأيضاً ما يرويه عن الأمير بكلمش العلائى أمير سلاح وكان معاصراً للناصر فرج ابن برقوق « كان معتقلاً فى الاسكندرية ثم أفرج عنه .. ورسم له بالإقامة بالقدس بطالا[٧٠] » ومما يؤكد لنا تلك الحقيقة بما لا يدع مجالاً للشك ما يرويه ابن قاضى شهبه أيام الظاهر برقوق فى سلطنته الثانية من أنه « نفى الأمير قبقباى رأس نوبة إلى القدس وأعطى له خبزاً يعمل فى السنة عشرين ألف درهم ..[٧١] » والمعروف أن كلمة خبز تعنى الإقطاع ، هذا بالإضافة إلى أن كثيراً من هؤلاء المذنبين ، ومن المغضوب عليهم كانوا قد استصحبوا معهم عائلاتهم وأتباعهم[٧٢] .

كما تجب الإشارة إلى أن بيت المقدس لم يكن المكان الوحيد الذى يمكن أن ينفى إليه المغضوب عليهم فى ذلك العصر ، وإنما كانت هناك أماكن أخرى فى الدولة ، يغلب عليها البعد عن مركز السلطنة من ناحية وقسوة الحياة فيها من ناحية أخرى ، ومن أهم هذه الأماكن كانت مكة والمدينة المنورة والكرك والشوبك[٧٣] . هذا بالإضافة إلى أن الحياة فى مدينة بيت المقدس لم تكن أصعب منها فى بقية المواضع السابق ذكرها ، بل كانت أخفها وطأة وأهونها أمراً نظراً لقربها من مصر من ناحية ، ولاعتدال جوها من ناحية أخرى ، وهذا ما سوف يتضح لنا فى الفصل الرابع من هذا البحث . ونسمع عن كثير من الحالات فى عصر سلاطين المماليك التى طلب فيها بعض المنفيين إلى مكة أو المدينة أو الكرك التخفيف عنهم ، فتوسط لهم بعض المقربين عند السلطان حتى استجاب للالتماس ، وسمح لهم بالانتقال إلى بيت المقدس يقضون عقوبة النفى فى بيئة أقل قسوة .. ومن ذلك ما يذكره المقريزى عن القاضى زين الدين عبد الباسط ، أنه كان منفياً وأهله إلى مكة ، حتى سمح له السلطان بالانتقال إلى بيت المقدس « فسكن جأشه لأنه كان كثير القلق وهو بمكة[٧٤] » . كذلك يؤكد لنا ابن حجر هذه الحقيقة فى حديثه عن سنة ٧٧٩ هـ/ ١٣٧٧ م فى سلطنة المنصور على بن الأشرف شعبان بقوله : « وفيها أمر بنفى بيدمر من صفد إلى طرابلس ثم شفع فيه فأقام بالقدس بطالا[٧٥] » .

هذا بالإضافة إلى أن السلطان كان لا يسمح بالنفى إلى بيت المقدس إلا لمن لا يخشى منه خطراً شديداً مباشراً ، فأشد الحالات السياسية خطراً كان صاحبها يسجن ، وغالباً ما يكون سجنه فى مدينة الاسكندرية حتى يكون قريباً بعيداً[٧٦] : قريباً من عين السلطان وملاحظته ومراقبته ، بعيداً عن أن يهدد السلطان تهديداً مفاجئاً ، كأن يقوم بتوجيه ضربة مباشرة سريعة ، يحل بها محل السلطان فى قلعة الجبل بالقاهرة . أما الحالات بين الخطيرة والخفيفة فكان أصحابها ينفون إلى الحجاز أو الكرك أو الشوبك[٧٧] .

ومهما يكن من أمر ، فإنه يبدو أن أكثر من ثمانين فى المائة من حالات النفى فى عصر سلاطين المماليك استأثرت بها مدينة بيت المقدس وحدها ، وهى نسبة كبيرة دون شك ، وهذا ما يتضح لنا من دراسة بعض المصادر التى ذكرت كثيراً من حالات النفى ، وقد ألحقنا جدولاً فى آخر هذا البحث قمنا فيه برصد الكثير من الحالات التى نفى أصحابها إلى بيت المقدس ، كما تجب الإشارة إلى أننا لا نسمع إلا عن حالات محدودة نادرة نفى أصحابها إلى قلعة دمشق أو حلب ، وفى هذه الحالة الأخيرة كان الوضع أقرب إلى السجن منه إلى النفى ، بل كان سجناً ونفياً فى نفس الوقت[٧٨] .

وهنا لابد من ذكر حقيقة ، وهى أن دولة سلاطين المماليك مهما يبالغ فى تكريمها وتعظيمها والإشادة بالدور الذى نهضت به سياسياً وحضارياً فى أواخر العصور الوسطى ، فإن هذه الدولة عاشت عمرها البالغ قرنين ونصف من الزمان ، على أساس أن جميع الأمراء متساوون فى حق ولاية العرش ، والأمر متروك للقوة العسكرية والدهاء السياسى لحسم الصراع على تولى العرش ، فالمماليك جميعاً سواء ، وكبار الأمراء كلهم سواسية نشأوا نشأة واحدة ، لافضل لأحدهم على الآخر ، نشأوا فى كنف أساتذتهم الذين نشئوهم نشأة واحدة أو متقاربة اعتقوا وتحرروا فى مرحلة معينة من أعمارهم . كل منهم شق طريقه بعد ذلك وأدرك نصيباً من الحياة يتفق وإمكاناته الذهنية والجثمانية وغيرها . وبناء على ذلك ظهر منهم من وصل إلى درجة أمير كبير ، وهى درجة تؤهله للوثوب إلى منصب السلطنة ، ومنهم من ظل أميراً صغيراً .

فإذا مات السلطان القائم أو قتل ، فالباب مفتوح أمام كبار الأمراء ليحاول كل منهم الفوز بمنصب السلطنة ، مستخدماً طرقه وأساليبه الخاصة ، شريفة كانت أم غير شريفة ، وهذا هو السر فى كثرة الاضطرابات والثورات التى تعرضت لها دولة سلاطين المماليك بين حين وآخر ، والتى يكمن سببها الحقيقى فى إحساس كل أمير بأنه له الحق فى السلطنة[٧٩] ، مما يحرك فيه عوامل الخروج على السلطان القائم . وفى ظل هذا الوضع كان الطامعون فى السلطنة والثائرون عليها لا يجدون أفضل من بلاد الشام لتكون مركزاً ومنطلقاً لحركاتهم ، فلهذه البلاد فى طبيعتها وموقعها وخيراتها وإمكاناتها البشرية ، ما يجعل منها قوة لمن يتحكم فيها ويسيطر عليها . وكان الخارجون على الدولة فى عصر سلاطين المماليك يتخيرون المدن الكبرى فى بلاد الشام – وخاصة دمشق وحلب – مركزاً لحركاتهم ، نظراً لما تتمتع به من ثروة وموقع وحصانة وإمكانات متعددة . ومن هذه المراكز كثيراً ما كانوا يشرعون فى الزحف على القاهرة ، لأن سلطنة أحدهم « لا تتم إلا بدخوله قلعة الجبل[٨٠] » . ولذا كان سلاطين المماليك يعملون حساباً كبيراً لنوابهم فى تلك المدن الشامية الكبرى ، حتى بلغ

الأمر أن كتاب السر فى النيابات الشامية كانوا يقومون بمهمة التجسس لحساب السلطان فى القاهرة ويطلعونه على ما قد يخفيه النواب عنه أو يبيتونه له[٨١] ويؤكد لنا أحد المؤرخين المعاصرين تلك الحقيقة من أنه فى عهد السلطان أبو سعيد جقمق « غضب السلطان على شاد بك الجكمى نائب حماه فعزله عنها وأمره أن يتوجه إلى القدس بطالا وعين مكانه فيها يشبك الصوفى أحد المقيمين بحلب[٨٢] » وفى نفيه إلى القدس دليل على تخوف السلطان منه ومن بقائه فى حماه فربما يتمكن بها من العصيان والثورة ، ولكن إمكانيات القدس كانت لا تسمح بذلك . هذا وإن كنا نسمع عن بعض حالات قليلة تم النفى فيها إلى إحدى المدن الرئيسية فى بلاد الشام[٨٣] . وفى هذه الحالة يبدو أنه كان ينفى إليها من لا يخشى بأسه على السلطنة . كذلك لم يكن هناك أنسب من مدينة مثل بيت المقدس يغلب عليها الطابع الدينى ، فضلاً عن أنها محدودة الامكانات البشرية والمادية ، غير مرغوبة لمن يطلب الثراء والجاه ، غالبية سكانها من أهل العلم والدين وليسوا من أهل الحرب والسلاح[٨٤] . هذا بالإضافة إلى ما سوف يتضح لنا من خلال حديثنا فى الفصول التالية عن الحياة الاقتصادية فيها ، من أنه لم يكن فيها موارد طبيعية ضخمة تعتمد عليها وتستغنى بها عن غيرها ، مما يجعلها عاجزة عن مقاومة حصار طويل يفرض عليها فى حالة ثورتها ، لذا لم نسمع فى تلك العصور من خلال دراستنا للمصادر المختلفة التى تحدثت عنها والتى استخدمناها فى كثير من فصول هذا البحث العربية والأجنبية عن قيام حركة ثورية بها ضد السلطة المركزية فى مصر .

ولعل أول ما يسترعى انتباهنا فى حكم سلاطين المماليك لمدينة بيت المقدس ، هو حرص السلاطين الدائم على إبطال المظالم من المدينة المقدسة ، من ذلك ما يرويه لنا مجير الدين أنه فى عهد السلطان الظاهر برقوق وفى سلطنته الثانية ، أبطلت المظالم والرسوم والمكوس التى أحدثها النواب بالقدس[٨٥] . ومن ذلك أيضاً أن السلطان سيف الدين قطز عندما مر بمدينة بيت المقدس عام ٨٢٤ هـ/ ١٤٢١ م أمر بإبطال المغارم التى كان نائب المدينة قد فرضها على أهلها ، ونقش ذلك على حجر بالمسجد الأقصى[٨٦] . وجدير بالذكر أن رفع المظالم فى هذه المدينة لم يختص به المسلمون وحدهم بل شمل إخوانهم المسيحيين أيضاً ، من ذلك أنه فى عهد الملك الظاهر أبى سعيد جقمق برز مرسوم السلطان بإبطال ما أحدثه نائب بيت المقدس من ضمان دير الأرمن بالقدس الشريف[٨٧] . ويرجح أن تكون تلك المظالم التى كان يحدثها النواب بسبب سوء الأحوال الاقتصادية التى شهدتها الدولة بوجه عام ، فضلاً عن السياسة التى أتبعها السلاطين المتأخرون فى تولى الوظائف عن طريق البذل والبرطلة ، والتى سنتحدث عنها بالتفصيل فى الفصل الخاص بالحياة اليومية والأمراض الاجتماعية .

كذلك مما يؤثر عن سلاطين المماليك اهتمامهم بانتقاء الحكام والقضاة لبيت المقدس ومراقبتهم ، وحرصهم على تغيير هؤلاء الحكام فى حالة عجزهم أو تعسفهم ضد الرعية من سكان بيت المقدس ، من ذلك ما يرويه لنا مجير الدين فى حديثه عن أن الأمير « خشقدم نائب السلطنة بالقدس الشريف ولى النيابة فى دولة الملك الظاهر جقمق وباشر بشهامة وحصل منه عسف للرعية فوثب أهل بيت

المقدس وشكوه للسلطان فعزله وطلب إلى القاهرة ..[٨٨] » ، وكذلك ما حدث فى عهد السلطان الأشرف قايتباى حيث « رفع سكان القدس شكواهم إلى السلطان ضد نائبه فى القدس خضر بك ، لأن هذا كان ظالماً وكان سفاكاً للدماء . فحقق السلطان فى شكواهم ، ولما تأكد من صحتها استحضره إليه فضربه ، ثم أقاله . ولم يكن خلفه « دقماق » بأعدل منه ، أو أحكم . بل كان هو أيضاً ظالماً ، فثار المقدسيون ضده ، وظلوا يلحون على السلطان إلى أن أقاله من منصبه ..[٨٩] » هذا ويؤثر عن هذا السلطان اهتمامه بانتقاء حكام بيت المقدس وتدخله بنفسه لحسم أى خلاف ، من ذلك أنه عندما خرج لزيارة المدينة عام ٨٨٠ هـ/ ١٤٧٥ م حرص على أن يستمع إلى الأهالى فى شكواهم من نائبه جارقطلى الظاهرى ، وحكم لهم ، وأمره برد ما أخذه منهم ، كما نفى القاضى غرس الدين خليل من بيت المقدس عندما شكاه أهلها[٩٠] .

الوظائف فى بيت المقدس

كان فى مدينة بيت المقدس عدد من الموظفين على عصر سلاطين المماليك ، الذين يمكن أن نصنفهم إلى ثلاثة أنواع هى : أرباب السيوف ، وأرباب الأقلام ، وأصحاب الوظائف الدينية :

ا - أرباب السيوف :

١ - الوالى أو النائب :

سبق لنا أن أشرنا أن مدينة بيت المقدس منذ العهد الأيوبى حتى بداية الحكم المملوكى كانت تناط بعهدة أمير من أمراء السلطان يطلق عليه وال[٩١] . وظل الأمر كذلك حتى تحولت المدينة عام ٧٧٧ هـ/ ١٣٧٥ م إلى نيابة ، فأصبح يطلق عليه لقب « نائب[٩٢] » ، وفى الفترة التى سبقت تحولها إلى نيابة كان هذا الوالى يتم تعيينه من قبل نائب السلطنة فى دمشق وإن كانت المصادر لم تشر إلى رتبته[٩٣] .

أما عن اختصاصات النائب ، فإنه كان يمثل السلطان وينوب عنه فى حكم المدينة ، الذى يصوره لنا ابن فضل الله العمرى فى أنه « سلطان مختصر فيما هو ناء عن الحضرة وأن النائب هو المتصرف المطلق فى كل أمر » ، وكان يراجع فى كل ما يتعلق بشئون الجيش والمال وهو المسئول عن البريد والأخبار ، وهو رئيس الموظفين فى نيابته ومرجعهم « وكل ذى وظيفة فى نيابة لا يتصرف إلا بأمره ، ولا يفصل أمراً معضلاً إلا بمراجعته .. ويرتب فى الوظائف ..[٩٤] » . كما نستطيع أن نستخلص من كتب التقليد التى كان يصدرها أحد السلاطين عند تعيينه لنائب جديد ، أن من واجبات النائب أيضاً تنظيم الشرع الشريف والعمل على إعلاء كلمته ، وتأليف قلوب الرعية على حب السلطان ، وحماية المملكة التى يحكمها ، وحماية أهل الذمة فيها ما داموا طائعين ، وتأديبهم إذا خرجوا عن الطاعة ، كذلك كان من اختصاصه تولية ولاة الأعمال ، وتولية صغار النواب كالتولية على القلاع والمدن الصغيرة ، وكذلك للنائب أن يولى من يشاء فى الوظائف العادية[٩٥] . وبالإضافة

إلى تلك الصلاحيات كان نائب القدس يقوم بواجبات أخرى ، منها أنه كان ابتداء من سنة ٧٧٧ هـ/ ١٣٧٥ م وهى السنة الأولى التى تحولت فيها المدينة إلى نيابة يقوم بمهام نيابة مدينة الخليل إدارياً مضافة إلى نيابة القدس ، علماً بأن إضافة بلد الخليل إلى القدس كانت مجرد عادة جارية حتى قبل تحول القدس إلى نيابة ، كما أضيفت إليه مهمة النظر فى الحرمين الشريفين – القدس والخليل .. وبذلك صار يلقب بناظر الحرمين الشريفين ونائب السلطنة بالقدس الشريف وبلد سيدنا الخليل عليه الصلاة والسلام[٩٦] . إلا أنه فى عام ٨٠٨ هـ/ ١٤٠٥ م أيام السلطان فرج بن برقوق فى سلطنته الثانية حدث تغيير فى اختصاصات نائب القدس ، فقد قرر السلطان « أن نائب القدس لا يكون ناظراً للحرمين الشريفين » وبهذا فصل الوظيفتين[٩٧] . ولكننا نسمع أنه فى عهد السلطان نفسه وفى عام ٨١١ هـ/ ١٤٠٨ م « خلع على تاج الدين رزق الله ناظر الجيش بدمشق ، واستقر نائب السلطنة بالقدس ، وناظر أوقاف القدس والخليل ، ولم نعهد مثل ذلك أن كاتباً يلى نيابة السلطنة ببلد ..[٩٨] » . ثم نعود ونسمع أنه فى عهد السلطان الأشرف برسباى أن نائب السلطنة بالقدس الشريف عاد ليجمع ما بين النيابة ونظر الحرمين الشريفين فى القدس والخليل[٩٩] . بل أكثر من هذا أنه أصبح يجمع بين عدة وظائف مختلفة . من ذلك ما يرويه لنا مجير الدين من أن الأمير طوغان العثمانى نائب السلطنة بالقدس الشريف وناظر الحرمين فى القدس والخليل وكاشف الرملة ونابلس ومتولى الصلت وعجلون ، واستادار الأغوار وغير ذلك من التكلم على الجهات السلطانية ، جمع له بين هذه الوظائف فى دولة الملك الأشرف برسباى فى سنة أربعين وثمانمائة وبعدها فى دولة الظاهر جقمق ، وكان من الحكام المعتبرين[١٠٠] .. ولعل الجمع بين تلك الاختصاصات والوظائف كان راجعاً إلى مقدرة بعض الأشخاص ، وإن كان هذا التبديل والتغيير فى وظائف الإدارة دليلاً على تدهور البناء السياسى للدولة فى الشطر الثانى من ذلك العصر . وهو ما سوف يتضح لنا فى الصفحات التالية . وإن كنا نسمع أنه فى أواخر عصر سلاطين المماليك كان تولى بعض الوظائف ومنها نيابة القدس والخليل يتم عن طريق الرشوة والبذل للخزانة السلطانية[١٠١] . وليس هناك تفسير لتلك الظاهرة إلا الانهيار الاقتصادى وما أدى إليه من كساد التجارة وبالتالى قلة موارد السلطنة نتيجة للحصار الاقتصادى الذى فرضه البرتغاليون على التجارة المملوكية فى ذلك الوقت . ومن المهام التى كانت تناط أيضاً بنائب القدس اجتماعه بالحجاج المسيحيين الذين يفدون إلى البلاد لزيارة الأماكن المسيحية المقدسة ببيت المقدس ، فكان يستقبلهم عند نزولهم من السفن المقلة لهم فى ميناء مدينة يافا ، ويعين لهم حرساً خاصاً لمرافقتهم وحمايتهم أثناء تنقلاتهم فى الأراضى المقدسة[١٠٢] .

ومن الجدير بالذكر أنه منذ استحدثت النيابة بمدينة بيت المقدس ، كان نوابها من أمراء الطبلخاناه ، وهى مرتبة عسكرية تتيح لصاحبها أن يكون فى خدمته أربعون مملوكاً[١٠٣] . كما كان لأمير الطبلخاناه الحق فى أن تدق على بابه الطبول كما يفعل السلطان وأمراء المئات ، ولكن على صورة مصغرة ، وقد تزيد مرتبة أمير الطبلخاناه من أمير أربعين إلى إمرة سبعين أو ثمانين ، أى أن يكون فى خدمته ما يساوى أحد هذين العددين[١٠٤] . وكما سبق أن أشرنا فإن السلطان المملوكى فى مصر كان يحرص دائماً على تعيين ذلك النائب بنفسه ، إلا أنه وجدت بعض الحالات التى نسمع فيها أن السلطان كان

يترك ذلك الحق لنائب دمشق . من ذلك ما يرويه ابن تغرى بردى فى ذكره لحوادث سنة ٨٦٥ هـ/ ١٤٦٠ م أيام السلطان خشقدم ، من أن السلطان المذكور أذن لجانم نائب الشام أن يولى من يشاء ويعزل من يشاء حتى كاشف الرملة ونائب القدس وأمثالهما ، وأنه ليست على يده يد فى ولاية نيابة دمشق ، ولعل السبب فى ذلك راجع إلى العلاقة الوطيدة التى تربط السلطان بأحد كبار الأمراء أو كنوع من التكريم وربما لاستمالته أو خشية بأسه[١٠٥] .

أما فيما يتعلق بدار النيابة بمدينة بيت المقدس فى ذلك العصر ، وهى موضع سكن النائب ، فيرى أحد الباحثين أن أول ذكر لها كان عام ٨٩٢ هـ/ ١٤٨٦ م[١٠٦] . غير أنه من المرجح أن نائب القدس كان يتخذ من القلعة بها داراً للنيابة ، حيث وردت إشارة بذلك عند مجير الدين يقول فيها : « وكان الولى بالقدس قديماً ينزل بالقلعة » مما يرجح القول بأنه عندما تحولت إلى نيابة لم يتغير الوضع وظل النائب ينزل أيضاً فى القلعة لفترة سابقة للتاريخ المذكور ، وهذا ما يفهم من كلام مجير الدين فيما أورده من حديث عن دار النيابة بقوله : « ثم دخلت سنة ٨٩٢ هـ وفيها عمر الأمير خضر بك نائب القدس بدار النيابة المقعد الملاصق لإيوان الحكم من جهة الشمال وجعله على طريق مجالس الحكام بالدار المصرية وسقفه بالخشب المدهون ، وكان قبل ذلك جلوس النائب بصدر الإيوان فصار جلوسه بالمقعد وهو أولى من النظام الأول .. » ، كذلك أورد لنا فى حديثه عن نائب السلطنة الأمير شاهين المشهور بالذباح أنه « أمسك جماعة من العرب وذبحهم عند باب دار النيابة بالقدس .. وكانت ولايته فى دولة الملك الأشرف برسباى فى حدود الثلاثين والثمانمائة[١٠٧] » ..

ومن المرجح أيضاً أن دار النيابة فى بيت المقدس لم تكن لتستمر فى مكان بعينه طوال عصر سلاطين المماليك ، ودليل ذلك ما يرويه مجير الدين نفسه فى حديثه عن الأمير الكبير علم الدين أبو سعيد سنجر بن عبد الله الجاولى الشافعى (ت ٧٤٥ هـ/ ١٣٤٤ م) ، من أنه بنى مدرسة بالقدس صارت فى عصر مجير الدين سنة ٩٠١ هـ/ ١٤٩٥ م سكناً للنواب بالقدس الشريف[١٠٨] . أما عن وصف دار النيابة أو سكن النائب فى المدينة ، فقد أورد لنا أحد الرحالة الذى زار المدينة عام ٩٠٠ هـ/ ١٤٩٤ م وهو كازولا وصفاً له فى عبارة موجزة قائلاً إن بيت نائب القدس هو أجمل المنازل فى المدينة وأتقنها[١٠٩] .

٢ – والى أو نائب القلعة :

كانت هذه الوظيفة تأتى بعد نائب السلطنة فى الأهمية ، ومن المرجح أنه حدث تطور فى هذه الوظيفة سواء من حيث اللقب الذى يطلق على متوليها أو رتبته العسكرية ، فبينما يشير القلقشندى فى حديثه عن اللقب الذى كان يطلق على متوليها بقوله : « ولاية قلعة القدس ، وواليها جندى » .. مما يفهم منه أنه كان يطلق على من يتولاها لقب « وال[١١٠] » فإن مجير الدين فى حديثه عن الوظيفة ومتوليها يقول أنه « كانت تدق فيها الطبلخاناه فى كل ليلة بين المغرب والعشاء على عادة القلاع بالبلاد وقد تلاشت أحوالها فى عصرنا وتشعثت وبطل منها دق الطبلخاناه وصار نائبها كأحد الناس

لتلاشى الأحوال[١١١] » .. ومنه يفهم أنه كان يطلق على متوليها لقب « نائب » ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى لم تشر المصادر إلى رتبة متوليها وعدد المماليك الذين كانوا فى خدمته ، مما يرجح معه أنه كان من صغار أمراء الطبلخاناه حيث كان يدق على بابه الطبول . كذلك تجب الإشارة إلى أنه يرجح أنه أطلق عليه لقب « نائب القلعة » بعد تحول مدينة القدس من مجرد ولاية تابعة لدمشق إلى نيابة ، كما سبقت الإشارة بذلك[١١٢] . كما تجب الإشارة أيضاً إلى أنه فى أواخر عصر سلاطين المماليك قل الاهتمام بقلعة المدينة وكذلك واليها وهو ما أشار إليه مجير الدين ، ولعل ذلك راجع إلى شعور سلاطين المماليك بعدم وجود أخطار حقيقية تهدد أمن المدينة بسبب خفة وطأة الحروب الصليبية وانشغال الغرب الأوربى بمشاكله الخاصة ، أو بسبب الظروف الاقتصادية السيئة التى أخذت تعانى منها دولة سلاطين المماليك ، والتى سبق أن أشرنا إليها .

كذلك يفهم مما أورده القلقشندى فى حديثه عنها : « وكانت توليتها أولاً من جهة نائب السلطنة بدمشق ثم أخبرنى بعض أهل المملكة الشامية أن ولاية والى القلعة وولاية البلد صارتا إلى نائب القدس من حين استقر نيابة » يقصد سنة ٧٧٧ هـ[١١٣] . وبذلك كان نائب السلطنة فى القدس هو الذى يقوم بتولية والى القلعة أو نائب القلعة كما كان يطلق عليه ذلك أحياناً[١١٤] . ويفهم من المرسوم الصادر لتولى هذه الوظيفة بعض المهام التى كان يكلف بها نائب القلعة بالقدس فى ذلك العصر ، وهى أنه يجب عليه أن يواظب على حفظ القلعة ويتفقد أسوارها ورجالها وعددها وأن يدافع عنها ضد الأعداء ، وأن يرعى الله دائماً فى كل أحواله حتى يكون له عوناً ونصيراً[١١٥] . ومن المرجح أن يكون نائب القدس قد وضع نصب عينيه – فى اختياره من يشغل الوظيفة – الطابع العام للمدينة بحيث كان يتوسم فيه الصلاح والخير وإن كانت مهام منصبه عسكرية أساساً[١١٦] .

٣ – والى المدينة :

ومن الوظائف العسكرية أيضاً – أى وظائف أرباب السيوف – تأتى وظيفة والى المدينة ، ويشير القلقشندى أن واليها جندى « أى من أرباب السيوف ، وكانت توليته من قبل نائب السلطنة بدمشق عندما كانت بيت المقدس ولاية تابعة لها ، وعندما تحولت القدس إلى نيابة أصبح نائب القدس هو الذى يختار من يشغل هذه الوظيفة من بين المماليك[١١٧] . ومع أن المصادر والمراجع التى بين أيدينا لم تعطنا فكرة واضحة عن وظيفة هذا الوالى ، أو المهام التى كان يقوم بها فى مدينة بيت المقدس ، إلا أننا نستطيع القول أنها لم تختلف عن غيرها فى المدن التى خضعت لحكم سلاطين المماليك سواء فى مصر أم فى بلاد الشام ، من حيث أن المهمة الرئيسية لهذا الوالى كانت الإشراف على شئون مدينة بيت المقدس ، وتعقب المفسدين فيها ، وحماية أهلها من الأشرار والعابثين . كذلك كان من اختصاص هذا الوالى « الفحص عن المنكرات من الخمر والحشيش ونحو ذلك ، وسد الذريعة فيه ، والستر على من ستره الله تعالى من أرباب المعاصى ، وإقالة ذوى الهيئات عثراتهم . وليس له أن يتجسس على الناس ويبحث عما هم فيه من منكر ، ولا كبس بيوتهم بمجرد القال والقيل[١١٨] » ..

ولما كان على الوالى أن يراقب هؤلاء الأشرار مراقبة تامة ، فقد كانت مهمته الأولى هى الحفاظ على الأمن ، الأمر الذى أوجب عليه أن يقوم بنفسه بتفقد الشوارع والحارات فى الليل ، ومن المؤكد أنه كان له أعوان يتنقلون فى أنحاء المدينة لينقلوا إليه الأخبار ، ومن المرجح أيضاً أن يكون هو نفسه صاحب الشرطة فى المدينة حيث نجد إشارة لدى مجير فى حديثه عن أسماء من ولى النظر والنيابة بالقدس والذين لم يستوعب أسماءهم ولا تراجمهم حيث اعتقد أن ذلك « تطويل لا طائل تحته خصوصاً حكام الشرطة من النواب[١١٩] » .. كذلك كان مسئولاً عن الحجاج الذين يفدون إلى المدينة وسلامتهم طوال مدة إقامتهم[١٢٠] .

كذلك تجب الإشارة إلى أنه كان من سلطات الوالى أن يعاقب أهل الجرائم وقد حددت بعض كتب المعاصرين بعض طرق العقاب « وليس للوالى غير أن يجلدهم فقط بسوط معتدل بين القضيب » أى الغض « والعصا ، لا رطب ولا يابس ، ويفرق السياط على الأعضاء ، ويتقى الوجه والمقاتل ، ولا يتقى الرأس[١٢١] » ..

ومن خلال نسخة توقيع بولاية القدس أوردها القلقشندى يتضح لنا أنه ربما كان يفضل لتولى هذه الوظيفة من هم من أبناء القدس أى الذين عاشوا فيها وربما تربوا فيها من المماليك ، حيث يقول أنه كان يشترط فيه أن يكون عارفاً بوجوه المصالح حتى يكون السكن أعرف بشمس بلده[١٢٢] » ..

٤ — الحاجب :

كانت هذه الوظيفة من وظائف أرباب السيف التى يتولاها أحد أمراء المماليك وكانت مهمة الحاجب متشعبة منها ما يختص بالمماليك أنفسهم ، حيث كان « ينصف بين الأمراء والجند تارة بنفسه وتارة بمراجعة النائب[١٢٣] » ، هذا بالإضافة إلى أنه من المرجح أنه كان يعرض على نائب السلطنة من يرد إلى المدينة.من المماليك ومن يغادرها منهم وبخاصة من المنفيين إليها أو الذين انتهت مدة نفيهم فيها وهذا ما يفهم من العبارة التى أوردها القلقشندى فى قوله : « وإليه تقديم من يعرض ومن يرد[١٢٤] » .. كذلك دخل ضمن اختصاصه بعض الأمور التى تتعلق بأهل المدينة أنفسهم ، من ذلك « أنه كان يحكم بين الناس وترفع إليه الأمور المتعلقة بأرباب الجرائم وغيرها[١٢٥] » .. ، ولعل المقصود بذلك أنه كان ينوب عن نائب السلطنة فى النظر فى بعض المظالم حسبما يفهم من العبارة السابقة التى أوردها مجير الدين .

كذلك من المرجح أنه كان فى بيت المقدس أربعة حجاب مثل غيرها من نيابات بلاد الشام ، وعلى رأسهم ما يسمى حاجب الحجاب أو أمير حاجب ، حيث ورد ذكر هذا اللقب عند مجير الدين إذ يقول : « وكان بالقدس الشريف فيما تقدم أمير حاجب على عادة غيره من البلاد وكان يحكم بين الناس ويرفع إليه الأمور المتعلقة بأرباب الجرائم وغيرها[١٢٦] » . ويبدو أن هذه الوظيفة كانت موجودة فى بداية عصر سلاطين المماليك ثم ألغيت بعد ذلك وبخاصة فى عصر السلطان الأشرف إينال حوالى عام ٨٦٠ هـ حسبما يروى مجير الدين فى حديثه عنها[١٢٧] . مما يرجح قولنا

السابق أن مهمة الحاجب كانت النظر فى بعض المظالم نيابة عن نائب السلطنة ، وهذا ما يشير إليه مجير الدين من أنه بعد أن تم إلغاء هذه الوظيفة – وإن لم يذكر السبب فى ذلك – فقد « اختص الحكم بنواب القدس نحو الستين والثمانمائة[١٢٨] » .

٥ – كاشف بيت المقدس :

والمقصود بكاشف بيت المقدس فى ذلك العصر هو تلك الوظيفة التى كان يختص بها أحد أمراء الطبلخاناه من المماليك ، الذى كان يتم تعيينه عن طريق نائب القدس ومهمته فى أساسها هى التحدث فى جسورها وأراضيها وسائر متعلقاتها وأحوالها[١٢٩] . وعلى هذا الأساس فهى من الوظائف التى تولاها أرباب السيوف الذين لا يحضرون مجلس السلطان ، وكانت مهمة متوليها الأساسية هى الإشراف على جميع البلاد التى يتولى كشفها ورعاية الجسور فيها وسائر الأمور المتعلقة بأراضيها ، كذلك كان يطلق عليه أحياناً لقب والى الولاة[١٣٠] . كذلك كانت هناك بعض حالات كان السلطان يقوم بنفسه باختيار من يتولى هذه الوظيفة وهذا ما يؤكده أحد المؤرخين المعاصرين[١٣١] .

٦ – ترجمان القدس :

كان فى بيت المقدس على عصر سلاطين المماليك ترجمان ، نظراً لأعداد الحجاج المسيحيين الذين يفدون من الغرب الأوربى عليها ، وكان هذا الترجمان هو أحد المماليك الذين اعتنقوا الإسلام ، والذى كانت مهمته استقبال الحجاج والرحالة الأجانب بيافا والقدس ، وإثبات شخصية كل منهم فى بطاقة خاصة ، ثم ترسل نسخة منها إلى كبير التراجمة فى القاهرة لعرضها على السلطان[١٣٢] . ومن الطبيعى أن يكون لدى هذا الترجمان معرفة ببعض اللغات حتى يتفاهم مع هؤلاء الزوار ، وييسر لهم الإقامة فى المدينة أثناء فترة تواجدهم بها[١٣٣] ، فضلاً عن أنه كان له مساعد يساعده فى مهام أعماله وهو الذى أطلق عليه فيلكس فابرى اسم (الفاهالو[١٣٤]) .

ب – أرباب الأقلام :

١ – المحتسب :[١٣٥]

كان المحتسب أيام سلاطين المماليك فى مدينة بيت المقدس – وفى غيرها من المدن الإسلامية التى خضعت لحكمهم – واحداً من أوسع موظفى الدولة نفوذاً ، لأنه كان يناط به كثير من المسئوليات المتعددة والمتشعبة الجوانب والتى نستطيع أن نلخصها من خلال نسخة توقيع أوردها القلقشندى عن المحتسب فى بلاد الشام فى ذلك العصر ، حيث عهد إليه بحماية الجمهور من الغش والظلم ، والتأكد من توافر السلع الاستهلاكية ويمنع حالات الغش أو الاحتكار فيها ، ومفاجأة الأسواق والتأكد من نظافتها ، إلى جانب العمل على حماية المارة فيها ، فضلاً عن تفقد المساجد للتأكد من أن المشرفين عليها قاموا بنظافتها وحسن استخدامها ، وحماية الأطفال من الضرب على أيدى معلميهم ، فضلاً عن إشرافه على الأطباء والكحالين والجرائحية والصيادلة بالإضافة إلى أرباب الحرف الأخرى[١٣٦] ، هذا

بالإضافة إلى إشرافه على سك النقود من الذهب والفضة وكذلك موارد المياه فى المدينة(١٣٧) . كذلك يفهم مما رواه ابن الاخوة عن وظيفة الحسبة ، أن المحتسب كان له بعض الإشراف على أهل الذمة حيث يمنعهم من إحداث الكنائس والبيع ويأخذ منهم الجزية على قدر طاقتهم(١٣٨) .

كذلك جرت العادة بأن يكون للمحتسب بعض المساعدين والذين يختارهم ممن لهم دراية ببعض الحرف وهم الذين أطلق عليهم لقب « العرفاء » ، وهؤلاء العرفاء كانوا يختارون من بين أصحاب الحرف ، والذين يقومون بمساعدته ، وتقديم النصح له بخصوص بعض المعاملات التجارية ، وإعطائه فكرة عن أحوال السوق(١٣٩) ، كذلك كانوا يبلغون أصحاب الحرف المختلفة كل ما هو مطلوب منهم من واجبات والتزامات ، وربما كانوا يعفون من الضرائب مقابل ما كانوا يقومون به من خدمات أو من جزء منها(١٤٠) .

كما تجب الإشارة إلى أن المحتسب كانت له سلطة تنفيذية كسلطة القضاء وإن كانت العقوبات التى يفرضها لا تبلغ عقوبات الحدود ، وتختلف بحسب الذنب ، وهو ما أطلق عليه التعزير(١٤١) . فكان المحتسب يعقد محاكماته فى مكان معروف باسم دكة المحتسب ، وقد يكون هذا المكان داخل المسجد الأقصى ، ويتخذ الضرب وسيلة للتعزير وذلك عن طريق آلات الضرب مثل السوط والدرة التى تتخذ من جلد البقر أو الجمل المخروزة ، والمقرعة وهى قطعة غليظة من فرع شجرة(١٤٢) .

وفى بداية عصر سلاطين المماليك كان المعين لهذه الوظيفة يختار بدقة ، كما كان يعين أولاً وقبل أن تصبح نيابة من قبل نائب السلطنة فى دمشق بحيث ينوب عن محتسب دمشق ، ثم لما تحولت القدس إلى نيابة أصبح يتم تعيينه من قبل نائب السلطنة فى القدس(١٤٣) . كما لم يكن فى مدينة بيت المقدس إلا محتسب واحد نظراً لصغر حجمها ، فضلاً عن أن تولى هذه الوظيفة قد ظل بيد نائب القدس حتى سنة ٨٨٠ هـ/ ١٤٧٥ م فى عهد السلطان الأشرف قايتباى حيث ألغى تولية الحسبة من نائب القدس لما فرضه عليها من أموال واستمر الحال كذلك مدة ، بحيث كان يتم تعيينه من قبل السلطان « بمرسوم بغير كلفة وبقى هذا مدة ثم اختل النظام(١٤٤) » . وفى الشطر الأخير من عصر سلاطين المماليك صار من المألوف أن يجمع شخص واحد بين الحسبة وغيرها من الوظائف ، كما صارت وظيفة الحسبة تشترى بالرشوة بعد أن كان يتولاها الفقهاء وصار هذا المنصب « فى الشهر الواحد يليه ثلاثة أو أربعة ، وسبب ذلك أنهم فرضوا على المنصب مالاً مقرراً ، فكان من قام فى نفسه أن يليه يزن المبلغ المذكور ويخلع عليه ، ثم يقوم آخر فيزن ويصرف الذى قبله(١٤٥) » . وعلى هذا الأساس يمكننا القول أن هذه الوظيفة فقدت رونقها وسطوتها فى خضم التدهور العام الذى كانت دولة سلاطين المماليك تعانى منه فى عصر الجراكسة(١٤٦) .

٢ – وكيل بيت المال :

وردت إشارة واحدة عند مجير الدين عن وكيل بيت المال بالقدس ، فى عهد السلطان صلاح الدين الأيوبى ، حيث يقول : « الشيخ الفقيه أبو عبد الله محمد بن أبى بكر بن خضر القدسى وكيل

بيت المال بالقدس الشريف وهو الذى فوض إليه الملك صلاح الدين بيع الأملاك الخاصة ببيت المال بالقدس الشريف ثم اشترى منه كنيسة صند حنا وهى المدرسة الصلاحية والجهات التى وقفها عليها[١٤٧] » .. ومن المعروف أن سلاطين المماليك ساروا على سياسة الأيوبيين ونظمهم الإدارية ، لذا فمن المرجح أن تكون هذه الوظيفة قد ظلت قائمة فى بيت المقدس فى عصر سلاطين المماليك ، ولسنا ندرى هل كان تولى هذه الوظيفة يتم عن طريق نائب بيت المقدس أم عن طريق السلطان ، لأن القلقشندى يعتبر هذه الوظيفة من الوظائف المتوسطة « فتارة يولى فيها السلطان ، وتارة يولى فيها النواب . إلا أن تولية السلطان فيها فى النيابات الكبار كالشام أكثر[١٤٨] » .. ومن المرجح أنها كانت موجودة ببيت المقدس طوال عصر سلاطين المماليك ، لأننا نراه يتحدث عن هذه الوظيفة فى بلاد الشام بوجه عام فيقول : « وهى وظيفة عظيمة الشأن رفيعة القدر ، وموضوعها التحدث فيما يتعلق بمبيعات بيت المال ومشترياته من أراض وآدر وغير ذلك ، والمعاقدة على ذلك وما يجرى هذا المجرى .. ولا يليها إلا أهل العلم والديانة ، ومجلسه بدار العدل وتارة يكون دون المحتسب ، وتارة فوقه بحسب رفعة قدر كل منهما فى نفسه[١٤٩] » .

والمعروف أن القلقشندى كان معاصراً لعصر سلاطين المماليك حتى الربع الأول من القرن التاسع الهجرى/ الخامس عشر الميلادى ، فلو أن هذه الوظيفة ألغيت فى بيت المقدس لوجدناه قد ذكر ذلك .

ومن الطبيعى أن يقوم بمساعدة وكيل بيت المال بعض الموظفين الآخرين فى عمله ، مثل « العامل » الذى كان ينظم الحسابات و « الصيرفى » الذى كان يتولى قبض المال وصرفه بمعاونة الصيارفة ، وكذلك بعض الموظفين الذن كانوا يقومون بعمل ما نطلق عليه فى عصرنا الحاضر الأرشيف وهم كتاب الدرج[١٥٠] .

٣ – نقابة الأشراف :

يقول القلقشندى عن هذه الوظيفة « وهى وظيفة شريفة ، ومرتبة نفيسة ، موضوعها التحدث على ولد على بن أبى طالب كرم الله تعالى وجهه من فاطمة بنت رسول الله ﷺ – وهم المراد بالأشراف ، فى الفحص عن أنسابهم والتحدث فى أقاربهم والأخذ على يدى المتعدى منهم ونحو ذلك ، وكان يعبر عنها فى زمن الخلفاء المتقدمين بنقابة الطالبيين[١٥١] » .

ويبدو أن ولايتها كانت من نائب بيت المقدس على نحو ما ذكر فى دمشق . ويروى لنا ابن تغرى بردى فى ذكر وفيات سنة ٧٩٨ هـ أن نقيب الأشراف السيد الشريف صدر الدين مرتضى بن الشريف غياث الدين ابراهيم ابن حمزة الحسنى العراقى كان قد « ولى نظر وقف الأشراف مع نقابة الأشراف ونظر القدس والخليل » ، وفى هذا تأكيد أن مهمة نقيب الأشراف لم تكن فقط هى الإشراف على طبقة الأشراف بل ورعاية مصالحهم الاقتصادية أيضاً[١٥٢] .

٤ – ناظر كنيسة القيامة :

من الوظائف التى عرفت فى مدينة بيت المقدس على عصر سلاطين المماليك وظيفة ناظر كنيسة القيامة ، والذى يذكره لنا الرحالة كازولا الذى زار بيت المقدس عام ١٤٩٤ م تحت اسم Abrayano[١٥٣] ، والذى كان يشرف على أعداد الحجاج المسيحيين الواصلين إلى الكنيسة والزوار ، وهو الذى يقوم بتحصيل ما يسمى « موجب السلطان » بعد أن يدون كل منهم بعض المعلومات الشخصية عن نفسه من ذكره لإسمه واسم عائلته وسنه وجنسيته وطوله والعلامات المميزة له ، كلون العينين ولون الشعر إلى غير ذلك فى نسختين ثم يبصم بيده عليهما ، وتحفظ واحدة منهما فى القدس والأخرى ترسل إلى القاهرة ، وهذا الناظر كان يتبعه عدد من الحراس يبلغ خمسة عشر حارساً . ويرى بعض الباحثين أن المصادر العربية لم تشر إلى تلك الوظيفة ، كما أنه لم يكن معروفاً هل كان من المسلمين أم من المسيحيين المحليين ؟[١٥٤] إلا أننا نرى أن هذه الوظيفة نفسها هى التى أشار إليها القلقشندى تحت اسم « شد متحصل قمامة » وأن متوليها كان من المسلمين بدليل ما ورد فى نسخة التوقيع الخاصة بتولية هذه الوظيفة بأنه على متوليها أن يبدى « رأفة مع ذلك بالظاهرى العجز : ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا » .. وأن يكون « عاملاً بتقوى الله تعالى فإن أهل معاملته أهل ذمة[١٥٥] » .. ، كذلك تؤكد لنا المصادر الأوربية بأنه كان من المسلمين هو والحراس الذين يتبعونه[١٥٦] . وهم الذين كانوا يقومون بعد الحجاج عند دخولهم كنيسة القيامة وعند الخروج منها . ومما لا شك فيه أن نائب مدينة بيت المقدس هو الذى كان يعين من يصلح لهذه الوظيفة ، لأنها لم تكن من الوظائف الجليلة حسبما يذكر القلقشندى[١٥٧] . كذلك من المرجح أن يكون قد اشترط لتولية هذه الوظيفة أن يكون شاغلها ملماً ولو بلغة واحدة أجنبية حتى يستطيع التفاهم مع الزوار ، وربما كان يستعين فى ذلك بأحد التراجمة .

جـ – الوظائف الدينية :

١ – القضاء :

لما استرد السلطان صلاح الدين الأيوبى مدينة بيت المقدس من الصليبيين سنة ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م ، وكان شافعى المذهب ، لذا فهو أول من أقام المذهب الشافعى فى المدينة بعد وقفه المدرسة الصلاحية وجعلها للشافعية[١٥٨] . ومن المؤكد أن الهدف من إقامة هذه المدرسة كان نشر المذهب الشافعى فى القدس ، لأن القدس قبل قدوم الصليبيين إليها كانت قد خضعت للدولة الفاطمية الشيعية فى مصر . وبذلك أصبح المذهب الشافعى هو المذهب السائد فى القدس منذ العصر الأيوبى ، ومع هذا فإن المراجع تشير إلى وجود مذهب آخر فى ذلك العصر فى مدينة بيت المقدس ألا وهو مذهب الحنفية . فيروى لنا أحد الباحثين فى حديثه عن المدرسة المعظمية التى بناها الملك المعظم عيسى فى القدس سنة ٦١٤ هـ / ١٢١٥ م أنه « أمر بعمله مولانا السلطان الملك المعظم شرف الدنيا والدين أبو العزائم عيسى بن أبى بكر بن أيوب الواقف لهذه المدرسة على الفقهاء والمتفقهة من

أصحاب الإمام الأعظم أبى حنيفة رضى الله عنه وأرضاه وذلك فى شهور سنة أربع عشرة وستمائة للهجرة النبوية تقبل الله منه وغفر له وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم تسليماً[١٥٩] » . ومن المرجح أن يكون أتباع هذا المذهب أقلية بالنسبة للمذهب الشافعى ، لذا لم يكن لأتباع هذا المذهب قاض ، حيث تجمع المصادر المعاصرة كلها على أن أول قاض حنفى وجد بالقدس هو خير الدين العجمى من صوفية خانكاه شيخو بالقاهرة ، وكان ذلك عام ٧٨٤ هـ/ ١٣٨٢ م فى عهد السلطان الظاهر برقوق[١٦٠] . هذا القاضى نفسه الذى يذكره مجير الدين (قاضى القضاة خير الدين أبو المذاهب خليل بن عيسى بن عبد الله العجمى البايرتى الحنفى الإمام العلامة كان من أهل العلم والدين . قدم من بلاده واختار الإقامة ببيت المقدس وولى قضاء القدس من الملك الظاهر برقوق فى أربع وثمانين وسبعمائة .. توفى بالقدس الشريف فى صفر سنة إحدى وثمان مائة ودفن بماملا[١٦١] » .. وبذلك كان أول منصب استحدث فى مدينة بيت المقدس لقضاء الحنفية على عصر سلاطين المماليك ، كما سبقت الإشارة بذلك وتلاه منصب قاضى المالكية فى سنة ٨٠٢ هـ/ ١٣٩٩ م ثم تلاه منصب قاضى الحنابلة عام ٨٠٤ هـ/ ١٤٠١ م[١٦٢] . هذا وتشير بعض المراجع إلى أن قضاء الحنابلة استحدث فى بيت المقدس سنة ٨٨٤ هـ/ ١٤٧٩ م[١٦٣] ، إلا أننا نميل إلى الرأى الأول ، والدليل على صحة ذلك ما يرويه لنا ابن حجر العسقلانى فى ذكره لحوادث سنة ٨١١ هـ/ ١٤٠٨ م أيام الناصر فرج بن برقوق أنه « فى هذه السنة أعيد التجديد بالقدس والرملة للأربع قضاة » وفى هذا تأكيد لوجود قضاة للمذاهب الأربعة فى تلك السنة ولعله قبلها ، هذا فضلاً عن أن ابن حجر كان معاصراً للأحداث التى يرويها هنا فى تلك السنة ، مما يجعلنا نثق فى روايته كل الثقة[١٦٤] .

كذلك تجب الإشارة إلى أن تولية قضاة المذاهب الأربعة فى مدينة بيت المقدس كان من اختصاص السلطان فى القاهرة . وفى هذا تأكيد لما سبق أن أشرنا إليه من سياسة المماليك الدينية وأثرها فى أوضاع بيت المقدس ، ويؤكد لنا القلقشندى ذلك فى حديثه عن الوظائف الدينية أن تولية قضاة القضاة كانت تعتبر من الوظائف الجليلة وأن توليتها يختص بها السلطان وحده ، أما فيما عدا ذلك من وظائف كقضاة العسكر ، وإفتاء دار العدل ، والحسبة ، ووكالة بيت المال ، ومشيخة الشيوخ ونحو ذلك ، فتارة يولى فيها السلطان ، وتارة يولى فيها النواب[١٦٥] .

هذا بالإضافة إلى أن قاضى الشافعية فى القدس كان عادة ما يجمع بين قضاء القدس والرملة ، كذلك كان يجمع بين قضاء القدس الشريف ونابلس وفاقون وجينين وأعمالها ، فضلاً عن أن منصب القضاء كان يتوارثه الأبناء عن الآباء[١٦٦] ، كذلك كان القاضى الشافعى كثيراً ما يجمع بين منصب القضاء والخطابة ببيت المقدس[١٦٧] . هذا فضلاً عما تشير إليه المصادر المعاصرة من تحول كثير من القضاة بل وطلبة العلم من مذهب إلى مذهب آخر ، كأن يتحولوا من المذهب المالكى إلى الشافعى ، وربما كان السبب وراء هذا التحول هو كثرة ما يحصلون عليه من أموال لكثرة الأوقاف المحبوسة على أبناء ذلك المذهب[١٦٨] .

وكثيراً ما تطالعنا المصادر المعاصرة بأن بعض القضاة كان يباشر مهام منصبه بهمة ونشاط

وشهامة ، وأن له هيبة عند الناس والحكام وأنه نفذ أمره فى كثير من الأمور الدنيوية ولدى أرباب الحرف ، ومنهم من كان عفيفاً فى مباشرته لا يتناول غير معلومه المرتب على أحد الأوقاف والذى قد يصل إلى عشرة دراهم فضة كل يوم مما كان له أكبر الأثر فى نفوس معاصريهم ومهابة لدى السلطات[١٦٩] . إلا أننا قليلاً ما نسمع عن سعى بعضهم لتولى تلك الوظائف ببذل المال والرشاوى ، مثال ذلك ما رواه المقريزى سنة ٧٤٦ هـ/ ١٣٤٥ م أيام السلطان شعبان بن الناصر محمد بن قلاوون من أن ابن سالم قاضى القدس « ما زال يسعى بالخدام حتى كتب له توقيع بقضاء القدس ، على ألف وخمسمائة دينار حملها للسلطان ، ومثلها لمن سعى له » ، ويبدو أن دفع تلك الرشاوى قد ظهر بوضوح أيام ذلك السلطان إذ يقول عنه المقريزى : « اشتهر أخذ البراطيل للسلطان ، فقصده كل أحد لطلب الاقطاعات والرزق والرواتب[١٧٠] » .

هذا وتجب الإشارة إلى أن القضاء بين الطوائف المسيحية المختلفة التى عاشت فى بيت المقدس من المماليك كان بأيدى أبناء هذه الطوائف ، إلا فيما يتعلق بما كان يوجد من خلاف بين أبناء هذه الطوائف بعضها وبعض ، وخصوصاً فيما يتعلق بالأماكن المقدسة المسيحية ، فإنهم فى هذه الحالة كانوا يلجأون إلى قاضى القدس المسلم للفصل فيما ينشب من منازعات ، وتشهد بذلك سجلات المحكمة الشرعية بالقدس[١٧١] . أما ما كان يحدث من خلافات بين المسلمين والمسيحيين على اختلافهم ، فكان الفصل فيه يتم على يد القضاة المسلمين ، ولم نسمع عن انحياز هؤلاء القضاء لإخوانهم المسلمين ، ولعل الوثائق التاريخية الموجودة لدى الرهبان الفرنسسكان خير شاهد على مدى ما تمتع به هؤلاء الرهبان من أمن وطمأنينة فى رحاب عدالة القضاء الإسلامى[١٧٢] .

أما فيما يتعلق بالقضاء لدى اليهود ، فيروى لنا الرحالة اليهودى اسحق بن شيلو الذى زار بيت المقدس عام ٧٣٥ هـ/ ١٣٣٤ م أن جماعة اليهود بها كانوا يشتغلون بكثير من الحرف ، ولكن الجزء الأكبر من علمائهم يصلون الليل بالنهار لدراسة القانون المقدس والحكمة[١٧٣] . بما يفهم منه وجود قضاة لديهم ، كذلك يذكر الرحالة اليهودى موسى بن مناحم الذى زار المدينة أيضاً عام ٨٧٦ هـ/ ١٤٨١ م فى حديثه عن اليهود بها ، أنه كان لهم قضاة يفضون المنازعات التى تنشأ بين طوائف اليهود المختلفة ، وكان يطلق على كل منهم لقب « الشيخ »[١٧٤] . ويؤكد لنا Goitein فى مقالة له أن اليهود كان لهم محكمة خاصة بهم والتى كانت قد تركزت حول الكنيس الخاص بهم ، كما أن القضاة اليهود كانوا من علماء اليهود حسبما تؤكد ذلك وثائق الجينيزا ، ويقصد بها الوثائق التى تم العثور عليها فى مصر وترجع إلى العصور الوسطى ، والتى كتبها اليهود المقيمون بمصر وتتناول مختلف نواحى حياتهم[١٧٥] .

كما يذكر فى مقالة أخرى فى رده على أحد الباحثين قوله « إننى لا أعتقد أن القضاة اليهود كانوا يتلقون أجراً عن أتعابهم عن كل قضية يحكمون فيها .. ولكن عندما يقوم هؤلاء القضاة بتوثيق بعض الوثائق فمن هنا كانوا يتناولون بعض الأتعاب عن كل وثيقة يوثقونها[١٧٦] » ..

وفى هذا خير دليل على أن اليهود فى مدينة بيت المقدس كان لديهم بعض القضاة يتولون القيام

بفض ما قد ينشأ بين أبناء مجموعة اليهود فى المدينة من منازعات ، سواء كانو يحصلون على أجر نظير قيامهم بذلك العمل من الأشخاص الذين يحتكمون إليهم ، أم أنهم عاشوا على ما يقدمه لهم أبناء طائفة اليهود من مساعدات نظير قيامهم بتلك الأعمال[١٧٧] ..

هذا فضلاً عما تشير إليه المصادر اليهودية من أنهم قد نعموا فى ظل الحكم الإسلامى وفى عصر سلاطين المماليك بكثير من التسامح والعدل ، وهذا ما يشهد به كثير من مؤرخى اليهود أنفسهم الذين دونوا مؤلفاتهم عن إخوانهم اليهود فى بيت المقدس والذين عاصروا تلك الفترة[١٧٨] . هذا بالإضافة إلى ما تشير إليه تلك المصادر من أنه كان لهم رؤساؤهم الدينيون فى تلك الفترة من حاخامات ، كذلك وجد لهم رئيس أعلى كان يطلق عليه لقب « الناجد » ، إلا أن أغلبية هؤلاء الرؤساء كانوا من الاشكنازيم وهم يهود شرق أوربا[١٧٩] . هذا فضلاً عما يشير إليه أحد كبار رجال الدين اليهود والذى زار مدينة بيت المقدس عام ٨٣٨ هـ/ ١٤٣٤ م وهو Elijah of Ferrara بأن عمل هؤلاء الرجال لم يكن قاصراً على مدينة بيت المقدس فقط ، بل إنهم تولوا الرد على كثير من الاستفسارات الفقهية الخاصة بالعقيدة اليهودية وما يتعلق بها ، تلك الاستفسارات التى كانت ترد إليهم من مصر والاسكندرية وبغداد وغيرها من البلاد[١٨٠] .

٢ - ناظر الحرمين :

ويسمى متولى هذه الوظيفة أيضاً بناظر القدس والخليل ، ومن مهامه النظر فى كل ما يحتاج إليه الحرم الشريف بالقدس وحرم الخليل من إصلاح وترميم فضلاً عن رواتب القائمين بالعمل فيهما ، والإشراف والتصرف فى الأموال المخصصة للأوقاف الخاصة بهذين الحرمين . كذلك كان من اختصاصه الإشراف على موارد المياه التى تمد الحرمين الشريفين والقدس والخليل بالمياه اللازمة للمصلين ، مثل قناة السبيل التى كثيراً ما نسمع عن خروج هذا الناظر ومعه العمال والصناع والآلات لعمارتها ، كذلك كان من اختصاصه ترتيب الوظائف فيهما[١٨١] .

وجدير بالملاحظة أن هذه المهام كانت من اختصاص نائب القدس أو واليها منذ سنة ٧٧٧ هـ/ ١٣٧٥ م ، غير أنها انفردت عنه فى سنة ٨٤٣ هـ/ ١٤٣٩ م ، وذلك عندما ولى السلطان الظاهر جقمق القاضى غرس الدين خليل بن أحمد بن محمد بن عبد الله السخاوى نظر الحرمين كوظيفة مستقلة عن النيابة[١٨٢] . وكانت ولاية هذه الوظيفة تصدر عن الأبواب السلطانية بالقاهرة ، وكما سبقت الإشارة بذلك ، إلا أنه يبدو أن التعيين فى هذا المنصب وبخاصة فى عصر سلاطين المماليك الجراكسة كان يتم بعد دفع مبلغ من المال ، ويؤكد لنا ابن تغرى بردى ذلك فى حديثه عن سنة ٨٤٧ هـ/ ١٤٤٧ م أيام السلطان أبو سعيد جقمق من أنه « استقر الأمين عبد الرحمن فى نظر الحرمين القدس والخليل بمال وعد به بعد وفاة الغرس خليل السخاوى » . وهذا يعكس لنا سوء الأحوال الاقتصادية فى دولة سلاطين المماليك ، نتيجة لقلة الأموال الواردة إلى السلطان من التجارة فضلاً عن ضعف الاقطاعات الزراعية عن الوفاء باحتياجاته مما كان يضطره إلى جمع المال بأية وسيلة[١٨٣] .

٣ – خطيب القدس :

كانت هذه الوظيفة تسند إلى من يقوم بالخطبة فى المسجد الأقصى ، ومن الملاحظ أن القائمين عليها كانوا أحياناً يجمعون بينها وبين وظيفة القضاء ، أو بينها وبين التدريس فى المدرسة الصلاحية ببيت المقدس ، كذلك يفهم مما رواه مجير الدين أن خطيب بيت المقدس كان أحياناً ما يجمع بين منصب الخطابة والقضاء والإمامة والافتاء مدة من الزمن ، نظراً لما يشتهر به من علم وصلاح ، هذا فضلاً عما عرف عن عائلتى بنى القرقشندى وبنى جماعة بالقدس الشريف من مكانة علمية ، فإن أبناء العائلتين كانوا يشتركون فى الخطابة بالتناوب ، وكذلك الحال بالنسبة لمشيخة الخانقاة الصلاحية ، لذا لا عجب عندما نسمع أن أحد أبناء العائلتين قد استمر فى نصف وظيفة الخطابة بالمسجد الأقصى ، أو أنه عندما توفى كان بيده الربع والثمن من الخطابة ، ونصف المشيخة بالخانقاه الصلاحية ، واستقر بعده فيما بيده من ذلك ولده أو أنه استقر فى نصف وظيفة الخطابة الذى كان بيد أخيه واستمر فى يده إلى أن توفى هذا الأخير[١٨٤] .

كما تجب الإشارة إلى أن تولى منصب الخطابة منذ بداية القرن التاسع الهجرى الخامس عشر الميلادى أصبح عن طريق بذل المال للسلطان ، من ذلك ما يرويه لنا أحد المعاصرين من أنه فى سنة ٨٠٢ هـ/ ١٣٩٩ م وفى عهد السلطان فرج بن برقوق « استقر ابن السائح الرملى فى خطابة القدس ، بذل فيها ثمانين ألف درهم فصرف ابن غانم النابلسى » وأن جمال الدين يوسف بن غانم المقدسى تولى الخطابة « بمال بذله ثم سعى عليه القاضى جمال الدين عبد الله ابن السائح قاضى الرملة بمائة ألف درهم ولم يقم بها غير ثلاثة أشهر وعزل بالباعونى[١٨٥] » .

ومما لا شك فيه أن كثرة التعيين والعزل فى ذلك المنصب ، التى يصورها لنا المقريزى فى حديثه عن سنة ٨١٣ هـ/ ١٤١٠ م أيام السلطان فرج بن برقوق تعكس لنا سوء الأحوال التى آلت إليها الدولة فى تلك الفترة ، حيث يقول : « فكان فى مدة تسعة أشهر قد ولى خطابة القدس خمسة أحدهم وليها مرتين[١٨٦] » . ومن المرجح أن يكون السبب فيما وصلت إليه الحال هو شره السلاطين فى المال من جهة ، نظراً لسوء الأحوال الاقتصادية التى كانت تعانى منها البلاد ، فضلاً عن تكالب رجال الدين على هذا المنصب وتنافسهم فيما بينهم فى دفع الأموال للحصول عليه ، لما سوف يعود عليهم من أموال ، من جهة ثانية . وثمة ملاحظة أخيرة نوردها . فقد لفت نظرنا فيما تيسر لنا الاطلاع عليه من مصادر ومراجع أن كل من تولوا منصب خطيب بيت المقدس كانوا من الشافعية ، ولسنا ندرى السبب فى هذا : هل هو راجع إلى سيادة ذلك المذهب على غيره ، أم أنه كان يشترط فيمن يتولى هذا المنصب أن يكون شافعياً[١٨٧] .. كما أننا لم نعثر خلال المصادر والمراجع التى تحدثت عن بيت المقدس عن وجود ما يسمى « بخلوة الخطابة » والتى عرفت فى المساجد فى مصر فى عصر سلاطين المماليك وهى عبارة عن الحجرة المعدة لوضع ملابس الخطيب الخاصة ، وقد يحفظ بها أيضاً بعض المربعات الشريفة ، كذلك لعله خصص لكل خطيب سكن بجوار المسجد الأقصى[١٨٨] .

٤ – مشيخة المدرسة الصلاحية :

وهى من الوظائف الدينية الهامة فى مدينة بيت المقدس ، وكان يشترط فى القائم بها أن يكون من أبرز علماء عصره ، كما كان شيخ هذه المدرسة يعين من قبل السلطان بالقاهرة ، ويؤكد لنا مجير الدين ذلك فى حديثه عن شيخ الإسلام الكمالى ابن أبى شريف (ت ٨٩٤ هـ/ ١٤٨٨ م) حيث يقول « وخلع عليه بحضرة السلطان بالحوش وكنت حاضراً ذلك المجلس فى صبيحة يوم السبت فى شهر صفر سنة ست وسبعين وثمانمائة وسافروا جميعاً من القاهرة ودخلوا إلى القدس الشريف[١٨٩] » . وقد سبقت الإشارة إلى أن التنافس كان شديداً بين رجال الدين على تولى هذه الوظيفة ، وفى الحقيقة أنه لم تصادفنا أية معلومات عن مهمة شيخ المدرسة الصلاحية بالقدس ، إلا أننا نستطيع القول إنها لم تختلف عن غيرها من وظائف شيوخ المدارس الأخرى ، من حيث أن مهمته كانت الإشراف على جماعة المدرسين والمعيدين والطلبة والخدام ومن إليهم الذين يفدون على المدرسة الصلاحية ، كذلك توفير كل ما يلزمهم من ضروريات من مأكل وملبس وخلافه ، أو بمعنى آخر تنفيذ وصية الواقفين على هذه المدرسة فضلاً عن رعايته للأوقاف المحبوسة عليها ، والعمل على تنميتها حتى تواجه متطلبات القائمين بالعمل فيها والواردين عليها من طلبة العلم .

٥ – مشيخة الخانقاه الصلاحية :

كانت هذه الخانقاه محلاً لرجال التصوف والمجاورين ببيت المقدس وهى التى أوقفها السلطان صلاح الدين الأيوبى على الصوفية عقب فتحه للقدس سنة ٥٨٥ هـ/ ١١٨٩ م . ويؤكد لنا أحد الباحثين أن بناء هذه الخانقاه لا زال موجوداً بالمدينة فى الوقت الحاضر[١٩٠] . ومما لا شك فيه أن وظيفة شيخ الخانقاه الصلاحية كانت من الوظائف الهامة فى مدينة بيت المقدس على عصر سلاطين المماليك ، والدليل على هذا أن شيخ الخانقاه كان يعين بتوقيع من السلطان المملوكى بالقاهرة[١٩١] . كذلك يجب أن نشير إلى أنه كثيراً ما نسمع فى المصادر المعاصرة عن تناوب بعض الأشخاص فى تولى مشيخة الخانقاه أو أن تكون مناصفة بين شخصين[١٩٢] . كذلك تؤكد لنا بعض المصادر أن هذا المنصب كان يتوارثه الأبناء عن الآباء ، من ذلك ما يرويه لنا مجير الدين فى ذكره لحوادث ٨٩٠ هـ/ ١٤٨٥ م أيام السلطان الأشرف قايتباى حيث يقول « وفى ذى الحجة توفى الشيخ جمال الدين عبد الله بن غانم شيخ حرم القدس الشريف واستقر ولده الشيخ ناصر الدين محمد فيما كان بيد والده من مشيخة الحرم ونصف مشيخة الخانقاه الصلاحية بالقدس الشريف[١٩٣] » .

هذا ويجب أن نشير إلى أنه وجدت فى بيت المقدس عدة وظائف مماثلة لمشيخة الصلاحية منها مشيخة المغاربة ومشيخة التنكزية ومشيخة الأمينية ، إلا أنه كان يتم التعيين فى هذه الوظائف من قبل نائب السلطنة بدمشق أولاً ثم من نائب القدس بعد أن أصبحت نيابة ، وكما حدث بالنسبة لمشيخة الصلاحية من قيام أكثر من شخص بتولى مشيختها فى وقت واحد ، حدث أيضاً بالنسبة لهذه الوظائف[١٩٤] .

٦ – أئمة المساجد :

كانت إمامة المصلين من الوظائف الدينية التى لها ترتيب خاص فى الحرم القدسى ، ويروى لنا ابن شاهين الظاهرى أنه « يصلى بمسجد بيت المقدس فى أذن أربع صلوات على المذاهب الأربعة أول ما يبدأ بمذهب الإمام مالك بجامع المغاربة ثم بالمسجد الأقصى على مذهب الإمام محمد بن ادريس الشافعى ثم بقبة الصخرة على مذهب الإمام الأعظم أبى حنيفة النعمان ثم بقبة موسى والرواق الغربى ، على مذهب الإمام أحمد بن حنبل » هذا مع العلم بأن الأماكن المذكورة كلها داخل الحرم الشريف[١٩٥] . ويبدو أن هذ العادة كانت متبعة فقط فى صلاتى الظهر والعصر لأننا نسمع أنه فى صلوات المغرب والعشاء والفجر فكل إمام يصلى بجماعته من غير ترتيب ، وأما صلاة الجمعة فإنما تقام بالمسجد الأقصى بمحل صلاة إمام الشافعية لا غير ، وأما صلاة العيدين وصلاة الاستسقاء فإنها تقام فى المحراب الذى على صحن الصخرة الشريفة ، ويخطب الخطيب على المنبر الذى بجانب المحراب[١٩٦] . وعلى هذا الأساس يمكننا القول أنه كان هناك أربعة من الأئمة داخل المسجد الأقصى على النحو التالى ، إمام للصخرة أى مسجد الصخرة على مذهب الإمام أبى حنيفة النعمان ، وإمام للمالكية بجامع المغاربة – أى فى المكان المخصص لهم – بالمسجد الأقصى ، وإمام لقبة موسى بالمسجد الأقصى على مذهب الإمام أحمد بن حنبل ، وكذلك إمام بالمسجد الأقصى على مذهب الإمام الشافعى . وقد اشترط فيه أن يكون من أهل العلم والصلاح ، حافظاً لكتاب الله الكريم ، مشهوراً بالخير والدين ، وحسن الصوت ، يحسن التلاوة ، عالماً بأحكام العبادات الشرعية ، وأن يحضر إلى المسجد أول الوقت وألا يجمع بين إمامة مسجدين ، وأن ينصح المؤتمين بالإخلاص فى صلاتهم وأن يجأر فى دعائه[١٩٧] .

٧ – المؤذنون :

من الوظائف الدينية ببيت المقدس المرتبة بمساجدها وظيفة المؤذن ، ويبدو أن عدد المؤذنين كان كبيراً فى المدينة ، بحيث أننا نسمع عن وجود وظيفة « رئيس المؤذنين » بالمسجد الأقصى الشريف ومسجد الصخرة ، ويبدو أنه كان يشترط فيمن يتولى هذه الوظيفة أن يكون حسن الصوت والأداء ، وأن تكون لديه حشمة ووقار[١٩٨] .

ومن الطبيعى أن تكون مهمة المؤذنين هى القيام بالأذان لكل صلاة فى وقتها ، والتسبيح فى أواخر الليل فى الوقت المعتاد فى الحرم الشريف ، ويبلغون خلف الإمام ، ويقرأون بعد الصلاة ما تيسر من القرآن الكريم ويصلون على الرسول الكريم ، ويختمون بالذكر والتأمين على الدعاء على العادة فى ذلك .

٨ – المرقى « المكبِّر » :

اشترطت وثيقة وقف السلطان قايتباى وجود وظيفة « المكبِّر » وهو المرقى الذى يتولى وظيفة الترقية للخطيب ويذكر الآية الكريمة « إن الله وملائكته يصلون على النبى ، يا أيها الذين آمنوا ... »

من سورة الأحزاب آية ٥٦ – عند ظهور الخطيب من خلوة الخطابة ، ويكبر عند صعوده المنبر ، ويروى الحديث الوارد فى الإنصات « إذا قلت لصاحبك أنصت يوم الجمعة والإمام يخطب فقد لغوت » ، ولعله اشترط فى متولى هذه الوظيفة ما اشترط فى غيرها من الوظائف الأخرى من إمامة وغيرها[١٩٩] . فضلاً عن أنه كان لابد أن يكون جهورى الصوت[٢٠٠] .

٩ – الموقت والمقرىء :

من الوظائف الدينية التى عرفت ببيت المقدس على عصر سلاطين المماليك وظيفة الموقت ، وهى وظيفة مرتبطة بالأذان ، وكما هو معروف عن طبيعة هذه الوظيفة أن صاحبها كان عليه أن يحدد مواعيد الصلاة بدقة تامة ، ويبدو أنه كان يشترط فيمن يلى هذه الوظيفة أن يكون حاذقاً فى هذا الفن ، أو أن يكون عارفاً بالمواقيت والفلك وعلم الهيئة .

كما تطالعنا المصادر المعاصرة أن صاحب هذه الوظيفة كان يستمر فيها مدة طويلة من العمر ، من ذلك ما يرويه مجير الدين عن أحد موقتى بيت المقدس وهو الشيخ « شمس الدين محمد التميمى الموقت بالمسجد الأقصى الشريف كان من أهل الحذق فى فنه باشر التأقيت بالمسجد الأقصى مدة أربعين سنة وكان موجوداً فى سنة خمس وخمسين وثمانمائة وتوفى بعدها بقليل[٢٠١] » . وقد يقوم المؤذن نفسه بهذه الوظيفة إذا توفرت فيه الشروط السالفة الذكر ، ولا شك أن « الميقاتى » أو الموقت كان يستخدم بعض الآلات فى تحديد أوقات الصلاة ، منها المزولة والساعات الرملية وغيرها من الآلات الزمنية وبخاصة فى الليل ، وكانت هذه الآلات موجودة فى الجوامع والمساجد والمدارس لتحديد الأوقات ، ويباشرها الميقاتى بنفسه[٢٠٢] .

وإلى جانب وظيفة الموقت « فقد كانت هناك وظيفة المقرىء ، وهذه الوظيفة لا شك أن متوليها كان يشترط فيه أن يكون على دراية بعلم القراءات . وهذا العلم هو « صناعة مخصوصة وعلم منفرد تناقله الناس بالمشرق والمغرب »[٢٠٣] . كذلك لابد أن يكون حسن الصوت والأداء والترتيل ، حافظاً لكتاب الله ، ومن المؤكد أنه كان فى بيت المقدس عدد كبير من القراء بدليل وجود وظيفة « رئيس القراء بالقدس الشريف[٢٠٤] » .

ومما لا شك فيه أن نائب السلطنة فى بيت المقدس كان يقوم بتولية الوظائف السابقة ، نظراً لمعرفته بأهل البلاد من جهة ، ومن جهة أخرى فلم تصل فى درجتها إلى درجة الوظائف الكبرى التى حرص السلاطين على توليتها من قبلهم كما سبقت الإشارة بذلك .

ومن هذا العرض يتضح لنا أنه بالرغم من عودة المدينة إلى أحضان الدولة الإسلامية عقب استرداد صلاح الدين للمدينة بعد موقعة حطين الشهيرة ، فإن المدينة شهدت نوعاً من الاضطراب الذى نجم عن الصراع السياسى بين أبناء البيت الأيوبى والصليبيين من جهة ، ثم بين الأيوبيين بعضهم والبعض من جهة ثانية ، وبين الأيوبيين والمماليك من جهة ثالثة ، هذا الاضطراب الذى أثر فى مجريات الحياة العامة فى المدينة .

فضلاً عن أن قيام دولة سلاطين المماليك فى مصر كان بمثابة الضرورة الحتمية لمواجهة الأخطار التى أحدقت بالمنطقة العربية ، تلك الأخطار الممثلة فى الصليبيين من جهة والمغول من جهة ثانية ، خصوصاً بعد أن ظهر تقاعس الأمراء والملوك الأيوبيين فى الدفاع عن العباد والبلاد أمام الغزو المغولى ، وكانت موقعة عين جالوت بمثابة النهاية للدولة الأيوبية وقيام دولة المماليك محلها فى حكم بلاد الشام ، وما نتج عن شعور سلاطين المماليك من نظرة معاصريهم لهم بسبب أصلهم ، مما كان دافعاً لهم على اتخاذ سياسة ذات شقين ، الشق الحربى أو العسكرى وهو الظهور دائماً بمظهر القوة المدافعة عن الإسلام والمسلمين ، والشق الدينى وهو الاهتمام بمقدسات المسلمين وحمايتها ، وما كان لهذا الشق من أثر فى بيت المقدس .

وعلى هذا الأساس يمكننا القول أن عصر سلاطين المماليك يمثل مرحلة جديدة تماماً فى تاريخ مصر والشام بوجه عام وبيت المقدس بوجه خاص ، مرحلة لها طابعها الخاص الذى يتصف بالأمن والاستقرار والثراء والازدهار ، مرحلة جعلت من مدينة القدس مرة أخرى عنصراً فعالاً فى الحياة الإسلامية بجوانبها المختلفة ، وهذا ما سوف يتضح لنا من خلال الفصول القادمة من هذا البحث .

هوامش

(١) العماد الأصفهاني : كتاب الفتح القسي في الفتح القدسي ، طبع القاهرة ١٩٠٣ ص ٤٧

(٢) أبو شامة : الروضتين في أخبار الدولتين ، جزءان ، طبع مطبعة وادي النيل بالقاهرة ١٢٨٧ هـ ، جـ ٢ ، ص ٢٠٤ ، المقريزي : كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ، طبعة ثانية ١٩٥٦ ، جـ ١ ، قسم ١ ، ص ١١٠

(٣) سعيد عاشور : « بعض أضواء جديدة على مدينة القدس في عهد المماليك » بحث مقدم للمؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام ابريل ١٩٨١ ، ص ١ ، ٣

(٤) المقريزي : المصدر السابق ، جـ ١ قسم ١ ، ص ١١٤ ، ١١٥ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، طبع دار الكتب المصرية ١٩٣٦ م ، جـ ٦ ، ص ١١٣ – ١٢٢ ، أحمد مختار العبادي : قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام ، طبع الاسكندرية ١٩٨٢ ، ص ٨٨ .

(٥) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، طبع دار صادر بيروت ١٩٦٦ ، جـ ١٢ ، ص ٩٧ – ١١٠ .

(٦) أبو شامة : الروضتين ، جـ ٢ ، ص ٢٢٤ – ٢٢٦ ؛ المقريزي : السلوك ، جـ ١ ، قسم ١ ص ١١٤ – ١١٧ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ ٦ ، ص ١٢٢ – ١٢٦ .

(٧) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، جـ ١٢ ، ص ٣٥١ ، ٤٧٩ ، ٤٨٠ ؛ المقريزي : نفس المصدر ، ص ٢٢٦ .

(٨) سعيد عاشور : الأيوبيون والمماليك في مصر والشام ، طبع القاهرة ١٩٧٠ ، ص ١٩٨ .

(٩) على سبيل المثال انظر : المقريزي : السلوك ، جـ ١ ، قسم ١ ، ص ٢٢٨ – ٢٣٢ عن استعانة الملك الكامل بالامبراطور فردريك الثاني في صقلية ضد الملك المعظم صاحب دمشق مقابل التنازل له عن بيت المقدس .

(١٠) ابن واصل : مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ، تحقيق جمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٥٣ ، ١٩٥٧ ، ١٩٦٠ ، جـ ٢ ، ص ٣ ، ص ٢٥٨ ؛ سعيد عاشور : « بعض أضواء جديدة على مدينة القدس » .. ، ص ٢ ، ٣ ؛ أحمد مختار العبادي : قيام دولة المماليك الأولى ، ص ١٠١ .

(١١) Lane-Pool: AHistory of Egypt in The Middle Ages, London 1925, P. 218.

(١٢) ابن واصل : المصدر نفسه ، جـ ٢ ، ص ٣٥١ .

(١٣) يقصد المقريزي بملك الفرنج فردريك الثاني امبراطور الدولة الرومانية المقدسة ، وكان هذا الامبراطور قد نذر يوم تتويجه سنة ١٢١٥ م (٦١٢ هـ) أن يرافق الحملة الصليبية ، المعروفة في التاريخ الأوربي بالخامسة ، والتي كان غرضها الديار المصرية . غير أن أموراً داخلية عاقته ، فلم يستطع الوفاء ، وسارت الحملة بقيادة حنادي برين . لمزيد من التفاصيل راجع المقريزي : السلوك ، جـ ١ ، قسم ١ ، ص ٢٢١ ، حاشية ٣ .

(١٤) المقريزي : السلوك ، جـ ١ ، قسم ١ ، ص ٢٢١ – ٢٢٢ .

(١٥) المصدر نفسه ، جـ ١ ، قسم ١ ، ص ٢٢٩ .

(١٦) أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر ، ٤ أجزاء ، طبع المطبعة الحسينية المصرية ١٣٢٥ هـ ، جـ ٣ ، ص ١٤١ .

(١٧) المقريزى : المصدر نفسه ، جـ ١ ، قسم ١ ، ص ٢٣٠ .

(١٨) Cam. Med. Hist., Cambridge 1957, Vol 6, P. 147.

(١٩) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان – القسم الأول والثانى من الجزء الثامن – حيدر آباد الدكن – الهند ١٩٥١ ، جـ ٢ ، ص ٤٣٢ .

(٢٠) سعيد عاشور : « بعض أضواء جديدة على مدينة القدس » ، ص ٤ .

(٢١) القزوينى : آثار البلاد وأخبار العباد ، نشر دار صادر بيروت ١٩٦٠ ، ص ١٦١ ؛ سعيد عاشور : المرجع السابق ، ص ٤ – ٥ .

(٢٢) قاسم عبده قاسم : دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى ، دار المعارف ١٩٧٩ م ، ص ١٠ ، ١٤٥ – ٢٠١ .

(٢٣) السيوطى : تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين القائمين بأمر الأمة ، القاهرة ١٢٥١ هـ ، ص ٣٠٩ .

(٢٤) ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ ٧ ، ص ١٠ فى ذكر وفيات سنة ٦٤٨ هـ .

(٢٥) Join Ville and Villehardouin: Chroniches of The Crusades, Penguin Classics, London 1963, pp. 274-296.

(٢٦) أحمد مختار العبادى : قيام دولة المماليك الأولى ، ص ١٢٥ ويتفق معه فى الرأى كذلك رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ترجمة السيد الباز العرينى ، نشر دار الثقافة بيروت سنة ١٩٦٩ ، جـ ٣ ، ص ٤٧٥ .

(٢٧) ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ ٧ ، ص ١٢ .

(٢٨) المقريزى : السلوك ، جـ ١ ، قسم ١ ، ص ٣٩٨ .

(٢٩) نفس المصدر ، جـ ١ ، ص ٤١٠ – ٤١١ .

(٣٠) المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٤٣١ ؛ أحمد مختار العبادى : قيام دولة المماليك الأولى فى مصر ، ص ١٦٨ .

(٣١) قاسم عبده قاسم : دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى ، ص ١٧١ – ١٧٢ .

(٣٢) أبو الفدا اسماعيل : تاريخ أبى الفدا ، طبع القسطنطينية ١٢٨٣ هـ ، جـ ٣ ، ص ٢١٤ ؛ المقريزى : السلوك ، جـ ١ ، قسم ١ ، ص ٤٢٣ – ٤٣٢ .

(٣٣) Lapidus: Muslim Cities In The later Middle Ages, Harvard Uni.
Press, Massachusetts 1967, pp. 11-12l., سعيد عاشور : « بعض أضواء جديدة » ، ص ٨٠٥

(٣٤) قاسم عبه قاسم : دراسات فى تاريخ مصر ، ص ١١ .

(٣٥) النجوم ، جـ ٧ ، ص ١٣ ؛ أحمد مختار العبادى : قيام دولة المماليك الأولى ، ص ١٣١ .

(٣٦) أبو شامة : الذيل على الروضتين « تراجم رجال القرنين السادس والسابع » الطبعة الثانية – نشر دار الجيل بيروت ١٩٧٤ ، ص ٢٣٠ ؛ المقريزى : السلوك ، جـ ١ ، ص ٤٥١ ، ص ٤٥٧ .

(٣٧) السيوطى : حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة ، جزءان ، القاهرة ١٣٢٧ هـ ، جـ ١ ، ص ٨٧ .

(٣٨) زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ، حققه بولس راديس – باريس ١٨٩٥ م ، ص ٨٩ ؛ أحمد مختار العبادى : قيام دولة المماليك الأولى ، ص ١٩٠ .

(٣٩) القلقشندى : صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ، القاهرة ١٩١٣ م ، المطبعة الأميرية ، جـ ٦ ، ص ١٠٨ – ١٢٤ ؛ عبدالمنعم ماجد : دولة سلاطين المماليك ورسومهم فى مصر ، طبع القاهرة ، ١٩٧٠ ، جـ ١ ، ص ٢٩ .

(٤٠) رشاد الامام : مدينة القدس فى العصور الوسطى ، تونس ١٩٧٦ ، ص ٧٤ .

(٤١) طبع القاهرة ، ١٩٦١ م .

(٤٢) السلوك ، جـ ٤ ، قسم ١ ، ص ١٤٣ – ١٤٤ .

(٤٣) القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ ٤ ، ص ١٨٠ – ١٨١ .

(٤٤) المصدر السابق ، جـ ١٢ ، ص ٦ .

(٤٥) مجير الدين : الأنس الجليل ، جـ ٢ ، ص ٦٠٤ – ٦٠٥ .

(٤٦) أبو الفدا : كتاب تقويم البلدان ، حققه م . رينود ، والبارون ماك كوكين دى سلان ، باريس ، المطبعة الملكية ١٩٠٧ ، ص ١٤٢ ؛ سعيد عاشور / « بعض أضواء جديدة على مدينة القدس » ، ص ٣٢ .

(٤٧) تشريف الأيام والعصور فى سيرة الملك المنصور ، تحقيق مراد كامل ، القاهرة ١٩٦١ ، ص ٣٦ .

(٤٨) السلوك ، جـ ١ ، ص ٥٦٠ فى ذكر حوادث سنة ٦٦٥ هـ .

(٤٩) منتخبات من حوادث الدهور فى مدى الأيام والشهور ، حررها وليام بوبر – طبع كاليفورنيا ١٩٣٠ – ١٩٤٢ ، جـ ٣ ، ٥٤٥ .

(٥٠) نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر ، طبع ليبزج ١٩٢٣ ، ص ٢٠١ .

(٥١) يرى البعض أن القدس تحولت إلى نيابة فى عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون عام ٧٠٩ هـ/ ١٣٠٩ م استنادا على ما أورده ابن تغرى بردى فى حديثه عن الفتنة التى تزعمها الأفرم نائب الشام ضد الناصر بقوله : (وأشار قرا سنقر على الملك الناصر أنه يكاتب الأمير بكتمر الجو كندار نائب صفد ، والأمير كراى نائب القدس) وما أورده مجير الدين عن نفس النائب . راجع النجوم ، جـ ٨ ، ص ٢٥٨ ، الأنس الجليل ، جـ ٢ ، ص ٦٧ ؛ رشاد الإمام : مدينة القدس ، ص ٩٣ فضلاً عما يرويه بعض المؤرخين المعاصرين مما يفيد أنها كانت نيابة سنة ٧٩٦ هـ/ ١٣٩٣ م ، من ذلك ما يرويه ابن قاضى شهبة من أنه « استقر الأمير شهاب الدين ابن البريدى فى نيابة القدس وأعطى طبلخانه وعزل ابن نائب الصبيبه وكان وليها أياما .. » ، راجع تاريخ ابن قاضى شهبه ، تحقيق عدنان درويش – دمشق ١٩٧٧ ، ص ٥١٣ فى ذكر حوادث سنة ٧٩٦ هـ . بالإضافة إلى ما يرويه ابن الصيرفى فى نفس السنة من قوله : « وخلع على قردم الحسنى واستقر نائب القدس ... » راجع : نزهة النفوس والأبدان فى تواريخ الزمان ، تحقيق حسن حبشى ، ١٩٧٠ – ١٩٧١ ، جـ ١ ، ص ٣٨٧ .

(٥٢) إنباء الغمر بأبناء الغمر ، تحقيق حسن حبشى ، القاهرة ١٩٦٩ – ١٩٧١ ، جـ ١ ، ص ١٠٧ .

(٥٣) صبح الأعشى ، جـ ٧ ، ص ١٧٠ ، جـ ١٢ ، ص ١٠٥ .

(٥٤) القلقشندى : نفس المصدر ، جـ ٤ ، ص ٣٩٢ – ٣٩٣ ؛ ابن شاهين : زبدة كشف الممالك ، ص ١١٧ .

(٥٥) قاسم عبده قاسم : دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى ، ص ١٤ .

(٥٦) عبد المنعم ماجد : دولة سلاطين المماليك ورسومهم فى مصر ، القاهرة ١٩٦٤ ، جـ ١ ، ص ٢٧ .

(٥٧) رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، جـ ٣ ، ص ٧٨٣ .

(٥٨) Wright (Thomas): Early Travels In Palestine, London 1884, P. 165.

(٥٩) السلوك ، جـ ٢ ، قسم ٢ ، ص ٣١٩ .

(٦٠) التعريف بالمصطلح الشريف ، ص ٦٤ ؛ نظير حسان سعداوى : الحرب والسلام زمن العدوان الصليبى ، القاهرة ١٩٦١ ، ص ١٥٣ .

(٦١) نظير حسان سعداوى : الحرب والسلام ، ص ١٥٦ – ١٥٩ .

(٦٢) صبح الأعشى ، جـ ٧ ، ص ١٠٧ – ١١١ .

(٦٣) المقريزى : السلوك ، جـ ٣ ، قسم ١ ، ص ١٠٨ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ ١٠ ، ص ٣٠ .

(٦٤) النجوم ، جـ ١١ ، ص ٥٣ .

(٦٥) بدائع الزهور ، ص ٢٠٣ فى ذكر حوادث سنة ٧٧٧ هـ .

(٦٦) القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ ٧ ، ص ٢٠٠ .

(٦٧) سعيد عاشور : « بعض أضواء جديدة على مدينة القدس .. » ، ص ٣٤ .

(٦٨) القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ ١٣ ، ص ٤٨ – ٥١ ؛ ابن حجر : إنباء الغمر ، جـ ١ ، ص ١٥٣ ؛ السخاوى : التبر المسبوك فى ذيل السلوك ، الناشر مكتبة الكليات الأزهرية – القاهرة ١٩٧٤ ، ص ١٤٥ .

(٦٩) يقصد بكلمة بطال : لفظ جرى فى مصطلح دولة المماليك للدلالة على الأمير الذى يزول عنه اقطاعه بعزله عن وظيفته ونفيه ، راجع : المقريزى : السلوك ، جـ ٢ ، قسم ١ ، ص ٣٧ ، حاشية ٢ ، ابن اياس : صفحات لم تنشر من بدائع الزهور ، ص ٩ ، حاشية ٦ .

(٧٠) إنباء المصر بأنباء العصر ، تحقيق حسن حبشى ، القاهرة ١٩٧٠ ؛ نزهة النفوس والأبدان ، جـ ٢ ، ص ٢٤ ، ٣٧١ .

(٧١) تاريخ ابن قاضى شهبه : ص ٥٠٢ فى حوادث سنة ٧٩٦ هـ .

(٧٢) رشاد الامام : مدينة القدس ، ص ١١٤ – ١١٥ .

(٧٣) سعيد عاشور : « بعض أضواء جديدة على مدينة القدس .. » ، ص ٣٤ .

(٧٤) السلوك ، جـ ٤ ، ص ١٢٠٣ فى أحداث سنة ٨٤٤ هـ ؛ سعيد عاشور : المرجع السابق ص ٣٥ .

(٧٥) إنباء الغمر ، جـ ١ ، ص ١٥٣ .

(٧٦) المقريزى : السلوك ، جـ ٣ ، ص ٦٥ ، ٣٣٢ ، ٣٦٠ ، ٩١٧ حوادث سنة ٧٨٠ هـ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ ١١ ،

ص ١٦٣ .

(٧٧) المقريزى : المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٢٤٨ فى ذكر حوادث سنة ٧٢٣ هـ .

(٧٨) راجع على سبيل المثال : العينى : السيف المهند فى سيرة الملك المؤيد « شيخ المحمودى » ، حققه فهيم شلتوت ، القاهرة ٦٦ – ١٩٧٧ ، ص ٣٤٦ ؛ ابن الصيرفى : نزهة النفوس ، جـ ١ ، ص ٦٤ .

(٧٩) المقريزى : السلوك ، جـ ١ ، ص ٣٨١ ، ٣٨٤ ، ٣٨٦ ، ٤٣٥ ؛ سعيد عاشور ، نفس المرجع ص ٣٤ ، ٣٥ .

(٨٠) المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٥٨ .

(٨١) القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ ٤ ، ص ١٨٩ .

(٨٢) السخاوى : التبر المسبوك ، ص ١٤٥ فى ذكر حوادث سنة ٨٥٠ هـ .

(٨٣) ابن الصيرفى : نزهة النفوس والأبدان ، جـ ١ ، ص ٦٤ ؛ العينى : السيف المهند ، ص ٣٤٦ .

(٨٤) عارف العارف : تاريخ القدس ، ص ٩٢ .

(٨٥) الأنس الجليل ، جـ ١ ، ص ٤٤٠ – ٤٤١ .

(٨٦) المقريزى : السلوك ، جـ ٤ ، ص ٥٨٤ .

(٨٧) Van Brechem: Materiaux Pour un Corpus Inseription um Arabicarum, syrie Du Sud, Jerusalem Ville, le Caire 1922, vol. 43 Pt.1, p. 332.

(٨٨) الأنس الجليل ، جـ ٢ ، ص ٦١١ .

(٨٩) عارف العارف : تاريخ القدس ، ص ٩٩ .

(٩٠) عارف العارف : المفصل فى تاريخ القدس ، ص ٢١٢ ، ٢١٣ .

(٩١) مجير الدين : الأنس الجليل ، جـ ٢ ، ص ٦٠٤ ، ٦٠٥ .

(٩٢) القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ ٤ ، ص ١٩٧ ، جـ ١٢ ، ص ١٠٤ .

(٩٣) المصدر السابق ، جـ ٤ ، ص ١٩٩ .

(٤) مسالك الأبصار ، جـ ٣ ، ص ١٤٤ .

(٩٥) القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ ١٢ ، ص ٢٢٩ – ٢٣٢ .

(٩٦) مجير الدين : الأنس الجليل ، جـ ١ ، ص ٦٠٨ .

(٩٧) المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٤٤١ .

(٩٨) المقريزى : السلوك ، جـ ٤ ، قسم ١ ، ص ٨١ .

(٩٩) مجير الدين : المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٤٤١ .

(١٠٠) المصدر السابق : جـ ٢ ، ص ٦١٠ – ٦١١ .

(١٠١) الخالدى : رجال الحكم والإدارة فى فلسطين من عهد الخلفاء الراشدين إلى القرن الرابع عشر الهجرى – القدس ، لم يعلم سنة طبعه ، ص ٧٨ – ٧٩ .

(١٠٢) Newett: Casola's Pilgrimes to Jerusalem In the year 1494, Menchester 1907, pp. 266-80.

(١٠٣) ابن شاهين : زبدة كشف الممالك ، ص ١١٣ .

(١٠٤) المقريزى : السلوك ، جـ ١ ، ص ٢٣٨ ، حاشية ١ .

(١٠٥) منتخبات من حوادث الدهور ، جـ ٣ ، ص ٤٠٧ .

(١٠٦) رشاد الإمام : مدينة القدس ، ص ٩٨ .

(١٠٧) الأنس الجليل ، جـ ٢ ، ص ٤٠٥ ، ص ٦٠٩ ، ٦١٨ ؛ الخالدى : رجال الحكم والإدارة ، ص ٧٤ .

(١٠٨) المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٦٠٧ ؛ الخالدى : نفس المرجع ، ص ٦٢ .

(١٠٩) Newett: Casola's Pilgrims. P. 251.

(١١٠) صبح الأعشى ، جـ ٤ ، ص ١٩٩ .

(١١١) الأنس الجليل ، جـ ٢ ، ٤٠٥ .

(١١٢) القلقشندى : نفس المصدر والصفحة السابقة .

(١١٣) صبح الأعشى ، جـ ٤ ، ص ١٩٩ .

(١١٤) المصدر السابق ، جـ ١٢ ، ص ٣٢٥ — ٣٢٦ .

(١١٥) هناك نص وحيد تحدث عن المهام التى كانت تناط بنائب القلعة أورده القلقشندى فى كتابه صبح الأعشى ، جـ ١٢ ، ص ٣٢٥ — ٣٢٦ .

(١١٦) حيث أورد ابن اياس فى بدائع الزهور ، جـ ٢ ، ص ٢٦٧ فى حديثه عن أحد الأمراء الذين تولوها أنه كان عالماً فاضلاً حتى عد من علماء الحديث ، وهو الأمير تغرى برمش (ت ٨٥٢ هـ/ ١٤٤٨ م) .

(١١٧) صبح الأعشى ، جـ ٤ ، ص ١١٩ .

(١١٨) السبكى : معيد النعم ومبيد النقم ، دار الكتاب العربى بمصر ١٩٤٨ ، ص ٤٣ .

(١١٩) الأنس الجليل ، جـ ٢ ، ص ٦٠٤ .

(١٢٠) نقولا زيادة : دمشق فى عصر المماليك ، دمشق ١٩٦٦ ، ص ١٥٤ .

(١٢١) السبكى : معيد النعم ، ص ٤٤ .

(١٢٢) صبح الأعشى ، جـ ١٢ ، ص ٣٣٠ — ٣٣١ .

(١٢٣) القلقشندى : نفس المصدر ، جـ ٤ ، ص ١٩ .

(١٢٤) المصدر السابق ، جـ ٤ ، ص ١٩ .

(١٢٥) مجير الدين : الأنس الجليل ، جـ ٢ ، ص ٦١٦ .

(١٢٦) الأنس الجليل ، جـ ٢ ، ص ٦١٦ ؛ الخالدى : رجال الحكم والإدارة ، ص ٧٤ .

(١٢٧) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

(١٢٨) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

(١٢٩) القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ ٤ ، ص ٢٥ ، ١٠٠ ، ١٩٧ .

(١٣٠) المصدر السابق ، جـ ٤ ، ص ٢٤ — ٢٥ .

(١٣١) عن ذلك راجع : ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ ١٣ ، ص ٧٥ فى ذكر حوادث سنة ٨١١ هـ .

(١٣٢) أحمد دراج : المماليك والفرج ص ٣٨ ؛ — Newett: Casala's Pilgrims. pp. 228-20

(١٣٣) — Bernard Von Breydenbach And His Journey To The Holy Land 1483-4, Landon 1911, P. xv; Pero Tafur: Travels And Adventures (1435-39), London 1926, pp. 72-73.

(١٣٤) P.P.T.S. London 1897, Vol. IX, P. 103.

(١٣٥) يقصد به الموظف الذى ارتبط اسمه بالإشراف على الأسواق ، وكانت وظيفته من الوظائف الجليلة التى يتولاها المتعممون باعتبارها خدمة دينية فى المحل الأول ، ولم يكن يتولاها فى بداية عصر المماليك إلا وجوه الناس وأعيانهم من المتعممين ، إلا أن هذا المنصب انحط بسبب فساد أحوال المماليك نظراً للأموال التى فرضوها على هذا المنصب ، وعن تلك الوظيفة ومهامها راجع : ابن الاخوة : معالم القربة فى أحكام الحسبة ، نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٦ ؛ وكذلك الفصل الخامس من هذا البحث .

(١٣٦) صبح الأعشى ، جـ ١٢ ، ص ٦٠ — ٦١ .

(١٣٧) السبكى : معيد النعم ، ص ٦٥ — ٦٦ .

(١٣٨) معالم القربة فى أحكام الحسبة ، ص ٩٧ — ٩٩ .

(١٣٩) المقريزى : إغاثة الأمة بكشف الغمة ، نشره مصطفى زيادة وجمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٤٠ م ، ص ٢٨ .

(١٤٠) ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ ٩ ، ص ٤٤ — ٤٦ .

(١٤١) ابن الاخوة : المصدر السابق ، ص ١٤٧ ؛ عبد المنعم ماجد : دولة سلاطين المماليك ورسومهم ، ص ١٢٨ .

(١٤٢) المصدر السابق ، ص ١٨٤ .

(١٤٣) القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ ١٢ ، ص ٦٠ — ٦١ .

(١٤٤) مجير الدين : الأنس الجليل ، جـ ٢ ، ص ٤٨٧ .

(١٤٥) ابن حجر : إنباء الغمر ، جـ ٢ ، ص ٣٦٠ .
(١٤٦) قاسم عبده قاسم : دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى ، ص ٤٨٠ .
(١٤٧) ابن حجر : المصدر نفسه ، جـ ٢ ، ص ٤٨٧ .
(١٤٨) صبح الأعشى ، جـ ١٢ ، ص ٧ .
(١٤٩) المصدر السابق والصفحة ذاتها .
(١٥٠) المصدر نفسه ، جـ ٥ ، ص ٤٦٦ .
(١٥١) المصدر نفسه ، جـ ٤ ، ص ٣٧ ، ١٩٣ .
(١٥٢) النجوم ، جـ ١٢ ، ص ١٥٣ .
(١٥٣) Newett: Casola's Pilgrims. p. 249.
(١٥٤) د . أحمد دراج : وثائق دير صهيون بالقدس الشريف ، طبع مكتبة الانجلو المصرية ١٩٦٨ ، ص ٧٧ – ٧٨ .
(١٥٥) صبح الأعشى ، جـ ١٢ ، ص٣٣٩ .
(١٥٦) Newett: Casola's Plgrims. pp. 258-59.
(١٥٧) صبح الأعشى ، جـ ١٢ ، ص ٧ .
(١٥٨) مجير الدين الحنبلى : الأنس الجليل جـ ٢ ، ص ٤٤٧ .
(١٥٩) Van Bercham: Op Cit., Vol., 25 pp. 170-171
(١٦٠) ابن قاضى شهبة : تاريخ ص ٩٢ ؛ المقريزى : السلوك جـ ٣ ، قسم ٢ ، ص ٤٨٠ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم ج ١١ ، ص ٢٢٨ ؛ ابن حجر : إنباء الغمر جـ ١ ، ص ٢٥٦ ؛ ابن الصيرفى : نزهة النفوس جـ ١ ، ص ٥٢ ؛ ابن إياس : بدائع الزهور جـ ١ ، ص ٣٢٤ .
(١٦١) الأنس الجليل : جـ ٢ ، ص ٥٥٧/ ٥٥٨ .
(١٦٢) الخالدى : أهل العلم ، ص ١٠ .
(١٦٣) رشاد الإمام : مدينة القدس ، ص ١٠٣ .
(١٦٤) أنباء الغمر : جـ ٢ ، ص ٣٩٨ .
(١٦٥) صبح الأعشى ، جـ ١٢ ، ص ٧ .
(١٦٦) مجير الدين : الأنس الجليل ، جـ ٢ ، ص ٤٧٤ – ٤٧٨ .
(١٦٧) ابن تغرى بردى : النجوم جـ ٩ ، ص ٢٩٨ .
(١٦٨) ابن حجر : إنباء الغمر جـ ١ ، ص ٥٤ ، مجير الدين المصدر السابق جـ ٢ ، ص ٥٨٥/ ٥٨٦ .
(١٦٩) مجير الدين نفس المصدر جـ ٢ ، ص ٥٦٢/ ٥٨٨ .
(١٧٠) السلوك ، جـ ٢ ، قسم ٣ ، ص ٦٩٦ .
(١٧١) عارف العارف : تاريخ القدس ص ٢٦٨ – ٢٦٩ ؛ فيليب دى طرازى : خزائن الكتب العربية ، جـ ٢ ، ص ٤٧٨ – ٤٧٩ .
(١٧٢) أحمد دراج : المماليك والفرنج ص ٦٣ .
(١٧٣) Adler: Jewish Travellers, London 1930 p. 133; The Jewish Ency. Vol 7 p. 132
(١٧٤) Ibid, P. 196.
(١٧٥) Ben-Sason: Jewish Society through the ages, New York, 1973 PP. 181-184.
(١٧٦) Specalum, A Journal of Medi eval Studies (1961-Vol. 36) P. 955.
(١٧٧) Adler: Op Cit., PP. 151-153.
(١٧٨) Adler: Op Cit. P. 133.
(١٧٩) Ibid. P. 196.
(١٨٠) Ibid: PP. 151-152.

أحمد دراج : المماليك والفرنج : ص ٢١١ ، حاشية ٥٦ .

(١٨١) ابن فضل الله العمرى : التعريف بالمصطلح الشريف ، ص ١٠٨ - ١٠٩ ، مجير الدين : الأنس الجليل ، جـ ٢ ، ص ٦٠٥ - ٦٤٠ .

(١٨٢) السخاوى : التبر المسبوك : ص ٢٠٨ - ٣٥١ .

(١٨٣) منتخبات من حوادث الدهور : ص ١٠ حوادث سنة ٨٤٧ هـ .

(١٨٤) الأنس الجليل ، جـ ٢ ، ص ٤٧٩ - ٤٨٦ .

(١٨٥) ابن حجر : إنباء الغمر : جـ ٥ ، ص ٩٢ ؛ مجير الدين : الأنس الجليل ، جـ ٢ ، ص ٤٨٣ .

(١٨٦) السلوك ، جـ ٤ ، قسم ١ ، ص ١٤١ .

(١٨٧) المقريزى : المصدر نفسه ، جـ ٣ ، قسم ٢ ، ص ٨٧٧ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ ٩ ، ص ٣١٨ ؛ ابن حجر : إنباء الغمر ، جـ ١ ، ص ٥١٥ ؛ مجير الدين : الأنس الجليل ، جـ ٢ ، ص ٤٨٥ .

(١٨٨) محمد محمد أمين : الأوقاف والحياة الاجتماعية ، ص ١٨٧ - ١٨٨ .

(١٨٩) الأنس الجليل ، جـ ٢ ، ص ٥٧٦ .

(١٩٠) محمد كرد على : خطط الشام ، جـ ٦ ، ص ١٥٤ .

(١٩١) القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ ١٢ ، ص ١٠٥ ، ١٠٦ .

(١٩٢) مجير الدين : الأنس الجليل ، جـ ٢ ، ص ٤٨٥ ، ٤٨٦ .

(١٩٣) نفس المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٦٦٦ .

(١٩٤) المصدر السابق نفسه ، جـ ٢ ، ص ٥٧٩ - ٥٨٣ .

(١٩٥) زبدة كشف الممالك ، ص ٢٣ .

(١٩٦) عبد الغنى النابلسى : الحضرة الأنيسية فى الرحلة القدسية ، ص ١٩ .

(١٩٧) عبد اللطيف ابراهيم : نصان جديدان فى وثيقة الأمير ضرغتمسن ، مجلة كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، ١٩٦٦ ، ص ١٦٧ .

(١٩٨) ابن حجر : إنباء الغمر ، جـ ١ ، ص ٢٨٠ ؛ مجير الدين : الأنس الجليل ، جـ ٢ ، ص ٥٢٦ - ٥٣٣ .

(١٩٩) عبد اللطيف ابراهيم : وثيقة السلطان قايتباى ، ص ٣٠١ وتحليل المدرسة بالقدس والجامع بغزة ، القاهرة ١٩٦١ م ، ص ٤٣٠ .

(٢٠٠) السخاوى : الضوء اللامع ، جـ ١٠ ، ص ٨٨ .

(٢٠١) الأنس الجليل ، جـ ٢ ، ص ٥٢٤ .

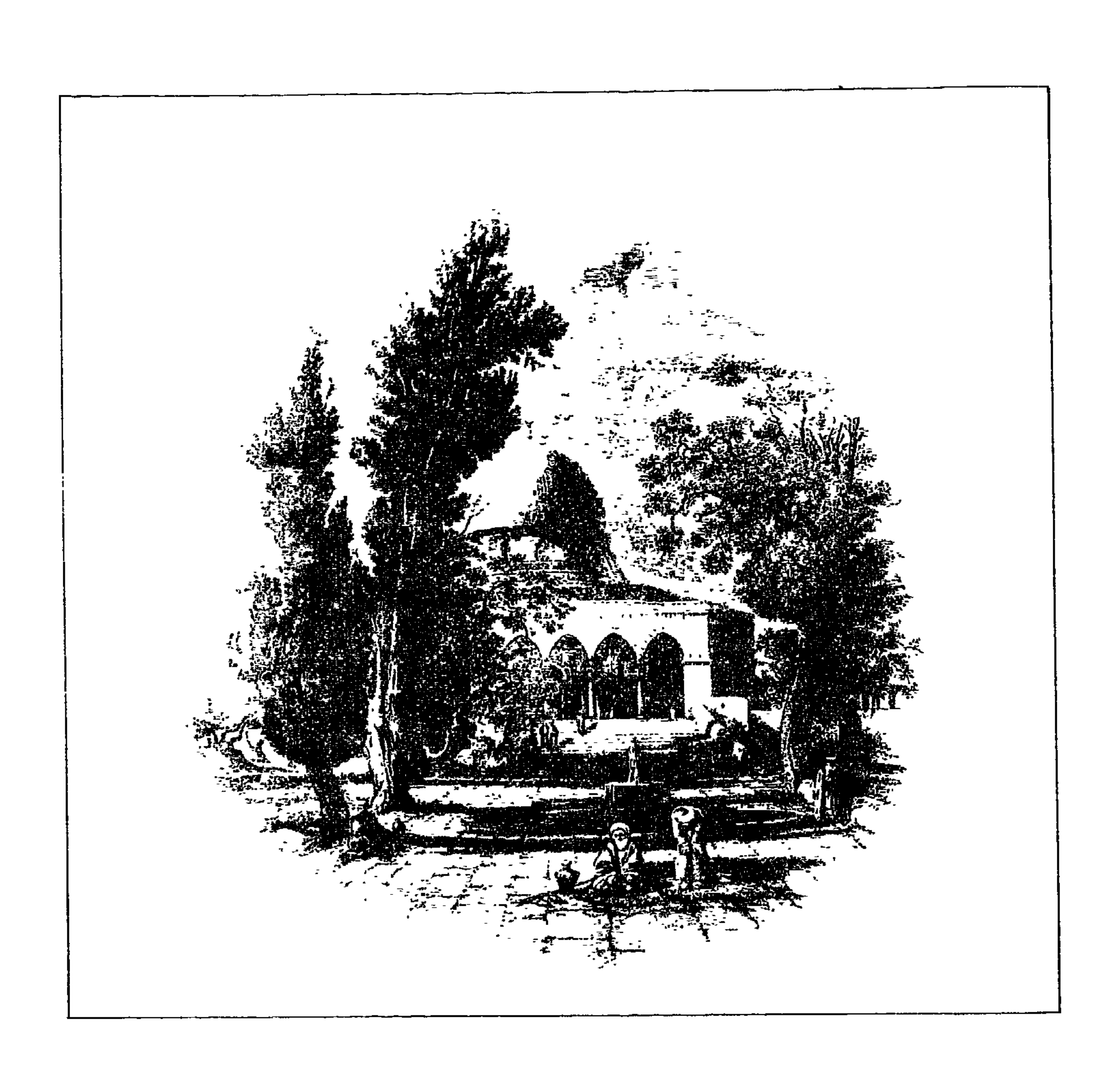
(٢٠٢) محمد محمد أمين : نفس المرجع ، ص ١٩١ .

(٢٠٣) عبد اللطيف ابراهيم : نصان جديدان ، ص ١٦٨ .

(٢٠٤) مجير الدين : الأنس الجليل ، جـ ٢ ، ص ٥٢٣ .

الفصل الثاني

سكان مدينة بيت المقدس في عصر سلاطين المماليك



التطور السكانى فى المدينة

فى بداية الحديث عن التطور السكانى فى مدينة بيت المقدس على عصر سلاطين المماليك ، يجب الإشارة إلى أنه ليس لدينا من الإحصائيات ما يساعدنا على تقرير عدد سكانها تقديرا دقيقا ، منذ فتح صلاح الدين الأيوبى لها ، وما أطر عليهم من تغيير فى ذلك العصر ، إذ المعروف أن أول احصاء رسمى تم بها كان مع بداية العصر العثمانى وعلى هذا الأساس سنحاول الوصول إلى تقدير معقول لعدد سكان المدينة وسعتها من خلال تتبع روايات بعض المؤرخين المعاصرين منذ الفتح الصلاحى حتى العصر المملوكى ، ثم نستعرض بعد ذلك أهم العوامل التى أثرت فى تطور السكان فيها ، مع الاعتماد على أقوال بعض الرحالة الغربيين الذين زاروا المدينة فى الفترة التى نتناولها بالبحث .

يرى بعض المؤرخين أن عدد سكان مدينة بيت المقدس « قد بلغ مائتى ألف نسمة أيام الصليبيين فى القرن الحادى عشر ، حيث كان نصفهم من السكان العرب الأصليين ، والباقى من الذين وفدوا مع الفتح الصليبى من أوربا ، ولكن سرعان ما انخفض العدد إلى أربع وأربعين ألف فقط بعد استرداد صلاح الدين المدينة المقدسة وطرد الصليبيين منها ... »[1] . إلا أننا نقول أن الصليبيين استولوا على المدينة عام ١٠٩٩م ، أى آخر سنة من القرن الحادى عشر الميلادى ، ثم أعقب ذلك عملية تفريغ للمدينة من أهم عناصر سكانها وهم المسلمون واليهود — لأن المسيحيين المحليين كانوا موضع شك من حكامها المسلمين نظرا لسلوك كثير من المسحيين فى مساعدة الغزاة ، مما دفع الكثير منهم إلى هجرة المدينة قبل الغزو الصليبى لها[2] ، ومهما قيل عن عدد الصلبيين الذين سكنوا المدينة عقب الغزو ، فإن أعدادهم كانت قليلة بسبب سكنى معظم الصليبيين فى المناطق التى فتحوها فى بلاد الشام وعودة الكثيرين منهم إلى الغرب ، بحيث افتقدت المدينة إلى الأمن وإلى من يحرسها فى العقد الثانى من القرن الثانى عشر الميلادى[3] . وإذا كان قد سمح للمسلمين واليهود بالعودة إلى بيت المقدس فلم يكن ذلك سوى لتقديم بعض خدماتهم التجارية للفرنج[4] ولا يغيب عن الأذهان أن المسلمين

واليهود لم يكن من السهل عليهم أن ينسوا ما حل بإخوانهم من مذابح عقب الغزو ، فضلا عن أنه إذا كان الملك بلدوين الأول الحاكم الثانى لبيت المقدس قد شجع المسيحيين المحليين على الهجرة إلى المدينة ، فمن الصعب تصور وصول أعداد ضخمة منهم تصل إلى ما يقرب مائتى ألف بينما كان الصليبيون أقلية ملحوظة(٥) .

ويرى بعض المؤرخين أن سكان القدس من الفرنج من الرجال والنساء والأطفال عندما استردها صلاح الدين ربما لم يكن أقل من ثلاثين ألف نسمة(٦) . بينما يرى فريق ثالث أن عدد السكان بها وقتذاك كان مائة ألف نسمة(٧) كما يشير العماد الأصفهاني – وهو معاصر لتلك الفترة – أنه كان فى المدينة عندما دخلها السلطان صلاح الدين الأيوبى « .. أكثر من مائة ألف إنسان من رجال ونساء وصبيان .. » كما أن عدد المحاربين بها كان « حينئذ من الفرنج ستون ألف مقاتل من سائف ونابل .. »(٨) كذلك تجمع كثير من المصادر العربية المعاصرة لتلك الفترة على أن عدد المقاتلين من الفرنج كان ما يقرب من الستين ألفا ، من ذلك ما يرويه لنا أبو شامة من قول : « ولقد تحازر أهل الخبرة عدة من كان فيه من المقاتلين بما يزيد على ستين ألفا ما عدا النساء والصبيان »(٩) كذلك يقول سبط ابن الجوزى فى حديثه عن الفتح الصلاحى أيضا أن القدس » كان مشحونا بالبطارقة من الخيالة والرجالة ما يزيد على ستين ألفا غير النسا والذرية .. » كذلك يذكر ابن خلدون ما يؤكد هذا العدد بقوله : « وكان فيه على التحقيق ستون ألف مقاتل غير النساء والولدان ... » وفى موضع آخر يفسر لنا السبب فى تلك الزيادة فى أعداد الصليبيين بالقدس من أنهم « أزروا إليه من كل جانب لما افتتحت عليهم حصونهم وقلاعهم ... »(١١) وهو تفسير منطقى لتلك الكثرة العددية فى المدينة فى ذلك الوقت .

ويمكننا أن نقدر عدد سكان مدينة القدس عند الفتح الصلاحى لها بحوالى مائة وعشرين ألفا من السكان ، على أساس أن الصليبيين كانوا يشكلون حوالى مائة ألف منهم ستون ألفا من المقاتلين حسبما تشير المصادر بذلك ، والذين كانوا يشكلون أغلبية عدد الصليبيين ، حيث قام باليان دى ابلين عندما حاصر صلاح الدين المدينة بتنصيب كل صبى تجاوز السادسة عشرة من عمره فارسا(١٢) ، بعدما أحس بنقص الرجال المقاتلين بصورة مخيفة ، حتى قيل أنه كان فى بيت المقدس عندئذ رجل واحد من الصليبيين مقابل كل خمسين من النساء والأطفال(١٣) بالإضافة إلى حوالى أربعين ألفا من النساء والأطفال والشيوخ ، أضف إلى هذا العدد بضعة آلاف من الأرمن ، حيث « استطلق صاحب البيرة زهاء خمسمائة أرمنى أدعى أنهم من بلده وأنهم حضروا للزيارة وطلب مظفر الدين كوكبورى ألف أرمنى ادعى أنهم من الزهاد فأطلقهم السلطان ... »(١٤) هذا بالإضافة إلى عدة آلاف من المسيحيين المحليين وبخاصة من الأرثوذكس ، والذين وعدوا بفتح أبواب المدينة لصلاح الدين عندما قام بمحاصرتها(١٥) والذين تقدرهم بعض المراجع بحوالى عشرين ألفا من السكان(١٦) . هذا إلى جانب ما يشير إليه ابن شداد من وجود ما يزيد على ثلاثة آلاف أسير من أسرى المسلمين فى المدينة عند الفتح الصلاحى لها(١٧) .

وإذا نظرنا إلى هذا العدد نجد أنه معقول جدا وخاصة وأن سبط ابن الجوزى – صاحب مرآة

الزمان يشير إلى أنه كان باستطاعة المدينة أن تستوعب أكثر من مائتى ألف من السكان(١٨) .

وبخروج الصليبيين منها أصبحت المدينة شبه خاوية من السكان ، وليس أدل على ذلك أنه حدث عام ٥٨٧هـ/ ١١٩١م عندما توجه صلاح الدين لتفقد أحوال المدينة أنه اكتشف جماعة من المسيحيين المحليين يحملون كتبا بعث بها وإلى القدس إلى صلاح الدين وأدرك أنهم سوف يطلعون عليها ريتشارد قلب الأسد فيسهمون بذلك فى إعادة القدس إلى الصليبين فأمر بقتلهم(١٩) وإن كانت بعض المصادر تشير إلى أنه حضر مع صلاح الدين زهاء عشرة الاف من الفقهاء ، ولعل بعضهم فضل الاقامة فى بيت المقدس بعد ذلك ، الا أن ذلك كان البداية لتدفق السكان عليها لسكناها(٢٠) .
كما أنه قد سبقت الاشارة فى الفصل الأول إلى ما عاناه سكان المدينة فى فترة القلق والاضراب فى عصر خلفاء صلاح الدين ، وأن المدينة غدت كالكرة تتلاقفها أيدى الصليبيين تارة وأيدى المسلمين تارة أخرى حتى موقعة عين جالوت ، ودخول المدينة تحت حكم سلاطين المماليك وهم الذين حققوا السلام الحقيقى لبلاد الشام ومصر بوجه عام والقدس بوجه خاص .

أما عن اعوامل النمو السكانى فى المدينة بعد استرداد المسلمين لها ، فقد كان أول هذه العوامل هو دخول المدينة تحت حكم سلاطين المماليك ، والذين سبق أن أشرنا إلى سياستهم فى الحكم والتى اعتمدت على الشق الحربى وهو الدفاع عن المسلمين والاسلام ، فضلا عن الشق الدينى وهو رعاية المقدسات الاسلامية وشعائر الاسلام حتى يمحوا من نفوس معاصريهم ما لحق بهم من تجريح ، وكان من نتيجة دخول المدينة تحت حكم سلطنه المماليك أن تمتعت المدينة لأول مرة منذ عدة قرون بالاستقرار التام ، وغدت مركزا حضاريا هاما فى الدولة المملوكية ، كذلك لعل من العوامل التى ساعدت على تطور عدد السكان بها كثرة الهجرة من العراق وبعض البلدان الاخرى إلى بلاد الشام ، ومنها بيت المقدس ، تلك الهجرات التى نجمت عن المذابح الرهيبة التى ارتكبها المغول فى البلاد التى فتحوها ، إلى جانب أن هذه الهجرات قد استمرت حتى بعد استقرار المغول فى البلاد التى فتحوها وخاصة العراق فإن الكثيرين من المسلمين الذين رغبوا العيش تحت ظل الحكم الاسلامى تركوا العراق واتجهوا إلى بلاد الشام ومصر ، إما طلبا للعلم أو أنه قد جذبهم مدى ما تمتع به سكان تلك البلاد من رخاء تحت حكم المماليك(٢١) . ويؤكد لنا مجير الدين أن كثيرا ممن هاجروا من الشرق إلى بلاد الشام قد استقروا فى القدس على اعتبار أنها مركز دينى هام ، وباشروا فيها كثيرا من الوظائف الدينية ، مثل تولى القضاء أو مشيخة بعض الخوانق والمدارس الهامة فى ذلك العصر(٢٢) . ولم تكن الهجرة إلى بيت المقدس مقصورة على أهل الشرق ، بل إننا نسمع طوال عصر سلاطين المماليك عن كثير من علماء الغرب الذين استقروا فى القدس وأقاموا بها حتى وافتهم المنية ، وتولوا كثيرا من المناصب الدينية ، وبخاصة مشيخة المغاربة بالقدس الشريف وامامة المالكية ، كذلك لعل الظروف السياسية التى سادت بلاد المغرب ، سواء الفتن والاضطرابات واختلاف ملوكها ، أو حركة الاسترداد التى قام بها الغرب الأوربى كانت من العوامل التى شجعت على تدفق أعداد كبيرة من المغرب إلى مصر وبيت المقدس فى تلك الفترة التاريخية من حياة مدينة بيت المقدس(٢٣) .

وبالاضافة لعامل الهجرة فقد كان هناك سبب آخر للتطور السكانى فى مدينة القدس منذ بداية عصر سلاطين المماليك ، وبوجه خاص طوال عصر سلاطين المماليك البحرية أو دولة المماليك الأولى كما يطلق عليها بعض المؤرخين ذلك ، ففى تلك الفترة يبدو أنه كان هناك تطور ملحوظ فى الاحوال الصحية العامة ، فالمؤرخون المعاصرون يذكرون فقط حالتين للأمراض المعدية أو الأوبئة فى كل من بلاد الشام وفلسطين فى سنتى ٦٥٨هـ/١٢٥٨م ، ٦٧٣هـ/١٢٧٤م ، وهذا الوباء كان بمثابة الخلل الوحيد فى تلك الفترة ، أعقبته مجاعة ، ثم تبعته فترة حوالى نصف قرن لم نجد فيها ذكرا لهذا المرض أو هذا الوباء(٢٤) .

كذلك نعمت بلاد الشام بوجه عام وبيت المقدس بوجه خاص بالاستقرار الاقتصادى والذى غالبا ما يؤدى إلى تزايد عدد السكان – ففى عهد دولة المماليك الأولى أو البحرية ، والذى دام حوالى مائة وثلاثين سنة تمتعت البلاد بالاستقرار النسبى ، ولم يحدث ما يسبب ارتفاع الاسعار أو اضطراب الأحوال الاقتصادية ، كما أن المعاملات المالية كانت مستقرة فى أوزانها وقيمتها وكميتها من حيث الدينار والدرهم ، واستخدمت فى صكها سبائك ممتازة من المعادن ، وكان من نتيجة ثبات العملات والنظم المالية أن حدث ارتفاع فى أسعار الحبوب ونقصان فى الاجور ، ولأن أسعار الضروريات قد ارتفع فذلك راجع الى تزايد الطلب عليها ، وما هذا الارتفاع فى الاسعار الا نتيجة للتزايد السكانى ، وهذا العامل نفسه وهو تزايد السكان كان له أثره المباشر فى انخفاض الأجور ، فعندما يزيد عدد الايدى العامله ، فان الاجور لابد وأن تقل(٢٥) .

هكذا رأينا أنه كان لدخول مدينة بين المقدس تحت حكم سلاطين المماليك أثره الكبير فى ازدياد عدد السكان بها ، نظرا لما تمتعت به المدينة من أمن واستقرار ، كانت قد حرمت منهما منذ أمد طويل ، فضلا عما أحاط بظروف العالم الاسلامى آنذاك من ظروف سياسية ساعدت على الهجرة إلى المدينة ، إلى جانب العوامل الصحية وتحسنها فضلا عن الظروف الاقتصادية وما كان لها من شأن ملحوظ فى التطور السكانى فى بداية عصر سلاطين المماليك .

الا أننا نلاحظ أنه منذ منتصف القرن التاسع الهجرى ، الخامس عشر الميلادى فإن عدد سكان بيت المقدس آخذ فى النقصان ، وهذه الحقيقة هى التى لفتت أنظار بعض الرحالة من الحجاج المسيحيين الغربيين وكذلك بعض الرحالة اليهود الذين زاروا البلاد فى تلك الفترة التى نتحدث عنها . نذكر منهم على سبيل المثال الرحالة فيلكس فابرى الذى زار المدينة عام ٨٨٥هـ/ ١٤٨٠م وظل بها فترة ، حيث يذكر لنا أنه كان بالمدينة أكثر من خمسمائة من اليهود وأكثر من ألف من المسيحيين من الطوائف المختلفة والبلاد المختلفة ، الا أنه لم يذكر لنا شيئا عن عدد المسلمين بها ، ولكن من المؤكد أنه لاحظ أن عدد سكانها كان قليلا بشكل واضح ، حيث يذكر لنا أن كثيرا من منازلها كانت خربة وليس بها سكان ، وأنها كانت تستخدم لرمى جثث الحيوانات النافقة ، كذلك يؤكد فى حديثه عن المناطق التى كانت تحيط بالمدينة ، أنه كان يمكن تحويلها إلى أراضى جيدة وخصبة لو أن هناك من الناس من يزرعها أو يسكنها(٢٦) . كذلك يؤكد لنا موشلام الفولتيرى أحد الرحالة اليهود والذى زار المدينة سنة ٨٨٦هـ/ ١٤٨١م أن عدد السكان المسلمين كان يبلغ عشرة آلاف(٢٧) . كذلك يصف لنا الرحالة اليهودى عوبديا الذى زار المدينة سنة ٨٩٣هـ/١٤٨٧م ، ان بيت المقدس فى معظم أجزائها مهجورة وخراب ويبلغ عدد سكانها كما أخبر بذلك حوالى أربعة آلاف أسرة أما عدد اليهود بها فكانوا يشكلون سبعين أسرة ، معظمهم من الشيوخ والأرامل والذين أتوا من المانيا وأسبانيا

والبرتغال والبلاد الأخرى ، وكانت النسبة بينهم هي سبع سيدات إلى رجل واحد[٢٨] . كذلك يذكر لنا الرحالة كازولا الذى زار المدينة عام ٩٠٠هـ/١٤٩٤م ، أن المدينة بها عدد متواضع من المنازل وأن سكانها ليسوا كثيرين ، وهذا يؤكد لنا التدهور السكانى الذى شهدته المدينة فى عصر سلاطين المماليك الجراكسة[٢٩] ، وبخاصة إذا قدرنا عدد السكان حسب أقوال هؤلاء الرحالة السابقين ، فسوف نجد أن أعدادهم لن تزيد عن عشرين ألف بأى حال من الأحوال .

وهنا لابد للباحث من وقفة لو قصيرة لتحليل هذه الظاهرة – وإن كانت ظاهرة عامة فى كل سلطنة المماليك بمعنى أنها لم تكن قاصرة على بيت المقدس وحدها حسبما تشير بذلك المصادر المعاصرة[٣٠] .

ومن المؤكد أن انخفاض عدد السكان بمدينة بيت المقدس فى ذلك العصر يرجع إلى عدة عوامل متشابكة معا ، لعله فى مقدمة هذه العوامل تكرار انتشار الاوبئة ، ويأتى فى مقدمة هذه الاوبئة . والذى يعتبر المقدمة الحقيقية للتدهور السكانى العام والذى بدأ واضحا مع مطلع القرن التاسع الهجرى/ الخامس عشر الميلادى ،. ذلك الوباء المروع والذى احتاج الأرض من أقصاها إلى أقصاها ليخرب البناء السكانى فى العالم المعروف آنذاك[٣١] ، ذلك الوباء الذى أطلق عليه الغربيون اسم « الموت الاسود » والذى حدث عام ٧٤٩هـ/١٣٤٨م واستمر حتى سنة ٧٥٠هـ/١٣٤٩م ، والذى كان السبب فى هلاك حوالى ثلثى سكان مصر وبلاد الشام[٣٢] والذى أطلق عليه المؤرخون المسلمون اسم « الفناء الكبير » ، والذى استمر يمزق فى الكيان السكانى ما يقرب من عامين ، وامتلأت الطرقات والمساجد بجثث ضحاياه ، وكان فتاكا لدرجة أن الأدوية لم تكن تجدى نفعا لسرعة الموت ، وامتد أثره إلى الطيور والحيوانات حتى البرية منها والأسماك وغيرها[٣٣] ولقد عانت مدينة بيت المقدس من هذا الوباء وأثره عليها اكثر من غيرها من البلاد الاخرى ، كما أن الخسارة الناجمة عنه لم يكن ليعوضها بأى حال من الأحوال معدل النمو السكانى أو كثرة الأنجاب[٣٤] .

ويعد هذا الوباء المروع تعرضت المدينة لعدة أوبئة كان لها تأثيرها الواضح على البنية السكانية فيها ، ولنأخذ مثلا على ما يرويه لنا مجير الدين عن الطاعون الذى استمر فى القدس من عام ٨٨١هـ/١٤٧٦م إلى ٨٨٢هـ/١٤٧٧م وأنه « أفنى خلقا من الشباب والنساء وأهل الذمة ولم يكن طال ببلد أكثر من بيت المقدس ... »[٣٥] . كذلك يصور لنا ابن الصيرفى كثرة أعداد الموتى من الطاعون بأنه « يصير الميت ثلاثة أيام لايجد من يحمله الا على سلم أوباب » وفى هذه العبارة تأكيد لكثرة اعدادهم بحيث يعجز حملهم الا على سلم أوباب أو لوح من الخشب لعدم كفاية الاعداد الموجودة من خشب حمل الموتى[٣٦] كذلك يؤكد لنا الاب سوريانو الذى عاش فى بيت المقدس زمنا طويلا كرئيس لطائفة الرهبان الفرنسيسكان ، أن وباء الطاعون كان يتكرر حدوثه فى المدينة كل عشر سنوات تقريبا ، مما ساعد على التدهور السكانى بها[٣٧] .

هذا بالاضافة إلى حدوث وتكرار الزلازل فى المدينة فى تلك الفترة بشكل مخيف ، وما كان ينتج عنها من هلاك كثير من السكان ، فيذكر أحد المؤرخين أن أحد تلك الزلازل وهو الذى حدث عام ٩٠٢هـ/١٤٩٦م لم يترك بيتا علويا فى بيت المقدس الا هدمه[٣٨] .

ومن العوامل التى ساعدت على التدهور السكانى فى بيت المقدس فى ذلك العصر ، سوء الاحوال الاقتصادية الذى عم دولة سلاطين المماليك منذ القرن التاسع الهجرى ، الخامس عشر الميلادى ، وما نجم عنها من اضطرابات عانى منها الناس جميعا فى ذلك الحين ، ومهما قيل عن محاولات سلاطين المماليك للتخفيف من تلك الأزمات والذى سيتضح لنا فى الفصل الخاص بالحياة الاقتصادية فى بيت المقدس فيمكننا القول أن سلاطين المماليك لم تكن لهم سياسة ثابتة نحو استغلال – الارض الزراعية والعناية بها ، مما جعل الظروف الطبيعية تتحكم بشكل مؤثر وفعال فى حياة الكثيرين ، ولعل خير ما يصور لنا ذلك حديث المقريزى عن سنة ٨٢٥هـ/١٤٢١م من أنه « أجدبت أرض بلاد حوران والكرك والقدس والرملة وغزة ، لعدم نزول المطر فى أوانه ، ونزح كثير من سكان هذه البلاد عن أوطانهم ، وقلت المياه عندهم .. »(٣٩) وكان من نتيجة الأزمات الاقتصادية وسوء الأحوال الاقتصادية أثرهما الكبير فى أوضاع المدينة ، بحيث عم الغلاء البلاد ، وهلك من البهائم مالا يحصى ، وأفتقر أكثر الأغنياء من الناس من أرباب العيال ، مما جعلهم نهبا للمرض والأوبئة المختلفة والفتاكة فى نفس الوقت(٤٠) .

كذلك لعله كان من ضمن العوامل التى ساعدت على قلة عدد السكان فى مدينة بيت المقدس فى تلك الفترة التى نتحدث عنها ، الغزوة التى قام بها تيمورلنك لبلاد الشام عام ٨٠٢هـ/١٤٠٢م والتى احتل فيها دمشق ، وعلى الرغم من أنه لم يصل إلى مدينة القدس ذاتها ، الا إنها أدخلت على سكان تلك المدينة من الخوف والفزع ما ذكرهم بما سبق وأحدثه المغول ببلاد الشام من فتك ودمار وتخريب ، إلى جانب خوفهم من استمرار الغزو التيمورى ، كل ذلك كان دافعا لكثير من السكان على هجرة المدينة واللجوء إلى مصر(٤٠) . ويمكننا أن نفسر هذه الظاهرة فى ضوء التدهور السياسى الذى عم سلطنه المماليك الجراكسة بوجه عام ، الذى نلمسه من عدم وجود سلاطين عظام أمثال الظاهر بيبرس وسيف الدين قلاوون والناصر محمد ، والذين أحكموا قبضتهم على مقاليد البلاد ، وخصصوا شطرا كبيرا من جهودهم لتوفير الأمن والطمأنينة بعكس ما نلحظه من اضطراب وفوضى فى عصر الجراكسة ، هذا العصر الذى كثرت فيه فتن العربان وتعرضهم الدائم لسكان المدينة بالسلب والنهب مما أدى إلى انعدام الامن فى المدينة عدة مرات(٤٢) ويذكر المقريزى أن هؤلاء البدو قد أفسدوا المنطقة المتاخمة للقدس من تكرار الفتن التى كانت تقوم بين مختلف قبائلهم ، ويبدو وأن السبب الرئيسى من وراء تلك الغارات التى قاموا بها فى تلك المنطقة وحتى على المدينة نفسها راجع بالدرجة الاولى إلى مدى ما وصلت إليه الدولة من تدهور سياسى(٤٣) . هذا بالاضافة إلى أن كثيرا من أصحاب الحرف قد هاجروا إلى مصر لسوء الاحوال فى المدينة ، آملين فى أن يجدوا مجالا أكبر لممارسة نشاطهم ، وحياة أفضل وأمنا اكثر مما كان فى المدينة نفسها ، مما كان سببا واضحا فى قلة وتناقص اعداد السكان بها فى ذلك العصر(٤٤) .

هكذا رأينا أنه كان نتيجة لدخول المدينة تحت حكم سلاطين المماليك أثره الكبير على تطور السكان بها ، بما تحقق لها من أمن واستقرار ، فضلا عن أن العوامل السياسية المحيطة بالعالم الاسلامى كانت ذات أثر كبير فى تطور السكان فى المدينة فى عصر سلاطين المماليك البحرية طوال فترة

حكمهم وهى التى تقارب القرن والنصف ، ثم رأينا أنه فى دولة المماليك الجراكسة فان معدل السكان أخذ فى التدهور بسبب انتشار الاوبئة التى عانت منها منطقة الشرق الادنى بل والعالم المعروف آنذاك ، فضلا عن الاسباب الاخرى التى ساعدت على ذلك التدهور السكانى .

والممثلة فى التدهور الاقتصادى والسياسى للدولة ومدى انعكاس كل منهما على حياة السكان فى مدينة بيت المقدس فى ذلك العصر .

سكان مدينة بيت المقدس

كانت مدينة بيت المقدس فى عصر سلاطين المماليك تضم أبناء الديانات السماوية الثلاث ، باعتبارها مقدسة عندهم جميعا ، وبالاضافة إلى وضعها الدينى لديهم جميعا ، وعلى هذا الاساس رأينا أن نقسم السكان إلى ثلاث قطاعات دينية كبرى ، سنتحدث عن كل قطاع منها على حدة ، ونبدأ حديثنا عن القطاع الاسلامى على اعتبار أنه يشكل غالبية السكان فى ذلك الحين .

ا ــ القطاع الاسلامى :

لم يصادفنا فى المصادر والمرجع التى اطلعنا عليها ما يساعدنا على تقدير عدد المسلمين فى بيت المقدس فى تلك الفترة التى نتحدث عنها بشكل واضح ، الا أننا نستطيع القول اعتمادا على ما سبق وأشرنا اليه من أنهم كانوا يشكلون أغلبية السكان ، ويجب الاشارة إلى أن القطاع الاسلامى شمل العديد مما يمكن أن نسميهم تجاوزا عناصر سكانية ، حيث ضم المماليك وعرب الجزيرة العربية والمغاربة والاكراد والتركمان والهنود وهم الذين سنتحدث عن كل منهم على حدة .

(١) المماليك :

يأتى المماليك على رأس القطاع الاسلامى فى مدينة بيت المقدس باعتبار أنهم شكلوا الطبقة العسكرية الحاكمة ، وهم معظمهم من الأتراك والجراكسة ، والذين لم يكونوا فقط مختلفى الجنسية بل من حيث الاصل واللغة ، واعتمدت تربيتهم أساسا على شعورهم بالولاء لأميرهم الذى يدربهم ويعولهم ولإخوانهم فى السلاح ، وكان اهتمام تلك الطبقة الرئيسى عو تدعيم نظامهم العسكرى ، واستغلال الشعوب التابعة لهم ، وبما أنهم كانوا يمثلون الطبقة الحاكمة ، فإن الأرض كانت توزع عليهم ليجنوا منها نفقاتهم كل حسب مرتبته ومكانته وعدد مماليكة الذين يتبعونه ، وكان على أفراد هذه الطبقة عبء الدفاع عن البلاد ضد الاخطار الخارجية من جهة ، وحماية عرش السلطان ضد الاخطار الداخلية من جهة ثانية ، كما كانت هذه الطبقة تقوى نفسها على الدوام بما يجلبه تجار الرقيق إلى البلاد من المماليك(٤٥) .

ويتضح لنا الدور البالغ الأهمية الذى لعبه المماليك فى مدينة بيت المقدس من خلال تحكمهم فى

الأراضى الزراعية ، وبذا كانوا المهيمنين على الحياة الاقتصادية ، فضلا عن أنه عن طريق سيطرتهم على الحياة الدينية بتعيينهم لرجال الدين ، فقد مدوا نفوذهم على كل المجتمع الاسلامى فى ذلك العصر[٤٦] كما يجب ألا نقلل من شأن هذا العنصر فى مدينة بيت المقدس باعتبار أن الصبغة الدينية كانت هى الغالبة فيها ، لأننا من خلال إحصائية أجر بناها – وهى ملحقة بآخر البحث – عمن تم نفيه إلى مدينة بيت المقدس من أمراء ، المماليك ، وجدنا أنه لا تكاد تخلو سنة الا ويأتى ذكر النفى إلى القدس ، فاذا عرفنا أن بعض هؤلاء الامراء كان يصطحب معه عائلته وأتباعه ، لادركنا مدى كثرة المماليك فى القدس بالنسبة لحجم سكانها أو بالنسبة لحجم المدينة نفسها ، فضلا عمن كان يطلب الاقامة فى المدينة من كبار الامراء لكى يكون بعيدا عن تقلب الاحوال السياسية .

ومن الطبيعى أن كل أمير من الأمراء كان يصطحب معه أتباعه وأفراد أسرته ، فمن ذلك ما يرويه لنا ابن تغرى بردى فى ذكره لحوادث سنة ٧٦٢هـ/١٣٦٠م فى سلطنة الملك المنصور محمد بن المظفر حاجى بن الناصر محمد بن قلاوون من قوله « وحضر طاز وعلى عينيه شعرية فأخلع عليه وسأل أن يقيم بالقدس فأجيب وسافر إلى القدس وأقام به إلى أن مات ... » وكان الأمير اليوسفى الناصرى هذا قد اعتقل فى الاسكندرية أيام السلطان الملك الناصر حسن الذى أكحله[٤٧] . كذلك يؤكد لنا ابن شاهين الظاهرى أن بعض كبار الامراء قد فضلوا الاقامة بالقدس لكى يكونوا بعيدين عن مجريات الاحداث الساسية ولينعموا بالهدوء والاستقرار فى المدينة ، بل ان منهم من تفرغ للعبادة وعاش مجاورا بالقدس الشريف[٤٨] . هذا بالاضافة إلى ما يرويه كثير من المؤرخين المعاصرين من تفضيل الكثيرين من كبار الامراء الحياة فى مدينة بيت المقدس ، مثال ذلك ما حدث فى سنة ٨٠٠هـ/١٣٩٧م أيام السطان الظاهر برقوق فى سلطنته الثانية ، فعندما قرر السلطان أن يتولى الامير شيخ الصفوى نيابة غزة فان « الامير شيخ سأل السلطان أن يعفيه من نيابة غزة وأن يقيم بالقدس فأجابه السلطان إلى سؤاله ورسم له بالضياع التى كانت مع قنقباى الاحمدى وهى نصف بيت لحم ونصف بيت جالة وتوجه إلى القدس ... »[٤٩] وكذلك ما يرويه لنا ابن طولون من أن نائب الشام اليحياوى فى عهد السلطان الاشرف قايتباى فى سنة ٨٩٢هـ/١٤٨٦م كان مقيما بالقدس بطالا ثم أنعم عليه باعادته واستقراره فى نيابه الشام[٥٠] . وبهذا فضل كثير من الامراء الا قامة بالمدينة لينعموا بالهدوء .

٢ ـــ القبائل العربية :

وهم الذين يرد اسمهم فى كثير من المصادر والمراجع تحت اسم « العشير » أو البدو أو « العرب » ويرجع استيطان القبائل العربية مدينة القدس والمناطق التابعة لها إلى بداية العهد الاسلامى ، كما يرجع أصلهم إلى ثلاث بطون ، كل منها ينتسب إلى قبيلة من القبائل الآتية :

ا ـــ قبيلة بنى عمر : ويقال لها العمريون ، وهم بطن من بنى عدى ابن كعب ابن قريش من العدنانية ، وهم بنو أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، وقد تفرع عنها فرقة بوادى بنى زيد وهو من

أعمال الرملة وهم بنوزيد . وكذلك وجدت منهم فرقة بمدينة بيت المقدس نفسها(٥١) والتى لها حى فى الجزء الشمالى من المدينةُ بالقرب من باب الأسباط ، ظل يحمل اسمهم حتى أواخر القرن الخامس عشر الميلادى ، كما تشير المراجع إلى وجودهم أيضا فى عدة قرى تابعة لبيت المقدس فى القرن السادس عشر الميلادى(٥٢) .

ب ـــ قبيلة بنى جرم : وهم من العرب القحطانية ، وقد تفرع عنهم كثير من البطون مثل بنو غانم والعبادلة ، والاحامدة ، عقبة بن جزام ، وبنو قدامة ، وبنو عوف ، وبنو فيض ، وقد سكن كثير من هذه القبائل مدينة القدس(٥٣) مثل بنو غانم الذين سكنوا المنطقة التى تعرف بوادى الطواحين من جهة الشرق ، ولهم بها حارة تسمى حارة الغوانمة وهى مجاورة للمسجد الأقصى من جهة الغرب(٥٤) .

ج ـــ الجعافرة : وهم بطن من بنى الحسين السبط ، من بنى هاشم ، من العدنانية والجعافرة ينتسبون إلى جعفر الصادق بن محمد الباقر وقد استوطنت فرقة منهم مدينة بيت المقدس(٥٥) . وتجب الاشارة إلى أن كل القبائل العربية كانت تتكاثر غالبا فى المناطق القريبة من الصحراء وبخاصة فى فصل الشتاء ، حيث تكثر المراعى ، إما فى فصل الصيف فإنهم يعيشون حول المرتفعات المحيطة بالمدينة ، هرباً من حرارة الصيف ولكثرة الاعشاب ووفرة المياة فى تلك المناطق(٥٦) .

أما عن حياة هؤلاء البدو فيصفها لنا الرحالة سير جون مانديفيل الذى زار بيت المقدس عام ١٣٢٢م بقوله : انهم يعيشون فى خيام يصنعونها من جلود الحيوانات ، مثل جلود الجمال والحيوانات الاخرى ، وهم يعيشون فى المناطق التى يجدون بها المياه ، وهؤلاء البدو لا يزرعون الارض ، وقد لايؤدون أى عمل ، كما أنهم لا يأكلون الخبز الا إذا نزلوا احدى المدن ، فهم يشوون لحوم الحيوانات والاسماك على الصخور الساخنة على إشعة الشمس ، وهم رجال أقوياء ومحاربون اشداء ، بلغوا من كثرة العدد حد الا يحصى(٥٧) كذلك يصفهم لنا الأب سوريانو بقوله : وهم ينحدرون من العرب ، ويؤمنون أن اليوم المحدد لوفاة أى شخص منهم لن يتأخر ، ولهذا فهم لا يخشون الموت ، وهم يضعون غطاء للرأس ويلبسون جلبابا بدون قميص ، كما يشعرون بالخزى من حملهم الاقواس والنبال ، ولكنهم يستخدمون فقط الرماح والسيوف ، كما أنهم يعيشون متنقلين هنا وهناك على ما يقومون به من اغارات ، ويرعون الحيوانات من أجل لبنها ولحومها(٥٨) .

كما تجب الاشارة إلى أن هذه القبائل الضاربة فى المناطق المتاخمة لمدينة بيت المقدس ، كانت مصدرا للاضطرابات ومبعا للفتن ، ويبدو أن تلك الاضطرابات التى كانوا يقومون بها كانت وسيلة رزق يلجأوون إليها ، والدليل على ذلك ما يذكره لنا المقريزى فى حديثه عن سنة ٧٤٨هـ/١٣٤٥م عندما انتشر الغلاء وارتفعت الاسعار فى المناطق المجاورة للقدس ، فقام هؤلاء البدو بغارات شديدة على مدينة بيت المقدس ذاتها ، وأحدثوا فيها من النهب والسلب شيئا كثيرا(٥٩) . كذلك ما يرويه لنا فابرى الذى زار بيت المقدس سنة ١٤٨٠م أنه عقب وصول الحجاج المسحيين إلى ميناء يافا ، فقد راعهم حضور عدد كبير من المماليك بأسلحتهم وخاصة أن الحجاج أتو عزلا من السلاح ، فكان

الرد عليهم بأن البدو قد أتوا إلى البلاد من الصحراء بأعداد كبيرة ، وأنهم نهبوا كل ماصادفهم ، وأنهم تجمعوا فى المناطق الجبلية المحيطة لمعرفتهم بقرب قدوم الحجاج المسحيين ، ولهذا فقد حضر الامراء ومعهم عساكرهم بأسلحتهم حتى يقوموا بحراستهم حتى وصولهم إلى بيت المقدس(٦٠) .

وتعددت الفتن التى كان يقوم بها هؤلاء العشير أو البدو فى بيت المقدس والمناطق المجاورة لها ، ولعل السبب فى ذلك راجع إلى سوء أحوالهم الاقتصادية ، والتى يؤكدها لنا الرحالة فابرى بأنه عندما تصدى المماليك لهؤلاء البدو والذين حاولوا الهجوم على ركب الحجاج عن طريق العنف ، فإنهم أخذوا يتوسلون إليهم أن يعطوهم شيئا يأكلونه أو يقتاتون به(٦١) . فضلا عن ضعف النواب أنفسهم واستعانتهم بهؤلاء فى الخلافات التى تنشأ من ذلك ما يرويه لنا مجير الدين سنة ٨٩٩هـ/١٤٩٣م أيام الأشرف قايتباى أن نائب مدينة بيت المقدس ونائب مدينة غزة ، حدثت بينهما بعض الخلافات « فكان نائب غزة يسلط بعض العرب المفسدين ويغريهم على نائب القدس ويحرضهم على الفساد »(٦٢) . هذا إلى جانب ما جلب عليه هؤلاء العشير من عدم الخضوع للحكام . كما يلاحظ أيضا أنه إلى جانب الدوافع السابقة ، فقد كان هناك دافع سياسى وهو الغاء حكم المماليك واعادته إلى العرب الأحرار أصحاب السيادة القديمة على البلاد(٦٣) . ومن المؤكد أن البدو فى بيت المقدس قد تأثروا بثورات اخوانهم فى مصر شبه المستمرة والتى يلاحظها الباحثون طوال عصر المماليك .

وتجدر الاشارة إلى أنه بمرور الوقت حدث تغير فى حياة هؤلاء البدو ، لأننا نسمع من الرحالة الذين زاروا بيت المقدس أن هؤلاء البدو أصبحوا يقومون بخدمتهم وارشادهم وحمايتهم وتقديم المساعدات لهم نظير ما يحصلون عليه من مبالغ يدفعها هؤلاء لرؤسائهم(٦٤) كذلك من المؤكد أن بعض القبائل التى استوطنت بيت المقدس أخذت تتحول تدريجيا إلى شعب زراعى مستقر ، ولاسيما فى القرى المحيطة ببيت المقدس ، غير أنه ربما تمتع هؤلاء العرب بمركزا اجتماعى أعلا مرتبة من الفلاحين بسبب المساعدات الحربية التى كانوا يؤدونها للدولة وقت الحرب ولاسيما فى الحروب الصليبية ، وفى الحروب الداخلية التى شنتها قوى المماليك فى الاطراف الشمالية لدولتهم ضد التركمان ، كما كان مشايخ العربان تقع عليهم تبعة حفظ الامن والنظام فى المناطق التى سكنوها(٦٥) وخير دليل على التطور الذى طرأ على حياة بعض القبائل ما نشأ هذه من اختلاف نظم الضرائب التى كان يدفعها البدو ، فهناك بعض الجماعات التى كانت تدفع ضرائب على القمح وبعض المحاصيل الحقليه الأخرى بنفس الطريقة التى كانت متبعة فى القرى ، كما أننا نسمع عن تناقص اعداد هؤلاء البدو أواخر القرن السادس عشر الميلادى بشكل ملحوظ(٦٦) .

أما عن الالتزامات التى كانت مفروضة على هؤلاء البدو ، والتى يؤكدها لنا أبن شاهين بأن هؤلاء العرب كانوا يسجلون فى ديوان الجيش لمعرفة قبائلهم وأعدادهم ، والخدمات الحربية التى يمكن أن يقدموها للدولة ، وهى التجاريد والمهمات الشريفة « فالتجاريد تنقسم على نوعين نوع إلى الغزوات ونوع إلى المحاربين البغاة سواء كان فى ذلك السلطان بنفسه أو يعين من يختاره من جيشه

فيكونون على يرق واستعداد من الخيالة والرجالة والرماة بحيث أنهم إذا صاروا إلى العدو المخزول هزموه مع الفروع والاصول . وأما المهمات الشريفة فهى كلما طرت ضرورة لحراسة ثغر منن الثغور أو لشيء من الاطراف أو حفظ ما يقتضى حفظه أو ما يناسب ذلك »(٦٧) .

إما عن الالتزامات غير الحربية فيروى لنا المقريزى أن السلطان الظاهر بيبرس وهو المؤسس الحقيقى لدولة سلاطين المماليك ، خلع على أمرائهم ، وضمنهم البلاد وألزمهم القيام بالعداد ، والعداد هى زكاة مفروضة للسلطان سنويا على قطعان القبائل العربية والتركمانية والتى تقدر بالآلاف تؤخذ منهم كل سنة ، كما شرط عليهم خدمة البريد واحصار الخيل برسمه(٦٨) . ويبدو أن هذه الالتزامات لم تتغير طوال عصر سلاطين المماليك ، فهذا مجير الدين يحدثنا عنها ايام الاشراف قايتباى فى حديثه عن أمير عرب جرم بأنه لم يعد يصلح للامرية « لعجزه عن القيام بالقود وما هو عليه للخزائن الشريفة »(٦٩) ومن هذا يفهم أنه بالاضافة إلى ما كان يجب أن يحضره امراء العرب إلى السلطان من خيول وحيوانات كان عليهم دفع بعض الاموال سنويا

٣ ـــ المغاربة :

ترجع هجرة المغاربة إلى الشرق بوجه عام إلى أيام الدولة الفاطمية ، فمن المعلوم أن الفاطميين قد اعتمدوا فى تأسيس دولتهم فى المغرب على قبائل البربر المتعربة ، وكان فى جيشهم فرق منهم ، ومن الطبيعى أن تنتقل جموع منهم إلى مصر أولا بانتقال الفاطميين إليها ، لذا يعد العصر الفاطمى مرحلة هامة فى تاريخ الهجرات المغربية إلى مصر ، حيث انتقلت موجات كبيرة من المغرب ، واستقرت فى الجانب الغربى لمصر ، فى غرب الدلتا ، والبحيرة والفيوم ، والواحات ، وسائر الجهة الغربية من صعيد مصر وربما اتجهت بعض قبائل المغرب شرقا ، كما فعلت قبيلة لواته فتجاوزت شرقا وعبرت منقطع الرمل ، وعلى هذا الاساس وبما أن بيت المقدس كانت قد خضعت للفاطميين فى مصر فمن المرجح أن تكون هجرات المغاربة ترجع إلى هذا العهد(٧٠) . ويرجع أن يكون عدد هؤلاء المغاربة فى بيت المقدس قد ازداد عقب فتح صلاح الدين الايوبى لها ، نظرا لما تمتع به هؤلاء المغاربة أولا فى مصر على أيامه ، فضلا عن أن عددا كبيرا منهم ربما فضل الاقامة بها عقب قضائهم مناسك الحج ، ولعله قد حدث لهم عند اقامتهم بها ما حدث لهم فى مصر وما يرويه لنا ابن جبير من أن السلطان صلاح الدين الايوبى قد « جعل احكامهم اليهم ، ولم يجعل يدا لاحد عليهم ، (٧١) » ومن المرجح أن هذا الوضع قد استمر فيما بينهم بالقدس ، حيث تؤكد بعض المراجع أن المغاربة فى بيت المقدس قد عاشوا فى شبة عزله عن غيرهم من الجماعات ، وكعنصر منفصل عن السكان المحليين ، كما كان لهم شيخ يسمى شيخ المغاربة والذى لم يكن مجرد لقب للتكريم أو لقب شرف لهم كطائفة بل أكثر من هذا أنهم كانوا ينتمون إلى مذهب المالكية(٧٢) كما تشير بعض المراجع إلى أنه عقب وفاة صلاح الدين ، وفى أيام ابنه الافضل كانت لهم فى تلك المدينة حارة تنسب إليهم ويسكنونها ، وقفها على اختلاف اجناسهم ، كما كانت لهم زواية تعرف باسمهم ، وشيخ يُسمى شيخ المغاربة أو متولى مشيخة المغاربة بالقدس(٧٣) . كما يروى أحد الباحثين أن الملك الافضل بن صلاح الدين قد بنى جامعا

للمغاربة بجوار مربط البراق وقرب باب النبى لدخوله عليه الصلاة والسلام منه يوم الاسراء ، ومن ذلك الوقت سماه المجاورون باب المغاربة(٧٤) الا أن ابن فضل الله العمرى يصحح لنا ما وقع فيه هذا الباحث من خطأ بأن هذا الجامع لم يكن سوى مكان خصص لصلاتهم داخل المسجد الأقصى ، ولهم فيه امام ويصلى فيه الصلوات الخمس لاغير ، وانما اطلق هذا الاسم « جامع المغاربة » لغلبة الاسم على الجمهور فقط(٧٥) .

هذا وقد حفظت لنا كتب الأدب والتاريخ أسماء مئات من رجال العلم والدين والادب الذين رحلوا من المغرب الى الشرق فى طلب العلم والتفقه ، وهذا كتاب « نفح الطيب » يشغل ذكر هؤلاء العلماء نحو ثلثه ، وفى بيت المقدس نجد أنهم كانوا يسمعون فى المسجد الأقصى هذا فضلا عن عدد من المدارس والزاويا ، وقد تولى كثير من المغاربة مناصب رفيعة فى المشرق بوجه عام وفى بيت المقدس بوجه خاص كالقضاء وغيره(٧٦) .

وتجب الاشارة الى أن أعداد المغاربة فى بيت المقدس على عصر سلاطين المماليك ، من المرجح أنها قد ازدادت عما كانت عليه من قبل ، وذلك راجع الى تدفق اعداد كبيرة منهم لسبب الاحوال السياسية التى مرت بها بلدان المغرب العربى والاندلس فى تلك الفترة ، وترجع هجرة هذه الاعداد من المغاربة الى دولة سلاطين المماليك على أساس نظرة سكان المغرب والاندلس الى الدولة المملوكية فى ذلك العصر على أساس أن سلاطينها هم حماة الاسلام والمسلمين ، ويتضح ذلك من المراسلات التى كان يرسلها أهل مدن االاندلس والمغرب الى سلاطين مصر من المماليك يطلبون فيها النجدة(٧٧) .

ومما لاشك فيه أن الحروب التى شنها المسيحيون فى بلاد الاندلس ضد المسلمين وهى التى تسمى بحرب الاسترداد ، كان لها اكبر الأثر فى هجرة اعداد ضخمة من أهل الاندلس والمغرب على السواء الى الشرق ، وبخاصة بعد خضوع كثير من الثغور فى المغرب لنفوذ المسيحيين القادمين من قشتالة وأرغونة ، هذا الى جانب أن ظروف بلاد المغرب العربى ، وما ساد فيها من تفكك وضعف نتيجة لتفكك الاسرات الحاكمة وتصارعها ، كان من العوامل التى شجعت على الهجرة الى دولة سلاطين المماليك فى الشرق حيث الاستقرار(٧٨) .

وربما فضل كثير من هؤلاء المهاجرين الحياة فى بيت المقدس لغلبة الطابع الدينى عليها ، ولعل ما يتسر لاخوانهم المغاربة من رغد العيش والحياة الكريمة فيها كان عاملا مشجعا لجذبهم اليها فى تلك الفترة ، والحقيقة التى يجب أن نذكرها أن سلاطين المماليك فى مصر فى تلك الفترة لم يستطيعوا المساعدة بشكل مؤثر نظرا لانشغالهم بالاحوال السياسية المحيطة بهم من غارات الكتلان على السواحل والموانى المصرية والشامية ، فضلا عن ثورات التركمان فى شمال البلاد ، إلى جانب ما قام به ملوك الحبشة من محاولات للاشتراك فى المحاولات الصليبية مهددين سواحل بلاد الحجاز(٧٩) ، وبهذا نستطيع القول أن ما قامت به القوى المسيحية فى غرب أوربا من استرداد بلاد الاندلس ، ومهاجمتها موانى بلاد المغرب ، مع عدم استطاعة القوى الاسلامية الصمود لها ، كان من العوامل التى ساعدت

على هجرة اعداد كبيرة من المغرب والاندلس إلى بيت المقدس فى تلك الفترة من تاريخها ، وليس أدل على كثرة هؤلاء المغاربة فى القدس مما يذكره مجير الدين وهو معاصر لتلك الفترة عن كثير من علماء المغاربة الذين تولوا كثيرا من المناصب الهامة فى المدينة ، كان من أهمها القضاء ، ومشيخة زواية المغاربة بالقدس ، وامامة المالكية بالمسجد الاقصى ، ومشيخة القادرية ، وهى إحدى الطرق الصوفية بالقدس[٨٠] .

٤ ـ الأشراف :

يفهم مما رواه مجير الدين فى حديثه عن الأشراف أنه كان بالقدس ويظاهرها بوادى النسور الذى يبعد قليلا عن القدس ، عدد من السادة الاشراف الذين ينتسبون إلى نسل رسول الله ﷺ من نسل الحسين بن على رضى الله عنه ، وكانت لهم زواية يقيمون بها ، ويزورهم الناس للتبرك بهم ، ويبدو وأنه كان يتم اختيار واحد منهم بالوراثة ليلى رياسة هؤلاء الاشراف ، وكان هؤلاء الاشراف يحظون برعاية سلاطين المماليك ونوابهم ، من ذلك أنه قد وقف منجك نائب الشام عليهم قرية شرفات بالقدس ، كما استوطن عدد منهم مدينة بيت المقدس نفسها عندما ضاق بهم وادى النسور ، كذلك كان يطلق على هؤلاء الاشراف الذين سكنوا المدينة اسم البدرية « نسبة إلى السيد بدر بن محمد بن يوسف الذى ينتهى نسبه إلى الحسين بن على بن ابى طالب والمتوفى سنة ٦٥٠هـ/١٢٥١م .[٨١] . ويروى بعض الباحثين أن بالقدس منهم بعض الاسرات التى تنتمى إلى هؤلاء الاشراف حتى العصر الحديث ، مثل أسرة آل العلمى التى يرجع نسبها إلى الحسن السبط رضى الله عنه[٨٢] .

ومن المؤكد أن هؤلاء الاشراف لم يكن يميزهم عن غيرهم من سكان مدينة بيت المقدس شيء ، وبخاصة الملبس حتى عهد السلطان الاشراف شعبان بن حسين بن قلاوون ، ففى سنة ٧٧٣هـ/١٣٧١م رسم السلطان المذكور أن « الاشراف بالديار المصرية والبلاد الشامية كلهم يسمون عمائهم بعلامة خضراء بارزة ، الخاصة منهم والعامة اجلالا لحقهم وتعظيما لقدرهم ليقابلوا بالقبول والاقبال ويمتازوا عن غيرهم من المسلمين ، فوقع ذلك ولبس الأشراف العلائم الخضر ، التى هى الان مستمرة على رؤسهم .. »[٨٣] – والدليل على أن هذه الميزة فى ملابسهم لم تكن موجودة من قبل قول ابن تغرى بردى « ولقد احدث شيئا كان الدهر محتاجا إليه ولا ألهم الله تعالى الملوك ذلك من قبل .. »[٨٤] .

هذا وتتضح لنا سياسة سلاطين المماليك الدينية من حرصهم على التقرب إلى هؤلاء السادة الاشراف ، وتقليدهم بعض المناصب الهامة فى مدينة بيت المقدس ، فيما يرويه لنا ابن الصيرفى فى حديثه عن سنة ٧٩٤هـ/١٣٩١ أيام السلطان الظاهر برقوق فى سلطنته الثانية من أنه « خلع على السيد الشريف صدر الدين مرتضى بن غياث الدين ابراهيم بن صدر الدين حمزة الحسينى واستقر فى نظر القدس والخليل عليه الصلاة والسلام بعد وفاة قطلو بغا الطشقمرى » وكذلك تتضح لنا مكانة هؤلاء من خلال الألقاب التى أطلقت عليهم مثل « صدر الدين » و « غياث الدين »[٨٥] .

٥ ـــ الهنود :

من بين الجماعات الاسلامية التى كانت تسكن مدينة بيت المقدس فى عصر سلاطين المماليك جماعة الهنود ، وكان هؤلاء الهنود يترددون على زاوية فى المدينة نسبت اليهم وسميت باسمهم أى زاوية الهنود(٨٦) . ويرى بعض الباحثين أن تأسيس زواية الهنود فى بيت المقدس يرجع إلى أواسط القرن السادس الهجرى ، والتى كانت تقع إلى جوار باب السامرة أحد ابواب المدينة ، وعلى بعد خطوات من سورها الشمالى ، وكانت أولا مخصصة لفقراء الطريقة الرفاعية ، ثم راح الهنود ينزلون فيها ، كما أن لهذه الزواية أملاك موقوفة عليها بباب حطة(٨٧) .

والدليل على وجود هؤلاء الهنود فى عصر سلاطين المماليك وحتى أواخر القرن الرابع عشر الميلادى ما يرويه لنا مجير الدين فى حديثه عن « الشيخ الصالح عبد الله الهندى من الاولياء المشهورين توفى بالقدس الشريف ليلة الجمعة سابع عشر ربيع الآخر سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة ... » ، هذا وان كانت المصادر التى بين أيدينا لم تذكر شيئا عنهم وعن اعدادهم ، مما يرجح أنهم كانوا قليلى العدد فى ذلك العصر(٨٨) .

٦ ـــ الأكراد والتركمان :

يرجع وجود الاكراد فى بيت المقدس إلى عهد السلطان صلاح الدين الايوبى ، حيث يروى لنا ابو شامة أنه عقب فتح المدينة على يديه ، خلف الأمير سيف الدين على بن احمد الهكارى المعروف بالمشطوب « بالقدس من جملة العسكر المقيمين به ولم يكن وإليه انما كان واليه عز الدين جرديك وتوفى المشطوب رحمه الله بالقدس يوم الاحد الثالث والعشرين من شوال ودفن فى داره بعد أن صلى عليه فى المسجد الاقصى »(٨٩) . والمعروف أن الهكارية طائفة من الاكراد ، وكان المشطوب هذا أحد أمرائهم ، وفى هذا دليل كاف على أن الاكراد سكنوا القدس منذ فتحها صلاح الدين ، وأنهم أقاموا بها كجنود للدفاع عنها .

هذا ولم ينقطع تدفق الاكراد على بيت المقدس طوال عصر سلاطين المماليك ، ويؤكد لنا مجير الدين ذلك فى حديثه عن بعض الاكراد الذين وفدوا اليها بأن منهم من « أقام بين القدس والخليل فى أرض اختارها وعنى بها وزرع فيها ... ورزق أولادا صالحين » كذلك كان منهم « من أهل الفضل ومن الفقهاء بالمدرسة الصلاحية ... »(٩٠) . كما تؤكد بعض المراجع أن الاكراد كانوا موجودين بيت المقدس حتى أواخر عصر سلاطين المماليك ، وانه كثيرا ما كانت تنشب بينهم الفتن وبين بعض القبائل العربية ، والتى نتج عنها مقتل كثير من رجال الفريقين(٩١) . وأنه كان للاكراد حى خاص بهم يسكنونه فى المدينة عاشوا فيه عيشة منفصلة عن غيرهم من السكان ولم يندمجوا معهم ، وظلوا محافظين على عاداتهم الموروثة فى أحيائهم الخاصة بهم ، كما أن سياسة سلاطين المماليك كانت تشجع على استيطان تلك العناصر المحاربة من الاكراد بهدف العمل على حماية السواحل الفلسطينية من أية

اغارات جديدة من الغرب الأوربى[٩٢] .

وما قيل عن الاكراد يمكن أن يقال عن التركمان ، من حيث سكناهم بيت المقدس فى أحد الاحياء الخاصة بهم ، وأن سلاطين المماليك حرصوا على الاستفادة منهم كعنصر محارب يمكن الاعتماد عليه فى الدفاع عن المدينة ، أو للدفاع عن المدن الساحلية الفلسطينية ، هذا وان كنا نرجح أن اعداد التركمان ربما كانت اقل من الاكراد لان المصادر التى بين أيدينا لم تشر إليهم سوى اشارات عابرة ، فهذا مجير الدين والذى اهتم بصفة خاصة بالتاريخ لبيت المقدس ، لم يورد سوى ذكر لعدد قليل من العلماء التركمان الذين عاشوا فى المدينة فى عصر سلاطين المماليك[٩٣] . ولسنا ندرى هل تأثر وضع هؤلاء التركمان بما حدث من اخوانهم فى شمال بلاد الشام ، وقيام بعض قبائلهم بكثير من الفتن والثورات ضد حكم المماليك ، وإلى أى الفريقين انحازوا ، وهل نظر لهم السلاطين على أنهم مجرد رعايا لهم ولم يسيئوا لهم .

(ب) القطاع المسيحى :

بما أن مدينة بيت المقدس تعتبر مقدسة عند المسيحيين بقدر ما هى مقدسة عند المسلمين ، فإننا نجد بها طوال عصر المماليك العديد من المذاهب الدينية المسيحية المختلفة ، والحقيقة أنه لم ترد سوى إشارة واحدة – عند احد الرحالة الذين زاروها أواخر القرن الخامس عشر – عن عدد المسيحيين بها والذي يقدرهم بأكثر من ألف من كل المذاهب الدينية المسيحية المختلفة ، الا أننا نشك فى صحة هذا التقدير[٩٤] اذ تذكر لنا بعض المراجع أن عدد المسيحيين الذين كانوا فى بيت المقدس عند فتح صلاح الدين الايوبى لها كان اكثر من عشرين الف كما سبقت الاشارة والمعروف « أنهم بذلوا مع القطيعة الجزية ليسكنوا ولا يزعجوا ويؤمنوا ولا يخرجوا ... »[٩٥] كذلك يؤكد لنا ابن الاثير انهم طلبوا من السلطان صلاح الدين « أن يمكنهم من المقام فى مساكنهم ويأخذ منهم الجزية ، فأجابهم إلى ذلك .. »[٩٦] .

كذلك من المرجح أن تكون اعداد هؤلاء المسيحيين قد ازدادات عقب الفتح الصلاحى للمدينة ، ذلك أن هذا الفتح أعاد للمسيحيين ذلك النوع من الحكم الذاتى عن طريق توليهم شئونهم الداخلية فيما بينهم ، ومنحهم السيطرة على كنائسهم وشئونهم الدينية ، تلك السيطرة التى افتقدوها أيام الحكم الصليبى ، حيث سلبهم الصليبيون ، ما نسميه بالحكم الذاتى[٩٧] . هذا بالاضافة إلى أن المسيحيين المحليين كانوا يشكلون أغلبية سكان القرى المحيطة بالقدس مثل بيت لحم وبيت جالا وغيرها وهى تابعة لمدينة بيت المقدس فى ذلك العصر[٩٨] كما كانوا يشكلون الاكثرية المطلقة لبعض ضواحى المدينة ، مثل جبل صهيون فهو كما يصفه لنا فيلكس فابرى ... سكن المسيحين فقط وليس به مسلم أو يهودى[٩٩] .

ومهما قيل عن انتشار الأوبئة والأمراض المعدية ونكبات الطبيعة ، فضلا عما تعرض له المسيحيون المحليون فى بيت المقدس أثناء غزو الخوارزميه لاستعادة بيت المقدس من الصليبيين فى عهد

خلفاء بنى أيوب ، فان كل هذه العوامل لم تكن لتؤثر فى اعدادهم بهذه الصورة التى يحدثنا عنها فليكس فابرى ، كما أننا لم نسمع طوال عصر سلاطين المماليك ، عن حدوث هجرات للمسيحيين المحليين من القدس سواء فى المصادر العربية أم الاجنبية ، اذا المعروف أن بيت المقدس كانت وستظل مهوى أفئدة المسيحيين فى كل مكان وزمان .

والجدول التالى يبين لنا أهم الطوائف المسيحية بالقدس والمؤسسات الدينية التى كانت تمتلكها فى ذلك العصر .

اسم الطائفة	بيان بالمنشآت الدينية الخاصة بها	المصدر أو المرجع
أولاً : الأرثوذكس ١) الروم الأثورذكس	عاشت جماعة الروم الأثوذكس فى القدس منذ العصور المسيحية الاولى ، وكان لها المكانة الرئيسية فى كنيسة القبر المقدس باستثناء فترة الحكم الصليبى للمدينة ، ومن أديرتهم وكنائسهم بها : ١) ولهم ديرابينا ابراهيم ، ويقع فى ساحة كنيسة القيامة . ٢) ولهم فى نفس المكان كنيستان : احداهما صغيرة وتسمى « أبينا ابراهيم » والاخرى تكبر عنها وتسمى « الرسل الاثنى عشر » . ٣) دير مار يوحنا المعمدان . ٤) كنيسة العذراء مريم ، فى وادى القدرون كما يسمونها ديرستنا مريم . ٥) دير مار سابا أقامه القديس سابا حوالى عام ٤٨٤م . ٦) دير العذراء ، أقيم عام ٤٩٤م ، ويقع جنوبى كنيسة القيامة . ٧) دير القديس ثيؤد وسيوس ما بين بيت لحم ومارسابا . ٨) دير المصلبة ، ويقع غربى القدس . ٩) دير البنات – بنى فى أواخر القرن الخامس وبه كنيستان . ١٠) دير مار الياس ، أقيم سنة ٦١٠م	

اسم الطائفة	بيان بالمنشآت الدينية الخاصة بها	المصدر أو المرجع
	وهو يقع على طريق بيت لحم وأعيد بناؤه عام ١١٦٥م .	
	١١) دير الجليل ، وهو يقع فوق جبل الطور .	عن هذه الكنائس والاديرة راجع : عارف العارف : تاريخ القدس ، ص ٢٣٩ — ٢٤٢ ؛ عبد الحويد زايد : القدس الخالدة ، ص ٢٥٨ — ٢٥٩ ؛ ourians: Op. Cit. P. 391. Felix Fabri The Book Of the Wandering Vol 1., P. 933. Muyry: Syria and Palestine Vol 1, P. 23.
	١٢) دير القطمون ، ويقع غربى القدس ، فى حى القطمون ، كان بيد الكرج ثم صار إلى الروم الارثوذكس ، وفيه كنيسه وفى داخل الكنيسة قبر القديس سمعان ، وكانوا يسمونه دير سمعان .	
	١٣) الدير الكبير ، ويعرف بدير قسطنطين « وفيه ثلاث كنائس وهى كنيسة القديسة هيلانه ، وكنيسة القديسة تقلا ، وكنيسة مار يعقوب .	
	وهناك أديرة صغيرة نذكر منها :	
	١٤) دير حبس المسيح ، على طريق الآلام .	
	١٥) دير مارخر الامبوس بالقرب من الخانقاه الصلاحية من الجهة الشرقية .	
	١٦) دير مار أفتيموس وهو ملاصق لدير السيدة من الشمـال .	
	١٧) دير العدس ويسمونه دير مار نيكوديمس فوق حبس المسيح فى حارة السعدية .	
	١٨) دير صهيون ، فوق جبل صهيون .	
	١٩) دير مار جرجس وهو ملاصق لدير اللاتين من الشرق .	
	٢٠) دير مار ميخائيل .	
	٢١) دير مار ديمترى فى حارة	

اسم الطائفة	بيان بالمنشآت الدينية الخاصة بها	المصدر أو المرجع
	النصارى . ٢٢) دير مار تادرس .	
٢) السريان	جاءوا إلى القدس فى القرن الاول الميلادى ومن ممتلكاتهم بها : ١) كان لهم مكان فى كنيسة القيامة ، ودير ينسب لهم باسم دير السريان . ٢) كما كان لهم ابرشية مركزها بيت المقدس . ٣) دير مار مرقس ، ويقع بين حارة الارمن وحارة اليهود . ٤) دير القدس . ٥) دير مار توما فى الشارع المؤدى إلى حى النبى داود . ٦) معبد صغير فى كنيسة القيامة باسم يوسف ونيقود يموس . ٧) معبد فى الكنيسة المعروفة باسم ستنا مريم ٨) معبد على جبل الزيتون .	راجع عن ممتلكاتهم : مجير الدين : الأنس الجليل ، جـ٢ ، ص ٤٤٣ — ٤٤٤ ؛ عارف العارف : نفس المرجع ، ص ٥٥ عبد الحميد زايد : القدس الخالد ص ٢٦٠ Suriano: Op: Cit. P. 391 Newett. Casla,s P bgrims P; 276.
	أما السريان الكاثوليك فيبدو أنهم لم ينزلوا القدس فى هذه الفترة نظرا لعدم وجود اماكن دينية لهم الا فى القرن التاسع عشر الميلادى .	عن ذلك راجع : عارف العارف ، نفس المرجع ، ص ٢٥٦ .
٣) الأرمن	١) لهم دير فى بيت المقدس يعرف بدير الارمن ٢) دير مار يعقوب ويسمونه دير القديس جيمس الكبير وهو قديم البناء وتم تجديده أواسط القرن الثانى عشر الميلادى . ٣) دير الزيتون . ٤) دير حبس المسيح . ٥) ولهم كنيسة الجلجلة — الثانية وهى	راجع : مجير الدين ، نفس المصد جـ٢ ، ص ٤٠١ ؛ عارف : تاريخ القدس ص ٢٥١ ؛ رشاد الإمام مدينة القدس ، ص ١٢٤ .

اسم الطائفة	بيان بالمنشآت الدينية الخاصة بها	المصدر أو المرجع
	كنيسة صغيرة فى كنيسة القيامة امام القبر المقدس . ٦) كنيسة المريمات ٧) كنيسة مار يوحنا وهى تقع فى ساحة كنيسة القيامة ٨) كنيسة القديسة هيلانة .	
٤) الكرج	١) كانت لهم كنيسة الجلجلة فى أواخر عصر سلاطين المماليك . ٢) كما كانت لهم كنيسة المصلبة أو المصلبية ٣) دير الصليب المقدس . ٤) دير فى القبر المقدس داخل كنيسة القيامة	مجير الدين : الأنس الجليل ، جـ٢ ، ص٤٠٢ ، عارف العاريف : تاريخ القدس ، ص٢٦٩ ، محمد جمال الدين سرور : دولة بنى قلاون فى مصر ، ص٢٦٠ ؛ Nicola of Poggibonsi Visited the Holy Land from 346 To 1350 A. D. AVoyage Beyond the Seas Jerusalem 1945. P. 22,, Newett: Op. Cit P. 275
٥) الأقباط	جاءت أول جماعة منهم فى متنصف القرن الرابع الميلادى بمناسبة تدشين كنيسة القيامة ، ولهم أديرة وكنائس بالقدس منها : ١) دير السلطان ، وهو ملاصق لكنيسة القيامة من الناحية الجنوبية الشرقية ، وفيه كنيستان كنيسة الملاك ، وكنيسة الحيوانات الاربعة . ٢) دير مار أنطونيوس ، ويعرف بالدير الكبير ، وهو ملاصق لكنيسة القيامه من الناحية الشمالية الشرقية ، وفيه	عارف العارف : تاريخ القدس ، ص ٢٥٢ — ٢٥٣ ، عبد الحميد زايد : القدس الخالدة ، ص ٦٠ رشاد الامام : مدينة القـــــدس ، ص١٢٤ ، Suriano: Op Cit P. 391;

اسم الطائفة	بيان بالمنشآت الدينية الخاصة بها	المصدر أو المرجع
	كنيستان هما كنيسة القديس أنطونيوس ، وكنيسة الملكة هيلانة . ٣) دير مارجرجس فى حارة الموارنه على مقربة من باب الخليل . ٤) ولهم كنيسة باسم السيدة بالجسمانية . ٥) ولهم هيكل على جبل الزيتون . ٦) كنيسة باسم مار يوحنا خارج القيامة . ٧) كنيسة فى داخل كنيسة القيامة صغيرة ملاصقة للقبر المقدس من الغرب كما كان لهم رهبان فى كنيسة القيامة ، غير أن مكانهم كان يخلو منهم بسبب سفرهم إلى القاهرة أحيانا .	
الاحباش	اعتنقوا المسيحية فى القرن الرابع وجاءوا إلى القدس فى هذا التاريخ ، وفى عام ٦٦٠هـ/١٢٦٠م كان فى مدينة بيت المقدس عدد من الرهبان السود يقيمون فى دير السيدة مارى اللاتينية ، أما فرانيكولو الذى زار الأراضى المقدسة فى السنوات ٧٤٧هـ ــ ٧٥١م/١٣٤٦ ــ ١٣٥٠ فقد ذكر هؤلاء الرهبان السود بأنهم يتعبدون فى كنيسة القيامة . كما ذكرهم مجير الدين بأنهم ماتوا بسبب الوباء الذى اجتاح المدينة سنة ٨٩٧هـ/١٤٩١م . وكان لهم دير الحبش ملاصق لكنيسة القيامة ، فوق مغارة الصليب ، وقيل أنه جزء من دير السلطان للاقباط . كذلك كان لهم كنيسة الحبش والتى تقع فى ضواحى	مجير الدين : الأنس الجليل جـ٢ ، ص٦٩٠ ؛ عارف العارف تاريخ القدس ، ص ٢٥٣ ؛ عبد الحميد زايد : القدس الخالدة ، ص ٢٥٨ ــ ٢٦٠ ؛ رشاد الامام : مدينة القدس ص ١٢٣ ؛ Fra Nicola Op. Cit. p. 22;

اسم الطائفة	بيان بالمنشآت الدينية الخاصة بها	المصدر أو المرجع
	المدينـــــــــة خارج السور .	
ثانيا الكاثوليك		
١) الروم الكاثوليك	كانت لهم كنيسة القديسة حنة ، وهى التى تحولت بعد الفتح الصلاحى إلى المدرسة الصلاحية بالقدس .	عبد الحميد زايد : القدس الخالـــدة ، ص ٢٥٩ .
٢) الفرنسيسكان	ومن أملاكهم فى القدس : ١) دير المخلص ، ويعرف بدير اللاتين وهو واقع فى الجهة الغربية الشمالية من حارة النصارى ، ابتاعوه من الكرج . ٢) حبس المسيح ، حيث جلد واهين السيد المسيح حسب اعتقادهم . ٣) كان لهم مكان مخصص فى كنيسة القيامة أيضا . ٤) ولهم كنيسة مخصصة بهم هى كنيسة صهيون ، والتى يذكرها مجير الدين بأنها فى آخر المدينة من جهة القبلة . ٥) ولهم دير كبير فى جبل صهيون . ٦) كذلك كان لهم كنيسة خاصة بهم وهى التى بها قبر السيدة مريم أم المسيح عليه السلام .	مجير الدين : الانس الجليل ، جـ٢ ، ص٤٠٢ ؛ عارف العارف : تاريخ القدس ، ص ٢٤٦ ؛ عبد الحميد زايد : القدس الخالدة ص ٢٦٠ ، Newett. Op. Cit. P 247.

كانت هذه هى أهم الطوائف المسيحية التى سكنت مدينة بيت المقدس على عصر سلاطين المماليك ، ومن هذا الجدول يتضح لنا أن المسيحيين فى ذلك العصر فى المدينة كانوا ينقسمون إلى طوائف وشيع ومذاهب مختلفة ، بل وأجناس مختلفة أحيانا ، ولكل طائفة من هذه الطوائف مؤسساتها الدينية والاجتماعية ، الا أنها تشترك كلها فى كنيسة القيامة وهى الكنيسة التى يقدسها الجميع .

كذلك يتضح لنا من دراسة هذا الجدول أن طائفة الروم الأرثوذكس كانت تمثل أغلبية الطوائف المسيحية بالقدس ، وليس أدل على ذلك من أنها الطائفة الوحيدة التى أستأثرت بأكبر عدد من

المؤسسات الدينية المسيحية فى المدينة ، والمعروف أن هذه الطائفة قديمة العهد بالمدينة ، فقد كانت موجودة قبل الفتح الصلاحى للمدينة ، وقد وعد أبناؤها السلطان صلاح الدين بالمساعدة وفتح أبواب المدينة عندما حاصرها(١٠٠) كما أن هذه الطائفة كانت تابعة للكنيسة البيزنطية ، وهم نفس الملكانية الذين وجدوا فى مصر ، وقد كانوا من أصل عربى(١٠١) ولاشك أن أبناء هذه الطائفة قد استفادوا من الفتح العربى للمدينة عقب طرد الصليبيين منها ، حيث استعادوا هيمنتهم على الاماكن المسيحية المقدسة . كما تشير بعض المراجع إلى أن أبناء هذه الطائفة كانوا يتبعون بطريرك بيت المقدس ، الذى غالبا ما نسمع عن اقامته فى مدينة القسطنطينية(١٠٢) .

أما عن الأرمن فيبدو وأن أعدادهم كانت تأتى فى المرتبة الثانية عقب الروم الارثوذكس والدليل على ذلك الكثرة النسبية لعدد المؤسسات الدينية التى امتلكوها فى المدينة ، الا أننا نرجع أن تكون اعدادهم طوال عصر سلاطين المماليك كانت آخذه فى النقصان بسبب تشدد سلاطين المماليك فى معاملتهم للارمن ، بوجه عام طوال القرن الرابع عشر الميلادى على اعتبار أنهم أصدقاء الفرنج والمغول ، فضلا عن حسدهم لهم على الثروة التى تجتاز بلادهم بالطرق التجارية التى تصل البحر عند اياس(١٠٣) .

وفيما يختص بطائفة الكرج ، وهم الذين ينسبون إلى بلاد الكرج وهى اقليم القوقازالان (١٠٤) والتى ربما يرجع وجودها فى القدس الى القرن الخامس الميلادى أو قبلة . (١٠٥) إلا أنه من الملاحظ أن أعدادهم كانت آخذه فى التناقص بشكل واضح ، والدليل على ذلك ما سمعنا من بيعهم لبعض ممتلكاتهم الى أبناء الطوائف الاخرى . وكذلك الحال بالنسبة لطائفة السريان ، حيث من الواضح أنها كانت قليلة جدا ، على الرغم مما يقال أنهم جاءوا الى القدس فى القرن الاول الميلادى ، وكانوا موجودين أثناء الفتح العمرى للمدينة (١٠٦) ويعلل أحد الباحثين هذا التنافض بأنه راجع الى أيام الصلبيين ، فيخروج الصليبيين من االمدينة فقد رحلوا معهم وقل عددهم بها بعد ذلك (١٠٧) .

أما عن الاقباط فقد كانوا أقل الطوائف المسيحية عددا فى بيت المقدس ، والدليل على هذا ما تشير إليه بعض المراجع من أن مكانهم فى كنيسة القيامة كان يخلو منهم بسبب تغيبهم وسفرهم الى القاهرة (١٠٨) كذلك تجب الاشارة الى أنه وجدت اعداد ضئيلة جدا من أبناء بعض الطوائف المسيحية الاخرى مثل الموارنة واليعاقبة والنساطرة ، إلا أن أعدادهم لم تكن لتذكر لذلك أهملنا الحديث عنهم .

ومع تعدد الطوائف المسيحية فى بيت المقدس على عصر سلاطين المماليك ، والتى أشرنا اليها فى الجدول السابق ، سواء ما يختص منها بطوائف الارثوذكس أو الكاثوليك ، الا أننا فى الصفحات التالية سنتناول بشيء من التفصيل الكلام عن طائفتى الرهبان الفرنسيسكان والاحباش ، وذلك لمالهما من دور سياسى بارز فرضته ظروف اقامة أبناء تلك الطائفتين عليهما وكذلك الظروف السياسية التى احاطت بدولة سلاطين المماليك فى تلك الفترة التى نتناولها بالبحث . هذا فضلا عن أن سياسة سلطنة المماليك وعلاقتها بالدول المحيطة بها ، كان رد فعل لها على أحوال هاتين الطائفتين بوجه خاص .

الاحباش :

من المعروف أن الاحباش قد تنصروا خلال القرن الرابع الميلادى ، وجاوءا إلى القدس حيث دفعهم الايمان الجديد إلى زيارة بيت المقدس والعيش فيها منذ ذلك الحين ، وكان لهم فيها كنائس وأديرة كثيرة الا أنهم اضاعوا اكثرها من ايديهم ، ولم يبق فى أيديهم منها سوى دير الحبش وهو ملاصق لكنيسة القيامة فوق مغارة الصليب وقيل أنه جزء من دير السلطان للاقباط ، ذلك الدير الذى لم ينقطع الخلاف حوله بين الاقباط والاحباش(١٠٩) .

هذا وتصف كثير من المصادر المعاصرة وبخاصة الاوربية منها ، هؤلاء الاحباش الذين شوهدوا فى بيت المقدس فى عصر سلاطين المماليك ، بأنهم كانوا سود البشرة قبيحى المنظر سواء الرجال منهم أم النساء ، وأنهم كانوا يرتدون ملابسهم بطريقة رديئة ، وأن لهم لغتهم الخاصة بهم وكذلك أبجديتهم التى كانوا يستعملونها فى كتاباتهم ، ورجال الدين لديهم يحيون حياة قاسية ، وهم يظلون طوال الليل داخل كنيسة القيامة ، يرددون ترانيمهم الدينية الخاصة بهم ، يصفقون ويقفزون فى الهواء أثناء اندماجهم فى تلك التراتيل ، وهم يعيشون فى كنيسة القبر المقدس ، وفى بعض الكنائس الأخرى حول كنيسة القبر المقدس(١١٠) . كما أنهم كانوا يغطون رؤوسهم سواء الرجال أم النساء منهم بقماش من اللون الازرق ، ويرتدون ملابس ملونه ، وفى سلوكهم فهم متواضعون جدا ، ويمشون حفاة الاقدام ، ويشرطون وجوهم منذ طفولتهم بحيث يظهر الصليب على جباهم ، واحيانا على أنوفهم أو حدودهم معتقدين أن هذا نوع من المعمودية لغفران الذنوب والخطايا ، وفى عيد فصحهم يلتقى الرجال والنساء معها ، ويقومون بأداء بعض الرقصات والأغانى بطريقة خرافية وبصخب شديد ، حيث يقضون الليالى على هذه الحال ، ويبدأون رقصهم بضرب الأكف ، وكثيرون منهم يرقصون فى دائرة ، ويقومون بالرقص بعنف لدرجة أن بعضهم يسقط مغشيا عليه ، وكما أنهم يتحدثون بلغتهم الخاصة ، فهم يعرفون العربية أيضا(١١١) .

هذا وتشير بعض المراجع إلى أن الاحباش فى بيت المقدس ، كانوا اذا بدأوا صومهم حوالى عيد الفصح مثل الأرمن فلا يأكلون الا الفاكهة والنباتات ، أما رجال الدين لديهم فكانوا لا يأكلون اثناء فترة الصوم الا الخبز والماء ، وباقى افراد الطائفة يفعلون مثلهم فى أيام الاربعاء والجمع على مدار السنة ، كما أن رجال الدين لديهم يتزوجون ، كما أنهم لا يعترفون بخطاياهم أمام احد الا الرب(١١٢) .
وتشير بعض المصادر إلى أن هؤلاء الاحباش قد تمتعوا بكثير من الامتيازات فى بيت المقدس فى عصر سلاطين المماليك ، منها أنهم كانوا يعفون من دفع الجزيه ومن كل الضرائب الاخرى ، فضلا عن أنه سمح لهم بالتنقل فى البلدان التى خصعت لدولة سلاطين المماليك دون فرض أيه قيود عليهم ، بحيث أن منهم من كل يحمل جواز سفره ويتنقل فى الشرق كله دون عائق ، بل ويشير الاب سوريانوا الذى عاش فى القدس فى الفترة من ٨٩٩هـ/١٤٩٣م — ٩٢١هـ/١٥١٥م إلى أنه عندما يصل مبعوث ملكهم لديهم فى بيت المقدس فانهم يعطون مفاتيح كنيسة القيامة ، ويجعلونها مفتوحة طوال الليل ويستطيع كل واحد أن يدخلها دون دفع أيه مبالغ ، ويعلل ذلك بأن سلاطين المماليك كانوا

يفعلون ذلك لكي يحظوا بالقبول لدى ملكهم وحتى لا يحرمهم من مياه النيل ، على الرغم من أنه لا يمكن أن يمنع مياه النيل من الوصول إلى مصر ، كذلك لا يمكنه تحويله(١١٣) .

كما أن المصادر والمراجع لم تشر إلى عدد هؤلاء الاحباش فى عصر سلاطين المماليك فى مدينة بيت المقدس ، فبينما يرى أحد الباحثين أنه لم يكن يقيم بالقدس سوى عدد بسيط فان فابرى الذى زار بيت المقدس فى أواخر القرن الخامس عشر الميلادى ، يروى أن كثيرا من الاحباش كانوا يقيمون فى المدينة وفى المناطق المجاورة لها(١١٤) . الا أن ابن طولون فى حديثه عن سنة ٨٨٦هـ/١٤٨١ – وهى تقريبا نفس المدة التى بدأ فيها فابرى زيارته الاولى للمدينة – يروى لنا « أن جماعة من نصارى الحبش ، نحو ثلاثة الاف نفس دخلوا القدس لزيارة القيامة ... »(١١٥) . ولعل هذا العدد الكبير من الاحباش والذين أتوا لزيارة كنيسة القيامة كما هو واضح من النص ، وهو الذى جعل فابرى يردد أن عددهم كان كبيرا ، كذلك يذكر لنا مجير الدين فى حديثه عن الطاعون الذى انتشر فى بيت المقدس عام ٨٩٧هـ/١٤٩١ بأنه « أفنى طائفة الهنود عن آخرهم وكذلك الحبش ... »(١١٦) وهذا دليل وأضح على قلة اعدادهم فى المدينة فى تلك الفترة .

أما عن علاقة سلاطين المماليك بالحبشة وأثر هذه العلاقة على الأحباش المقيمين بالقدس ، فيبدو وأنه منذ بداية عصر سلاطين المماليك كانت العلاقة ودية ، حرص فيها ملوك الحبشة المسيحيون على توطيد الصداقة بينهم وبين المماليك نظرا لارتباط الحبشة بالكنيسة المصرية وبطاركة الاسكندرية(١١٧) فبطريك الاسكندرية هو الذى يرسل إلى الحبشة مطرانها الذى هو رأس الكنيسة هناك ، ورئيس هيآتها الدينية ، وهو الذى يتوج الامبراطور وهو الذى يعين القسس المنتشرين فى أنحاء البلاد والقرى ، ولقد أدرك ملوك الحبشة فى بداية عصر سلاطين المماليك أهمية مصر بالنسبة لهم ، لذا نرى الامبراطور » يكونو أملاك « أول ملوك الاسرة السليمانية (١٢٧٠ ـــ ١٢٨٥) يرسل إلى السلطان الظاهر بيبرس يطلب منه أن يأذن للبطريك المصرى فى تعيين مطران للحبشة ، ونراه يمعن فى اذلال نفسه فى مخاطبته للسلطان بيبرس بقوله « أقل المماليك يقبل الارض .. » فأجيب إلى طلبه(١١٨) . كذلك فى عهد ابنه « يجبأ صهيون » (١٢٨٥ ـــ ١٢٩٤م) نراه يكتب إلى السلطان قلاوون يجدد الطلب فى تعيين مطران مصرى ، بل أنه يخطو خطوة أكثر ايجابية من أبيه ، فيطلب من السلطان أن يحسن معامله المسيحيين فى مصر كما يحسن هو معاملة المسلمين فى الحبشة ، كى تقوم على الدوام بين البلدين صلات الود والصداقة(١١٩) . وتشير بعض المصادر العربية الى الاثر الذى ترتب على تلك الاتصالات والعلاقات الحسنة ، فابن عبد الظاهر يروى لنا فى حوادث سنة ٦٨٩هـ/١٢٨٩م أن رسول ملك الحبشة « يجبا صهيون » قد وصل برسالة إلى السلطان قلاوون مضمونها « أنه أرسل رسولا بسبب السلام ، ومعه لا جل البيت المقدس : ثوب عمل الحبشة ، ومائة شمعة للوقود فى الهياكل وسأل انفاذ ذلك للرهبان الحبوش المقيمين بالقدس الشريف ، ويوصى عليهم الا يمنعوا من دخول الهياكل ... » كما يؤكد لنا حرص ملوك الحبشة – وبخاصة عند توليهم الحكم – على ارسال كتبهم إلى الاحباش المقيمين بالمدينة يطلبون منهم ذكر اسمائهم فى القداس اليومى وفى الصلوات اليومية التى يقيمونها ، ولم يكن سلاطين المماليك يمانعون فى ذلك مادامت هناك

علاقات ودية[١٢٠] ففى السنة نفسها حل رسول ملك الحبشة بالقدس الشريف وفى يده مرسوم من السلطان قلاوون يأمر فيه بأن يسمح لجميع النصارى بالدخول إلى كنيسة القيامة ، فتسلم مفاتيح الكنيسة ودخل هو وجميع طوائف النصارى بغير كلفة ولا بذل ، وهذا دليل على مدى تأثر وضع الاحباش المقيمين بالقدس ، واستفادتهم من تحسن العلاقات بين سلطنة المماليك والحبشة[١٢١]

وفى عهد « عمد صهيون » الذى خلف يجبأ صهيون توترت العلاقات بين سلطنة المماليك والحبشة نظرا لقيام ملك الحبشة منذ تولية لحكم سنة ١٣١٢م إلى سنة ١٣٤٣م بشن كثير من الحروب ضد مسلمى الحبشة ، والمعروف أنه كان يعاصره فى تلك الفترة السلطان الناصر محمد بن قلاوون والذى تسلم منه احتجاجاً شديدا اللهجة كان يتضمن على حد قول المقريزى « اعادة ما خرب من كنائس النصارى ومعاملتهم بالاكرام والاحترام ، ويهدد بأنه يخرب ماعنده ممن مساجد المسلمين ، ويسد النيل حتى لا يعبر إلى مصر ، فسخر السلطان منه ، ورد رسله ... »[١٢٢] كذلك طلب السلطان من بطريك الاسكندرية أن يكتب رسالة إلى ملك الحبشة ، نظرا لا عماله الحربية ضد الامارات الاسلامية فى الحبشة ، ولوصول سفارة من مسلمى الحبشة برئاسة عبد الله الزيلعى ، ليتدخل السلطان فى الأمر لحماية مصالح المسلمين فى الحبشة[١٢٣] .

وتشير بعض المراجع إلى أنه عندما كانت تسوء العلاقة بين الحبشة وسلطنة المماليك فى مصر ، فاننا نسمع كثيرا عن التهديد الذى غالبا يردده ملوك الحبشة بقطع مياه النيل عن مصر ، ومنع النيل من الوصول اليها[١١٤] ومن المرجح أن سلاطين المماليك قد أدركوا عدم قدرة الاحباش على ذلك ، والدليل على ذلك قول المقريزى فى رد السلطان الناصر محمد بن قلاوون على رسالة « عمد صهيون » « فسخر السلطان منه ، ورد رسله ... »[١٢٥] كذلك من المرجح أن وضع الاحباش فى بيت المقدس كان يتأثر من سوء العلاقات هذه ، ويؤكد لنا احد الباحثين هذا من أن ملوك الحبشة كانوا دائما يخشون من رد الفعل لدى سلاطين المماليك الذى قد ينعكس على الرهبان الاحباش فى بيت المقدس[١٢٦] .

كذلك تجدر الاشارة إلى أن وضع الاحباش فى مدينة القدس قد تأثر بمجريات الاحداث السياسية ، بخاصة بعد طرد الصليبيين من بلاد الشام ، حيث حرصت البابوية منذ القرن الرابع عشر الميلادى بالذات على تقوي صلتها بالحبشة لاتخاذها عونا للغرب الفرنجى لا غلاق الباب الجنوبى للبحر الاحمر ، ومنع تجارة الشرق الاقصى من السير فيه إلى مصر وموانيها الشرقية[١٢٧] . ويبدو أن الاتصالات المتكرره بين الغرب الاوربى من ناحية وبين ملوك الحبشة من ناحية اخرى ، قد نجحت فى استثارة ملوك الحبشة ضد المسلمين وفى جذبهم إلى داخل مجال الحروب الصليبية ، ومن ذلك ما ذكره لنا دى لا بروكيير من أن ملك الحبشة عندما بلغه نبأ إغارة بطرس لوزجنان « لوزينان » ملك قبرص على الاسكندرية سنة ٧٦٧هـ/١٣٦٥م أعد جيشا ضخما من ثلاثة ملايين وزحف على رأسهم شمالا لمواجهة دولة سلاطين المماليك من الجنوب ، ولكنه لم يكد يقترب من تلك الحدود حتى علم بانسجاب بطرس لوزجنان ، فقفل راجعا إلى بلاده بعد أن خسر فى تلك العملية زهاء

مليونين من رجاله ، الرغم مما فى هذه الارقام من مبالغة واضحة . الا أنها تشير الى وجود اتصالات بين ملكى قبرس والحبشة ، كذلك تظهر هذه الاتصالات بشكل واضح فى عهد الملك اسحق الاول ملك الحبشة (١٤١٤ — ١٤٢٩م) والذى فكر فى القيام بحملة صليبية كبرى ضد المماليك فى مصر ، ولعل هذه الاتصالات بين ملوك الحبشة وملوك الغرب الاوربى هى التى جعلت سلاطين المماليك فى مصر يحتاطون لا نفسهم ويراقبون البحر الاحمر مراقبة دقيقة ولا يسمحون للاوربيين باجتيازه الا بتصريح خاص من السلطان(١٢٨) . ولعلهم راقبوا طائفة الاحباش المقيمين بالقدس مراقبة دقيقة ، ذلك لانه على رغم من أن السلطات المملوكية كانت تعمل جاهدة على منع الاتصال بين ملوك الحبشة والفرنج ، فان الفرنج كانوا على علم تام بتطور العلاقات بين المماليك والحبشة ، وذلك عن طريق الاتصال بين الرهبان الاحباش والرهبان الفرنسيسكان المقيمين سويا فى بيت المقدس ، أوعن طريق حجاجهم الذين يفدون إلى فلسطين ، وتجارهم الذين يترددون على أسواق مصر والشام . وكان الفرنج بالمرصاد لكل محاولة للتقارب بين الحبشة ومصر ، كما كانوا يتحينون الاوقات التى تحدث فيها القطيعة بين البلدين للعمل على تحقيق مشروعاتهم ، من ذلك أن البابوية انتهزت فرصة سوء العلاقات بين مصر والحبشة عقب وفاة السلطان برسباى ، بأن وجهت الدعوة لزرع يعقوب ملك الحبشة للاشتراك على يد البابا ايوجين الرابع ، والذى نجح فى تحقيق مسعاه عن طريق الاتصال برئيس رهبان الاحباش بالقدس نيقود يموس **Nicodemus** الذى أوفد راهبين من الاحباش لحضور هذا المجمع . ويقال فى هذا الصدد أن الراهبين وافقا على مبدأ توحيد الكنيسة المسيحية ، وسارع البابا إلى اتخاذ الخطوات الايجابية لتحقيق هذه الوحدة ، فأوفد فى نفس العام لدى زرع يعقوب أحد الرهبان الفرنسيسكان يدعى البرتود اسارتانو **Alberto de Sartano** وجاء الرسول البابوى رتشوف بمقابلة السلطان متلمسا منه أن يمنحه هو ورفاقه جوازا للمرور إلى الحبشة ، ولكن السلطان جمقمق رفض اجابة طلبة ، ومن ثم عدل الراهب ألبرتو عن الوصول إلى الحبشة عن طريق مصر فغادرها إلى شبة جزيرة القرم ، ومن هناك اتبع طريق طرابيزون والخليج العربى ثم البحر الاحمر ، ولكنه توفى فى الطريق ، وترك اتمام المهمة إلى زميل له فى الرحلة وهو راهب آخر من الفرنسيسكان يدعى توماسو **Tommaso** ، حيث لم يقدر له هو ورفاقه دخول الحبشة حيث وقعوا اسرى فى أيدى السلطات المملوكية اثناء عبورهم البحر الاحمر(١٢٩) .

ومع هذا فقد فشلت جهود البابا فى تحقيق الوحدة ، وفى نفس الوقت ازدادت العلاقات بين زرع يعقوب والسطان جقمق توترا بسبب أنه عاد إلى مشروع أبيه اسحق للتحالف مع الفرنج للقيام بحملة صليبية عامه ضد مصر . فالحرب التى شنها ضد المسلمين بالحبشة استمرت بضع سنوات ، كذلك اتجه إلى الفونسو الخامس ملك ارغونة ، لتحقيق مشروعه الصليبى ، الا اننا نلاحظ أن زرع يعقوب انصرف عن مشروعه هذا وأثر المساله مع مصر واعادة علاقات حسن الجوار والمودة بين الدولتين ، ولعل السبب فى ذلك راجع الى الضغط الذى مارسه السلطان جقمق عليه عن طريق بطريرك الاسكندرية وربما عن طريق الرهبان الاحباش — المقيمين بالقدس أيضا ، فضلا عن أن الحرب بين الحبشة وملوك الطراز الاسلامية كانت قد هدأت ، مما ساعد على تحسن العلاقات بين البلدين ، مما

ساعد على عودة العلاقات الطبيعية بين البلدين فى عهد السلطان عثمان بن جقمق الذى خلف أباه على العرش سنة ٨٥٧هـ/١٤٥٣م(١٣٠) .

ومما لا شك فيه أن وجود علاقات طبيعية بين البلدين كان له انعكاسه على الاحباش المقيمين بالقدس ، وهذا ما يؤكده لنا مجير الدين فى حديثه عن أحد أفراد هذه الطائفة ، بأنه أخطأ فى حق النبى ﷺ فرفع أمره إلى قاض القضاه الحنبلى شمس الدين العليمى « واعترف عنده بما صدر عنه فخوفه بعض الناس قال له أن هذه الطائفة للدولة بها اعتناء ونخشى عاقبة هذا من جهة السلطان ... »(١٣١) كذلك يشير ابن اياس فى ذكره لحوادث عام ٩٢٢هـ/١٥١٦م عندما زار وفد حبشى القاهرة فى طريقة إلى بيت المقدس ، فقد أكرم السلطان قانصوه الغورى أعضاء هذا الوفد وأمر بالمحافظة على سلامتهم أثناء تواجدهم وسفرهم الى بيت المقدس لزيارة كنيسة القيامة(١٣٢) .

من هذا العرض السريع عن طائفة الأحباش بمدينة بين المقدس ، يتضح لنا أن هذه الطائفة قد لعبت دورا سياسيا هاما فى مجريات الامور ، سواء عن طريق اتصال افرادها بجماعات الرهبان الفرنسيسكان اما لتحقيق الاتصال بين الغرب الاوربى والحبشة لتنفيذ بعض المشاريع الصليبية ضد المماليك ، واما لاهداف دينية كما سبقت الاشارة بذلك مثل محاولة اتحادهم مع كنيسة روما الامر الذى لم يتحقق ، وكان من الطبيعى أن يتأثر وضع ابناء هذه الطائفة تبعا لتطور العلاقات بين سطلنة المماليك والحبشة .

الفرنسيســـكان :

من المعروف أن طائفة الرهبان الفرنسيسكان تنسب إلى مؤسسها فرنسيس الاسيسى (١١٨٢ ــ ١٢٢٦م) ، الذى نشأ فى اقليم آسيسى Assisi فى شمال ايطاليا ، والذى كان يدعو الناس لان يحيوا حياة السيد المسيح عليه السلام بما فيها من بساطة وزهد وتقشف قدر طاقتهم ، وتجمع حوله الكثيرون من الاتباع ، وسرعان ما تحولت هذه الجماعة إلى جماعة ديرية على نسق الجماعة الدومينيكانية (١٣٣) . وهؤلاء الرهبان هم الذين يلقبهم المقدسيون « برهبان أبى حبلة » ولعل السبب فى تلك التسمية راجع لكونهم كانوا يلفون حول وسطهم قطعا من الحبل ، ويرى بعض الباحثين أن البابا جريجورى التاسع (ت ١٢٤١م) قد عهد اليهم بخدمة كنيسة القيامة عام ٦٣٥هـ/١٢٣٦م وانهم تزعموا حراسة الاماكن المقدسّة اللاتينية منذ سنة ٦٩١هـ/١٢٩١م(١٣٤) بينما يرى فريق آخر أن اقامة هؤلاء الرهبان الفرنسيسكان فى بيت المقدس انما ترجع إلى عام ٦١٨هـ/١٢١٩م ، ففى ذلك العام سمح لهم المعظم عيسى سلطان دمشق بناء على طلب أخيه الملك الكامل صاحب مصر – بالاقامة فى مقر متواضع فوق جبل صهيون ينقطعون فيه للعبادة ولحماية الاماكن المسيحية المقدسة القائمة فوق الجبل والمتعلقة بحياة السيد المسيح ، وهى على وجه التخصيص : عليه صهيون ، وقاعة الحواريين ، وقد تمكن الرهبان الفرنسيسكان من أن يحصلوا من السلطات الأيوبية عام ٦٤٥هـ/١٢٤٥ على حق توليهم رعاية الأماكن المقدسة ، وفى عام

٧٣٦هـ/١٣٣٥م أتيحت لهم فرصة توسيع مقرهم الاول وبناء دير صهيون الذى ضم عليه صهيون وكنيستها وكذلك الأماكن المسيحية الأخرى المجاورة لها فوق الجبل(١٣٥) .

بينما يرى فريق ثالث من المؤرخين أن هؤلاء الرهبان قد قتلوا على أيدى الخوارزمية عندما جاءوا إلى المدينة واجتاحوها سنة ٦٤٣هـ/١٢٤٤م ، ولم يبق لهم أثر بها وحتى سقوط مدينة عكا وطرد الصليبيين من بلاد الشام ، وكذلك فى الفترة التى تلت ذلك إلى الربع الأول من القرن الرابع عشر الميلادى ، فقد أجبروا على الإنسحاب من بيت المقدس ، ولم يظهروا فى المدينة إلا على شكل حجاج فقط(١٣٦) .

والحقيقة أننى أميل إلى هذا الرأى الأخير لأن الأب سوريانو وهو الذى تولى رئاسة هذه الطائفة ، وكما سبقت الإشارة بذلك يقول فى تأريخه لهم ، أنه بسقوط عكا عام ١٢٩١ م فى أيدى المسلمين وخروج الصليبيين من بلاد الشام ، فقد أجبر الفرنسيسكان على أن ينسحبوا إلى جزيرة قبرس ، وظلوا يتحينون الفرصة لكى يعودوا إلى الأرض المقدسة ، وقد تم لهم ذلك عام ١٣٣٥ م ، ومن خلال ما حصلوا عليه من تصريح استطاعوا أن يؤسسوا لهم ديراً فى جبل صهيون ، وعند عودتهم أخذ الرهبان الفرنسيسكان يقدمون خدماتهم للمسيحيين فى بيت المقدس يقصد بذلك الحجاج الغربيين – وبيت لحم ويساعدون الأوربيين من الحجاج فى فلسطين ، وقد اختار أبناء هذه الطائفة رئيساً لهم أطلق عليه لقب « حارس جبل صهيون » ، وقد كانت له السلطة العليا فوق كل أفراد الطائفة فى الأماكن الأخرى ، وكان الأب سوريانو أحد رؤساء الطائفة الذين حملوا هذا اللقب سنة ١٤٩٣ م(١٣٧) فضلاً عن أن الرحالة سيرجون مانديفيل الذى زار القدس عام ١٣٢٢ م لم يشر إلى وجود أولئك الرهبان الفرنسيسكان فى حديثه عن الطوائف المسيحية التى شاهدها داخل كنيسة القيامة وأثناء زيارته للمدينة ، فى حين أنه تحدث عن وجود بعض الرهبان اللاتين من طائفة الدومينيكان الذين شاهدهم داخل كنيسة القيامة(١٣٨) . أضف إلى ذلك أن ملك أرغونه **Jaime II** أرسل إلى السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، فى سبتمبر عام ١٣٢٢ م رسالة يطلب فيها أن يعهد السلطان إلى الرهبان الدومينيكان الأرجونيين بحراسة القبر المقدس وادارة شئونه ، وأن السلطان وافق على قيامهم بذلك العمل ، ثم فى أغسطس عام ١٣٢٧ أرسل خادمه المخلص **Pero de Mijaville** وزوده برسالة إلى السلطان رجاه فيها أن يعمل على إحلال الفرنسيسكان الأرجونيين محل الدومنيكان فى القيام بخدمة القبر المقدس(١٣٩) . وهذا خير دليل على صحة الرأى القائل بأن الرهبان الفرنسيسكان لم يكونوا موجودين فى بيت المقدس فى الفترة من ١٢٤٤ عقب اكتساح الخوارزمية للمدينة وحتى أوائل القرن الرابع عشر الميلادى . ويؤكد لنا فابرى تلك الحقيقة بما لا يدع مجالا للشك بقوله ، أنه عقب طرد الصليبيين من بلاد الشام ، فإن البابا نيقولا الرابع (ت١٢٩٢ م) والذى كان ينتمى إلى طائفة الفرنسيسكان* أرسل عقب سقوط عكا سنة ١٢٩١ م يطلب من السلطان الأشرف خليل بن قلاوون أن يسمح لبعض رجال الدين اللاتين أن يقيموا فى بيت المقدس لحماية القبر المقدس ، وقد طلب منه ذلك لكى ينتشر ذكره العظيم فى كل الغرب كما هو فى الشرق ، وقد أجاب السلطان هذا الطلب للبابا ، وسمح له بأن يرسل بعض الرهبان إلى بيت المقدس ، وحتى

* اعتلى العرش البابوى سنة ١٢٨٧م .

عام ١٣٠٣م لم يكن لهؤلاء الرهبان مكان يقيمون فيه(١٤٠) .

ويؤكد لنا كل من فريسبكو بالدى وجوسى اللذان زارا بيت المقدس عام ١٣٨٤م أنه كان لهؤلاء الرهبان الفرنسيسكان كنيسة لطيفة يسكنونها ، ولهم رئيس وحوالى ثمانية من الراهبات من الطائفة الفرنسيسكانية ، وقد قاموا بخدمة الحجاج المسحيين(١٤١) .

وارتبط تاريخ الرهبان الفرنسيسكان فى بيت المقدس باقامتهم فى جبل صهيون فى هذا الدير الذى ويضم المقدسات المسيحية فوق الجبل ، وبالاضافة إلى بعض الكنائس والادير الاخرة والتى سبقت الاشارة إليها(١٤٢) .

ومن المرجح أن اعداد الرهبان الفرنسيسكان آنداك كانت قليلة بالنسبة لغيرهم من أبناء الطوائف المسيحية المختلفة ، وخير دليل على هذا ما يرويه لنا بعض المؤرخين الغربيين أنفسهم ، من أنه كان بكنسية القيامة اثنان فقط من الرهبان الفرنسيسكان ، كما أن عدد الرهبان فى دير صهيون كان اثنين وأربعين راهبا ، وفى بيت لحم كان عددهم ستة رهبان ، كما وجد عدد مماثل فى كنيسة بيت لحم(١٤٣) . أما عدد الراهبات الفرنسيسكان فى جبل صهيون فقد بلغ احدى عشرة راهبة(١٤٤) ومن المرجح أن تكون أعداد هؤلاء الرهبان قد زادات بشكل ملحوظ ابتداء من القرن الخامس عشر ، اذ نسمع فى المراسيم الصادرة اليهم من كل من السلطان برسباى فى سنة ٨٣١هـ/١٤٢٧م والسلطان خشقدم فى سنة ٨٦٩هـ/١٤٦٤م بأن من حق رئيس الطائفة فى جبل صهيون اختيار اثنين وثلاثين أو اربعين من رهبان دير جبل صهيون ليحظوا ببركة الخدمة والتعبد داخل كنيسة القيامة ، وأن يبد لهم بغيرهم(١٤٥) كذلك تشير بعض المصادر إلى أن عدد أولئك الرهبان قد تناقص بشكل ملحوظ فى أواخر عصر السلاطين المماليك ، ففى سنة ٩١٣هـ/١٥٠٧م كان عددهم فى ديرهم فى جبل صهيون لا يزيد على العشرين ، وفى دير اللاتين فى القدس كان خمسة أو ستة من الرهبان ، وفى بيت لحم خمسة من الرهبان(١٤٦) .

وتشير بعض المصادر إلى أنه كان يفرض على أولئك الرهبان أن يظلوا فى جزيرة كريت مدة ثلاث سنوات قبل أن يتوجهوا إلى بيت المقدس ، وإذا حدث ومات أحدهم فيرسل بدله شخص آخر ويحل فى حجرته ومكانه(١٤٧) كما تجب الاشارة إلى أن سلاطين.المماليك حرصوا على حماية أولئك الرهبان ، وحماية من ينزل فى ضيافتهم ، فقد جرى العرف أن يقيم معهم فى ديرهم بجبل صهيون إثنا عشر مملوكا بصفة دائمة(١٤٨) . أما عن راهبات الفرنسيسكان فكن من السيدات الايطاليات المسنات ، وكن يقمن بخدمة الرهبان عن طريق غسل وحياكة ملابسهم ، فضلا عن أنهن كن يتعبدن فى كنيسة الرهبان ، ويبدو أنهن كن يقمن أيضا بخدمة بعض الحجاج المسحين وبخاصة رجال الدين منهم ، يروى لنا فابرى أنهن كن يغسلن له رداءه ويقدمن له بعض الخدمات فترة تواجده فى المدينة(١٤٩) .

ويبدو أن أولئك الرهبان عاشوا عيشة فقيرة تتسم بالبؤس والشقاء فى بداية وجودهم ببيت المقدس ، حيث اعتمدوا فى طعامهم وثيابهم على سخاء واحسان الكرماء الغرباء الذين يفدون إلى

الارض المقدسة ، والدليل على فقرهم أنهم فى رحلاتهم وتنقلاتهم لم يكن لديهم سوى بغلة واحدة يركبها رئيس الطائفة ، بالإضافة إلى ثلاثة من الحمير ، وكان يعتبر حدثا اذا لوحظ احضارهم لحمار جديد ، كما أن حجرات الرهبان لديهم كانت قليلة(١٥٠) ، والتى كانوا يعيشون فيها كل راهب فى حجرة بمفرده ، الا أنه فى عيد الفصح نظرا لزيادة عدد الحجاج ، ولانهم كانوا مضطرين لا ستضافة ربابنة السفن التى تقل الحجاج مع بعض معاونيهم ، بالاضافة الى رجال الدين من الحجاج ، فكان الرهبان يتركون حجراتهم وينامون كل ثلاثة أو اربعة فى حجرة واحدة(١٥١) .

أما عن رئيس الطائفة ، فقد كان يطلق عليه لقب حارس أو كفيل جبل صهيون ، وحارس الارض المقدسة ، وكان يشترط فيه أن يكون من ابناء الطائفة ، غاليا ما يكون ايطاليا حسبما يروى الاب سوريانو ، ويعينه البابا كل ثلاث سنوات ، وله نائب يتم اختياره ، ايضا ، كذلك كان لديهم وكيل للطائفة أسبانى الجنسية ويعين مدى الحياة ليدير ممتلكاتهم اما عن اختصاصات رئيس الطائفة فأنه كان يرأس أبناء الطائفة ، ولا يستطيع أحد من الرهبان مهما كان أن يعيش مع الطائفة دون اذن الرئيس ، كما كان من حقة فصل أى راهب لا ينفذ اوامره ، ومن سلطته أن يرسل الرهبان لجمع الصدقات والنذور والعشور إلى جميع انحاء العالم ، ولا أحد يستطيع عصيان هذا الامر ، كذلك من حقه أن يقبل فى الطائفة كل من يريد الانضمام إليها من الرجال والنساء ومن حقه أن يرفضهم ، كما من حقه أيضا تعيين المبشرين أو الدعاة ، ومن اختصاصاته كذلك تخليص المسيحيين من الآثام أو منحهم الغفران فيما عدا القتل والتزوج من أمرأة أخرى ، وكذلك ابطال بعض حالات الزواج ، وكان من سلطته فرض بعض ايام للصوم ، الى جانب تأسيس بعض الكنائس ومنح البركة ، ومباركة الزواج ، كذلك من حقة اصدار قرارات الحرمان على أفراد الطائفة ، ومعاقبة رجال الدين الذين يحضرون الى الأرض المقدسة دون أذن من رؤسائهم ، كما كان من حقه ممارسة الطقوس الدينية من منتصف الليل وحتى الصباح (١٥٢) .

ومن أهم الأعمال التى قام بها أبناء طائفة الفرنسيسكان بالأضافة الى الخدمات التى أشرنا اليها — التبشير ، فمنذ وطئت أقدامهم الارض المقدسة فقد عمد هؤلاء الرهبان الى التبشير بين أكبر عدد ممكن من الناس ، ويبد وأنهم قد نجحوا فى اجتذاب بعض العناصر المسيحية المحلية اليهم ، حيث يحدثنا الاب سوريانو أنه فى عام ٨٥٤ هـ/١٤٥٠ م ، حدث اتصال بينهم وبين الأرمن فى القدس لكى يخضعوا لكنيسة روما ، وفعلا خضعوا لمدة عشر سنوات ، فضلا عما يرويه من أن الرهبان الفرنسيسكان — لعبوا دورا هاما فى التقارب الذى حدث بين البابوية وبين طائفة الموارنة فى بلاد الشام وهذا خير دليل على الدور التبشيرى لهم . الا انهم قد فشلوا فى تلك المهمة بالنسبة للمسلمين ، حيث يقول سوريانو أيضا أن الرهبان قد لا قوا الكثير من معارضة المسلمين المتحمسين فى بيت المقدس ، كما أنهم كانوا معرضين دائما لان يتجرأ الكثير من المسلمين لدخول بيوتهم فى جبل صهيون ، وأن يأخذوا ما يحلو لهم من طعام وفاكهة ، وأن يسكبوا النبيذ الذى يبذل الرهبان جهدا كبيرا فى اعداده ، وكان هذا هو وضعهم فى عصر سلاطين المماليك(١٥٣) .

ومن المرجح أن يكون ما تعرض له أبناء هذه طائفة ، فى بيت المقدس من عداء وما لاقوه من معارضة كان السبب ما ذكره لنا الاب سوريانو من أنهم فى عهد رئيسهم السابق عليه **Br John** الالمانى قد كونوا جماعة من الفرنسان لحماية أبناء الطائفة والدفاع عنها ، وكذلك للدفاع عن الحجاج المسيحيين الذين وكل لهم حمايتهم(١٥٤)

أما عن دروهم الخاص بالحجاج المسيحيين الغربيين ، فكانت مهمة استقبال هؤلاء الاوربيين ومرافقتهم فى الاراض المقدسة ، وفى زياراتهم مدة حجهم ترجع الى رئيس دير جبل صهيون بالقدس ، حيث لم يكن فى استطاعة هؤلاء الحجاج مبارحة السفينة المقلة لهم الى ميناء يافا الا بعد حضوراً أمير الرملة ونائب السلطنة بالقدس ورئيس دير جبل صهيون ، حيث كان الاخير بمثابة الكفيل لهؤلاء الحجاج ، فضلا عن كونه المرشد لهم من يافا الى بيت المقدس(١٥٥) كذلك كان يصحبهم لزيارة نهر الاردن ، ثم الى بيت لحم وعين كارم ثم فى طريق العودة الى يافا ، وكان يقوم بهذا العمل مع الحجاج الذين يتحدثون باللغة الايطالية بنفسه أو اللاتينية اذا كان ايطالى الجنسية ، اما غير ذلك من الحجاج فكان له مساعدون يقومون بهذا العمل(١٥٦) كما كان يشترط على هؤلاء الحجاج منذ البداية ، فى التعليمات التى كان يصدرها لهم عند استقباله لهم ضرورة اظهار احترامهم لدير الرهبان الفرنسيسكان فى جبل صهيون ، وأن يقدموا مساعداتهم من صدقات وهبات للدير ، فضلا عن مساعدة الرهبان الذين يخدمونهم والذين يقيمون بين المسلمين من أجل راحتهم(١٥٧) كما تجب الاشارة الى أن أولئك الرهبان كانت لديهم أماكن مخصصة لنزول الحجاج فى الأرض المقدسة فى كل من الرملة وبيت المقدس (١٥٨) .

أما عن مواردهم المالية ، فكان افراد طائفة الرهبان الرفرنسيسكان يعيشون على مبالغ الصدقات والعشور والنذور التى كانت تجبى لهم من أوربا ، فضلا عما يقدمه لهم الحجاج من هبات وأموال ، بالإضافة إلى ما يرويه لنا بعض الرحالة الذين زاروا بيت المقدس أواخر القرن الخامس عشر الميلادى ، من أنهم كانوا يعتمدون على المبالغ التى كانت ترسل لهم كهدايا وهبات ، فان الدوق فيليب دوق برجنديا أوقف على الاماكن المقدسة سنويا مبلغا يقدر بألف دوكات طوال حياته ، كما فعل أيضا ابنه شارل الشجاع وكذلك ما كسيميلان الاول ، فقد استمروا فى تدعيم ومساندة أولئك الرهبان الفرنسيسكان بالأموال والهبات والنذور(١٥٩) .

الا أننا نلاحظ أنه فى أواخر القرن الخامس عشر الميلادى ، فإن دخلهم الرئيسى أصبح يعتمد على المبالغ التى ترد إليهم عن طريق التجار الاوربيين فى كل من بيروت ودمشق وحماة والاسكندرية والقاهرة ، كما يشير بوم جارتن الذى زار القدس سنة ١٥٠٧م إلى أن هؤلاء الرهبان أصبحوا يدينون بالكثير للبنادقة ، وهو الذين يحصلون من كل سفينة عند ابحارها على دوكات ذهب ، وهذا بدوره يشكل مبلغا من المال كبيرا ، ثم يدفع البنادقة تلك المبالغ لا خوانهم الرهبان الذين يعيشون فى Candy والذين يقومون بدورهم بتحويل تلك المبالغ إلى اخوانهم فى بيت المقدس ، كذلك يشير إلى أن لويس ملك فرنسا أرسل لهم خمسمائة دوكات مع أحد الاشخاص المسافرين معه(١٦٠) .

كذلك يشير أحد الباحثين إلى أنه قد عثر على وثيقة حررها الملك هنرى الثامن ملك انجلترا مؤرخة بتاريخ ١٥١٦م يتبرع فيها بارسال صدقة سنوية تبلغ قيمتها ألف جنيه ذهبى أو مبلغا يعادلها من المال للرهبان الفرنسيسكان فى بيت المقدس ولم يكن هنرى وحده الذى يرسل تلك المبالغ ، بل اننا تجد كثيرا من النبلاء فى فرنسا وأسبانيا والبرتغال وألمانيا وبولنده والبندقية ونابلى وروما ، ومن البلاد الأخرى يتنافسون لإرسال تلك الاموال والهبات ، كذلك يحتفظ الرهبان بسجلات لديهم بها أسماء كبار الشخصيات من الامراء والنبلاء والفرنسان من الذين زاروا ادبرتهم فى بيت المقدس وغيرها من المدن فى الارض المقدسة ، وكذلك من الحجاج ورجال الدين ومقدار ما تبراعوا به من أموال(١٦١) .

وفى هذا العرض خير دليل على مدى ما تمتع به اولئك الرهبان من ثروة عقب استقرارهم فى بيت المقدس وعلى وجه التخصيص منذ القرن الخامس عشر الميلادى ، ولعل تلك الاموال التى تدفقت عليهم كانت عاملا مؤثرا فى تغيير حياتهم من فقر إلى غنى ورغد من العيش بسبب تلك الاموال ، فضلا عما نالوه من عطف البابوية عليهم ، وتأييد ملوك الغرب الفرنجى لهم فى ذلك الوقت حيث خصصوا لهم الكثير من الاموال ، وليس أدل على تلك السعة من العيش مما يرويه لنا الاب سوريانو من حرص بعض رؤساء الطائفة بما فيهم هو ، على أن يشتروا بعض المنازل والاراضى المحيطة بالدير الخاص بهم فى جبل صهيون(١٦٢) ، وكذلك ما كانوا ينفقونه من أموال كثيرة للعناية بالاماكن التى آلت إليهم من كنائس وأديرة ، وعلى المستشفى المخصص للغرباء(١٦٣) .

وترجع أهمية الحديث عن أبناء هذه الطائفة لا بوصفهم رهبانا منقطعين للعبادة لهم ما لغيرهم من طوائف الرهبان من حق الرعاية التى تتمثل فيما توفره الدولة لهم من أمن وطمأنينة ، لكن بوصفهم من الفرنج المقيمين فى بيت المقدس يجمعهم واخوانهم فى أوطانهم فى الغرب هدف سياسى واحد ، وينعكس عليهم صدى علاقات دولة سلاطين المماليك بدول الفرنج ، فإذا أدركنا هذه الحقيقة الخاصة بوضعهم فى بيت المقدس لادركنا أنه يجب علينا الا تقتصر فى دراسة أوضاعهم على الناحية الدينية فقط ، وبعبارة أخرى أنه كان لهؤلاء الرهبان دور سياسى هام طوال عصر سلاطين المماليك .

ويتضح لنا الدور السياسى لطائفة الرهبان الفرنسيسكان فى بيت المقدس فى ذلك العصر ، مما قام به هؤلاء الرهبان من اتصالات بين ملوك الفرنج والبابوات من جهة وبين ملوك الحبشة من جهة اخرى لتحقيق اتصالهم بالبابوية وملوك الغرب الاوربى اما لكونهم جواسيس لهم فى القدس ، أو لتحقيق بعض مصالح الرهبان الخاصة ، أو كسفراء سياسيين لسلاطين المماليك ، حيث لم يكن لدولة سلاطين المماليك تمثيل دبلوماسى أو سفراء سياسيين مع دول الغرب(١٦٤) .وسنورد هنا بعض الامثلة التى تؤكد هذا الدور السياسى المتنوع .

لعب الفرنسيسكان دورا تجسسيا لحساب الغرب ، فقد كان رئيس هذه الطائفة هو الذى تولى ابلاغ البابا نبأ فشل السفارة الكاثوليكية للحبشة والقبض على أعضائها سنة ١٤٤٣م وفشل زرعا يعقوب فى اعادة العلاقات الودية مع السلطان جقمق ، وكان الفرنسيسكان هم الذين نقلوا إلى

الاسبتارية فى رودس أنباء استعدادات جقمق للهجوم على الجزيرة عام ١٤٤٠م مما جعل السلطان ينتقم منهم(١٦٥) .

وقد استغل الفرنسيسكان التطورات السياسية لتحقيق مصالحهم الخاصة ، فقد نجح اليهود فى اقناع السلطان برسباى فى تملك القبو الذى يوجد به قبر داود ، مما أثار ثائرة الرهبان الفرنسيسكان الذين أبلغوا هذا النبأ إلى البابا مارتن الخامس ، الذى قام بدوره باصدار منشور يحرم على المسيحين نقل يهود اوربا الى الاراضى المقدسة على سفنهم ، وهدد المخالفين منهم بحرمانهم من الكنيسة ، واستجاب مجلس الشيوخ البندقى ، فأصدر قرارا فى يونيو ١٤٢٩ يحرم على ربابنة سفن البندقية نقل اليهود إلى فلسطين ، ويهدد كل من يخالف ذلك القرار بتوقيع غرامه كبيرة ، كما كتبوا إلى ملك البرتغال الفونسو الخامس (١٤٣٨ — ١٤٧١) وطلبوا منه توقيع اجراءات انتقامية على المسلمين القاطنين فى بلاده بسبب النزاع الذى نشب بينهم وبين اليهود فى القدس حول القبو الذى يقال أن به قبر سيدنا داود ، وكان من نتيجة رسالتهم إلى الفونسو الخامس أن دفع رعاياة من المسلمين بمدينة لشبونة إلى مكاتبة السلطان المملوكى الأشرف اينال أوائل ربيع الثانى ٨٥٨هـ/ ابريل ١٤٥٤م يرجونه السماح للرهبان الفرنسيسكان ببناء ما هدم من كنائسهم وأديرتهم واستعادة القبو الذى انتزع منهم اذا ما ثبت أنه من حقوقهم ، ولكن السلطان رفض الاستجابة(١٦٦) . كذلك فشل الفرنسيسكان فى دفع القراصنة الاوربيين لشن الهجمات ضد السفن والموانى الاسلامية كما فشلوا فى استغلال ظروف لجؤاخى السلطان بابزيد إلى روما لتحقيق مطالبهم بشأن قبر داود(١٦٧) .

كذلك تجب الإشارة إلى أن تطور الحركة الصليبية منذ أواخر القرن الثالث عشر ، وحتى نهاية عصر سلاطين المماليك ، وما ترتب عليه هذا التطور من ايجاد كثير من المشاريع والمحاولات الصليبية لاستعادة الارض المقدسة ، وما نجم عن ذلك من غزوات وهجمات على المدن والموانى الاسلامية لدولة سلاطين المماليك ، كان له أكبر الاثر على وضع هؤلاء الرهبان ، اذا أصبحوا يمثلون فى نظر السلطات المملوكة أمم الفرنج مجتمعة ، واضطرت سلطنة المماليك وبخاصة عندما تحيق بها الاخطار ان ترسل منهم الرسل والسفراء إلى البابوية وملوك الفرنج لتحقيق نوع من الضغط السياسى على ملوك الغرب والبابوية(١٦٨) .

هذا بالاضافة إلى ما تشير إليه المراجع من أن هذا الطائفة من الرهبان كانت الطائفة الوحيدة من طوائف الرهبان التى لها قنصل يمثلها لدى السلطات المملوكية فى ذلك العصر(١٦٩) . ففى حصولهم على حق التمثيل الدبلوماسى ، وتعيين قنصل لهم لدى السلطات المملوكية خير دليل على أن نشاطهم السياسى قد طغى على غيره من الانشطة ، وبحيث لم يعد النشاط الدينى هو كل ما يشغل بال ابناء هذه الطائفة .

جـ — اليهود :

المجموعة الثالثة من سكان مدينة بيت المقدس فى عصر سلاطين المماليك هى مجموعة اليهود ،

وهم يعتبرون بيت المقدس مدينتهم المقدسة واليها يحجون(١٧٠) ومن الواجب أن نشير أن أحوال اليهود بالنسبة لمختلفة المجالات وفى جميع الاحوال كانت تحت حكم سلاطين المماليك أحسن منها لما كانت مدينة بيت المقدس تحت حكم الصليبيين(١٧١) . إذ المعروف أنه بقدوم الصليبيين إلى بيت المقدس فإنهم لم يبقوا بها يهوديا واحدا على قيد الحياة ، فقد جمعوا اليهود فى الكنيس الخاص بهم واشعلوا النيران فيه بمن فيه(١٧٢) . وتحكى لنا المراجع العربية والاوربية عن المعاملة القاسية التى عامل بها الصليبيون سكان فلسطين بوجه عام وبيت المقدس بوجه خاص ، وفيما يختص باليهود ، فقد روى أنه عقب احراق الصليبيين عليهم معبدهم الذى اجتمعوا فيه مات منهم عدد كبير ، وأسر من فر من النار ، وسيقوا ليباعوا فى أسواق النخاسة ، وروى أن ثلاثين يهوديا بيعوا بدينار واحد ، وبرر الصليبيون ذلك بأنهم ينتقمون منهم لقتلهم السيد المسيح ، ولقد عانى اليهود من الاضطهاد الصليبى فى كل مدن فلسطين ، وشملهم القتل والاسر ، ونتيجة لهذه المذابح الصليبية ، فقد هرب من تبقى من اليهود من مدن فلسطين ناجين بحياتهم إلى أماكن اكثر أمناً ، حتى كادت مدن فلسطين تخلو تماما من اليهود(١٧٣) .

وذكر الرحالة اليهودى بنيامين التطلى الذى زار فلسطين عام ١١٧٣م أنه رأى مدن فلسطين تكاد تكون خاليه من اليهود ، حيث يذكر أن مدينة نابلس لم يكن بها من اليهود سوى مائة من السامرة ، وأن بيت المقدس كان بها مائتان من اليهود الذين يسكنون فى أحد أركان المدينة تحت برج داود ، أما أغلب سكانها فقد كانوا من اليعاقبة والأرمن والكرج والفرنج ، كذلك يذكر أن بيت لحم لم يكن بها سوى اثنى عشر يهوديا كما أنه لم يذكر وجود أى يهودى فى مدينة الخليل عند حديثه عنها ، أما فى بيت جبريل فقد كان هناك ثلاثة فقط من اليهود ، والرملة كان بها ثلاثة فقط من اليهود ، كما أن يافا كان بها يهودى واحد فقط ، وأنه مر على بعض مدن فلسطين فلم يشاهد بها يهوديا واحدا(١٧٤) .

وتشير بعض المراجع إلى أن أعداد اليهود فى بيت المقدس فى فترة الحكم الصليبى كانت آخذة فى التزايد ، بخاصة منذ بداية القرن الثانى عشر الميلادى ، وذلك نتيجة لكثرة هجرات اليهود من اسبانيا وشمال إفريقيا والذين اتخذوا من فلسطين موطنا لهم بسبب حركة الاضطهاد الدينى(١٧٥) الا اننا نرى أن الصليبيين وأن كانوا قد أظهروا نوعا من التقارب مع المسلمين واليهود بعد استيلائهم على بيت المقدس ، فلم يكن ذلك الا لحاجتهم لما يقدمه لهم هؤلاء من خدمات ، سواء لجلب المواد الغذائية وهو ما قام به بعض المسلمين ، أو الخدمات التجارية والتى قام بها عدد محدود من اليهود ، وعلى هذا الاساس فان الحاجة إلى التجارة هى التى دفعت الصليبيين للتصريح لعدد معين من اليهود بالحياة فى مدينة بيت المقدس اثناء الحكم الصليبى ، ولم يحدث أن كثرت أعدادهم فى تلك الفترة(١٧٦) . أما ما يقال عن الهجرات اليهودية إليها ، فلم نسمع من المصادر التى بين ايدينا عن أيه هجرة إلى بيت المقدس فى العصر الصليبى ، انما كانت الهجرات فى القرن الرابع عشر الميلادى والخامس عشر(١٧٧) . هذا فضلا عما سبق وأشرنا إليه فى حديثنا عن رحلة بنيامين التطلى الذى زارها ١١٧٣ من قلة أعدادهم ، ويؤكد لنا الرحالة اليهودى بتاحيا تلك الحقيقة وهو الذى زارها قبل الفتح الصلاحى بسنوات قليلة ، حيث زارها سنة ١١٨٠م ووجد بها يهوديا واحدا(١٧٧) .

وبفتح صلاح الدين لمدينة بيت المقدس عام ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م تبدأ فترة جديدة بالنسبة لحياة اليهود فى المدينة ، فقد رفع حظر سكنى اليهود فى المدينة ، وفى فلسطين ، وعندما سمع اليهود بسماحة أخلاق هذا الفاتح العظيم وعدم تعصبه الدينى أخذوا فى العودة من مخابئهم إلى أرض فلسطين والقدس ابتداء من ستة ٥٩٠هـ/١١٩٠م(١٧٩) حيث أمر السلطان بأن يعلن فى كل مدينة بالسماح لليهود بالعودة الى بيت المقدس . ولنا أن نسأل مالذى دفع السلطان صلاح الدين لتشجيع اليهود على الاقامة بالقدس عقب فتحها ؟ وللاجابة على هذا التساؤل نستطيع القول أن اعداد المسلمين كانت قليلة فى ذلك الوقت فى المدينة ، فضلا عن أن ظروف المدينة ووجود عد ورابض على مقربة منها يتحين الفرصة للوثوب عليها كما سبق وأشرنا كان من العوامل التى لم تشجع كثيرا من المسلمين على سكناها ، حيث مازالت ذكرى المذابح التى نفذها الصليبيون ماثلة فى أذهانهم ، بالاضافة إلى أن غالبية من بقى بها بعد الفتح كان من المسيحيين الذين أظهروا الولاء للصليبيين سواء عند قدومهم لاحتلالها ، أو عقب فتحها على يد صلاح الدين وكما سبق وأوضحنا .

هذا وتشير بعض المراجع إلى تدفق أعداد من اليهود على بيت المقدس ، سواء من المدن التى خضعت للحكم الاسلامى فى ذلك الوقت أو بلدان أوربا ، حيث وفدت إليها اعداد من اليهود من عسقلان التى دمرها صلاح الدين ، كما أن بعض اليهود المغاربة فروا اليها سنة ١١٩٨م كما أتت اليها اعداد من المهاجرين من فرنسا سنة ١٢١٠ — ١١ ، بالاضافة إلى بعض اليهود من المانيا(١٨٠) . وفى سنة ١٢١٥ فان صوئيل بن سيمون وهو يهودى وصل الى فلسطين وذكر أن أكثر من ٣٠٠ من الربابنة من جنوب انجلترا وفرنسا ذهبوا إلى الارض المقدسة سنة ١٢١١(١٨١) .

كما يؤكد لنا الشاعر اليهودى الاسبانى يهودا الحرزى الذى زار بيت المقدس سنة ١٢١٦ — ١٢١٧م ، أن فتح صلاح الدين الايوبى لبيت المقدس أعقبته هجرة عدد كبير من اليهود إليها ، وأن صلاح الدين نفسه لم يمنعهم من الاقامه فى المدينة(١٨٢) .

وفى خلال سنوات قليلة من حكم هذا السطان أعيد المجتمع اليهودى فى القدس وتجمع اليهود من كل صوب وحدب عائدين إلى المدينة ، كما أتى مع هؤلاء الوافدين عدد كبير من علماء اليهود وربانيهم ، ولقد ذكر مؤرخ يهودى أن الملك العادل أخا صلاح الدين استقبل الوافدين من اليهود عام ١٢١١ ، وسمح لهم ببناء مدارس ودور عبادة يهودية ، ويأتى على رأس المجتمع اليهودى فى تلك الفترة الرابيان الفرنسيان شمشون بن ابراهيم الشنازى ويوناثان اللونلى ، كما استمرت هجرة هؤلاء اليهود إلى بيت المقدس طوال عصر صلاح الدين وعهد أسرته من بعده(١٨٣) .

وأخيرا تجب الاشارة إلى أنه على الرغم مما يقال عن كثرة المهاجرين اليهود إلى بيت المقدس فى العصر الأيوبى ، الا أننا نلاحظ أن عدد اليهود فى القدس كان ضئيلا ، فى أواخر العصر الأيوبى وبداية عصر سلاطين المماليك ، فالرحالة اليهودى نحمانيدس الذى زار بيت المقدس عام ١٢٦٧م قد وجد بها اثنين من اليهود فقط ، وكانا يعملان بالصباغة وهما اخوان(١٨٤) . وتشير المراجع اليهودية إلى أن السبب فى قلة اعدادهم فى بيت المقدس فى تلك الفترة راجع الى ما تعرضت له بلاد الشام من

غزوات المغول(١٨٥) . الا أن احد الباحثين يفسر لنا السبب فى تضاءل اعداد اليهود بالقدس بقوله إن كثيراً منهم اعتنق الا سلام نظرا للتسامح وحسن المعاملة التى لقيها هؤلاء من الحكام ، حيث لم يمض نصف قرن من عودة المدينة للحكم الاسلامى الا وكان عدد اليهود بالقدس ضئيلا لهذا السبب(١٨٦) . وعلى الرغم مما تشير إليه كثير من المراجع عن هذا التناقص فى اعداد اليهود فى تلك الفترة والتى استمرت ليس فقط فى أواخر العصر الأيوبى وبداية عصر سلاطين المماليك ، بل نستطيع القول حتى أواخر القرن الخامس عشر الميلادى ، حيث شهدت المدينة هجرة اعداد كبيرة فى السنوات التى تلت عام ١٤٩٢م ، تلك الهجرات التى زادت من حجم الجماعة اليهودية فى فلسطين والقدس(١٨٧) . وقد ظل هذا التناقص واضحا على الرغم من أن مدينة بيت المقدس لم تتعرض للغزو المغزلى ، كما أنها نعمت بالاستقرار عقب دخولها تحت حكم المماليك كما سبق وأشرنا ، مما يرجع إليه دخول الكثيرين منهم دين الاسلام .

ومن الطبيعى أن ينهج سلاطين المماليك نهج سادتهم من الأيوبيين فى معاملتهم لليهود ، لاننا نراهم يحذون حذوهم فى كثير من الامور ، والدليل على أنهم لم يمنعوا اقامة اليهود فى بيت المقدس وأنهم استمروا فى نفس الاتجاه الذى سلكه الايوبيون ، اننا نسمع فى سنة ١٢٦٧م عن رابى موشى بن نحمان الذى أتى الى بيت المقدس وأعاد إحياء الطقوس الدينية اليهودية بها وبنى كنيسا يحمل اسمه ، ثم فى سنة ١٤٨٨م يقيم فى بيت المقدس رابى عويديا دابر تينيور **Rabi Obadiah de Bertinero** ويرأس جماعة اليهود فيها ، وهذا يؤكد لنا استمرار هجرة اليهود إليها طوال عصر سلاطين المماليك(١٨٨) الا أنه يلاحظ أن تلك الهجرات كانت قليلة ولم يكن لها شأن يذكر الا أواخر القرن الخامس عشر كما سبقت الاشارة بذلك ، وليس أدل على ذلك من أنه فى عام ١٤٨١م فقد ذكر موسلم الفولتيرى **Mushallam de Voltera** أن فى القدس ٢٥٠ يهوديا ويسكنون بيوتا يملكونها ، لكن لم يذكر أى شىء عن أى معبد(١٨٩) . وبعد عامين يذكر الرحالة فابرى الذى زار بيت المقدس عام ١٤٨٣م أن عدد اليهود بالمدينة كان أكثر من خمسمائة(١٩٠) . ثم ما يذكره الرحالة اليهودى عوبديا من بلدة بيرتينور والذى زارها عام ١٤٨٨ ، من أن سبعين عائلة يهودية تسكن بيت المقدس ، ولقد انفرد بذكره معبدا معتما لليهود لا يدخله الضوء الا من الباب وهو ملاصق لمسجد للمسلمين ، وهذا الوصف يتفق مع ذكره المؤرخ المعاصر مجير الدين ، فقد ذكر أن فى القدس نحو ثلاثمائة يهودى يعيشون فى حى خاص ، يفصلهم عن الحرم أحياء إسلامية صرفة ، وأنه وقع بين المسلمين واليهود خلاف على الدار الواقعة بين كنيسة اليهود ومسجد المسلمين فى حارة اليهود(١٩١) . ولعل السبب فى قلة اعداد اليهود فى مدينة بيت المقدس فى عصر سلاطين المماليك راجع إلى ما قد اصاب المدينة من كثرة الاوبئة والطواعين وبخاصة فى عصر دولة سلاطين المماليك الثانية ، هذا من جهة ومن جهة أخرى إلى ما يذكره استاذنا د . دراج من أن اليهود بالقدس كانت تجبى منهم جزية الرؤس بطريقة جماعية ، وكانت محددة بمبلغ ٤٠٠ دينار أو « دوكات » سنويا مما كان السبب فى اضطرارهم الى هجرتها بسبب هذا الاجراء التعسفى ، الا أن السلطان جقمق اصدر فى السنة الاولى من حكمه مرسوما يقضى بجبايتها من كل فرد على حدة ، الامر الذى أدى الى عودة كثير من اليهود

اليها ، هذا إلى جانب اسلام الكثيرين منهم حتى يتسنى لهم تولي بعض الوظائف الهامة فى الدولة ، مثل وظيفة كبيرا التراجمة بالبلاط المملوكى(١٩٢) .

وأخيرا تجب الاشارة إلى أن هذه الجماعات اليهودية التى نشأت فى بيت المقدس فقد نشأت إما لأغراض دينية مثل مجيء رجال الدين منهم للتعبد ، أو هربا من الاضطهاد الدينى الذى تسبب فى هجرة اليهود « السفرديم » بعد طردهم من أسبانيا ، كذلك جدير بالملاحظة أن هؤلاء اليهود الذين وفدوا على مدينة القدس وبخاصة من أوربا لم يكونوا من نسل « يهود التوراه » ولكن من سلالة الأوربيين ، وبخاصة المتقدمين فى العمر ، جاوءا إلى فلسطين للتعبد والتبرك بالدفن فى الاماكن المقدسة ، وكما هو ملاحظ من تلك الهجرات .

أما عن حياة اليهود فى بيت المقدس على عصر السلاطين المماليك ، فقد كان لهم حى فى المدينة يسمى باسمهم — حى اليهود أو حارة اليهود — وإليها نسب احد ابواب القدس المسمى بباب حارة اليهود(١٩٣) . ويصف لنا احد الباحثين هذا الحى ، بأن الشارع الرئيسى فى هذا الحى يسمى شارع اليهود وعلى جانبيه توجد منازل يسكنها اليهود وهو يصل ما بين شارع دواد الى سور المدينة ، وليس ببعيد عن بوابة صهيون(١٩٤) . وقد ورد ذكرها عند مجير الدين بأنها بجوار حارة الصلتين من جهة الغرب وضمنها حارة الريشه وحارة صهيون الجوانبة(١٩٥) . وتشير كثير من المصادر إلى أن هؤلاء اليهود عاشوا فى حيهم هذا حياة فقيرة ، فهذا هو فابرى يؤكد لنا تلك الحقيقة بقوله أنه وجد فى القدس عددا من اليهود وقد كانوا يعرفون من خلال فقرهم الظاهر للعيان(١٩٦) .

ولقد عاش هؤلاء اليهود الذين هاجروا إلى بيت المقدس على الصدقات التى ترسل إليهم من بلادهم الاصلية باعتبار أن مساعدتهم واجب دينى ، وتولى هذه المساعدات الخيرية نظام « الحالوقاة » أو « التوزيع » وشمل الجزء الاكبر من الجماعات اليهودية فى فلسطين ، ونظام « الحالوقاة » هذا قد بدأ فى القرن الخامس عشر ، عندما تكونت جمعية تحت هذا الاسم ثم تلتها جمعيات مشابهة توزيع الهبات على اليهود الذين يجمع بينهم الانتماء الى بلد واحد ، وكان يسافر مبعوثون يقومون فى بلادهم الأصلية لجمع التبرعات للمقيمين فى بيت المقدس وغيرها من المدن الفلسطينية(١٩٧) . هذا ويشير أحد الباحثين إلى أن نظام « الحالوقاة » أو كما يسميه هو « هالوكا » نشأ أولا بغرض مساعدة اليهود الذين هم من أصل المانى ، حيث كان مجال نشاطه هو أوربا ، ثم أنشئت بعد ذلك هيئة مثلها لمساعدة اليهود الذين هم من أصل أسبانى ، وبمجيء القرن السادس عشر الميلادى اصبح هناك مجموعتان لجمع التبرعات من يهود أوربا والعالم(١٩٨) . هذا وتجب الاشارة الى أن المنظمات اليهودية لجمع التبرعات والاموال كانت معروفة ومنتشرة وفى انحاء مصر والشام والمغرب العربى والغرب الاوربى أبان العصر الفاطمى ، وكان الغرض منها الانفاق على الاكاديميتن اليهوديتين الكبيرتين فى بغداد وفى القدس(١٩٩) . وعلى هذا الاساس يمكننا القول أن نظام « الحالوقاة » والذى ظهر فى القرن الخامس عشر الميلادى كان امتدادا لتلك الجماعات التى كانت موجودة من قبل ، لكن ربما بشكل أكثر تنظيما .

أما عن الجماعات اليهودية التى وجدت فى بيت المقدس فيمكننا تقسيمها إلى قسمين كبيرين ، هما السفرديم والاشكنازيم ، والسفارديم كلهم من أصل اسبانى وهم الذين طردوا من أسبانيا أو البرتغال ايام الملك فرديناند سنة ١٤٩٧م ، ولقد احتفظ هؤلاء اليهود بلغتهم الأسبانية ، الا أنهم بمرور الوقت تعلموا اللغة العربية ، وتخلقوا بعادات وتقاليد العرب فى الملبس والمسكن والعادات والتقاليد . اما الاشكنازيم فهم يهود شرق اوربا ، وهم يهود المانيا وبولنده ، وتشير بعض المراجع إلى أنهم كانوا يتحدثون اللغة الالمانية ، واحتفظوا بعاداتهم وتقاليدهم الغربية فى المسكن والملبس وغيرها(٢٠٠) . الا أنه بمرور الوقت فقد تأثر هؤلاء اليهود جميعا بالطابع العربى ، فارتدو الملابس العربية ، وبنوا منازلهم على الطابع العربى فى شكلها الخارجى واثاثها وادواتها ، وأخذوا بعادات العرب فى الطعام والشراب ، وتذوقوا الموسيقى العربية ، واستمرت مظاهر الحضارة العربية تسود حياتهم حتى بداية الهجرة اليهودية المنظمة فى العصر الحديث(٢٠١) . وبالاضافة إلى المجموعتين الكبيرتين يمكننا اضافة بعض اعداد قليلة من يهود المغرب أو اليهود العرب الذين كانوا قد عاشوا فى المدن التى خضعت للحكم الاسلامى ، ثم هاجروا إلى بيت المقدس ، كما سبقت الاشارة بذلك .

أما عن التقسيم الدينى لليهود فى بيت المقدس ، فيحدثنا الأب سوريانو عنهم فيقول ، وهناك أيضا اليهود من مذاهب مختلفة وهم بالتحديد اليهود الربانيون واليهود القرائين واليهود السامرة ، اما السامرة فلم يكن فى استطاعتهم أن يعيشوا فى بيت المقدس بسبب القانون السماوى « ربما يقصد بذلك معتقداتهم الدينية » ولكن اذا حدث وأتوا إلى بيت المقدس لقضاء بعض المهام أو الاعمال ولم يستطيعوا اتمام عملهم واتى الليل فكان عليهم أن يغادروا المدينة بالليل ويناموا خارجها ، لمدة طويلة لا حظت أنهم منقسمون على بعضهم البعض وكل واحد يكره الاخر(٢٠٢) .

هذا وتجب الاشارة إلى أن كل مجموعة من هذه المجموعات كان لها رؤساء دينيون يسمى كل منهم رابى ، وعلى رأس كل مجموعة من الربانية حاخام أو الخاخام ، كذلك كان لهم معابدهم الخاصة بهم التى مارسوا فيها طقوسهم الدينية بحرية تامة(٢٠٣) .

أما عن الاعمال التى مارسوها فى بيت المقدس على عصر سلاطين المماليك ، فتشير الكثير من المصادر والمراجع إلى أن بعض اليهود قد اشتغلوا كمرشدين سياحيين لمصاحبة الحجاج المسيحيين فى زياراتهم لبعض الاماكن المقدسة أو كتراجمة ، وخير دليل على ذلك ما يرويه لنا الرحالة فابرى سنة ١٤٨٣م من أن اليهود كانوا يشتغلون بخدمة الحجاج المسيحيين القادمين من الغرب ، وكان منهم التراجمة والمرشدون السياحيون وكذلك ما يرويه لنا الرحالة بوم جارتن **Baumgarten** الذى زار القدس سنة ١٥٠٧م حيث يقول ، وتوجهنا تحت حماية اليهودى الذى كان يعمل ترجمانا لنا والعربى الذى كان يقوم بحراستنا ، لكى نرى تلك الاماكن المقدسة(٢٠٤) . وكذلك ما يرويه **Rev. Henry Formly** من أن أحد اليهود وهو ألمانى الاصل والذى صحبه فى مشاهدة مدينة الخليل هو والحجاج المسيحيين ، كان يعمل كمرشد سياحى بالنسبة لهم ، كذلك كان يحضر لهم النبيذ ويبيعه لهم(٢٠٥) كما يشير أحد اليهود وهو اسحق بن يوسف بن شلو الذى هاجر الى بيت المقدس عام ١٣٣٣م مع

اسرته فى رسالة بعث بها إلى أبيه وأصدقائه يصف لهم احوال اليهود فى القدس ويذكر بعض الاعمال التى يمارسها هناك يقول فيها « وكثيرون من أفراد الطائفة يعملون فى الصناعة كالدباغة والخياطة وصنع الاحذية وغير ذلك ، وغيرهم يعملون فى التجارة ولهم حوانيت أنيقة ... »(٢٠٦) . كما تشير بعض المراجع إلى أن اليهود فى بيت المقدس كان بعضهم يشتغل بالصناعة وسك النقود والصيرفة(٢٠٧) . ومن هذا يتضح لنا أنه لم يكن لهم دور مميز عن غيرهم من الطوائف الاخرى والتى سكنت بيت المقدس من المسلمين أو المسيحيين *.

العلاقة بين المسلمين وأهل الذمة

ان نظرة سلاطين المماليك الى مدينة بيت المقدس على انها احدى الاماكن المقدسة الهامة سواء بالنسبة للمسلمين أم لغير المسلمين من مسيحيين ويهود ، وأنها يجب أن تحظى برعايتهم وعنايتهم ، كان لها أثر كبير بلا شك فى معاملتهم لسكانها من أهل الذمة ، تلك المعاملة التى يشهد بها كثيرون من كتاب الغرب الأوروبى ، وبما اتسمت به من روح التسامح والعدل نحو أهل الذمة ، هذا على الرغم من تعدد الطوائف الدينية لكل من المسيحيين واليهود . واختلافهم فيما بينهم ، الا أن سلوك سلطنة المماليك تجاه أهل الذمة جميعا ، كان يتسم بالتسامح ، ومما لاشك فيه أنهم تلقوا معاملة أفضل بكثير تحت حكم المماليك مما لا قوة تحت حكم الفرنج(٢٠٨) كذلك الحرس السلاطين المماليك أشد الحرص على تحقيق أكبر قسط من الامن والاستقرار للطوائف الدينية القاطنة فى القدس ، ولقد عاش كل من أهل الذمة والمسلمين فى أمن وحرية تحت لواء الحكم المملوكى الاسلامى(٢٠٩) وليس أدل على حسن العلاقة التى كانت قائمة بين المسلمين من حكام وبين أهل الذمة مما يرويه لنا أحد اليهود الذين هاجروا الى بيت المقدس من اسبانيا سنة ١٣٣٣ م ، وهو اسحق بن يوسف بن شلو فى رسالته إلى والده يقول فيها « ويعيش اليهود هنا فى سعادة وطمأنينة ، كل بحسب وضعه وموارده وذلك لان الحكومة عادلة .. »(٢١٠) . ويؤكد لنا الرحالة الاوربيون الذين زاروا القدس فى عصر سلاطين المماليك ذلك التسامح الذى لقيه أهل الذمة ، بل والمسيحيون القادمون لزيارة المدينة ، فمن هؤلاء فابرى حيث يذكر لنا أنه أثناء تجوله مع بعض الحجاج الغربيين فى المدينة ، وكان العمل فى المدرسة الاشرفية التى بناها السلطان الأشرف قايتباى على وشك الانتهاء، فان الحجاج سألوا فى السماح لهم بدخولها فى هذا الوقت ولم يمنعوا ، لكن قيل لهم أنه لابد من الحصول على تصريح بذلك من القاضى ،

* عرفت مدينة بيت المقدس نظام الطوائف الحرفية ، الذى يتوارث فيه الابناء حرف الأباء ، مثلها مثل أى مدينة إسلامية أخرى ، لدرجة أن بعض الحرف المتخصصة قد اقتصرت فى الواقع على عائلة واحدة ، وكان لكل طائفة من الطوائف الحرفية شيخ ينظم العلاقات بين أفرادها ، وفى ظل نظام الحرف بلغت الصناعة درجة كبيرة من التقدم والكمال بفضل نظام التخصص زمنا طويلا . كما كانت الطائفة المهنية عنصرا أساسيا فى حياة المدينة ، فقد كانت تمثل بالنسبة للسلطات إطارا يمكنها من الاشراف على معظم الشعب العامل بالمدينة من صناع وتجار ، وعندما يتوسط شيوخ الطوائف المهنية فى المشاجرات التى قد تنشب بين أبناء طوائفهم ، وعندما ينظمون المنافسة ، فإنهم بذلك يسهمون فى إدارة المدينة ، وفى حفظ النظام ، كما كان على الحكام أن يلجئوا لهذه الطوائف وشيوخها لانجاز بعض أعمال البناء ، أو لجمع المبالغ النقدية أو المشاركة فى تجهيز المحاربين . كذلك كانت هذه الطوائف تشكل قاعدة جغرافية وإدارية هامة ، حيث أستمدت كثير من الأسواق أسماء الطائفة التى تقطن فيها مثل بائعى الصابون ، وبائعى الأقمشة ، وتجار البهارات ، وتجار الغلال ، وبائعى القطن . كذلك كانت هناك حرف مقصورة على المسلمين والأمر نفسه للمسيحيين وكذلك اليهود .

حيث سمح لهم وأرسل معهم أحد الاشخاص لكى يرشدهم داخل المدرسة ، وهناك شاهدوا العمال يقومون بتركيب الرخام على حوائط المدرسة الداخلية مما أثار دهشتهم . وقد استطاع الحجاج مشاهدة اكثر الاماكن قداسة عند المسلمين من داخل المدرسة ، حيث شاهدوا المسجد الاقصى من خلال نوافذها ، وخرجوا من زيارتهم هذه راضين لأنهم رأوا أكثر مما كانوا يأملون ، كذلك كان العمال سعداء بما منحهم الزوار من الحلوان عند مغادرتهم المكان(٢١١) . هذا إلى جانب ما يرويه أيضا ويشير فيه إلى قيام نوع من العلاقات الودية التى تتسم بروح التسامح ، حيث يذكر لنا أنه جرت عادة نواب بيت المقدس وبعض أعيانها أن يأتوا إلى جبل صهيون للتنزه ، وأنهم متى وصلوا إلى دير الرهبان الفرنسيسكان فإن الاخوة الرهبان كانوا يستضيفونهم لقضاء بعض الوقت ، حيث يفرش لهم الرهبان الارض بالسجاد ويضعون لهم الوسائد حيث يستلقون لأنهم ليس من عادتهم الجلوس على المقاعد أو الكراسى ، ثم يحضر لهم الرهبان بعض البسكويت المصنوع بالتوابل وأرغفة الخبز ، والكعك والفواكه من العنب واللوز والبطيخ والماء المثلج لكى يشربوا ، لأنهم لا يشربون الخمر ، ويقوم الاخوة الرهبان بخدمتهم ، وانهم تحدثوا معهم وسألوهم عن أشياء كثيرة وتحدثوا فيما بينهم بشأنهم ، ولا غرابة أن يعنوا بكل شيء فهم حكام المدينة المقدسة ، كما سألوه بعض الاسئلة عن طريق المترجم وسمعوا أجوبته عليها بتعجب(٢١٢) . هذا بالاضافة إلى ما يرويه الرحالة كازولا الذى زار بيت المقدس سنة ٩٠٠هـ/١٤٩٤م من أن نائب السلطنة فى المدينة عين حارسا يرافق الحجاج النصارى ويحميهم من البدو أثناء تنقلاتهم ، وفى هذا خير دليل على مدى تسامح المماليك(٢١٣) . هذا بالاضافة إلى مايرويه الاب سوريانو من أنه فى عهد السلطان قايتباى فقد تمتع ابناء طائفة الفرنسيسكان بعطف السلطان ، لدرجة أنهم شكوا إليه من كثرة الأموال التى يجبيها منهم حاكم مدينة بيت المقدس ، فأرسل يحضره مكبلا فى الحديد وعزله وألقاه فى السجن مدة خمس سنوات ، كذلك شكا إليه رئيس الطائفة من كل من قام ضدهم بأى عمل تعسفى ، فأحضرهم السلطان مكبلين فى الحديد وعاقبهم عقابا شديدا ، وفرض عليهم كثيرا من الغرامات(٢١٤) .

ولقد عاش أهل الذمة وسط المجتمع الاسلامى فى شوارع خاصة بهم داخل مدينة بيت المقدس ، كما كان لهم كنائسهم ومعابدهم الخاصة بهم يمارسون فيها عبادتهم بحرية تامة(٢١٥) . ولم يسمح سلاطين المماليك بالتعدى على دور العبادة الخاصة بهم ، وإذا حدث فإننا سرعان ما نسمع عن صدور مرسوم من سلطان آخر بوضع الحق فى نصابه ، نصابه من ذلك ما يرويه لنا بعض المؤرخين المسلمين المعاصرين من أن كنيسة المصلبة أو المصلبية الخاصة بطائفة الكرج وهى بظاهر القدس « كانت قد اخذت منهم فى دولة الناصر محمد بن قلاوون وجعل فيها مسجد ، فلما كان فى سنة خمس وسبعمائه وصلت رسالة من جهة ملك الكرج ورسل من جهة صاحب قسطنطينية إلى نائب الملك الناصر المشار إليه وسألوه فى إعادة الكنيسة لهم فلما توصلوا وتشفعوا فى ذلك أعيدت لهم وسلمت إلى رسلهم »(٢١٦) هذا بالاضافة إلى أنه حدث فى عهد السلطان جقمق أن أرسل له رهبان الفرنسيسكان سنة ٨٥٠هـ/١٤٤٦م — ٤٧م رسالة ذكروا فيها أن شخصا من بيت لحم قد وضع يده على قطعة أرض ملاصقة للدير ومن جمله حقوقه ، كانوا ينتفعون بها فى زراعة ما يلزمهم من

الخضروات ، فأمر لهم السلطان بتسليم الأرض الملاصقة للدير والتى ثبت أنها من حقوقه إلى رئيس الرهبان(٢١٧) . هذا إلى جانب ما تشير إليه بعض المصادر من أنه فى سنة ٨٦٧هـ/١٤٧٣م حدث خلاف بين المسلمين واليهود فى مدينة بيت المقدس حول دار واقعة بين مسجد المسلمين وكنيس لليهود ، انتهى هذا الخلاف بهدم الكنيس على أنه محدث ، ولما تحقق السلطان الأشرف قايتباى من الامر نتيجة لقيام ذلك النزاع ، فقد أصدر مرسومه إلى نائبة فى القدس باعادة بنائها بعد هدمها وذلك فى سنة ٨٧٩هـ/١٤٧٤م ، وتشير بعض المصادر أن اعادة بنائها لم يكن حبا فى اليهود ، ولكن كان للوفاء بعهدهم كأهل ذمة(٢١٨) . بل يقول ابن العماد فى ذكر هذه الحادثة « ولم ينتقد عليه أحد عظيم أمر سوى ما كان من أمره باعادة كنيسة اليهود بالقدس الشريف بعد هدمها وعقوبته لعالم القدس البرهان الانصارى وقاضيها الشهاب بن عبية وغيرهم بسبب هدم الكنيسة حتى حملوا اليه وضرب بعضهم بين يديه(٢١٩) . وفى هذا خير دليل على حرص سلاطين المماليك على شمول رعاياهم من أهل الذمة بأقصى درجات التسامح والعدل .

أما فيما يختص بالسماح لأهل الذمة بالقيام بأعمال الصيانة اللازمة للمحافظة على مؤسساتهم الدينية حتى تقوم بدورها فى خدمتهم ، فسوف نورد بعضا من الأمثلة العديدة بما يشهد على مدى ما نعم به أهل الذمة من تسامح فى ظل الحكم المملوكى ، وليس أدل على التسامح الذى عامل به سلاطين المماليك رعاياهم من أهل الذمة فى بيت المقدس ، من أن طائفة الرهبان الفرنسيسكان عندما تقدموا بطلب الاذن لهم بعمارة سقف كنيسة المهد ببيت لحم الذى أوشك على السقوط بسبب كثرة الامطار وتمادى السنين ، سارع السلطان قايتباى إلى تلبية هذا المطلب ، فأصدر فى ١٣ ربيع الأول ٨٨٥هـ/١٣ أبريل ١٤٨٠م مرسوما إلى نائب القدس يأمره بتمكينهم من عمارة سقف الكنيسة على الوجه الشرعى وعلى هيئة ما كان عليه أولا ، ووفقا للفتاوى التى أفتى بها القضاة والفقهاء من قبل زمن السلطان برقوق وابنه فرج كما قام قضاة القدس فى ٦ شوال/ ٩ ديسمبر بتحرير حجة بذلك لتكون بمثابة أمر تنفيذى ببدء العمل(٢٢٠) . كذلك تشير المصادر المعاصرة أنه فى عهد السلطان قايتباى أيضا قد سمح لهم باصلاح قبة كنيسة القبر المقدس على الرغم من معارضة الكثيرين فى بيت المقدس والقاهرة من رجال الدين المسلمين(٢٢١) . هذا بالاضافة إلى كثرة المراسيم الصادرة إلى طائفة الرهبان أنفسهم فى عهد كل من السلاطين برقوق وابنه فرج وبرسباى وقايتباى والغورى بعمارة كنيسة بيت لحم ، بعمارة الأجزاء المتداعية بكنيسة عليه صهيون ودير صهيون ودير الراهبات بظاهر القدس ، بل أن السلطان الغورى سمح لهم ببناء دير لهم بالرملة ، ويتضح لنا من استعراض ما جاء فى هذا المجموعة من الوثائق خاصا بترميم الكنائس والاديرة التى تحت رعايتهم وفى حوزتهم أن حرمة وقداسة هذه الاماكن المسيحية كانت فوق كل اعتبار ، فالسلطات الاسلامية كانت دوما تسمح لهم بالقيام بترميمها وعمارتها وفقا للقاعدة الشرعية التى جرى الامر على اتباعها فى هذا الصدد بمقتضى تعهد عمر بن الخطاب لبطريك بيت المقدس(٢٢٢) .

هذا قليل من كثير يمكن ذكره فى هذا الصدد ، لكن قصدنا ايراد بعض الامثلة خشية الاطالة ، أما فيما يختص بوضع أهل الذمة فى بيت المقدس فيمكننا القول أن وضعهم داخل مدينة بيت المقدس

لم يشذ عن وضع اخوانهم من المسلمين من حيث فرض بعض الرسوم والمكوس التى تتطلبها ظروف الدولة الحربية ، والتى سرعان ما كانت تزول بزوال السبب الذى فرضت من أجله أو بقدوم سلطان جديد ، فمن ذلك ما يرويه لنا المقريزى أن السلطان سيف الدين قلاوون عندما تولى السلطنه « أبطل ما كان يجبى من أهل الذمة وهو دينار سوى الجالية برسم نفقة الاجناد فى كل سنة »(٢٢٣) كذلك ما يرويه لنا احد الباحثين من « أنه برز المرسوم الشريف السلطانى الملكى الظاهرى أبو سعيد جقمق عز نصره بأن يبطل ما على الذمة بالقدس الشريف من الخدمة والقدوم عند حضور النائب الجديد وعند إلباسة خلعة وأن يكون ناظر الحرمين الشريفين متكلما عليهم بتاريخ شهر جمادى الاخر سنة ثلاث وخمسين وثمانائة »(٢٢٤) ، كذلك فى المرسوم السلطانى الشريف الصادر عن السلطان الغورى فى شهر المحرم سنة ٩١٩هـ/١٥١٣م أى فى أواخر عصر سلاطين المماليك بأن لا يكره « جماعة الرهبان النصارى والرهبانيات (هكذا) الملكين واليعاقبة بموجب ولا خفر ولا بظلم عند دخولهم قمامة القدس الشريف أسوة رهبان الكرج والحبوش ولا عند دخولهم إلى مينا يافا ولا عند خروجهم من يافا ولا فى مدينة غزة ولا فى رملة لد الواردين من الرهبان والرهبانات (هكذا) ، من المذكورين فى البر والبحر وكل ناحية لزيارة بيت المقدس مستمر حكم ذلك من تقادم السنين من غير احداث حادث ولا تجديد مظلمة وأن ينقش شرح ذلك برخامة وتلصق بباب القمامة وليصير ذلك تذكرة بعدل مولانا المقام الشريف عز نصره على مر الدهور والأيام ... »(٢٢٥) .

وأخيرا تجب الاشارة إلى أنه طوال عصر سلاطين المماليك ، وهى فترة دون شك طويلة اذ تمتد لاكثر من قرنين ونصف من الزمان ، يمكننا أن نلاحظ أنه حدثت بعض الخلافات بين المسلمين من ناحية وأهل الذمة من ناحية اخرى ، الا أن هذه الخلافات كانت قليلة وثانوية جدا بصفة عامة ، كما كانت تدور حول تملك بعض الاماكن ، او بعض الخلافات الدينية التى تتمثل فى بعض المناظرات الدينية والتى سرعان ما كانت تنتهى إما لتدخل قضاه بيت المقدس للبت فيها إن كانت عادية ، أو إلى السلطان نفسه إذا تضرر أحد الاطراف منها ، ومع هذا يمكننا القول بأن المسيحيين واليهود كانوا يعيشون فى أمن وحرية مع السكان المسلمين تحت لواء الحكم المملوكى الاسلامى(٢٢٦) ومع هذا لابد من ذكر حقيقة هامة وهى أن سلاطين المماليك كانوا عندما تتعرض سلامة وأمن ممتلكاتهم للتهديد من قبل الغرب الأوربى ، إما عن طريق المحاولات التى لم تنقطع بغزو السواحل الشامية والمصرية ، او المشاريع الصليبية المتعددة لا ستعادة الارض المقدسة كانوا يستخدمون عنصر التهديد بغلق كنيسة القيامة والتنكيل بالمسيحيين وبخاصة طائفة الرهبان الفرنسيسكان على أساس أنهم يمثلون الغرب الأوربى ، وذلك للضغط على البابوية وملوك الغرب الأوربى لعدم التعرض لدولتهم « أو تجارتهم ، وقليلا ما كانوا ينفذون تلك التهديدات ، واذا حدث هذا ونفذت الدولة بعض تهديداتها مثل القبض على الرهبان الفرنسيسكان والتهديد بشنقهم ، أو التهديد بغلق كنيسة القيامة كوسيلة من وسائل الضغط السياسى ، فقد كانت تلك الوسيلة لابديل عنها أمام قسوة الأحداث التى تتعرض لها الدولة ، مثل المطالبة باستعادة أسرى المسلمين والاموال والمتاجر التى كانت تقع غنيمة فى أيدى القراصنة الغربيين ، أو عندما تكون قد أعوزتهم السبل والوسائل لرد تلك الهجمات أو

الاغارات[٢٢٧] . هذا بالاضافة إلى أن خروج هؤلاء الرهبان عن طبيعة رسالتهم الدينية ، وتزايد نشاطهم السياسى – كما سبقت الاشارة – غلب عليهم الصفة السياسية ، وهذا يبرر معاملة السلطات المملوكية لهم على هذا النحو البغيض . كما اننا لم نسمع بأنه اتخذت مثل تلك الاجراءات العنيفة لدى الطوائف المسيحية المحلية الاخرى والتى عاشت فى بيت المقدس فى ذلك العصر . فضلا عن أن تلك الاجراءات الانتقامية لم يكن لها صفة الدوام ، اذ سرعان ما تزول لتحسن العلاقات بسبب حرص كثير من دول الغرب على اقامة علاقات طيبة مع سلطنة المماليك وبخاصة المدن الايطالية حرصا منها على مصالحها التجارية .

هذا إلى جانب ما كان يقوم به بعض السلاطين من حملات تفتيسية للكشف على الاديرة والكنائس بالقدس وبيت لحم الخاصة بطائفة الفرنسيسكان ، فلم يكن هذا الاجراء له ما يبرره سوى ازدياد شعور الكراهية والبغضاء ازاء الفرنج عامة ، والذى انعكس اثره على هؤلاء الرهبان ممثلين عنهم ، كما أن السلاطين كانوا مجبرين أو مضطرين لهذا نتيجة لما يقترفه الفرنج ضد الدولة من أعمال اجرامية ممثلة فى أعمال القراصنة ، فضلا عما تحدثه هذه الاعمال من ضغوط بعض رجال الدين المسلمين على بعض السلاطين كرد فعل لتلك الاعمال[٢٢٨] . وليس أدل على ذلك من أنه كان من نتيجة شن القراصنة البروفنساليين الغارة على ميناء الاسكندرية سنة ٨٨٠هـ/١٤٧٥/٧٦م وقيامهم بأسر بعض كبار تجارها وتوجههم بهم فى عهد السلطان قايتباى ، أن امر بالقبض على جميع تجار الفرنج المقيمين بالاسكندرية مع مصادرة أموالهم ومتاجرهم والزامهم بمكاتبة ملوك الفرنج لا طلاق سراح المسلمين . غير أن هذه الاجراءات التحفظية ضد تجار الفرنج وهذا السعى من جانبهم لم يؤديا إلى تسوية الازمة ، مما دفع السلطان الى زيادة ضغطة فأمر فى أول المحرم ٨٨١هـ/٢٦ أبريل ١٤٧٦م بالقبض على جميع الرهبان الفرنسيسكان المقيمين بدير صهيون وبيت لحم وكنيسة القيامة وارسالهم إلى القاهرة . وكان لهذه الخطوة الثانية أثرها السريع ، اذا استجاب البروفنساليون لرئيس الاسيتارية وأطلقوا سراح المسلمين بعد أن اشتروا انفسهم – على حد قول ابن اياس – بمال له صورة ... وعندما زال خطر القراصنة أطلق سراحهم وعادوا إلى أديرتهم يباشرون دينهم ودنياهم فى ظل التسامح الذى يعاملون به[٢٢٩] .

هذا إلى أنه يجب على الباحث أن يفسر تلك الاجراءات فى ضوء الحقيقة التى آلت إليها حالة دولة المماليك ، حيث أنها كانت فى خريف عمرها ولا تقوى على الانتقام بعمل حربى نظرا لتأثرها ماديا وحربيا نتيجة لكثرة الحروب التى شنتها فى رودس وقبرس ثم فى شمال البلاد ضد التركمان مع ظهور الخطر العثمانى الذى أخذ يتهددها والخطر البرتغالى .

ويجب أن نشير إلى حقيقة هامه وهى أن السلطات المملوكية كانت مضطرة أيضا إلى اتخاذ بعض الاجراءات العنيفة ضد هؤلاء الرهبان الفرنسيسكان لمقاومة التيار التبشيرى الذى اتخذه الرهبان سبيلا لاستعادة النفوذ الفرنجى فى الارض المقدسة ، وأنه لم يكن بوسع السلطات المملوكية السكوت على تلك الاعمال وبخاصة فيما يتعلق بنشر التبشير بين المسلمين ، خوفا من حدوث فتنة بين

المسلمين والمسيحيين بصفة خاصة[٢٣٠] . كذلك لم يكن بوسعها السكوت على تلك الاعمال التبشيرية باعتبار أنها حامية الاسلام والمسلمين .

ومن هذا العرض نستطيع القول أن أهل الذمة فى بيت المقدس وقد نعموا بالحياة والتسامح والعدل تحت لواء الحكم المملوكى الاسلامى ، ولم يحدث ما يعكر صفو حياتهم الانادراً ، واذا تصادف وحدث ذلك فسرعان ما يزول ، وأن الصفة الغالبة على المدينة هى حرص سلاطين المماليك على تأكيد نفوذهم الدينى عن طريق نشر العدل والتسامح بين طوائف السكان المختلفة من مسلمين ويهود ومسيحيين .

هوامش

(١) ميخائيل مكس اسكندر : القدس عبر التاريخ ، مراجعة وتقديم الأنباء غريغوريوس ، القاهرة ١٩٧٢ ، صـ١٢ .

(٢) Jusha Prawer: « The settlement of the Latins in Jerusalem » Speculum (1952, Vol, 27) PP. 490- 505.

(٣) Ibid, pp. 493- 494.

(٤) Ibid, P. 494.

(٥) Condtr: The city of Jerusalem, London 1909, p. Ibid: p. 496511.

(٦) Conder: the City of Jerualem, London 1909, P. 311.

(٧) Morgoliouth: Cairo, Jerusalem, Damascus London 1907. PP. 205- 206.

(٨) الفتح القسى فى الفتح القدسى ، طبع القاهرة ١٩٠٣ ، صـ٥٢ — ٥٥ .

(٩) الروضتين ، جـ٢ ، صـ٩٢ .

(١٠) مرآه الزمان فى تاريخ الأعيان ، طبع حيدر آباد الدكن – الهند ١٩٥١م ، جـ ٨ ، صـ ٢٥٤ .

(١١) تاريخ ابن خلدون ، بيروت ، دار الكتاب اللبنانى ١٩٥٦ — ١٩٥٩ ، جـ٥ ، صـ٣١٠ .

(١٢) رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ترجمة السيد الباز العرينى ، بيروت ١٩٦٩ ، جـ٢ ، صـ ٧٤٩ — ٧٥٠ .

(١٣) سعيد عاشور : الناصر صلاح الدين ، من سلسلة أعلام العرب ، القاهرة ١٩٦٥ ، صـ ٢٠٢ .

(١٤) ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ٢ ، صـ٢١٥ ؛ مجير الدين : الأنس الجليل ، جـ١ ، صـ ٤٩١ — ٤٩٢ .

(١٥) رنسيمان : نفس المرجع ، جـ٢ ، صـ ٧٧٩ — ٧٥٠ .

(١٦) رشاد الامام : مدينة القدس ، صـ ١٢١ .

(١٧) RHC. H. OR., III, P. 101.

(١٨) أنظر أيضا : عارف العارف تاريخ القدس ، صـ ١٩٢ ؛ Jbid, P. 518 P. P. T. S. Vol. 8, P. 118.

(١٩) السيد الباز العرينى : الشرق الاوسط والحروب الصليبية ، نشر دار النهضة العربية بالقاهرة ١٩٦٣ ، جـ١ ، صـ٩٦٩ ؛ Jbn Shaddad. RHC. H.OR III, PP. 268- 269.

(٢٠) سبط ابن الجزوى : مرآة الزمان ، جـ٨ ، صـ٢٥٤ .

(٢١) Aahtor: Asocial and Economic History of the Near East in the Middle Ages, London 1976, PP. 288- 290.

(٢٢) الانس الجليل ، جـ٢ ، صـ٥٦٩ ، ٥٩٧ ؛ ويتفق معه فى ذلك ابن اياس : بدائع الزهور ، جـ٢ ، صـ١٣ .

(٢٣) Jbid, PP. 259- 290.

(٢٤) Jbid, P. 290.

(٢٥) Jbid, PP. 290- 297.

(٢٦) The Book of the Wondering of Brother Felix, Trans. by Aubry Stewart. London 1892, Vol, I.P. 245, Vol. II, p. 226.

(٢٧) The Jewish Ency. Art Jerusalem, Vol. III, PP. 132.: Adler. Jewish Travellers, London 1950, Lst Pullished, P. 234.

(٢٨) Adler. op. Cit. PP. 234- 235.

(٢٩) Newett. Casola,s Pilgrims. P. 251.

(٣٠) راجع على سبيل المثال : المقريزى : السلوك ، جـ٣ ، صـ٧٢٦ ــ ٨٩١ ، ١٠٠٣ ، ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ١٣ ، صـ٥٢ ، السيوطى : حسن المحاضرة ، جـ٢ ، صـ٣٠٣ .

(٣١) قاسم عبده قاسم : دراسات فى تاريخ مصر ، ص ١٥٥ .

(٣٢) Ashtor: Asocial and Economic Hist. PP. 301, FF.

(٣٣) عن هذا الوباء راجع . المقريزى : السلوك ، جـ٢ ، ص٣٢١ ، ابن تعرى بردى : النجوم ، جـ١٠ ، ص٢٠٤ فى حوادث سنتى ٧٤٩هـ/١٣٥٠م .

(٣٤) Jbid, P. 301;

(٣٥) مجير الدين : الانس الجليل ، جـ٢ ، ص٦٥٠ .

(٣٦) إنباء الغمر بأبناء العمر ، تحقيق حسن حبشى – القاهرة ١٩٧٠ ، ص١١٨ فى ذكر حوادث سنة ٨٧٤هـ .

(٣٧) Treatise On The Holy Land, Trans. by Bellorini, Jerusalem 1949, P. 10.

(٣٨) عارف العارف : تاريخ القدس ، ص ١٧٤ .

(٣٩) السلوك ، جـ٤ ، قسم ٢ ، ص ٦٠٩ فى ذكر حوادث سنة ٨٢٥هـ .

(٤٠) ابن اياس : بدائع الزهور ، جـ٢ ، ص ١٠٤ فى ذكر حوادث سنة ٨٢٩هـ .

(٤١) رشاد الامام : مدينة القدس ، ص ٨٥

(٤٢) رشاد الامام : نفس المرجع ، ص ٨٦ .

(٤٣) عن ذلك راجع : المقريزى : السلوك ، جـ٢ ، قسم ٣ ، ص ٧٤٠ ــ ٨٠٤ ؛ مجير الدين : الانس الجليل ، حـ٢ ، ص ٦٥٦ .

(٤٤) Ashtor Op. Cit., p. 290.

(٤٥) قاسم عبده قاسم : دراسات فى تاريخ مصر ، ص١٩ ؛ Aahtor. Op. Cit. P. 282.

(٤٦) Lapidus. Muslim Cities. PP. 44- 51

(٤٧) النجوم ، جـ١١ ، ص٤ .

(٤٨) زبدة كشف الممالك ، ص ١١٢ .

(٤٩) ابن قاضى شهبة : تاريخ ، ص ٦٤٩ ، ابن اياس : بدائع الزهور ، جـ١ ، قسم ٢ ، صـ٤٩٣ .

(٥٠) إعلام الورى بمن ولى نائبا من الأتراك بدمشق الكبرى ، تحقيق عبد العظيم حامد خطاب ، مطبعة جامعة عين شمس ١٩٧٣ ، ص ٧٤ .

(٥١) القلقشندى : نهاية الأرب فى معرفة أنساب العرب ، عنى بنشره وتحقيقة على الخاقانى بغداد ١٩٥٨ ، ص١٤٣ ــ ١٤٥ ؛ المقريزى : السلوك ، جـ٤ ، قسم ١ ، ص ٤١ ؛ مجير الدين : الأنس الجليل ، جـ٢ ، ص٦٥٦ .

(٥٢) Amnon Cohen and Bernard Lewis : Population and Revenue in the Towns of palstine in the Sixreenth Century, New Jtnay 1978, P. 82.

(٥٣) القلقشندى : نهاية الأرب ، ص ١٣٦ — ١٩٥ ، ص٣٣٦ — ٣٦٢ .

(٥٤) مجير الدين : الانس الجليل ، جـ٢ ، ص ٤٠٤ .

(٥٥) القلقشندى : نفس المصدر ، ١٢٣ — ١٢٤ ؛ رشاد الامام : مدينة القدس ، ص ١١٢ .

(٥٦) Wolf- Dieter Hutteroth. Historical Geography of Palestimne Transjordan and Southern Sgria in the 16 th- Century, Erlangen 1977, P. 48

(٥٧) Wright (Thomas). Early Travels in Palestine, P. 43.

(٥٨) Trearise on the Holy Land. P. 209.

(٥٩) السلوك ، ج٢ ، قسم ٣ ، ص ٧٤٠ .

(٦٠) The Book of The Wandering. Volo, I, P, 219.

(٦١) Jbid, Op. CIt Vol, I, P, 268 .

(٦٢) الانس الجليل ، جـ٢ ، ص ٧٠٣ .

(٦٣) السخاوى : التبر المسبوك فى ذيل السلوك ، ص ١٠٢ فى حوادث سنة ٨٤٨هـ ، نشر مكتبة الكليات الازهرية – القاهرة ١٩٧٤ .

(٦٤) The Rev. Henry: Avisit to The East. London 1843, pp. 328- 29.

(٦٥) العبادى : قيام دولة المماليك الاولى ، نشر مؤسسة شباب الجامعات اسكندرية ١٩٨٢م ، ص١٢٩

(٦٦) Wolf- Dieter: Op. Cit. pp. 27- 28-

(٦٧) زبدة كشف الممالك ، ص ١٠٣ — ١٣٦ .

(٦٨) السلوك ، جـ١ ، قسم ٢ ، فى حديثه عن سنة ٦٦١هـ .

(٦٩) الانس الجليل ، جـ١ ، ص ٦٩٨ — ٦٩٩ .

(٧٠) المقريزى : البيان والاعراب عما بأرض مصر من الاعراب ، تحقيق عبد المجيد عابدين – الطبعة الأولى – القاهرة ١٩٦١م ، ص١٣٢ – ١٣٣ .

(٧١) رحلة ابن جبير ، ص١٠ ، ٢١ ز نشر دار صادر بيروت سنة ١٩٦٤ ؛ سعيد عاشور : الناصر صلاح الدين ، ص٢٨٢

(٧٢) Amnon Cohen and Bernard: Papulation and Revenue P. 34.

(٧٣) رشاد الامام : مدينة القدس ، ص ١١٣ .

(٧٤) محمود العابدى : قدسنا ، ص١٢٣ .

(٧٥) مسالك الأبصار ، جـ١ ، ص١٥٣ .

(٧٦) نقولا زيادة : لمحات من تاريخ العرب ، ص١٧١ – ١٧٢ طبع بيروت ١٩٦١ م .

(٧٧) ابن العماد : شذرات الذهب ، جـ٧ ، ص١٢٤ .

(٧٨) لمزيد من المعلومات راجع ، عنان : نهاية الأندلس ، الطبعة الثانية ، مطبعة ، مصر ، ١٩٥٨ ، ص ٢٩٤ — ٢٩٨ .

(٧٩) أحمد دراج : المماليك والفرنج ، ص ٧٠ .

(٨٠) الانس الجليل ، جـ٢ ، ص ٥٠٥ — ٥٩٠ .

(٨١) المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ٤٨٩ — ٤٩٢ .

(٨٢) الرفاعى ؛ محمد ابو الهدى ؛ : الروض البسام فى أشهر البطون القرشية بالشام الاسكندرية ١٨٩٢ ، ص ٣٠ — ٣٩ .

(٨٣) ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ ١١ ، ٥٦ .

(٨٤) المصدر السابق ، جـ ١١ ، ص ٥٧ .

(٨٥) نزهة النفوس والأبدان ، جـ١ ، ص ٣٤٢ .

(٨٦) مجير الدين : الانس الجليل ، جـ٢ ، ص ٣٩٩ ، رشاد الامام : مدينة القدس ، ص ١١٤ .

(٨٧) عارف العارف : تاريخ القدس ، ص ٢٨١ .

(٨٨) الانس الجليل ، جـ٢ ، ص ٤٩٠ .

(٨٩) الروضتين ، جـ٢ ، ص ٢٠٩ .

(٩٠) الأنس الجليل ، جـ٢ ، ص ٤٩٥ — ٥٣٧ .

(٩١) عمر صالح البرغوثى : تاريخ فلسطين ، ص ٢٢٥ ، طبع القدس ١٩٢٣ .

(٩٢) Amnon Cohen and Bernard Lewis: Population and Revenue PP- 34 35

(٩٣) الانس الجليل ، جـ٢ ، ص ٥٠٢ .

(٩٤) Felix Fabri: The Book Of The Wandering. Vol. 1. P. 226.

(٩٥) العماد الاصفهانى : سنا البرق الشامى ، تحقيق د . فتحية النبرواى ، القاهرة ١٩٧٩ ، جـ١ ، ص ٣١٦ — ٣١٧ .

(٩٦) الكامل فى التاريخ ، طبع دار صادر بيروت ، ١٩٦٦٦ ، جـ ١١ ، ص ٥٥٢ — ٥٥٣ .

(٩٧) Runciman: The Christian Arabs of Palstine, Longman 1970, P. 12.

(٩٨) Wolf- Dietr. Op. Cit. P. 54.

(٩٩) The Book of The Wandering. Vol. 1. P. 339.

(١٠٠) سعيد عاشور : الناصر صلاح الدين ، ص ٢٠١ — ٢٠٢ .

(١٠١) Conder: The Latin Kingdom of Jerusalem, London 1897, P, 223.

(١٠٢) Fabri Felix; The Book Of the Wandering. Vol. 1, P, 433.

(١٠٣) رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، جـ٣ ، ص ٧٥٢ .

(١٠٤) ابن عبد الظاهر : تشريف الايام والعصور ، ص ٢٣ حاشية ١ .

(١٠٥) يوشع براور : عالم الصليبين ، ترجمة وتقديم د . قاسم عبده قاسم د . محمد خليفة من ، دار المعارف ١٩٨١ ،ص ١٠٩ — ١١٤ .

(١٠٦) عبد الحميد زايد : القدس الخالدة ، ص ٢٦٠ .

(١٠٧) ميخائيل مكس : القدس عبر التاريخ ، ص ١٢٥ .

(١٠٨) رشاد الامام : مدينة القدس ، ص ١٢٤ .

(١٠٩) عارف العارف : تاريخ القدس : ث ٢٥٤ ؛ ميخائيل مكس : القدس عبر التاريخ ، ص ١٢٤ ؛ Arther Percivol; Oa. Cit. P. 185.

(١١٠) Suridno: Op. cit, PP. 89- 90.

(١١١) Boumgarten: The Travels of Vol; 1, P, 465. Fabri: The Book Of, Vol 1, P. 436

(١١٢) Ray John: ACollection of Curiois Travels and Voyages London 1693, P. 355.

(١١٣) Suriono. Teatist On The Holy Land. PP. 89- 90.

(١١٤) Tht Book Of The Wandering. Vol. 1. p. 265.

(١١٥) مفاكهة الخلان ، القسم الاول ، ص ٣٩ .

(١١٦) الانس الجليل ، جـ٢ ، ص ٦٩١ .

(١١٧) محمد جمال الدين سرور : دولة بنى قلاوون فى مصر ، ص ١٥٦ — ١٥٩ .

(١١٨) لمزيد من التفصيل عن هذا الرسالة راجع : المقريزى : السلوك ، جـ١ ، قسم ٢ ، ص ٦٢٥ ، ص ٦١٦ ، حاشية١ ، الحيمى الحسن بن احمد : سيرة الحبشة تحقيق مراد كامل ، مطبعة دار العالم العربى بالقاهرة ١٩٧٢ ، ص ١٩ ، ٢١ .

(١١٩) الحيمى الحسن بن احمد : المرجع السابق ، ص ١٩ — ٢١ .

(١٢٠) تشريف الأيام والعصور ، ص ١٧٠ — ١٧٣ .

(١٢١) مجير الدين : الأنس الجليل ، جـ٢ ، ص ٦٥٧ ؛ رشاد الامام : مدينة القدس ، ص ٨٠ .

(١٢٢) السلوك ، جـ٢ ، قسم ١ ، ص ٣٧٠ .

(١٢٣) ابراهيم على طرخان : « الاسلام والممالك الاسلامية فى الحبشة » ، المجلة التاريخية ، عدد ٨ لسنة ١٩٥٩ .

(١٢٤) Speculum, Wolf Leslau (ed.), « Ethiopian Jtineraries » Vol. 34, 1919, PP. 125- 140.

(١٢٥) السلوك ، جـ٢ ، قسم ١ ، ص ٢٧٠

(١٢٦) Ibid, P. 140.

(١٢٧) أحمد دراج : المماليك والفرنج ، ص ١١ — ١٢ .

(١٢٨) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، جـ٢ ، ص ١٢٠٩ — ١٢١٢ ؛ Arrher Percival Travels and Travellers. P 180.

(١٢٩) واحمد دراج : المماليك والفرنج ، ص ٣٦ — ٥٤ .

(١٣٠) المرجع السابق ، ص ٦٤ — ٨٨ .

(١٣١) الأنس الجليل ، جـ٢ ، ص ٦٠١ .

(١٣٢) بدائع الزهور ، جـ٢ ، ص ١٢ ؛ كذلك أنظر : رشاد الامام : مدينة القدس ، ص ٨١ — ٨٢ .

(١٣٣) فورمان ف . كانتور : التاريخ الوسيط ، ترجمة قاسم عبده قاسم ، دار المعارف بالقاهرة ١٩٧٣ ، جـ٢ ، ص ٦٧٦ — ٦٧١ .

(١٣٤) عارف العارف : تاريخ القدس ، ص ٢٤٥ ، ميخائيل مكس : القدس عبر التاريخ ص ١٢٢ .

(١٣٥) أحمد دراج : وثائق دير صهيون ، ص ٢٢ — ٢٥ .

(١٣٦) Fabri. The Book of The Wandering Vol I, P. 438,, Jomes Porkes. AHist. of Palestine. P. 144; De Saulcy: Jerusalem, Paris 1882, P. 290.

(١٣٧) Treatise On The Holy Land. P. 3.

(١٣٨) Wright (Thomas): Early Travels in Palestine. P. 167.

(١٣٩) محمد جمال الدين سرور : دولة بنى قلاوون فى مصر ، ص ٢٧٠ — ٢٧٣ .

(١٤٠) لمزيد من التفصيل راجع : P.P.T.S. Vol. X, PP. 348- 382.

(١٤١) Avisit To The Holy Land. PP. 75- 127.

(١٤٢) Pero Tafur: Trvels And Adventures. P. 58, Wright, Early Travels. P, 287, Prescott: Once To Sinai PP. 118- 120.

أحمد دراج : وثائق دير صهيون ، ص ٤٧ .

(١٤٣) Wright. Op. Cit P. 287, Prescott; Op, Cit. P. 119.

(١٤٤) Suriano. Treatisa On The Holy Land. P, 131.

(١٤٥) عن تلك المراسيم راجع ، احمد دراج : وثائق دير صهيون ، ص ٣٦ حاشية ٤٦ .

(١٤٦) The Travels of Martin Boumgarten , Vol. I, P, 464.

(١٤٧) وانظر أيضا أحمد دراج : وثائق دير صهيون ، ص ٢٦ ؛ Jbid, Vol, I, P. 468,

(١٤٨) Suriano. Op, Cit. P. 3.

(١٤٩) The Book Of The Wondernig. Vol. I PP, 311- 315, Prescott, Op Cit. O, 120

(١٥٠) Suriano: Op. Cit P, 6.

(١٥١) Jbid, PP, 75- 84.

(١٥٢) Ibid, pp. 4-88

(١٥٣) Ibid, p. 14.

(١٥٤) Ibid, p. 5; Frescobaldi: A visit to the holy Places. P. 16.

(١٥٥) Suriano: Op. Cit. P.5.

(١٥٦) Fabri: the book òf the wanderings. Vol. I,P. 254.

(١٥٧) Maundrell: Ajourney form Aleppo to jerusalem in 1697, Beirut 1963, P. 90.

(١٥٨) Fabri: Op. Cit. Vol. I, P431; Breydenbach and his journey to the holy land (1984-4), london 1911, P.X. V.

(١٥٩) Suriano; Op. Cit P. 5.

(١٦٠) The Travels. Vol. I, P, 404.

(١٦١) Suriano: Op. Cit. PP. 6- 11. Maric Josph. Apilgrimage To Palestime, Egypt and Syria, London 1840, PP. 11- 14.

(١٦٢) Suriona. Op. Cit. T. S. Vol. X 9- 11-

(١٦٣) Fabri: P.P T. S. Vol; X P. 382.

(١٦٤) لمزيد من التفاصيل عن هذا الدور راجع فى احمد دراج : المماليك والفرنج ، س ٥١ — ٥٤ .

(١٦٥) المرجع السابق ، والصفحات نفسها .

(١٦٦) احمد دراج : المماليك والفرنج ، ص ٥٦ .

(١٦٧) لمزيد من التفاصيل عن هذا الدور راجع : المرجع السابق ، ص ٣٤ ، ٣٥ ، ٨٢ — ٨٥ ، محمد عبد الله عنان : نهاية الاندلس ص ٢٠٦ — ٢٠٨ .

(١٦٨) لمزيد من التفاصيل راجع : محمد عبدالله عنان : نهاية الاندلس ، ص ٢٠٦ — ٢٠٨ ؛ نعيم زكى : طرق التجارة الدولية ، ص ٦٦ — ٧٨ ؛ Suriano Op. Cit pp. 8- 9;

(١٦٩) احمد دراج : وثائق دير صهيون ، ص ١٣٩ — ١٤٠ حاشية رقم ٥٥ .

(١٧٠) ابن فضل الله العمرى ، مسالك الأبصار ، جـ٣ ، ص ١٤٧ ، مخطوط .

(١٧١) رشاد الامام : مدينة القدس ، ص ١٣١ .

(١٧٢) كرد على : خطط الشام ، جـ١ ، ص ٢٨٢ .

(١٧٣) المقدسى : نزهة الناظرين فى تاريخ من ولى مصر من الخلفاء والسلاطين ، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٣٠٣ تاريخ تيمور ،، ورقة ٤٧ ؛ الباز العرينى : الشرق الاوسط والحروب الصليبية ، جـ١ ، ص ٢٧١ ؛ Wright: Op. Cit. PP. 85- 92: Joshua Prawer. :Latim Kingdom, London 1973, P, 236.

(١٧٤) Wright. Op. Cit. PP. 81- 87;

(١٧٥) Goitein. Jews Ard Arabs- Their Contacts T0rough the Ages; New York 1974.PP. 114- 115.

(١٧٦) Morgolioulh: Cuiro, Jerasalem And Damacus. P. 203, Palestine digest. Nol. 8. P. 24. (1978).
وليم فهمى : الهجرة اليهودية الى فلسطين المحتلة ، ص ١٦ ، من منشورات جامعة الدول العربية ، معهد البحوث والدراسات العربية ١٩٧١ .

(١٧٧) The Jewisf Ency . Vol Vii. P. 132 Art Jerusalem

(١٧٨) عارف العارف : تاريخ القدس ، ص ٢٣٥ ؛ Henry Cattan. Jermsalem. P, 95.

(١٧٩) عطية القوصى : صلاح الدين واليهود ، المجلة التاريخية ، المجلد ٢٤ ، ص ص٤٠ ؛ محمود العابدى : قدسنا ، ص ١٢٢ .

(١٨٠) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٤٢ ؛ Joshua Prawer: Op, Cit, PP. 244 246

(١٨١) Jewish Ency. Vol. V11, P. 131 Art Jerusalem

(١٨٢) سعيد عاشور : الناصر صلاح الدين ، ص ٢٠٨ ؛ Jbid, Vol. V11, P, 132,

(١٨٣) عطية القوصي : صلاح الدين واليهود ؛ ظفر الاسلام خان : تاريخ فلسطين القديم ، ص ١٧٨ .

(١٨٤) Jewish Ency. Vol. V11, P. 132.

(١٨٥) Jbid, Vol V11, P. 132.

(١٨٦) وليم فهمى : الهجرة اليهودية إلى فلسطين ، ص ١٦ .

(١٨٧) Standshut. Jewish Communities And The Muslim Countries of The Middle East, P, 2, London 1956, Bartlett: Jerusalem; p. 43.

(١٨٨) عبد الحميد زايد ، القدس الخالدة ، ص ٣١٠ ، محمود العابدى : قدسنا ، ص ١٢٤ .

(١٨٩) محمود العابدى : المرجع السابق ، ص ١٢٥ .

(١٩٠) THe Book of the Wanderings, Vol, 11, P. 226.

(١٩١) محمود العابدى : قدسنا ، ص ١٢٥ .

(١٩٢) احمد دراج : المماليك والفرنج ، ص ٣٦ — ٤٥ .

(١٩٣) رشاد الامام : مدينة المقدس ، ص ١٣١ .

(١٩٤) Marmorasch: Old And New Places Jn Palestine, Syria, And Lebonon. Jerusalem 1946, P. 72.

(١٩٥) الأنس الجليل ، جـ٢ ، حـ٢ ، ٤٠٣ .

(١٩٦) P.P T. S. Vol. X. P. 39;

(١٩٧) وليم فهمى : الهجرة اليهودية ، ص ١٨ — ١٩ .

(١٩٨) على محمد على : فلسطين فى ماضيها العربى وحاضرها الصهيونى ، ص ١٢١ ، طبع الدار القومية للطباعة والنشر بدون تاريخ .

(١٩٩) صابر دياب : دارسات فى عالم البحر المتوسط فى العصور الوسطى – و المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الرابع والعشرون لسنة ١٩٧٧ .

(٢٠٠) Murray. Syria and Palestime. VolI. P. 83; Marmorsch. Op PP. 72-73.

(٢٠١) وليم ـه ىى : الهجرة اليهودية ، ص ٢٠ .

(٢٠٢) Treatise on the Holy land. PP. 101-102.

(٢٠٣) Murray: Syria and Plaestine. P. 83.

(٢٠٤) P.P.T.S. Vol. IX, P. 105; The travels of artin Buamgarten Vol. I,P. 459.

(٢٠٥) Avisit to the East. PP. 326-328.

(٢٠٦) نقولا زيادة : رواد الشرق العربى ، ص ١١٠ .

(٢٠٧) ظفر الاسلام خان : تاريخ فلسطين القديم ، ص ١٦١ — ١٦٣ .

(٢٠٨) Morgaliouth: Op. Cit P. 208.

(٢٠٩) رشاد الامام : مدينة القدس ، ص ٢٣٢ .

(٢١٠) نقولا زيادة : رواد الشرق العربى ، ٢١٠ .

(٢١١) The Book Of The Wandering Of, Vol, 11. P. 125.

(٢١٢) P,P.P. T. S. Vol. V, P, 112.

(٢١٣) رشاد الامام : مدينة القدس ، ص ١٢٩ .

(٢١٤) Treatise On The Holy Land. PP. 127- 128.

(٢١٥) Ray John. Op. Cit, Vol. i, P. 340.

(٢١٦) ابن فضل الله العمرى : التعريف بالمصالح الشريف ، ص٥٤ ؛ مجير الدين : الأنس الجليل ، جـ١ ، ص ٤٠٢ .

(٢١٧) احمد دراج : المماليك والفرنج ، ص ٦٢ — ٦٣ .

(٢١٨) تاريخ الأمير يشبك ، ص ٢٠ ؛ مجير الدين : الأنس الجليل ، جـ٢ ، ص ٦٣٤ — ٦٣٧ ؛ عبد اللطيف ابراهيم : وثيقة السلطان قايتباى ص ٣٩٧ .

(٢١٩) احمد دراج : المماليك والفرنج ، ص ١٠٧ — ١٠٨ .

(٢٢٠) أحمد دراج : المماليك والفرنج ، ص ١٠٧ — ١٠٨ .

(٢٢١) Suriano; Op Cit. PP. 120- 130.

(٢٢٢) لمزيد من التفاصيل عن هذه الوثاق ، راجع : احمد دراج : وثائق دير صهيون ص ٦٧ — ٦٨ .

(٢٢٣) الخطط ، ج٢ ، ص ١٨٩ ؛ Van Berchem: Jerusalem Ville 2me P. F,P;. 150.

(٢٢٤) احمد دراج : وثائق دير صهيون ، ص ١١٤ — ١١٥ .

(٢٢٥) احمد دراج : المرجع نفسه والصفحة .

(٢٢٦) رشاد الامام : مدينة القدس ، ص ٢٣٢ .

(٢٢٧) ابن اياس : بدائع الزهور ، جـ٤ ، ص ١٩٢ — ١٩٥ ، فى ذكر حوادث سنة ٩١٦هـ .

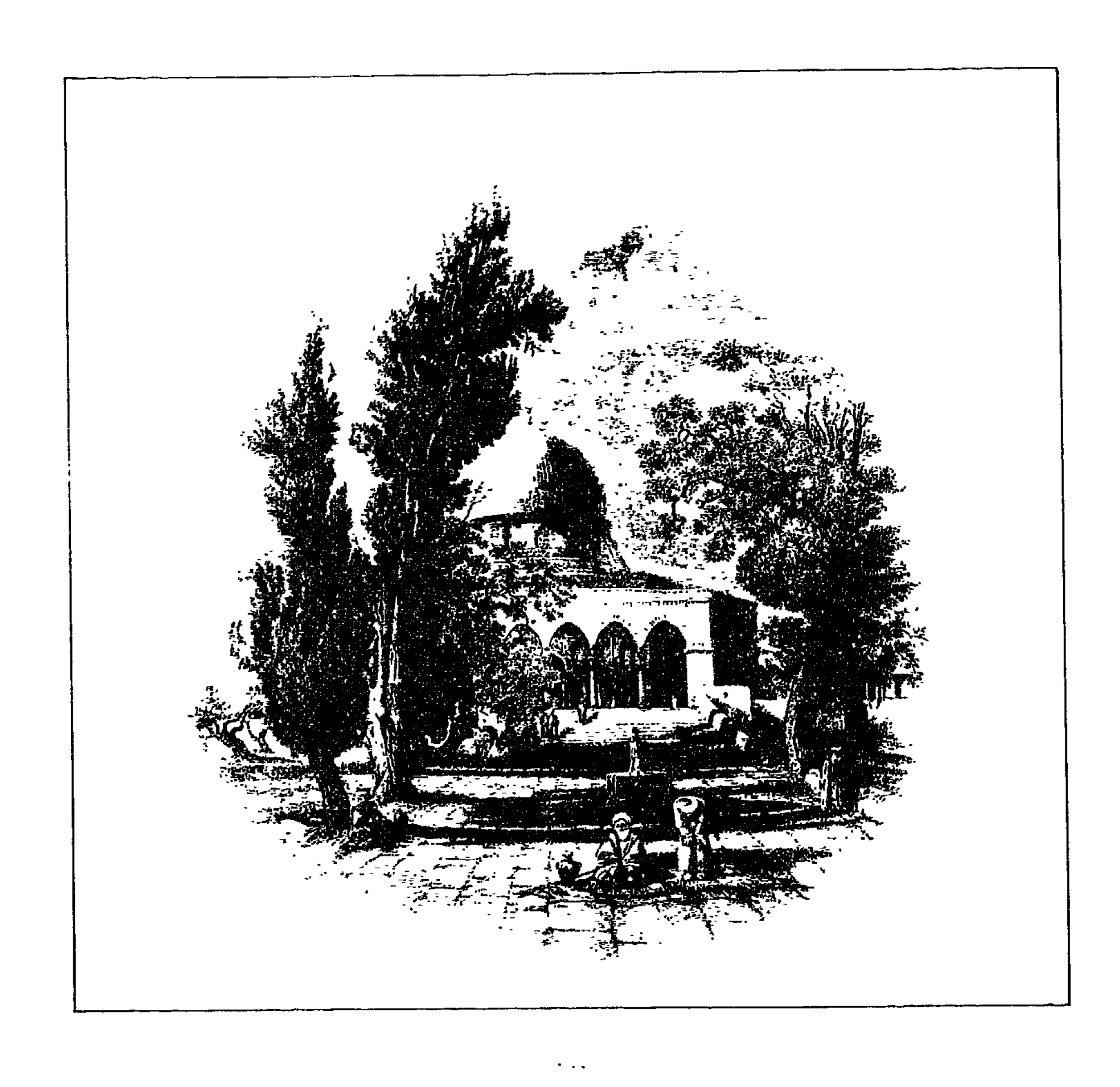
(٢٢٨) مجير الدين : الأنس الجليل ، جـ٢ ، ص ٤٤٣ .

(٢٢٩) احمد دراج ، المماليك والفرنج ، ص ١٠٦ — ١٠٧ .

(٢٣٠) المقريزى : السلوك ، جـ٣ ، قسم ٢ ، ص ٧٩٢ ، ابن العماد : شذرات الذهب جـ٦ ، ص ٣٣٧ ، ابن الصيرفى ، نزهة النفوس والأبدان ، جـ١ ، ص ٣٦٧ .

الفصل الثالث

الحياة العلمية في مدينة بيت المقدس



من المعروف أن النشاط الديني والعلمي فى تاريخ الحضارة العربية الاسلامية كان يتكاثف قرب الخلافة أينا حلت . فحول الخليفة يلتف العلماء ، واذا انتقل الخليفة من مكان لاخر ، سار فى ركابة العلماء تبركا وتيمنا بصحبته ، فضلا عما كان يغدقه هؤلاء الخلفاء عليهم من أموال شجعت الكثيرين منهم على الالتفاف حولهم . كذلك من المعروف أن اهتمام سلاطين المماليك بالواجهة الدينية لدولتهم كان هو الدافع الرئيسى لهم على احياء الخلافة العباسية بالقاهرة سنة ٦٥٩/ ١٢٦١ على يد السلطان الظاهر بيبرس ، بعد سقوط بغداد فى أيدى المغول وقتلهم للخليفة العباسى سنة ٦٥٦ هـ/ ١٢٥٨م . ويرجع اهتمام سلاطين المماليك بالواجهة الدينية لدولتهم الناشئة ، فضلا عن الاهتمام بمقدسات المسلمين ورعايتها ، الى انهم كانوا مجرحين بسبب أصلهم ، الى جانب نظرة المعاصرين لهم على أنهم استأثروا بالحكم دون سادتهم من أبناء البيت الأيوبى .

وسرعان ماأخذت الخلافة العباسية بالقاهرة تستقطب علماء المسلمين من مشارق الأرض ومغاربها ، لينعموا بما هيأه ، لهم سلاطين المماليك من أمن واستقرار إلى جانب ماحازوه من تشجيع أدبى ومادى . وإذا كان كثير من العلماء قد آثروا الاقامة فى القاهرة على مقربة من الخلافة ونفوذ السلطان المملوكى ، فإن نسبة لايستهان بها منهم قد دأبوا على التنقل بين الاماكن المقدسة المشمولة برعاية سلاطين المماليك وحمايتهم ، نعنى بذلك مكة والمدينة وبيت المقدس طلبا للبركة ، بل أن بعضهم فضل أن يجاور موضعا من هذه المواضع الثلاثة الشريفة ليواصل حياته العلمية فى هدوء ، بعيدا عن أضواء العاصمة وسلطان الحاكم .[1]

أسباب انتعاش الحياة الثقافية واقامة العلماء ببيت المقدس

ومع عظم المكانة الدينية لمكة المكرمة والمدينة المنورة ، فإن الحياة فيهما كانت قاسية ، لذا فإن كثيرين من العلماء لم يستسيغوا الاقامة الطويلة فيهما ، فضلا عن بعدهما عن مركز النشاط الحضارى فى العالم الاسلامى فى عصر سلاطين المماليك .

أما مدينة القدس فكانت الحياة فيها اطيب نسبيا لاعتدال جوها – وهذا ماسوف نلحظه فى حديثنا فى الفصل الرابع عن الحياة الاقتصادية – فضلا عن وقوعها داخل دائرة النشاط الحضارى للدولة الاسلامية عندئذ ، كذلك كان لها عشاقها الكثيرون وخاصة بعد تلك الغيبة الطويلة التى انتزعت فيها من أحضان الدولة الاسلامية الأم ، ونقصد بذلك تلك الفترة التى عاشتها فى ظل الحكم الصليبى منذ عام ٤٩٣هـ/ ١٠٩٩م وحتى عام ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م حين استرجعها صلاح الدين الايوبى . كذلك كانت لمدينة بيت المقدس جاذبيتها الخاصة فى عيون المسلمين مثلها مثل مكة والمدينة – فلقد ارتبطت فى الوجدان الاسلامى بكونها أولى القبلتين وثالث الحرمين ، فضلا عن ارتباطها بقصة الاسراء والمعراج . تلك الجاذبية الخاصة التى تتضح أشد الوضوح عند مثقفى ذلك الزمان ، ولاسيما من تخصص منهم فى العلوم الدينية .

ولاشك أن تلك الفترة من تاريخها شهدت وفود كثير من الاسرات العربية المسلمة من المشرق والمغرب إلى بيت المقدس ، نظرا لوضعها الجديد والذى حظيت خلاله بنوع من الامن والاستقرار كما أشرنا فى الفصل الاول من هذه الدراسة ، مما شجع الكثيرين على الهجرة إليها والاستفرار بها ، بالاضافة إلى الهجرات الناجمة عن تدهور أحوال العالم الاسلامى فى المشرق والمغرب ، مما جعل سلطنة المماليك فى مصر والشام بمثابة الحصن الأخير للحضارة العربية الاسلامية . وقد سبق لنا فى الحديث فى الفصل الثانى عن وفود كثير من المغاربة إليها فى عصرى سلاطين الأيوبين ثم المماليك ، وأنه كانت لهم حارة تسمى باسمهم . وقد حفظت لنا كتب الأدب والتاريخ أسماء مئات من رجال العلم والدين ولأدب الذين رحلوا من المغرب إلى المشرق فى طلب العلم والتفقة . وهذا كتاب « نفح الطيب » الذى يخصص جزءا يقترب من ثلث حجمه لذكر أولئك العلماء . ومما نقع عليه هناك أن العلماء الذين كانوا يفدون إلى بيت المقدس كانوا يسمعون التفسير والحديث والفقه فى المسجد الاقصى ، فضلا عن عدد كبير من المدارس التى وجدت بالمدينة .

كما تولى الكثيرون منهم بعض الوظائف الرفيعة مثل القضاء وغيره ، إلى جانب ماأورده لنا مجير الدين من أن مدينة بيت المقدس كانت حافلة بكثير من علماء المغاربة الذين وفدوا إليها فى عصر سلاطين المماليك ، وكانت لهم مشاركة فى كثير من العلوم الدينية .[٢] كما أن الرحلة إلى بيت المقدس تطلع إليها كثير من علماء المغرب أيضا ،.فهذا هو المقرى صاحب كتاب نفح الطيب يعتز بأنه نزل بيت المقدس طلبا للعلم والاستزاده حيث يقول : « لما حللت ببيت المقدس وعرف به مكانى من الطلب ، وهذا دليل على مكانه بيت المقدس العلمية .[٣]

لم تقتصر هجرة العلماء ورجال الدين إلى بيت المقدس على العلماء المغاربة ، بل شملت كثيرا من العلماء من كل أنحاء المشرق ، وليس أدل على ذلك مما يذكره لنا ابن اياس فى وفيات سنة ٨٩٠هـ/ ١٤٨٥م ، أيام السلطان الأشرف قايتباى ، يقوله أن الأخبار جاءت من القدس بوفاة الشيخ سعد الله الهندى الحنفى أمام المسجد الاقصى[٤] ، وفى قوله « الهندى » اشارة إلى أنه من الهند ، وهذا يؤكد لنا أن بيت المقدس فى ذلك العصر جذبت العلماء من مختلف الجنسيات . كما تشير المصادر

المعاصرة إلى كثرة العلماء الذين وفدوا الى القدس من العراق ، ولا شك أن هذا راجع الى ما تمتع به هؤلاء من أمن واستقرار بعكس ما كانت عليه الحال فى بلادهم التى كانت خاضعة لحكم المغول الوثنيين . إلى جانب هجرة كثير من العلماء من تبريز نتيجة لغزوات المغول أيام هولاكوخان ، وما تذكره المصادر عن كثير من العلماء الذين وفدوا من بلاد الروم ومن التركمان والذين لم ذكرهم ، وكانت لهم مشاركة فى كثير من العلوم الدنية . ومن الملاحظ أن عددا كبيرا من هؤلاء كانوا من الحنفية بينما كان القليل منهم من الشافعية ، ولعل ذلك راجع الى انتشار المذهب الحنفى بالبلاد التى قدموا منها ، بينما كان المذهب الشافعى أكثر انتشارا فى بيت المقدس ومصر وبلاد الشام [٥] .

وتشير كثير من المصادر والمراجع إلى أن مدينة بيت المقدس غدت فى عصر سلاطين المماليك مهوى أفئدة كثير من العلماء وطلبة العلم فى ذلك الوقت ، بجانب صبغتها الدينية ، مع تعدد مدارسها التى حظيت برعاية وعناية الحكام من سلاطين وأمراء والكثيرين من أهل البر ، والذين جادوا لها بالأموال والعقارات التى خصصت لأعمال الخير وكان ينفق من ريعها على العلماء وطلبة العلم . فضلا عن تعدد مساجدها وزواياها التى تعقد فيها حلقات التدريس كذلك انجبت مدينة القدس الكثير من العلماء الذين أثروا الحياة العلمية بنتاجهم والذين سنتحدث عن بعضهم فى الصفحات التالية ، كما أنهم انتشروا فى أنحاء الدولة المملوكية ، وتولوا الكثير من المناصب الهامة فى البلاد المختلفة . [٧] .

وليس أدل على أن بيت المقدس كانت إحدى المراكز العلمية الهامة فى عصر سلاطين المماليك ، وأنها كانت قبلة العلماء وطلاب العلم والمعرفة ، من أن كبار علماء ذلك العصر وفدوا إليها وتلقوا جانباً من تعليمهم بها ، مثال ذلك مؤرخ الشام شمس الدين الذهبى الذى توفى سنة ٧٤٨ هـ / ١٣٤٧ م ، وشهاب الدين ابن حجى فقيه الشام « ت ٨١٦ هـ / ١٤١٣ م [٨] كذلك يروى لنا البدر العينى أنه سافر الى بيت المقدس عام ٧٨٨ هـ / ١٣٨٦ م حيث لازم شيخ علماء مصر فى ذلك الوقت والذى كان مقيما بالقدس وهو علاء الدين على بن أحمد بن محمد السيرامى [٩] .

ويروى ابن العماد فى حديثه من ابن حجر أنه رحل وانتقل وحصل ببيت المقدس على أيدى الكثيرين من علمائها أمثال شمس الدين القلقشندى وبدرا الدين بن مكى وغيرهما . [١٠] وما يرويه ابن حجر نفسه من أن القدس كانت محط انظار كثير من العلماء وطلبة العلم للاخذ على شيوخها ، ولحصول على الاجازات العلمية منهم فضلا عن أن كثيرا من العلماء رجل إليها لكى يسمع أولاده بها [١١] .

فضلا عما تشير اليه بعض المصادر من أن مشاهير العلماء كانوا يفضلون الحياة فيها على العاصمة ، من ذلك مايروى عن الشيخ جمال الدين عبد الله محمد بن سليمان بن حسن بن حسين البلخى « ت ٦٩٨هـ/ ١٢٩٩ » والذى كان يشتغل بالعلم فى القاهرة ، ثم انتقل إلى القدس إلى أن توفى به ، وكان شيخا وله مصف حافل كبير جمع فيه خمسين مصنفاً من التفسير .[١٢] كذلك يؤكد المقريزى فى

حديثه عن ابن الهائم المصرى « ت ٨١٥هـ/ ١٤١٢م » من أنه درس بالقدس وكان قد تحول إليه من القاهرة وبرع فى الحساب والفرائض »[١٣] .

ويجب أن نشير إلى أنه كانت من نتيجة هجرة كثير من العلماء إلى البيت المقدس فى ذلك العصر ، أن نشأت كثير من الاسرات العلمية التى أثرت الحياة العلمية فى القدس بما أنجبته من علماء ، وما كان لهؤلاء من جهود علمية ومؤلفات . وفى الجدول التالى سنكتفى بالاشارة إلى مؤسسى تلك الأسرات مع نبذة عن أهم مؤلفاتهم العلمية حسبما أشارت إليه بعض المصادر التى تحدثت عنهم .

الأسرة	نبذة عن مؤسسها وأهم مؤلفاته أو مؤلفات أفراد الأسرة
١) بنو كيكلدى	ويأتى على رأس هذه الاسرة صلاح الدين ابو سعيد خليل بن كيلكيدى بن عبد الله العلائى « ت ٧٦١هـ/ ١٣٥٩م » ومن أهم مؤلفاته : ١) فهرست مسموعاته فى كتاب سماه الفوائد المجموعة فى الفرائد المسموعة . ٢) تحفة الرائض بعلوم آيات الفرائض . ٣) الاربعين فى أعمال المتقين ٤) شرح حديث ذى اليدين فى مجلد ٥) الوشى المعلم فيمن روى عن أبيه عن جده عن النبى ﷺ . ٦) عقيلة الطالب فى ذكر أشرف الصفات والمناقب . ٧) تنقيح المفهوم فى صيغ العلوم . ٨) المجموع المذهب فى قواعد المذهب . ٩) مختصر جامع الأصول لأحاديث الرسول . ١٠) الاشباه والنظائر فى فروع الفقه الشافعى . ١١) تفصيل الاجمال فى تعارض الاقوال والافعال . ١٢) برهان التيسير فى عنوان التفسير .[١٤] هذا وقد ورث عنه ذريته فى العلم ، وكان منهم كبار العلماء ورحلة عصرهم والذين تتلمذ عليهم كثير من مشاهير ذلك العصر[١٥] .
٢) بنو القلقشندى	يأتى على رأس الأسرة الشيخ تقى الدين القرقشندى « ت ٧٧٨هـ/ ١٣٧٦م » وقد أنجبت أسرة القلقشندى كثيرا من العلماء والفضلاء الذين تولوا عددا من المناصب الهامة فى بيت المقدس طوال عصر سلاطين المماليك ، منها الافتاء والتدريس ، ويبدو أن ابناء هذه الأسرة كان لهم ولع خاص بعلم الحديث[١٦] .
٣) بنو جماعة	يأتى على رأس هذه الاسرة الشيخ برهان الدين أبو اسحاق ابراهيم بن ابى

الأسرة	نبذة عن مؤسسها وأهم مؤلفاته أو مؤلفات أفراد الأسرة
	الفضل سعد الله بن جماعة « ت ٥٧٥هـ/ ١٢٧٦م » ، وقد أنجبت لنا هذه الأسرة كثيرا من الابناء منهم القضاة والعلماء الاجلاء طوال عصر سلاطين المماليك . كذلك يبدو لنا أنه كان لابنائها ولع بدراسة الفقه والحديث بوجه خاص .[١٧]
٤) بنو الديرى	نسبة إلى قرية يقال لها الدير من بلاد نابلس ، ويقال أن أول من استوطن منهم القدس هو شيخ الاسلام شمس الدين ابو عبد الله محمد بن جمال الدين بن عبد الله سعد بن عبد الله بن مصلح الديرى الخالدى العبسى الحنفى من علماء القرن الثامن الهجرى/ الرابع عشر الميلادى . ومنهم الشيخ سعد الدين بن محمد بن عبد الله الديرى الحنفى « ت ٨٦٧هـ/ ١٤٦٢م » وكان على رأس الحنفية بالقاهرة كما ولى القضاء بها وله تصانيف منها : « تكمله شرح الهداية للسروجى » .[١٨]
٥) بنو قدامة	ويأتى على رأس هذه الاسرة الشيخ أبو عمر محمد بن أحمد بن قدامة « ت ٦٠٧هـ/ ١٢٠٨م » وقد كان لهذه الاسرة شأن يذكر فى مجال الحياة العلمية ، سواء داخل القدس أن فى بلاد الشام عامه ودمشق خاصة ، حيث استوطن عدد كبير من أبنائها صالحية دمشق ومنهم الشيخ تقى الدين أبو الفضل سليمان بن قدامة « ت ٧١٥هـ/ ١٣١٥م » وله معجم فى مجلدين ، وقد شارك فى العربيه والفرائض والحساب ، وهو مسند الشام وقاضى القضاه والذى تخرج به الفقهاء وتفرد فى زمانه كما يقول عنه المقريزى .[١٩]
٦) بنو غانم	ويرجع نسب هذه الأسرة إلى الشيخ غانم المقدسى ، شيخ الخانقاه الصلاحية بالقدس ، زمن السلطان صلاح الدين الأيوبى رحمه الله ، وقد كان منهم كثير مم تولى كثيرا من الوظائف الدينية الهامة فى بيت المقدس ، حيث تولى منهم مشيخة الحرم جماعة يزيدون على العشرين طوال عصر سلاطين المماليك .[٢٠]

من هذا العرض الموجز عن بعض الاسرات العلمية التى نشأت فى مدينة بيت المقدس ، فى عصر سلاطين المماليك يتضح لنا جانب من جوانب ازدهار الحياة الثقافية فى مدينة بيت المقدس فى ذلك العصر ، وكيف أن نشأة هذه الاسرات كان ضمن العوامل التى ساعدت على اثراء الحياة العلمية فى ذلك الوقت . كذلك يجب أن نشير إلى أن تلك الاسرات قد انجبت الكثير من السيدات الشهيرات فى ذلك العصر ، بما لهن من مشاركة علمية وبخاصة فى مجال علم الحديث ، نذكر منهن على سبيل المثال لا الحصر أسماء ابنه الحافظ صلاح الدين خليل بن العلائى (ت ٧٩٥ هـ) ، وكانت قد سمعت

على والدها وغيره ، وحدثت بالكثير من مسموعاتها ، وكذلك المسندة آمنة ابنة العلامة تقى الدين اسماعيل القرقشندى (ت ٨٠٩ هـ) ، وكانت قد سمعت على والدها وجدها لامها وغيره ، وحدثت بالقدس الشريف ، وعائشة بنت محمد بن عبد الهادى بن عبد الحميد ين قدامه ، وهى محدثه دمشق ، وكانت قد حضرت فى أوائل الرابعة من عمرها جميع صحيح البخارى على مسند الافاق الحجار وروى عنها الحافظ ابن حجر وقرأ عليها كتبا عديدة وتوفيت سنة ٨١٦ هـ[٢١] .

ومن المرجح أنه كانت ثمة منافسة علمية بين أبناء تلك الاسرات ، وإن كان وجه المنافسة الواضح طوال عصر سلاطين المماليك هو تطلع كل أسرة منها لكى تحوز الجانب الاكبر من الوظائف الدينية الهامة مثل الخطابة والقضاء وغيرها من الوظائف . ويبدو أن السلاطين والامراء والمماليك ، لكى يرضوا تلك النزعة لديهم ، كانوا يشركون أبناء هذه الاسر فى المنصب الواحد ، ويؤكد هذا الرأى مايرويه مجير الدين فى حديثه عن خطابه بيت المقدس بقوله : « وكان اشتراك بنى القرقشندى وبنى جماعة فى الخطابة بالقدس الشريف من زمن الملك المؤيد شيخ قبل العشرين والثمانمائة[٢٢] »

وأخيرا تجب الأشارة إلى أن تلك المنافسة ، والتى حاول أفراد كل أسرة أن يحوزوا من خلالها الصدارة العلمية فى بيت المقدس ، كانت ضمن العوامل التى جعلت مدينة القدس احدى المراكز العلمية الهامة والنشطة ، حيث قدم اليها كثير من العلماء لكى يأخذوا عن أبناء تلك الاسرات وغيرهم من العلماء ، وليس أدل على ذلك مما يروريه لنا السحاوى فى حديثه عن الشيخ شمس الدين النحريرى « ت ٨٤٩ هـ/ ١٤٤٥م » من أنه أرتحل إلى القدس فأخذ عن النجم بن جماعة والبدر العليمى والاخوين الشمس والبرهان ابنى القلقشندى وسمع على أبى الخير العلائى الجزء الأول من مسلسلات والده الشيخ الحافظ .[١٣] هذا إلى جانب مايروية مجير الدين فى حديثه عن الشيخ زين الدين عبد الكريم القرقشندى « ت ٨٥٦ هـ/ ١٤٥٢م » من أنه كان من أعيان العلماء بالقدس الشريف ، وله اليد الطولى فى علم الحديث ، وأخذ منه جماعة من الأعيان وله أحاديث مخرجه .[٢٤]

مظاهر ازدهار الحياة العملية فى بيت المقدس

١) علماء بيت المقدس ونتاجهم العلمى : —

أما ثمرة هذه الانتعاش فى الحياة العملية الواسع النطاق ، فقد تمثلت فى عدد كبير من المؤلفات والرسائل والمصنفات ، والتى ارتبطت ولادتها بيت المقدس لتجعل من هذه المدينة مركزا خصبا من مراكز الفكر الاسلامى فى عصر سلاطين المماليك .

والجدول التالى يوضح لنا مدى هذا النشاط وبخاصة فى مجال العلوم الدينية :—

علوم الحديث والتفسير والفقه : —

اسم المؤلف	نبذه عن أهم أعماله	المصدر أو المرجع
١) ابن غانم المقدسى ٪ ت ٦٧٨ هـ/ ١٢٧٩ م»	هو الحافظ عز الدين عبد السلام أحمد بن غانم المقدسى ، حكيم ، صوفى ، واعظ من تصانيفه : حل الرموز ومفاتيح الكنوز ، الروض الانيق فى الوعظ الرشيق ، كشف الاسرار عن الحكم المودعة فى الطيور والازهار ، كشف الاسرار ومناقب الابرار ومحاسن الاخيار بجميل العبارة ولطيف الاشارة ، والفتوحات الغيبية فى الاسرار القلبية .	كحالة : معجم المؤلفين ، جـ٥ ، ص ٢٢٣ .
٢) بن قدامة الحنبلى	هو الامام شمس الدين ابو محمد عبد الرحمن بن محمد احمد ابن محمد بن قدامه الحنبلى المقدسى ، كان إماما فقيها – ورعا زاهد كبير القدر جم الفضائل ، انتهت إليه رياسة مذهب الامام احمد بن حنبل فى زمانه ، وشرح كتاب « المقنع » فى الفقه تأليف عمه شيخ الاسلام موفق الدين رحمه الله .	ابن تغرى بردى : النجوم جـ٧ ، ص ٣٥٨ .
٣) شهاب الدين أبو العباس الخوبى ت ٦٩٣/ ١٢٩٣	وله شرح « الفصول لابى معطى ، ونظم علوم الحديث لابن صلاح ، والفصيح لثعلب ، وكفاية المتحفظ »	سعيد عاشور : بعض أضواء جديدة على مدينة بيت المقدس ص ١١ .
٤) شرف الدين المقدسى « ت ٦٩٤ هـ/ ١٢٩٤م »	يقول عنه ابن كثير : « هو الشيخ الامام الخطيب المدرس المفتى ، شرف الدين ابو العباسى احمد بن كمال الدين احمد بن نعمة بن احمد بن جعفر بن حسين بن حماد المقدسى الشافعى ، ولد سنة ثنتين وعشرين وستمائه وسمع الكثير وكتب حسنا وصنف فأجاد وأفاد ، وولى القضاء نيابة بدمشق والتدريس	ابن كثير : البداية والنهاية جـ١٣ ، ص ٣٤١ .

اسم المؤلف	نبذه عن أهم أعماله	المصدر أو المرجع
	والخطابة بدمشق ، وكان مدرس الحديث بالنورية مع الخطابة ، ودرس فى وقت بالشافعية البرانية وأذن فى الافتاء لجماعة من الفضلاء منهم الشيخ الامام العلامة شيخ الاسلام أبو العباس بن تيمية ، وكان يفتخر بذلك .... وكان يتقن فنونا كثيرة من العلوم وله شعر حسن ، وصف كتابا فى أصول الفقه جمع فيه شيئا كثيرا ، وهو عندى بخطه الحسن » .	
٥) ابن النقيب « ت ٦٩٨هـ/ ١٢٩٩م »	هو الشيخ الامام العالم الزاهد جمال الدين أبو عبد الله محمد بن سليمان ابن الحسن بن الحسين البلخى ثم المقدسى الحنفى المعروف بأبن النقيب ، مولده فى النصف من شعبان سنة أحدى وعشرين وقيل احدى عشر وستمائه بالقدس الشريف اشتغل بالقاهرة واقام مدة بالجامع الازهر ، ودرس فى بعض المدارس فى القاهرة ثم انتقل إلى القدس ، واستوطنه إلى أن مات به ، كان شيخا فاضلا فى التفسير له فيه مصنف حافل كبير جمع فيه خمسين مصنفا من التفاسير بلغ تسعة وتسعين مجلدا ، وقد لاقى كتابه هذا فى التفسير رواجا كبيرا ، إلى أن صار ينعت مؤلفه بصاحب التفسير الكبير .	مجير الدين : الانس الجليل ، جـ٢ ، ص ٢٥٦ ، رشاد الالمام : مدينة القدس ، ص ٢١١ .
٦) نجم الدين الطوخى ت ٧١٠هـ/ ١٣١٠م	هو العلامة نجم الدين الطوخى الصرصرى الحنبلى ، كان قد سافر إلى القاهرة وولى الإعادة بالمدرستين الناصرية والمنصورية بها ، وله تصانيف	الخالدى : اهل العلم بين مصر وفلسطين ، ص ١٠ — ١١ .

اسم المؤلف	نبذه عن أهم أعماله	المصدر أو المرجع
	منها : بغية السائل فى أمهات المسائل فى أصول الدين ، ومختصر الروضة فى أصول الفقة ، شرحة فى ثلاث مجلدات ، ومختصر الحاصل فى أصول الفقة والقواعد الكبرى والصغرى ، والاكسير فى قواعد التفسير ، والرياض النواضر فى الأشباه والنظائر ، وبغية الواصل إلى معرفة الفواصل ، وغير ذلك من المصنفات فى الادب والجدل .	
٧) ابن جبارة ت ٧٢٨ هـ/ ١٣٢٧م	هو شهاب الدين احمد بن جبارة المرداوى الحنبلى الزاهد الفقيه الاصولى المقرىء النحوى ، أحد شيوخ ابن الوردى ، اقام فى مصر دهرا ، وجاور بمكه ، ثم قدم دمشق واشتغل الناس عليه بها مدة ، ثم اقام بحلب ثم بالقدس وكان صالحا صادقا زاهدا ، وله مصنفات منها شرح الشاطبية فى أربع مجلدات . -	ابن الوردى : تاريخ ابن الوردى جـ ٢ ، ص ٤٠٦ .
٨) بدر الدين ابن جماعة ت ٧٣٣هـ/ ١٣٣٢م	هو قاضى القضاه شيخ الاسلام بدر الدين أبو عبد الله محمد بن ابراهيم بن سعد الله ابن جماعة ، ولى الخطابة - بالمسجد الاقصى الشريف وأمامته وقضاء القدس ، جمع له بين ذلك فى شهر رمضان سنة سبع وثمانين وستمائه ، وله النظم والنثر والخطب والتصانيف منها التبيان لمهمات القرآن ، وغرر التبيان ، والفوائد اللائحة من سورة الفاتحة ، والمنهل الروى فى علوم الحديث النبوى ، والفوائد الغزيرة فى أحاديث بريرة ، وتنقيح المناظرة فى تصحيح المخابرة ،	مجير الدين : الانس الجليل ، ج١ ص ٤٨٠ .

اسم المؤلف	نبذه عن أهم أعماله	المصدر أو المرجع
	وتحرير الاحكام فى تدبير جيش الاسلام ومستند الاجناد فى الات الجهاد ، والطاعة فى فضيلة صلاة الجماعة ، وحجه السلوك فى مهاداة الملوك ، وكشف الغمة فى احكام أهل الذمة .	
٩-ابن عبد الهادى « ت ٧٤٤هـ/ ١٣٤٣م»	هو محمد بن احمد بن عبد الهادى بن عبد الحميد بن عبد الهادى ، شمس الدين أبو عبد الله أبن قدامة المقدس الجماعيلى الاصل ، ثم الدمشقى الصالحى حافظ للحديث ، عارف بالادب ، من كبار الحنابلة أخذ عن ابن تيمية والذهبى وغيرهما ، وصنف مايزيد على سبعين كتابا ، يزيد ماأكمله منها على مائه مجلد ومات قبل بلوغ الأربعين ، من كتبه : العقود الدرية فى مناقب شيخ الاسلام أحمد بن تيمية ، والمحرر فى الحديث اختصره من الالمام فجوده جدا ، وفضائل الشام ، وقواعد أصول الفقه ، والصارم المنكى فى الرد على ابن السبكى ، وشرح التسهيل فى مجلدين ، وشرع فى كتاب العلل على ترتيب كتب الفقه ، والاحكام فى فقه الحنابلة فى ثمان مجلدات ، وتراجم الحفاظ واختصر التعليق لابن الجوزى وزاد عليه ، وجمع التفسير المسند ولم يكمله ، وله كلام على أحاديث مختصر ابن الحاجب ، وله مناقشات لابى حيان فيما اعترض به على ابن مالك فى الالفية وغير ذلك . وكذا التزم فى كتاباته الا مانة فى النقل والتحرر من اراء الرجال مما يجب	ابن حجز : الدور الكامنة ، جـ٣ ص ٣٣١ ، الزرعلى : الاعلام ، جـ١ ص ٢٢٢ ، حول بيت المقدس ، ص ١٠٣ - ١٠٥ .

اسم المؤلف	نبذه عن أهم أعماله	المصدر أو المرجع
	أن يلتزمة كل مخالف مع من يخالفه .	
١٠) ابن كيكلدى « ت ٧٦١/ ١٣٥٩ »	هو صلاح الدين ابو سعيد خليل بن كيكلدى بن عبد الله العلائى الشافعى المحقق بقية الحفاظ ، جد واجتهد حتى فاق أهل عصره فى الحفظ والاتقان ودرس بدمشق بالأسدية وغيرها ، ثم انتقل إلى القدس مدرسا للصلاحية ، وأقام بالقدس مدة طويلة ، وقد كان اماما فى الفقه والنحو والاصول مفننا فى علم الحديث ومعرفة الرجال ، علامة فى معرفة المتون والأسانيد وقد سبقت الاشارة إلى مؤلفاته العديدة فى الصفحات السابقة .	ابن العماد : شزرات الذهب جـ٦ ، وفيات ٧٦١ ، الدرر الكامنه ، جـ٢ ، ص ٩٠ - ٩٢ ، اسماعيل باشا : ايضاح المكنون ، جـ١ ، ص ٢٢ .
١١ - ابن مفلح « ت ٧٦٣هـ/ ١٣٦١	محمد بن مفلح بن مفرج ابو عبد الله ، شمس الدين المقدسى الرامينى ثم الصالحى . أحد كبار علماء الحنابلة فى عصره . ولد ونشأ فى بيت المقدس ، وتوفى بصالحية دمشق . ومن تصانيفة كتاب الفروع ، ثلاثة مجلدات فى الفقة ، والنكت والفوائد السنية على مشكل المحرر لابن تيمية فى الفقه ، وأصول الفقه ، والآداب الشرعية الكبرى فى ثلاث مجلدات ، وله شرح على المقنع لابن قدامة فى الفروع ثلاثين مجلدا .	ابن العساد : شذرات الذهب ، جـ٦ ، ص ١٩٩ الى ٢٠٠ ، البغدادى : هدية العارفين جـ ٢ ، ص ١٦٢ الزركلى : الاعلام جـ٧ ، ص ١٠٧ .
١٢ - الحسن بن عبد الله ت ٧٧١هـ/ ١٣٧٠م	احمد بن الحسن بن عبد الله بن ابى عمر المقدسى الجنبلى ، شرف الدين ابن شرف الدين قاضى الجبل طلب بنفسه بعد العشر ، وخرج له ابن سعد مشيخة من ثمانية عشر شيخا حدث بها	حول بيت المقدس ص ١١٠

اسم المؤلف	نبذه عن أهم أعماله	المصدر أو المرجع
	واشتغل بالعلم فبرع فى الفنون ، وكان بارعا فى العلوم بعيد الصيت قديم الذكر ، وله نظم بديع وذهن سيال ، وكان يزدحم الفضلاء والعامة فى مجالس علمه . ومن تصانيفه القصد المفيد فى حكم التوكيد ، ومسألة رفع اليدين والكلام على قولة تعالى « أأنت قلت للناس أتخذونى وأمى الهين من دون الله ...» وله نثر فائق فى المذهب .	
١٣) محب الدين ابن الهائم ت ٧٩٨هـ/ ١٣٩٥ .	هو محمد بن احمد بن عماد المصرى المقدسى محب الدين ابن الهائم ، حفظ القرآن وهو صغير جدا وكان آية فى سرعة الحفظ وجودة القريحة ، اشتغل بالفقه والعربية والقراءات والحديث ، ومهر فى الجميع فى أسرع مدة ، ثم صنف وخرج لنفسه ولغيره وقد رافق ابن حجر فى سماع الحديث كثيرا وسمع ابن حجر بقراءته المناهج على شيخهما برهان الدين وهو أذكى من رآهم ابن حجر مع الدين والتواضع وحسن الخلق والصيانة .	ابن حجر : إنباء الغمر جـ١ ، ص ٥١٩ .
١٤ – ناصر الدين زريق ت ٨٠٣هـ/ ١٤٠٠م	هو محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن احمد بن التقى سليمان بن حمزة المقدسى ثم الصالحى ، ناصر الدين المعروف بزريق سمع الكثير من بقية اصحاب الفخر ومن بعدهم ، وكان يقظا عارفا بفنون الحديث ذاكرا للأسماء والعلل ، ولم يكن له اعتناء بصناعة الرواية من تمييز العالى والنازل بل على طريق المتقدمين ، رتب المعجم الأوسط على	ابن حجر : إبناء الغمر جـ٢ ، ١٨٧

اسم المؤلف	نبذه عن أهم أعماله	المصدر أو المرجع
	الأبواب ورتب صحيح ابن حيان ، وقد رافق ابن حجر كثيرا بحيث يقول عنه انه لم ير من يستحق أن يطلق عليه أسم « الحافظ » غيره بالشام .	
١٥ – ابن الهائم ت ٨١٥هـ/ ١٤١٢م ..	احمد بن محمد بن عماد الدين بن على المقدسى المعروف بابن الهائم ، شهاب الدين ابو العباس الشافعى الغرضى ، وله من التصانيف ابراز الخفايا ، فى فن الوصايا ، والبحر والعجاج فى شرح المنهاج للنووى والتبيان فى تفسير القرآن أربع مجلدات وتحرير القواعد العلائية وتمهيد المسالك الفقهية والتحرير لدلالة نجاسة الخنزير والتحفة القدسية منظومة فى الفرائض ، وتحقيق المنقول والمعقول فى نفس الحكم الشرعى عن الافعال قبل بعثة الرسول ، ورفع الكلام عن القائل باستحباب القيام والعجالة فى استحقاق الفقهاء أيام البطالة والعقد فى تحقيق كلمة التوحيد ، وغاية السول فى الاقرار فى الدين المجهول ، والفصول المهمة فى مواريث الامة ، وكفاية الحفاظ فى الفرائض واللمح فى اجتناب البدع ، والمغرب فى استحباب الركعتين قبل المغرب ، والممتع فى شرح المقنع شرحه الكبير وغير ذلك فى العلوم الرياضية من حساب وجبر ومقابلة ...	البغدادى : هدية العارفين ، ج ٢ ، ص ١٢٠ ، إسماعيل باشا ايضاح المكنون ، جـ١ ص ١٠ ، ١٦٥ .
١٦ – عبد الرحمن القلقشندى « ت ٨٢٦م ١٤٢٢م . »	هو عبد الرحمن محمد بن اسماعيل القلقشندى المقدسى ، الشافعى زين الدين ، محدث ، مفسر سمع بدمشق ونابلس والقدس ، وتوفى بالقدس ، ومن آثارة : تفسير الفاتحة ، وتعليقات	كحالة : معجم المؤلفين ج ٥ ص ١٧١ ، إسماعيل باشا : إيضاح المكنون ج ١ ، ص ٣٠٦ .

اسم المؤلف	نبذه عن أهم أعماله	المصدر أو المرجع
	على شرح السراج البلقينى لجامع الصحيح البخارى .	
١٧ – عبد العزيز المقدسى ت ٨٤٦هـ/ ١٤٤٢م	عبد العزيز على بن عبد العزيز عبد المحمود البغدادى الاصل ، ثم المقدسى المنشأ البكرى الحنبلى عز الدين أبو البركات مفسر وفقيه ، أصولى مقرىء ، محدث ، نحوى ، بيانى ، ولد ببغداد ، وولى القضاء ببيت المقدس وبدمشق ، وتوفى بدمشق من تصانيفه : الفنون الجلية فى معرفة حديث خير البرية ، شرح مختصرا الخرقى فى فروع الفقه الحنبلى بديع المعانى فى علم البيان والمعانى ، مسلك البررة فى معرفة القراءات العشر والقمر المنير فى أحاديث البشير النذير ..	كحالة : نفس المرجع جـ ٥ ، ٢٥٤ .
١٨ – المقدسى « ت ٨٥٥ هـ ١٤٥١ م »	محمد بن أحمد بن سعيد ، عز الدين المقدسى فقيه حنبلى ، من القضاة ، أصله من بيت المقدس ولد فى كفر لبدة من جبل نابلس ، وتنقل بين صالحية دمشق وحلب وبيت المقدس ، كما جاور بالمدينة ومكة حيث توفى بها ومن كتبه : الشافى والكافى فى الفقه ، والآداب ، وسفينة الأبرار فى ثلاث مجلدات .	الزركلى : الاعلام جـ٦ ، ص٢٣٠
١٩ – ابن الديرى « ت ٨٦٧ هـ ١٤٦٢ م »	سعد بن محمد بن عبد الله بن سعد بن أبى بكر بن سعد النابلسى الأصل القدسى ، نزيل القاهرة الحنفى ، ويعرف بابن الديرى سعد الدين أبو السعادات ، مفسر ، فقيه ، متكلم ، أديب من تصانيفه : الكواكب النيرات فى وصول ثواب الطاعة الى الأموات ،	كحالة : معجم المؤلفين ، جـ٤ ص٢١٣ .

اسم المؤلف	نبذه عن أهم أعماله	المصدر أو المرجع
	تكملة شرح الهداية للسروجى ، شرح المسايرة فى العقائد المنجية فى الآخرة ، السهام المارقة فى كبد الزنادقة وقصيدة مخمسة فى مدح النبى ﷺ .	
٢٠ – أبو مساعد « ت ٨٧٣ هـ/ ١٤٦٨ م .	محمد بن عبد الوهاب بن خليل بن غازى المقدسى الشافعى ، ولد سنة تسع عشر وثمانمائة ببيت المقدس ونشأ بها ، فقرأ القرآن وجوده على الشمس القباقبى وأبى القسم النويرى ، وحفظ التنبيه وألفية النحو والشمسية ، والتلخيص ، وتصدر بالأقصى ، وأشير اليه بالفضل ، وأقرأ الطلبة وأفتى بل واختصر الملمات للبلقينى فى نحو ربعها والنكت للولى العراقى فكتب منه نحو الثلث وعمل كتاب فى الأصول سماه الارشاد وشرحه فى مجلد لطيف ، وشرع فى جمع شروح المنهاج فى تصنيف وصل فيه الى التيمم .	السخاوى : الضوء اللامع جـ١١ ، ص١٤٢ باسماعيل باشا : ايضاح المكنون جـ١ ، ص٦٢ .
٢١– – المقدسى « ت٨٧٨ هـ/ ٢٤٧٣ م » .	ابراهيم بن على بن ابراهيم بن يوسف ابن عبد الرحيم برهان الدين أبو الصفا ابن أبى الوفا العراقى ، الحسنى المقدسى الشافعى ، صنف من الكتب ابتهاج الناسكين فى طريق المحققين ، اللطائف فى بعض صفات العارف ، الرسالة القدسية فى الالهامات الأنسية فى أصول الدين ، الشفاء لصدور الصدور والدواء لداء المصدور عمدة الطالبين الى معرفة أركان الدين ، الفتح البرهانى فى شرح الدين الايمانى ، فتح الله حسبى وكفى فى مولد المصطفى محاسن الأعمال ومعادن الأقوال ، ومنهاج	البغدادى : هدية العارفين ، جـ١ ص٢٣ – ٢٤ ؛ اسماعيل باشا إيضاح المكنون جـ٢ ، ص٥٨٦ .

اسم المؤلف	نبذه عن أهم أعماله	المصدر أو المرجع
	السالكين إلى مقام العارفين ، وصية الوالد والأب من الثلب والقلب وغير ذلك من المصنفات فى التصوف .	
٢٢ – محمد ابن جماعة « ت ٩٠١ هـ ١٤٩٥ م » .	محمد بن ابراهيم بن عبد الله بن جماعة الكنانى المقدسى ، الشافعى ، نجم الدين أبو البقاء فقيه ، أصولى اخبارى ، ولد بالقدس ونشأ به ، ومن تصانيفه : النجم اللامع فى شرح جمع الجوامع فى الأصول مجلدين ، تعليق على الروضة فى مجلدات ، تعليق المنهاج فى مجلدات لم يكمل ، والدر النظيم فى أخبار موسى الكليم .	كحالة : معجم المؤلفين جـ٨ ، ص٢٠٧ .
٢٣ – ابن أبى شريف « ت ٩٠٥ هـ/ ١٤٩٩ م ..	هو محمد بن محمد بن أبى بكر بن على بن مسعود رضوان المرى القدسى ، الشيخ كمال الدين أبو المعالى ابن أبى شريف الشافعى ، أخذ عن الشهاب بن رسلان ، والحافظ ابن حجر والشيخ عبد السلام البغدادى وغيرهم ولازم خدمة العلم ، فبرع فى الفقه ، والأصلين ، والعربية وغيرها ، وتصدى للتدريس والافتاء ، ومن تصانيفه حاشية على شرح العقائد للتفتازانى ، وحاشية على شرح جمع الجوامع للجلال المحلى .	السيوطى : نظم العقيان ص١٥٩ – ٢١٦٠ ؛ الأنس الجليل جـ٢ ص٤٦٢ ص٧٠٨ ، ٧١٠ ؛ الزركلى : الاعلام جـ٧ ، ص٥٣ ؛ فهرس المخطوطات العربية بدار الكتب تحت رقم ٣٤ تفسير تيمور

كان هذا عرضا لبعض نماذج من علماء بيت المقدس فى مجال العلوم الدينية المختلفة ، من حديث وتفسير وفقه ، أو بعبارة أخرى هذا قليل جداً من كثير ، ففى احصائية قمنا بها لكتاب الأنس الجليل والذى يعتبر من المصادر الهامة التى اعتمدنا عليها فى هذا البحث ، وفى نفس الوقت يعتبر المصدر الوحيد الذى اهتم فيه مصنفه بذكر علماء بيت المقدس فى عصر سلاطين المماليك بصفة خاصة ، حيث قسم العلماء حسب مذاهبهم الدينية وهم الذين اطلع على ترجمتهم فقط بصرف النظر عمن لم

يطلع على ترجمتهم وكانت النتيجة على النحو التالى :

أولا : بالنسبة لعلماء الشافعية فقد ذكر وقف مجير الدين فى كتابه هذا ترجمة ٢٩٨ فقيها من فقهاء الشافعية والذين على تراجمهم ، أما بالنسبة للحنفية فقد ذكر لنا ترجمة لخمسة وستين فقيها من علماء الحنابلة ، أما المالكية فقد أورد تراجم لثلاثة وثلاثين فقيها ، وفى النهاية أورد تراجم الأربعة عشر فقيها من فقهاء الحنابلة .[٢٥]

وبذلك يكون أجمالى هذا العدد ٤١٠ فقيها من مختلف المذاهب ، هؤلاء هم فقط الذين وقف على تراجم لهم ، فإذا أضفنا إلى هؤلاء الذين لم يقف على تراجم لهم وقارنا بين ذلك العدد من الفقهاء وبين مساحة المدينة من جهة لأدركنا كثرة عدد الفقهاء بالنسبة لصغر حجم المدينة ، أما عن تلك المساحة والتى يذكر أحد الباحثين أنها لم تكن تزيد عن ٨٦٨ ألف متر مربع[٢٦] . والحقيقة أن كثيرا من المصادر تشير إلى صغر حجم المدينة ، فعلى سبيل المثال يقول عنها الرحالة بنيامين التطلى والذى زارها فى أواخر القرن الثانى عشر الميلادى : « أن القدس مدينة صغيرة .[٢٧] كذلك يعترف مجير الدين بهذا الصغر فى حديثه عن مبانى المدينة بقوله : « والبناء مشحون بحيث لو تفرق على حكم غالب مدن مملكة الاسلام لكان حجم المدينة ضعف ماهو الآن ...[٢٨] كذلك يتفق كل من كوندر وريتشارد بكوك على أن محيط المدينة لايزيد بحال من الأحوال عن أربعة أميال ، بل ربما يقل عن ذلك .[٢٩]

ومن جهة أخرى فاذا قارنا هذا العدد من العلماء أو الفقهاء بالنسبة لعدد السكان والذى سبق أن أشرنا إليه فى الفصل الأول من هذه الدراسة ، لتأكد لنا أيضاً أن العلوم الدينية بوجه خاص قد حظيت بسهم وافر فى تلك البيئة التى يغلب عليها الطابع الدينى ، ومن الطبيعى أن ينبع ذلك الاهتمام بتلك العلوم مما اتسمت به الحياة فى مدينة بيت المقدس من سمات دينية ، جعل من هذه المدينة إحدى المراكز الخصبة للفكر الاسلامى فى ذلك العصر .

التصـــوف :

كذلك شهدت مدينة بيت المقدس نشاطاً ملحوظاً فى مجال التصوف ، ونبغ كثير من أبنائها فى هذا المجال ، نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر ابن غانم المقدسى والذى سبقت الاشارة إليه ، وله مخطوط فى التصوف بدار الكتب المصرية يقول أنه سماه حل الرموز وفواتيح الكنوز ، وقد كتبه ليبين للناس أنهم يجب أن يتبعوا من الكلام معانيه ، ومن الحكم ما يبلغون به امانيهم ، حيث رأى أن كثيراً من الألفاظ فى عصره قد ارتبك فى غموضها كثير من أهل الأعتراض ، وذكر فى مقدمة كتابه كيفية حل ا لاشكالات التى تواجه الناس فى فهم رموز القرآن والاحاديث ، ثم تحدث عن الظاهر والباطن ، وما يجب على الشخص أن يفعله حتى يصل إلى مرتبة القربى إلى الله وحتى يوصف بمحبة ربه ، وقد اتيحت لنا فرصة الاطلاع على هذا المخطوط اثناء دراسة بعض المصادر الخاصة بهذا البحث فى دار الكتب[٣٠] .

ومن مشاهير المقادسة فى التصوف « ابن المقدسى (والذى يقول عنه المقريزى : « توفى شيخ الشيوخ بخانكاه سريا قوس شهاب الدين احمد بن سلامة ابن المقدسى الشافعى . وكان قبل ذلك شيخ خانكاه بشتاك وخطيب جامعة وصنف كتاباً مفيداً فى التصوف » وتوفى سنة ٧٦٩ هـ / ١٣٦٧ م(٣١) . ومنهم أيضاً عبد اللطيف بن عبد الرحمن . ابن احمد بن العزبن احمد بن غانم السعدى الخزرجى الانصارى المقدسى ، ويعرف بابن نباته ، وبابن غانم ، له مخطوط فى علم التصوف بدار الكتب تحت عنوان تحفة واهب المواهب فى بيان المقامات والمراتب .(٣٢) ومنهم أيضا الشيخ برهان الدين ابراهيم بن على بن ابراهيم ابن يوسف الحسنى العراقى المقدسى الشافعى ، له كتاب فى علم التصوف تحت اسم « تحفة الطلاب ومنحة الوهاب فى الآداب من الشيخ والاصحاب(٣٣) . » ومن المرجع الا يختلف التصوف فى بيت المقدس عما عرف عن التصوف الذى ساد مصر فى ذلك العصر .

علم القراءات : —

كذلك برع كثير من أبناء بيت المقدس فى ذلك العصر فى هذا العلم ، نذكر منهم على سبيل المثال ، شمس الدين الجزرى ، من علماء القرن الثامن الهجرى ، والذى يقول عنه مجير الدين : « اعتنى بالقراءات فأتقنها ومهر فيها وله مصنفات جليلة منها كتاب النشر فى القراءات العشر ونظم العشرة وذيل على طبقات القراء للذهبى والحصن الحصين فى الادعية والاذكار ، والتوضيح فى شرح المصابيح وغير ذلك وجميع مصنفاته مفيدة نافعة وعين لقضاء الشام فلم يتم له ذلك ..(٣٤) . ومنهم أيضا ابن جبارة المقدسى توفى سنة ٧٢٨هـ/ ١٣٢٧م ، والذى استوطن القدس وتصدر لاقراء القراءات والعربية ، وصنف تفسيرا وأشياء فى القراءات ، ذكره الذهبى فى معجم شيوخه فقال عنه : « كان اماما مقرئا بارعا فقيها نحويا نشأ إلى اليوم فى صلاح ودين وزهد سمعت منه مجلس البطاقة وانتهت اليه مشيخة بيت المقدس .. »(٣٥) ومنهم أيضا ابن القباقبى « ت ٨٤٩ هـ/ ١٤٤٥م » فيقول عنه السيوطى : « المصنف فى القراءات الاربعة عشر ، وناظم الثلاث الزائدة على العشر . تصدى للأقراء ، وانتفع به الناس ، وولى مشيخة الجوهرية بيت المقدس . وله بديعية ، وتخميس البردة ، وبانت سعاد ، وغير ذلك ...(٣٦) » .

الأدب والنحو :

كان لعلماء بيت المقدس فضل يذكر فى هذا المجال ، حيث كان لهم نشاط كبير واضح طوال عصر سلاطين المماليك ، نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر ، نجم الدين الطوخى الصرصرى ، والذى سبقت الاشارة اليه ، وله عدة مصنفات فى الادب منها الرحيق المسلسل فى الادب ، وتحفة أصل الادب فى معرفة لسان العرب ، وشرح مقامات الحريرى ، وموائد الحيس فى شعر امرىء القيس . ويقال أنه له بمدينة قوص بصعيد مصر خزانة كتب من تصانيفة حيث أقام بها مدة ، ثم نزل الخليل وتوفى بها .(٣٧) ومنهم أيضا ابن جبارة المقدسى والذى سبقت الاشارة اليه أيضا ، وقد توفى

بالقدس ، واشتغل فيها بعلوم العربية ، وصنف شرحا كبيرا للشاطبية ، وشرحا آخر للرائية فى الرسم ، وشرحا لالفية ابن معطى ، وكان من العلماء الصالحين .[٣٨] ومنهم أيضا الشيخ الامام العلامة أبو العزم محمد ابن محمد بن الحلاوى الشافعى النحوى « ت ٨٨٣هـ/ ١٤٧٨م » ، كان من أهل العلم والدين ، وهو من تلامذة الشيخ شهاب الدين بن أرسلان ، وكانت له بد طولى فى العربية ، صنف شرحا على الجرومية ، وكان يقرىء العربية بالمسجد الاقصى الشريف ، وكان عنده قيام فى الامر بالمعروف والنهى عن المنكر .[٣٩] ومنهم أيضا ابن أبى اللطف « ت ٩٢٨ هـ/ ١٥٢٢م » وهو محمد بن على الحصفكي المقدسى ، شمس الدين ، فاضل من أهل بيت المقدس مولدا ووفاة ، وله « الموضع المبين لاقسام التنوين » مخطوط فى النحو ، وعقد اللآلى لبدء الامالى » مخطوط فى خزانة حمزة بدمشق ، و« سائل السائل الى المعرفة الاوائل » مخطوط .[٤٠] ومنهم أيضا برهان الدين ابراهيم بن محمد بن أبى شريف « ت ٦٣٢/ ١٥٢٥م » الذى كانت له عدة كتب منها : « شرح قواعد الاعراب لابن هشام » و« منظومة فى القراءات » و « نظم النخبة » وله عدة قصائد[٤١] .

وجدير بالذكر أن الكثيرين ممن اشتغلوا بالأدب كان لهم ميل لقرض الشعر كذلك توجد لهم دواوين شعرية مازال معظمها مخطوطا حتى الآن ، وفى حاجة إلى من يقوم بنشرها واخراجها إلى حيز الوجود[٤٢] .

علم التاريخ :

أما علم التاريخ فقد كان له نصيب بارز من نشاط وازدهار الحياة العلمية فى مدينة بيت المقدس على عصر سلاطين المماليك ، يشهد بذلك بروز عدد من الأعلام الذين أنجبتهم المدينة وارتبطت حياتهم بها . ولايفوتنا أن نشير أن غالبية مؤرخى بيت المقدس فى ذلك العصر كانوا يمثلون المدرسة الشامية ، والتى تميزت بإهتمامها الكبير بتسجيل أهم الأحداث المحلية والسياسية منها بوجه خاص ، إلى جانب اهتمامها بالعلماء ورجال الدين من أصحاب المذاهب المتنوعة .[٤٣] لذلك تميزت كتاباتهم باهتمامها الفائق بالتراجم والوفيات ، والشئون الدينية ، ونشاط علماء الدين ، وذلك لأن معظم هؤلاء المؤرخين كانوا من علماء الدين ، ومن الطبيعى أن تفرض عليهم خلفيتهم الثقافية الاهتمام بهذه النواحى وتلك الأمور .[٤٤] نعنى بالخلفية الثقافية لمؤرخى بيت المقدس ، أن نوعية التعليم التى كانت فى العالم الاسلامى آنذاك ، هى ذلك النوع من التعليم الذى قام فى اساسه على دراسة العلوم الدينية أولا ، ثم علوم اللغة وتقويم البلدان ، بالاضافة إلى بعض العلوم الأخرى من دراسة للتاريخ والفلك والحساب .[٤٥] .

كذلك يمكننا أن نقسم مؤرخى بيت المقدس فى ذلك العصر إلى قسمين رئيسيين ، هما رجل الإدارة المؤرخ ، وعالم الدين المؤرخ ، ونقصد برجل الإدارة المؤرخ كل من اشتغل فى الجهاز الإدارى للدولة من أرباب الأقلام ، والذين تولوا النظر فى دواوين الدولة التى كان العمل بها يتطلب

مقدرة ثقافية وتعليما رفيعاً بمفاهيم ذلك العصر ، والذين كانوا فى نفس الوقت من علماء الدين بحكم نوعية التعليم التى كانت سائدة فى ذلك الوقت . كان هناك من المؤرخين الذين تصدق عليهم هذه التسمية عدد من عرفوا فى مصطلح العصر بأولاد الناس .[٤٦]

وهى تلك الفئة من أبناء أمراء المماليك الذين لم يسهم الرق ،، والذين كانوا غالبا ينصرفون عن الحياة السياسية العسكرية التى يعيشها آباؤهم إلى حياة السلم والدعة ، ذلك لان مفاهيم ذلك العصر لم تعترف بمبدأ الوراثة فى الحكم مما كان السبب وراء ظهور تلك الفئة ، وقد كان لبعضهم أهتمام بالنشاط الثقافى ولهم مساهمة فيه ، وإن كانت الحقيقة أنهم بحكم المولد من طبقة أهل السيف .[٤٧] وقد يكون منهم من يسعده الحظ بأن يمنحه أحد السلاطين أحدى الرتب الحربية الهامة مثلما حدث لخليل ابن شاهين .[٤٨] ، لكن تعليمهم الدينى واشتغالهم ببعض المناصب الادارية هو الذى حدا بنا إلى ادراجهم فى القسم الاول من المؤرخين ، فضلا عن أن بيت المقدس لم تعرف الا واحداً فقط من هذا النمط وهو ابن شاهين ، وهذا النمط من المؤرخين فى عصر سلاطين المماليك كانت تستهويه الموضوعات ذات الصلة بالادارة وشئون الحكم ، ولكن أهم مايلفت نظرا الباحث أنهم حيث يكتبون تاريخا بالمعنى المحدود للكلمة ، تكون كتاباتهم عبارة عن نسخ وتجميع للمعلومات من المصادر التى يعتمدون عليها دون مساهمة أصيلة من جانبهم . ولكنهم حين يكتبون بقصد آخر غير تدوين التاريخ ، مثل وضع المراجع اللازمة لافراد مهنتهم ، يضعون بين أيدى العلماء والباحثين مادة غاية فى الثراء والطرافة ، ومعلومات لاتجد لها مثيلا فى المصادر التاريخية التقليدية .[٤٩]

أما النمط الثانى ، ونقصد به عالم الدين المؤرخ ، فهو يدل على هذا الطراز من المؤرخين الذى جمع بين دراسة العلوم الدينية المختلفة وبين علم التاريخ إلى جانب توليهم لكثير من المناصب الدينية المختلفة ، مثل التدريس والافتاء والقضاء وغيرها . وتجدر الاشارة إلى أن هذا النمط من المؤرخين ، كان يمثل أغلبية مؤرخى بيت المقدس فى ذلك العصر الذى نتناولة بالدراسة ، هؤلاء كانت تستهويهم بصفة خاصة الموضوعات ذات الصبغة الدينية .

واخيرا تجب الاشارة إلى أننا فى عرضنا لمؤرخى بيت المقدس فى ذلك العصر سنتناولهم حسب ترتيب سنى وفياتهم ، بصرف النظر عن ترتيبهم وفق التقسيم الذى اوردناه كذلك فى عرضنا لاسماء مؤلفاتهم فقد أكتفينا بتسجيلها فى قائمة المصادر فى آخر البحث ونذكر منهم على سبيل المثال : —

١ – أبو شامة « ت ٦٦٥ هـ/ ١٢٦٦ م »[٥٠]

هو عبد الرحمن بن اسماعيل المعروف بأبى شامة المقدسى ، ولد سنة ٥٩٦ هـ بدمشق ، وتربى تربية دينية ، فحفظ القرآن والحديث والفقه ، وانتقل إلى الاسكندرية وتتلمذ على كبار المشايخ ، ولقد الف فى الفقه واللغة ، إلا أن أهم مؤلفاته هو كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية ، وقد بدأه مدح نور الدين محمود ، ثم انتقل إلى تاريخ البيت الزنكى منذ عماد الدين ، حتى وفاته وظهور نور الدين وجهودة فى توحيد الجبهة الأسلامية والاستيلاء على دمشق وضم

مصر ، ثم انتقل إلى تاريخ صلاح الدين وسيرته وجهاده ، حتى وفاته ، ثم تكلم عن بعض الاحداث بإيجاز بعد وفاة صلاح الدين وحتى عام ٥٩٧ هـ . ويمتاز كتاب الروضتين بتحرى الحقيقة والدقة فى جمع المعلومات وحسن العرض ، ولذا يعتبر من أهم المصادر – التاريخية فى الحروب الصليبية ، وخاصة قيام الدولة الأيوبية ، وقد اعتمد فيه على روايات بعض المعاصرين مثل ابن الاثير ، وابن شداد ، والعماد الكاتب وله كتاب آخر وهو كتاب الذيل على الروضتين ، وفيه ابتدأ المؤلف تاريخة بسنة ٥٩٠ هـ عقب وفاة السلطان صلاح الدين الأيوبى ، وقد خصص الجزء الاكبر من هذا الكتاب للأحداث التى شهدتها الدولة الايوبية ، سواء فيما يتعلق بالصراع بينها وبين الصليبيين ، أم الخلافات التى نشبت بين أبناء البيت الايوبى نفسه ، بالاضافة إلى ماذكره من أهم الاحداث التى طرأت على العالم الاسلامى من زحف المغول وسقوط بغداد ، ثم بلاد الشام فى أيديهم ، وقيام دولة سلاطين المماليك فى مصر ، وقيامها بالدفاع عن العالم العربى والاسلامى ، وانتهى فيه إلى سنة ٦٦٥ هـ ، وهى سنة وفاته ، وتتجلى فى كتابات هذا المؤرخ أهم خصائص المدرسة الشامية فى عصر سلاطين المماليك الباكر ، والتى تميزت بالاهتمام بذكر أهم الاحداث المحلية والسياسية منها بوجه خاص ، بالاضافة إلى الأهتمام بالنواحى الدينية ، هذا فضلا عن عدم أعتمادها على المؤرخين المصريين الا فيما يتعلق بالاحداث التى وقعت بمصر[٥١] .

٢) ابن فضل الله العمرى « ت ٧٤٩ هـ/ ١٣٤٨م » .

احمد بن محى الدين يحيى بن فضل الله ابن يحيى بن عثمان ، القاضى شهاب الدين العمرى القدسى الأصل ، دمشقى المولد والمنشأ ، كاتب السر بالديار المصرية .[٥٢] وهو من أسرة تولت ديوان الانشاء بمصر على مدى قرن من الزمان تقريبا ، وهو مثال للمؤرخ الادارى ، حيث ورث عن أسرته العمل فى الدواوين ، وكتب فى الانشاء حين تولى والده كتابة سر دمشق ، وكان هو الذى يتولى قراءة بريد الناصر محمد بن قلاوون ، وتقلب العمرى فى عدة وظائف فى الجهاز الادارى لدولة سلاطين المماليك فقد عمل بالقضاء فترة من الزمان ، ثم خلف أباه فى رياسة ديوان الانشاء[٥٣] . ويبدو أنه كان أبداً مكابراً الأمر الذى جر عليه مصائب عديدة منها غضب السلطان عليه الامر الذى أدى إلى اعتقاله ومصادرته ، بل إلى قطع يده والزج به فى السجن .[٥٤] وقضى السنوات الاخيرة من عمره دون عمل حتى وافته المنية فى دمشق سنة ٧٤٩ هـ .[٥٥]

وعلى الرغم من أن شهاب الدين العمرى قد كتب عدة مؤلفات فى عدة أغراض تنوعت بين تقويم البلدان والتاريخ ، وشئون الادارة ، وتراجم الشعراء فى المشرق والمغرب خلال القرن الثامن الهجرى ، فإن مؤلفه الشامل المعروف باسم مسالك الابصار فى ممالك الامصار قد شمل معارف وعلوم عديدة . ومع أن عنوان هذا الكتاب يعطى أنطباعا بأنه من كتب الجغرافيا[٥٦] . وهو فى اربعة عشر جزءا وموضوعه كما يقول عنه العمرى نفسه : « وصف الارض وما اشتملت عليه برا وبحرا ، وهو قسمان أولهما – فى الأرض ، وثانيهما – فى سكان الارض ، والقسم الاول منهما نوعان اولهما المسالك ، وثانيهما الممالك ، أما المسالك ، ففيها وصف لمقدار الأرض وهيئتها وذكر

للأقاليم السبعة ، والبحار وما يتعلق بها ، وذكر للطرق ، وذكر للقبلة ، وكيف يستدل عليها الخ . وأما الممالك ففيها وصف لممالك الاسلام وحدها ، لم يتجاوز حدها « قائلا فى ذلك :» وأن كان فى العمر فسحة ، وفى الجسم صحة ، وللهمة نشاط ، وللنفس انبساط لاذيلن بممالك الكفار هذا التصنيف .. « وأما القسم الثانى من الكتاب فأنواع أو أبواب : منها باب فى المقارنة بين المشرق والمغرب ، وباب فى الديانات ، وباب فى طوائف المتدينين ، ثم باب فى التاريخ . أخ فيه للدول التى جاءت قبل الاسلام ، ثم للدول الكائنة فيه بالفعل ...)[٥٧] .. ويعتبر كتابة هذا موسوعة ، ودائرة معارف ، فهى تشتمل على كل مايهم طبقة الكتاب من أمور الدولة وان كان القسم التاريخى منها لم يقدم لنا شيئا جيداً .[٥٨] .

وترجع أهمية الكتاب التاريخية إلى أنه يضم معلومات فى الأدب والديانات والتاريخ والآثار فضلا عن المعلومات الوافرة المتعلقة بالحياة الاجتماعية ، والاقليات الدينية ، وعلاقتها الرسمية بالدولة . وعلى عادة كتاب تلك العصور نجد العلوم تمتزج بالآداب ، ولايغفل المؤلف فرصة لكى يورد لنا عدة أبيات من الشعر ، أو قطعة من النثر البليغ ، ومن الواضح أن موقع العمرى كواحد من رجال الإدارة المملوكية وعمله فى ديوان الإنشاء هو الذى حدا به إلى إختيار الموضوعات التى عالجها فى هذه الموسوعة التاريخية – الجغرافية الأدبية لكى تكون مرجعا عاما لمن يشتغل بالكتابة فى دواوين الدولة المملوكية .[٥٩] . فضلا على أنه يلقى كثيرا من الأضواء على كثير من جوانب الحياة فى العصر المملوكى الباكر .

والكتاب الثانى الهام للعمرى هو كتاب « التعريف بالمصطلح الشريف » والراجح أنه ألف هذا الكتاب فى الفترة الأخيرة من حياته ، والتى قضاها تحت وطأة التقاعد الاجبارى وفى هذا الكتاب وضع ثمار خبرته كواحد من كبار المسئولين فى الجهاز الادارى للدولة ، وقصد به أن يكون مرجعا فى كل ما يحتاج إليه من يعمل بالدواوين ويقول المؤلف أنه جعله .... لما يحتاج إليه فى ذلك الديوان المباشر ، ويكون له كالمعلم الحاضر والجليس المباصر ... » وعن مضمون الكتاب يقول العمرى « سميته بالمصطلح الشريف ، وجعلته سبعة أقسام : الأولى فى المكاتبات ، والثانى فى عادات العهود والتقاليد والتفاويض والتواقيع والمراسيم والمناشير ، والثالث فى نسخ الايمان ، والرابع فى الامانات والدفن والهدن والمواصفات والمفاسخات والخامس فى نطاق كل مملكة ، ماهو مضاف اليها من المدن والقلاع والرساتيق ، والسادس فى مراكز البريد والحمام ومراكز هجن الثلج ، والمراكب المسفرة فى البحار والمناور والمحرقات ، والسابع فى أوصاف ماتدعو الحاجة إلى وصفه ... »[٦٠] .. وبذلك ترك لنا مصدرا هاما لمعرفة صيغ المراسلات والالقاب ، فضلا عن النظم الادارية فى الشطر الأول من عصر سلاطين المماليك . وهكذا ترك لنا رجل الادارة المؤرخ معلومات تاريخية قيمة عن جوانب هامة من تاريخ دولة سلاطين المماليك .[٦١] .

أما كتبه الأخرى فمنها تذكرة الخاطر ، وحسن الوفا لمشاهير الخلفا ، والدعوة المستجابة ، ودمعة الباكى ويقظة الشاكى ، وذهبية العصر ، وسفرة السامر ويقظة المسافر ، وصبابة المشتاق فى المدائح

النبوية عليه السلام والتحية ، فواصل السمر فى فضائل آل عمر فى أربع مجلدات وكذلك له نفحة الروضة وغير ذلك .[٦٢] .

٣ - ابن سرور المقدسى « ت ٧٦٥ هـ/ ١٣٦٣ » .

هو الشيخ الحافظ المحدث جمال الدين أبو محمود احمد بن محمد بن ابراهيم بن هلال القدسى الخواص الشافعى ، درس بالمدرسة التنكزية بالقدس الشريف بعد وفاة العلائى ، وصف المصباح فى الجمع بين الاذكار والسلاح ، ومثير الغرام إلى زيارة القدس والشام ، وكان فراغه منه فى يوم الأربعاء الثالث والعشرين من شعبان سنة ٧٥٢ هـ بيت المقدس ويعتبر كتابة هذا ضمن كتب الفضائل حيث تحدث فيه عن فضائل بيت المقدس ، والاحاديث النبوية التى تتضمن ذلك ، ثم فتح القدس على يد عمر بن الخطاب ، وذكر بناء قبة الصخرة ، كما ذكر العجائب التى كانت فى بيت المقدس فى الزمن الأول ، ثم أسماء بيت المقدس ، وقبور الصحابة بها كما أورد عددا كبيرا من أحاديث المضاعفة ، سواء مضاعفة الحسنات أو السيئات ، والصلوات فى بيت المقدس وشد الرجال إلى المسجد الأقصى ، والحث على زيادة المدينة ، فضل الصدقة فيها كما تحدث عن الأنبياء الذين زاروها ، أو دفنوا بها منذ خلق الله آدم عليه السلام الى محمد ﷺ ، واختتم الكتاب بذكر فتح السلطان صلاح الدين الأيوبى للقدس ، وذكر بعض مشايخ القدس ، وهو من المخطوطات التى أتيحت لنا فرصة الاصلاع عليها فى دار الكتب المصرية أثناء الاعداد لهذه الدراسة ..[٦٣].

وكما هو واضح من هذا العرض ، يتضح لنا أن مؤلفة من نمط رجل الدين المؤرخ الذى يهتم بالنواحى الدينية اهتماما كبيرا ، وأثناء عرضه للموضوعات ذات الدلالة الدينية يتناول بالحديث بعض الأحداث المحلية ، وقد حذا حذوة أبو موسى المقدسى « ت ٧٧٦ هـ/ ١٩٧٤) والذى جمع تاريخا لبيت المقدس واهتم فيه بذكر الوفيات بشكل مختصر حتى قرب سنة وفاته حسبما يشير ابن حجر بذلك[٦٤] كذلك يذكر لنا مجير الدين تاج الدين التدمرى « ت ٨٣٣ هـ/ ١٤٢٩ م » خطيب مقام الخليل والذى صنف كتابا اسماه » مثير الغرام إلى زيارة الخليل عليه الصلاة والسلام وهو كتاب حسن فيه فوائد جليلة[٦٥] والواضح من التسمية أنه من كتب الفضائل أيضا ...

٤ - ابن حجر « ت ٨٥٦ هـ/ ١٤٥٢م » .

هو شهاب الدين احمد بن حجر العسقلانى الأصل ، المصرى المولد والمنشأ ، حقيقة أنه لاينتمى إلى بيت المقدس أصلا ولانشأة ، ولكن ابن حجر تردد عليها ، ودرس فيها حيث سمع على القلقشندى وبدر الدين ابن مكى ، ومحمد المنبجى ، ومحمد بن موسى وغيرهم[٦٦] ..

ويعد الامام ابن حجر العسقلانى من أبرز العلماء الذين عاشوا فى الفترة مابين اخريات القرن الثامن والنصف الأول من القرن التاسع الهجرى ، وهى فترة من احفل الفترات التاريخية بالعلماء ، وازخرها بالمدارس ودور الكتب ، فقد كان كوكب العلماء الساطع ، وشيخهم الأكبر ، وإمامهم غير مدافع بماتهيأ له من الذكاء والفطنة وماأمكنت له الحياة فى القاهرة ، وماأفاده من رحلاته فى

الحجاز واليمن والشام وما شغل به من رفيع المناصب وسنى المراتب .[٦٧]

وهو مثال عالم الدين المؤرخ ، حيث حبب إليه الحديث ، وانصرف إلى دراسته انصرافا كليا بالحجاز ومصر والشام واليمن ، حتى صار حجة عارفا بالعوالى والنوازل ، واشتهر ابن حجر فى عالم التدريس والفتيا ، وذاعت شهرة مؤلفاته الضخمة المتعددة فى الحديث والفقه والتراجم وأشهرها كتابة المسمى فتح البارى فى شرح البخارى ، وهو فى ثلاثة عشر مجلداً ، ولو لم يكن له غيرة من المؤلفات لكفى للتنويه بعلو كعبه ، على قول معاصرية ، والمنتفعين به من المحدثين حتى الوقت الحاضر وبلغ من شهرة هذا الكتاب أن السلطان شاه رخ بن تيمور لنك وغيره من ملوك البلاد الاسلامية بعثوا فى طلبه بسؤال علمائهم ، وأن نسخا منه بيعت بثلثمائة دينار[٦٨] .

ولقد شغل ابن ججر كثيرا من الوظائف الهامة فى عصر سلاطين المماليك ، وهى وظائف هيأت له السبيل للوقوف على ماجريات السياسة المملوكية ، ودخائلها آنذاك ومكنته من الاتصال المباشر بالمصادر الأولى لأحداث هذا العصر سواء أكانت هذه المصادر هى السلاطين أنفسهم أم كبار رجالات الدولة أم طلاب العلم أو الوثائق التى لم تتوفر كثيرا لمن عاصروه من المؤرخين[٦٩] . فمنذ عام ١٤٢٤/ ٨٢٨هـ ولى منصب قاضى القضاة الشافعية ، وهو أكبر مناصب القضاة وقتذاك ، ولصاحبة الأولية على سائر قضاة المذاهب لكون مذهب الشافعى هو المذهب الرسمى للدولة . وظل ابن حجر متقلدا لهذا المنصب مدة إحدى وعشرين سنة ، على أنه عزل عنه وأعيد إليه مرارا فى أثناء تلك الفترة الطويلة[٧٠] . وقد أتاح له هذا المنصب وغيره من المناصب التى تولاها فى التدريس فرصة الاحتكاك بكبار رجالات الدولة فى عصره ، فنراه يكثر من الاشارات عن روايتة عنه بعض السلاطين كالمؤيد شيخ والظاهر ططر ، وفى استعماله مكاتبات وتقارير لم ترد عند غيره من المؤرخين[٧١] وكذلك استطاع بفضل مكانته هذه أن يصور أحداثا فريدة فى حقيقتها مثل كشفه القناع عن محاولات فاشلة لمحاولة صليبية بين أراجون والحبشة فى زمن السلطان برسباى لسحق قوة مصر وتحويل مجرى النيل[٧٢] .

كان ابن حجر عالما من علماء الدين ، سواء من حيث دراسته وثقافته ، أو من حيث الوظائف التى تولاها . وكان نتاج هذه الحياة الحافلة مايزيد على مائة وخمسين مؤلفا تركز معظمها فى العلوم الدينية . وذاع صيته بين الناس وتداولوا مؤلفاته ومن المثير أن هذا العالم الدينى الورع كان شاعرا رقيقا كتب كثيرا من الشعر الجيد حتى قال عنه ابن تغرى بردى أنه « قاضى قضاه الديار المصرية وعالمها وحافظها وشاعرها[٧٣] » كما طبعت مؤلفاته بطابع الدقة وتحكيم العقل والمنطق ، فهو لايورد خبرا الا بعد أن يكون قد انتظمت عنده أسباب الدرلسة والبحث والتمحيص والتحقيق والمقارنة والتثبت والايضاح ، وإلا بعد أن يطبق عليه قواعد الجرح والتعديل .[٧٤] كما أن شغفه بالتراجم حمله على أن يفيض فيها بأكثر مما دون فى حوادث سنة بأكملها وله فضل فى أنه كتب الوفيات على ترتيب أبجدى ، وحذا حذوه فى ذلك تلميذاه السخاوى وابن الصيرفى وهو أول من ابتكر فكرة الكتاب الشامل لوفيات قرن بأكملة ، وهو صاحب فكرة تسمية تلك الكتب على عنوان القرون ، وإليه

يرجع الفضل فى العناية بتراجم الفاضلات المحدثات من النساء ، وكتابة الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة دليل واضح على ذلك[٧٥] .

ومن أهم مؤلفاته التاريخية « إنباء الغمر بأبناء العمر » وقد نشر هذا الكتاب فى ثلاثة أجزاء أستاذنا الدكتور حسن حبشى ، وهو كتاب يتناول تاريخ مصر والشام والدول التى تتاخمها والتى كانت لها بها علاقات أيا كانت صورة هذه العلاقات وكذلك تراجم الرجال والنساء الذين قدر لهم أن يموتوا فى الفترة التى يتناولها الكتاب من سنة ٧٧٣ هـ سنة مولد ابن حجر وحتى عام ٨٥٠ هـ أى قبل وفاته بعامين . ومن ثم كانت هذه الفترة شاملة للفترة الأخيرة من حكم السلطان شعبان ثم برقوق وفرج والمؤيد شيخ المحمودى وبرسباى وجزء من سلطنة جقمق ، ولم يقف فيها ابن حجر عند حد الأحداث السياسية ، بل تناول الأوضاع السياسية والاقتصادية والتجارية ، كما تضمن بعض قوة مصر . كذلك ألم بالأوضاع الاجتماعية للشعب المصرى ، ولم تفته الاشارة فى كثير من الأحيان إلى الأدب الشعبى ، إلا أنه خصص جزءا كبيرا منه لذكر الأدباء والفقهاء والقضاة ورجال الدين والمعتقدين وأصحاب الحرف وشهيرات النساء فى عالم العلم والقضاء ، كذلك كان ابن حجر من أصحاب الرحلة فى تتبع الأخبار فى أنحاء مصر والشام والحجاز واليمن ، ولقد أتاحت له هذه الأسفار مزيدا من الأخبار والتراجم التى لانجدها بهذه الوفرة عند غيره ممن عاصروه كالمقريزى والعينى وابن تغرى بردى[٧٦] .

أما كتابه الثانى فهو فى التراجم وهو الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة ، وهو سفر ضخم جمع فيه تراجم مشاهير القرن الثامن الهجرى وفقا لترتيب أبجدى . وفى هذا الكتاب ذكر أخبار أعيان العصر من الساسة والقادة العسكريين ، والعلماء والفقهاء والأدباء[٧٧] . والحقيقة أن كتابيه هذين من أهم المصادر التى أعتمدنا عليها فى دراستنا عن بيت المقدس فى ذلك العصر سواء من الناحية العلمية وما يتعلق منها بذكر كثير من العلماء ، أم عن نشاط الحياة العملية بها .

ومن علماء بيت المقدس الذين ألفوا فى التاريخ عن فترة بعينها أيضا ، محمد بن أبى حامد القدسى الشريف ، من علماء القرن التاسع الهجرى ، وترجع أهمية هذا المؤلف فى أن له مخطوطة بمعهد المخطوطات العربية تحت اسم « دول الاسلام الشريفة البهية وذكر ما ظهر لى من حكمة الله الخفية فى جلب طائفة الاتراك الى الديار المصرية » وهى عبارة عن مختصر فى تاريخ ملوك مصر والدول الاسلامية فى صدر الاسلام ألفه وأهداه إلى الأشرف يشبك الدوادارى[٧٨] ...

ومن علماء بيت المقدس أيضا الذين كتبوا فى التاريخ الشيخ شهاب الدين احمد بن محمد بن عمر الشافعى المشهور بابن روحة أبى عذيبة « ت ٨٥٦ هـ/ ١٤٦٢ م » فقد أعتنى بعلم التاريخ ، وكتب كتابين أحدهما مطولا والآخر مختصرا ، وقد وقف مجير الدين على معظم المختصر وهو مرتب على حروف المعجم ، إلا أن تاريخه الكبير لم يظهر بعد وفاته ، وقيل أنه لما توفى اطلع بعض الناس عليه فوجد أشياء فاحشة من ثلب أعراض الناس فأعدمه ، كذلك له مخطوطة فى مكتبة الخالدية بالقدس رآها الزركلى بنفسه بخط المؤلف تحت أسم « قصص الأنبياء » ويقول عن تاريخه المطول أنه كان سماه

« تاريخ دول الأعيان شرح قصيدة الجمان »[٧٩] ....

كذلك تجب الاشارة إلى ان ابن عبد الهادى المقدسى « ت ٨٧١ هـ/ ١٤٦٦ م » أحد علماء بيت المقدس ، له كتاب فى التاريخ سماه « الرياض اليانعة فى أعيان المائة السابعة وهو كما يبدو من اسمه أحد كتب التراجم ...[٨٠]

٥ – ابن شاهين « ت ٨٧٣ هـ/ ١٤٦٨ م :

هو خليل ابن شاهين الشيخى ، الصفوى ، الظاهرى ، غرس الدين ولد ببيت المقدس سنة ١٣٧٢ م ٧٧٤ هـ حيث عاش أبوه أميرا من أمراء المماليك فى تلك النيابة الشامية . وجاء ابن شاهين إلى القاهرة فى شبابة فدرس الحديث على ابن حجر ، غير أنه ترك ممارسة العلم ، والتحق بالفرقة المملوكية المسماة باسم فرقة أولاد الناس ، وهى الفرقة الخاصة بأبناء الأمراء من المماليك وسرعان مامضى ابن شاهين قدما فى طريق الوظائف ، حتى أنه جمع فى يده سنة ١٤٣٣ م وظيفة النائب والحاجب والمشد بالاسكندرية ويرجع بعض الفضل فى ذلك التعدد إلى أنه كان حما للسلطان برسباى وتقلب ابن شاهين بعد ذلك فى كثير من المناصب والنيابات بمصر والشام ، حتى إذا كانت سنة ١٤٤٨ م أنعم عليه السلطان جقمق برتبة أمير مائة مقدم ألف ، وهى أكبر الرتب الحربية فى دولة المماليك الأولى والثانية .

ومن الطبيعى أن تتحكم طبيعة عمله كأحد أفراد الجهاز الإدارى فى كتاباته ، وأن تستهوية الكتابة فى هذا المجال الذى يتعلق بالنظم الإدارية ، ويتضح هذا فى أهم مؤلفاته وهو كتابه المسمى زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ، والذى كتبه ابن شاهين فى مجلدين يضمان بين دفتيهما أربعين فصلا ، ثم أختصره فى مجلد واحد إلى أثنى عشر فصلا ، وذلك فى عصر السلطان جقمق . وهذا المختصر هو الذى بقى حتى الآن ، وفيه تناول المؤلف الدستور المملوكى ، وبين الوظائف الحربية والإدارية فى دولة المماليك الثانية التى تقلب فى وظائفها حتى قبيل وفاته بالقاهرة فى نوفمبر سنة ١٤٦٨ م .[٨١] هذا بالإضافة إلى أن مؤلفاته الأخرى قد بلغت الثلاثين .[٨٢] .

٦) مجير الدين الحنبلى « ت ٩٢٨ هـ/ ١٥٢١ م » .

هو مجير الدين أبو اليمن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن العمرى المقدسى العليمى الحنبلى ، ولد بالقدس وتوفى بها أيضا . وقد كان معاصرا للسلطان الأشرف قايتباى . وهو يندرج تحت عنوان عالم الدين المؤرخ ، حيث يستفاد من تاريخ حياته الذى رواه نفسه أنه تتلمذ على يد الشيخ تقى الدين القرقشندى « ت ٨٦٧ » وأنه كان على علاقة وطيدة مع علماء الدين فى بيت المقدس ، وكثيرا ، ما كان يلتقى بهم فى حلقات الدرس حيث يتناقش الجميع فى العلوم الدينية . كذلك إرتحل إلى القاهرة حيث قضى بها تسع سنوات فى الدراسة والتحصيل ، ثم عين قاضيا لمدينة الرملة سنة ٨٨٩ هـ / ١٤٨٤ م ثم قاضيا للقدس سنة ٨٩١ هـ/ .١٤٨٦ م ، واستمر كذلك إلى أن تقاعد عن العمل سنة ٩٢٢ هـ/ ١٥١٦ م أى قبل وفاته بست سنوات .[٨٣] .

ومن أهم مؤلفاته كتاب الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل الذى جمع فيه تواريخ المدينة من آدم إلى سنة ١٤٩٤ م ، وهو من أهم الكتب التى تناولت تاريخ مدينة القدس فى العهدين الأيوبى والمملوكى ، حيث بدأ كتابته فى ٢٥ ذى الحجة سنة ٩٠٠ هـ/ ١٤٩٤ م ، وانتهى منه فى ١٧ رمضان سنة ٩٠١/ ١٤٩٥ م ، ويذكر لنا فى مقدمة الكتاب الأسباب التى دعته لتأليفه بقولة « وأنما دعانى لذلك أن غالب بلاد الإسلام قد اعتنى بها الحفاظ وكتبوا ما يتعلق بتاريخها مما يفيد أخبارها الواقعة من الزمن السابق وبيت المقدس لم أطلع له على شيء من ذلك يختص به ، وانما ذكروا فى التواريخ أشياء فى أماكن منفرقة . ورأيت الأنفس متشوقة إلى شيء من هذا النمط الذى قصدت فعله ، فإن بعض العلماء كتب شيئا يتعلق بالفضائل فقط ، وبعضهم تعرض لذكر الفتح العمرى – وعمارة بنى آمية وبعضهم ذكر الفتح الصلاحى واقتصر عليه ولم يذكر ما وقع بعده وبعضهم كتب تاريخا تعرض فيه لذكر بعض جماعة من أعيان بيت المقدس مما ليس فيه كبير فائدة . فأحببت أن أجمع بين ذكر البناء والفضائل والفتوحات وتراجم الأعيان وذكر بعض الحوادث المشهورة ليكون تاريخا كاملا ...[٨٤] .

وقد قسم كتابه هذا إلى مواضيع مستقلة كالمدارس والمساجد والأسواق والكنائس والمزارات ، وضمن كل موضوع من هذه الموضوعات يتبع المؤلف الترتيب الحولى عند ذكره الحوادث السياسية المتعلقة بالموضوع ، وإذا كان مجير الدين يسرد الحوادث ذات الصبغة السياسية والاجتماعية والاقتصادية فى كتابه هذا ، فإن إهتمامه بها لايبدو أكبر من أهتمامه بالأحداث ذات الطابع الدينى ، أو المتصلة بنشاط الفقهاء ويتضح هذا من أن الجزء الأكبر من كتابة قد خصص لتراجم عدد ضخم من الفقهاء فى بيت المقدس ، وتوسع فى الحديث عن القضاة ومذاهبهم وتواريخ توليتهم وأعمالهم .[٨٥]

ومع هذا فيمكننا القو ل أننا وجدنا من بين ثنايا هذا الكتاب الكثير من الأخبار الاجتماعية ، والمعلومات الإدارية والسياسية الخاصة بمدينة بيت المقدس فى ذلك العصر ، والتى لم يتعرض لها أحد من المؤلفين قبلة .[٨٦]

كذلك له كتاب آخر فى التراجم تحت اسم المنهاج الأحمد فى تراجم أصحاب الإمام أحمد بن حنبل فى أربعة مجلدات ، وهو مخطوط بدار الكتب المصرية ، من هذا العرض الذى أوردنا فيه بعض النماذج لمؤرخى بيت المقدس ، يتضح لنا أن النشاط فى مجال التاريخ كان نشاطا متصل الحلقات ، وأن الكتابة التاريخية فى بيت المقدس شهدت تطورا ملحوظا فى ذلك العصر ، ونقصد بذلك أن تلك الفترة شهدت تحولا من كتابة التاريخ الموسوعى الشامل إلى الاهتمام بالتاريخ المحلى وهذا مايتضح لنا من كتابات مجير الدين ، والذى تميزت كتابته بعدم التصنع ونعنى بذلك أنه لم يكتب هذا التاريخ حبا فى استجلاب الرضا عند سلطان أو أمير مثلما كان الحال عند معظم مؤرخى ذلك العصر . كذلك لم تكن كتاباته ذيولا وتكملات لكتب سبقته زمنيا .

الرياضيات :

اما فى مجال العلوم العقلية والتجريبية فقد شهدت مدينة بيت المقدس نشاطا ملحوظا فى هذا

المجال ، وقد برع كثير من أبنائها فى هذا المضمار ، ومن ذلك أن عبد الرحمن بن محمد بن ابراهيم بن عبد الله بن أبى عمر المقدسى الخطيب شمس الدين أبو الفرج أبن العز الحنبلى الفرضى ، الذى ولد سنة ٦٩٨ هـ/ ١٢٩٩ م سمع من الحسن بن على الحلال وعيسى المغازى والتقى سليمان وغيرهم ، واشتغل بالعلم ومهر فى الفرائض وانتقع به الناس فيها وكان من الأخيار ، أقرأ بالجامع المظفرى مدة ومات فى جمادى الآخرة سنة ٧٧٣ هـ/ ١٣٧٢ م[٨٧] كذلك يحدثنا مجير الدين عن الشيخ الفاضل عثمان الحصنى الشافعى الفرضى كان من أهل الفضل ، وله يد طولى فى الفرائض ، وكان اشتغاله ببلاده فى جهة الشرق ، ثم استوطن القدس واشتغل عليه جماعة وانتفعوا به ، وكانت وفاته بعد الثمانين والثمانمائة بالقدس الشريف[٨٨] .

ومن علماء بيت المقدس فى الرياضيات أيضا الخليلى ت ٨٠٧ هـ/ ١٢٠٤ م وهو موسى بن محمد الخليلى ، شرف الدين ، كان أفضل من بقى بالشام فى علم الهيئة وله تآليف منها « تلخيص فى معرفة أوقات الصلاة وجهة القبلة عند عدم الآلات مخطوط « ورسالة فى الربع المشطر بعرض دمشق » ، مخطوط ، ورسالة فى الأسطرلاب ومعرفة الأوقات مخطوط[٨٩] .

كذلك من علماء الرياضيات الذين وفدوا إلى بيت المقدس وارتبط اسمهم بها شيخ الإسلام شهاب الدين أبو العباس أحمد بن عماد الدين بن على المصرى ثم المقدسى والمشهور بابن الهائم « ت ٨١٥ هـ/ ١٤١٢ م» وكان قد اشتغل بالقاهرة ومهر فى الفرائض والحساب ولما ولى القمنى تدريس الصلاحية أحضره إلى القدس واستنابه فى التدريس وصار من شيوخ المقادسة ، ثم استقل بتدريس الصلاحية وجمع ابن الهائم فى الفرائض والحساب تصانيف كثيرة ، يقول عنه ابن حجر « اجتمعت به بيت المقدس وسمعت من فوائده »[٩٠] .

ومن مؤلفاته التحفة القدسية منظومة فى الفرائض ، وترغيب الرائض فى علم الفرائض والحاوى فى الحساب ، وشرح الأرجوزة الياسمينية فى الجبر والمقابلة والفصول المهمة فى مواريث الأمة ، والمسمع شرح المقنع له فى علم الهيئة ، والمشرع فى شرح المقنع أيضا فى الجبر والمقابلة ، والمعونة فى حساب الهواء ، ونزهة النفوس فى بيان حكم التعامل بالفلوس[٩١] كذلك له مخطوطة أخرى بدار الكتب المصرية تحت عنوان « مرشدة الطالب إلى أسنى المطالب فى علم الحساب ، وقد قسمها الى مقدمة ضمنها عدة مسائل منها الاستدلال على العدد من حيث الأسماء والأشكال ، ثم تحدث فى الفصل الأول على مراتب العدد الوضعية وبيان الأصلية منها والفرعية ، وفى الفصل الثانى تحدث عن كيفية وضع الأشكال فى مراتبها وتبيين قراءتها لطالبها وتقسيم العدد إلى مفرد ومركب ، ثم فى الفصل الثالث فى معرفة أسس المكرر من وجهة اسمه ، والفصل الرابع فى العكس وهو معرفة الاسم من الأس ، ثم القسمة بأنواعها المختلفة ثم تحدث عن الكسور واستعمالاتها ومعرفة النسبة بين عددين ، ثم الطرح واستخراج المجهول . وفى كل عملية من هذه العمليات يورد كثيرا من الأمثلة المتنوعة التى تعين القارىء على الفهم ، وهى مخطوطة لاغنى عنها لدارس الرياضيات ، وإن دلت على شيء فهى تدل على غزارة معلومات مؤلفها ، ومدى ماوصل إليه علمه فى هذا المجال وهى من المخطوطات التى أتيحت لنا فرصة الاطلاع عليها أثناء الاعداد لهذا البحث[٩٢] .

كذلك وجدنا له مخطوطة أخرى بدار الكتب تحت اسم « اللمع » يقول فى مقدمتها « فهذه لمع يسيرة من علم الحساب يضطر إلى معرفتها من يريد الشروع فى الفرائض » وتحدث فيها أيضا عن الأعداد الأصلية وأنواعها ، وكذلك الأعداد الفرعية ثم تحدث عن عمليات الضرب والقسمة والكسور ، وجعل كل منها بابا ، والمخطوطة عبارة عن كراسة صغيرة تتكون من عشر ورقات(٩٣) وكذلك أتيحت لنا فرصة قراءة إحدى مؤلفاته وهى مخطوطة تحمل العنوان « إرشاد الطلاب إلى وسيلة الحساب » فيقول فيها أنه قسمها إلى مقدمة وثلاثة أقسام وخاتمة ، أما المقدمة ففيها مسائل أربع تشتمل على أسماء العدد وبيان أنواعة وأسوسه ومنازله وهى مراقبه ، ومعرفه نوع العدد من مرتبته والعكس وفى القسم الأول تحدث عن أعمال العدد الصحيح فى الضرب والقسمة كما تحدث عن ضرب العدد فى الأعداد المختلفة الصحيحة والمركبة ، وفى القسم الثانى تحدث عن القسمة بأنواعها ، سواء قسمة الأعداد الصحيحة أم الكسور ، وفى القسم الثالث تحدث عن الجذور واستخداماتها فى العمليات الحسابية المختلفة ، والمخطوط مكتوب بخط نسخ جميل ، واضح فيه دقة المؤلف وحسن ترتيبه .(٩٤)

ومن مؤلفاته أيضا التى أطلعنا عليها فى علم الحساب أو ما يمكن أن نطلق عليه حاليا ، إمساك الدفاتر المستخدمة فى عمليات البيع والشراء وفى البنوك والحسابات مخطوطة تحت اسم « المعونة » وقد ألفها لبعض الإخوان ، وقد تناول فيها عدة مسائل فى تعريف علم الحساب وموضوعه ، وأقسام العدد وكيفية التوصل إلى استخراج المجهولات ، ثم أسماء العدد ومراتبه ، وجميع العمليات الحسابية ومايهم كل المشتغلين بهذا العلم معرفته ، كذلك تناول استخدام الكسور ونواتج استخداماتها فى العمليات الحسابية وبيان ذلك كما عرض الأعداد المتناسبة وبعض الجداول الرياضية الخاصة بالمتواليات العددية كما تناول بالحديث المجسمات والمسطحات هذا بالاضافة الى كيفية حساب عمليات الليل والنهار ومسائل البريد ، ومسائل التلاقى ، وكيفية حساب الزكاة من الذهب والفضة ، ثم اختتم الكتاب بخواص بعض الأعداد ، وقد فرغ من كتابة هذا المخطوط فى ليلة الأربعاد رابع شعبان سنة إحدى وتسعين وسبعمائة(٩٥) .

ومن مؤلفاته أيضا التى طالعناها مخطوطة تحت اسم « المناسخات » ويتحدث فيها عن كيفية الفصل بين الورثة إذا تعدد مصادر إرثهم ، وقد كتب هذه المخطوطة بناء على سؤال بعض الطلبة له وهو يذكر ، أنه تعلم ذلك الفن من أستاذه أبى الحسن الحلاوى رحمه الله ولم ير ذلك مسطورا فى مصنف من قبل ، وقد بين فيه لطلبته كيفية الفصل فى المشكلات التى تعترضهم بإستخدام الجداول الرياضية ، حيث عرض عدة جداول لحالات مختلفة من الأشخاص وقام بحلها لهم ، وهى مخطوطة من عشرين ورقة دون فى كل منها كثيرا من الجداول الرياضية التى يمكن الاستعانة بها فى هذا الغرض(٩٦) ..

هذا وتجب الاشارة إلى أننا قصدنا فى الحديث عن ابن الهائم كأحد العلماء الذين ارتبط اسمهم بمدينة بيت المقدس ، وفى تحليل تلك المخطوطات لكى نستدل منها على أن ذلك العصر كان عصر ابتكار ولم يكن — كما يصفه بعض المؤرخين بأنه عصر جمود فكرى ، اقتصر فيه جهد العلماء على

مجرد النقل أو الشرح أو التلخيص – بل هو عصر ابتكار ونبوغ فكرى ، وأنه استمر كذلك حتى آواخر سنى عصر سلاطين المماليك ، حيث يحدثنا السيوطى عن اسماعيل بن ابراهيم بن محمد بن على بن شرف المقدسى الشافعى ، عماد الدين ، بن العلامة الأوحد ، الفرضى الحاسب ، أحد الأركان فى بلده . أخذ عليه شيخ السيوطى « المناوى » وبعض الأكابر ، ومات بيت المقدس سنة اثنين وخمسين وثمانمائة عن نحو سبعين سنة(٩٧) .

وأخيرا تجب الإشارة إلى وجود بعض علماء من أبناء الذمة ممن اشتغلوا بالعلوم العقلية من رياضة وفلك ، ودليل ذلك مايرويه لنا الرحالة اليهودى الأسبانى اسحاق بن شيلو سنة ١٣٣٣ ، فى حديثه عن اليهود فى القدس من أنه كان منهم من يشتغل بالفلك والرياضيات ولكن معظمهم كانوا يدرسون القانون(٩٨) .

ز – الطب :

فى مجال الحديث عن الطب فى مدينة بيت المقدس على عصر سلاطين المماليك لابد لنا أن نشير إلى أن دراسة الطب كانت امتداداً لنشاط مدرسة الطب فى العصر الأيوبى ، والتى كان يمثلها الطبيب يعقوب بن سقلاب « صقلان » الملكى المقدسى « ت ٦٢٦ هـ/ ١٢٢٧ م » كان مولده بالقدس الشريف ، وبه قرأ شيئا من الحكمة على تاودزى الفيلسوف الأنطاكى ، وأقام يعقوب فى القدس فى مباشرة البيمارستان الصلاحى إلى أن ملكه الملك المعظم بن الملك العادل أيوب فاختص به ، والذى يقول عنه ابن أبى أصيبعة « كان أعلم أهل زمانه بكتب جالينوس ، ومعرفتها والتحقيق لمعانيها والدراية لها ... فأما معالجات الحكيم يعقوب فإنها كانت فى الغاية من الجودة والنجح وذلك أنه كان يتحقق معرفة المرض أولا تحققا لامزيد عليه ثم يشرع فى مداواته بالقوانين التى ذكرها جالينوس مع تصرفه هو فيما يستعمله فى الوقت الحاضر . وكان شديد البحث واستقراء الأعراض بحيث أنه كان إذا انتقد مريضا لايزال يستقصى منه عرضا ومايشكوه مما يجده ، من مرض حالا حالا إلى أن لايترك عرضا يستدل به على تحقيق المرض إلا ويعتبره ، فكانت أبدا معالجاته لامزيد عليها فى الجودة .. واجتمع أيضا الحكيم يعقوب فى القدس بالشيخ أبى منصور النصرانى الطبيب ، واشتغل عليه وباشر معه أعمال صناعة الطب وانتفع به »(٩٩) كما قد خلفه من بعده ابنه سديد الدين أبو منصور والذى كان من أفاضل الأطباء وأعيان العلماء ، متميز فى علم صناعة الطب ، اشتغل على والده وعلى غيره بصناعة الطب ، وقرأ أيضا بالكرك على الامام شمس الدين الخسرو شافعى كثيرا من العلوم الحكمية ، وخدم الحكيم سديد الدين الملك الناصر صلاح الدين داود ابن الملك المعظم عيسى بن أبى أيوب إلى أن توفى(١٠٠)

ومن الأطباء المقادسة فى عصر سلاطين المماليك ، اسماعيل بن ابراهيم بن سليمان المقدسى ثم المصرى عماد الدين ، الذى اعتنى بالطب فمهر فيه وأخذه عن عماد الدين النابلسى وغيره ، وكان حسن المعالجة وسمع المعز الحرانى والمجد اين العديم والقطب القسطلانيى وغيرهم ، مات فى جمادى الآخرة سنة ٧٣١ هـ/ ١٣٣٠ م(١٠١) .

ومنهم أيضا محمد بن ابراهيم بن سليمان المقدسى الحكيم الفاضل صلاح الدين المعروف بابن البرهان الجرائحى أبوه – سمع الحديث من الدمياطى وعلى بن عيسى بن القيم وسمع البردة من ناظمها محمد بن سعيد البوصيرى قال عنه أبن رافع « حدث وكان فاضلا فى الطب خلف تركة ضخمة قيل أنها تقارب ثلثماية ألف درهم وقال الصفدى قرأ طرفا من العربية على ابن النحاس وقرأ الطب على العماد البابلستى ثم على ابن النفيس وكان فاضلا فى الطب مائلا إلى علم النجوم والكلام على طبائع الكواكب وأسرارها وقرأ فى آخر عمره على الأصبهانى كثيرا من الحكمة وسمع عليه كتاب الشفا لأبن سينا والشيخ يشرحة قال وكان فى ذهنة وقفة وكان إذا اجتمع هو وركن الدين ابن القويع لايقوم المذكور حتى يحمله ابن القويع ويمطيه ، توفى فى جمادى الأولى سنة ٧٤٣ هـ »[١٠٢] .

ومن الأطباء المقادسة أيضا فى ذلك العصر ، أحمد بن محمد بن عبد الله بن عمرو بن عوض المقدسى الأصل الصالحى العطار شهاب الدين ويعرف بابن المحتسب ، وكان أبوه يعرف بابن رقية ، ولد فى ذى الحجة سنة ٦٩٤ هـ ، وسمع من أبن الموازينى وعيسى المغارى والتقى سليمان ، وابن مشرف ، وعلى بن عبد الدائم وغيرهم ، وكان عطارا بالصالحية ويعرف طرفا من الطب ، ويحفظ حكايات ونوادر ، وكان عنده كتاب الأموال لابى عبيد إلا يسيرا منه ، وكان عنده أيضا مسند الشافعى والعلم للمروزى وأجزاء كثيرة ، مات فى شهر رجب سنة ٧٧٢ ق[١٠٣] .

ومن علماء القدس الذين اشتغلوا بالطب أيضا محمد بن حسن بن أحمد بن محمد الشمس أو عبد الله الكردية ثم المقدسى نزيل مكة ، ويعرف بابن الكردية ولد فى سنة إحدى وثمانية وسبعمائة ببلاد الأكراد ، وقدم مع أبويه ابن سبع إلى بيت المقدس ، فسمع به الصحيح من أبى الخير ابن العلائى ومن ابراهيم بن ابى محمود الشمس بن الديرى ، والزين عبد الرحمن بن محمد القلقشندى والشهاب ابن الهائم والشمس الهروى ، وغيرهم ، وأقام ببيت المقدس عشرين سنة ، ومات أبوه هناك فقدم بأمه إلى مكة فقطنها وصار يتردد منها إلى بيت المقدس ... كان مباركا منجمعا عن الناس وله معرفة بالطب مبالغا فى حب ابن عربى بحيث اقتنى جملة من كتبقه ، توفى ظهر يوم الثلاثاء عشرين شعبان سنة ٨٤٣ هـ[١٠٤] .

ومن المرجح أن تكون مدينة بيت المقدس قد عرفت نوعا من التخصص فى العلوم الطبية فى ذلك العصر ، من ذلك أننا نسمع فى أواخر عصر سلاطين المماليك عن أن جمال الدين يوسف بن احمد بن عبد الهادى المقدسى الحنبلى « ت سنة ٨٨٠ هـ » قد ترك لنا أحد مؤلفاته فى الطب تحت عنوان « الاتقان فى أدوية اللثة والأسنان » ولعل هذا دليل أيضا على وجود بعض الأطباء المتخصصين فى فروع الطب المختلفة فى ذلك العصر .[١٠٥]

وتجب الإشارة إلى أنه وجد بالقدس عدد من الأطباء من أبناء أهل الذمة كانوا يقومون بمعالجة أبناء طوائفهم المختلفة بالإضافة إلى المسلمين ، وليس أدل على ذلك مما يصفه لنا الرحالة اليهودى الأسبانى اسحاق هيلو فى سنة ١٣٣٣ م فى حديثه عن اليهود ، فى بيت المقدس من أن البعض منهم كان يشتغل بالطب[١٠٦] وكذلك يورد لنا الرحالة فابرى مايستدل منه على وجود بعض الأطباء لدى

طائفة الرهبان الفرنسيكان فى ديرهم فى جبل صهيون ، حيث يقومون بخدمة الحجاج المسيحين ، فيأخذون المرضى منهم إلى مستشفى داخل ديرهم الخاص بهم ، وقد رأى ذلك بنفسه عندما كان يقيم بينهم .[١٠٧] كذلك تؤكد لنا بعض المراجع أن أبناء طائفة الفرنسيكان كانوا يرسلون الأطباء من ديرهم الخاص بهم فى جبل صيهون للكشف على المرضى وأنهم كانوا يمدونهم بالأدوية التى يصفها هؤلاء الأطباء ، ولم يكن هذا العمل مقصورا على بيت المقدس وحدها ، بل شمل الأديرة الخاصة بهم فى كل الأرض المقدسة[١٠٨] كما تشير المراجع إلى أن ابناء الطوائف المسيحية المحلية كان لهم أطباء يعالجون المرضى داخل مؤسساتهم الدينية وبخاصة فى الأديرة فى الأرض المقدسة كلها[١٠٩]

من هذا العرض يتضح لنا أن مدينة بيت المقدس فى ذلك العصر كان لأبنائها مشاركة فى مجال العلوم الطبية المختلفة ، وأنها عرفت نوعا من التخصص فى مجال بعض العلوم الطبية والتى سبق وأشرنا إليها .

كذلك تجب الإشارة إلى أن علماء بيت المقدس كانت لهم مشاركة فى كثير من العلوم العقلية الأخرى ، ولم تقتصر جهودهم على العلوم الرياضية والطب فحسب، بل نسمع عن مشاركة بعضهم فى علوم الفلك والكواكب .[١١٠]

٢ – كثرة المؤسسات التعليمية :

تكاتفت العوامل التى سبق أن أشرنا إليها – من أمن واستقرار وثراء ونشاط الحياة العلمية – فى عصر سلاطين المماليك ليظهر أثرها فى كثير من المنشآت التعليمية والخيرية والإجتماعية فى مدينة بيت المقدس ، وكان للمؤسسات التعليمية حظ كبير من هذه الحركة ، إذ شيد سلاطين وأمراء المماليك منها فى القدس الكثير ، بل إن مجير الدين وهو معاصر – قد عدد لنا أكثر من أربعين مدرسة فى بيت المقدس ، وأكثر من عشرين زواية ، فضلا من مكاتب الأطفال والمساجد[١١١] وتشير بعض المراجع إلى أن المشاهد والترب اتخذت كمؤسسات تعليمية ، حيث رتب بها منشؤها المدرسين والطلبة ، مثال ذلك التربة الطازية التى تقع بجوار المسجد الأقصى من ناحية الغرب ، وقفها الأمير طاز المتوفى سنة ٧٦٣ هـ ونقش عليها « بسم الله الرحمن الرحيم » تربة العبد الفقير إلى الله تعالى المقر الأشرف السيفى طاز توفى رحمه الله سنة ثلاث وستين وسبعمائة[١١٣] وقد أطلق مجير الدين على هذه التربة لفظ المدرسة لاشتهارها بالتعليم ، وقد درس فيها جماعة من الشافعية أكثرهم من آل القلقشندى .[١١٤] ويمكننا أن نلحق بتلك المؤسسات التعليمية مجالس العلماء ورجال الأدب الذين أعتادوا أن يعقدوها فى منازلهم أو فى منازل الحكام أو فى أى مكان آخر ، وتأثير هذه المجالس فى تزويد المترددين عليها بأنواع العلوم والمعارف لايقل عن تأثير المؤسسات التعليمية ، وقد كثرت هذه المجالس فى عصر سلاطين المماليك حتى قيل أن كل أمير أعتاد أن يختار محدثا يذيع للناس الأحاديث النبوية فى منزلة ، أما مجالس الأدباء فأكثر من أن تحصى[١١٤] . ولنا أن نتصور ضخامة هذا العدد من المنشآت التعليمية وهو عدد كبير بلا أدنى شك بالنسبة لمدينة صغيرة كمدينة القدس ، وأن دل على شيىء فإنما يدل على مدى اتساع دائره النشاط العلمى فيها ، والذى تؤكده المصادر المعاصره[١١٥]

هذه هى أهم المؤسسات التعليمية فى بيت المقدس وهى كما ترى كثيرة العدد ، وتجعل الانسان منا يتساءل عن البواعث التى حملت أصحابها على إنشائها . والواقع أن هذه البواعث متعددة ، فمنها التقرب إلى الله ، وهذا الباعث كثيرا ما صرح به المنشئون فى كتاباتهم المنقوشة على مداخل تلك المؤسسات ، ومنها التقرب إلى الرعية وخاصة عندما يكون المنشىء بحاجة إلى مؤازرة الشعب له لتحقيق طموحه السياسى ، ولهذا نجد أن ما أنشأه الأمراء من تلك المؤسسات أكثر مما أنشأه السلاطين ، ومنها يأس الأمراء من بقاء ثروتهم بأيديهم وذلك لطبيعة نظام الحكم ولتعرضهم الدائم لفتك السلاطين بهم ، ومصادرة أموالهم ، فهم يضعون ثروتهم فى هذه المؤسسات العامة التى يصعب على السلطان مصادرتها ، ولهم مع ذلك أن يخصصوا لأنفسهم وذريتهم نصيبا من ريعها بأن يشترطوا ذلك فى كتاب الوقف ، ومنها تعصب المنشىء لمذهبه الفقهى دون أن يكون له اتجاه إلى دراسته ، فيبنى منشأة لاتباع ذلك المذهب وهذا من البواعث التى كانت قليلة فى ذلك العصر ، ولم تلاحظ إلا فى أفراد قليلين من الناس[١١٧] . كذلك يمكننا أن نفسر تلك الظاهرة فى ضوء ما سبق وأشرنا إليه من حرص حكام المماليك — وهم الغرباء بالنسبة للثقافة الإسلامية — على أن يظهروا بمظهر المتصلين والمشجعين للثقافة الإسلامية واللغة العربية ، ولاسيما بعد أن تم لهم تدعيم نفوذهم ، وتغلبوا على الأخطار الخارجية التى هددت دولتهم منذ نشأتها ، فضلاً عن أن السلاطين المتأخرين قد زاد حرصهم على هذا الجانب ، لكى يظلوا فى نظر معاصريهم فى درجة مساوية لأسلافهم بما أنشأوه من مدارس وزوايا وترب ، وأنهم ليسوا أقل منهم منزلة ، وليظلوا هم باستمرار حماة العقيدة الإسلامية كما أنهم حماة المسلمين ، هذا بالإضافة إلى أن تلك المؤسسات التعليمية — والتى سنتحدث عنها بالتفصيل — لم تكن كلها من إنشاء السلاطين والأمراء المماليك ، بل أسهم فى إنشائها القادرون من أهل الخير من رجال ونساء ، فأنشأوا منها عنوان الغيرة على العلم وبث الفضائل[١١٨] .

وقد وجدت تلك المؤسسات التعليمية فى نظام الأوقاف خير دعامة تشد أزرها وتمكنها من البقاء والإستمرار فى أداء رسالتها ، أو بعبارة أخرى فإن حياة كل من المدرسة والزاوية والمكتب والتربة والمسجد لم تكن رهناً بحياة مؤسسها ، حيث كان يوقف عليها من الأوقاف ما يضمن به لها الإستمرار فى أداء رسالتها عقب وفاته ، وهذه الأوقاف قد تكون أرضاً زراعية أو عقارات أو أسواق وحوانيت وحمامات تدر إيرادا ثابتاً ، ينفق منه على صيانتها ودفع مرتبات العاملين بها ، ومخصصات النازلين فيها ، وهذا ما سوف نلحظه من خلال دراسة الوثائق الخاصة بهذه الأوقاف المحبوسة على تلك المؤسسات التعليمية . وقد إخترنا على سبيل المثال ثلاث وثائق ، إحداها خاص بالأوقاف التى خصصت لإحدى المدارس ، وهى المدرسة الأشرفية نسبة للسلطان الأشرف قايتباى ، الأخرى خاصة بأحد منازل الصوفية وهى الخانقاه أو الزاوية الدويدارية نسبة إلى الأمير سنجر الدويدارى ، والثالثة خاصة بالأوقاف المحبوسة على أحد مكاتب الأطفال بمدينة القدس ، لنقف على ما كان يقوم به الوقف فى حياة كل منها من دور فعال ، كذلك لإعطاء فكرة عن بعض الوظائف التى وجدت بها والدارسين فيها .

أما فيما يتعلق بالمدرسة الأشرفية فيهمنا أن نشير أنه حدث عندما تولى الأمير حسن الظاهرى نظر

الحرمين الشريفين – القدس والخليل – فى أيام السلطان الملك الظاهر خشقدم أن شرع فى بناء مدرسة بجوار باب السلسلة برسم السلطان المذكور ، ولكن السلطان خشقدم لم يلبث أن توفى سنة ٨٧٢ هـ/١٤٦٧ م ، فمرت الدولة بفترة قلقة انتهت بقيام السلطان الأشرف قايتباى فى الحكم « ٨٧٢ هـ/١٤٦٨ م – ٩٠١ هـ/١٤٩٦ » ، وعندئذ تقدم الأمير حسن الظاهرى إلى السلطان قايتباى يسأله قبول المدرسة الجديدة لتحظى برعايته ، وتتمكن من أداء رسالتها . وكان أن قبلها السلطان الأشرف قايتباى ، فنسبت إليه وعرفت باسم المدرسة الأشرفية ، ورتب لها شيخاً وصوفية وفقهاء وصرف لهم المعاليم ، ووقف عليها الأوقاف . وتعتبر الحجة الشرعية الخاصة بالأوقاف التى أوقفها السلطان قايتباى على مدرسته بالقدس والجامع بغزة على جانب كبير من الأهمية ، وهى محفوظة بأرشيف وزارة الأوقاف بالقاهرة تحت رقم ٨٨٧ ، ومؤرخة فى الحادى والعشرين من شهر شوال سنة إحدى وثمانين وثمانمائة للهجرة ، والتى قام بنشرها أستاذنا الدكتور عبد اللطيف ابراهيم سنة ١٩٥٩ م فى بحث تقدم به للمؤتمر الثالث للآثار فى البلاد العربية ثم فى القاهرة سنة ١٩٦١ م ، وترجع أهميتها إلى إنها تكاد تكون الوثيقة الوحيدة التى عثرنا عليها من عصر سلاطين المماليك والتى تنصب بكاملها على منشآت أقامها أحد السلاطين المماليك بفلسطين(١١٩) .

ويهمنا من هذه الوثيقة أنها بعد أن عينت لنا حدود المدرسة الأشرفية من مختلف الجهات ، تذكر الأراضى والعقارات التى وقفها السلطان قايتباى لينفق من إيرادها عليها ، حيث تذكر الوثيقة عدة أجزاء من قرى كثيرة منتشرة فى فلسطين فى كل من الخليل وغزة ولدوبيت جبريل ونابلس والرملة ، وبعض المبانى فى غزة مثل الخان والحمام وبعض الحوانيت ومعصرتين ودور طواحين وفرن واصطبل وأشجار كروم وغيرها مختلفة الأجناس والثمار برمل غزة(١٢٠) .

ثم توضح بعد ذلك الوظائف الخاصة بتلك المدرسة ، ومرتب كل منها وأبواب الصرف من ريع الوقف وذلك بالدراهم فى كل شهر . فناظر الوقف كان يخصص له ستمائة درهما شهريا ، وشيخ المدرسة وهو الذى كان يقوم بأعباء الإمام والمدرس وقارىء الحديث فى نفس الوقت ، كان يخصص له خمسمائة وعشرة دراهم شهريا ، ونصت الوثيقة على أن يقيم بالمدرسة ستون صوفيا يصرف لهم تسعمائه درهم شهريا ، لكل منهم خمسة عشر درهما ، وعشرة طلاب يصرف لهم أربعمائة وخمسون درهما شهريا لكل منهم خمسة وأربعون درهما ، ثم تذكر الوثيقة ماكان يجب أن يتم من توسعة على النازلين بالمدرسة فى شهور رجب وشعبان ورمضان من كل عام ، حيث خصص لتلك التوسعة ألفى درهم ، ثم خصص لقارىء الحديث ثلاثون درهما شهريا ، وكذلك مفرق الربعة الشريفة وهو نفسه خازن الكتب بالمدرسة ويخصص له عشر دراهم شهريا ، ثم تذكر الوثيقة البواب والمزملاتى والفراش والوقاد ولكل منهم ستون درهما شهريا ، ثم كاتب غيبة الصوفية وله عشر دراهم ، والمباشر وله أربعون درهما شهريا ، ثم بعد ذلك ما يخصص من أجل ثمن زيت للاضاءه ستون درهما شهريا ، وثمن الحصر والقناديل والأباريق مائه درهم ، ثم يلى ذلك الشاد والجابى (١٢١) ولكل منهما مائة درهم شهريا ، هذا إلى جانب ماتذكره الوثيقة من نصيب كل من هؤلاء من الخبز كل يوم(١٢٢) فاذا تبقى بعد ذلك شىء من ريع الوقف ، فإنه على الناظر أن يصرفه فى وجوه البر والقربات والأجر والمثوبات

ثم للفقراء والمساكين أينما كانوا وحيثما وجدوا(١٢٣) .

على أنه حدث عندما حضر السلطان الأشرف قايتباى بعد ذلك لزيارة القدس فان المدرسة لم تعجبه ، فأمر بهدمها وتوسيعها وتجديدها وشرع فى ذلك سنة ٨٨٥ هـ/ ١٤٨٠م ، وسير السلطان لهذا الغرض إلى القدس الشريف من القاهرة جماعة من المعمارية والمهندسين والحجارين ، ولما كانت سنة ٨٨٧ هـ/ ١٤٨٢ م اكتملت المدرسة ، وافتتحت سنة ٨٩٠ هـ/ ١٤٨٥ م . ويبدو أن عملية التجديد صحبها توسيعها وزيادة حجم نشاطها ، والاكثار من القائمين بها وعليها ، من طلاب العلم ورجال الدين والموظفين ، الأمر الذى تطلب زيادة الأوقاف المحبوسة عليها حتى تتمكن من الوفاء بالتزاماتها الجديدة ، لذلك حررت وثيقة وقف ثانية ، دونت فى ظهر الوثيقة الأولى ، وتحمل تاريخ سنة ٨٩٥ هـ ، تضمنت زيادة كبيرة سواء فى عدد المعينين للدراسة أو فى مخصصاتهم .(١٢٤)

من هذا العرض السريع عن وثيقة السلطان الأشرف قايتباى والتى خصصها لمدرسته وللجامع فى غزة تتضح لنا أهمية الأوقاف فى حياة المدرسة كاحدى المؤسسات التعليمية فى بيت المقدس فى ذلك العصر ، ومنه يتضح لنا أيضا أن تلك الأوقاف وفرت للمدرسة موردا دائما سواء فى حياة واقفها أو بعد مماته بما يضمن لها الاستمرار فى أداء رسالتها التعليمية ، فضلا عن أن المبالغ التى خصصها من ريع الوقف سواء بالنسبة للقائمين عليها أو النازلين بها – إذا قارناها بمستويات الأسعار فى ذلك العصر والتى لاشك أنها كانت منخفضة جدا بالنسبة لعصرنا الحالى – لوجدنا أن المبالغ التى خصصت لكل منهم كانت كفيلة بأن تهيىء له مستوى معقولا من المعيشة بالإضافة إلى ماكان يصرف لكل منهم من الخبز واللحم والكسوة فى المناسبات .

أما فيما يختص بالخانقاه أو الزواية الدوادارية ، وهى التى عرفت فيما بعد باسم المدرسة الدوادارية والتى تقع عند مدخل الباب المعروف بباب الدوادارية أحد أبواب المسجد الأقصى .(١٢٥) فقد نشر كل من Wiet, Van Berchem نص حجة الوقف الخاصة بها على النحو التالى « بسملة .. أمر بانشاء هذه الخانقاه المباركة المسماه بدار الصالحين العبد الفقير إلى الله تعالى عبد الله بن عبد ربه ابن عبد البارى سنجر الدوادارى الصالحى ووقفها ابتغاء وجه الله تعالى على ثلاثين نفرا من الطائفة الصوفية من العرب والعجم منهم عشرون نفرا عزابا وعشرة مزوجون مقيمون بها لايظعنون عنهل صيفا ولاشتاء ولاربيعا ولاخريفا إلا لحاجة وعلى ضيافة من يرد إليها من الصوفية والمتصوفة مدة عشرة أيام ووقف عليها قرية بير (هكذا) نبالا من القدس الشريف وقرية حجلا من أريحاوفرن وطاحون وعلوهما بالقدس ودار ومصبنة وست حوانيت ووراقة بنابلس وثلاث بساتين وثلاث حوانيت وأربع طواحين ببيسان ووقف ذلك على هذه الخانقاه وعلى تدريس مذهب الشافعى وعلى شيخ يسمع الحديث النبوى وقارىء يقرأ عليه وعلى عشر نفر يسمعون الحديث وعشر نفر يتلون كتاب الله كل يوم ختمه وعلى مادح ينشد مدح النبى كل ذلك بالجامع الأقصى وذلك فى مستهل سنة خمس وتسعين وستمائة بتولية الفقير إلى الله سنجر القيمرى عفا الله عنه ومن جملة وقف هذه الخانقاه المباركة ووظائفها المذكورة قرية طبرس من فاقون وحمام الملكة من نابلس المحروسة . عمل المعلم على

بن سلامة المهندس »[١٢٦]

كذلك نشر Van Berchem نص وثيقة وقف على أحد مكاتب تعليم الأطفال فى مدينة بيت المقدس جاء فيها (بسملة .. رحم الله من ترحم على الفقير الذى بنا هذه البقعة المباركة وجعلها مكتبا على أولاد المسلمين عامة لتعليم القرآن فيها وقف عليها الدار المعروف بدار أبى نعامة تحت القبو مقابل باب المسجد الأقصى عمره الله تعالى ويكون أجرته تصرف به إلى المعلم والدار فى يده لأجرة تعلم الأيتام والمساكين وما فضل من عمارة المكتب والدار وإشعال القنديل تحت القبو والماء للصبيان لغسل الألواح والشرب بشرط أن يكون المعلم من أهل الدين والصلاح وهذا وقفا مؤبدا مخلدا لايغير ولايبدل .»[١٢٦] .

هذا ويؤيد لنا مجير الدين أنه وقع على ورقة بها أسماء الحنابلة بالقدس الشريف « وأن قاضى القضاه علاء الدين العسقلانى الحنبلى قاضى دمشق عين لهم معلوما يصرف لهم من وقف المرحوم شمس الدين محمد بن معمر رحمه الله تعالى بشرط ملازمة الاشتغال والاجتماع فى الأيام المعتادة للدرس بالمسجد الأقصى الشريف عمره الله بذكره تاريخ الورقة المذكورة فى العشر الأوسط من شهر رمضان قدره سنة ثلاث وسبعين وسبعمائه »[١٢٧] . وفى هذا خير دليل على أن نظام الأوقاف الذى اتسعت دائرته فى عصر سلاطين المماليك ، ساعد كثيرا من المؤسسات التعليمية على النهوض برسالتها فى بيت المقدس . واستمرت هذه الأوقاف تؤدى رسالتها طالما احترمت ولم تمتد إليها أيدى الطامعين ، فلما كان القرن العاشر الهجرى/ السادس عشر الميلادى ، وقعت المنطقة كلها تحت سيطرة العثمانيين وسطا أكلة الأوقاف عليها فلم تجد معظم المدارس خاصة والمؤسسات الدينية والخيرية عامة ما يكفل لها البقاء والاستمرار ، وتعطل كثير منها عما كان وقف عليه من التدريس والملازمة .[١٢٨]

ويجب أن نشير إلى أن دور الأوقاف فى المؤسسات التعليمية لم يقتصر على مجرد أنها المورد المالى لتلك المؤسسات ، بل تعدى الأمر ذلك إلى كافة جوانب العملية التعليمية ، حيث كانت وثيقة الوقف بمثابة اللائحة التنفيذية والأساسية للمؤسسة والتى تضم الأسس التى ينبغى أن تراعى فى العملية التعليمية ، كذلك الشروط التى يجب أن تتوافر فى القائمين بالتدريس وطلبة العلم ، ومواعيد الدراسة ، وما إلى ذلك من التنظيمات الإدارية والمالية .[١٢٦] .

أنواع التعليم :

فى بداية حديثنا عن التعليم فى بيت المقدس على عصر سلاطين المماليك يجب أن نؤكد على حقيقة هامة هى أن التعليم فيها ، لم يختلف عنه فى أية مدينة إسلامية أخرى فى المشرق[١٣٠] كما بقى التعليم فى مرحلتين هما مرحلة التعليم العام فى سنوات الطفولة والمراهقة وحتى سن العشرين أحيانا ، ثم المرحلة الثانيه وهى التى تشبه إلى حد بعيد مرحلة التعليم العالى الحديث . وقد تطلب هذا النوع من التعليم أنواعا مختلفة من المؤسسات التعليمية ، وهى الكتاب أو المكتب الذى أقتصر التعليم فيه على دراسة المرحلة الأولى ، ثم المسجد والمدرسة والزواية والخانقاه والرباط والقبة والبيمارستان وهذه المؤسسات

الأخيرة خاصة بدارسة المرحلة الثانية .(١٣١) .

وجدير بالملاحظة أيضا أن تعليم الأطفال وبخاصة الصبية منهم كثيرا ما كان يتم داخل إحدى المدارس ، ويؤكد لنا مجير الدين ذلك فى حديثه عن الشيخ شمس الدين البسطامى « ت ٨٧٥ هـ/ ١٤٧٠ م » من أنه كان يحفظ القرآن ويقرىء - الأطفال بالمدرسة الطازية ، كذلك فى حديثه عن شمس الدين محمد بن غضية « ت ٨٨٠ هـ/ ١٤٧٥ م » أنه كان يؤدب الأطفال بالجوهرية .(١٣٢) ويؤكد لنا الرحالة فابرى الذى زار القدس أواخر القرن الخامس عشر ذلك بقولة : بينما كنت مرة نازلا من جبل صهيون فى طريقى إلى الكنيسة للصلاة ، سمعت أولادا يقرأون بصوت مرتفع ، فاقتربت من باب المدرسة ونظرت إليهم ، فرأيت صبيانا جالسين على الأرض فى صفوف ، وكانوا يرددون مجتمعين نفس الكلمات بصوت عال ، ويهزون رؤوسهم للأمام والخلف ، وقد استطعت أن أحفظ الكلمات التى رددوها مع موسيقاها . وهى أول مايعلمون صبيانهم لأنها أصل عقيدتهم » .(١٣٣) كما تشير بعض المصادر إلى أن زوايا بيت المقدس كان معظمها أماكن لتعليم الأطفال فى العصر المملوكى ، حيث كان يقصدها هؤلاء الصغار وبخاصة الأيتام لحفظ القرآن على أيدى المؤدبين بها .(١٣٤) كذلك يجب أن نشير إلى أن الأطفال كانوا يتلقون تعليمهم أيضا داخل المسجد الأقصى فى مكان خصص لهم لهذا الغرض ، ويؤكد لنا مجير الدين ذلك فى حديثه عن الشيخ عمر بن اسماعيل الحنفى مؤدب الأطفال « ت ٨٨٠ هـ/ ١٤٧٥ م » من أنه كان يؤدب الأطفال بالمسجد الأقصى بالمكان المجاور لجامع المغاربة من جهة القبلة .(١٣٥)

وليس معنى هذا أنه لم تكن هناك مكاتب لتعليم الأطفال ، فإضافه إلى ما سبق وأشرنا من وجود مكتب للأطفال ، يذكر لنا مجير الدين ما يفيد تعدد تلك المكاتب فى حديثه عن نفسه وعن شيخه الفقيه علاء الدين على المعروف بابن قاموا « ت ٨٩٠ هـ/ ١٤٨٥ م » حيث يروى لنا أن هذا الشيخ أقام بالقدس وأدب الأطفال به وسمع الحديث ، وقد قرأ عليه مجير الدين بمكتب باب الناظر ، الذى سمى بذلك لوقوعه بجوار باب الناظر أحد أبواب المسجد الأقصى .(١٣٦) كذلك نراه يذكر لنا مكتب التربة الطازية التى أنشاها الأمير طاز المتوفى سنة ٧٦٣ هـ .(١٣٧)بالإضافة إلى مكتب المدرسة الجوهرية التى أنشاها الأمير جوهر زمام الادر الشريفة سنة ٨٤٤ هـ .(١٣٨)

والمكاتب « هى ماعرفت مؤخرا باسم الكتاتيب » وكانت تقوم مقام مدارس المرحلة الأولى فى وقتنا الحاضر حيث يبدأ الصبى بها حياته العلمية ، مع ملاحظة أن مهمتها الأساسية كانت تحفيظ القرآن الكريم بالإضافة إلى تعليم الأطفال القراءة والكتابة .(١٣٩) ومن المرجح أن تكون مدينة بيت المقدس قد عرفت نوعين من المكاتب ، النوع الأول المكاتب التى يرسل الآباء إليها أولادهم ليتعلموا مقابل دفع أجرة تعليم إلى صاحب المكتب ، ويمكن أن يسمى هذا النوع جوازا المكاتب الخاصة ، وهى تشبهه المدارس الخاصة حاليا من حيث مبدأ دفع أجرة التعليم .(١٤٠) والنوع الثانى - المكاتب التى أنشئت بهدف تعليم الأيتام والفقراء علاوة على صرف « المعاليم » النقدية والعينية لهم ولمؤدبهم من الأموال الموقوفة عليهم ويسير العمل فى هذه المكاتب وفوق شروط ونظام الواقف التى ربما تختلف

من واقف لآخر . وعن هذا النوع وردت إشارة لدى ابن فضل الله العمرى فى حديثه عن الأمير تنكز نائب الشام فى عصر السلطان الناصر محمد بن قلاوون والذى بنى عام ٧١٠ هـ/ ١٣١٠ م مدرسة جليلة إلى جوار الرباط المنصورى قلاوون ، وبأعلاها خانقاه مشرفة وبحضرتها مكتب أيتام(١٤١) هذا إلى جانب ما سبق أن أشرنا من مكتب الأيتام الذى نشر حجة وقفه فان بيرشام فى الصفحات السابقة بما يؤكد وجود هذا النوع الأخير .

وقد اشترطت كتب المعاصرين أن تكون تلك المكاتب « فى أماكن ظاهرة لايخفى المكتب فيها عن نظر المارة فى الطريق ، وألا يكون موضع المكتب فى أحد الشوارع التى يغلب على ساكنيها أهل الذمة ، ويستحسن أن يكون بالسوق أن إمكن ذلك فإن تعذر فعلى شوارع المسلمين أو فى الدكاكين ، ويكره أن يكون بموضع ليس بمسلوك للناس فإن الصبيان يسرع إليهم القيل والقال ، فإذا كان بالسوق وعلى الطريق أو فى الدكاكين ذهب عنهم ذلك ، وفيه فائدة أخرى عظيمة وهى إظهار الشعائر لأنه أجلها »(١٤٢) .

واشترطت المصادر المعاصرة فى مؤدب الأطفال عدة شروط منها أن يكون صحيح العقيدة ، « واول ما يتعين على الآباء الفحص عن عقيدة معلم أبنائهم قبل البحث عن دينه ، لأن كثيرا من الصبية ينشأون وعقيدتهم فاسدة لأن فقيهم كان كذلك .(١٤٣) كذلك أشترط فيه أن يكون مزوجا منعا لسوء الظن به ، فالغالب إسراع سوء الظن ، هذا الزمان بمن كان غير متأهل .. فإذا كان متأهلا انسد باب الكلام والوقيعة فيه . وينبغى أن لايضحك مع الصبيان ولايباسطهم لئلا يفضى ذلك إلى الوقوع فى عرضه وعرضهم وإلى زوال حرمته عندهم إذ أن من شأن المؤدب أن تكون حرمته قائمة على الصبيان ..(١٤٤) كذلك لم يكن يسمح لعازب بأن يفتح مكتباً لتعليم الأطفال إلا أن يكون شيخا وقد اشتهر بالدين والخير ، ومع ذلك لايؤذن له بالتعليم إلا بتزكية ، وثبوت أهليته لذلك ، كما اشترط عليه ألا يستخدم أحد الصبيان فى حوائجه ، وأشغاله التى فيها عار على آبائهم ، كنقل التراب والزبل ، وحمل الحجارة وغير ذلك ، ولايرسلة إلى داره وهى خالية لئلا يتطرق إليه التهمة .(١٤٥)

وفى معاملتة لأطفال المكتب فقد أشترطت كتب المعاصرين على المؤدب ألايفرق بين أبناء الأغنياء والفقراء فى المعاملة ، وأن يتولى تعليمهم بنفسه إن أمكنه ذلك ، فإن لم يمكنه ذلك فلا يغفل عنهم لحظة خوفا من وقوع بعض المفاسد ، وأن يكون الصبيان عنده بمنزلة واحدة ، لايميز بعضهم على بعض ، كذلك لايسمح لهم بأن يحضروا معهم الأطعمة أو النقود لأن من هذا الباب ينكسر خاطر الصغير الفقير منهم والضعيف لما يرى من جدة غيره ، كما لاينبغى به ألا يدع أحدا من الباعة يقف على باب المكتب ليبيع للصبيان خوفا مما قد يقع من ذلك من مفاسد .(١٤٦)

أما عن التعليم داخل مكاتب الأطفال فقد كان يلحق بها الأطفال من سن الرابعة وحتى العاشرة ، وبداخل المكتب يجلس الأطفال حول مؤدبهم على حصير مفروش على الأرض ، كما كانت فى حوائط بعض المكاتب كتبيات « دواليب » توضع فيها المصاحف والأقلام والألواح والدوى .(١٤٧) وكان الهدف الأساسى من التعليم داخل المكتب هو تعليم آداب الدين ، إلى جانب القرآن الكريم الذى كان

يعلم تلقينا حفظا له عن التحريف والتصحيف[١٤٨] كذلك كان على الأطفال أن يتعلموا فى سن مبكرة قواعد الوضوء والصلاة وقواعد الاسلام الخمس ، كذلك يحفظون بعض الحكم والأمثال ، وبعض أبيات من الشعر عن طريق التكرار مع زملائهم وبطريقة غنائية خشية النسيان .[١٤٩] كما كان الخط العربى من المواد الأساسية التى تدرس للأطفال فى مكاتبهم ، وكان المؤدب يقوم بهذه المهمة بنفسه غالبا ، وأحيانا كان يعهد بذلك إلى « مكتب » يعلم الخط المنسوب ولعله كان يصرف لهؤلاء الأطفال فى المكتب الأقلام والمداد والألواح والدوى التى كانت تشترى من ريع الوقف ، ولعله وجد فى كل مكتب من هذه المكاتب ما يسمى بالعريف وهو الذى يتولى وظيفة العرافة ، وهو الموجة لعشرة أنفار غالبا ، وكان العريف – مساعداً للمؤدب . فهو من جملة الأطفال بالمكتب ويستمر فيه ولو كان بالغا – وكان يعين المؤدب فى عمله بالمكتب ، ويقوم مقامه أثناء غيبته ، ويساعده فى تعليم الأطفال[١٥٠] .

ولم يكن تعليم الأطفال قاصرا على تحفيظ القرآن وبعض الأحاديث وبعض أبيات من الشعر ، إلى جانب تعليم القراءة والكتابة والخط ، بل اشترطت بعض كتب المعاصرين أنه ينبغى على كل طفل من أطفال المكتب « أن يعود أن لايبصق فى المجالس ولايتمخط بحضرة غيره ولايضع رجلا على رجل ولايضرب بكفه تحت ذقنه ولايستدبر غيره ولايغمز رأسه بساعده فإن ذلك دليل الكسل ويعلم كيفية الجلوس ويمنع اليمين رأسا صدقها وكذبها حتى لايتعود فى الصغر . ويمنع أن يبتدىء بالكلام ويعود أن لايتكلم إلا جوابا وأن يحسن الاستماع مهما تكلم غيره ممن هو أكبر منه سنا ويوسع لمن هو فوقه المكان .. ويمنع من لغو الكلام وفحشه وعن اللعب والشتم ومن مخالطة من يجرى على لسانه شىء من الفواحش فإن ذلك يسرى لامحالة من القرناء السوء . وينبغى أن يعلم طاعة الوالدين ومعلمه ومؤدبة وكل من هو أكبر منه سنا .. ويعلم كل ما يحتاج إليه من حدود الشرع ويخوف من السرقة وأكل الحرام ومن الكذب والخيانة والفحش ...[١٥١] ومن هذا يتضح لنا أن دور المكتب لم يكن قاصرا على تعليم القراءة والكتابة وحفظ القرآن ، بل تعداه إلى كثير من الآداب العامة التى يجب على الصغار تعلمها منذ نعومة أظافرهم ، وبهذا كانت مهمة المكتب على جانب كبير من الأهمية .

كذلك كان للمكتب ومؤدب الأطفال دور فى الرعاية الصحية للأطفال ، فإذا اشتكى أحد الأطفال من مرض أو ألم فكان على المؤدب بعد أن يتحقق من صدقه أن يصرفه حتى يتمكن أهله من علاجه ، وفى نفس الوقت حماية لباقى الأطفال من العدوى . هذا بالإضافة إلى الرعاية التى كان يوليها لهم فى غدوهم ورواحهم حيث يتسعين فى ذلك بأحد الأشخاص والذى كان يطلق عليه لفظ « سائق » وكان يختاره حسب مواصفات خاصة بحيث يكون أمينا ثقة متزوجا .[١٥٢]

كذلك كان من سلطات مؤدب الأطفال أن يعاقب من أهمل منهم ، أو من أرتكب خطأ يستحق عليه العقاب ، لكنه اشترط أن يترفق بهم ولايضربهم إلا على إساءة الأدب والفحش من الكلام ، وغير ذلك من الأفعال الخارجة عن قانون – الشرع ، كما كان عليه ألا يضرب صبيا بعصا غليظة تكسر العظم ولا رقيقة لاتؤلم الجسم بل تكون وسطا ، وأن يتخذ مجلدا عريض السير ويعتمد بضربه

على الالايا والأفخاذ وأسافل الرجلين ، لأن هذه المواضع لايخشى منها مرض ولاغائلة .[١٥٣]

أما عن أيام الدراسة فى المكتب فإنها غير محدودة ، فقد نصت كتب المعاصرين على أنه يجب أن تكون هناك أيام للبطالة ، أما عدد الأيام هذه فيبدو وأنه كان متروكا لرأى المؤدب صاحب المكتب ، من ذلك ما يؤكده ابن الحاج بقوله « وانصراف الصبيان واستراحتهم يومين فى الجمعة لابأس به وكذلك انصرافهم قبل العيد بيومين أو ثلاثة وكذلك بعده بل ذلك مستحب بقوله عليه الصلاة والسلام روحوا القلوب ساعة بعد ساعة فإذا استراحوا يومين فى الجمعة نشطوا لباقيها »[١٥٤] — كذلك لعل الأيام التى كان يكثر فيها المطر كانت ضمن الأيام التى تعطل فيها المكاتب ، أوبسبب الأعذار مثل المرض أو الجمع والمواسم والأعياد ، كما كانت الدراسة تنتهى أحيانا عند الظهر فى يومى الثلاثاء والخميس من كل أسبوع .[١٥٥] . كذلك لم تكن هناك مدة محددة يجب أن يقضيها الطفل فى المكتب ، اذ يرجع هذا إلى استعداد الطفل وميوله وقابليته للتعليم ، فقد يستطيع البعض ختم القرآن وله تسع سنين ، وقد يستمر ، البعض الآخر فى المكتب إلى سن المراهقة .[١٥٦]

أما عن المكاتب الخاصة بأهل الذمة وبخاصة المسيحيين من أبناء بيت المقدس ، فالحقيقة أن المصادر والمراجع التى تحدثت عن بيت المقدس لم تشر إلى ذلك ، ولكن من المرجح أنهم لم يختلفوا عن غيرهم فى البلدان الأخرى والتى خضعت لحكم سلاطين المماليك ، حيث كانت لهم مكاتبهم الخاصة لتعليم أبنائهم ، وكانت هذه المكاتب شبه مشتركة يمكن لأطفال المسلمين دخولها والدراسة بها ، أما عن البرنامج الدراسى الخاص بهذه المكاتب فإن المعلومات المتاحة غير كافية ، ولكن يبدو أنها أيضا كانت لتعليم الصبيان أصول دينهم ، وربما كانوا يحفظون فيها كتابهم المقدس ، بالإضافة إلى تعلم القراءة والكتابة والحساب[١٥٨] .

أما عن تعليم الأطفال عند اليهود فمن المرجح أنه كانت لديهم أيضا مكاتب لتعليم الأطفال حيث كانت التعاليم الدينية لديهم تحتم عليهم إرسال أطفالهم ليتعلموا من سن الخامسة أو السابعة وحتى سن الثانية عشر والثالثة عشر ، وفى تلك المكاتب كان يتم تعليم الأطفال القراءة والكتابة ، وفهم وحفظ قوانين التوراة شفهيا تمهيدا لدراسة التوراة ، وقد كان التعليم فى هذه المكاتب يتم مقابل أن — يدفع الأهالى أجور المؤدبين الذين يقومون بتعليم أطفالهم ، أما بالنسبة لأبناء الفقراء فكانت جماعة اليهود كلها تشارك فى دفع تكاليف تعليمهم ، ويبدو أن مكاتب الأطفال هذه لم تكن تختلف كثيرا عن مكاتب الأطفال عند المسلمين إلا من حيث مواد الدراسة ، فقد كان يجلس الأطفال على الأرض أيضا حول معلمهم ، حيث يقوم بتعليمهم القراءة أولا ، عن طريق تعلم شكل الحروف وتكرار الأصوات التى تمثلها ثم تكرار الكلمات[١٥٩] كذلك اهتموا فى تعليمهم بتدريس كثير من الأقوال المأثورة لرجال دينهم وذلك لتخليد هؤلاء الرجال ولتخليد هؤلاء الرجال ولتخليد أقوالهم أيضا ، هذا بالإضافة إلى جانب تدريسهم لكثير من الحكم ، إلى جانب الاهتمام بمبادىء العقيدة اليهودية والعبادات الخاصة بها ، وكانت مكاتب الأطفال هذه ملحقة بالكنيس الخاص بهم ، وكانت التعاليم الدينية لديهم تحتم على الأب أن يتكفل بتعليم أطفاله حتى ينتهوا من تلك المرحلة ، أى بوصولهم إلى

سن الثانيه عشر ، وبعد ذلك يمكن للأب أن يستعين بأبنائه فى حرفته .(١٦٠) أما عن اللغة المستخدمة فى ذلك التعليم فقد كانت هى اللغة العربية ، وأحيانا يكتبونها بحروف عبرية .(١٦١)

من هذا العرض عن مكاتب الأطفال ودورها فى تعليم الأطفال ، فى مدينة بيت المقدس على عصر سلاطين المماليك ، يتضح لنا أن تلك المكاتب لم تختلف فى مهمتها باختلاف أبناء بيت المقدس دينيا ، وأنها كانت متشابهة إلى حد كبير ، سواء بالنسبة للسن التى يقبل فيها الأطفال على الدخول فى تلك المكاتب ، أم من حيث طبيعة المواد الدراسية التى كانت تدرس فيها وهى المبادىء الأساسية للعلوم الدينية ، وتعليم الأطفال المبادىء والعقائد الدينية ، وإعدادهم للدراسة الأرحب عندما يكبرون ، فضلا عن غرس القيم والمثل والأخلاق الفاضلة فى نفوس النشىء كذلك يمكننا أن نلاحظ أن كل طائفة من الطوائف كانت تتيح لأطفالها حق التعليم ويشهد على ذلك الأوقاف الخاصة بالمسلمين على مكاتب الأيتام ، وكذلك ما كان يتبع عند أهل الذمة من تكفلهم بنفقات تعليم الفقراء والمحتاجين واليتامى .

أما عن التعليم فى المدارس وهو ما يمكن أن نطلق عليه التعليم العالى ، فحيث لم تكن هناك مدارس ثانوية فى ذلك العصر ، فقد كان على الطالب أن يتلقى علومه على أيدى أحد المدرسين إما فى المسجد الأقصى ، حيث يقوم بالتدريس فيه كبار مشاهير العلماء ورجال الدين فى ذلك الوقت ، والذين قاموا بتدريس العلوم الدينية من فقه وحديث وأصول وقراءات ووعظ ، بالإضافة إلى العلوم اللغوية من لغة عربية ونحو وصرف .(١٦٢) وكانت الدراسة فى المسجد الأقصى على هيئة ما يمكن أن يطلق عليه نظام المحاضرات ، حيث يجتمع الطلبة حول أحد الأساتذه مكونين نصف دائرة أو حلقه ، حيث يملى مادته أو يشرحها بطريقته الخاصة ، ويدون الطلبة ملاحظاتهم ويسألون الأسئلة ويقوم هو أو مساعده بالاجابة عليها عقب انتهاء الدرس ، وقد تزداد أعداد الطالبة أو تقل بحسب شهرة المدرس أو تمكنه من المادة التى يقوم بتدريسها .(١٦٣)

أما عن التعليم فى المدارس فإنه سار وفق ماهو معروف من نظم تعليمية فى البلدان الاسلامية فى ذلك الوقت ، من حيث كونه لم يكن خاضعا لنظم ثابته أو يجرى داخل مؤسسات رسمية ، فضلا عن أنه كانت هناك علاقة وطيدة بين المدرس – وطلابه ، والتى تعد من أفضل الملامح الرئيسية فى التعليم الاسلامى ، بالإضافة إلى أن الذاكرة كانت على جانب كبير من الأهمية ، فكان على الطالب أن يتذكر الملاحظات التى تملى عليه ، فضلا عن أنه أتيح للطلاب فرصة وحرية اختيار الموضوعات التى يدرسونها ، وحرية التنقل من مدرسة لأخرى لجمع المعلومات على أكبر عدد من العلماء .(١٦٤)

هذا بالإضافة إلى أنه وجد نوع من التعليم العالى عن طريق الملازمة ، حيث يعيش الطالب ملازما لمدة طويلة لأستاذه بحيث يكتسب فيها معظم تعاليم أستاذه وأحيانا كان الطالب يدفع لأستاذه مبلغا من المال نظير أتعابه ، وأحيانا بكون بمثابة تابع له يقوم بتنفيذ كل ما يطلبه منه من نسخ بعض المخطوطات ، أو مساعدته فى بعض شئونه حتى يصبح هو نفسه عالما ، وأحيانا يقضى معظم عمره مع هذا الأستاذ وقد يتزوج ابنته ، ويصبح خليفته ، ومثال ذلك مايروية لنا مجير الدين عن الشيخ

تقى الدين القرقشندى أحد علماء « بيت المقدس » « ت ٧٧٨ هـ » والذى يعتبر مؤسس عائلة القرقشندى فى بيت المقدس – كما سبق وأشرنا لذلك – فقد لازم شيخه الشيخ العلائى خليل بن كيكلدى « ت ٧٦١ هـ » وعينه معيدا بالمدرسة الصلاحية ثم تزوج ابنته ، كذلك مايروية لنا ابن حجر فى حديثه عن الشيخ محمد بن محمود بن اسحق بن احمد المقدسى « ت ٧٧٦ هـ » من أنه لازم ابن الشيخ علاء الدين خليل بن كيكلدى السابق ذكره ،.وأن هذا الأخير قد لازم البرهان الفزارى .[١٦٥] وكان فى استطاعة الطالب أن يدرس على العديد من المدرسين ، يتعلم اللغة من واحد والقرآن من آخر ، والحديث من ثالث ، وبذلك لم يكن الطالب يخصص نفسه لعلم واحد أو لفرع واحد من فروع المعرفة .[١٦٦]

وليس معنى هذا أنه لم يكن هناك تخصص فى بعض العلوم ، لكننا نستطيع القول أن ذلك التخصص كان يأتى فى مرحلة لاحقة ، حيث يظهر نبوغ الطالب فى علم من العلوم ، أو قد تجذبه شخصية من الشخصيات البارزة فى الميدان العلمى والتى تميزت بتقواها وصلاحها وبعلمها الغزير وتمكنها فى المادة التى تخصصت فيها ، أو فى الكتاب التى تعرضت لدرسه وشرحه ، فيسير بعض الطلبة على نهجها ، أو أن تكون لدى الطالب الرغبة الخاصة أو التشغف بتلك الدراسة للوقوف على أسرارها والتعمق فيها .[١٦٧]

وهكذا يستطيع الطالب أن يحصل على عدة إجازات من عدد من المشايخ الذين تلقى عليهم دراسته ، ولازمهم فى فترة من الفترات المختلفة فى حياته ، تلك الاجازات التى كانت تتيح لصاحبها فرصة الاعادة أو التدريس أو الافتاء أو تولى إحدى الوظائف الخاصة بأرباب الأقلام .[١٦٨] .

كذلك كانت هناك حلقات للتدريس داخل كثير من زوايا بيت المقدس فى ذلك العصر ، ذلك أن جماعة الصوفية كانوا يكونون فيما بينهم إحدى المدارس حيث يتوفر لأفرادها داخل زاويتهم الطعام والكساء والمأوى لأبناء طائفتهم ، فضلا عن تخصص بعض تلك الزوايا فى دراسة بعينها[١٦٩] من ذلك مايرويه لنا مجير الدين فى حديثه عن المدرسه الناصريه التى تخصصت فى دراسة علوم القرآن والنحو ، وكان بها كثير من الكتب التى تخدم هذا الغرض ، والتى ظلت فترة كبيرة من العصر المملوكى تؤدى تلك الوظيفة[١٧٠] وجدير بالذكر أنه حدث فى بيت المقدس فى عصر سلاطين المماليك تشابه بين وظيفة المدرسة ووظيفة الزاوية ، من ذلك مانسمعه من أن الامير حسام الدين أبو محمد الحسن بن ناصر الدين ابن جمال الدين عبد الله الشهير بالكشكلى الحنفى ناظر الحرمين ونائب السلطنة « ت ٧٤٢ هـ » والذى عمر المدرسة الحسنية المعروفة به بباب الناظر ووقف عليها أوقافا ورتب فيها وظائف من التصوف وغيره ، وكانت عمارتها فى سنة سبع وثلاثين ولعله بهذا العمل أراد أن يؤكد لنا أن الكثيرين اعتبروا بيت الطلبة خانقاه أى بيت للصوفية ، واعتبر الطلبة أنفسهم صوفيه يقومون بوظيفة التصوف مع طلب العلم بنفس المدرسة . أو بعبارة أخرى ليس هناك فارق بين الطلبة داخل المدارس والصوفية داخل بيوتهم فكلهم طلبه علم ، هذا فضلا عما نلاحظه من أنه لم يكن هناك فارق كبيرين وظيفة كل من المدرسة والزواية على الأقل فى أواخر عصر سلاطين المماليك ، وهذا مايؤكده لنا مجير الدين وهو معاصر لتلك الفترة فى حديثه عن المدرسة الأشرفية التى

كانت قد بنيت برسم السلطان الظاهر خشقدم – وكما سبق القول – وتوفى قبل اكتمالها حيث يقول * وكانت عمارتها على هيئة عمائر مدارس القدس ليس فيها كبير أمر فإنها كانت تشتمل على مجمع وطارقة وخلوة للشيخ على ظهر رواق المسجد ويقابل ذلك من جهة الغرب ساحة على ظهر ايوان المدرسة البلدية وفيها بعض الخلاوى ...[١٧١] وحتى عندما لم تعجب السلطان الأشرف قايتباى وأمر بهدمها وإعادة بنائها فقد أشتمل مبناها الجديد على الخلاوى وخصص لها عددا من الصوفية كما سبقت الإشارة بذلك ، والفارق الوحيد الذى نسمع عنه بين الزواية والمدرسة أن بعض المدارس كانت مخصصة لمذهب معين من المذاهب ، ومن خلال ما ذكره لنا مجير الدين يتأكد لنا أن المدرسة كانت زاوية أو خانقاه بالفعل وفى هذا تأكيد لدورها التعليمى ، حيث كان الطلبة هم أنفسهم الصوفية النازلون فيها ، وشيخ الصوفية هو المدرس الذى تولى التدريس والامامة فى الصلاة إلى جانب مشيخة المدرسة وقراءة الحديث كما سبقت الاشارة بذلك فى حديثنا عن وثيقة الوقف الخاصة بالمدرسة الأشرفية السالفة لذكر . وجدير بالذكر أيضا أن كثيرا من الزوايا قد درست معالمها ، وبعضها لم يبق منه أى أثر سوى بعض بناء مهدم[١٧٢] .

ولعل هذا راجع فى المقام الأول إلى صغر حجمها بالنسبة للمدارس ، وقلة الأوقاف المحبوسة عليها ، أو تسلط اكلة الاوقاف عليها أو تعطل ماكان وقف عليها للتدريس و الملازمة أو لاتخاذها سكنا .[١٧٣] .

اما عن المدارس كمؤسسات تعليمية ، فمن المعروف أن المدرسة أقيمت فى العصر المملوكى لتؤدى وظيفة تعليمية ، وبالرغم من ذلك فقد أقيمت بها الشعائر الدينية ، وأتخذت كمساجد تقام فيها الصلوات المفروضة ، وصلاة الجمعة والعيدين ، وبذلك كانت أقرب ما يكون بالمسجد إلا أنها تميزت عن المسجد بمساكن الطلبة التى كانت عادة ما تلحق بالمدرسة ليعيش فيها الطلاب والمدرسون ، كذلك جرت العادة أن يكون بها مدفن واقفها حتى ولوتوفى بمدينة غير مدينة بيت المقدس[١٧٤] هذا وقد حرص كثير من الواقفين على الدفن بمدارسهم التى بنوها لكى يحظوا بثواب قراءة القرآن والفاتحة على أرواحهم من الطلبة والصوفية حيث كان ينص على ذلك فى شروط الوقف[١٧٥] .

هذا وتجب الإشارة إلى أن الدراسة فى مدارس بيت المقدس على عصر سلاطين المماليك اختلفت فيما بينها ، باختلاف المذاهب التى أنشئت لتدريسها ، وباختلاف الهدف الذى أقيمت من أجله المدرسة ، حيث كانت هناك مدارس للشافعية ، وأخرى للحنفية والحنابلة والمالكية ، يدرس فى كل منها الفقه على المذهب الخاص بها ، ويضيق بنا المقام عن ذكر كل هذه المدارس ، حيث سبقت الإشارة إلى أن مجير الدين – وهو معاصر – قد ذكر فى كتابه الأنس الجليل أكثر من أربعين مدرسة للمذاهب المختلفة ، لكن يهمنا هنا أن نذكر أن اختلاف هذه المدارس مذهبيا ، قد أدى ، إلى تجميع مسائل الخلاف بين تلك المذاهب فى دراسات خاصة ، عرفت باسم « علم الخلاف » وقد برع فيها كثير من علماء ذلك العصر[١٧٦] . وبصرف النظر عن اختلاف الدراسة الفقهية فى تلك المدارس

لاختلاف المذاهب ، فقد تركزت الدراسة فيها أيضا حول علوم الحديث والقرآن واللغة العربية من نحو وصرف ، فضلا عن تدريس القراءات والوعظ ، والعلوم الرياضية[١٧٧] .

هذا بالإضافة إلى أن بعض المدارس كانت مخصصة لتدريس علم بذاته ، مثل دار الحديث وهى مدرسة بجوار التربة الجالقية من جهة الغرب ، واقفها الأمير شرف الدين عيسى بن بدر الدين الهكارى ، وتاريخ وقفها فى الخامس والعشرين من رجب سنة ست وستين وستمائه ، وكذلك دار القرآن السلامية تجاه دار الحديث ، واقفها سراج الدين عمر ابن أبى بكر أبى القاسم السلامى ، وتاريخ وقفها فى العشرين من ربيع الآخر سنة إحدى وستن وسبعمائة[١٧٨] .

ومما يلفت النظر حقا فى مدارس بيت المقدس فى ذلك العصر أنها كلها تركزت فى مكان واحد حول الحرم الشريف أو بداخله ، من ذلك على سبيل المثال لا الحصر – المدرسة الفارسية بداخل المسجد الأقصى ، والمدرسة النحوية على طرف صحن الصخرة من جهة القبلة إلى الغرب ، والمدرسة الناصرية على برج باب الرحمة ، والمدرسة التنكزية ولها مجمع راكب على الأورقة الغربية فى المسجد الأقصى ، والمدرسة البلدية بباب السكينة بجوار باب السلسلة ، وبجوارها المدرسة الأشرفية داخل المسجد الأقصى بالقرب من باب السلسلة ، والمدرسة العثمانية بباب المتوضأ ، والمدرسة الخاتونية بباب الحديد ، والمدرسة الأرغونية بباب الحديد أحد أبواب المسجد الأقصى ، والذى كان يعرف قديما بباب أرغون ، والمدرسة الجوهرية بباب الحديد ، والمدرسة الدويداريه بباب شرف الأنبياء وهى التى سمى باب المسجد بسببها باب الدويدارية[١٧٩] .

ولعل السبب فى تركيز تلك المؤسسات التعليمية فى تلك المنطقة راجع إلى طبيعة المدينة الدينية بما حوته من أديان مختلفة ، وحرص سلاطين وأمراء المماليك وكذلك أهل الخير على أن يجعلوا من تلك مجمعا إسلاميا ضخما بما يشتمل عليه الحرم الشريف وتلك المؤسسات فضلا عن تركز المسلمين فى تلك المنطقة . هذا ويشير أحد الباحثين إلى أن تلك المعاهد العلمية ، وإن كان بعضها قد اندثر فى زمن المماليك وأصبح بيوتا استولت عليها بعض العائلات المقدسية أو الأوقاف الاسلامية فى العصر العثمانى ، إلا أنها لاتزال أثارا ناطقة يجدر الاعتناء بها وإصلاحها وإعادتها إلى حالتها الأولى .[١٨٠] هذا ويشير باحث آخر إلى أن عدد الباقى من مدارس بيت المقدس التى بنيت فى العصر المملوكى بالنسبة لما بقى من نوعه فى دمشق وحلب أكثر ولايعلل ذلك إلا أن أرباب العدوان على الوقوف والأحباس لم يتيسر لهم أن يتسلطوا عليها وكان لهم من عناية غير المسلمين بمدارسه م ودياراتهم فى القدس عبرة وعظة .[١٨١]

كما تجدر الاشارة أيضا إلى أن مدينة بيت المقدس فى ذلك العصر ، عرفت كذلك نوعا من المدارس التى تدرس فيها المذاهب الأربعة والتى لم تخصص لتدريس مذهب واحد ، ولذلك راعى بناة المدارس اختيار الشكل الذى يتناسب مع طبيعة تلك المدرسة ، والمواد التى ستدرس فيها ، فكانوا يفضلون لهذا النوع من المدارس أن تكون على شكل إيوانات متعامدة ومتقابلة لكل مذهب من المذاهب الأربعة مكان مستقل عن أماكن المذاهب الأخرى ، ومثال ذلك النوع هو المدرسة التنكزية

التى أنشأها الأمير تنكز نائب دمشق سنة ٧٢٩ هـ ، والتى تقع بباب السلسلة ملاصقة لسور المسجد الأقصى الغربى من الداخل[١٨٢] إلا أننا نرجح أن هذا التوع من المدارس كان قليلا بالنسبة لكثرة عدد المدارس التى خصصت كل منها لمذهب من المذاهب .

أما عن مكونات بناء المدرسة فى بيت المقدس فى ذلك العصر ، فمن الواضح أنها لم تختلف كثيرا عن المدارس التى وجدت فى كثير من المدن التى خضعت لحكم سلاطين المماليك من حيث كونها تشتمل على كل ما يحتاجه الطلبة والصوفية فيها من مرافق ، حيث وجد بها مطبخ وبيت طهارة ، ومكان للصلاة ، وإيونات متعامدة متقابلة وفى كل إيوان عدد من الشبابيك التى تسمح بدخول الضوء الكافى حيث يجلس الطلبة فى حلقات التدريس لتلقى دروسهم المختلفة ، بالإضافة إلى الخلاوى الخاصة بالطلبة وشيخ المدرسة .[١٨٣]

وبالنسبة لمقررات الدراسة ، فالحقيقة أننا لم نعثر فيما بين أيدينا من مصادر ومراجع سوى على إشارة واحدة فى وثيقة الوقف الخاصة بالمدرسة الدوادارية والتى سبقت الإشارة إليها ، وقد حدد فيها الواقف المكان الذى تلقى فيه الدروس والمواد التى يجب أن تدرس وهى تدريس الفقة على المذهب الشافعى وتدريس الحديث النبوى . ولعل ما ينطبق على تلك المدرسة قد إنطبق على غيرها من المدارس الأخرى . أما عن مواعيد الدراسة فقد ورد فى نفس الوثيقة أن الطلبة المقيمين بها لايظعنون عنها صيفا ولاشتاء ولا ربيعا ولاخريفا إلا لحاجة ، بما يفيد استمرار الدراسة ، هذا اذا استثنينا من ذلك العطلات الرسمية كالأعياد والمناسبات وغير ذلك من الأعذار مثل السفر للحج[١٨٤] .

وكقاعدة عامة فإن فصول الدراسة كانت كما هو معروف تعقد ما بين الصباح الباكر ومنتصف النهار ، كذلك كانت تعقد الفصول ما بين الظهر وصلاة المغرب ، وبعدها تعطى فترة للراحة والأكل ، وكثير من الطلبة كانوا يفضلون الحضور عند مدرسيهم بعد صلاة المغرب ، وأثناء الليالى الباردة .[١٨٥]

لقد حرص السلاطين والأمراء المماليك وغيرهم على اختيار المدرس الذى سيقوم بالتدريس فى المدرسة التى بناها كل منهم[١٨٦] ذلك أن مركز المدرس والذى يعتبر أستاذ المادة ، كان يفوق مركز المدرسة ، ولأن الطلاب كانوا يرتحلون إليه بالذات أينما حل ، ويحصلون منه على الإجازات العلمية ، وقد ينص فى وثيقة الوقف على أن يكون المدرس أفقه الفقهاء فى مذهبه ، وقد يكون نفسه هو الناظر على المدرسة والذى كان من اختصاصة الإشراف على المدرسة والأوقاف المحبوسة عليها وعلى حساباتها ، وعليه أن ينفذ وصية الواقف[١٨٧] وكان يعاون المدرس فى مهمته المعيد والذى يشغل وظيفة الإعادة للطلبة لكى يزدادوا فهما ويحسنوا ما شرحه لهم المدرس . أو يعيد عليهم نقيب الطلبة[١٨٨] كذلك كان عليه أن يحضر الدروس التى يكلفة بها المدرس ليقرأها على الطلبة أثناء الدرس .[١٨٩]هذا يؤكد لنا مجير الدين أن – بعض المعيدين كان على درجة كبيرة من العلم وسرعان ماتميز واشتغل عليه الطلبة فصار من أعيان بيت المقدس[١٩٠] كذلك يؤكد لنا نفس المصدر بأنه كان هناك عدد من المعيدين داخل كل مدرسة[١٩١] .

كما وجدت عدة وظائف داخل المدرسة مثل مفرق الربعة الشريفة وهو نفسه خازن الكتب ، وكانت مهمته تفريق المصاحف الشريفة على الطلبة للقراءة فيها ثم جمعها وكذلك المحافظة على مكتبة المدرسة وما بها من كتب وكذلك كاتب الغيبة والذى يقوم بعملية حصر الغياب والحضور بالنسبة للطلبة . هذا إلى جانب الوقاد والمزملاتى وهذه الوظائف سبق وأشرنا إليها فى حديثنا عن وثيقة الوقف الخاصة بالمدرسة الأشرفية . ولعله وجدت وظيفة البوابة ، حيث كانت مهمة البواب حفظ الحواصل بالمدرسة ومابها من فرش وقناديل وزيت وآلات ، والذى كان عليه أن يلازم الباب ويفتحه عند اللزوم ويغلقه عند الاستغناء عنه فى الأوقات المعهود ذلك فيها ، ولاينفصل عنه إلا بعذر ويستخلف مكانه زمن غيبته ، ويمنع المرتاب فيهم ، أو من يكثر الدخول لغير حاجة أو من يريد الإقامة بالمدرسة فى غير عادة ، كما كان عليه منع أرباب التهم والفساد من دخول المدرسة أو من يقصد الدخول بنعله أو من يتوقع منه أى أذى أو تشويش على المصليين ، وتشترط بعض الوثائق سكنى البواب بالمدرسة والا سقط من وظيفته[١٩٢] .

أما مهمة الفراش ، فكان عليه أن يقوم بكنس المدرسة وربما قبة الواقف ومسح المدرسة وفرشها وفض مابها من الآلات وتعمير القناديل ، وكان يشترط فيه أن يكون من أهل الخير والصلاح ساكنا بها .[١٩٣]

ولم يهمل مؤسسوا المدارس الرعاية الطبية الشاملة للمدرسين والطلبة ومن معهم من أصحاب الوظائف بالمدرسة ، سواء كانوا من المقيمين بها أو المقيمين خارجها . على أن هذه الرعاية لم تشمل كل المدارس ، ولكنها وجدت فى المدارس الكبيرة ، حيث كان يخصص ناظر الوقف رجلين أحدهما عارف بالطب خبير بمعالجة الأبدان ، والثانى عارف بصناعة الكحل على أن يحضر كل منهما كل يوم إلى المدرسة لمباشرة المرضى من القائمين بالمدرسة أو الذين يعملون بها .[١٩٤]

وأخيرا تنبغى الاشارة إلى أن التعليم عند المسيحيين قد أزدهر نظراً لكثرة الكنائس والأديرة الخاصة بهم ، والتى يعددها مجير الدين بأنها كانت تزيد على العشرين .[١٩٥] وهو عدد لاشك كبير بالنسبة لحجم المدينة ، فضلا عما لها من دور تعليمى ، حيث يفد إليها أبناء الطوائف المختلفة لتلقى العلوم على أيدى رجال الدين ، الذين رحبوا فيها بطلاب العلم حتى ولو كانوا يتبعون مذهبا دينيا آخر .[١٩٦] هذا فضلا عن تشجيع كبار رجال الدين لأبناء تلك الطوائف بما يسروه لهم من إطلاع على نفائس الكتب ، وبما ألفوه وزودوا به مكتبات تلك الكنائس والأديرة .[١٩٧] هذا بالإضافة إلى عرض بعض المواد العلمية الجافة فى صورة شعرية موزونة مما سهل فهمها للطلبة وحببها إليهم .[١٩٨]

وهنا تجدر الإشارة إلى أن المسيحيين المحليين قد دونوا كتبهم بعدة أنواع من الخطوط السريانية ، ونتيجة لانقسامهم إلى طوائف مختلفة ، فقد ابتدع كل فريق لنفسه خطا ، وصارت المؤلفات تكتب بالخطوط المختلفة[١٩٩] إلى جانب استخدامهم للغة العربية فإن اللغة السريانية بقيت مستعمله وبخاصة فى الكنيسة .[٢٠٠]

أما عن نظام الدراسة فى تلك المدارس فمن المرجح أن كل المدارس كانت داخل الأديرة

والكنائس ، ولم نجد أى ذكر لمدرسة خاصة بأبناء الطوائف المسيحية فى بيت المقدس خارج تلك المؤسسات ، وإن وجدت فربما قد تكون ملحقة بالدير أو الكنيسة وكانت توفر لطلابها سبل الحياة التى تجعلهم ينصرفون إلى العلم والاستفادة من المكتبات الحافلة بمختلف الكتب .[٢٠١] وكان لكل مدرسة من هذه المدارس رئيس يديرها ويسوس طلابها ، ويبدو أنه وجد أيضا نظامان من المدارس داخل الأديرة ، منها ماهو خاص بأهل الدير نفسه ، ومنها ماهو منفصل عن الدير أى للخارجين ، أما مدرسوها فهم من أبناء الرهبانية الذين تلقوا علومهم فى تلك المدارس .[٢٠٢] .

وفى المدارس الديرية الخاصة بأهل الدير ، والتى كان الهدف منها تعليم المرشحين للكهنوت ، فضلا عن مبادىء النحو والصرف ويتفقهون فى قوانين الرهبانية ، ومعرفة التزامات النذور بالاضافة إلى المنطق والفلسفة[٢٠٣] أما المدارس الخاصة بغير أهل الدير ، فقد كان التلاميذ يتعلمون فيها مبادىء النحو والصرف والحساب والموسيقى والخط[٢٠٤] . أما المدارس التى كانت تتبع الكنائس فكان بها مدرسون يقومون بتعليم الصبيان ، وهؤلاء المدرسون من الشمامسة ، ومن هؤلاء الشمامسة من كان على درجة كبيرة من العلم[٢٠٥] كذلك يبدو أن اللغة السريانية كانت شائعة داخل تلك المدارس ، وبخاصة فى دراسة الكتب الدينية ، هذا إلى جانب استخدام اللغة العربية .

كذلك وجدت بعض المدارس والتى كانت بمثابة مراكز للتعليم العالى فى الطب والرياضة والعلوم الادبية والفلسفية[٢٠٦] .

كما تجب الإشارة إلى أن الآباء اذا كانوا من المتعلمين فإنهم يقومون بتعليم أبنائهم وربما بناتهم ، والحقيقة أنه لم تصادفنا أية أشارة عن تعليم الفتيات المسيحيات ، ولكن من المرجح أن بعضهن كن يتعلمن داخل الأديرة وبخاصة من كن ينخرطن فى سلك الرهبانية ، وفيما عدا هذا فيبدو أن الاهالى قاموا بدور فى تعليم بناتهم داخل المنازل .[٢٠٧] .

أما عن اليهود فيبدو لنا أنه عقب استقرار اليهود فى القدس فى العصر الأيوبى ، ووفود بعض اليهود من فرنسا وانجلترا واقامتهم فى المدينة ، ثم فى بداية العصر المملوكى شهدت جماعة اليهود نشاطا علميا بقدوم أحد مشاهير المعلمين اليهود فى عصره وهو الرابى موسى بن نحمان وهو الذى أحيا طائفة اليهود المعلمين فى القدس ، وبنى مركزا للتعاليم اليهودية ، وبنى الكنيس الذى يحمل اسمه بالإضافة إلى مايعرف بالأكاديمية اليهودية بالقدس منذ العهد الأيوبى هذا بالأيوبى وكانت تلك أماكن لتعليم اليهود[٢٠٨] هذا وقد كانت جماعة اليهود تقوم بجمع التبرعات والأموال من المغرب العربى وأسبانيا للانفاق منها على الاكاديمية اليهودية بالقدس ، مما ساعد على ازدهار الحركة العلمية عند اليهود بالقدس ، ويصف لنا أحد اليهود الذين هاجروا إلى القدس سنة ١٣٣٣ م من أسبانيا الجماعة اليهودية بها فيقول * وبعضهم منصرف إلى الاشتغال بالعلوم كالطب والفلك والرياضيات ، لكن الفريق الأكبر من علمائهم يصلون أثناء الليل بأطراف النهار فى دراسة الشرع والحكمة القبالية وهؤلاء تنفق عليهم الطائفة[٢٠٩] هذا ويشير أحد الباحثين إلى أنه طرأ تحسن كبير على أحوال اليهود العلمية فى ذلك الوقت نتيجة لهجرة أعداد منهم من أسبانيا إلى المشرق بوجه عام وبيت المقدس بوجه خاص ، وذلك

لأن المهاجرين اليهود الأسبان لم يجلبوا معهم الثقافة المزدهرة فحسب ، بل أيضا الثراء ، وسرعان ما احتل هؤلاء السفارديم مكانة ممتازة فى الحياة العامة ، حيث كانت لهم مهاراتهم وثقافتهم التى أكتسبوها عن طريق احتكاكهم بالبلاد الأخرى .[٢١٠]

وتجب الإشارة إلى أنه توفر للأكاديمية اليهودية فى بيت المقدس . من الموارد المالية ما يكفل لها الاستمرار فى أداء رسالتها العلمية ، تلك الأموال التى كانت تتدفق عليها من المغرب العربى والبلدان الأوربية على أيدى بعض الربانين الجوالين ، الذين قاموا بجمع تلك الصدقات من أبناء ملتهم فى مختلف البلدان ، وهذه المبالغ التى كانت ترد إليها ، شجع عليها ماكان يرفقه اليهود فى تلك البلدان النائية من أسئلة متعلقة بأمور العقيدة والمذهب ، وحتى النواحى المدنية ، إلى أصحاب الرأى من الفقهاء عندهم فى تلك الأكاديمية ، وكانت هذه المسائل بمثابة فتاوى أو آراء قانونية يلتزم بها وبتنفيذها أصحابها فى بلدانهم النائية[٢١١] .

ومن الطبيعى أن يكون كنيس اليهود هو محور الحياة التعليمية ، ففيه العلماء وطلبة العلم[٢١٢] هذا مع أن عدد اليهود كان قليلا بالنسبة لغيرهم من السكان[٢١٣] وذلك حتى أواخر عصر سلاطين المماليك . أما عن طريق التعليم لديهم فإن كثيرا من البالغين يأتون للدراسة فى أيام العطلات وخاصة يوم السبت والإجازات الأخرى حيث يدرسون التوراه حيث كان الهدف من هذه الدراسة التعود على السلوك الاجتماعى والدينى السليم ، كذلك فى دراستهم داخل الكنيس كانوا يهتمون بتعليم القراءة تمهيدا لتعليمهم الترجمة والتفسير فى الكتاب المقدس ، وكذلك تدريس كثير من الأقوال المأثورة لربانييهم تخليدا لها[٢١٤]أما عن اللغة التى استخدموها فى تعليمهم فهى اللغة العربية ولكن بحروف عبرية فى كثير من الأحيان[٢١٥] .

من هذا العرض يتضح لنا أن المؤسسات التعليمية من زوايا ومدارس ومساجد لدى المسلمين ، والكنائس والأديرة والكنيس بالنسبة لأهل الذمة لعبت دوراً هاما كمؤسسات تعليمية ، وأن الفقهاء من المسلمين ورجال الدين من أبناء الذمة كانوا هم حفظة العلم ، والقائمين عليه فى نفس الوقت ، كذلك لعبت كل من الأوقاف المحبوسة على تلك المؤسسات وكذلك الهبات والأموال التى كانت ترد إليها دورا – هاما فى ازدهار الحياة الثقافية واستمرارها فى ذلك العصر .

المكتبات : –

لعبت المكتبات فى بيت المقدس على عصر سلاطين المماليك دورا هاما فى الحياة التعليمية ، كان له أكبر الأثر فى إرساء قواعد النهضة الثقافية الكبرى وازدهارها فى تلك الآونة ، حيث قدمت المكتبات خدمات مكتبية ممتازة ، مما ساعد على زيادة فرص التعليم فى ذلك العصر ، وكان الإهتمام بالمكتبة فى العصر المملوكى امتدادا لما بدأه المسلمون ، من ذلك أن السلطان صلاح الدين الأيوبى عندما فتح مدينة بيت المقدس فإنه حمل إلى قبة الصخرة وإلى محراب المسجد الأقصى مصاحف وختمات ، وربعات معظمات ، لاتزال بين أيدى الزائرين على كرسيها مرفوعة ، وعلى أسرتها موضوعة ، ورتب لهذه القبة خاصة ولبيت المقدس عامة قومة لشمل مصالحها[٢١٦] .

ولقد ملأ السلطان صلاح الدين الأيوبي الحرم الشريف بنسخ من القرآن الكريم التي أحضرها من مكتبة دمشق العظيمة ، ولايزال بعض هذه النسخ محفوظة إلى الآن تشهد على ذلك[٢١٧] ، بحيث غدت خزانة الكتب في المسجد الأقصى من أهم الخزائن ببلاد الشام ، لما تحتوية من كنوز المعرفة ، ففيها نصف مصحف قديم بخط كوفي كتب عليه كتبه محمد بن الحسن بن الحسين بن بنت رسول الله[٢١٨] هذا وقد حذا حذو صلاح الدين كثير من أبنائه من البيت الأيوبي ثم سلاطين المماليك من بعدهم ، من ذلك أن الملك المعظم عيسى الذى أنشأ الزاوية الناصرية – التى سبقت الإشارة إليها – وبسبب كثرة الكتب الموقوفة عليها أمها كثير من الطلبة طوال العهد الأيوبي وفترة طويلة من العهد المملوكي .[٢١٩] كذلك تؤكد لنا المصادر المعاصرة حرص سلاطين المماليك الدائم على تزويد مكتبات القدس بالكتب النفيسة[٢٢٠] وبخاصة المسجد الأقصى ، كذلك لم يكن الاهتمام بتزويد مكتبه المسجد الأقصى بالكتب النفيسة قاصرا على – سلاطين الماليك ، إذ شاركهم بعض ملوك المغرب العربي ذلك أيضا ، مما يدل على مكانة بيت المقدس لدى هؤلاء كذلك كانوا يهادون بعض زوايا المغاربة بها بتلك النفائس .[٢٢١]

كذلك لم يكن الاهتمام قاصرا على مكتبة المسجد الأقصى وغيره من المسجد ، بل تذكر بعض المراجع أنه لاتكاد تخلو مدرسة من مدارس بيت المقدس في ذلك العصر من خزانة للكتب باعتبارها إحدى حواضر العلم في ذلك الوقت ، وكذلك الحال بالنسبة للزوايا حيث تقدم المكتبة خدماتها لطلاب العلم فيها[٢٢٢] وجدير بالذكر أن نشير إلى أن ظاهرة الاهتمام بالكتب والمكتبات في عصر سلاطين المماليك إنما ترجع إلى كثرة انتشار أسواق الكتب وتجارتها ، فضلا عن تعظيم كثير من السلاطين والأمراء المماليك للعلم وأهله ، إلى جانب ما ارتبط بسياسة المماليك في الحكم ، كما أن هذا العصر تميز بالغنى والثروات الضخمة في شطرة الأول ، والتي مكنت الكثيرين من اقتناء الكتب الثمينة والنادرة ، ووقفها على المساجد والمدارس والزوايا ، لينتفع بها الطلاب والعلماء في وقت كانت فيه الكتب قليلة الانتشار غالية الثمن لعدم معرفة الطباعة .[٢٢٣]

كما تجب الاشارة إلى أن المكتبات في ذلك العصر كانت محور النشاط التعليمي في تلك المؤسسات والتي لم تكن للتعليم فقط بل وللتعلم أيضا ، وتحصيل العلم بالبحث والدراسة في الكتب نفسها ، والنقل مما تحويه من مادة علمية ثمينة ، وحيث لم تقتصر مهمة المدرس على مجرد الإلقاء والتلقين أو الشرح ، بل كان عليه أن يسهل على الطلبة الفهم ويحثهم على الاشتغال بالعلم الشريف ، بل يدربهم ويأخذهم بالأهون فالأهون ، إلى أن ينتبهوا إلى درجة التحقيق . وإن كانوا منتهين فلا يلقى عليهم الواضحات ، بل يدخل بهم في مشكلات الفقه ، ويخوض بهم عبابه الزاخر . ومن هذه العبارة يتضح أن عمل المدرس لم يكن هو التعليم فقط بل هو إعداد الطلبة وتدريبهم على البحث بأنفسهم[٢٢٤] كذلك كان من اختصاصاته الترغيب في تحصيل العلم والاعتماد على الكتب[٢٢٥]

وكان يشرف على خزانة الكتب شخص أطلق عليه « خازن الكتب » أو شاهد خزانة الكتب وكان يشترط فيه أن يكون أمينا يقظا ، فطنا عاقلا مأمونا ، بالغا في الأمانة والثقة والنزاهة ، وقلة

الطمع قادرا على القيام بخدمة الكتب عارفا بترتيبها[٢٢٦] كما كان عليه حق الاحتفاظ بها ، وترميم شعثها ، وحبكها عند احتياجها للحبك ، وبذلك لم تكن مهمة أمين المكتبة أو خازن الكتب حسب مصطلح ذلك العصر قاصرة على مجرد معرفة ماتحتوية المكتبة الموكلة اليه من كتب يقوم بترتيبها فقط ، بل تعدى ذلك إلى شمولها بكل أنواع الرعاية من ترميم وتجليد وحبك إلى جانب حفظها من الضياع[٢٢٧] .

كذلك يجب أن نشير إلى انه على الرغم من صمت المصادر والمراجع التى بين أيدينا عن طريقة إستعارة الكتب فى المكتبات بيت المقدس ، إلا أننا نستطيع القول أنه كان هناك نوعان من الاستعارة ، الاستعاره الداخلية لطلبة العلم والمدرسين والنازلين بالمؤسسة التعليمية ، حتى يتمنى لهم الاستفاده مما تحتوية مكتبة المدرسة أو الزواية أو المسجد من ذخائر الكتب ، كذلك وجدت الاستعارة الخارجية التى كانت مرهونة بعدة شروط ذكرها السبكى فى حديثه عن خازن الكتب بقوله « والضنة بها على من ليس من أهلها ، وبذلها للمحتاج إليها ، وأن يقدم فى العارية الفقراء الذين يصعب عليهم تحصيل الكتب على الأغنياء وكثيرا مايشترط الواقف ألا يخرج الكتاب إلا برهن يحرز قيمته ، وهو شرط صحيح معتبر ، فليس للخازن أن يعير إلا برهن . »[٢٢٨] .

كما تجب الإشارة إلى أنه ، وجدت كثير من المكتبات الخاصة ، والتى حرص كثير من العلماء على تكوينها ، واقتناء الكتب النادرة فيها ، وتشير بعض المصادر الى أعتزاز كثير من العلماء بتلك المكتبات التى اقتنوها وحرصهم على أن يراها غيرهم من المشتغلين بالعلم عندما يزورونهم فى منازلهم [٢٢٩] هذا فضلا عن حرص من هؤلاء العلماء على تزويد تلك المكتبات بأمهات الكتب سواء عن طريق الشراء أم النسخ ، بأن ينسخ الواحد منهم بنفسه بعضا من الكتب ، أو يستأجر أحد الأشخاص ممن عرف عنه الاشتغال بالنسخ وحسن الخظ والجودة [٢٣١] كما تنافس كثير من العلماء فى الحصول على كثير من الكتب بخطوط مؤلفيها أنفسهم وغالبا ما كان يتم ذلك بالشراء من ورثتهم عقب وفاتهم [٢٤١] أو ربما حدث نوع من المهاداة بين العلماء فى ذلك العصر مثلما يحدث فى عصرنا الحاضر ، كما تشير كثير من المصادر الى حرص كثير من العلماء على نسخ كثير من كتب من سبقوهم وكتابة كثير من الحواشى عليها بخطوطهم ، ومنهم من كان يقع له ذلك الكتاب الذى نسخه بخط مصنفة فيشتريه ولا يترك النسخة الأولى ؛ إلى أن يقتنى بخطوط المصنفين « مالا يعبر عنه كثرة [٢٣٢] » .

ومن أمثلة المكتبات الخاصة فى مدينة بيت المقدس دار الكتب الفخرية ، وقفها القاضى فخر الدين أبو عبد الله ابن فضل الله « ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣١ م » والتى بلغ عدد مجلداتها نحو عشرة آلاف اقتسمها افراد اسرة أبى السعود أصحاب الزاوية الفخرية بعد وفاته . [٢٣٣] .

أما بالنسبة للمكتبات لدى أهل الذمة ، فقد سبقت الإشارة الى كثرة عدد الاديرة والكنائس ، التى لعبت دورا هاما فى الحياة التعليمية باعتبارها مراكز للتعليم ، كذلك كانت هذه الكنائس والأديرة على جانب كبير من الأهمية بما حوته من مكتبات ضخمة ، ويذكر لنا بعض الحجاج المسيحيين الذين زاروا بيت المقدس فى عصر سلاطين المماليك أن كنيسة القديسة مريم بجوار كنيسة

القبر المقدس كان بها مكتبة رائعة [٢٣٤] . ومن أمثلة المكتبات المسيحية مكتبة القبر المقدس ، والتى أنشأها الروم الأرثوذكس منذ عهد بعيد ، ومن حسن الحظ أن الرهبان اليونان تنبهوا إلى جمع شتاتها ، وجمع ما سلم من ذخائرها العلمية الثمينة التى يصل عهد بعضها الى القرن العاشر الميلادى ، وبها عدد كبير من المخطوطات باللغة العربية واليونانية والسريانية [٢٣٥] .

كذلك من المكتبات الهامة التى وجدت ببيت المقدس على عصر سلاطين المماليك مكتبة الرهبان الفرنسيسكان والتى يقول عنها أحد الباحثين أنها من أغنى مكتبات العالم بما حوته من الوثائق المتعلقة بالأراضى المقدسة ، وقد حافظ عليها أولئك الرهبان محافظة شديدة منذ أكثر من سبعة قرون ، ثم تفرغ بعض علمائهم منذ سنة ١٩٢٢م لنشر فهرس مستوفى لتلك الوثائق بلغتها العربية الأصلية مع ترجمتها الى اللغة الإيطالية ، وتحتوى خزائن الرهبان الفرنسيسكان من هذا القبيل على ألفين وستمائة وأربع واربعين وثيقة يرتقى تاريخ أقدمها الى عهد الملك الأشرف شعبان بن حسين « ٧٦٤ هـ / ١٣٦٣ م ٧٧٨ هـ/١٣٧٧ م ، ويشاهد المطالع فى هذا الفهرس المدقق صور الوثائق والفرمانات ونصوصها مع تواقيع الخلفاء والسلاطين والملوك المسلمين الذين كان يرجع أمر الأراضى المقدسة إليهم فى تلك الحقبة [٢٣٦] .

والحقيقة أنه تعددت المكتبات لدى الطوائف المسيحية المختلفة بالقدس فى ذلك العصر ، تعددا تشهد عليه كثرة تلك المكتبات من جهة وكثرة ما احتوته من ذخائر الكتب من جهة أخرى [٢٣٧] وهى بلا شك تعكس لنا مدى كلف أبناء الطوائف المسيحية وانصرافهم إلى تأسيس تلك المكتبات الخاصة فى كنائسهم وأديرتهم ومدارسهم وبيوتهم ، والتى يعود أغلب الفضل فيها إلى رؤساء تلك الطوائف الدينية ولا سيما علماء الرهبان فى الاديار ، فإن هؤلاء كانوا بجانب حرصهم على اقتناء الكتب ، فإنهم يقضون أغلب النهار والليل فى نسخ المخطوطات ويتنافسون فى كتابتها ويحرصون على صبانتها [٢٣٨] . وقد بلغ من حرص بعض الطوائف مثل اليعاقبة من العناية بالمخطوطات وحفظها حدا كبيرا ، لدرجة أنهم كانوا يقومون بجمع تلك النفائس ووضعها فى أديرتهم حتى تكون تحت أيدى الدارسين بها [٢٣٩] .

كذلك تشهد المكتبات الاوربية حاليا بما حوته من كنوز المخطوطات ، والوثائق التى سجل عليها اسم الدير الذى وجدت به ، أو نسخت فيه ، والتى ترى إلى اليوم فى هذه المكتبات [٢٤٠] . ومن الطبيعى أن يكون لكل مكتبة من تلك المكتبات أمين مكتبة أو خازن حسب مصطلح ذلك العصر ، وعادة ما يكون كبير الشمامسة والذى اشترط فيه أن يكون على قدر كبير من التعليم والدراسة [٢٤١] .

وبالإضافة إلى تلك المكتبات وجدت مكتبات خاصة ، وهى التى أقامها أفراد من الأسر الغنية ، أو ربما توارثوها عن آبائهم ومن الطبيعى أن يحرص هؤلاء على تلك الكنوز التى خلفها لهم آباؤهم وأجدادهم ، ولاسيما رجال الدين منهم الذين كانوا يتنافسون فى نسخ تلك المخطوطات ويحرصون على صيانتها وكذلك إقتنائها ، ويرجع السبب فى كثرة تلك المكتبات فى تلك الفترة إلى أن مصانع

الورق التى وجدت فى المدن القريبة من بيت المقدس كانت تمد المشتغلين ببيع أو نسخ أو تأليف الكتب بكميات وفيرة من الورق بمختلف أنواعة المعروفة فى ذلك الوقت مما مساعد على انتشار الكتب وتجارتها[٢٤٢] .

وأخيرا تجب الأشارة إلى أنه لم يرد أى ذكر لوجود مكتبات لدى طائفة اليهود ، لكن من المرجح أن تكون لديهم بعض المكتبات ، فقد سبق وأشرنا إلى وجود أكاديمية وكنيس لهم ، فليس من المعقول الا تحتوى على مكتبة ، وقد كانت المكتبات فى ذلك العصر هى السمة البارزة فى المؤسسات التعليمية فى ذلك العصر .

مجالس العلم :

شهدت مدينة بيت المقدس فى عصر سلاطين المماليك ازدهارا فى مجالس الحياة العلمية هذا الازدهار كان نابعا من سياسة سلاطين المماليك والتى تمثلت فى العناية بالمقدسات الإسلامية حيث استغلوا جزءا كبيرا من ثرواتهم الضخمة والتى عادت عليهم من وراء التجارة لرعاية تلك الأماكن المقدسة وبخاصة الحرم الشريف وقبة الصخرة ، مما يعطى انطباعا عند المعاصرين بأن قيام المماليك فى الحكم ليس ضروريا لحماية البلاد والعباد من الأخطار الخارجية فحسب ، بل أيضا لرفع راية الإسلام عن طريق إحياء شعائره ورعاية مقدساته ، وهذا ما كان يهدف إليه سلاطين المماليك لكى ينسى لهم معاصروهم أصلهم غير الحر وأنهم اغتصبوا الحكم من سادتهم الأيوبيين . وكان من نتيجة تلك الرعاية أن اتسعت دائرة النشاط العلمى فى بيت المقدس ، والذى تمثل فى اجتذاب أعداد كبيرة من العلماء وطلبة العلم إليها وازدهار كثير من المؤسسات العلمية والدينية والخيرية ، كذلك تنافس كثير من السلاطين والأمراء المماليك وأهل البر والمعروف لتوفير مطالب الحياة للمشتغلين بالعلوم عن طريق ماأرصدوه على الحرم الشريف وغيره من المؤسسات الدينية من أوقاف .

وليس أدل على ازدهار الحياة العلمية (بالإضافة إلى ماسبقت الإشارة إلية من كثرة المؤسسات التعليمية ووفرة أعداد الدارسين والعلماء فى بيت المقدس من شتى الأنحاء) من كثرة المجالس العلمية التى كانت تعقد طوال ذلك العصر فى المسجد الأقصى والتى تميزبها فى تلك الفترة التاريخية ، والتى غالبا ما كانت ما تدور حول العلوم الشرعية من فقه وحديث وأصول ووعظ[٢٤٣] .

ويورد لنا أحد المؤرخين المعاصرين والذى زاربيت المقدس عام ٨٧٤ هـ/ ١٤٦٩ م وصفا لأحد مجالس العلوم بالمسجد الأقصى حيث احتشدت الجموع الغفيرة إلتى اتسمت بالخشوع وبان عليها الخضوع والتقوى ، واستقرت منها الضلوع ، فلا ترى فى تلك الحضرة المقدسة إلا كل ولى يعبد ربه ويؤمل بره ، ومنها من كان يحيى الليل بالسماع والعبادة ، ويختتم بالقرآن ويزيله[٢٤٤] .

وتشير كثير من المصادر إلى كثرة تلك المجالس العلمية ، والتى كانت تعقد بصفة دائمة فى المسجد الأقصى ، حيث يزدحم الفضلاء فى تلك المجالس للسماع على أحد العلماء البارزين ، من ذلك مايؤكده لنا ابن حجر فى حديثه عن الشيخ أبى بكر على بن عبد الله الموصلى ثم الدمشقى نزيل بيت

المقدس حيث كان يعمل المواعيد ، ويحضر مجالسه العلماء الكبار كالشهاب الزهرى وشمس الدين الصرخدى وغيرهم[٢٤٥] هذا ولم تقتصر تلك المجالس العلمية على المسجد الأقصى ، بل إن كثيرا من كبار العلماء كانوا يعقدون المجالس العلمية فى منازلهم ، والتى تكون غاصة بكثير من العلماء وكبار رجال المدينة ، ويصف لنا أحد المصادر تلك المجالس التى كانت تعقد فى المنازل حيث يقول ذهبنا الى المنزل المعروف والعهد المألوف فلم نزل فى سرور إلى طلعة الفجر وكان يحضر هذا المجلس أحد المنشدين وله صوت حسن ينشد القصايد الإلهية والنشايد التوحيدية فى كلام المحققين من الصوفية[٢٤٦] ومن المؤكد أن تلك المجالس العلمية كان لها آدابها ونظمها المتعارف عليها والتى يؤكدها لنا مجير الدين ، من أنه كان يجب على العلماء أن يراعوا عند جلوسهم مكانة كل واحد منهم ، وقد حرص الجميع على أن يأخذوا من الأماكن ما يتناسب ومكانتهم العلمية ووظائفهم ، وإذا حدث وأخطأ أحدهم كان ذلك مدعاة لجلب غضب الحاضرين علية .[٢٤٧]

أما فيما يتعلق بمجالس العلم لدى أبناء أهل الذمة ، فإن المصادر والمراجع التى بين أيدينا تكاد تكون صامته بالنسبة لهذا الخصوص ، إلا أننا نرجح أن تكون هناك مجالس علم تقام داخل الأديرة أواحدى الكنائس ، وربما فى بيت واحد من كبار الرجال وذلك نظرا لما سبق وأشرنا إليه من ولع أبناء تلك الطوائف بالعلوم والحياة العلمية . أما فيما يختص ببعض المناظرات العلمية التى كانت تحدث بين بعض أبناء الطوائف المسيحية والمسلمين ، فإننا لم نسمع عن قيام مثل تلك لمناظرات وبخاصة من جانب أبناء الطوائف المسيحية المحلية وإخوانهم من المسلمين لكن سمعنا عن تلك المناظرات وكما سبقت الإشارة بذلك فى حديثنا عن طائفة الرهبان الفرنسيسكان ، والتى كان الهدف منها تبشيريا بالدرجة الأولى ، ولم تتسم بما يمكن أن نطلق عليه النظرة الموضوعية للأمور ، حيث كان الهدف منها هو تنصير المسلمين ، وكانت تواجه هذه المحاولات بالشدة من القائمين على أمور الدين خوفا من حدوث الفتنة كما سبقت الإشارة بذلك أيضا .

موقف علماء بيت المقدس من الحكام ومن بعض القضايا المعاصرة

لعب علماء بيت المقدس دورا هاما وبارزا فى الحياة العامة فى عصر سلاطين المماليك ، وكانت لهم مكانة مرموقة فى مجتمع غلبت عليه الصبغة الدينية ، ولم تكن تلك المكانة بسبب نفوذهم المباشر على الرأى العام وتقديره لهم باعتبارهم أئمة المسلمين وحماة العقيدة فحسب ، بل نتيجة احتكاكهم المباشر بكافة الطبقات الاجتماعية واختلاطهم بهم من تجار وأصحاب حرف ، فضلا عن اتصالهم بالطبقة الحاكمة من المماليك وهم الذين حرصوا على مصاهرة هؤلاء العلماء لكى يكتسبوا مكانة اجتماعية نظرا لأنهم غرباء عن المجتمع . هذا بالإضافة إلى تركز الحياة الاجتماعية داخل مدينة بيت المقدس حول هؤلاء العلماء نظرا لكثرة الثروات فى أيديهم ، وتوليهم المناصب الهامة ، وإشرافهم على كثير من الأوقاف التى رصدت للمساجد والمدارس وغيرها من المؤسسات الدينية والاجتماعية بالإضافة إلى أنهم أصبحوا المتحدثين الرسميين فى الشئون القانونية والاجتماعية والدينية لكثير من أبناء المدينة ، كذلك كانوا بمثابة النواب عن الجموع التى تقطن حول المساجد والمدارس والزوايا ، والتى

كانت بمثابة مراكز هؤلاء العلماء لمزاولة نشاطهم ، فضلا عن أنه كانوا رؤساء المذاهب الأربعة الذين التف حولهم عدد كبير من الأتباع ، والذين نظروا لهم على أنهم رؤساء لهم يقدمون لهم النصح فى كل أمورهم . وعلى هذا يمكننا القول أن العلماء من خلال دورهم الدينى والقضائى والتجارى والمالى ، والروابط الأسرية ، كل هذا سهل لهم الاتصال والاحتكاك المستمر بكل عناصر المدينة(٢٤٨) ولعل مما ساعد على أن يتبوأ العلماء مكانة سامية فى بيت المقدس سياسة المماليك الدينية التى سبق أن أشرنا إليها فضلا عن طبيعة المماليك أنفسهم وما عرف عنهم من جبروت واستهانة بكثير من المثل العليا ، إلا أنهم كانوا يخشون غضب العلماء ورجال الدين ، ويقيمون لآرائهم وزنا عظيما ، وأن من العلماء من كان شجاعا فى قول الحق لايخشى فيه لومة لائم .

ومن الأدوار الهامة التى لعبها العلماء فى مجال الحياة العامة فى بيت المقدس مايروية لنا مجير الدين فى حديثة عن القاضى العلامة شمس الدين أبو عبد الله محمد البايرتى ت ٨٥٥/ ١٤٥١ أنه كان له هيبة عند الناس والحكام ونفذ أمره حتى تكلم فى الأسعار فكان يطلب اللحامين والخبازين وغيرهم من أرباب الحرف ويأمرهم ببيع بضائعهم بسعر معين فلا يسعهم مخالفة وفى هذا تأكيد لدور العلماء فى مجال الحياة العامة واليومية .(٢٤٩)

كما لعب العلماء دورا هاما كوسطاء بين السلطات الحاكمة والمحكومين من أبناء بيت المقدس ، ففى أواخر عصر سلاطين المماليك بوجه خاص ، فإن القضاة وشيوخ الأحياء كانوا وسطاء فى جمع الضرائب التى كانت تقرضها السلطات وبخاصة عندما عجزت ميزانية الدولة عن تحمل الأعباء الحربية الضخمة نتيجة لكثرة الحروب الداخلية ضد التركمان والبدو وغيرهم ، فضلا عن الحملات التى كانت توجه لحماية الثغور والمدن الساحلية من إغارات الفرنج والتى لم تنقطع طوال عصر سلاطين المماليك كذلك كانوا كثيرا ما يبذلون جهدهم لتقليل تلك الضرائب التى تفرض على السكان ، عن طريق إبداء معارضتهم للسلطات الحاكمة أحيانا ، والمجادلة أحيانا أخرى إلا أنهم بحكم وظيفتهم وتوليهم مناصبهم من الدولة فكانوا لايملكون الا مساندتها(٢٥٠) .

ومن أمثلة ما قام به هؤلاء العلماء من دور فى الحياة العامة ، تصديهم للتعسف الذى كان يقوم به بعض حكام المماليك ، من ذلك ما يرويه لنا مجير الدين أيضا عن قاضى القضاة شرف الدين أبو الروح عيسى أبن شمس الدين محمد المغربى « ت ٨٥٤ هـ ١٤٥٠ م » والذى كانت له هيبة فى القلوب ، وكان من قضاة العدل لا يخاف فى الله لومة لائم ، من ذلك أن مبارك شاه حين ولى النيابة ودخل القدس ، وركب القضاه للقائه على العادة ، وألبس خلعة السلطان ، كان قد أمسك جماعة من الفلاحين فلما وصل بهم إلى باب الخليل وقصد شنقهم أو شنق واحد منهم فأمر بذلك ، فتقدم إليه القاضى شرف الدين عيسى المذكور وقال له « ما الذى تريد تفعل بحضورنا فقال له أشنق هؤلاء . قال بأى طريق قال لصوص قاتلون للنفس فقال له هل ثبت عليهم هذا بالطريق الشرعى قال النائب نحن لا نحتاج إلى ثبوت فقال له القاضى تقتل مسلما غدرا بحضورى بغير حق هذا لا سبيل إليه ولكن تدخل المدينة وتنظر فى أمرهم فإن ثبت عليهم ما يقتضى قتلهم فقتلناهم وإلا فلا سبيل إلى

قتلهم فشدد النائب فى أمرهم وقال لابد من قتلهم فقال له القاضى والله لو قتلتهم بحضورى لكنت أقتلك بيدى وأعلقك إلى جانبهم كما أنت بخلعة السلطان فلم يقدر النائب على مراجعته لهيبته ودخل المدينة ولم يستطع قتلهم وله مثل ذلك أخبار كثيرة [٢٥١] .

كذلك يروى لنا السخاوى فى ذكره لحوادث سنة ٨٥٢ هـ / ١٤٤٨ م أيام السلطان الظاهر أبو سعيد جقمق أنه ورد الخبر بأنه حصل بين نائب القدس تمراز المصارع وناظره الأمينى عبد الرحمن الديرى قتال عظيم بآلة الحرب بسبب ما وقع من هذا النائب فى حق أمير جرم ، وهذا يؤكد لنا أن أحد العلماء لم يسكت على ظلم وقع على أحد الرعية ، وجاهد ليس فقط بالقول ولكن بالسلاح لمنع هذا الظلم ، ولم تهدأ له ثائرة حتى تم عزل ذلك النائب بعد أيام [٢٥٢] .

هذا إلى جانب ما يرويه لنا مجير الدين فى حوادث سنة ٨٩٢ هـ / ١٤٨٦ م أيام السلطان الأشرف قايتباى حيث يروى أنه فى تلك السنة فحش أمر نائب القدس خضربك فى ذلك الوقت ، وتزايد ظلمه وسفكه للدماء وأخذ أموال الناس ، وكثر شاكوه وساءت سيرته ، فكتب شيخ الصلاحية النجمى بن جماعة فى أمره للسلطان ، فورد مرسوم السلطان على الأمير تغرى ورمش دوادار المقر الأشرف السيفى أقبردى الدوادار الكبير ، وهو بمدينة نابلس بالتوجه الى القدس ، والكشف على النائب وتحرير أمره ، فحضر الأمير تغرى ورمش الى القدس فى يوم الخميس ثالث عشر ذى الحجة ، وقرىء المرسوم الشريف بالكشف على النائب ، فعقد له عدة مجالس أولها عقب صلاة الجمعة رابع عشر ذى الحجة بمحراب المسجد الأقصى الشريف ، ثم تكرر عقود المجالس فى عدة أماكن ، وأكثر الناس من الشكوى عليه ، وكتبت القصص فى حقه ، وكتب العلماء والقضاء بمدينتى القدس والخليل على المحضر ، وتوجه به الأمير خضر بك مع بعض المماليك إلى حضرة السلطان ، فلما وقف السلطان على المحضر ، ضرب النائب ورسم أن يدفع ما عليه من الحقوق لأربابها ، وعزله عن النيابة وأمر بسجنه [٢٥٣] .

كذلك مايروية مجير الدين أيضا فى حديثه عن سنة ٨٩٤ هـ/ ١٤٨٨م وفيها قصد أمير عربان جرم وهو أبو العويسر أن يجدد مظلمة على الفلاحين بجبل القدس الشريف ، ويأخذ منهم مالا فقام شيخ الإسلام نجم الدين بن جماعة شيخ المدرسة الصلاحية ومنعه من ذلك .[٢٥٤]

هذا ولم يقتصر دور العلماء فى المشاركة فى الحياة العامة على رفع المظالم عن أهل بيت المقدس بل شملت جوانب الحياة المختلفة ، والقيام بالمطالبة بكل مايهم الصالح العام لأهل مدينة القدس فى ذلك العصر ، من ذلك مايؤكده لنا مجير الدين أيضا فى عصر السلطان الأشرف قايتباى ، من أنه كان الملك الظاهر خشقدم قد شرع فى عمارة العين الواصلة من العروب إلى القدس الشريف ، ومات وهى محتاجة إلى إكمال العمارة فلما ولى بعده الملك الظاهر بلباى ثم الملك الظاهر تمربغا رسم كل منهما بإكمال العمارة فلم تطل مدة واحد منهما فكتب أهل بيت المقدس من المشايخ والقضاة والأعيان استدعاء للسلطان الملك الأشرف قاتيباى يتضمن سؤال صدقاته فى إكمال عمارة تلك العين ، فبرز مرسوم السلطان بذلك فعمرت ووصل الماء إلى القدس وأعيد الجواب للسلطان بذلك[٢٥٥] .

ومما يؤكد لنا مشاركة العلماء فى كثير من الأحداث الخاصة بمدينتهم ماتشير إليه بعض المراجع ، من أنه نظرا لتشعث سقف كنيسة علية صهيون وحوائطها فقد توقع الرهبان الفرنسيسكان سقوطها مابين وقت وآخر ورأوا ضرورة عمارتها عمارة كاملة ، فتقدموا بسؤال إلى بعض الفقهاء هل يجوز لهم عمارتها بما يمنعها من السقوط أم لا وقد أفتى الفقهاء بجواز ترميمها وحفظها من الهدم ودفع ضررها الحاصل والمتوقع ، وأن الممنوع فقط هو توسيع خطتها والزيادة فى ارتفاعها ، وبناء على هذه الفتاوى وسمح لهم بمقتضى المرسوم المؤرخ فى ١٧ شعبان ٨٣٩ هـ/ ٦ مارس ١٤٣٦ والموجه الى رئيسهم بقيامهم ببناء الأجزاء المحتاجة إلى الترميم والعمارة وذلك بعد أن قام القضاة بإثباتها ومعاينتها .[٢٥٦]

ومن مواقف علماء بيت المقدس من القضايا المعاصرة موقفهم من بعض المسائل الدينية وبخاصة من تعاليم ابن تيمية ، والمعروف ان ابن تيمية حنبلى وقد دافع عن سنن السلف الصالح من المسلمين بأدلة لم يسبق إليها ، مع أنها مستقاه من القرآن والحديث ، ولكن حريته فى الجدل والمناظرة جلبت عليه عداوة الكثير من العلماء وبخاصة من المذاهب الأخرى ، كما أنه كان يعتبر نفسه مجتهدا فى مذهبه الحنبلى وقد أفتى فى عدة مسائل ولم يأخذ فيها بالتقليد ولابالإجماع فقد أنكر هؤلاء العلماء على ابن تيمية قوله إن الطلاق بالثلاث لايقع بلفظ واحد[٢٥٧] كما أنكروا على ابن قيم الجوزية – هو أحد تلامذة ابن تيمية – كلامة بمدينة القدس سنة ٧٢٦ هـ/ ١٣٢٥ م – بعدم جواز الشفاعة والتوسل بالأنبياء وكذلك آخذوه على نكرانه مجرد القصد للقبر الشريف دون قصد للمسجد النبوى واشتدت معارضة علماء القدس لتلك الآراء فاجتمعوا وكتبوا فى ابن القيم الى قاضى القضاة جلال الدين القزوينى وغيره من قضاة دمشق ، ولما وصلت كتب العلماء المقادسة فى ابن القيم كتب قضاة دمشق فيه وفى استاذة ابن تيمية إلى السلطان فكان جزءا ابن تيمية الحبس وجزاء ابن القيم الضرب المبرح .[٢٥٨]

وأخيرا يجب أن نؤكد على حقيقة هامة وهى أنه كان لعلماء بيت المقدس دور سياسى واضح ، وبخاصة فيما قام من ثورات ضد سلاطين المماليك فى بلاد الشام مثال ذلك ما حدث سنة ٧٩٣م/ ١٣٩٠م عندما ثار الأمير منطاش ضد السلطنة فى مصر ، ودعا القضاة وكبار رجال الدين والعلماء البارزين لأن يؤيدوه وبعد ذلك بقليل عندما ثار الأمير نوروز فى دمشق أيضا وحاول أن يستميل قضاة القضاة لكى يعلنوا وقوفهم معه ضد السلطان المؤيد شيخ ولكنهم رفضوا أن يفعلوا ذلك مثلما فعل رجال الدين فى دمشق[٢٥٩] .

مما سبق تستطيع أن نستخلص أن علماء بيت المقدس فى عصر سلاطين المماليك ، كانوا لايقفون موقفا سلبيا إزاء المشاكل التى كانت تظهر فى مجال الحياة العامة التى تتعلق بقطاعات كبيرة من أهل المدينة وأنهم حرصوا على أن يكون لهم رأى فى كل ما يخص دينهم ودنياهم فضلا عما كان لهم من تأثير على عامه الناس بالإضافة إلى ماسبق وأن ذكرناه من حرص سلاطين المماليك على تأكيد سياستهم الدينية فى نفوس معاصريهم وما كان يتبع ذلك من حرصهم على التدخل للفصل فى

المنازعات التى قد تنشأ بين الحكام ورجال الدين ، والتى غالبا ماكان القول الفصل فيها لصالح رجال الدين .

كذلك نستطيع القول أنه نتيجة لتلك النظرية السياسيةالمملوكية ، والتى أنعكس أثرها فى بيت المقدس فى إقامة كثير من المؤسسات التعليمية والخيرية والدينية ، وما تلى ذلك من تشجيع للعلماء وطلبة العلم على التدفق على مدينة بيت المقدس بحيث غدت إحدى المراكز الحضارية الهامة ، وماتبع ذلك من ازدهار الحياة العملية ومأأدى إليه هذا الازدهار من ظهور كثير من المؤلفات التى ارتبطت ولادتها بمدينة بيت المقدس فى ذلك العصر .

هوامش

(١) مجير الدين : الانس الجليل ، جـ ٣ ، ص ٤٥٥ ، سعيد عاشور : بعض أضواء جديدة على مدينة القدس ، ص ٩ ، ١٠ .

(٢)راجع المقرى : فتح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، ١٠ اجزاء نشر القاهرة سنة ١٩٤٩ م ، الأنس الجليل ، جـ٢ ، ص ٥٢٣ – ٥٤٩ ؛ نقولا زيادة : لمحات من تاريخ العرب ، ص ١٧١ – ١٧٢ .

(٣) ابن العماد : شزرات الذهب ، جـ٦ ، ص ١٩٣ فى ذكر وفيات سنة ٧٦١ هـ .

(٤) بدائع الزهور ، جـ٣ ، ص ٢١٦ –٢١٧ .

(٥) ابن تغرى بردى : المنهل الصافى ، جـ١ ، ص ٢١٤ غ ابن حجر العسقلانى : إبناء الغمر ، جـ١ ، ص ٤٩٧ ؛ مجير الدين : الانس الجليل ، جـ٢ ، ص ٥٢٣ – ٥٩٤ ؛ السخاوى : التبر السيوك ، ص ٣٧١ .

والحقيقة أن كتب التراجم والحوليات زاخرة بأسماء كثيرين من اولئك الذين وفدوا الى بيت المقدس وأقاموا بها طوال عصر سلاطين المماليك ، مما يؤكد أن الحياة العلمية بها كانت مزدهرة ، وأنها أصبحت مركزا إسلاميا لثقافة عربية واسعة النطاق ، وأن رواد العلم كانوا يفدون إليها ، لا من أجل التعبد فى مساجدها وزيارة أماكنها المقدسة فحسب ، بل من أجل انتجاع موارد العلم والحكمة فى مدارسها ، كما أنها غدت إحدى المراكز العلمية الهامة فى دولة سلاطين المماليك بما جذبت إليها من علماء من شتى الانحاء ، حيث تجمع فيها العلماء من شتى البلدان مثل العراق وإيران والأندلس وتركستان وبلخ وشيراز وأذربيجان وهراة وقرمان ، بالإضافة الى علماء المغرب ، ليس هذا فحسب بل جذبت المدينة المقدسة علماء من اليمن . والدليل على ذلك أنه فى سنة ٧٤٣ هـ / ١٣٤٢ م توفى بها العالم تاج الدين أبو المحاسن عبد القادر بن عبد الحميد بن عبد الله بن متى اليمانى المخزومى الشافعى الأديب الكاتب عن ثلاث وستين سنة وكان له شعر جيد [٦] .

(٦) عن مواطن العلماء الذين وفدوا إليها راجع ابن كثير : والبداية والنهاية ، جـ ١٤ ، ص ٤ ؛ المقريزى السلوك ، جـ٢ ، قسم ٣ ، ص ٦٣٧ ؛ ابن تغرى بردى ، المنهل الصافى جـ١ ، ٢١٤ ؛ ابن حجر ، الدرر الكامنة ، جـ١ ، ص ٤٤٩ ؛ مجير الدين ، الانس الجليل ، جـ٢ ، ص ٤٥٥ –٥٧ .

(٧) مجير الدين : نفس المصدر ، جـ٢ ، ص ٥٤١ – ٥٦٥ ؛ النعيمى ، الدارس فى تاريخ المدارس ، جـ١ ، نشر جعفر الجسنى ، دمشق ١٩٤٨ ، ص ٥٢ –٥٣ ؛ . le Strange; Palestine under Muslem p. 85

(٨) النعيمى : الدارس فى تاريخ المدارس ، جـ١ ، ص ٧٨ –١٤١ .

(٩) السيف المهند ، ص ٩ مقدمة .

(١٠) شذرات الذهب ، جـ ٧ ، ص ٢٧٠ وفيات سنة ٨٢٥ هـ .

(١١) وإبناء الغمر ، جـ١ ، ص ٣٧ فى ذكر وفيات سنة ٧٧٤ هـ .

(١٢) ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ١٤ ، ٤ .

(١٣) السلوك ، جـ٤ ، ص ٢٥٤ من القسم الأول .

(١٤) راجع عن هذه المؤلفات ، المقريزى : السلوك ، جـ٣ ، قسم ١ ص ٥٥ ، إبن العماد : شزرات الذهب ، جـ ٦ وفيات سنة ٧٦١ ، الدرر الكامنة ، جـ ٢ ، ص ٩٠ – ٩٢ ، رشاد الأمام : مدينة القدس ، ص ٢١٤ – ٢١٥ .

(١٥) ابن العماد : شزرات الذهب ، جـ ٢ ، ص ١٥ .

(١٦) مجير الدين : الأنس الجليل ، جـ ٢ ، ص ٥٠٣ - ٥٢٤ ، ابن العماد : شزرات الذهب ، جـ ٦ ، ص ٢٠٦ .
(١٧) ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ ٣ ، ص ٢٧٣ ، أبن الفرات : تاريخ ، ص ٧ ، ص ٦٩ - ٧٠ ، مجير الدين : الانس الجليل ، جـ ٢ ، ص ٤٩٣ ، رشاد الامام : مدينة القدس ، ص ٢١٠ - ٢١١ .
(١٨) السيوطى نظم العقيان ، ص ١١٥ ؛ ابن إياس : بدائع الزهور ، جـ ٢ ، ص ٢٠ - ٢٧ ؛ الخالدى : أهل العلم ، ص ٢٢ .
(١٩) السلوك ، جـ ٢ ، ص ١٥٨ ، إبن العماد : شزرات الذهب ، جـ ٦ ، ص ٣٥ - ٣٦ ؛
النابلسى : الحضرة الأنيسية ، ص ١٤ ؛ حول بيت المقدس ، ص ١٠٦- ١٠٧ .
(٢٠) السخاوى : الضوء اللامع ، جـ ٨ ، ص ١١٢ ، مجير الدين : الانس الجليل ، جـ٢ ، ص ٦٩٦ ؛
اللقيمى : كتاب لطايف أنس الجليل ، ورقة ٣٤ مخطوط بدار الكتب المصرية .
(٢١) ابن العماد : شذرات الذهب ، ٧ ، ص ١٢٠ - ١٢١ ؛ مجير الدين : الانس الجليل ، جـ ١ ، ص ٥٠٤ ، ٥٠٧ .
(٢٢) الانس الجليل ، جـ ٢ ، ص ٤٨٣ .
(٢٣) التبر المسبوك ، ص ١٣٠ - ١٣١ .
(٢٤) الأنس الجليل ، جـ ٢ ، ص ٥٢٤ .
(٢٥) عن هذه الاحصائية راجع : الانس الجليل ، جـ٢ ، من ص ٤٦٤ إلى ص ٦٠٣ .
(٢٦) عبد الحميد زايد ، القدس الخالدة ، ص ٢٦٢ .
(٢٧) Wright: Early travels in Palestine. P. 83.
(٢٨) الانس الجليل ، جـ٢ ، ص ٤٠١ .
(٢٩) The city of jeruaslem. P. 2726; AD escription of the East. Vol. I, P.7.
(٣٠) مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٧٤٠ تصوف طلعت .
(٣١) السلوك ، جـ ٣ ، قسم ١ ، ص ١٦٣ .
(٣٢) مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ب ٣٠٦٤٥ ، ونسخة أخرى برقم ٨٤٠ تصوف طلعت .
(٣٣) اسماعيل باشا : إيضاح المكنون ، جـ ١ ، ص ٢٠٣ .
(٣٤) الأنس الجليل ، جـ ٢ ، ص ٤٥٤ .
(٣٥) ابن العماد : شذرات الذهب ، جـ ٦ ، ص ٨٧ .
(٣٦) نظم العقيان ، ص ١٤٨ .
(٣٧) الخالدى : أهل العلم بين مصر وفلسطين ، ص ١٠ - ١١ .
(٣٨) مجير الدين : الأنس الجليل ، جـ ٢ ، ص ٥٩٥ .
(٣٩) المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٥٣٨ .
(٤٠) الزركلى : الاعلام ، جـ ٧ ، ص ٥٠ .
(٤١) السيوطى : نظم العقيان ، ص ٢٦ .
(٤٢) سعيد عاشور : « بعض أضواء جديدة على مدينة بيت المقدس ، ص ١٢ .
(٤٣) احمد عبد الرازق احمد : دراسات فى المصادر المملوكية ، القاهرة ٧٤ ، ص ١٧٤ .
(٤٤) قاسم عبده قاسم : الرؤية الحضارية للتاريخ عند العرب والمسلمين ، نشر دار المعارف ١٩٨٢ ، ص ١٠٩ .
(٤٥) قاسم عبده قاسم : المرجع السابق ، ص ١١١ .
(٤٦) محمد مصطفى زيادة : المؤرخين فى مصر فى القرن الخامس عشر الميلادى ، القاهرة ١٩٥٤ ، ص ٢٣ - ٢٤ .
(٤٧) قاسم عبده قاسم : الرؤية الحضارية ، ص ٢٠٤ - ٢٠٥ .
(٤٨) محمد مصطفى زيادة : نفس المرجع ، ص ٢٤ .
(٤٩) قاسم عبده قاسم : المرجع السابق ، ص ١٧٥ .
(٥٠) اعتمدنا فى ترجمته على كتابية « الروضتين فى أخبار الدولتين » ، الذيل على الروضتين ، وعلى ماذكره استاذنا الدكتور سعيد عاشور فى محاضراته لطلبة الدراسات العليا عام ١٩٦٨ م فى مادة مصادر البحث .
(٥١) احمد عبد الرازق احمد : دراسات فى المصادر المملوكية ، ص ١٧٤ ، ١٨٠ .
(٥٢) البغدادى : هدية العارفين ، جـ ١ ، ص ١١٠ .
(٥٣) قاسم عبده قاسم : الرؤية الحضارية للتاريخ ، ص ١٤١ - ١٤٢ .

(٥٤) احمد عبد الرازق : نفس المرجع ، ص ٤٨ .
(٥٥) قاسم عبده قاسم : نفس المرجع ، ص ١٤٢ .
(٥٦) عبد اللطيف حمزة : الحركة الفكرية فى مصر فى العصرين الأيوبى والمملوكى الأول ، دار الفكر العربى بالقاهرة ١٩٤٧ ، ص ٣٢٢ . ، قاسم عبده قاسم : نفس المرجع السابق ، ص ١٤٢ .
(٥٧) عبد اللطيف حمزة : الحركة الفكرية فى مصر ، ٣٢٤ — ٣٢٥ .
(٥٨) أحمد عبد الرازق : دراسات فى المصادر المملوكية ، ص ٤٨ ...
(٥٩) قاسم عبده قاسم : الرؤية الحضارية ، ص ١٤٢ .
(٦٠) نفس المرجع ، ص ١٤٣ — ١٤٤ .
(٦١) نفس المرجع والصفحات .
(٦٢) البغدادى : هدية العارفين ، جـ ١ ، ص ١١٠ .
(٦٣) راجع المخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٢٤ تاريخ .
(٦٤) انباء الغمر ، جـ ١ ، ص ٩٩ .
(٦٥) الأنس الجليل : جـ ٢ ، ص ٤٨٣ .
(٦٦) الخالدى : أهل العلم بين مصر وفلسطين ، ص ١٧ — ١٨ سعيد عاشور بعض أضواء جديدة على بيت المقدس ص ١٢ .
(٦٧) ابن حجر : انباء العمر ، جـ١ ، ص ٣ .
(٦٨) محمد مصطفى زيادة : المؤرخون فى مصر ، ١٧ — ١٩ .
(٦٩) ابن حجر : ابناء الغمر ، جـ ١ ، ص — ٢٠ .
(٧٠) محمد مصطفى زيادة : المؤرخون فى مصر ، ص ١٩ .
(٧١) ابن حجر : انباء الغمر ، جـ ١ ص ٢٠ .
(٧٢) المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٢١
(٧٣) قاسم عبده قاسم : الرؤية الحضارية للتاريخ ، ص ١٨٤ — ١٨٥ .
(٧٤) ابن حجر : انباء الغمر ج ١ ، ص ٧ .
(٧٥) محمد مصطفى زيادة : المؤرخون فى مصر ، ص ٩٤ — ٩٥ .
(٧٦) إنباء الغمر ، جـ ١ ، ص ٢١ — ٢٣ .
(٧٧) قاسم عبده قاسم : الرؤية الحضارية للتاريخ ، ص ١٨٦ .
(٧٨) عن هذه المخطوطة راجع ، فهرس المخطوطات المصورة ، جـ ١ تاريخ ، ص ٦٣ .
(٧٩) الأنس الجليل ، ج ٢ ، ص ٥٢٤ ، الاعلام ، جـ ١ ، ص ٢٢٨ — ٢٢٩ .
(٨٠) اسماعيل باشا : إيضاح المكنون ، جـ ١ ، ص ٦٠٤ .
(٨١) محمد مصطفى زيادة المؤرخون فى مصر ، ص ٢٣ — ٢٤ .
(٨٢) كحالة معجم المؤلفين ، جـ ٤ ، ص ١٢٠ .
(٨٣) الأنس الجليل ، جـ ٢ ، ص ٥٢٨ — ٥٣٠ ، رشاد الإمام مدينة القدس ، ص ٢٢١ — ٢٢٢ .
(٨٤) المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٦ .
(٨٥) انظر على سبيل المثال المصدر ذاته ، جـ ٢ ، ص ٤٨٦ ، ٥٢٧ ، ٥٥٦ ،
(٨٦) انظر على سبيل المثال أيضا المصدر نفسه ، جـ ٢ ، ص ٦١١ .
(٨٧) ابن حجر : الدرر الكامنة ، جـ ٢ ، ص ٢٤٠ .
(٨٨) الانس الجليل ، جـ ٢ ، ص ٥٣٧ .
(٨٩) الزركلى : الاعلام ، جـ ٧ ، ص ٣٢٨ .
(٩٠) إنباء الغمر ، جـ ٢ ، ص ٥٢٥ ، مجير الدين ، المصدر السابق ، جـ ٢ ص ٤٥٥ .
(٩١) البغدادى : هدية العارفين ، جـ ١ ، ص ١٢٠ .
(٩٢) راجع المخطوط بدار الكتب المصرية ، برقم ك ٣٨١٥ ضمن مجموعة .
(٩٣) مخطوط بدار الكتب برقم ك ٣٨١٥ ضمن مجموعة .
(٩٤) نفس المخطوط والرقم والرمز بدار الكتب المصرية ..

(٩٥) عن ذلك راجع : المخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٦٨ رياضة .

(٩٦) راجع المخطوط بدار الكتب المصرية برقم ب ٢٣٢٠٥ .

(٩٧) نظم العقيان ، ص ٩٢ .

(٩٨) The Jewish Ency. Vol. VII, 132.

(٩٩) عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ، جـ ٣ ، ص ٣٥٢ – ٣٥٣ ، ابن العبرى ، تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٥٣ .

(١٠٠) ابن ابى اصيبعة : نفس المصدر ، جـ ٣ ، ص ٣٥٥ .

(١٠١) ابن حجر : الدرر الكامنة ، جـ ١ ، ص ٣٦٣ ، احمد عيسى : معجم الأطباء من سنة ٦٥٠ إلى يومنا هذا – طبع القاهرة ١٩٤٢ ، ص ١٣٦ .

(١٠٢) أحمد عيسى : نفس المرجع ، ص ٣٥٧ نقلا عن تاريخ الاسلام الذهبى فى حوادث ٧٤٣ هـ .

(١٠٣) ابن حجر : نفس المصدر ، جـ ١ ، ص ٢٧٥ .

(١٠٤) أحمد عيسى : نفس المرجع ، ص ٣٧٣ نقلا عن الضوء اللامع .

(١٠٥) إيضاح المكنون ، جـ ١ ، ص ٢٢

(١٠٦) The Jewish Eney. Vol. vii, p. 132, Ben sason: Jewish society Through the Ages, New york, 1973, p. 225.

(١٠٧) P.P. T. S. Vol. X, pp. 379-382

(١٠٨) Marie- Joseph: Apilgrimage to palestine p. g.

(١٠٩) Ibid P. G.

(١١٠) راجع إيضاح المكنون ، جـ١ ، ص ٥٩ .

(١١١) الأنس الجليل ، جـ ٢ ، ص ٥٦١ – ٥٩٦ .

(١١٣) سليمان اسحق عطية ، تاريخ التعليم فى فلسطين على عهد سلاطين المماليك ، رسالة دكتوراه بجامعة القاهرة ، ص ٢٣ ، Van Bercham Jerusalem Ville, I,P.286

(١١٤) السخاوى ، الضوء اللامع ، جـ ٤ ، ص ١٢٣ .

(١١٥) سليمان اسحق عطية : المرجع السابق ، ص ٢٦ .

(١١٦) ابن فضل الله العمرى : مسالك الأبصار ، جـ ٥ ورقة ٢٢ مخطوط ، ابن شاهين : زبدة كشف الممالك ، ص ٣٧ ، مجير الدين : الأنس الجليل ، جـ ٢ ص ٥٦١ – ٥٩٦ .

(١١٧) سليمان اسحق عطية المرجع السابق ، ص ٢٦ .

(١١٨) كرد على : خطط الشام ، جـ ٦ ، ص ١١٧ .

(١١٩) لمزيد من المعلومات عن هذه الوثيقة راجع ، عبد اللطيف ابراهيم* وثيقة السلطان قايتباى ، دراسة وتحليل المدرسة بالقدس والجامع بغزة ، طبع القاهرة ١٩٦١ م ويتفق ما جاء بهذه الوثيقة مع ما جاء بوثيقة وقفية الأمير تنكز التى نشرها د . كامل جميل العسلى ، فى كتابه وثائق مقدسية تاريخية ، جـ ١ ، طبع عمان ١٩٨٣ صـ ١٠٨ – صـ ١٢٠

(١٢٠) المرجع نفسه ، ص ٤٠٩ – ٤١١ . كامل جميل العسلى : نفس المرجع والصفحات

(١٢١) وظيفة الشاد يتولاها موظف يطلق عليه « الشاد » أو « المشد » وقد عرفت هذه الوظيفة فى الدواوين كما عرفت فى الأوقاف . وكان يشترط فيمن يتولاها أن يكون ثقة أمينا من أهل الخير والدين له همة ونهضة ، وهو بمثابة الملاحظ المشرف أو المفتش على القومة وأرباب الوظائف فهو يعمل ما فيه مصلحة الوقف العائد نفعها على مستحقية ، كما كان وظيفة الجباية يتولاها الجابى الذى يشترط فيه نفس الشروط السابقة ، ومهمته جباية الأموال الهلاليه (شهريا) من مستحقات الوقف ، والأموال الخراجية (سنويا أو على أقساط ، ويستخرج – الاجور ، ويسكن الأعيان الموقوفة أو يخليها ، ويتولى قبض الريع وضبطة وكتابة حسابة ويورد ما يجبية للصيرفى أولا فأول إلا إذا كان هو نفسه الصيرفى عن ذلك راجع : محمد محمد أمين ، الاوقاف والحياة الاجتماعية فى مصر ، القاهرة ١٩٨٠ ص ٣٠٦ – ٣١١ .

(١٢٢) عبد اللطيف ابراهيم نفس المرجع ، ص ٤١١ – ٤١٢ .

(١٢٣) نفس المرجع ، ص ٤٣٠ – ٤٣٢ .

(١٢٤) سعيد عاشور : بعض أضواء جديدة ، ص ٢٣ .

(١٢٥) عارف المعارف تاريخ القدس ، ص ٨٩ .

(١٢٦) Repertoire. Tome 3 pp. 146- 147; van Berchem Jerusalem Ville, Vol, 25, p. 214.

(١٢٧) الأنس الجليل ، جـ ٢ ، ص ٥٩٦ .

(١٢٨) كرد علي : خطط الشام ، جـ ٦ ، ص ١١٧ ؛ سعيد عاشور : بعض أضواء جديدة على مدينة بيت المقدس ص ٢٣ .

(١٢٩) انظر كامل جميل العسلي : وثائق مقدسيه تاريخية ، ص ١٠٨ – ١٢١ ، محمد محمد أمين : الاوقاف والحياة الاجتماعية فى مصر ، ص ٢٤٠ – ٢٤٢ .

(١٣٠) Bayard Dodge; Muslim education in Medieval Times the Middle east Inst Washingon 1962, p. 3

(١٣١) سليمان اسحق عطية : تاريخ التعليم فى فلسطين ، ص ٨ .

(١٣٢) الأنس الجليل ، جـ ٢ ، ص ٥٣٤ ، ٥٧١ .

(١٣٣) P. P. T. S, Vol. Vll, p. 396.

(١٣٤) ابن فضل الله العمرى مسالك الابصار ، جـ ٣ ، ورقة ١٨٠ مخطوط ، مجير الدين : الأنس الجليل ، جـ ٢ ، ص ٦٠٣ .

(١٣٥) الانس الجليل ، جـ ٢ ص ٦٠٣ .

(١٣٦) المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٥٧٤ .

(١٣٧) نفس المصدر ، جـ ٢ ، ص ٥٣٤ . سليمان اسحق عطية تاريخ التعليم فى فلسطين ، ص ٨ .

(١٣٨) نفس المصدر ، جـ ٢ ، ص ٥٧١ ، ونفس المرجع ، ص ٨ .

(١٣٩) عبد الغنى محمود التعليم فى مصر زمن المماليك ، رسالة ماجستير بكلية الآداب بجامعة القاهرة ، ص ٧٢ .

(١٤٠) المرجع السابق ، ص ٧٢ .

(١٤١) مسالك الأبصار ، جـ ٥ ، ورقة ٩٣ مخطوط .

(١٤٢) ابن الحاج المدخل « مدخل الشرع الشريف على المذاهب » ٣ أجزاء ، طبع القاهرة ١٣٢٠ ق ، جـ ٢ ، ص ٩٦ .

(١٤٣) السبكى : معيد النعم ومبيد النقم ، دار الكتاب العربى بمصر ١٩٤٨ ص ١٣٠ .

(١٤٤) ابن الحاج نفس المصدر ، جـ ٢ ، ص ٩٩ – ١٠٠ .

(١٤٥) ابن الأخوة معالم القرية ، ص ٢٦٠ – ٢٦١ ، عبد اللطيف ابراهيم : نصان جديد ان من وثيقة الأمير صرغتمش « مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة المجلد ٢٨ لسنة ١٩٦٦ ، ص ١٥٥ ، ١٧٣؛ احمد دراج : حجة وقف الأشرف برسباى ص ٣ – ٤ .

(١٤٦) ابن الحاج : المدخل ، جـ ٢ ، ص ٩٤ – ١٠٠ .

(١٤٧) عبد اللطيف ابراهيم * « نصان جديدان » ، ص ١٥٥ .

(١٤٨) محمد حلمى محمد * « الحياة العلمية فى مصر والشام » ص ٧

(١٤٩) Bayard Dodge. Muslim education. pp. 3- 4

(١٥٠) عبد اللطيف ابراهيم * المرجع السابق ، ص ١٧٤ – ١٧٦ ، احمد دراج * حجة وقف الأشرف برسباى ، ص ٣ – ٤ .

(١٥١) ابن الحاج نفس المصدر ، جـ ٢ ، ص ١٨١ – ١٨٢ .

(١٥٢) المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ١٠١ ، عبد الغنى محمود * التعليم فى مصر ، ص ٧٧ .

(١٥٣) ابن الاخوة * معالم القرية ، ص ٢١٦ .

(١٥٤) المدخل ، جـ ٢ ، ص ١٠٠ ، عبد الغنى محمود التعليم فى مصر ، ص ٨٤

(١٥٦) عبد اللطيف ابراهيم * « نصان جديدان .. » ص ١٧٤ .

(١٥٧) عبد الغنى محمود * التعليم فى مصر ، ص ٨٦ .

(١٥٨) عبد الغنى محمود * التعليم فى مصر ، ص ٩٠ .

(١٥٩) Ben- Saoan; jewish Society pp 148- 154

(١٦٠) Ibid, pp 151- 160

(١٦١) Alexander Max; Studies In jewish History and Booklore, New York 1944, p.29.

(١٦٢) السخاوى : التبر المسبوك ، ص ١٣٨ ، مجير الدين ، الأنس الجليل ، جـ ٢ ، ص ٥٣١ ، ٥٣٨ ، ٥٦٥ ، ٦٠٣ .

(١٦٣) مجير الدين : المصدر نفسه ، جـ ٣ ، ص ٦٠٣ ، Bayard Dodge:op cet. p. 7

(١٦٤) Ibid, pp. 10-11

(١٦٥) إنباء الغمر ، جـ١ ، ص ٩٩ ؛ الدور الكامنة ، جـ ٢ ص ٩١ ؛ الأنس الجليل ، جـ٢ ، ص ٥٠١ - ٥٠٣ .

(١٦٦) Bayard Dadge: Cp. Cit. PP. 7-8.

(١٦٧) محمد حلمى × « الحياة العملية فى مصر .. » ص ٢٢ .

(١٦٨) ابن العماد × شذوات الذهب ، جـ ٨ ، ص ٩ ؛ مجير الدين × الأنس الجليل ، جـ ٢ ، ص ٥٥٢ - ٥٥٤ .

(١٦٩) Bayard Dadge: Cp. Cit. P. 24.

(١٧٠) تنسب هذه المدرسة إلى الشيخ نصر الدين القدسى ، ثم عرفت بالغزالية نسبة إلى أبى حامد الغزالى والتى أعاد إنشاءها الملك المعظم عيسى وجعلهم زاوية لقراءة القرآن والاشتغال بالنحو ووقف عليها كتب من جملتها إصلاح المنطق لابى يوسف يعقوب بن اسحاق ابن السكيت وظلت فترة كبيرة من العصر المملوكى تؤدى تلك الوظيفة . راجع الأنس الجليل ، جـ ٢ ، ص ٣٨٦ .

(١٧١) الأنس الجليل ، جـ ٢ ، ص ٦١٠ ، ٦١٨ .

(١٧٢) المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٣٨٠ ، ٣٨٦ .

(١٧٣) مجير الدين * نفس المصدر ، جـ ٢ ، ص ٣٩١ ، كرد على خطط الشام ، جـ ٦ ، ص ١٢٥ .

(١٧٤) يؤكد مجير الدين ذلك فى حديثه عن المدرسة الصبية التى بناها الأمير علاء الدين على بن ناصر الدين نائب القلعة والذى ولى نيابة القدس وعمر بها تلك المدرسة ثم توفى بدمشق سنة ٨٠٩ هـ ثم نقل إلى القدس بعد فترة ودفن بمدرستة هذه ، راجع الأنس الجليل ، جـ ٢ ، ص ٣٩٠ ، ٣٩١ .

(١٧٥) المصدر السابق جـ ٢ ، ص ٣٩٠ ، ٣٩١ ، Wiet: Repertoire Tome 16 p 99

(١٧٦) محمد حلمى : الحياة العلمية فى مصر ... ، ص ٧ .

(١٧٧) الخالدى : أهل العلم بين مصر وفلسطين ، ص ٨ .

(١٧٨) مجير الدين * الأنس الجليل ، جـ ٢ ، ص ٣٩٥ ، ٣٩٦ .

(١٧٩) مجير الدين ، الانس الجليل ، جـ ٢ ، ص ٣٨٥ - ٣٩٨ ، اللقيمى * كتاب لطايف أنس الجليل ، ورقة ٢٣ - ٣٥ مخطوط .

(١٨٠) الخالدى * المعاهد المصرية فى بيت المقدس ، ص ١٢ .

(١٨١) كرد على * خطط الشام ، جـ ٦ ، ص ١٢٥ .

(١٨٢) سليمان اسحق عطية ، تاريخ التعليم فى فلسطين ، ص ١٣ .

(١٨٣) راجع كامل جميل :وثائق مقدسية ص ١٠٨ ، ص ١٠٩ ، ص ١١٠ ، عن وصف المدرسة راجع * مجير الدين ، الأنس الجليل ، جـ ٢ ، ص ٦٥٩ - ٦٦١ ،عبد الغنى النابلسى * الحضرة الأنيسية ص ١٨ - ٢٠ .

(١٨٤) مجير الدين * الأنس الجليل ، جـ ٢ ، ص ٣٩٠ .

(١٨٥) Bayard Dodge: Op. cit p. B.

(١٨٦) ابن اياس * بدائع الزهور ، جـ ٣ ، ص ٢١٨ .

(١٨٧) Nicola Ziadeh: Urban life In Syria, pp. 156-57

(١٨٨) عبد اللطيف ابراهيم * نصان حديدان ، ص ١٦٠ .

(١٨٩) محمد محمد أمين * الأوقاف والحياة الاجتماعية ، ص ٢٤٥ .

(١٩٠) الانس الجليل ، جـ ٢ ، ص ٤٨٦ .

(١٩١) نفس المصدر ، جـ ٢ ، ص ٤٧٤ .

(١٩٢) عبد اللطيف ابراهيم : نصان جديدان ، ص ١٧٠ ، كامل العسلى : نفس المرجع ، ص ١١٧

(١٩٣) عبد الغنى محمود : نفس المرجع ، ص ١٦٦

(١٩٤) عبد الغنى محمود : نفس المرجع ، ص ١٦٨

(١٩٥) الأنس الجليل : جـ ٢ ، ص ٤٠١ ، ٤٠٢

(١٩٦) يوسف الدبس * تاريخ سورية ، مجلد ٧ ، ص ١٤٢ ، فيليب حتى * تاريخ لبنان طبع بيروت ١٩٦٣ ، ص ٤٩٤ .

(١٩٧) يوسف الدبن * نفس المرجع ، مجلد ٦ ، ص ١٧٨ .

(١٩٨) مراد كامل * تاريخ الأدب السريانى ، ص ٣٦٥ - ٣٩٦ .

(١٩٩) المرجع السابق ، ص ٢٤ .

(٢٠٠) المرجع نفسه ، ص ٢٤ .

(٢٠١) يوسف الديس * الجامع المفصل فى تاريخ الموارنة المؤصل ، ص ٥٧٨ - ٥٧٩ .

(٢٠٢) أحد الآباء اليسوعين * تاريخ طائفة الروم ص ٣٠ - ٣٣ .

(٢٠٣) المرجع السابق نفسه والصفحات ، يوسف الديس * الجامع الفصل ، ص ٥٧٨ ، ٥٧٩ .

(٢٠٤) أحد الآباء اليسوعين * نفس المرجع ، ص ٣٠ ، ٣٢ .

(٢٠٥) مراد كامل * تاريخ الأدب السريانى ، ص ٣٥٠ .

(٢٠٦) عمر عبد السلام ، تدمرى : الحياة الثقافية فى طرابلس فى العصور الوسطى ، بيروت ١٩٧٣ ، ص ٦٨ .

(٢٠٧) Ray John: Acollecton of Curios Travels vol I PP. 143-44

(٢٠٨) عبد الحميد زايد * القدس الخالدة ، ص ٢٣٠ - ٢٣١ ؛ يوشع براور * عالم الصليبيين ، ص ١١٥ . ، كذلك راجع صابر دياب * دراسات فى عالم البحر المتوسط فى العصور الوسطى ص ٦٣ .

(٢٠٩) نقولا زيادة * رواد الشرق العربى ، ص ١١٠ .

(٢١٠) Ali Ibrahim: Jews of the Arab countries, Beirut 1971, PP. 10 - 11

(٢١١) محمد الحبيب به الخوجة * يهود المغرب العربى ، نشر جامعة الدول العربية قسم البحوث والدراسات الفلسطينية ١٩٧٣ ص ٣٣ ، ٣٧ ، صابر دياب * دراسات فى عالم البحر المتوسط ص ٦٥ .

(٢١٢) Ben Sason: Op. cit. P. 160

(٢١٣) Jewish Ency: Vol. V11, P. 133

(٢١٤) Bensason: Op. cit PP. 151-54

(٢١٥) Alexander Max: Op. cit, P. 29

(٢١٦) العماد الأصفهانى ، الفتح القسى ، ص٦٦ ؛ المنهلجى السيوطى : اتحاف الأخصاء بفضائل المسجد الأقصى ، ورقة ٩٤ مخطوط بدار الكتب .

(٢١٧) العابدى : قدسنا ص ٧٩ .

(٢١٨) كرد على : خطط الشام ، جـ٢ ، ص ٢٠٠ .

(٢١٩) مجير الدين : الأنس الجليل ، جـ ٢ ، ص ٣٨٦ ، كرد على خطط الشام ، جـ ٢ ، ص ١١٩ .

(٢٢٠) المصدر السابق جـ ٢ ، ص ٣٨٠ ، ٣٨٦ ، ص ٤٤٣ - ٤٤٥ .

(٢٢١) كرد على : خطط الشام جـ ٦ ، ص ٢٠٠ عبد الحميد زايد : القدس الخالدة ص ٢٦٢ العابدى : قدسنا ، ص ١٢٣ .

(٢٢٢) كرد على * المرجع نفسه ، جـ ٦ ، ص ١٩٢ .

(٢٢٣) عبد اللطيف ابراهيم : دراسات فى الكتب والمكتبات الاسلامية القاهرة ص ١ - ٣٥

(٢٢٤) السبكى : معيد النعم ، ص ١٠٥ ، عبد اللطيف ابراهيم : دراسات فى الكتب والمكتبات ، ص ٣٦ - ٣٧ .

(٢٢٥) عبد اللطيف ابراهيم * . دراسات فى الكتب والمكتبات ص ٣٧

(٢٢٦) محمد محمد أمين : نفس المرجع ، ص ٢٥٥ ، ٢٥٦

(٢٢٧) السبكى : : نفس المصدر ، ص ١١

(٢٢٨) السبكى : نفس المصدر ، والصفحة

(٢٢٩) مؤلف مجهول : رحلة الى فلسطين والقدس ، ظهر ورقة ٦٥ ، مخطوط بدار الكتب المصرية .

(٢٣٠) الصلاح الكتبى : فوات الوفيات ، جـ١ ، صـ ٥٩ ، ابن العماد : شذرات الذهب . جـ٧ ، صـ ٢٠٥ ،

(٢٣١) الزركلى : الاعلام ، جـ١ ، ص ٤٦ .

(٢٣٢) ابن حجر إنباء الغمر ، جـ١ ، ص ٣٤٣ ، ٣٤٤ ،ص ٣٣٥ .

(٢٣٣) فيليب دى طرازى : خزائن الكتب العربية فى الخافقين ، جزءان ، طبع بيروت سنة ١٩٤٧ ، جـ١ ، ص ٢٩٤ .

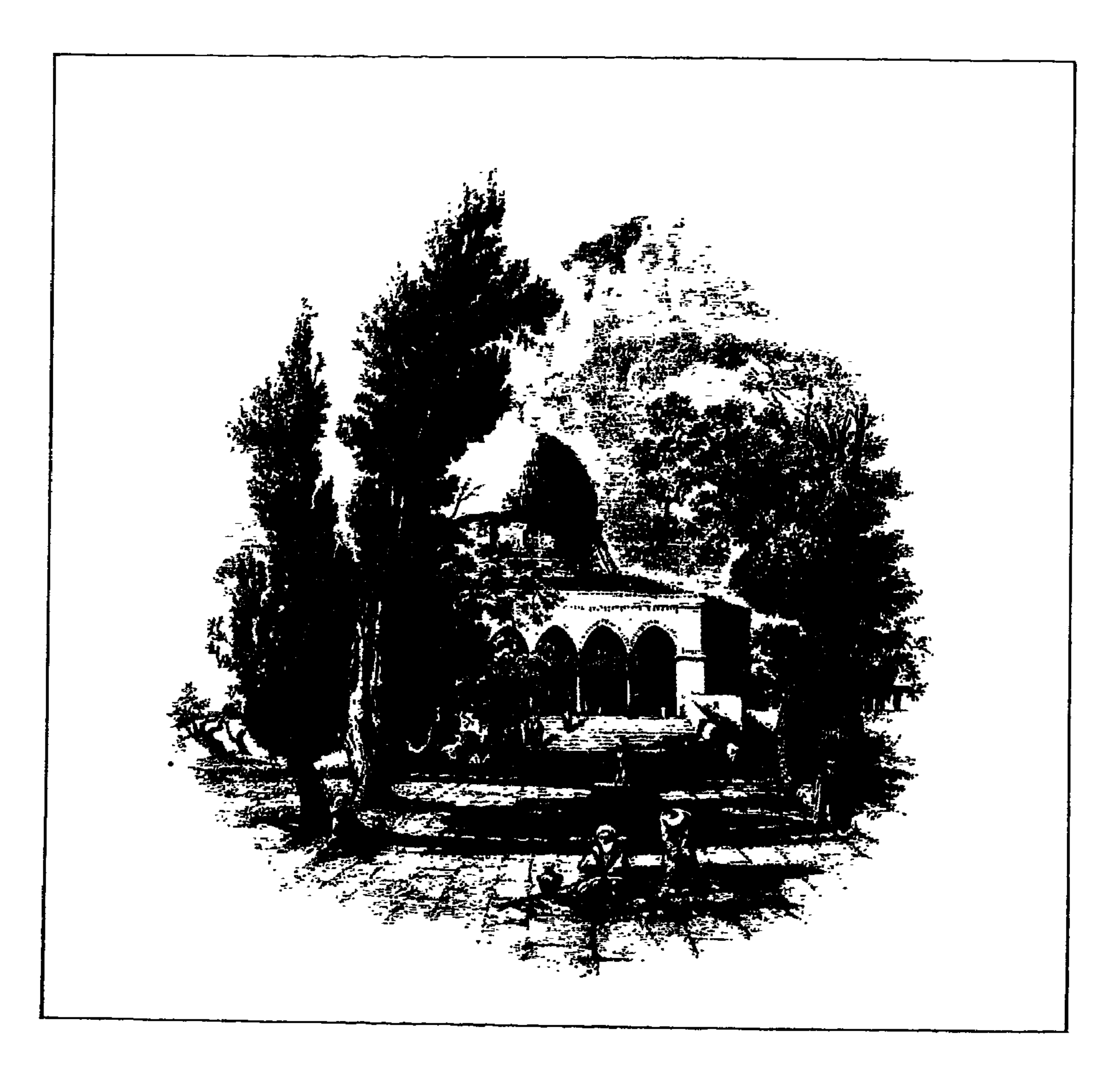
(٢٣٤) Warren: The survey of western palestine, london 1884, p. 31

(٢٣٥) فيليب دى طرازى : المرجع السابق ، جـ٢ ، ص ٤٧٥ .

(٢٣٦) فيليب دى طرازى : خزائن لكتب العربية ، جـ٢ ، ص ٤٧٦ ، ٤٧٧ .
(٢٣٧) لمزيد من المعلومات عن تلك المكتبات المختلفة راجع ، فيليب دى طرازى المرجع السابق جـ٢ ، ص ٤٧٥ – ٤٧٩ .
(٢٣٨) المرجع السابق ، جـ٢ ، ص ٤١٣ .
(٢٣٩) المرجع السابق ، جـ٢ ، ص ٤٤٩ .
(٢٤٠) حبيب الزيات : خزائن الكتب فى دمشق وضواحيها ، طبع مطبعة المعارف بمصر ١٩٥٢ ، ص ١١٩ .
(٢٤١) Bliss: The Religion of Modern Syria and Palestine. p. 116 -
(٢٤٢) فيليب دى طرازى : نفس المرجع حـ ٢ ، ص ٤١٣ ، عمر عبد السلام تدمرى : نفس المرجع ، ص ٢٢
(٢٤٣) السخاوى : التبر المسبوك ، ص ١٣٨ ، مجير الدين : نفس المصدر ، حـ ٢ ص ٥٣٦ – ٥٦٥
(٢٤٤) المنهاجى السيوطى : نفس المصدر ، ورقة ٩٤
(٢٤٥) الدرر الكامنة ، حـ ١ ، ص ٤٤٩ ، حول بيت المقدس ، ص ١١٠
(٢٤٦) مؤلف مجهول : رحلة إلى فلسطين والقدس ونابلس ، ظهر ورقة ٦٦ مخطوط .
(٢٤٧) راجع ، الانس الجليل ، حـ ٢ ، ص ٦٢٢ – ٦٢٣ .
(٢٤٨) تاريخ الأمير يشبك ، ص ١٦ ، Lapidus: Muslim Cities pp 107- 113
(٢٤٩) الأنس الجليل ، حـ ٢ ، ص ٥٦٢ – ٥٦٣
(٢٥٠) Lapidus: Op. cit. pp. 135- 141
(٢٥١) الأنس الجليل ، جـ٢ ، ص ٥٨٠ .
(٢٥٢) التبر المسبوك ، ص ٢٠٨ .
(٢٥٣) الأنس الجليل ، حـ ٢ ، ص ٦٧٠ ، ٦٧٢
(٢٥٤) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٦٧٦ .
(٢٥٥) المصدر نفسه ، جـ ٢ ، ص ٦١٨ .
(٢٥٦) احمد دراج : المماليك والفرنج ص ٤٠ .
(٢٥٧) المقريزى : السلوك جـ ٢ ، قسم ١ ص ٢٠٣ رشاد الإمام : مدينة القدس ص ٢٢٣ – ٢٢٥ .
(٢٥٨) المصدر السبق والصفحة نفسها .
(٢٥٩) Lapidus: Op. cit pp 134- 145

الفصل الرابع

الحياة الاقتصادية في بيت المقدس على عصر سلاطين المماليك



في حديثنا عن الحياة الاقتصادية فى مدينه بيت المقدس على عصر سلاطين المماليك ، سنتناول بالبحث كيف أثرت العوامل الطبيعية — من موقع جغرافى وطبيعة أرضها فى أحوالها المناخية من أمطار ورياح ودرجة حرارة — مما كان له أكبر الأثر فى أحوالها النباتية ، وكيف لعبت القرى المجاورة دورا بارزا فى حياة المدينة وأهلها كذلك سنتناول بالحديث الزراعة وأهم منتجاتها الزراعية وكيف اعتمدت الصناعة على الانتاج الزراعى بالدرجة الأولى ، ثم التجارة والأسواق والمؤسسات التجارية التى عرفتها المدينة فى ذلك العصر ، والعوامل التى ساعدت على ازدهار التجارة ، ثم الحج كأحد العوامل الاقتصادية الهامة فى حياة سكان المدينة ، ثم الأزمات الاقتصادية التى شهدتها المدينة وأسبابها ، فضلا عن الضرائب المختلفة وكيف أنعكست سياسة المماليك الدينية فى بيت المقدس عن طريق حرص سلاطين المماليك الدائم على رفع المظالم والمكوس عن أهالى بيت المقدس والتخفيف عنهم ، بالرغم من الأزمات الاقتصادية التى كانت تعانى منها الدولة وأخيرا المعاملات المالية وكيف عرفت المدينة العديد من المعاملات المالية ، فضلا عن تأثرها بالأحوال الاقتصادية للدولة .

أثر الظروف الطبيعية فى أحوال بيت المقدس الاقتصادية

من المعروف أن المدن ذات الأهمية الدينية قد أتصفت بالفقر ، وعدم وجود موارد طبيعية كبيرة فيها ، ووقوعها فى وديان غير ذات زرع ، وذلك لتظل بمنجاة من الترف الذى هو سبب هلاك القرى والمدن ولذا فإن الغالب فى هذه المدن أن تكون غير مرغوبة السكنى من أصحاب السطوة والمترفين ، غير مأثورة إلا من الراغبين عن الحياة الدنيا الحريصين على نعيم الآخرة ، ويتضح لنا ذلك من خلال استعراض الحشد الهائل من العلماء الذين ذكرهم المؤرخ المعاصر مجير الدين[1] .

ولم تشذ بيت المقدس عن هذه القاعدة طوال عصورها التاريخية ، حيث تحكمت عوامل الطبيعة فى مجريات أمورها الاقتصادية ، فهى تقع على خط العرض ٣٢° شمالا وعلى خط الطول ٣٥° شرقا ، كما تبعد حوالى ٥٥ كيلو مترا شرقا من ساحل البحر الأبيض المتوسط ، وحوالى ٣٠ كيلو مترا غربا

من نهر الأردن ، وبذلك كانت بعيدة عن طرق التجارة القديمة البرية المعروفة ، فضلا عن أن موقعها هذا ، بعيدا عن البحر المتوسط أو البحر الأحمر ، لم يجعل منها إحدى الموانى الهامة التى كان لها دور هام فى التجارة العالمية فى العصور الوسطى .

هذا فضلا عن أنها أقيمت على أربعة جبال هى : جبل موريا أى المختار القائم عليه المسجد الأقصى ومسجد الصخرة ، الجبل وجبل صهيون ، وهو الذى يعرف بجبل النبى داود ، ومعناه الجبل المشمس الجاف ، الذى يشكل الجزء الجنوبى الغربى من جبال بيت المقدس الأربعة ، ويرتفع حوالى ٧٧٠ مترا عن سطح البحر ، كذلك جبل أكرا حيث توجد كنيسة القيامة ، وجبل بزيتا ، والذى يقع بالقرب من باب الساهرة . كما يحيط بالمدينة عدة جبال أهمها :ـــ

جبل أبو عمار عند خط عرض ٤٤ر٣١° وخط ٥ر٣٥° ، ويبلغ ارتفاعه ٧٧٢ مترا عن سطح البحر وجبل الزيتون والذى يدعى أيضا جبل الطور ويقع الى الشرق من المدينة ويبلغ ارتفاعه ٨٢٦ مترا عن سطح البحر ، وهو يواجه اسوار الحرم الشريف من الشرق ، ويفصله عنه وداى القدرون ، وجبل المشارف الذى يقع الى شمال شرقى المدينة ويتصل بجبل الزيتون ، وجبل المنظار والذى يقع جنوبى شرق المدينة ، عند خط عرض ٤٤ر٣١° ويبلغ ارتفاعه ٥٢٤ مترا من سطح البحر ، بالإضافة إلى جبل النبى صموئيل والذى يقع شمال غربى المدينة على بعد قريب من قرية بيت حنينا ، ويبلغ ارتفاعه ٨٨٥ مترا عن سطح البحر .

هذا وترتفع مدينة بيت المقدس حوالى ٨٩٢ مترا عن سطح البحر وتحيط بها عدة مرتفعات هى عبارة عن تلال متوسطة الارتفاع ويفصل ما بين تلك التلال والجبال المحيطة بها عدة أودية مثل وادى جهنم ووادى القدرون ووادى زيتا وغيرها[٢] .

واذا وضعنا فى اعتبارنا طبيعة تلك المنطقة الصخرية التى تقع فيها المدينة والتى يصفها لنا ياقوت الحموى بقوله « ان أرضها وضياعها كلها جبال شامخة وليس حولها ولا بالقرب منها أرض وطيئة البتة .. وأما نفس المدينة فهى على فضاء فى وسط الجبال وأرضها كلها من حجر الجبال التى هى عليها[٣] » ـــ لأدركنا مدى تأثير العوامل الطبيعية فى حياتها الاقتصادية ، من قلة الأراضى الزراعية وقلة المياه حيث لا توجد بها أنهار ، هذا فضلا عن كونها منطقة بركانية تعرضت من قديم الازمان لهزات أرضية ومنها ما كان مدمرا بحيث تقتل الناس والحيوانات بأعداد كبيرة[٤] .

وقد كان للعوامل الطبيعية فى تلك المنطقة الجبلية أثر كبير فى أحوال القدس المناخية فمن ذلك أنه بينما يصل الحد الأدنى لدرجات الحرارة الى ١٠° فإن الحد الأعلى يصل إلى ٣٥ درجة مئوية ، وطقسها حار جاف والرطوبة متوسطة فضلا عن تأثير هذا المناخ فى نوع النباتات التى تزرع بها ، وهذا ما سوف نتناولة بالتفصيل فى السطور التالية[٥] . كذلك كان لموقع المدينة فوق هضبة يبلغ أقل ارتفاع لبعض أجزائها أكثر من ٢٥٠٠ قدم فوق سطح البحر ، أثر كبير فى ظروفها المناخية وبخاصة الرياح فقد تعرضت المدينة تقريبا لكل أنواع الرياح عند هبوبها ، مثل الرياح الغربية والرياح الشمالية الغربية فى فصل الشتاء ، وكذلك الشرقية والجنوبية والتى كثيرا ما يستمر هبوبها ما بين يوم وثلاثة

أيام وأحيانا لفترات أطول ، والتى غالبا ما تكون محملة بالرمال والأتربة ، والتى يمكن أن تقتلع الأشجار وتحمل معها كل ما يمكن تحريكه فضلا عما كان ينتج عن ذلك من اضطراب فى كمية سقوط الأمطار وما كان يؤدى إليه من تأثير على حاصلاتها الزراعية(٦) . وتؤكد لنا المصادر المعاصرة تلك الحقيقة بما لا يدع مجالا للشك حيث يروى لنا الرحالة اليهودى موسى بن مناحم الفولتيرى والذى زار القدس سنة ١٤٨١ م ما شهده بنفسه هناك عند زيارته مما دعاه الى الدهشة من كثرة ما يهب على المدينة من رياح صيفا وشتاء ، ومن كل أرجاء المعمورة أو أركان الأرض ، والتى لم ير لها مثيلا ، وما كان لها من أثار على الناس والزروع والحيوانات(٧) . كذلك يؤكد لنا الرحالة اليهودى عوبديا الذى زارها سنة ١٤٨٧ م تلك الحقيقة من أن المدينة معرضه لهبوب الرياح على اختلاف أنواعها بل يذكر أن كل ريح يجب أن تمر على القدس حتى يباركها الله قبل إتمام اتجاهها(٨) .

هذا وقد كان لتلك العوامل الطبيعية من طبيعة صخرية وارتفاع سطحها عن الأرض ، فضلا عن تعرضها لأنواع مختلفة من الرياح أثره الواضح فى المناخ وفى كمية سقوط الأمطار ، وتشير بعض المراجع الى أن معدل سقوط الامطار السنوى بها يصل إلى حوالى ٦٠٠ ملليمترا موزعة غالبا على موسم الشتاء ، والذى يستمر من شهر نوفمبر إلى نهاية مارس من كل عام ، وهذه النسبة من الأمطار تكاد تكون قليلة بالنسبة للزراعة(٩) وتؤكد لنا المصادر المعاصرة صحة ذلك الرأى ، من ذلك ما يروية لنا الرحالة سيجولى الذى زارها سنة ١٣٨٤ م ، فى حديثة عن الأمطار ، ان السماء اذا امطرت فإن الشوارع تبقى جافة بسبب أنحدارها الشديد ، وأن المدينة بوجه عام كانت ذات أرض مجدبة وفقيرة المياه(١٠) ، كذلك يؤكد لنا الأب سوريانو وهو الذى عاش بها فترة فى أواخر القرن الخامس عشر الميلادى كما سبق وأشرنا ، أنه يحدث الرعد والبرق فى الشتاء وفى قليل من الأحيان يستمر المطر لمدة ثمانية أيام بدون انقطاع ، وأحيانا يحدث ما يشبه السيل بحيث تكاد تغرق المدينة ، ونفس الشيء بالنسبة للثلج ، ففى بيت المقدس إذا حدث وتساقط الثلج فقد يستمر ذلك يوما ، وفى هذا تأكيد على تركيز سقوط الأمطار فى فصل الشتاء القصير نوعا ما مع قلة سقوط الثلج وهذا ما يؤكدة لنا فى موضع آخر من أنه نادرا أن تمطر السماء فى غير شهور ديسمبر ويناير وفبراير(١١) . ويؤكد لنا مجير الدين ندرة سقوط الثلج فى المدينة ، فى حديثه عن سنة ٨٩٩ هـ/ ١٤٩٣ م وهى ضمن الفترة التى عاشها سوريانو هناك بقوله « وفيها فى يوم الثلاثاء تاسع عشر ربيع الأول الموافق السابع كانون الثانى وقع الثلج بالقدس الشريف واستمر ينزل من ظهر الثلاثاء الى عشية الخميس مستهل ربيع الآخر (أى حوالى أحد عشر يوما) ليلا ونهارا حتى امتلأت الشوارع والأسطحة والأماكن وحكى الكبار أنهم لم يروا مثل ذلك فى هذه الأزمنة من نحو سبعين سنة ...(١٢) » .

من هذا العرض الموجز يتضح لنا مدى تأثير موقع المدينة وطبيعتها الصخرية فى أحوالها المناخية من رياح وأمطار ودرجة حرارة مما كان له أكبر الأثر فى أحوالها النباتية وهذا ما سوف نتناوله بالحديث .

الزراعة

بالرغم مما تشير إليه كثير من المصادر عن طبيعة أرض بيت المقدس الصخرية ومن حيث أنها تقع على أرض جبلية مرتفعه وان الجبال تحيط بها من كل جانب ، وانه ليس بها أنهار أو آبار ، فضلا عما يقال أن الريف المجاور للمدينة والمناطق الزراعية به كانت ذات طبيعة جبلية إلى جانب أن أحوالها المناخية من رياح وأمطار ودرجة الحرارة كان لها اثرها المباشر فى أحوالها الزراعية ، مما قد يفهم منه أنها لم تكن صالحة للزراعة إلا اننا نستطيع أن نقرر انه وجدت فى أطراف المدينة وحولها كثير من التلال والأودية والقرى بما تخللها من موارد للمياه ـــ قد يسرت لها العديد من المناطق الزراعية التى أمدت المدينة بحاجة سكانها من حبوب وفاكهة وخضروات وخير ما يؤكد ذلك ما اورده الرحالة ناصر خسرو الذى زارها سنة ٤٣٨ هـ / ١٠٤٧ م حيث يقول « وسواد رساتيق بيت المقدس جبلية كلها ، والزراعة وأشجار الزيتون والتين وغيرها تنبت كلها بغير ماء ، والخيرات بها كثيرة ورخيصة وفيها أرباب عائلات يملك الواحد منهم خمسين ألف من من زيت الزيتون ، يحفظونها فى الابار والأحواض ويصدرونها إلى أطراف العالم » وفى موضع آخر يقول « وحين يسير السائر من المدينة جنوبا مسافة نصف فرسخ ، وينزل المنحدر يجد عين ماء تنبع من الصخر ، تسمى عين سلوان . وقد أقيمت عندها عمارات كثيرة ، ويسير ماء هذه العين بقرية شيدوا فيها عمارات كثيرة وغرسوا بها البساتين(١٣) .

هذا وتشير بعض المراجع الى أن بركة سلوان « سلوام » هذه وهى التى تقع أسفل سفح جبل صهيون فى وادى جهنم(١٤) ، والتى تبعد قليلا عن جنوب المدينة حيث توجد القرية المسماه باسمها ، هذه القرية والمنطقة المجاورة لها ، كانت تقوم بها كثير من الزراعات على مياه تلك البركة أو العين ، وكذلك على المجرى المائى الذى يسمى جيحون والموجود فى نفس الوادى(١٥) ، كما أن الحقول التى كانت تروى من بركة سلوان أو مجرى جيحون تعتبر من أخصب الأراضى الزراعية فى فلسطين وبعض هذه الأراضى كانت تنتج فى السنة أربعة محاصيل لتوفر مياه الرى اللازمة لها ، فضلا عن كثرة حقول القمح فى تلك المنطقة والتى اعتاد كثير من الحجاج المسيحيين القادمين الى المدينة أن يأخذوا منها لكى يقتاتوا بها إلى جانب مزارع الشعير ، كما أنها كانت عامرة ببساتين الفواكه والتى امتلأت أشجارها بكثير من التين والعنب واللوزر والجوز وغيرها من أشجار الصنوبر(١٦) .

هذا بالإضافة الى أن القرى المحيطة بالقدس من جهة الشرق كانت تعتبر من ضمن أهم المناطق الزراعية والتى أعتمدت عليها المدينة فى عصر سلاطين المماليك ، ومن هذه القرى يذكر لنا مجير الدين أريحا فيقول « وهى شرقى بيت المقدس بالقرب من نهر الأردن .. وقد صارت أريحا فى هذه الأزمنة قرية من قرى بيت المقدس وهى إقطاع لمن يكون نائبا بالقدس الشريف ومن عجيب الاتفاق انها كانت فى زمن بنى اسرائيل سكن الجبارين وفى زمن الاسلام مختصة بحاكم الشرطه(١٧) . أضف الى ذلك بعض القرى الواقعة الى الغرب من المدينة والتى يذكر منها مجير الدين أيضا قرية تعرف باسم البقعة والتى كانت أرضها من أحسن الاراضى الزراعية حسب رواية مجير الدين نفسه(١٨) . وكانت

هذه القرى الواقعة حول بيت المقدس لديها من موارد المياه ما يفى بحاجتها من الزراعة ، فهناك عين ماء العذراء وهى فى المنطقة المنخفضة من وادى القدرون والتى تسمى بئر أيوب ، وهناك عين أم الدرج وهى التى تسمى عين مريم أو بئر مريم وكذلك عين اللوزه وغيرها من عيون الماء ، والآبار التى وفرت لتلك المناطق حاجتها من المياه اللازمة للرى ، بالإضافة إلى مياه الأمطار[١٩] .

وكما كانت القرى المجاورة لبيت المقدس فى مختلف الجهات تمثل المناطق الزراعية التى اعتمدت عليها المدينة فى الوفاء باحتياجاتها من الغذاء فقد كانت هناك ايضا الأودية وخاصة فى المنطقة الممتدة ما بين بيت المقدس وبيت لحم والخليل ، والتى يصفها لنا الرحالة ناصر خسرو بأن المسافة بين بيت المقدس وبين الخليل تقدر بستة فراسخ عن طريق جنوبى به قرى كثيرة وزروع وحدائق وشجر برى لا يحصى من عنب وتين وزيتون وسماق . وعلى فرسخين من بيت المقدس أربع قرى بها عين وحدائق وبساتين كثيرة تسمى الفراديس لجمال موقعها[٢٠] . ويصف لنا كثير من الرحالة الذين زاروا الأرض المقدسة فى تلك الفترة ذلك الوادى الممتد بين القدس والخليل ، وما تخلله من قرى معتبرة كان يسكنها المسيحيون الوطنيون وما يزرعون فى هذه المنطقة من نباتات فضلا عن خصوبة أرض ذلك الوادى وكثرة موارد المياه به والتى تجعل الحياة تبعث على السرور[٢١] ولنا أن نتصور كبر حجم تلك المنطقة الممتدة ما بين القدس والخليل وما تخللها من مزارع ووديان وموارد مياه حيث كان المسافر يقطع تلك المسافة فى تلك الأزمنة فى يوم كامل حسب رواية ابن عبد الحق[٢٢] .

ويمكننا أن نضيف إلى المناطق الزراعية السابقة أيضا التلال المحيطة بمدينة بيت المقدس ، لا باعتبار ما قد ينبت على سفوحها ومنحدراتها من حشائش وأعشاب تصلح لرعى الحيوانات ولكن على أساس أن هذه التلال كانت تمثل احدى المناطق الزراعية الهامة لمدينة القدس ذاتها ، وقد اشتهرت هذه التلال باسم المحاصيل التى كانت تزرع بها بل واستمدت اسمها من أسماء تلك المحاصيل من ذلك ما نسمع عنه من وجود « تل الفول » والذى كان يقع على بعد خمس كيلو مترات إلى الشمال من بوابة دمشق فى القدس وهذ التل يطل حاليا على الطريق المؤدى الى مدينة نابلس[٢٣] .

من هذا العرض يتضح لنا أنه وإن كانت مدينة بيت المقدس قليلة الانتاج الزراعى بسبب قلة مياهها التى لاتكاد تفى بحاجة سكانها إلا أنه قد توفر لها من المناطق الزراعية الكثير والمتمثله فى القرى والتلال والوديان المحيطة بها ، وبما تخلل تلك المناطق من موارد للمياه تفى بحاجة اراضيها للزراعة وأن المدينة كانت تعتمد على الانتاج الزراعى الذى ينقل إليها ويباع فى أسواقها من تلك المناطق ، كما تجب الاشارة أيضا إلى أن تلك المناطق التى سبق ذكرها تابعة لمدينة بيت المقدس باعتبارها ولاية ثم نيابة بعد ذلك وكما سبق القول بذلك ، فضلا عن وجود كثير من المناطق المسطحة داخل المدينة والتى ربما استغلت فى الزراعة حسبما يفهم مما يردده لنا الرحالة كازولا والذى زارها آواخر القرن الخامس عشر كما سبقت الاشارة[٢٤] .

الانتـاج الزراعـي :

أما فيما يتعلق بالانتاج الزراعى لمدينة بيت المقدس فى عصر سلاطين المماليك فيمكننا أن نقسمه الى قسمين رئيسيين هما الاشجار المثمرة وما تغله الأرض من زراعات ، وفيما يختص بالأشجار المثمرة التى كانت توجد فى القدس وفى الأراضى الزراعية المحيطة بها يأتى شجر الزيتون على رأس تلك الاشجار ، فقد كانت أشجاره منتشرة بكثافة كبيرة على سفوح المدينة وحوافها وعلى جانبى التلال الصخرية الممتدة حول أطراف المدينة نفسها(٢٥) وكذلك كثرت زراعة أشجار الزيتون فى الجبال المحيطة بها وقد لفتت كثرة تلك الاشجار وبخاصة فوق جبل الزيتون أنظار كثير من الرحالة الغربيين الذين زاروها فى تلك الفترة(٢٦) . فضلا عن أنه كانت تزرع أشجاره فى كثير من القرى المجاورة للمدينة ، وعلى طول الوادى الممتد ما بين القدس ومدينة الخليل ، حيث يتخلل الوادى كثير من السهول المليئة بأشجار الزيتون ، والمعروف أن شجرة الزيتون تستغرق ما بين خمسة عشر عاما وعشرين عاما حتى تصبح ذات قيمة اقتصادية ، وأن الرى ضرورى لها فى مراحلها الأولى وكذلك تنقية الأعشاب من حولها وعندما تثمر الشجرة فربما تستمر فى انتاجها عدة قرون(٢٧) .

ومن الاشجار المثمرة والقديمة فى بيت المقدس أيضاً أشجار الكروم ، فقد ورد ذكرها عند كثير من الرحالة الذين زاروا البلاد منذ القرن الرابع الميلادى وحتى القرن السادس عشر الميلادى ، ونخص بالذكر من تلك المناطق التى كانت تزرع بالكروم المنطقة التى تقع إلى اليسار من وادى القدرون ، والتى يحدثنا عنها مجير الدين بقوله : « وبظاهر القدس الشريف من كل جهة كروم بها من أنواع الفواكه من العنب »(٢٨) ، كما تشير كثير من المراجع إلى أن اشجار الكروم كانت موجودة بكثرة فى المناطق المحيطة بالقدس على سفوح التلال والجبال ، وكذلك على امتداد الوادى ما بين بيت المقدس والخليل ، والذى يصفه لنا أحد حجاج بيت المقدس بقوله : ان كرمة العنب كانت تحمل ما بين ثمانية أقات من العنب إلى تسع أقات وكانت أشجاره مزروعه بكثرة بطول ذلك الوادى الذى يبلغ طوله حوالى الميل(٢٩) . كذلك يؤكد لنا الرحالة كازولا الذى يقول عنه : رأيت العنب كبيراً جداً ، أكبر مما قد رأيت فى بلادنا وأفضل بكثير مما لدينا(٣٠) .

ومن المرجح أن زراعة الكروم كانت من الزراعات التى اهتم بها المسيحيون المحليون ، ويؤكد لنا تلك الحقيقة الرحالة بيركارد الذى عاش هناك عام ١٢٨٠ م بقوله : وهناك كثير من أشجار الكروم ولكن المسلمين الذين يحكمون البلاد لا يشربون النبيذ ما عدا القليل منهم سراً . ولكن البعض منهم والذين يعيشون بالقرب من المسيحيين يزرعونه لكى يستفيدوا من بيعه لهم ، كما يؤكد دى لابروكيير الذى زار المدينة سنة ١٤٣٢ هذه الحقيقة أيضاً(٣١) .

كذلك وجدت أشجار التين بكثرة ، لكنها ليست بالكثرة التى تمتعت بها أشجار الكروم ، هذا فضلا عن أشجار الجوز والتوت والتفاح والخروب والليمون والمشمش والرمان والليمون الحلو والبرتقال والفستق بكميات كبيرة(٣٢) . ويروى ياقوت نقلا عن المقدسى فى وصفه لفاكهة بيت المقدس أنه « جمع الله فيها فواكه الاغوار والسهل والجبل والاشياء المتضادة كالاترج واللوز والرطب

والجوز والتين والموز » هذه الفاكهة التى يقول عنها كازولا أنها أكبر من أى فاكهة رآها فى بلاده(٣٣) . هذا بالاضافة إلى نخيل البلح ولان كان مجير الدين يؤكد لنا أنه فى داخل المدينة نفسها لم يكن بها سوى ثلاث نخلات منها واحدة كانت عند المسطبه التى إلى جانب سبيل السلطان غربى الصخرة والتى لم يعد لها وجود بعد عام ٨٠٠ هـ ، واثنتان ظلتا إلى عهده إحداهما عند باب الرحمة والثانية قبلى صحن الصخرة ، والتى تعرف بنخلة النبى ﷺ ، حيث قيل أنه رؤى عندها(٣٤) .

ومن الاشجار التى زرعت فى بيت المقدس شجرة القطن ويروى لنا الرحالة بيركارد ان القطن كان يزرع فى مناطق معينة ، ولعله يقصد بذلك فى المناطق التى تتوفر بها مياه الرى ، وأن طول الشجرة كان يبلغ طول ركبة الانسان ، ويزرع سنوياً ، وأن أوراق القطن كانت تشبه أوراق العنب ولكنها أصغر منها(٣٥) . ومما يؤكد لنا أن القطن كان يزرع طوال عصر سلاطين المماليك ما يرويه لنا الرحالة كازولا انه أثناء توجه الحجاج من يافا إلى بيت المقدس فقد شاهدوا كثيراً من أشجار القطن وهى مزدهرة بالقطن والذى كان قد تم نضجه فى ذلك الوقت(٣٦) . كما تشير بعض المراجع إلى أن القطن كان يعتبر من المحصولات الهامة فى بيت المقدس على عصر سلاطين المماليك ، وذلك نظراً لاقبال الغربيين وبخاصة الحجاج على شراء المنسوجات القطنية(٣٧) .

أما عن المحاصيل الأخرى الزراعية فإننا نلاحظ أن المحصول الشائع فى تلك الأراضى وبخاصة المرتفعة منها كان هو الشعير والذى يقول عنه الأب سوريا نو أنه كان أكثر انتشاراً فى الأرض المقدسة من القمح ، هذا بالاضافة إلى الفول والبصل والكرنب والخضروات(٣٨) . وكذلك يؤكد لنا الرحالة بيركارد أن الأرض المقدسة تميزت بالخصوبة ولهذا فإن القمح كان يجود بها بشكل كبير وهو يزرع ويحصد دون عناء كبير ، فضلا عن عدم احتياجه لكثير من مياه الرى(٣٩) . وكانت رراعة القمح تتركز حول القرى المحيطة بالقدس الا أنه كان قليلاً فى المناطق الأخرى ، مثل الوادى الممتد من بيت المقدس إلى الخليل ، حيث يذكر لنا كثير من الرحالة فى حديثهم عن هذه المنطقة الكثير من اشجار الزيتون والكروم مع بقع صغيرة لرراعة القمح(٤٠) . ومن المؤكد أن كمية القمح المزروع لم تكن تفى بحاجات السكان ، ودليل ذلك أنه عندما أقطع السلطان صلاح الدين الأيوبى أخاه العادل البلاد الشرقية وكذلك الكرك والشوبك والصلت والبلقاء فقد شرط عليه « أن يكون عليه فى كل سنة ستة آلاف غرارة تحمل من الصلت والبلقاء إلى القدس »(٤١) . كذلك ما تردده كثير من المصادر والمراجع من كثرة إنعام بعض سلاطين المماليك على القدس والخليل بكميات كبيرة من القمح طوال عصر سلاطين المماليك(٤٢) .

كذلك اشتهرت مدينة بيت المقدس بانتاجها من قصب السكر ، ويبدو أن الظروف الطبيعية كانت من أهم العوامل التى ساعدت على جودة ذلك المحصول منذ القرن العاشر الميلادى وطوال العصور الوسطى(٤٣) . ويضف لنا الرحالة بيركارد طريقة جمع هذا المحصول لاستخدامه فى صناعة السكر ، بأنه كان يجمع عن طريق تقطيعه طوليا بما يساوى نصف نخلة ثم يحمل إلى المعاصر حيث يتم عصره(٤٤) .

كذلك من المرجح أن تكون زراعة البلسان موجودة فى بداية عصر سلاطين المماليك ، حيث كان ينبت قرب بيت المقدس فى القرن الثامن عشر وبكميات وفيرة ، وربما كان يصدر إلى الخارج ، وذلك لأنه كان يستخدم فى أوربا أساساً فى طقوس الكنيسة ، وصار لما يرد من الأرض المقدسة مكانة خاصة ، ويبدو أنه تضاءلت زراعته نظراً لما كان يحتاجه من رى مستمر ، هذا بالاضافة إلى بعض الأعشاب الطبيعية الأخرى ، يضاف إلى ذلك أن الكتان وهو الذى كان يستخدم فى صناعة الملابس الكتانية كان ينمو هناك وبخاصة فى المناطق السهلية(٤٥) .

أما عن نظم الزراعة والآلات المستخدمة فى ذلك العصر ، فالحقيقة أن المصادر التى بين أيدينا تكاد تكون خالية الا من إشارة واحدة وردت عند ابن الصيرفى فى ذكره لحوادث سنة ٨٧٦ هـ / ١٤٧١ م أيام السلطان الأشرف قايتباى عن أحد أبناء القلهجى ويدعى برهان الدين العجلونى من « أنه استاجر من وكيلين عن أميرين بالشام قطعة أرض مدة معلومة وحكم بها حاكم شرعى وتوجه ليزرعها فوجدها مزروعة لغيره فأخذ من الذين زرعوها مقاسمته على عادة البلاد الشامية(٤٦) . ومنها يتضح لنا أن الأرض فى بيت المقدس كانت تزرع بنظام المقاسمة ، أى أن يتولى أحد الأشخاص استئجار الأرض من مقطعها ويقوم هو بالانفاق عليها وشراء كل ما يلزمها ، ثم يتقاسم ثمن المحصول هو ومن قام بزراعتها ، ومن المرجح أن تكون طريقة المقاسمة هذه احدى مميزات نظام الاقطاع الزراعى الذى ساد فى ذلك العصر .

هذا وقد قاسى الفلاحون فى بيت المقدس من جراء النظام الاقطاعى الذى ساد فى ذلك العصر نظراً لما اقترن به من استغلال وظلم وعسف ، وقاسى الفلاحون شر ما يقاسى إنسان مستعبد مستذل ، وتصور لنا بعض المصادر مدى ما آلت إليه أحوال الفلاحين فى ذلك الوقت بقولها « ويسمى المزارع المقيم بالبلد فلاحاً قرارياً ، فيصير عبداً لمن أقطع تلك الناحية ، إلا أنه لا يرجو قط أن يباع ولا أن يعتق فهو قن ما بقى ومن ولد له كذلك » وإذا هرب الفلاح فراراً من الظلم والقهر أعيد قسراً ، يقول السبكى : « وجرت عادة الشام بأن من ينزح من دون ثلاث سنين ، يلزم ويعاد إلى القرية قهراً ، ويلزم بشدة الفلاحة ، والحال فى غير الشام ، أشد منه فيها .. ومن قبائحهم أنهم إذا اعتمدوا شيأً مما جرت به عوائدهم القبيحة يقولون هذا شرع الديوان .. »(٤٧) وقد وقع الفلاحون تحت وطأة امراء المماليك من ناحية وامراء العرب من ناحية أخرى ، من هذا ما يرويه لنا المقريزى فى حديث عن سنة ٨٢٤ هـ / ١٤٢١ م فى عهد السلطان الظاهر ططر من أن السلطان « مر فى طريقه بمدينة القدس ، فرفع إليه ان من عادة نائبها أن يجبى كل سنة من فلاحى الضياع نحو أربعة آلاف دينار ، وبسبب ذلك خربت معاملة القدس ، فعوض النائب عن ذلك ونادى بإبطال هذه المغارم ، ونقشه على حجر بالمسجد ، فتباشر الناس بأيامه ، ورجوا أن يزيل الله عنهم به ما هم فيه من الجور »(٤٨) . إلا أن تعسف هؤلاء المماليك قد استمر حتى آخر سنى حكمهم للبلاد ، ويؤكد لنا أحد الرحالة الذين زاروا بيت المقدس سنة ١٥٠٣ وهو « بوم جارتن » بأن تعسف هؤلاء المماليك بلغ حد الاستيلاء على الحيوانات التى كان يملكها هؤلاء الفلاحون »(٤٩) .

هذا وكان من نتيجة نظام اقطاعات زعماء العربان والذى كان سائداً منذ العصر الأيوبى ، باعتبارهم أرباب الدرك فضلاً عما قدمه هؤلاء العربان لدولة سلاطين المماليك من جهود حربية فى حروبها ضد المغول والصليبيين ، مما كان له أكبر الأثر فى سوء أحوال الفلاحين بسبب ما عرف عن هؤلاء العرب من بطش(٥٠) . فبالاضافة إلى أن جماعات الفلاحين كانت دائماً معرضة لما يشنه هؤلاء البدو عليها من اغارات من الصحراء ، والذى نتج عنها كثرة هجرة بعض الاهالى لقراهم ، بحيث تشاهد الكثير من القرى وقد هجرها أهلها لكثرة الاعباء التى وقعت عليهم ، وهى التى تسمى (بالخربة) ، ويؤكد لنا مجير الدين تلك الحقيقة فى حديثه عن سنة ٨٩٤ هـ / ١٤٨٨ م أيام السلطان الأشرف قايتباى حيث يقول أن أمير عرب جرم « قصد أن يجدد مظلمه على الفلاحين بجبل القدس الشريف ويأخذ منهم مالاً ... »(٥١) . مما كان له اكبر الأثر فى تذمر هؤلاء الفلاحين وهجرتهم لأراضيهم .

ومن المرجح أن تكون إغارات تلك القبائل قد اشتدت كما اشتد عسفها بوجه خاص فى أواخر عصر سلاطين المماليك ، حيث شهدت تلك الفترة كثيراً من الحروب بين سلطنة المماليك وبين هؤلاء العربان الذين استغلوا ما آلت إليه حالة الدولة من انهيار لكى يعلنوا عصيانهم وتمردهم ، وباتالى تجبرهم حيث دمروا كثيرا من القرى فى فلسطين وتحولت الرملة إلى اطلال وكذلك منطقة نابلس وغيرها من القرى(٥٢) .

أما عن الحيوانات والآلات التى استخدمها الفلاحون فى ذلك الوقت ، فتشير كثير من المراجع إلى أن الوسائل المستخدمة لم تتغير على مر الزمن ، ومنها ما هو سائد إلى الآن مثلما كان يتم عند جمع الزيتون من الأشجار حيث يُضرب الزيتون بقطعة من الخشب حتى يتساقط ويتم جمعه بعد ذلك(٥٣) كذلك كان الفلاح يستخدم فى حرثه للأرض محراثاً خشبياً يجره ثور وحمار ، وأحياناً كان يستخدم البقر أو الجاموس فى جر المحراث(٥٤) . وتشير بعض المراجع إلى أن الحمير كانت تشكل بالنسبة للفلاح فى ذلك الوقت أهم الممتلكات التى يحرص عليها ، فعليها يحمل أثقاله فضلاً عن قيامها بالعمل فى الحقل إلى جانب كونها كانت تستخدم فى التنقل إلى الأماكن البعيدة للحمل أيضاً نظراً لطبيعة البلاد الصخرية ، كذلك كان لدى أهل بيت المقدس أعداد كبيرة من الحمير استخدموها فى تنقلاتهم الداخلية ، فضلا عن قيام الكثيرين منهم بتأجيرها للحجاج المسيحيين الغربيين ليستخدموها فى تنقلاتهم داخل الأراضى المقدسة(٥٥) . ويروى لنا الرحالة سيرجون مانديفيل الذى زار بيت المقدس عام ١٣٢٢ م ان البقر والجاموس فى فلسطين بدرجة عامة كان قليلا ولذا حرص الفلاحون على الاستعانة بهما فى الزراعة ، ونادرا ما كان يتم ذبحهما وأكل لحومهما(٥٦) .

الصناعة

لعب المماليك دوراً هاماً فى الحياة الاقتصادية بمدينة بيت المقدس ، وذلك راجع لكونهم كانوا الطبقة الحاكمة والعسكرية فى نفس الوقت ، والتى دار فى فلكها كثير من الكتاب والموظفين وأسراتهم ، فإن أعدادهم بما فيها من يتبعهم جعلت منهم عنصراً هاماً كمستهلكين مهمين للمعدات

الحربية ، وموارد الطعام ، والأثاث ، وكل أنواع الخدمات ، فاستخدموا التجار المحليين والفنانيين وأرباب الحرف والصناع لاعداد ملابسهم وأعلامهم وخيامهم وكثيراً من الأشياء الأخرى ، وبذلك كانت القوة الشرائية لهم على جانب كبير من الأهمية ، بحيث وجدت فى المدينة عدة أماكن وأسواق لامدادهم بما يحتاجون إليه ، لهذا ارتبطت كثيراً من الصناعات فى المدينة بحياة هؤلاء المماليك من امراء واتباع(٥٧) .

كذلك شهدت المدينة فى السنوات الأولى من حكم المماليك بوجه خاص وطوال عصر المماليك بوجه عام نشاطاً عمرانيا هائلاً ، بحيث كانت مدينة بيت المقدس مركزاً للعمالة لتنفيذ العديد من الأعمال العمرانية فى المدينة ، فكان يستخدم الصناع لاصلاح وبناء المساجد ، والتحصينات والمدارس والربط والزوايا ، ولعمارة قنوات المياه والأسبلة والحمامات ، حيث تم استخدام كثير من البنائين والحجارين والنجارين وأصحاب الحرف المختلفة . وكان من نتيجة تلك الحركة العمرانية الهائلة أن نشطت عملية قطع الأحجار من كثير من المحاجر التى وجدت فى بيت المقدس ، وجدير بالذكر أن تلك المحاجر كانت موجودة ومنتشرة فى المدينة وفى المناطق المحيطة ، وبخاصة جبل صهيون ، ويؤكد لنا بينامين التطلى الذى زارها سنة ١١٦٣ م فى حديثه عن مقابر أسرة داود والملوك الذين حكموا بعدهم ، من أنه عند زيارته للمدينة كان قد تهدم بعضها ، وكذلك بعض اماكن العبادة الأخرى . فأمر بطريرك المدينة حين ذلك أحد رجال الدين بالاشراف على ترميمها ، والذى قام بدوره باستئجار عشرين عاملا نظير أجر محدد ، وقاموا بقطع الأحجار من المحاجر الموجودة فى جبل صهيون للقيام بعلمية الترميم المطلوبة(٥٨) .

كذلك تؤكد لنا المصادر الاسلامية وجود تلك المحاجر وبخاصة عندما فتح صلاح الدين الأيوبى المدينة ، وأمر بعمارة سور المدينة فقد كان يركب بنفسه ويأتى بتلك الحجارة ، وقد تأسى به عدد كبير من الناس من فقراء وأغنياء ورجال العلم(٥٩) .

وكان يستخرج من هذه المحاجر أنواع كثيرة من الحجارة ذات الألوان المختلفة ، ومعروف أن حجارة القدس من أحسن الحجارة وأجملها وأقواها ، ولا سيما النوع المعروف بالحجر المزى الصلب ومن اللون الأحمر(٦٠) . ويشير بعض الرحالة إلى تلك المحاجر التى شاهدوها فى وادى القدرون ، والذى يقع ما بين جبلى موريا والزيتون من أنه كان بها الاحجار الضخمة الاحجام ، والتى يتم استخدامها فى بناء كل منازل القدس ويبدو أن العمال كانوا يجدون مشقة فى قطع الاحجار نظراً لضخامتها(٦١) . كذلك تشير بعض المراجع إلى كثرة المحاجر وأنواع الأحجار وطريقة تقطيعها ، بحيث أن الكثير من تلك المحاجر كان يقع على مقربة من سور المدينة والبعض الآخر تحت المنحدرات المحيطة بالمدينة ، وفى تلك المحاجر يقوم العمال بقطع الأحجار إلى كتل ضخمة ثم إلى قطع صغيرة بحسب الاحجام المطلوبة ، كما يقومون بتهذيبها بحيث تتلاءم والاستخدامات المطلوبة من أجلها ، فضلا عن تميزها بخاصية مقاومة تأثير المياه والرطوبة ، مما ساعد على ان تحتفظ مبانى بيت المقدس بحال لونها وأشكالها عبر الأزمنة الطويلة(٦٢) .

ومن الصناعات الأخرى التى اشتغل بها عدد كبير من سكان بيت المقدس والمناطق المجاورة لها صناعة عصر واستخراج الزيت من الزيتون ، حيث تكثر أشجاره ، هذا فضلاً عن استخدام الزيت فى صناعة الصابون التى استوعبت عدداً لا بأس به من سكان المدينة ، وكان هذا الصابون يصدر إلى المدن والبلاد المجاورة مثل يافا ، والتى كانت بها تجارة كبيرة للصابون ، وهذا الصابون لم يكن يصنع فيها بل كان يرد إليها من مدينة بيت المقدس ، ومنها يصدر إلى مصر والبلاد المختلفة[٦٣] ومع ان صناعة الصابون كانت معروفة فى مدينة بيت المقدس من قديم الأزمان ، إلا أن المدينة كانت فى حاجة ماسة ودائمة إلى مادة « البوتاس » التى تستخدم فى تلك الصناعة ولقد اندهش « بيركارد » عندما وجد نساء البدو فقط داخل الخيام ولكنه اخبر أن الرجال قد ذهبوا ليبيعوا « رماد الصابون » والذى يجمعه هؤلاء البدو من الجبال فى الصحراء ، وكان هؤلاء البدو يبيعون ما يحصلون عليه فى كل من القدس وغزة والرملة[٦٤] ... ومن المرجح انه كان لأهل مدينة الرملة دراية واسعة فى صناعة الصابون ، وقد اشتهروا بها حيث كان يستعين بهم ابناء بيت المقدس ، أو لعله من المرجح أيضاً أن كثرة مصانع الصابون بالمدينة استوعبت كل الأيدى العاملة ولذ لجأ اهلى القدس إلى الاستعانة بأهالى الرملة لما لهم من خبرة ودراية[٦٥] .

كذلك من الصناعات التى اشتهرت بها مدينة بيت المقدس صناعة الشمع ، وكان الشمع المقدسى مرغوباً لدى الأجانب والحجاج المسيحيين حيث تباع منه كميات كبيرة فى الأعياد ، حيث من المعروف أنهم يوقدون كثيراً من الشموع داخل كنيسة القيامة ، عندما يدخلون إليها فى الاعياد المسيحية المختلفة ، وربما وجد منهم من كان يأخذ معه بعض الشموع تبركا بأنها صنعت فى بيت المقدس ، أو لاشعالها فى كنائسهم فى الغرب الأوربى عقب عودتهم[٦٦] .

كما عرفت بيت المقدس ببعض الصناعات الخفيفة والتى ارتبطت بمراسم الحج المسيحية ، وحيث تتدفق أعداد كبيرة من الحجاج الغربيين على المدينة ، ومن هذه الصناعات الحفر على خشب الزيتون ، فقد كان لدى ابناء القدس مهارة كبيرة فى هذه الصناعة حيث أتقنوها على مر الزمان ، فكانوا يحفرون على خشب الزيتون أشكالاً متنوعة وباتقان عجيب حيث كانوا يصنعون كثيراً من أدوات الكتابة ولعب الأطفال وأدوات الزينة والهدايا ذات الرموز الدينية التى تستهوى كثيراً من الغربيين ، وهى التى يحدثنا عنها الرحالة بيرو تافور بأنها كانت تجذب نظر الحجاج المسيحيين الغربيين ، وكانت تلقى رواجاً فى شرائها لديهم ، ومن المرجح أنه قد تخصص فى صنعها المسيحيون المحليون من الطوائف المختلفة والمقيمة بمدينة القدس[٦٧] .

كذلك عرفت مدينة القدس فى عصر سلاطين المماليك صناعة المشغولات الفضية والتى يقول عنها ابن شاهين « القدس مدينة شريفة عظيمة يعمل فيها فضة ميناء تجلب منها إلى سائر البلاد وأوصافها كثيرة وفضائلها جمة وهذا على وجه الاختصار »[٦٨] .

هذا بالاضافة إلى أن القدس عرفت أيضاً فى ذلك العصر صناعة المنسوجات القطنية والحريرية ، بالاضافة إلى صناعة الزجاج والمشغولات الذهبية ، كذلك وجدت بها صناعة السلال من سعف

النخيل فضلا عن صناعة النبيذ فى المناطق المسيحية كما سبق وأشرنا بذلك(٦٩) .

وأخيراً تجب الاشارة إلى أن مدينة بيت المقدس اشتهرت طوال العصور الوسطى بصفة عامة وفى عصر سلاطين المماليك بصفة خاصة بصناعة السكر من القصب ، والذى يذكر لنا الرحالة بيركارد فى زيارته للمدينة سنة ٦٧٩ هـ / ١٢٨٠ م حيث شاهد ذلك بنفسه فيقول : ويجمع قصب السكر بعد تقطيعه إلى قطع طولية ، يصل طول القطعة منها ما يساوى نصف نخلة ، ثم تحمل إلى المعاصر حيث يعصر ، ويحصل منه على العصير الذى يتم وضعه فى غلايات من النحاس ، ويستمر غليه حتى يتم تركيز ذلك العصير ثم يوضع فى سلال رفيعة مصنوعة من الأغصان – ولعله يقصد بذلك أنها مصنوعة من سعف النخيل حيث عرفت تلك الصناعة بها كما سبق القول – ثم يترك حتى يجف ، وهكذا يتم الحصول على السكر من القصب(٧٠) .

هذه هى أهم الصناعات التى اشتهرت بها مدينة بيت المقدس على عصر سلاطين المماليك ، والتى اشتغل بها كثير من ابناء المدينة ، فى تلك الفترة ، إلا أننا نلاحظ أن سياسة المماليك الضريبية الظالمة وطرح بعض السلع على الصناع – وكما سيأتى فى الحديث عن ذلك – أدى فى النهاية إلى كساد كثير من تلك الصناعات ، كما أنه كان من نتيجة التدهور الاقتصادى الذى شهدته الدولة بوجه عام فى أواخر عصر سلاطين المماليك أدى بطبيعة الحال إلى ضمور وذبول كثير من تلك الصناعات ، حيث انعكس هذا التدهور على أحوال طبقة المماليك ومن دار فى فلكها من ابناء بيت المقدس والذين كانوا يمثلون القوة الشرائية العظمى فى المدينة كما سبق وأشرنا بذلك .

التجـارة والأسواق

ان الارتباط بين الحالة التجارية لمدينة بيت القدس وبين نواحى الحياة المختلفة من زراعية وصناعة وأمن ارتباط وثيق ، والملاحظ أن فترة حكم المماليك البحرية تختلف تماماً عن فترة حكم المماليك البرجية أو الجراكسة وهذا ما يجمع عليه كثير من المؤرخين(٧١) . فقد شهدت فترة حكم المماليك البحرية نشاطاً فى مجال الحياة العمرانية فى القدس والذى تمثل فى بناء كثير من المدارس والزوايا والخانقوات وغيرها من المؤسسات الخيرية ، فضلا عن ان الأوقاف التى أوقفت على تلك الانجازات كانت مورداً من الموارد الاقتصادية الهامة لهذه المدينة ، مما كان له اكبر الأثر فى انتعاش الأحوال الاقتصادية فى المدينة ، ونتيجة للرواج الاقتصادى الذى عم المدينة من جراء اشتغال عدد كبير من ابنائها فى أعمال البناء والترميم والاصلاحات ، فضلا عن قطع الاحجار من المحاجر ، هذا بالاضافة إلى أن الاحوال الزراعية كانت مشجعة تماماً ، مما أدى إلى ازدهار التجارة ، وخاصة فى الزيتون والصابون والسكر والقطن وغيرها من الحاصلات الزراعية ، ولم نسمع إلا عن حالات قليلة جداً فى ذلك العصر من حدوث انحباس الامطار وخروج الناس للاستسقاء(٧٢) بعكس ما تردده المصادر المعاصرة عن كثرة انحباسها فى عصر المماليك البرجية أو الجراكسة بشكل واضح ، مما كان له أكبر الأثر فى الأحوال الزراعية وبالتالى فى التجارة(٧٣) .

هذا إلى جانب أنه كان لتدفق أعداد من المماليك على بيت المقدس ممن نفوا إليها أو ممن فضلوا الاقامة فيها بأتباعهم أثر كبير فى رواج التجارة بها ، حيث كانوا هم المستهلكين الأساسيين للسلع والمنتجات الأساسية والتى سبقت الاشارة إليها ، فضلا عن أنهم كانوا أهم ممولى الأسواق المحلية بالمواد الغذائية نظراً لما حازوه من إقطاعات تدر عليهم الكثير(٧٤) .

بالإضافة إلى أنه نتيجة لاستتباب الأمن فى البلاد ، ولوجود جماعة السلاطين الأقوياء أمثال الظاهر بيبرس وقلاوون ومن بعده الناصر محمد ، وبسطهم نفوذهم على ربوع البلاد وعلى أتباعهم من المماليك ، مما كان له أكبر الأثر فى الاستقرار الذى نعمت به البلاد ، بعكس ما تشير إليه بعض المصادر من الاضطرابات التى كثرت فى عصر سلاطين المماليك الجراكسة(٧٥) . ولعله كان من أثر ذلك الاستقرار أن تدفت أعداد كبيرة من المسلمين على المدينة للزيارة مثلما كان يحدث من قبل ، وحسبما يشير بذلك ناصر خسرو فى قوله « ويذهب إلى القدس فى موسم الحج من لا يستطيع الذهاب إلى مكة من أهل هذه الولايات فيتوجه إلى الموقف ويضحى ضحية العيد كما هى العادة ويحضر هناك لتأدية السنة ، فى بعض السنين أكثر من عشرين ألف شخص فى أوائل ذى الحجة ومعهم أبناؤهم ... » ومن الطبيعى أن يصحب ذلك رواج اقتصادى فى المدينة ، هذا بالاضافة إلى قدوم أعداد من الحجاج المسيحيين ، مما كان له أكبر الأثر فى الرواج الاقتصادى الذى شهدته المدينة(٧٦) .

كذلك كان لسوء الحالة الاقتصادية التى خيمت على البلاد منذ أواخر القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى أثرها الكبير فى أحوال التجارة فى بيت المقدس ، من ذلك أنه كان من نتيجة حرص سلاطين المماليك الى تدعيم مركزهم المالى وثرواتهم الخاصة ، الأمر الذى أدى الى فرض كثير من الاتاوات والمقررات المالية على أصحاب الحرف والصنائع والتجارة ، والاشتطاط فى جباية المكوس من التجار ، والتى نبع عنها أن سياسة الطرح أصبحت مألوفة ، وقد شملت جزءا كبيرا من مجتمع المدينة وكان من نتيجة تلك السياسة أن أضطر كثير من الناس إلى بيع ممتلكاتهم وأشيائهم لكى يدفعوا ثمن ما يطرح عليهم(٧٧) . ولا يخفى علينا ما كان يحدث من نتيجة هذه السياسة التى كانت تهدف إلى بيع تلك السلع المطروحة بسعر مرتفع عن سعرها فى السوق وضد رغبة المشترين ، وما كان يتحمله التجار والعامة من خسائر مادية فادحة من جراء تلك السياسة(٧٨) . فضلا عن أن سياسة الطرح هذه ، هذه ، منحت أمراء وسلاطين المماليك اليد المطلقة فى الحياة الاقتصادية فى المدينة .

كذلك تأثرت الأحوال التجارية فى مدينة بيت المقدس فى عصر سلاطين المماليك الجراكسة بما كانت تتعرض له البلاد بوجه عام ومدينة بيت المقدس بوجه خاص من حدوث كثير من الأوبئة والمجاعات نتيجة نقص المواد الغذائية ، والتى كانت تأتى على فترات شبه متوالية ، والتى يقول عنها الأب سوريانو أنها كانت تحدث كل عشر سنوات(٧٩) . وكان من نتيجتها تضخم الأسعار فى كثير من المواد الغذائية والسلع الأخرى ، ولاشك أن ارتفاع الأسعار لم يمكن كثيرا من الأسر المتوسطة من

أن تستمتع بنفس الرخاء الذى كانت تستمتع به فى الفترات المبكرة من عصر سلاطين المماليك[٨٠] .

إلا أنه يجب ألا نغفل أنه جرت محاولات من بعض سلاطين المماليك الجراكسة لاصلاح الأحوال الاقتصادية ، حيث شهدت الفترة ما بين ٨٢٦ هـ / ٨٧٥ هـ = ١٤٢٢ ــ ١٤٧٠ م تغيراً ملحوظاً فى الأحوال الاقتصادية لدولة سلاطين المماليك ، ومن الطبيعى أن ينعكس أثر ذلك على بيت المقدس بوجه خاص .. فمنذ بداية عهد السلطان المؤيد شيخ « ١٤١٢ – ١٤٢١ م » كانت هناك فترة انتعاش إلى حد ما فى الشئون المالية ، نقصد بذلك أن المؤيد شيخ نجح فى استعادة أمجاد دولة المماليك كما كانت عليه فى عهد السلطان بيبرس ، حيث وضع نهاية للحروب الداخلة وثورات المماليك وكذلك لسطوة البدو – وإن لم يقض عليها نهائياً – إلا أنه قللها بشكل ملحوظ ، كذلك الحال بالنسبة لثورات التركمان فى أطراف البلاد الشمالية ، وقد سار السلطان برسباى « ١٤٢٢ – ١٤٣٨ م » على نفس السياسة فيما يختص بتدعيم الأمن مما كان له أكبر الأثر فى التقليل من الاستنزاف الدائم والمستمر لخزانة وأموال الدولة . وكذلك يلاحظ أن مقاومة إغارات القراصنة المسيحيين كانت واضحة جداً فى تلك الفترة ، عن طريق سلسلة من الاغارات ضد قبرص والتى انتهت بغزوها ، وكذلك الحال بالنسبة لرودس ، وعلى الرغم من سياسة الاحتكار التى انتهجها السلطان برسباى ، إلا أننا يجب ألا نغفل جهوده بالإضافة إلى جهود المؤيد شيخ فى تدعيم النظام النقدى والمعاملات حيث حدث ثبات فى قيمة العملة مما كان له أكبر الأثر فى ثبات كثير من الأسعار ، ومن الطبيعى أن ينتج عن ذلك تحسن ملحوظ فى شتى النواحى الاقتصادية المختلفة[٨١] .

أما عن أهم المتاجر التى اشتغل بها المقادسة فى تلك الفترة فيمكننا القول أنها تركزت بصفة أساسية فى تجارة الحاصلات الزراعية من زيتون وقصب السكر والكروم والنبيذ والقمح والشعير إلى جانب بعض الصناعات التى سبق وأشرنا إليها فى حديثنا عن الصناعة فى المدينة ، وكذلك بعض مواد البناء اللازمة للعمارة ، وبعبارة أخرى يمكننا القول أنها تركزت بصفة أساسية فى المنتجات الزراعية من الانتاج المحلى فضلا عن أن بعض أبناء بيت المقدس كانت لهم أنشطة فيما يمكن أن نسميه بالتجارة الخارجية ، ويؤكد ذلك ما يرويه كثير من الرحالة الذين زاروا المدينة فى تلك الفترة ، فالرحالة كازولا الذى زار المدينة أواخر القرن الخامس عشر الميلادى ، يروى لنا أن كثيراً من البدو من أهل بيت المقدس ، والذين كانوا يقومون بتأجير دوابهم للحجاج المسيحيين ، كانوا يحملون معهم من يافا كثيراً من الحقائب المليئة بالمتاجر لبيعها فى بيت المقدس ، وإن لم يذكر لنا نوع تلك المتاجر[٨٢] . ومن المرجح أن تكون تلك المتاجر هى بعض التوابل حيث تذكر بعض المصادر أنه كان فى بيت المقدس سوق مخصصة للتوابل التى يتم استيرادها ، وهى التى عرفت باسم سوق التوابل أو شارع التوابل[٨٣] . هذا فضلا عن أن بعض أبناء بيت المقدس من التجار كانوا يقومون بجلب كثير من كميات الأسماك من يافا – باعتبارها ميناء بيت المقدس لبيعها داخل المدينة فى السوق المخصصة لها[٨٤] . كذلك تشير بعض المصادر إلى أن بعض ابناء بيت المقدس وبخاصة من اليهود كانوا يشتغلون بتجارة الحرير والذى ربما كان يتم جلبه من دمشق فى ذلك الوقت لتفوقها المعروف بتلك الصناعة ، كما أن بعض ابناء القدس كان يشتغل بالتجارة فى الأعشاب النباتية والعقاقير الطبية على الرغم من أنهم

لم تكن لديهم معلومات عن تركيب الادوية ، لكنهم كانوا يشترون تلك الاعشاب والعقاقير الطبية ثم يبيعونها ، ولعلهم كان يستوردونها من مصر أو دمشق(٨٥) . كذلك تؤكد لنا بعض المصادر ان بعضاً من أبناء بيت المقدس كانوا يقومون باستيراد كثير من السلع الاستهلاكية مثل البن والأرز والعدس والفول من البلاد المجاورة مثل مصر ودمشق ، ويبيعونها فى القدس ، هذا بالإضافة إلى بعض الأقمشة الحريرية والتى اشتهرت بها كل من مصر ودمشق ، فضلاً عن استيراد اللؤلؤ والذى كان عادة ما يتم عن طريق مصر أو دمشق(٨٦) .

هذا إلى جانب اشتغال بعضهم بتصدير زيت الزيتون والصابون الفاخر والذى كان يتم تصنيعه فى بيت المقدس ويصدر إلى مصر ، حيث كان يتم تصديره إما عن طريق ميناء يافا وأما بطريق القوافل الذى كان يربط بين مصر وبيت المقدس عبر صحراء سيناء ماراً بغزة والخليل وبيت لحم(٨٧) . هذا بالإضافة إلى ما كان يشتريه الحجاج المسيحيون الغربيون من سلع شرقية ويصحبونها معهم فى رحلة العودة إلى بلادهم بعد زيارة الأراضى المقدسة ، ومن هذه السلع المسابح المصنوعة من اخشاب الزيتون أو المصنوعة من العاج ، والحلى الصغيرة كالخواتم والأقراط التى تم صنعها فى القدس(٨٨) .

الأســــواق

سبق أن أشرنا إلى أن مدينة بيت المقدس عقب دخولها تحت حكم المماليك قد شهدت حالة من الاستقرار لم تنعم بها منذ فترة طويلة – كذلك سبق القول بأن المدينة فى عصر سلاطين المماليك البحرية أو دولة المماليك الأولى ، قد شهدت نمواً سكانياً مطرداً ، هذا النمو السكانى الذى ارتبط بكثير من أحوال المشرق والمغرب وما صحبه من هجرات ، فضلا عن ازدهار الحياة العلمية فى المدينة وما أدى إليه من كثرة المؤسسات الخيرية والعلمية والدينية ، كل هذه العوامل كان لها نتائجها المباشرة فى ازدهار الحياة الاقتصادية ، وكثرة الأسواق فى المدينة والتى كانت تموج بالحركة والنشاط وتكتظ بأصناف البضائع المختلفة طوال عصر سلاطين المماليك البحرية بدرجة خاصة(٨٩) .

هذا وقد تعددت الأسواق بالقدس تعدداً ظاهراً من حيث طبيعة تلك الأسواق والهدف الذى تعقد من أجله أو السلع التى كانت تباع فيها ، الا أنها تشابهت فيما بينها من حيث تخطيطها ونظامها . أما عن تخطيط تلك الأسواق فإنها كانت عبارة عن مجموعة من الشوارع الطويلة المتوازية ، تقفل بأبواب فى مداخلها كما كانت مسقوفة إما بالعقود الحجرية أو الأسقف الأخرى والتى تتخللها النوافذ لينفذ منها الضوء ، وكانت تلك العقود والأسقف تحمى المارة وأهل السوق من حرارة الشمس والأمطار ، فضلا عن وجود بعض الحوائط المنخفضة بداخل كل سوق والتى تمتد على جانبى السوق ، والتى يستطيع أى شخص أن يستخدمها كمقعد إذا شاء الجلوس ، وربما كان يستخدمها الباعة لعرض بضائعهم عليها(٩٠) . كما أن شوارع الأسواق كان لها أسقف من القماش بحيث يسهل تحريكها تبعا لفصول السنة(٩١) كما أن بعض الأسواق كانت مسقوفة بألواح خشبية من النخيل ، لكن من الملاحظ أن تلك الأسقف الخشبية كان غالبا ما يتم ازالتها وأن تحل محلها العقود

الحجرية ، من ذلك ما يرويه لنا مجير الدين فى حديثه عن سوق الطباخين بالقدس ، والذى أعيد بناؤه سنة ٨٧٨هـ / ١٤٧٣ م فى عهد السلطان الأشرف قايتباى حيث يقول : « وكان قبل ذلك يسقف على الحوانيت بالقواصر[٩٢] ويحصل من ذلك مشقة فى الشتاء ومن الوحل وسقوط الماء من السقف فلما تم بناء تلك العقود الحجرية ، حصل الرفق بالناس زمن الشتاء[٩٣] » .

ويصف لنا الرحالة كازولا الأسواق بقوله ومما أدهشنى حقا مشاهدة تلك الأسواق ، فهى طويلة وعبارة عن شوارع مسقوفة وتمتد إلى مسافات بعيدة ، وعلى الجانبين الدكاكين المليئة بالمتاجر والبضائع المختلفة ، والتى يقبل الناس على شرائها [٩٤] وكانت تلك الدكاكين تستخدم فى عمليات المبادلات التجارية وأعمال البيع والشراء ، هذا بالإضافة إلى أنها استخدمت أيضا كمحلات للعمل ومراكز للصناعة حيث وجدت بها أماكن للغزالين والدباغين والصباغة ، كذلك وجد بداخل تلك الأسواق محلات لصانعى الأحذية أو الخياطين الذين يخيطون الملابس ويبيعونها جاهزة [٩٥] . هذا بالإضافة إلى الصاغة ، حيث كان يشتغل بهذه الصناعة كثير من المسيحيين المحليين ويعرضون فى محلاتهم ماتم صناعته من مصوغات [٩٦] .

ومن المرجح أن تكون مدينة بين المقدس قد تميزت عن غيرها من المدن الأخرى بما يمكن أن نسميه السوق ذات الأنشطة المتعددة فى ذلك الوقت ، حيث تشير المصادر المعاصرة إلى أنه وجد بها « الأسواق الثلاثة المجاورة بالقرب من باب المحراب المعروف بباب الخليل وهى من بناء الروم ممتده قبلة بشام ومن بعضها الى بعض مناقذ ، فالأول منها وهى الغربى سوق العطارين وقف الملك صلاح الدين رحمه الله تعالى على مدرسته والذى يليه هو الاوسط لبيع الخضروات والذى يليه لجهة الشرق لبيع القماش وهما وقف على مصالح المسجد الاقصى الشريف وقد ذكر المسافرون أنهم لم يروا مثل هذه الاسواق الثلاثة فى الترتيب والبناء فى بلدة من البلدان وأن ذلك من المحاسن التى لبيت المقدس [٩٧] » وتؤكد لنا بعض المصادر المعاصرة تلك الحقيقة بشكل اضح من ذلك ما يرويه لنا ابن شاهين الظاهرى من قول « وبالقدس الشريف أسواق كثيرة من جملتها ثلاث قصبات على صف واحد قبل إنه لم يكن بغالب البلاد نظيرها [٩٨] » .

ومن المؤسسات التجارية التى عرفت ببيت المقدس وكانت تؤدى مهمة الأسواق أيضا ، القيساريات والخانات والرباع التى فوقها ثم الفنادق [٩٩] والتى كانت الى جانب كونها مؤسسات تقوم بجانب مهمة البيع والشراء ، بمهمة النزل والاقامة والخازن للواردين من التجار وحفظ أموالهم ، كما أنها تؤدى مهمة البيع بالجملة بجانب البيع بالتجزئه . كذلك كانت الفنادق فى عصر سلاطين المماليك تقدم كهبة من الحكومة للتجار الأجانب وتستطيع الدولة أن تستردها وقتما تشاء ، ويشرف على الفندق موظف يعرف باسم « الفنداق » كما أن قنصل الدولة مسئول عن الفندق وتسديد رسوم التجار للسلطان ، كما أن لكل فندق حوشا داخليا سماويا يفتح عليه الطابق الأرضى حيث توجد المخازن ، ويستخدم فى حزم وتفريغ السلع أما الدكاكين فهى مقببة وتستخدم كمخازن كذلك ، وفى الطابق العلوى حجرات متعددة لإقامة التجار ، وكان يسمح لحجاج بيت المقدس وسيناء

بالاقامة فى ذلك الفندق (١٠٠) .

أما الخان فقد كان من المؤسسات التى ارتبطت بالأسواق أيضا ، وهو مبنى ضخم يتوسطه فناء على هيئة رواق مغطى حيث يحفظ التجار بضائعهم ، ويجدون فى الخان المأوى لهم ولدوابهم خلال رحلتهم ، وحتى القرن الخامس عشر الميلادى تعددت تلك الخانات وكثرت وأصبحت من أهم مؤسسات التجارة الداخلية والخارجية (١٠١) .

ويؤكد لنا مجير الدين دور الخانات فى التجارة الداخلية والخارجية فى حديثه عن « خان الفحم » وهذا الخان كما يذكر مجير الدين كان يقع فى الشارع الرئيسى من المدينة والذى يسمى « خط داود عليه السلام » وهو الشارع الأعظم وابتداؤه من المسجد الأقصى من عند باب السلسلة الى باب المحراب وهو باب المدينة المعروف فى عصر مجير الدين بباب الخليل ، وهو خان عظيم وقف على مصالح المسجد الأقصى يؤجر فى السنه بنو أربعمائه دينار ، ويباع فيه أصناف البضائع ، كذلك كان يوجد فى نفس الشارع « خان الصرف » والمعروف أن خان الصرف هذا كان مخصصا للصيارفة وحيث يقومون باستبدال العملات المختلفة التى ترد مع الحجاج المسيحيين من أنحاء الغرب وكذلك من الدول المحيطة ببلاد الشام ، وكان هذا الخان يقع عند إلتقاء شارع داود بشارع باب المحراب والذى كان يطلق عليه أيضا شارع المعبد(١٠٢) . هذا ولم تشر المصادر والمراجع التى بين أيدينا شيئا عن عمل الصيارفة داخل هذا الخان سوى تبادل العملات ، ولعل مهمة هؤلاء الصيارفة قد تعدت ذلك إلى ماكان معروفا فى ذلك العصر عن مهمة هؤلاء الصيارفة ، حيث قاموا بإعطاء التجار الصكوك نظير ما يحصلونه منهم من أموال ، والتى يقوم هؤلاء التجار بإستخدامها فى عمليات الشراء ، فكلما اشترى الواحد منهم بضاعة سدد ثمنها بصك من هذه الصكوك المحولة على الصراف ، وهى ما تعرف الآن باسم الشيكات المحولة كذلك لعلهم أصدروا « خطابات الاعتمادات الائتمانية أو « السفتجات » أو « السندات المالية المؤجلة الدفع » على آجال طويلة أو قصيرة ، حيث لجأ كثير من التجار إلى النظام الأخير لاستغلال جزء كبير من رؤوس أموالهم فى التجارة ، ويتم التسديد فى معظم الأحايين بعد البيع ، وقد اقتبسوا هذا النظام من تجار الغرب الوافدين الى بلاد الشام ، ومصر ، حيث يقوم الصيارف بتحصيل المبالغ المطلوبة لقاء عمولة أو مرتبات ، ويستفيد من هذه العملية كل من المقرض والمقترض والمصرفى(١٠٣) .

كذلك تجب الاشارة الى أن وجود تلك الخانات داخل مدينة القدس ربما كان الهدف منه هو خدمة التجارة الداخلية بالدرجة الأولى ثم التجارة الخارجية أما تجارة العبور فقد كان لها خانات أخرى كانت تقام خارج المدينة ، على الطريق التجارى الذى كان يربط بين مصر وبيت المقدس ، أو بين بيت المقدس ودمشق (١٠٤) ونذكر على سبيل المثال خان الظاهر بيبرس الذى بناه سنة ٦٦١هـ/١٢٦٢ م والذى يقول عنه المقريزى أن السلطان « أمر ببناء خان خارج البلد ، ونقل إليه من القاهرة باب القصر المعروف بباب العيد (١٠٥) . ويد وأنه قد تم بناؤه فى عام واحد حيث يذكر لنا ابن عبد الظاهر وفى صفر (يقصد عام ٦٦٢هـ) قرىء كتاب وقف الخان بالقدس الشريف

بحضور السلطان وقاضى القضاة تاج الدين وحررت شروطه بين يديه وكتبت بذلك عدة نسخ (١٠٦) هذا وإن كانت المصادر المعاصرة لم تذكر شيئا عن وصف ذلك الخان ، إلا اننا نستطيع القول اعتماداً على بعض المراجع أنه لم يختلف كثيرا عن الخانات الداخلية إلا من حيث الغرض الذى بنى من أجله وهو أن يكون بمثابة خان ومكان للمبيت بالنسبة للقوافل حتى يستريح التجار ودوابهم فيه ثم يغادرونه فى طريقهم إلى احدى المدن التى يقصدونها بتجارتهم وهو على هذا الأساس أشبه باستراحه(١٠٧) .

ومن المؤسسات التجارية أيض والتى لها علاقة وثيقة بالتجارة القيساريات ، ومن تلك القيسارات التى عرفت فى بيت المقدس ما يذكره لنا ابن فضل الله العمرى فى حديثة عن السور الغربى للحرم القدسى ، حيث يذكر الباب الحديد ، والذى « يتوصل منه الى القيسارية المستجدة . وتشتمل على صفى حوانيت ، بعضها وقف على الحرم ، وبعضها وقف على المدرسة والخانقاه اللتين أنشأهما الأمير سيف الدين تنكز ، رحمه الله(١٠٨) والحقيقة أننا نلاحظ أن القيسارية من حيث تكوينها لم تكن تختلف كثيرا عن الخان أو الوكالة ، كذلك كانت تؤدى نفس الغرض ، وهو إلى جانب مهمة البيع والشراء ، فقد كانت بمثابة نزل للتجار ومحل إقامتهم فضلا عن أنها مخازن لتجارتهم ولحفظ أموالهم(١٠٩) كما تجب الإشارة أيضا إلى أن مؤرخى العصور الوسطى والمعاصرين لتلك الفترة لم يستطيعوا أن يعطونا فرقا واضحا بين تلك المؤسسات من خانات وفنادق وقيساريات ووكالات ، فقد ذكر مجير الدين فى حديثه عن أسواق بيت المقدس وما كان يوجد بها من خانات وقيساريات ووكالات وأسواق فى « خط داود » وهو الشارع الأعظم فى المدينة « ومن قنطرة الجبيلى الى درج الحرافيش يعرف بسوق الطباخين ومنه إلى باب حارة اليهود يعرف بخط الوكالة وهو خان عظيم (يقصد خان الفحم) وقف على مصالح المسجد الاقصى(١١٠) ومن هذا السياق يتضح لنا أنه لم يكن هناك فارق بين الخان والوكالة حسبما يروى مجير الدين ، ولا يخفى علينا أن تلك المؤسسات سواء الخانات أو القيساريات أم الوكالات أم الفنادق فكلها كانت من العوامل المساعدة على تنشيط التجاره فى تلك العصور .

أما عن تقسيم الأسواق وأنواعها فقد ذكر لنا مجير الدين أسواق بيت المقدس من ذلك سوق القطانين المجاور لباب المسجد الأقصى من جهة الغرب وهو سوق فى غاية الارتفاع والاتقان لم يوجد مثله فى كثير من البلاد ، وأيضا الاسواق الثلاثة المجاورة بالقرب من باب المحراب المعروف بباب الخليل ، فالأول منها وهو الغربى كان سوق العطارين والسوق الأوسط منها لبيع الخضروات ، والثالث منها كان لبيع الأقمشة أما الأسواق التى وجدت على امتداد خط داود وهو الشارع الرئيسى بالقدس فقد كانت على النحو التالى ، فمن باب المسجد الأقصى إلى دار القرآن السلامية وتعرف بسوق الصاغة ، ومن باب السلامية إلى باب حارة الشرف يعرف بسوق القماش ، ومنه إلى خان الفحم

يعرف بسوق المبيضين ، ومن باب الخان إلى قنطرة الجبيلى يعرف بسوق خان الفحم .

ومن قنطرة الجبيلى إلى درج الحرافيش يعرف بسوق الطباخين ، ومه إلى باب حارة اليهود يعرف بخط الوكالة وهو خان عظيم تباع فيه أصناف البضائع ، ومن باب حارة اليهود إلى خان الصرف يعرف بسوق الحريرية ، ومن خان الصرف إلى باب المدينة يعرف بخط عرصه الغلال ، وقد كانت الأسواق السابقة بطول الشارع الرئيسى للمدينة والذى عرف بخط داود ، أما الأسواق الأخرى التى ذكرها فمنها سوق العطارين ، وسوق الزيت ، وسوق الفخر ، نسبة لفخر الدين صاحب المدرسة الفخرية ، وبه المصابن التى يعمل فيها الصابون ، ومن هذا يتضح لنا أن كل سوق تخصص فى بيع سلعة من السلع والتى تسمى بها السوق فى نفس الوقت(١١١)

ويبدو من خلال ماعثرنا عليه من أسماء للأسواق أنها كانت غالبا أسواق للمواد الاستهلاكية من مواد غذائية أو مواد مستعملة فى بعض الصناعات . لكننا لم نعثر على ذكر لبعض الأسواق الأخرى ، مثل الأسواق الخاصة بالأسلحة وغيرها ولعل ذلك راجع إلى طبيعة المدينة الدينية .

أما عن وصف تلك الأسواق وما كان يباع فيها ، فيروى لنا الرحالة كازولا على سبيل المثال وصفا لسوق الطباخين ، حيث زاره ووجد الأطعمة تباع مطبوخة وجاهزة للأكل ، وقد أعجب بها وبكثرة ، روادها لدرجة كبيرة ، حيث يقول إن تلك السوق عبارة عن شارع طويل يمتد إلى مرمى البصر ، وعندما مشيت فى تلك السوق فقد أخبرونى أن لا أحد من أهل القدس يطهو طعامه فى منزله ، وكل ما يشتهيه الشخص من طعام يجده فى تلك السوق(١١٢) هذا على عكس ما أشار إليه أحد الباحثين من أن كازولا أعتقد أن المقادسة لا يطبخون فى بيوتهم بل يأكلون من الأطعمة التى كانت تباع جاهزة فى هذه السوق ، والحقيقة أن لم يعتقد ذلك بل أُخبر فعلا أنهم لا يطبخون فى منازلهم(١١٣) ولقد أكد لنا كثير من الرحالة الذين زاروا المدينة فى تلك الفترة ، هذه الحقيقة وهى أن أهلها يأكلون ما يشتهون من تلك الأسواق ولا يطهون فى منازلهم ، من ذلك ما يرويه لنا الرحالة فابرى حيث يورد لنا وصفا شيقا لتلك السوق حيث يقول : زرت صباح اليوم الموافق ٢٨ يوليو سنه ١٤٨٣ أسواق المدينة وشارع الطباخين ، حيث رأيت أشياء كثيرة للبيع وجماعات كبيرة تشترى من المطابخ العديدة ، ذلك لأن القوم لا يطبخون فى بيوتهم كما نفعل فى بلادنا . بل إنهم يبتاعون طعامهم جاهزا من هذه المطابخ . والطهاة ماهرون نظيفون . وفى تلك الأسواق يعرض الطهاة اللحوم بشكل نظيف زائد عن الحد . وبسبب الجفاف يندر وجود الخشب ، ولهذا فلا توجد مطابخ فى المنازل بسبب الحاجة إلى الوقود أو

الأخشاب[١١٤] . ويؤكد لنا رحالة آخر زار المدينة سنة ١٥٠٣ م وهو لودوفيكو حيث يقول : والمسلمون يتناولون طعامهم فى الشوارع ، كما أن الملابس تباع جاهزة فى المحلات ، وهم يأكلون طعامهم مطهيا ، وفى السوق أيضا كثير من الجبن الطازج ، وإذا أردت شراء بعض اللبن ستجد أربعين أو خمسين عنزة تمر من خلال الشوارع فى كل وقت وصاحب هذه العنزات سوف يأخذها إلى حجرتك ، مهما كان منزلك بعيدا ، وهناك يقوم بحلبها أمامك بالكمية التى ترغبها فى إناء نظيف وجميل[١١٥] .

ومن الأسواق الهامة التى عرفت فى بيت المقدس سوق الزيت ، حيث كان يباع فيها زيت الزيتون ،وبها أيضا المصابن التى يصنع فيها الصابون ، وقد كانت هذه السوق موجودة فى المنطقة المواجهة لباب الناظر أحد أبواب المسجد الأقصى من جهة الغرب ، وقد كانت هذه السوق كبيرة وهامة بسبب وجود أصحاب المصابن الذين يشترون الزيت بكميات كبيرة أما مصدر هذا الزيت فقد كان من الجبال والسهول القريبة من بيت المقدس ومن جبل نابلس [١١٦] .

كذلك كان سوق القطانين أحد الأسواق الهامة ببيت المقدس ، حيث كان يباع فيها القطن ، ويقع هذا السوق فى حارة باب القطانين ، والتى يفتح عليها أحد أبواب المسجد الأقصى وهو المسمى بباب القطانين نسبة لبيع القطن بالسوق الذى عنده [١١٧] ومن المؤكد أن الأقطان التى كانت فى هذا السوق كانت من انتاج بيت المقدس – نقصد بذلك القرى التابعة والمجاورة لها وكما سبق أن أشرنا بذلك فى حديثنا عن الزراعة .

كذلك من الأسواق الشهيرة فى بيت المقدس « سوق السمك » حيث كانت الأسماك من أهم السلع التى يستوردها سكان بيت المقدس من قديم الأزمان ، حيث كان أهل صور يصدرون إليها الأسماك ، وهناك أحد أبواب المدينة يسمى « باب السمك » أو بوابة السمك وهى إلى الشمال من سور المدينة وعندها يقع سوق السمك ، كذلك كان يتم استيراد الأسماك من نهر الأردن وبحيرة الجليل وسواحل البحر الأبيض المتوسط ، وبخاصة من مصر ، حيث عرف المصريون تجفيف السمك وكان السمك المجفف الذى يرد إلى بيت المقدس يعتبر من أرخص الأطعمة ، بحيث كان سعره أرخص من سعر القمح ، وقد لقى السمك المجفف كثيرا من الاقبال عليه وبخاصة من الحجاج المسيحيين والرحالة ، ونتيجة للأعداد المتزايدة من هؤلاء الزوار للمدينة فى تلك المواسم وهى مواسم الحج ، فقد كان على المدينة أن تواجه تلك المتطلبات الزائدة من تلك الأسماك باستيرادها وتخزينها [١١٨] .

وبالإضافة إلى الأسواق السابقة عرفت مدينة بيت المقدس فى عصر سلاطين المماليك نوعا آخر من الأسواق وهى ما يمكن أن نسميه بالأسواق الموسمية ، ومن تلك الأسواق الموسمية ما كان يرتبط بقدوم الحجاج المسيحيين والذين يكثر حضورهم لحضور عيد الفصح بالمدينة والحج ، حيث تشير كثير من المراجع أنه أمام الباب الرئيسى لكنيسة القيامة كان يوجد فناء كبير ، والذى يقام فيه سوق

موسى عند مقدم الحجاج المسيحيين ، حيث تباع فيه الحلى والمسابح والصور الخاصة بالقديسين والتحف الشرقية(١١٩) هذا بالإضافة إلى ما يرويه لنا الرحالة بيروتافور الذى زار القدس سنه ١٤٣٦ م ، من أن المسيحيين المحليين وبخاصة الروم كانوا يقومون بدخول كنيسة القيامة ويبيعون الأطعمة للحجاج المسيحيين ، كذلك فإن كثيرا من المسلمين والمسيحيين كان يسمح لهم بدخول الكنيسة بعد إنهاء القداس ، لعرض بضائعهم على هؤلاء الحجاج ، حيث يشترون منهم بعض الهدايا والتحف الشرقية(١٢٠) . ويصف لنا فابرى تلك الأسواق أكثر تفصيلا فيقول وحيث يكون الحجاج يتجمع حولهم التجار ، فلما كنا فى كنيسة القيامة جاء التجار من المسيحيين الشرقيين ودخلوا معنا ، فلما أقفلت الأبواب عمد بعضنا إلى المساومة ، وقضوا فى ذلك شطرا من الليل إن لم يكن الليل كله .. ولم تقتصر مشترياتهم ومساومتهم على المسابح والحجارة الكريمة ، لكنها تعدتها إلى القماش الدمشقى والحرير ، وأعرف بعض النبلاء الذين كانوا يمتنعون عن المساومة فى أسواق بلادهم لأن ذلك دون مستواهم الاجتماعى ، لكنهم لم يتحرجوا من المساومة والشراء فى مثل هذا المكان المقدس ، ولم تكن غاية الجميع أن يشتروا أشياء لأنفسهم ولكنهم كانوا يفكرون فى نقلها إلى بلادهم للاتجار بها والربح من ورائها ، وقد اشترك بعض رجال الدين فى أعمال البيع والشراء هذه من الحجاج المسيحيين(١٢١) .

كذلك ارتبط بالأعياد المسيحية والاحتفالات الدينية لدى المسيحيين وجود بعض الأسواق التى تخصصت فى بيع السلع المستخدمة فى تلك الأعياد ، من ذلك وجود شارع مخصص لبيع سعف النخيل والذى كان كثير من الحجاج المسيحيين يقومون بشرائه من ذلك الشارع والذى سمى باسم السعف ، والذى تصفه بعض المراجع من أنه كان يقع فى الجانب الجنوبى من كنيسة القديس ستيفن ويتجه شرقا من شارع البطريرك إلى شارع التوابل مارا بكنيسة القديسة مريم اللاتينية(١٢٢) كذلك وجد بالقرب من شارع السعف هذا شوارع أخرى كانت تمد الحجاج المسيحيين بحاجاتهم من الشموع التى يوقدونها أثناء دخولهم كنيسة القيامة ، وأثناء سماع القداس طوال المدة التى يبقون فيها داخل الكنيسه(١٢٣) .

كما يبدو أن كثيرا من زوار بيت المقدس من المسيحيين الغربيين ، قد حرصوا عند زيارتهم للمدينة على شراء كثير من المزامير التى تصنع فى المدينة ، وكان لها شارع خاص بالقرب من خان الزيت فى الطريق المؤدى إلى كنيسة القيامة ، حيث كان هناك كثير من المحلات لبيع تلك المزامير والتى مازالت تستخدم حتى الآن لدى الرعاة(١٢٤) .

ومن الأسواق التى عرفت فى بيت المقدس وكانت مصاحبة لموسم الحج أيضا ما يرويه لنا فابرى أنه عقب نزول الحجاج بمدينة يافا : جاءنا بعض السكان الفقراء يحملون قشا وبوصا رطباً فاشتريناه منهم وجعلناها فراشا ننام عليه .. ثم جاءنا تجار من الرملة وبيت المقدس ومعهم بضائعهم معطرة وأقاموا هناك سوقا ، وكان معهم ماء ورد فى قوارير ثمينة جاءوا به من دمشق .. وكان مع البعض البلسم والمسك والصابون والحجارة الكريمة وقماش الموصلين الأبيض ، وكان التجار ومرافقوهم

معطرين بحيث انتشرت الروائح الذكية حولهم فى كل مكان ، ثم أحرقوا البخور العربى فى المكان الذى كنا نقيم فيه ، ثم جاء آخرون وكانوا يقلون البيض بالزيت ، وغيرهم يحملون أرغفة الخبز والماء المثلج والفواكه والكعك الطازج ، وفى المساء استأجرنا اثنين من السكان ليقوما بحراستنا . ومن هذا يتضح لنا أن بعض أبناء بيت المقدس كان يتخذ من قدوم هؤلاء الحجاج فرصة لاقامة تلك الأسواق لمصاحبتهم منذ أن تطأ أقدامهم أرض يافا ، وبعضهم كانوا يرافقونهم طوال ترحالهم داخل الأراضى المقدسة ، حيث نسمع من نفس المصدر عن كثرة ما كان يجده الحجاج من باعة الأطعمة المختلفة والفاكهة والمشروبات المصنوعة من التمر واللوز والسكر طوال الرحلة من يافا ثم الرملة ثم فى بيت المقدس(١٢٥) .

وتجب الاشارة إلى أن مدينة بيت المقدس قد عرفت فى أواخر القرن الحادى عشر الميلادى نوعا من الأسواق الموسمية والتى تشير إليها كثير من المراجع ، حيث تفد أعداد كبيرة الى المدينة من الغرب الاوربى ، كما كانت ترد إليها التجارة من آسيا بواسطة التجار الفرنسيين والايطاليين ، حيث يقام سوق سنوى فى الخامس عشر من شهر سبتمبر ، حيث يفد إليها التجار من بيزا والبندقية وجنوه ومرسيليا ، ليقوموا بشراء القرنفل وجوز الطيب والتوابل المجلوبة من الهند والفلفل والبهار والبخور من عدن والحرير من الصين سواء عن طريق القوافل البرية أو بواسطة السفن الصينية ، والتى ظهرت فى البحر الأحمر خلال العصور الوسطى ، والكتان من مصر والزئبق والمرجان والمعادن والزجاج من صور واللوز والمصطكى والزعران ز بالإضافة إلى الملابس الثمينة والأسلحة من دمشق ، ومن المرجح أن تلك الأسواق قد استمرت فى عهد سلاطين المماليك ، نظرا لما جازه تجار المدن الايطالية وغيرهم من امتيازات فى ممتلكات السلطنة(١٢٦) .

كذلك عرفت بيت المقدس كثيرا من الأسواق الدورية والتى كانت تقام مرة كل أسبوع ، فيقصد أهل الريف المدينة يبيعون فيها محصولاتهم ويشترون مايحتاجون إليه من الغذاء والكساء ، ولاتزال بعض هذه الأسواق تقام إلى اليوم وفى أيامها المعينة ، كسوق الجمعة فى القدس ويافا والخليل ، ولم تكن هذه الأسواق مقصورة على أهل القدس فقط ، بل إن كثيرا من البدو من خارج المدينة كانو يفدون إليها لبيع منتجاتهم وشراء مايلزمهم من سلع أخرى ، وغالبا ماتكون تلك الأسواق الدورية فى الأماكن المكشوفة قرب بوابات المدينة ، حيث تعرض فيها منتجات الريف أو حيث تتم أعمال المبادلات التجارية ، وكان المشترى يقضى بعض الوقت فى المساومة مع الباعة قد تصل الى الساعات ، فضلا عن هذه الأماكن كانت كثيرا ماتزدحم بالباعة والمشترين ، والمنادين الذين ينادون من حين لآخر عن فقد أحد الحيوانات ومعلنين عن مكافأة لمن يعثر عليه أو يرشد عنه(١٢٧) .

وإلى جانب تلك الأنواع من الأسواق السابقة ، فقد عرفت مدينة بيت المقدس الباعة الجائلين الذين كان أكثرهم يفترشون الأرض فى الأسواق ببضائعم ، على حين كان البعض منهم يتجولون بما يحملون من بضاعة فى شوارع المدينة وحاراتها ، وكان الباعة الجائلون الذين يفترشون أرض الأسواق

يبيعون مختلف البضائع من المأكولات والمشروبات والفواكه والخضروات بالإضافة إلى الحلى ، والذين تصفهم بعض المراجع بأنهم كانوا يجلسون خلف أكوام القنبيط والليمون والبصل والبرتقال والفواكه الأخرى ، على أمل أن يحضر إليهم الزبائن للشراء بينما فى مكان آخر تجد باعة الخبز يعرضون الخبز طازجا وساخنا على ألواح خشبية كبيرة مرتفعة عن سطح الأرض ، كذلك تشاهد السقائين يحملون قراب الماء إلى المنازل ، بحيث يقومون بتفريغ ما معهم من مياه فى آنية خاصة وأحيانا يصبون الماء من خلال فتحة فى حائط المبنى ، لأنه جرت العادة ألا يسمح لهم بدخول المنازل ورؤية من بها من النساء(١٢٨) .

ويجب أن نشير أنه كان للسوق وظيفة أخرى غير تبادل السلع وتغيير العملات أو عقد الاتفاقات التجارية . فهى المكان المفضل لتبادل الأحاديث والمعلومات وتناقل الأخبار ، حيث لم تكن هناك جرائد يومية فقد كانت السوق من أهم الأماكن لتقصى الحقائق والأخبار فيما يتعلق بالشئون اليومية والعائلية وغيرها . وبهذا كانت السوق إحدى المراكز الاعلامية(١٢٩) فضلا عن أنه من المؤكد أن تكون الأسواق فى بيت المقدس قد شهدت نوعا من المناداة التى كانت شائعة فى ذلك العصر ، وفيها يتم الاعلان أو لمناداة عما تريده السلطات من الناس أو ماتريد أن تخبرهم به .

ومن الطبيعى أن تخضع تلك الأسواق لرقابة الدولة التى تمثلت فى عدة أشكال ، منها أن كان لكل سوق من أسواق المدينة ، شيخ ، وهؤلاء الشيوخ كانوا يعينون من قبل نائب السلطنة فى المدينة من بين أعيان التجار ، وكان الشيوخ مسؤلين عن النظام ومنع الاحتيال وكذلك جمع الضرائب التى تفرض على أهل السوق(١٣٠) . كذلك كان كل شيخ منهم مسئولا عن أبناء حرفته وهو المسئول عن رعاية المرضى والفقراء من أبناء حرفته ، وتحديد أجورهم وتحديد مواصفات كل سلعة ومستوياتها ، كذلك يحدد سعرها ، وكل أبناء الحرفة لهم مكان خاص بهم فى الأسواق بحيث تجد النجارين والحدادين والنحاسين وصانعى الاحذية والملابس والنساجين والصاغة والمشتغلين بالجلد وغيرهم من أصحاب الحرف يعملون جنبا إلى جنب مع أبناء حرفتهم . وفى العادة كانت بيوت هؤلاء الحرفيين غالبا ما تكون خارج السوق . وبينما تغلق المحلات بأبواب خشبية كان السوق نفسه يغلق ببوابة حديدية(١٣١) .

هذا بالإضافة إلى وجود عدد ممن كان يطلق عليهم عرفاء الأسواق والذين كانوا بمثابة مساعدين للمحتسب كما سبق وأشرنا فى حديثنا وعن وظيفة المحتسب ، وهؤلاء بجانب دورهم الاشرافى على الأسواق كان لهم دور حربى هام أثناء عمليات الغزو ، فكان عليهم كتابه أسماء عدد الرجال القادرين على المساعدة وتقديم الواجبات الدفاعية وبخاصة إذا تعرضت البلاد لعدوان خارجى ، فضلا عن أنه كانت تبذل الجهود لتعليم أصحاب المحلات والطلبة والمشايخ كيفية استعمال النبال والسهام ليكونوا بمثابة قوات مساعدة لقوات المماليك الحربية وبخاصة عندما فرض سلاطين المماليك على بعض القرى وكذلك المدينة أن تقدم بعض الرجال المسلحين ، وكانت تدفع لهم أجورهم عن طريق ما يفرضه

المماليك من ضرائب على بقية الأهالى(١٣٢) . ومن المؤكد أنه أشترط فى هؤلاء العرفاء أو المساعدين أن يكونوا على درجة كبيرة من العفة والصيانة والنهضة ، والشهامة ، كما أن المحتسب كان يعرفهم كيف يتصرفون بين يديه وكيف يخرجون فى طلب الغرباء(١٣٣) .

من هذا العرض السريع عن التجارة والأسواق فى مدينة القدس على عصر سلاطين المماليك يتضح لنا مدى تعدد المؤسسات التجارية ومدى ما وصلت إليه التجارة خاصة والحياة الاقتصادية عامة ، وأنه كان لتعدد تلك المؤسسات من خانات وقيساريات ووكالات وأسواق أثره المباشر فى تعدد ماكان يعرض فيها من سلع ، فضلا عن كثرة التبادل التجارى ، وان دل ذلك على شىء فإنما يدل على مدى نشاط الحياة التجارية فى المدينة ، ومما لا شك فيه أيضا أن التجارة تأثرت هى الأخرى بمجريات الأحوال الزراعية والصناعية وبخاصة فى أواخر عصر سلاطين المماليك .

الحج ودوره فى الحياة الاقتصادية

يعتبر الحج إلى الأرض المقدسة طيلة العصور الوسطى أحد الأسباب الرئيسية فى الرحلة إلى فلسطين وما جاورها من الشرق الأدنى ، وكان قصد هؤلاء الحجاج المسيحيين هو زيارة الأماكن التى ولد فيها السيد المسيح وعاش فيها ، واقتصرت هذه أول الأمر على بيت لحم والقدس والناصرة ، وبعضهم كان يزور نهر الأردن والذى يطلق عليه « نهر الشريعه » وبحيرة طبرية ، ولكن عدد الأماكن أخذ يتزايد وصارت القصص والروايات تتراكم حول بقاع متعددة فى فلسطين لتجعل منها مراكز متصلة بحياة السيد المسيح ورسله أو غيرهم من القديسين(١٣٤) . ومع إنكار آباء الكنسية الغربية قيمة الحج بادىء الأمر لكنهم منذ القرن الخامس الميلادى أو حتى منذ القرن الرابع أقروها ، وإنتهى الأمر بأن أصبحت الكنيسة تطلب إلى الخطاة من أتباعها أن يكفروا عن خطاياهم بالحج إلى فلسطين ، وهكذا بعد أن كان الحج فى أشكاله المختلفة نتيجة لدافع شخصى لتمجيد الله وتقديم الشكر له وطلب المعونه أو وفاء لنذر والحصول على آثار شخصية للقديسين ، جعلت الكنيسة منه نظاما أساسة تكليف المرء بالحج الى أمكنة معينة وزيارتها بشكل خاص لتغفر له خطاياه لسنة واحدة أو سبع سنوات أو لمدى الحياة ، وتشير بعض المراجع إلى أن هذه الفروض التى سنتها الكنيسة قد أصبحت واضحة الحدود سنة ١٠٥٩ م ، كما يشير بعض حجاج بيت المقدس الذين وفدوا من الغرب طوال المدة من القرن الثالث عشر إلى الخامس عشر الميلادى إلى عدد سنى الغفران التى يختص بها كل مكان زاروه من الأماكن المقدسة(١٣٥) .

وكان على الأوربى الذى يرغب فى الحج أن يحصل على إذن من رئيس كنيسته وآخر من صاحب السلطة الزمنية ، وكانت الكنيسة تمنح الأذن مجانا أولا ، لكنها جعلته لقاء رسوم معينة منذ أواخر القرن الخامس عشر الميلادى ، وكان الاذن يعطى فى حفل دينى خاص ، أما الذين كانوا يأتون إلى الأرض المقدسة دون أن يحصلوا على إذن من الكنيسة ، فكان عليهم أن يقدموا أنفسهم لرئيس دير جبل صهيون ، وهو نفسه رئيس جماعة الرهبان الفرنسيسكان والذى كان يحلهم من خطيئتهم

ويسمح لهم بالزيارة فى أول حضورهم للخدمة بالكنيسة فى يافا أو فى القدس ، كما كان الحاج يرتدى ثيابا خاصة بحيث يعرف منها ، والغالب أن يرتدى الواحد منهم قباء أغبر اللون ويتمنطق بحزام عريض عليه صليب أحمر ويحمل عصا وكيسا ، وقد يسير البعض حفاة وخصوصا اذا كانوا يقومون بالحج كفارة عن ذنب بأمر الكنيسة(١٣٦) .

كما كانت موانى البندقية وبيزا وجنوه ومرسيليا هى الأماكن التى يقصدها الحجاج المسافرون بحرا إلى فلسطين من أوروبا(١٣٧) كذلك من المرجع أن ميناء دمياط كان هو الميناء المخصص لنقل الحجاج المسيحيين الغربيين الذين قدموا لزيارة الأماكن المقدسة فى مصر ثم منها كانوا يسافرون إلى زيارة بيت المقدس ، كما كانت السفن تقلع منها وعليها أقباط مصر(١٣٨) . ومن المرجح أيضا أن تكون تلك السفن كانت تقل بعضا من الحجاج الذين وفدوا من الحبشة ، أو لعلهم سلكوا الطريق الصحراوى الذى كان يرتبط بين القاهرة وبيت المقدس والذى يذكر لنا الأب سوريانو أنه كان به ثلاث محطات رئيسية ، هى مدينة قطيا التى تبعد عن القاهرة مسيرة أربعة أيام ومنها الى غزة التى تبعد عنها خمسة أيام ثم منها الى بيت المقدس التى تبعد عن غزة مسيرة يومين(١٣٩) .

ومن الطرق البرية التى سلكها الحجاج الى بيت المقدس ، الطريق الذى كان يسلكه حجاج روسيا وبلاد الأرمن عبر جبال القوقاز وتركيا الحالية ثم بلاد الشام ثم بيت المقدس ، وقد ظلت مدينة يافا طوال عصر سلاطين المماليك ميناء لمدينة بيت المقدس ، ينزل بها الحجاج المسيحيون القادمون بحرا فى طريقهم الى القدس والأرض المقدسة(١٤٠) .

أما عن أعداد هؤلاء الحجاج الذين كانوا يفدون لزيارة المدينة المقدسة ، فإن المصادر التى بين أيدينا لم توضح ذلك بشكل قاطع إلا أننا نستطيع القول بأنها كانت بلا شك كبيرة ، والدليل على ذلك ما تشير إليه بعض المراجع من ذلك أن رورخت جمع أسماء ما يزيد عن ١٤٠٠ من الحجاج الألمان المعروفين الذين زاروا البلاد بين سنتى ١٣٠٠ ، ١٦٠٠ م(١٤١) كذلك يشير أحد الباحثين إلى أن أعداد الحجاج المسيحيين لبيت المقدس كانت كبيرة ، حيث يفد العديد من مختلف الجنسيات والطوائف الدينية ، ليس قط من البلدان الغربية لكن أيضا من البلدان الشرقية(١٤٢) . كما يؤكد باحث آخر كثرة أعداد هؤلاء الحجاج بقوله : إن الأعداد الكبيرة من الحجاج المسيحيين الذين يزرون مدينة بيت المقدس كل عام كان لها تأثير كبير فى سلوك وتصرفات البدو والسكان العرب ، فقد عرفوا قيمة الذهب الأجنبى ولذا فهم يحترمون هؤلاء الأشخاص ويقدرون هؤلاء الذين ينفقون عليهم بسخاء نظير ما يقدمون لهم من خدمات ، وإن السفر خلال الصحراء فى بلاد فلسطين والذى كان يشكل خطورة كبيرة على هؤلاء الحجاج ، فمع مرور الوقت أصبح شيئا عاديا لقيام هؤلاء البدو برعاية الحجاج وارشادهم بعد الاتفاق مع مشايخهم على المبالغ التى سيحصلون عليها(١٤٣) . كذلك يؤكد لنا الرحالة فابرى الذى زار المدينة أواخر القرن الخامس عشر الميلادى وكما سبقت الاشارة بذلك ، أنه بمجرد وصول الحجاج الى مدينة يافا وعندما يسمع سكان القرى المجاورة بذلك فقد كانوا يحضرون كثيرا من الحمير ، حيث يقوم الرجل منهم بإحضار سبعة أو ثمانية حمير ، وأن

السفينة التى ركبها كانت تقل أكثر من مائتى من الحجاج(١٤٤) هذا بالاضافة إلى ما يشير إليه الرحالة كازولا من أنه ازدادت رحلات الحجاج الايطاليين إلى بيت المقدس اعتبارا من القرن الرابع عشر الميلادى بشكل واضح مما يؤكد اضطراد الزيادة فى أعدادهم(١٤٥) .

فاذا أضفنا الى ذلك ما تشير إليه بعض المراجع من أن رجال الدين الروم كانوا يرغمون أتباعهم على زيارة فلسطين مرة واحدة فى حياتهم بحيث كانت تبلغ أعداد هؤلاء حوالى عشر آلاف كل سنة لبيت المقدس وحتى يكونوا عونا لإخوانهم من رجال الدين القائمين بالقدس ومؤسساتهم الدينية ، لأدركنا مدى كبر تلك الاعداد التى وفدت على المدينة فى موسم الحج (١٤٦) وليس أدل على كثرة هؤلاء الحجاج مما يشير إليه أحد الباحثين من أن البندقية قد حذرت السلطان الغورى عن طريق سفيرها تالدى عام ١٥٠٤ م من منع الحجاج للأراضى المقدسة المسيحية فى فلسطين كتهديد منه للبابوية وملوك أوربا اذا لم يوقف البرتغاليون تعرضهم لتجارة السلطان الشرقية فى الهند ، ومما قاله السفير للسلطان إن هذا سيحرم بلادك من رسوم ضخمة (١٤٧) .

إلا أنه تجب الاشارة إلى أن أعداد هؤلاء الحجاج قد تأثرت بالظروف السياسية التى أحاطت بعلاقات دولة سلاطين المماليك بالغرب الأوربى ، من ذلك ما حدث فى بداية القرن الرابع عشر عندما قامت البابوية بفرض حظر التعامل مع المسلمين وتحريم التجارة معهم ، مما كان له دون شك أثر فى قلة أعداد الحجاج الواردين الى المدينة (١٤٨) . كذلك يبدو أن أعدادهم بدأت تقل فى أواخر عصر سلاطين المماليك نتيجة لحالة الاضطراب التى شهدتها دولة سلاطين المماليك فى تلك الفترة ونتيجة لاكتشاف البرتغاليين رأس الرجاء الصالح ، وتهديدهم تجارة مصر فى ذلك الوقت ، فضلا عن اتجاه العثمانيين نحو المشرق وتدخلهم فى شئونه ، مما ساعد على قلة الأعداد ، فضلا عما ألم بظروف هؤلاء الحجاج أنفسهم والتى يصورها أحد الباحثين بقوله : أن حجاج القرن الخامس عشر لم يكن لديهم الولاء أو الإخلاص المزوج بحب الترحال الى الاراضى البعيدة لذلك قلت أعدادهم ، وخير دليل على ذلك أن الرحالة وليام واى الذى زار المدينة فى رحلته الأولى سنة ١٤٥٨ م لم يكن يصحبه فى رحلته سوى ١٩٧ حاجا فى مركبين (١٤٩) .

هذا وقد اهتمت السلطات المملوكية وحتى نهاية عصر سلاطين المماليك بزيارة الحجاج المسيحيين للأراضى المقدسة فى فلسطين لأسباب سياسية واقتصادية أما الأسباب السياسية فمن المرجح أن سلاطين المماليك رأوا فى السماح لهؤلاء الحجاج بزيارة الأراضى المقدسة فرصة للدعاية لهم لدى الغرب الأوربى ، نظرا لشمولهم لهؤلاء الحجاج بعطفهم وحمايتهم وتسامحهم الدينى ، والذى ظهر واضحا فى حرصهم على المحافظة على أرواحهم وتوفير سبل الأمن والأمان لهم وتعيين الحراس لمرافقتهم فى رحلتهم وحتى عودتهم سالمين(١٥٠) . ويروى لنا دى لابروكيير الذى زار القدس سنة ١٤٣٢ م أن كبير التراجمة كان يجمع هؤلاء الحجاج أمام كنيسة صغيرة على اليسار من كنيسة القيامة ، ثم يسجل أسماؤهم وأعمارهم وأوصافهم الشخصية ، ويرسل منها نسخة إلى كبير التراجمة فى القاهرة ، وهذه الاحتياطات كانت تتخذ على الرغم من أنه كان يحدث نفس الشيء عند نزولهم

بميناء يافا وكان الهدف منها الحرص على سلامتهم ، والتأكد من ذلك وأن البدو لم يقوموا بإعاقة أحدهم أو احتجاز بعضهم[١٥١] . وكذلك يروى لنا فابرى أنه كان يعنى بشؤن الحجاج المسيحيين فى بيت المقدس رئيس ومساعده والأول كان اسمه « كالينوس » والثانى يدعى « الفاهالو » ، ويقوم هذان بالترجمة والإرشاد والحراسة للحجاج المسيحيين ، وفى كل مدينة نجد جماعة يمنحهم السلطان حق رعاية الحجاج وحمايتهم ويعدون من موظفى الدولة وان هذا الكالينوس قد حرسنا ودافع عنا بأمانة ، وأتى لنجدتنا عندما استنجدنا به[١٥٢] هذا بالإضافة إلى ما تشير إليه كثير من المصادر من أن السلطات المملوكية حرصت على رعاية الأماكن المقدسة المسيحية وحفظها من التلف ، من ذلك السور الذى أقيم حول القبر المقدس بحيث لا يستطيع أحد لمسه ، حيث جرت عادة الحجاج بتقبيل القبر المقدس ولمسه ، وبعضهم كان يقوم بتكسير أحجاره ليصحبها معه إلى بلده[١٥٣] .

هذا ولم يقتصر حرص المماليك على سلامة الحجاج أثناء زيارتهم لبيت المقدس فقط ، بل أيضا لمن أراد منهم بعد ذلك زيارة سيناء ، ويروى لنا فابرى أنه والحجاج الذين كانوا معه قد استأذنوا نائب السلطنة فى بيت ا لمقدس أن يسمح لهم فى حمل السلاح للدفاع عن أنفسهم خشية قطاع الطرق وإغارات البد وعليهم ، فتسمح لهم بحملها على أن يسلموها فى القاهرة ، وفى هذا خير دليل على رعاية المماليك للحجاج المسيحيين[١٥٤] إلا أن وضع الأهمية هنا فى تلك الرعاية هو الناحية الاقتصادية فما تجنيه الدولة من رسوم حج وجمارك كان على جانب كبير من الأهمية لدخل المدينة والسلطات المملوكية فى نفس الوقت ، هذا بالإضافة إلى ماكان يصحب موسم الحج من انتعاش التعامل التجارى فى هذه الفترة فى كل من مدن يافا والرملة وبيت المقدس[١٥٥] .

فمن ذلك أن الحجاج الغربيين كانوا يقضون فى بيت المقدس من ثمانية إلى عشرة أيام بما يمثل أحد الموارد الهامة للمدينة فى تلك الفترة ، ليس فقط لما كان يدفعه كل حاج من رسوم للسلطات المملوكية ولكن لما كان يدفعه كل حاج من رسوم لزيارة الأماكن العديدة المقدسة ، والتى تناثرت فى أنحاء بيت المقدس والمناطق المحيطة بها ، وتختلف تقديرات الحجاج لتلك الرسوم فبينما يرى تافور أنها كانت تصل الى ٥ر١٢ دوكات[١٥٦] يرى سوريانو أنها كانت تصل الى ٥ر١٣ دوكات حتى عام ١٥٠٠ م غير النفقات الأخرى التى كان يتحملها من يأتى منهم بطريق البر ، والتى كانت تصل الى ١٧ دوكات[١٥٧] . بينما تشير بعض المراجع إلى أن تلك النفقات كانت تصل فى مجموعها الى ٢٢ دوكات نظير الإقامة والضيافة فى بيت المقدس[١٥٨] . ومع هذا الاختلاف فى تقدير المبالغ التى كانت تفرض كرسوم والتى دوناها فى جدولين منفصلين ملحقين بآخر الفصل الخامس ، إلا أنه تجب الاشارة إلى أن تلك الرسوم لم تكن ملزمة فكلما ازدادت أحوال الدولة الاقتصادية سواء ازدادت حاجتها للأموال كلما ازدادت تلك الرسوم ، كما تجب الاشارة إلى أن تلك الرسوم كان يدفعها أبناء الطوائف المسيحية الشرقية والذين يأتون لزيارة المدينة والحج أيضا[١٥٩] .

هذا وقد يرى البعض أن تلك الرسوم كانت تصل فى النهاية إلى أيدى فئة قليلة ، لكن يهمنا أن نؤكد أن موسم الحج هذا كان يمثل فترة انتعاش اقتصادى للمدينة وقد استفاد منه أهل المدينة بل

والمدن الأخرى مثل يافا والرملة أيما استفادة ، والدليل على ذلك ما تشير إليه كثير من المصادر والحجاج أنفسهم أنه كان على الحجاج أن يستأجروا بعض الحمير والبغال أو بعض الخيول لنقلهم من يافا إلى بيت المقدس ، وقد دفع بعضهم إيجارا لحيوانه ٢ دوكات ذهبية أى ما يعادل ٤٤ درهما فضية فى ذلك الوقت(١٦٠) كذلك تشير بعض المصادر إلى أنه بمجرد نزول الحجاج من السفن المقلة لهم فى مدينة يافا ، فإنهم يستأجرون بعض الخيام من الأهالى ليقيموا فيها بعض الوقت حتى تحميهم من حرارة الشمس ، وهذا ما يؤكده دى لابروكيير الذى زارها سنة ١٤٣٣ م وإن لم يذكر لنا المبالغ التى كانوا يدفعونها فى مقابل ذلك(١٦١) . كذلك يشير المصدر نفسه إلى أن البدو حول بيت المقدس كانوا يقومون بتوصيل الحجاج بجمالهم من يافا إلى المدينة نظير ١٠ دوكات عن كل رأس نظير الحماية والانتقال(١٦٢) .

وقد سبق لنا أن أشرنا فى حديثنا عن الأسواق إلى ما كان منها يتعلق بموسم الحج وأن تلك الأسواق الموسميه والباعة الجائلين كانوا يستفيدون كثيرا من هذا الموسم ، فإذا أضفنا إلى ذلك أنه كان على هؤلاء الحجاج أن يتزودوا بالأطعمة يوميا لسد احتياجاتهم أو على الأقل لعدة مرات طوال إقامتهم فى المدينة وفى الطريق منها وإليها لأدركنا مدى الرواج الاقتصادى فيما يختص بالمواد الغذائية ، والذى تتحدث عنه بعض المصادر بقولها إن العرب واليهود والمسيحيين الشرقيين كانوا ينتظرون الحجاج المسيحيين ويجلبون معهم الخبز والماء والأطعمة المطهية والفاكهة التى يقبل عليها هؤلاء الحجاج(١٦٣) .

كذلك قام كثير من الحجاج باستئجار بعض المنازل من أهل القدس والذين كانوا يستعدون لهذه المناسبة بإعداد الغرف والمنازل لهذه الفرصة حيث جرت العادة أن ينزل رجال الدين والرهبان من الحجاج فى نزل الحجاج أدنى دير جبل صهيون الخاص بطائفة الرهبان الفرنسيسكان . أما الحجاج الآخرون كانوا يستأجرون غرفا عن طريق الترجمان الذى كان واسطة الاستئجار أو مساعده ، حسبما يؤكد لنا فابرى ويؤيد برايد ينباخ ذلك فى أحاديثهما عن الحج إلى بيت المقدس(١٦٤) .

هذا وتشير بعض المصادر الى تعدد مصادر دخل مدينة بيت المقدس من موسم الحج ، من ذلك ما يرويه لنا جون ساندرسون أن المسيحيين من أهل بيت المقدس كانوا يقومون بصنع كثير من الصلبان من أشجار الزيتون ويقومون ببيعها للحجاج ، والذين يقبلون على شرائها بكثرة لإهدائها إلى أقاربهم وأصدقائهم عند عودتهم لمواطنهم ، كما كانوا يحفرون أشكالا لبعض القديسين على أخشاب الزيتون ويقدمونها لهؤلاء الحجاج ، مثل تمثال القديس بطرس وغيره ، والتى كانت تلقى رواجا لدى هؤلاء الحجاج(١٦٥) .

كذلك تشير بعض المراجع إلى أن موسم الحج نفسه كان بمثابة فترة للرواج الاقتصادى من ذلك أنه لا يكاد يصل الحجاج الى مدينة بيت المقدس من كل أنحاء البلاد ، مثل بلاد الشام وأرمينيا وآسيا الصغرى وأقاليم الدانوب وغيرها ، والذين كانوا يحضرون معهم كثيراً من الأشياء للمتاجرة فيها ، حيث تصبح المنطقة الواقعة أمام مدخل كنيسة القيامة شبه معرض ، يعرض فيه الحجاج ما معهم من

بضائع للبيع ومن المؤكد أنه كانت تحدث كثير من المعاملات التجارية فى تلك المنطقة من بيع وشراء ، حيث تشير بعض المراجع أيضا إلى أن هؤلاء الحجاج كانوا يحملون معهم فى رحلة العودة كثيرا من المتاجر الشرقية إلى أوروبا(١٦٦) هذا فضلا عن شرائهم الحواشى « المراتب » المحشوة بالقطن والذى تنتجه البلاد ، وسلال البيض والأجولة المملوءة باللحم المجفف والمدخن وكذلك الجبن وأدوات الطهى وقرب المياه والشموع والأدوية حيث يتزودون بتلك المؤن فى رحلة العودة ، بالإضافة إلى ما يحمله الأغنياء منهم من الحرير والسجاد(١٦٧) .

أما بالنسبة للحجاج الذين ينوون زيارة الأماكن المسيحية المقدسة فى سيناء فقد كان عليهم أن يستعدوا لتلك الرحلة الشاقة ، وإعداد ما يلزمهم أثناءها من طعام وشراب ، لذا كانوا يتزودون من بيت المقدس بكل ما يلزمهم من نبيذ ولحم مجفف وأسماك مجففة وخبز وفاكهة ، كما أنهم كانوا يتزودون من غزة بالبسكويت اللازم طوال الرحلة(١٦٨) . وهذا فضلا عن أن كل حاج منهم كان عليه أن يدفع مبلغا يصل إلى ٢٣ دوكات فى مقابل زيارته ، نصف هذا المبلغ كان يتم دفعه فى بيت المقدس والنصف الآخر فى غزة(١٦٩) . كما كان عليهم أن يتصلوا بكبير التراجمة فى بيت المقدس ، والذى يحصل منهم ضريبة السلطان وأخرى له ثم يقوم بدوره بالاتصال بترجمان غزة الذى يقوم بدوره بالاتفاق مع البدو لحمايتهم ، ويؤجرون لهم الجمال مقابل عشرة دوكات عن كل فرد ، كما كان ترجمان بيت المقدس يزودهم بالجمال والحمير والبغال اللازمة لحمل أمتعتهم نظير مبلغ معين(١٧٠) .

هذا بالإضافة إلى أن بعض أبناء القدس كانوا يعملون كثيرا كتراجمة لمصاحبة الحجاج ، بالاضافة إلى المبالغ التى يحصلون عليها منهم نظير ما يقدمون لهم من خدمات وارشاد ، إلا أن هؤلاء التراجمة كانوا يحصلون على نسبة عالية قد تصل إلى عشرين فى المائة من التجار نظير ما يشتريه منهم هؤلاء الحجاج كعموله لهم ، كذلك كان هؤلاء التراجمة يقومون بجلب بعض الأشخاص الذين يقومون بطهى الطعام وسقى الماء وتقديم الخدمات المتعلقة بالمأكل والمشرب فى بيت المقدس لهؤلاء الحجاج ، وأن هؤلاء التراجمة كانوا دائما محل ثقة الكثيرين من الحجاج ، وبخاصة الذين يكثر ترددهم على البلاد ، كما كانوا على مستوى من الكفاءة والمقدرة بحيث لم يبخل عليهم الحجاج بالمال(١٧١) .

وأخيرا تجب الاشارة إلى أن الحجاج المسيحيين كانوا شبه ملزمين بدفع كثير من المبالغ على هيئة هبات فى كثير من الأماكن التى يقومون بزيارتها فى الأراضى المقدسة وبيت لحم والخليل ، فمن هذه المبالغ ما تشير إليه بعض المصادر والمراجع أنه كان على الحجاج إرضاء ناظر كنيسة القيامة والحراس الذين يأتمرون بأمره ، والذين كانوا يجبون كثيرا من الاتاوات من الحجاج والتى كانت موضع الشكوى من الحجاج بإستمرار(١٧٢) ولعل كثرة تلك المبالغ هى التى دفعت بعض الحجاج إلى القول أن المسلمين كانوا يحصلون على كثير من الأتعاب والهبات والأموال من الحجاج المسيحيين ، وهى نفسها التى دفعت الرحالة كازولا إلى القول أنه على كل حاج من الحجاج أن يحمل معه ثلاث حقائب ، حقيبة من الصبر ، وحقيبة من النقود ، وحقيبة من الإيمان(١٧٣) . وهى التى دفعت تافور

من قبله الى القول أنه كان على كل حاج أن يدفع بعضا من المبالغ الصغيرة فى كل الأماكن المقدسة التى يرغب أن يزورها أثناء حجة(١٧٤) .

من هذا العرض يتضح أن الحج إلى بيت المقدس كان يشكل موردا هاما من الموارد المالية للمدينة والذى انتفع به عدد كبير من سكانها سواء الحكام أو المحكوميين ، نظير ما حصلوه من رسوم وأتاوات أو قدموه من خدمات أو عن طريق ما كان يتم من معاملات تجارية كانت تعود بالنفع على قطاع كبير من سكان المدينة أو من تلك الأسواق الموسمية والمتنقلة التى كانت تصحب ركب الحجاج ، منذ أن تطأ أقدامهم مدينة يافا وحتى عودتهم إليها بعد الانتهاء من مراسم الحج .

الأزمات الاقتصادية

شهدت مدينة البيت المقدس كثيرا من الأزمات الاقتصادية على عصر سلاطين المماليك ، وبخاصة فى فترة حكم المماليك الجراكسة ، ولقد تعددت العوامل المسببة لتلك الأزمات ، من عوامل طبيعية واقتصادية وسياسية كان لها أكبر الأثر فى خلق تلك الأزمات .

ومن المعروف أن النظام السياسى الذى قامت عليه دولة سلاطين المماليك بوجه عام وفى مدينة بيت المقدس بوجه خاص كان نظاما إقطاعيا اعتمد بدوره على الأرض كمصدر للثروة ، وحين تضطرب إنتاجية الأرض تضطرب دعامة هامة من دعامات دخل الطبقة الحاكمة ، هذا بالإضافة إلى اضطراب أحوال السواد الأعظم من سكان المدينة نظرا لما مثله الانتاج الزراعى لهم من مورد هام من موارد الدخل ، هذا فضلا عن أن اضطراب الإنتاج الزراعى كان يتبعه اضطراب فى كثير من الصناعات القائمة على الزراعة والتى سبق أن أشرنا إليها وهى الصناعات الأساسية فى المدينة مثل صناعة الصابون والسكر وغيرها وكذلك الحال بالنسبة للتجارة وخاصة تجارة الحاصلات الزراعية .

كما لعبت الأمطار دورا حيويا فى حياة سكان بيت المقدس فإذا كانت كمية الأمطار فى سنة من السنوات كافية لرى الأرض الزراعية خرجت تلك السنة على خير « ومن الله تعالى على عباده بحصول الرخا وتيسير الأقوات وانحطاط الاسعار وحصل الرفق للعباد »(١٧٥) أما إذا امتنعت الأمطار عن النزول انتشرت حالة من الفوضى والفزع وماجت البلاد بمشاعر الخوف والترقب ، وتجسد شبح المجاعة بوجهه المرعب يتوارى خلفه شبح الوباء(١٧٦) ويصور لنا المقريزى ما كان يحدث عادة من استمرار انقطاع الأمطار وما كان يؤدى إليه من أنه أجدبت أراضى بلاد حورّان والكرك والقدس والرملة وغزة ، لعدم نزول المطر فى أوانه ونزح كثير من سكان هذه البلاد من أوطانهم وقلت المياه عندهم » (١٧٧) ويبدو أن الهجرة كانت تتجه الى المناطق الساحلية من بلاد الشام .. ومع هجرة بعض السكان الى مناطق أخرى أكثر رخاء إلا أن ذلك لم يكن يخفف من حدة الأزمة التى تصورها لنا بعض المصادر المعاصرة نتيجة لعدم سقوط الامطار حيث « اشتد الامر ببيت المقدس وقلت الأقوات منه ووصل سعر القمح كل مد بدينار والشعير كل مد بعشرين درهما ووقع الغلاء فى كل

الأصناف من الأرز والزيت والبصل وغير ذلك حتى فى الخضروات وضج الناس الى الله سبحانه وتعالى »[١٧٨] .

وإذا حدث فى السنة التالية أن سقط المطر فى موعده وبكمية كافية كان ذلك كفيلا بأن تتراجع أحوال بيت المقدس إلى الخير وحصل الرخاء وتباشر الناس بالفرح بعد الشدة[١٧٩] ، أما إذا تأخر سقوط المطر ببيت المقدس بحيث يمضى غالب الشتاء ، ينزعج الناس لذلك أشد الانزعاج ويخرجون إلى المسجد الأقصى ليستسقوا ويضجون بالدعاء الى الله تعالى فضلا عن مداومتهم على التهليل والتكبير بقبة الصخرة الشريفة ، ثم ينصرفون ، فإذا سقوا فى يومهم أدركوا أن الله أغاث عباده ، وإذا لم يسقوا جزعوا لذلك[١٨٠] .

ومن هذا يتضح لنا أن توقف أو تأخر سقوط المطر كان يخلق موقفا عصيبا بالنسبة لأهالى بيت المقدس ومن ثم يضطر الناس إلى أكل واستهلاك المخزون لديهم من الغلال ، وربما استهلكوا تقاوى الزراعة المقبلة أيضا إذا زاد تأخر سقوط الأمطار ، وبالتالى فإن الغلاء كان يفرض نفسه على مظاهر الحياة المختلفة الذى يصور لنا ابن قاضى شهبة إحدى جوانبة فى حديثة عن سنة ٧٩٨ هـ/ ١٣٩٥ م أنه « جاءت الأخبار من القدس أن غرارة القمح وهى غرارتان بالدمشقى بألف وأن الخبز لا يوجد وأن الماء قليل جدا وليس ببئر أيوب ولا زرقة ماء وأنهم استسقوا بالقدس مراراً ووقع مطر ولكن لم تملأ منه الآبار ولا نفع لغير الزرع وأنهم فى شدة زائدة[١٨١] .

والواقع أن تأخر الأمطار أو عدم سقوطها أو حتى عدم كفايتها كان كارثة يخشاها الجميع ، وتنتاب الناس المخاوف فيسارعون إلى تخزين الغلال ويشتد التزاحم على الأفران بحيث ينعدم وجود الخبز كما سبق وأشرنا ، ويتبع ذلك ارتفاع رهيب فى الأسعار فى كل ما يباع ويشترى وبخاصة المواد الغذائية ، وهنا تبرز حقيقة هامة وهى حرص سلاطين المماليك على تخفيف حدة تلك الأزمات بقدر الامكان ، وهذا ما يؤكده لنا ابن قاضى شهبة أيضا فى حديثة عن نفس السنة ، وبعد مرور حوالى ثلاثة شهور من الأزمة السابقة حيث يقول ورد الخبز بانخفاض الأسعار بالقدس وأن الكيل باثنين وعشرين .. » وان كان لم يذكر لنا السبب صراحة فى إنخفاض الأسعار إلا أننا نستطيع أن نؤكد ذلك بناء على ما سبق واتخذه السلطان برقوق عام ٧٩٠ هـ / ١٣٨٨ م حيث « وقع الغلاء بحلب والشام ونابلس والرملة والقدس وأبيع القمح كل غرارة بثلاثمائة درهم ونقل من مصر إلى بلاد الشام قمح كثير[١٨٢] » ويبدو أن هذه كانت سياسة سلاطين المماليك دائما لتخفيف الأزمات الاقتصادية فى بيت المقدس بصفة خاصة وبلاد الشام بصفة عامة ، وهذا ما تؤكده لنا المصادر المعاصرة من ذلك أنه حدث عام ٧٢٧ هـ / ١٣٢٦ م فى عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون عندما قل الماء بالقدس وبلغ شرب الفرس الماء مرة واحدة نصف درهم فضة فقد سارع الأمير تنكز نائب الشام وقتئذ وكتب إلى ولاة الأعمال بإخراج الرجال لفتح عين ماء بالقدس وهنا يبدو جليا حرص أمراء المماليك على تخفيف الأزمات التى كان يعانى منها سكان القدس[١٨٣] .

هذا فضلا عما كان يتخذه السلاطين عادة من إصدار الأوامر للأمراء بمصر بإرسال القمح إلى

المدينة أو بلاد الشام أيضا ، عند حدوث تلك الأزمات ، وهذا ما يؤكده لنا أبن العماد بما لا يدع مجالا للشك ، حيث يذكر فى حديثه عن سنة ٧٢٤ هـ / ١٣٢٣ م « وفيها كان الغلاء المفرط بالشام وبلغت الغرارة أزيد من مائتى درهم أياما ثم جلب القمح من مصر بإلزام سلطانى لأمرائه فنزل الى مائة وعشرين درهما بقى أشهرا ونزل السعر بعد شدة وأسقط مكس الأقوات بالشام بكتاب سلطانى . وكان على الغرارة ثلاثة دراهم ونصف ...(١٨٤) .

كذلك من المرجح أن تلك الأزمات لم تكن لتستمر طويلا ، إما بسبب سرعة الإجراءات التى كانت تتخذ فى ذلك الوقت لمواجهة تلك الأزمات ، وإما بسبب لطف الله تعالى بالمدينة وبأهلها والذى تشير إليه كثير من المصادر مثل « واستسقى الناس بالقدس فسقوا والحمد لله » و « أغاث الله عباده بالمطر الغزير فأمتلأت الآبار ورويت الأرض ... »(١٨٥) .

وتجب الاشارة أيضا إلى أن النظام السياسى نفسه كان ضمن عوامل التدهور الاقتصادى والأزمات الاقتصادية التى شهدتها المدينة فى عصر المماليك ، ذلك أن النظام الاقطاعى المملوكى الذى اعتمد على الأرض الزراعية وإنتاجها بشكل أساسى ، هذا الاقطاع تميز بسمة واضحة وهى التغير الدائم لأصحاب الاقطاعات أو الأشخاص المقطعين ، لذا حرص كل منهم على أن يكون لنفسه من الثروة ما يستطيع جمعه بقدر الامكان ، دون الاهتمام بوسائل زيادة الانتاج أو تحسين الأرض المنتجة ، وكانت النتيجة الحتمية لذلك هى الاستنزاف الدائم للأرض الزراعية ، فضلا عن عدم رعاية الفلاحين وإرهاقهم ، مما ساعد على هجرة الكثيرين منهم للقرى ، كما سبق وأشرنا بذلك فى حديثنا عن الزراعة ، فضلا عن انعدام الأمن والذى يرجع السبب الأساسى فيه إلى ضعف السلطة الحاكمة والممثلة فى السلطان فى العاصمة ، وانشغالها بتحسين مواردها المالية ، فضلا عن تولية بعض النواب للمدينة ممن ليسوا أهلا لهذا المنصب ، وهذا ما يؤكده لنا مجير الدين فى حديثه عن سنة ٨٩٢ هـ / ١٤٨٧ م أيام الأشرف قايتباى حيث يقول : وفيها تزايد ظلم دقماق نائب القدس الشريف وكثر طمعه وتلاشت أحوال المعاملة واختل نظامها وكثر السراق وأفحشوا فى قطع الطرق وقتل الأنفس وبقى الناس فى شدة لذلك فان دقماق المذكور كان فى مباشرته على طريقة النائب جقمق .. يصدر منه كلمات مهملة فى المجالس والمحافل توجب انتقاص الناس له وكان يخاطب آحاد العوام بالترهات الفشرية ويعتمد أفعالا لا تليق ... »(١٨٦) .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإن وهن قبضة سلاطين المماليك فى أخريات أيامهم على العربان كان سببا من أسباب الفوضى والأزمات الاقتصادية فى أحيان كثيرة ، حيث صاروا يهاجمون القرى وينهبونها من حين لآخر ، ويفرضون على أهلها كثيرا من الإتاوات والتى سبق أن أشرنا إليها فى حديثنا عن موقف علماء بيت المقدس من القضايا المعاصرة ، بل يهاجمون المدينة نفسها ويلحقون بها وبأسواقها كثيرا من الخسائر المادية فضلا عن الخسائر فى الأرواح .

ومن العوامل التى ساعدت أيضا على خلق بعض الأزمات الاقتصادية زيف النقود المتداولة بين الناس .(١٨٧) وهذه الظاهرة كانت واضحة وملموسة منذ بداية عصر

سلاطين المماليك وحتى نهاية ذلك العصر ، وقد كان للصليبيين فى بداية الأمر يد فى تلك الأزمات ، ويؤكد لنا أبو شامة ــ وهو معاصر لتلك الفترة ــ ذلك فى حديثه عن سنة ٦٥٩ هـ / ١٢٦٠ م بقوله « ابتلى الناس فى هذه السنة بغلاء شديد عام فى جميع الأشياء من المأكل والملابس وغيرهما . بلغ رطل الخبز درهمين ورطل اللحم خمسة دراهم وأوقية القنبريس درهما ، والجبن درهما ونصف والثوم أوقية بدرهم والعنب رطل بدرهمين ، ومن أكثر أسبابه ما أحدثه الفرنج من ضرب الدراهم المعروفة باليافية وكانت كثيرة الغش ، بلغنى أنه كان فى المائة خمسة عشر درهما فضة والباقى نحاس ، وكثرت فى البلد كثرة عظيمة ، وتحدث فى إبطالها مرارا فبقى كل من عنده شيء حريصا على إخراجه خوفا من بطلانها فتراه يدأب فى شراء أى شيء كان فيتزايد فى السلع بسبب ذلك إلى أن يطلب فى أواخر السنة فعادت تباع كل أربعة منها بدرهم ناصرى مغشوش أيضا بنحو النصف »(١٨٨)ومما لاشك فيه أن مدينة بيت المقدس بحكم تبعيتها فى تلك الفترة لنيابة الشام فقد تأثرت بذلك ، كما تأثرت دمشق وغيرها ، وهذا بالإضافة إلى أن بعض السلاطين أكثروا من ضرب الفلوس ، واختلفوا فى تقديرها بالوزن ، فحينا يكون الرطل منها بستة دراهم ، وأحيانا باثنى عشر درهم وأحيانا بدرهمين ونصف ، وفى جميع هذه الحالات أرغم التجار والأهالى على التعامل بها وفق القيمة التى تحددها الحكومة ، مما يضطر كثيرا من التجار إلى إغلاق حوانيتهم خوفا من بخس بضاعتهم ، ويصحب هذه الحالة ارتفاع فى كثير من أسعار السلع وقلة الخبز(١٨٩) .

ومن العوامل التى ساعدت أيضا فى خلق كثير من الأزمات الاقتصادية فى مدينة بيت المقدس وبخاصة فى عصر سلاطين المماليك الجراكسة ، سوء الأحوال الاقتصادية فى عاصمة دولة المماليك نتيجة لاضطراب الدخل الزراعى فى مصر ، وقلة الموارد المالية ، فضلا عن استنزاف خزانة الدولة فى كثير من الحروب والفتن الداخلية والخارجية ، والذى انعكس بصورة مباشرة فى شكل البراطيل والمبالغ التى أصبحت تفرض لتولى كثير من الوظائف الهامة فى المدينة(١٩٠) فضلا عن كثرة الأعباء المالية التى أصبحت تفرض على نواب القدس لتقديمها للسلاطين أو نوابهم أو بسبب سوء الأحوال الاقتصادية فى المدينة نفسها ، وقلة دخل إقطاعات النائب ، والذى أنعكس بشكل واضح فيما أصبح يفرضه النواب على بعض الوظائف مثل الحسبة ، وكان من الطبيعى أن ينعكس ذلك على أصحاب الحرف وغيرهم ممن خضعوا لإشراف المحتسب ، وما كان يؤدى إليه ذلك من ارتفاع أسعار السلع ، وهذا ما يؤكده لنا مجير الدين فى حديثه عن

سنة ٨٨٠ هـ / ١٤٧٥ م فى أيام السلطان قايتباى ، حيث يروى لنا أنه عندما زار السلطان القدس ذلك العام ورفع إليه أمر الحسبة بأنه كان يؤخذ من المحتسب مال لنائب القدس فيلزم منه تسلطه على الفقراء والمتسببين ، فرسم السلطان بإبطال تولية الحسبة من نائب القدس وابطال ما هو مقرر على الوظيفة من الرشوة ، وأن يكون تعيين المحتسب بمرسوم شريف بغير كلفة واستمر الأمر على ذلك مدة ثم اختل النظام ورجع الأمر الى ما كان عليه أولا(١٩١) . كذلك ما يروية عما أصبح يؤخذ عند تولى منصب قاضى القضاة منذ عهد السلطان قايتباى أيضا ، عندما أعيد القاضى كمال الدين النابلسى الحلبى إلى قضاء القدس والرملة ونابلس على عادته ، ودخل القدس الشريف عائدا من القاهرة بعد كلفة مال كبير بذله فى المنصب ولم يجربه عادة قبله فى قضاء الحنابلة ، وسببه جور وكيل السلطان فى ذلك الوقت وهو ابن ثابت . كذلك ما يرويه لنا في حديثة عن سنة ٨٩١ هـ / ١٤٨٦ م حيث يقول : « وفى يوم الاثنين ثالث المحرم دخل الأمير ماماى الخاصكى الى القدس الشريف بخلعه السلطان والناس فى خدمته فرسم على أكابر البلد وأخذ منهم مالا ، فأخذ من ناظر الحرمين الأمير ناصر الدين النشاشيبى أربعة بغال وحصانا ، ومن النائب الأمير جانم مائتى دينار ، ومن شيخ الصلاحية ثلاثين دينارا ، ومن القاضى فخر الدين ابن نسيبة أربعمائة دينار ، ومن القاضى شهاب الدين الجوهرى ثلاثمائة دينار ، وحصل للناس منه شدة »(١٩٢) وهذه الحقيقة ، وهى سوء الأحوال الاقتصادية فى العاصمة والتى انعكس أثرها على أنحاء الدولة المملوكية ، لم تكن خافية على كثير من المؤرخين المعاصرين ، والتى يؤكدها لنا ابن تغرى بردى ويرجعها الى سوء تدبير هؤلاء السلاطين الأواخر بالدرجة الأولى ، والتى كان ولابد أن تنعكس بصورة أو بأخرى على أحوال البلاد التابعة لهم(١٩٣) .

وأخيرا تجب الاشارة إلى أن كثرة الأوبئة والتى تعددت بشكل واضح فى مدينة بيت المقدس طوال عصر سلاطين المماليك وبخاصة الجراكسة – وكما سبق القول – والتى يقول عنها سوريانو أنها كانت تحدث كل عشر سنوات وكما سبق أن أشرنا أيضا ، كان لها أكبر الأثر فى تلك الأزمات الأقتصادية ، حيث من المعروف أن أهم نتائجها هو انخفاض معدل السكان بشكل كبير ، وماكان يصحبه ذلك من تدهور الانتاج الزراعى والصناعى ، فضلا عما ينتج من إرتفاع كبير فى الأسعار ، واختفاء كثير من السلع الضرورية فى كثير من الأحيان ، وانكماش الأسواق تبعا لذلك ، ولايخفى علينا ماكان ينجم عن ذلك من معاناة سكان المدينة فى تلك الآونة .

من هذا يتضح لنا مدى الارتباط بين تلك الأزمات الاقتصادية والظروف الطبيعية ، والاقتصادية والسياسية التى ساعدت على خلق تلك الأزمات وكيف حاول السلاطين والأمراء المماليك التخفيف من تلك الأزمات بقدر الامكان .

الضـــرائب

(المكوس والرسوم والمقررات والجوالى والمواريث الحشرية ، والرمى أو الطرح) :

فى بداية حديثنا عن المكوس(١٩٤) فى مدينة بيت القدس على عصر سلاطين المماليك فالبرغم من أنه قد وردت إشارة عند ابن شاهين الظاهرى ، مؤداها أنه لم يؤخذ من القدس أية مكوس بخلاف جميع البلاد التى خضعت لحكم سلاطين المماليك(١٩٥) والمعروف أن ابن شاهين كان معاصرا للسلطان جقمق « ٨٤٢ هـ / ١٤٣٨ م ـــ ٨٥٧ هـ / ١٤٥٣ م » والذى اشتهر بتدينة الشديد ، ولعل هذا التدين هو الذى دفعه لمنع تلك المكوس من القدس فى عهده فقط لأننا نسمع من أبى الفدا فى ذكره لحوادث سنة ٧٢٤ هـ / ١٣٢٣ م بأن الناصر محمد بن قلاوون قام بإبطال المكوس والضرائب عن سائر أصناف الغلال بجميع بلاد الشام ، مما قد يفهم منه أنها كانت تؤخذ من جميع بلاد الشام بما فيها بيت المقدس (١٩٦) . وكذلك يؤكد لنا مجير الدين وجود تلك المكوس فى القدس فى فترة سابقة لفترة السلطان جقمق ، ففى حديثه عن نائب القدس الأمير شهاب الدين أحمد اليغورى الذى ولى فى عهد السلطان الظاهر برقوق ، أنه عندما ولى نظر الحرمين ونيابة السلطنة بالقدس الشريف وبلد الخليل عليه السلام عام ٧٩٦ هـ / ١٣٩٣ م ، فقد أبطل المكوس والمظالم والرسوم التى أحدثها النواب قبله ، وفى هذا تأكيد قاطع على أن المكوس كانت موجودة فى بيت المقدس(١٩٧) .

هذا وإن كانت المصادر والمراجع التى بين أيدينا لم تتحدث إلا نادرا عن ذكر المكوس وأنواع السلع التى كانت تفرض عليها ، مما قد يفهم منه أنها ألغيت من بيت المقدس ، لكننا نستطيع القول أن سلاطين المماليك حرصوا دائما على تأكيد سياستهم الدينية فى الحكم فى صورة رفع المظالم والمكوس عن أهالى بيت المقدس والتخفيف عنهم ، من ذلك مايرويه لنا مجير الدين على سبيل المثال – أن السلطان الأشرف قايتباى عند ما زار المدينة سنة ٨٨٠ هـ/ ١٤٧٥ م ، فقد اشتكى الناس الأمير جار قطلى نائب القدس ، ورفعت فيه القصص بسبب ما تعمده من الظلم والجور ، فطلبه السلطان وسمع فيه الشكوى ، وأنصف الناس منه وأمره أن يدفع لهم ما أخذه منهم ، وعندما هم السلطان بمغادرة المدينة فقد طلب النائب وأمره أن يصالح جميع من شكى منه فصالحهم ودفع لكل من أخذ منه شيئاً (١٩٨) . هذا وقد أكد السلطان رفع تلك المكوس بمرسوم جاء فيه « ... رسم مونا الأشرف أبو النصر قايتباى عز نصره بإبطال ما أحدث من المظالم بجبل القدس الشريف وجبل الخليل عليه السلام من الإقامة وما على البضائع المجلوبة إلى بلد سيدنا الخليل من المكس المسمى بالطعمة وغيرها وأن لايتعرض المحتسب ولاغيره ببلد الخليل لشىء من ذلك وذلك فى تاسع عشر

المحرم سنة أحد وثمانين وثمانمائة » وفى هذا المرسوم خير دليل على وجود تلك المكوس فى أواخر عصر سلاطين المماليك(١٩٩) .

هذا ومن المرجح أن تكون تلك المكوس قد كثرت فى عهد سلاطين المماليك الجراكسة ، حيث ورد ذكرها مرة واحدة فى عهد دولة المماليك البحرية ثم حدث ذكر لها أكثر من مرة فى عهد المماليك الجراكسة كما سبق القول - ولعل السبب فى ذلك راجع الى اضطراب أحوال الدولة الاقتصادية والتى أجهدت ماديا بسبب كثرة حروبها ضد القراصنة المسيحيين ، الذين هاجموا السفن والسواحل الإسلامية الخاضعة لسلطنة المماليك ، فضلا عن الحروب الداخلية التى شنها المماليك ضد البدو والتركمان ، فضلا عن حروبهم البحرية ضد البرتغاليين والتى استنفذت موارد الدولة ، لذا كان لابد من إيجاد وسيلة للحصول على المال ، وكانت المكوس هى إحدى وسائل جمع المال(٢٠٠) .

ومن الضرائب التى عرفت فى بيت المقدس فى ذلك العصر هى ماكان يسمى « بالرسم » أو « الرسوم » ، وهذا النوع من الضرائب كان يستخدم حيث يصعب تقدير نسبة العشر على الماعز وأراضى الرعى والمناحل ، وكذلك على الطواحين والمعاصر ودواب الحمل - وعلى سبيل المثال لا الحصر - فكان على أهل كل قرية أن يدفعوا ضريبة على الطواحين على أساس عدد الطواحين وإمكانية تشغيل تلك الطواحين طول العام أو أثناء المواسم والفصول ، وفى معظم الحالات فإن الطاحونه التى تعمل طول العام وبها رحاة واحدة كان عليها أن تدفع ٦٠ أقة من جملة ما تطحن ، أما الطواحين التى لاتعمل فى أيام المطر فعليها ثلاثين أقة ، والطواحين التى تدار باليد فكانت معفاة من تلك الرسوم ، كما أن الضريبة على الماعز والجاموس كانت معروفة فى جميع القرى تحت اسم « رسم الغنم »و « رسم الجاموس » وقام السكان وبخاصة الذين عاشوا منهم فى السهول والمناطق التى حول البرك والآبار بدفعها(٢٠١) .

ومن الرسوم التى عرفت فى القدس أيضا رسوم الولاية ، وهى عبارة عن مبلغ من المال يقوم بجبايته النواب والخاصكية من عرفاء الأسواق ومن عامة الناس ، ويبدو أن تلك الرسوم كانت من الكثرة بحيث تضرر منها كثير من الناس والتى يصورها لنا المقريزى فى حديثه عن سنة ٨٠٧ هـ / ١٤٠٤ م ، أيام السلطان فرج بن برقوق حيث فرض نائب القدس على الناس مالا ، فأبوا عليه فتركهم حتى اجتمعوا بالمسجد الأقصى ، وغلق الأبواب وألزمهم بالمال فاستغاثوا عليه ، فلبس السلاح وقاتلهم ، فقتل بينهم بضعة عشر رجلا وجرح كثير ، وفر النائب مهزوما . فلما بلغ الخبر الأمير شيخ نائب الشام بعث عوضه إلى القدس(٢٠٢) ومنها ما يذكره أيضا مجير الدين فى حديثه عن سنة ٨٩١ هـ / ١٤٨٦ م أيام السلطان الأشرف قايتباى ، عندما دخل الأمير ماماى الخاصكى إلى القدس الشريف بخلعة السلطان والناس فى خدمته فرسم على أكابر البلد منهم مالا فأخذ من ناظر الحرمين الأمير ناصر الدين النشاشيبى أربعة بغال وحصانا ومن النائب الأمير جانم مائتى دينار ، ومن شيخ الصلاحية ثلاثين دينارا ، ومن القاضى فخر الدين ابن نسيبة أربعمائة دينار ، ومن القاضى

شهاب الدين الجوهرى ثلثمائة دينار ، ومن القاضى شهاب الدين الجوهرى ثلثمائة دينار ، وحصل للناس منه شدة لذلك[٢٠٣] إلا أننا نسمع بين الحين والآخر عن أن أحد السلاطين كان يبطل تلك الرسوم ، من ذلك ما حدث فى عهد السلطان الملك الظاهر أبى سعيد ططر ، أبطل ما كان يجبى لنائب القدس فى كل سنة من المال ، ونقش بذلك رخامة وألصقها بباب الجامع الأقصى[٢٠٤] .

ومن الرسوم أيضا ما كان يعرف برسم نفقة الأجناد ، وأول من أشار إلى تلك الرسوم هو ابن عبد الظاهر فى حديثه عن السلطان الظاهر بيبرس فعندما علم بحركة أبغا ملك التتار فقد أصدر مرسوما أن يخرج أهل كل قرية بالشام من بينهم خيالة على قدر حال أهل القرية ويقومون بكلفهم[٢٠٥] ، كذلك يشير المقريزى إلى أن السطان الظاهر بيبرس فى السنة الثالثة من حكمه وهى سنة ٦٦١ هـ / ١٢٦٢ م ، قد فرض على أهل الذمة فى بيت المقدس دينارا برسم نفقة الأجناد إلا أن السلطان قلاوون أبطل ذلك الرسم سنة ٦٧٨ هـ / ١٢٧٩ م[٢٠٦] . ومن المرجح أن تكون تلك الرسوم الخاصة بنفقة الأجناد لم تكن لتفرض على أهالى بيت المقدس إلا فى الحالات الضرورية وعندما تعجز ميزانية أو خزانة الدولة عن الوفاء بالالتزامات الحربية ، لأننا لم نسمع عن ذلك الرسم إلا سنة ٧٩٨ هـ / ١٣٩٥ م — أى بعد مرور أكثر من قرن — حيث ورد مرسوم السلطان الأشرف برسباى بجمع الأموال بسبب استخدام الرجال لقتال التركمان بقيادة ابن قرايلك وكان المبلغ المطلوب هو ثمانية عشر ألف دينار ، تم توزيعها على الرملة والقدس ونابلس وحوران والبلقاء وحوران والمرجعين والغوطة وبعلبك وصيدا وبيروت ، وتم جمعه وحصل للناس حيف من ذلك[٢٠٧] ، كما تجب الاشارة إلى تكرار حدوث ذلك فى عهد سلاطين المماليك الجراكسة ، حيث تشير كثير من المصادر إلى تكرار تكليف نائب القدس بجمع الرجال كاملى العدة والسلاح من فرسان ومشاة للخروج إما لمحاربة التركمان أو لقتال الأتراك العثمانيين[٢٠٨] .

هذا ويشير أحد الباحثين الى أن السلطان الأشرف قايتباى قد أنفق ٧٫٠٦٥٫٠٠٠ دينار فى حروبه العديدة ولكى يغطى تلك التكاليف الهائلة فقد فرضت حكومته نوعا من المشاركة على طبقات معينة من الشعب ، أو على الأحياء فى المدن ، كذلك جمعت ضرائب غير عادية على الممتلكات الخاصة وعلى دور العبادة وعلى رجال الدين والعلماء والأرامل والأيتام وغيرهم ، ولاشك أن كثيرا مما حدث فى المدن والبلاد التى خضعت للحكم المملوكى قد حدث فى القدس من تلك الاجراءات الاستثنائية[٢٠٩] . بل إن تلك الاجراءات تعدت مجرد فرض تلك الرسوم الى ما يرويه لنا ابن طولون فى ذكره لحوادث سنة ٨٩٢ هـ / ١٤٨٦ م فى عهد السلطان قايتباى نفسه أنه أرسل أحد الأمراء ليصادر أهل البلاد الشامية ، كغزة والقدس وصفد وحماه وطرابلس وحلب وقيل إن السلطان جعل تسفيره نحو أربعين ألف دينار[٢١٠] . وليس هذا فحسب بل إنه نتيجة إفلاس الخزانة السلطانية فى عهد السلطان الغورى ، ونتيجة لاستيلاء البرتغاليين على التجارة التى كانت تدر أرباحا طائلة لدولة سلاطين المماليك ، فإن السلطان الغورى بالإضافة إلى كثرة الضرائب التى فرضت فى عهده ، فقد طلب دفع الضرائب مقدما لعدة سنوات ، كما فرض على اليهود والمسيحيين أموالا

كثيرة ، وهذا يبين لنا مدى انعكاس سوء الأحوال الاقتصادية فى العاصمة وتأثيره فى مدينة بيت المقدس ، والذى أدى فى كثير من الأحيان الى جمع تلك المبالغ بشكل أو بآخر والتى كان يتم جمعها أحيانا بالقسوة والقهر(٢١١) .

ويجب أن نشير أنه جرت محاولات من جانب بعض السلاطين المماليك المتأخرين لتجفيف وطأة تلك الضرائب عن أهالى بيت المقدس ، برغم الأزمات الاقتصادية التى كانت تعانى منها الدولة ، من ذلك ما يرويه لنا أحد الباحثين من أنه رسم السلطان الملك ناصر محمد أبو السعادات ابن قايتباى « بإبطال ما جدد على القصابين والمتسببين بالقدس الشريف من الحمايات والمظالم وأن يبيعوا اللحم بسعر الله تعالى ولا يؤخذ منهم لحم بغير قيد ثمن بتاريخ اليوم المبارك السادس من شهر ذى القعدة الحرام من شهور سنة اثنين وتسع مائة(٢١٢) .

كذلك يجب علينا أن نشير إلى أن المصادر والمراجع التى بين أيدينا ، لم تذكر لنا هل حدث فى بيت القدس مثلما كان يحدث فى غيرها من المدن ، من وجود الضريبة التى عرفت تحت اسم « مقرر السجون » وهى المبالغ التى كان يدفعها السجين للسجان والتى تبلغ ستة دراهم غير ما يغرمة حتى ولو تم الافراج عنه بعد ساعة من سجنة أو حسب قول المقريزى (ولو لم يقم به إلا لحظة واحدة » أخذ منه المقرر ، وكذلك كان على سجن القضاة أيضا(٢١٣) . إلا أننا نرجح وجود تلك الضريبة أو المقرر بسبب وجود السجون بالمدينة وهذا ما سوف نتناوله عند حديثنا عن الفصل الخامس فى الحياة اليومية . كما تجب الإشارة أيضا إلى أنه وجدت مقررات أيضا أخرى نوردها هنا ، حيث وردت إشارة إليها عند المقريزى وهى المبالغ التى كانت تفرض علي المسابك ، ودار الضرب ، وما يتحصل من دار الوكالة ، ونصف متحصل كنيسة القيامة بالقدس ، وإن لم يذكر لنا مقدار تلك الأموال(٢١٤) .

أما عن الجوالى أو الجزية ، فهى عبارة عن الأموال التى فرضتها الدولة وفقا لأحكام الشرع على أهل الذمة من يهود ومسيحيين البالغين منهم دون النساء والصبية والرهبان والمجانين ، ويختلف مقدارها بحسب دخل الشخص منهم وقد تراوحت ما بين عشرة دراهم وخمسة وعشرين(٢١٥) . وأنها كانت تحصل منهم سنويا وكان لهذه الضريبة ناظر يوليه نائب المدينة أو السلطان وكان موعد تحصيل هذه الضريبة أواخر كل سنة هجرية لا شمسية ويضاف إلى كل جزية درهمان وربع عن رسم المشد والمستخدمين(٢١٦) .

ومن المرجح أنها فى عهد المقريزى وكما حدث فى مصر فإنها كانت تستخرج « سلفا وتعجيلا فى غرة السنة »(٢١٧) وفى بداية عهد سلاطين المماليك كانت الأموال التى تجبى من هذه الجزية أو الجوالى بعضها يدخل لبيت المال ، والبعض الآخر يخصص للإنفاق على بعض القضاة وأهل العلم(٢١٨) وأحيانا أخرى تكون مرصدة للقيام ببعض الأعمال العمرانية والتى كان الهدف منها خدمة أهل المدينة . مثال ذلك ما يرويه لنا المقريزى فى حوادث سنة ٦٨٢ هـ / ١٢٨٣ م من أن السلطان المنصور قلاوون رسم أن تكون جوالى الذمة بالقدس وبلد الخليل وبيت لحم وبيت جالا مرصدة

لعمارة بركة فى بلد الخليل(٢١٩) إلا أن المقريزى يروى أيضا أنه اعتبارا من سنة ٧٠٩ هـ / ١٣٠٩ م فى عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون وبعد الروك الناصرى فقد أصبح دخل الجوالى يضاف إلى الأمير صاحب الاقطاع كل بحسب ما لديه من عدد منهم ، وقد استمر هذا الوضع فى دولة بنى قلاوون وحتى عهد السلطان برقوق حيث حدثت بعض التعديلات قليلا قليلا فى ذلك النظام ولعله يقعد بذلك أنها جرت مجرى المال الهلالى وخاصة إذا حدث وخرج الاقطاع إلى شخص آخر وعندئذ يستحق المقطع الجديد تحصيلها لأنها جزء من مال إقطاعه من تاريخ صدور منشوره بالاقطاع ، وإذا حدث وتخللت مدة بين المقطع الجديد والمقطع المنفصل وهو السابق غدا قسط هذه المدة وهى فترة الخلو من وجود مقطع فإن تلك المبالغ المستحقة عن هذه المدة تدخل ديوان الخاص السلطانى ، وجدير بالملاحظة أيضا أن المبالغ التى كانت تجبى من أبناء الذمة كانت فى تناقص مستمر ، إما بسبب تنقلهم الدائم من إقطاع إلى آخر ، أو بسبب إسلام الكثيرين منهم بحيث أصبح كثير من العلماء والفقهاء ينادوون بموجب تحصيلها شهريا(٢٢٠) .

ومن المصادر الأخرى من مصادر المال ، والتى عرفت فى بيت القدس وفى غيرها من البلاد التى خضعت لحكم سلاطين المماليك المواريث الحشرية ، والتى يقصد بها المال الذى تركه من لا وريث له أوله وارث لا يستحق كل الميراث فيكون ذلك من موارد الدولة والتى تضاف الى بيت المال ، ولعله كان يشرف عليها ببيت المقدس ناظر ديوان المواريث ، يعاونه كتاب لكتابه أسماء المتوفين وما يتعلق بهم ، وشهود وشاد ومشارف لتحصيل الارث(٢٢١) .

أما فيما يختص بسياسة الرمى أو الطرح ، فإن المماليك لم يقنعوا بما فرضوه من ضرائب مباشرة على السلع والمشتروات ، أو تلك التى كانت تفرض على الأسواق والتجار ، أو المقررات التى فرضت على كثير من أوجه الحياة ، بل إنهم عمدوا إلى احتكار بعض السلع وفرض شرائها بالأسعار التى يحددونها على أتباعهم فى البلاد التى خضعت لهم ، وهذا ما يسمى بنظام الطرح أو الرمى ، من ذلك ما يرويه لنا ابن تغرى بردى فى حديثه عن سنة ٨٠٢ هـ / ١٣٩٩ م أيام السلطان الناصر فرج بن برقوق ، من أن الأمير تنم نائب الشام كان قد اقام ابن الطبلاوى متحدثا فى أمور الدولة بالشام فأخذ ابن الطبلاوى هذا فى الافحاش فى أمر الشاميين وطرح عليهم السكر الواصل من الغور(٢٢٢) كذلك ما يرويه لنا المقريزى فى حديثه عن سنة ٨٢١ هـ / ١٤١٨ م أيام المؤيد شيخ حيث وقف طائفة من بلد الخليل عليه السلام للسلطان وشكوا الهروى على مال أخذه منهم أيام ولايته على بلد الخليل وأنه طرح على بعضهم بيضا وألزمه أن يحمل بعدده دجاجا فبعث السلطان إليه يأمره أن يخرج لهم مما يلزمه من الحق(٢٢٣) كذلك ما يرويه لنا مجير الدين فى حديثه عن سنة ٨٩٦ هـ / ١٤٩٠ م أيام السلطان الأشرف قايتباى من أنه فى أول ربيع الآخر حضر السيفى قانصوه من مخيم الأمير أقبردى الدوادارا لكبير بمرسوم برمى الزيت المتحصل من جبل نابلس على أهل بيت المقدس الخاص والعام من المسلمين واليهود والنصارى ، كل قنطار بخمسة عشر دينارا وكان الزيت قبل ذلك من تقادم السنين ومضى الأزمنة يرد من جبل نابلس ويباع بالقدس والرملة بالسعر الواقع من غير حرج على

أحد واستمر الأمر على ذلك إلى سنة ٨٩٠ هـ / ١٤٨٥ م حيث تسبب بعض وسائط السوق فى أمره فصار يضبط الزيت ويرمى على أربابه من التجار وهم الذين يصنعون الصابون بالقدس الشريف ومدينة الرملة ولما كانت تلك السنة أى ٨٩٦ هـ / ١٤٩٠ م طلب أهل القدس بأسرهم وكتب أسماءهم فى قوائم ، وعين لكل إنسان قناطير معينة وأمرهم بشراء الزيت كل قنطار بخمسة عشر دينارا وشدد على الناس وضربهم ضربا مؤلما وشرع يحمل كل واحد فوق طاقته ومن لم يظعن ضربه حتى كاد يهلك ، ومن غاب هجم على منزله وأخذ ماله من الأمتعة ومن لم يوجد له أمتعة ولا موجود أحضر زوجته وضربها وسجنها حتى تدفع ما على زوجها فهتك كثيرا من المخدرات ، ومن لم يظفر بزوجته أحضر من يكون من أقاربه فإن لم يوجد له قريب أحضر من يكون من جيرانه وباع الناس أمتعتهم وثيابهم بأبخس الأثمان وبقى الناس يأخذون الزيت كل قنطار بخمسة عشر دينارا ذهبا . ويبيعون بمائتى درهم وخمسين درهما فكانت الخسارة أكثر من الثلثين .

وكانت محنة فاحشة لم يسمع بمثلها فى عصر من العصور ، ثم تكرر حدوث مثل ذلك سنة ٨٩٩ هـ / ١٤٩٣ م فى عهد السلطان نفسه[٢٢٤] ومما لا شك فيه أن تلك السياسة وهى سياسة الطرح أو الرمى فإن دلت على شىء فإنما تدل على مدى الانهيار الاقتصادى الذى كانت تعانيه دولة سلاطين المماليك فى أواخر عهدها ، وبخاصة منذ بداية عصر سلاطين الجراكسة لأننا لم نسمع عن مثل تلك الحوادث فى عصر المماليك الأول أى فى دولة المماليك البحرية ، كما كانت تلك السياسة أيضا ضمن العوامل التى ساعدت على التدهور الاقتصادى الذى شهدته المدينة فى أواخر عصر المماليك وكما سبقت الإشارة بذلك .

المعاملات المالية فى القدس

من المعروف أن مدينة بيت المقدس لم يكن لها نظام نقدى منفصل عن دولة سلاطين المماليك وهذه الحقيقة تؤكدها لنا كثير من المصادر والمراجع فالقلقشندى فى حديثه عن القدس يقول « ومعاملتها بالذهب والفضة والفلوس على ما تقدم فى معاملة دمشق[٢٢٥] كذلك من المؤكد أيضا أن أحدا من ولاتها أو نوابها بعد أن تحولت إلى نيابة لم يقم بسك عملة خاصة ، ودليل ذلك ما يرويه أحد الباحثين من أن الدينار الجديد والذى يطلق عليه اسم « الاشرف » نسبة إلى الأشرف برسباى ظل هو العملة الذهبية فى كل من مصر وبلاد الشام جميعها حتى نهاية حكم المماليك[٢٢٦] ، كذلك يؤكد لنا ابن فضل الله العمرى أن معاملتها على أيامه ايضا كانت الدراهم « ثلثاها فضة والثلث نحاس .. » إلا أنه يذكر أنه وجد بها نوع من « الدارهم السود » والدرهم منها « ثلث دراهم » مما قيمته ، أى قيمة الدرهم ثمانية عشر حبة خروب ــ الخروبة ثلث قمحات ... والدرهم قيمته ثمانية وأربعون فلسا » وهذه الدراهم السود لم تستخدم فى المعاملات فى الديار المصرية ولكنها دراهم اسمية[٢٢٧] وكانت تلك الدراهم السود معروفه فى الاسكندرية لكنها ربما أقل من الدارهم السود فى القدس ، حيث يذكر نفس المصدر أن الدرهم منها فى الاسكندرية يعادل نصف درهم من الدراهم التى ثلثاها فضة والثلث نحاس[٢٢٨] .

إلا أنه تجب الإشارة إلى أن مدينة بيت المقدس قد عرفت بالاضافة إلى الدينار من الذهب ، والدرهم الفضة والفلوس من النحاس ، وذلك منذ أواخر القرن الثامن الهجرى ، حيث يروى لنا ابن الهائم « ت سنة ٨١٥ / ١٤١٢ م » أنه عندما كان مقيما بالقدس عام ٧٩١ هـ / ١٣٨٨ م « كان التعامل إذ ذاك بالقدس الشريف بالفلوس العددية ، وكانت نوعا واحدا كل ثمانين فلسا منها بدرهم ، وكل حبة خمسة أفلس لأن الحبة عبارة عن نصف ثمن الدرهم فى القدس بخلاف مصر حينئذ حماها الله تعالى فإنها عبارة عن ثلث قيراط وما كانت الفلوس رايجة رواج النقود لعدم التعامل بها فى شراء عقار ونحوه ثم غيرها بعض النواب فى القدس الشريف فجعل الحبة ستة أفلس والدرهم ستة وتسعين فلسا فرخصت قيمتها ونقص عدد الدراهم خمسة ، ثم دخلت الفلوس المصرية العددية القدس الشريف المعبر عنها بالجدد وكانت إذ ذاك كل أربعة وعشرين فلسا بدرهم .. وصار التعامل فى القدس بالنوعين ثم راجت الجدد على العتق رواجا كبيرا .. ولم يتعامل الناس بالدراهم ولا بالفلوس العتق الا نادرا ..(٢٢٩) . هذا ويؤكد لنا ابن الهائم ان كثيرا من النواب كان يقوم بتغيير قيمة تلك الفلوس وانقاص عددها مما كان يسبب كثيرا من الاضطراب فى الأحوال الاقتصادية ، وفى المعاملات المالية مما دعاه إلى تأليف كتابه هذا لكى يكون عونا على حل المشكلات التى كانت تنجم عن ذلك(٢٣٠) .

وجدير بالذكر أيضا أن بيت المقدس قاست مثل غيرها من المدن من أثر التلاعب فى سك العملات سواء الذهبية أم الفضية وما كان يحدث فيها من غش ، من ذلك على سبيل المثال ما يذكره لنا المقريزى من أن المعاملات المالية كانت مستقرة منذ بداية عصر سلاطين المماليك وبخاصة عصر السلطان الظاهر بيبرس الذى ضرب الدراهم الظاهرية نسبة إليه « وجعلها كل ماية درهم من سبعين درهما فضة خالصة وثلاثين نحاسا وجعل رنكه على الدرهم وهو صورة سبع فلم يزل الدراهم الكاملية(٢٣١) . والظاهرية بديار مصر وديار الشام الى أن فسدت سنة إحدى وثمانين وسبعمائة بدخول الدراهم الحموية فى إمارة الملك الظاهر برقوق قبل سلطنته .. فلما تسلطن .. أكثر من ضرب الفلوس وأبطل الدراهم فتناقصت حتى صارت عرضا ينادى عليه فى الأسواق .. » كذلك يؤكد أن تغيير النقود ونقصان قيمة الفضة فيها كان يصحبه كثير من القلاقل والاضطرابات الاقتصادية وبخاصة فى المعاملات فى الأسواق والايجار وأسعار السلع وما إلى ذلك(٢٣٢) . كذلك فى حديثه عن سنة ٨١٥ هـ / ١٤١٢ م عقب مقتل السلطان فرج بن برقوق يروى أن الدراهم التى كان يتم التعامل بها كان نصفها فضة ونصفها نحاساً ، واستمر انقاص الفضة منها إلى أن صارت الفضة عشر الدرهم والتسعه أعشار من النحاس مما أدى إلى ارتفاع سعر الذهب بشكل كبير ، بحيث ارتفع الدينار من خمسة وعشرين درهما ، إلى خمسة وخمسين درهما ، ولاشك أن هذا الارتفاع فى سعر الذهب كان لابد أن يصحبه ارتفاع كثير من الأسعار والسلع(٢٣٣) . ومن المرجح أن تكون عمليات التغيير الدائم فى قيمة العملة قد صحبها نشاط كثير من مزيفى النقود المعروفين « بالزغلية » وإن كانت المصادر التى بين أيدينا لم تشر صراحة من قريب أو بعيد لذلك .. ومن الطبيعى أن تتأثر مدينة بيت المقدس مما كان يحدث بهذا الخصوص ، وليس بغريب أن يكون هذا هو حال بعض

مزيفى النقود ، فالسلاطين أنفسهم ساعدوا على ذلك الاضطراب فى قيمة العملة وبخاصة السلطان برسباى ومن أتى بعده من سلاطين المماليك ، فبعد احتكاره لكثير من أنواع المتاجر عمد إلى إنقاص معدل العملة ، سواء من الذهب أو الفضة أو النحاس ، مع الاحتفاظ بقيمتها الأسمية ، وقد حذا حذوه كثير من السلاطين من بعده ، وحتى نهاية عصر سلاطين المماليك ، مما ساعد على زيادة التدهور الاقتصادى الذى شهدته البلاد(٢٣٤) .

وأخيرا تجب الإشارة إلى أن مدينة بيت المقدس عرفت إلى جانب العملات المحلية من دينار ودرهم وفلس كثيرا من المعاملات الأجنبية ، وتنوعت النقود المتداولة فيها تنوعا يتناسب مع العناصر والأجناس التى كانت تفد إليها ، وبخاصة من الحجاج الوافدين من الغرب الأوربى ، وغيرهم من البلاد الأخرى ، ويؤكد لنا كثير من الرحالة ان العملات التى عرفت فى الغرب الأوربى كانت متداولة فى بيت المقدس ومعروفة ، من ذلك ما يرويه الرحالة فابرى الذى زارها وكما سبق القول أواخر القرن الخامس عشر الميلادى ، أن العملات الفضية الألمانية والتى عليها علامة الصليب والتى كانت من الفضة الجيدة كانت مستعملة(٢٣٥) . كذلك عرفت مدينة بيت المقدس الدوكات وهى عملة بندقية سكتها البندقية عام ١٢٩٤ م ، وقبل ذلك كانت تستخدم مع معاملاتها فى الشرق الفلورين وهى عملة فلورنسة الذهبية والفرنتى ، وكذلك الدوكات الفضية إلا أن التعامل بها كان قليلا لعدم إقبال الناس على التعامل بها فى بلاد الشام ، وإصرارهم على التعامل بالدوكات الذهبية(٢٣٦) . إلا أنه من الملاحظ أن الدوكات كان من أهم العملات التى تدفقت على مدينة بيت المقدس ، ولعل هذا راجع فى المقام الأول إلى قيام البنادقة بحمل الحجاج المسيحيين إلى الأراضى المقدسة والذين كان عليهم تغيير ما معهم من عملات محلية خاصة ببلادهم بعملة البندقية وهى الدوكات ، فضلا عن ثبات نسبة الذهب فيها وتفوقها على غيرها من العملات ، وحتى أواخر عصر سلاطين المماليك ، ولعلها أيضا كانت العملة المفضله لدى كل من يفد الى المدينة ، ويؤكد لنا الرحالة عوبديا الذى زار القدس سنة ١٤٨٨ م ذلك بقوله أنه كان على اليهودى الذى يفد من القاهرة لزيارة القدس أن يدفع مبلغ عشرة دراهم فضية عند بوابة المدينة المقدسة ، كما أن كل واحد من اليهود كان مضطرا لدفع مبلغ خمسين دوكات سنويا للنائب بالقدس لكى يصرح له بصنع النبيذ وبيعه(٢٣٧) . بالإضافة إلى أن كثيرا من الحجاج كانوا يجلبون معهم البيزنته وهى التى كانت تعادل عشرة دراهم فى ذلك الوقت تقريبا(٢٣٨) ومع هذا كانت الدوكات البندقية من أهم العملات ، ولعل السبب الرئيسى فى ذلك يرجع إلى أن المماليك أنفسهم منذ القرن الرابع عشر والخامس عشر ، اعتبروا الدوكات ثم الفلورنسية عملة رسمية ، وذلك بعد أن زاد تعاملهم مع البنادقة فى كل من مصر والشام ، ولعل مما شجع أيضا أن العملة فى المدن المملوكية لم تستطع مجاراة الدوكات لثبات وزنها وقيمتها ، بينما العملات المملوكية كانت فى تناقص مستمر(٢٣٩) . وجدير بالملاحظة أن التدهور فى العملة المملوكية كان مرجعة إلى عدة إعتبارات ، منها سوء الأحوال الاقتصادية التى شهدتها البلاد منذ عهد الجراكسة والذى كانت له آثار منذ بداية عهد دولة سلاطين المماليك الأولى ، فيما يتعلق بعدم الاهتمام بالانتاج الزراعى والأرض الزراعية والاعتماد على التجارة الخارجية ، فلما انهارت

للتجارة الخارجية صحب ذلك انهيار الانتاج الزراعى ، وبالتالى الصناعى فضلا عن أن كثرة الحروب الداخلية والخارجية التى شنتها دولة المماليك سبب الاستنزاف الدائم لمواردها الاقتصادية وما أدى إليه ذلك من تلاعب السلاطين بالعملات ، وخاصة بعد قلة ما كان يصل من الذهب من السودان ، وخصوصا بعد وصول البرتغاليين إلى ساحل غانا عام ١٤٦٠ م ومقايضتهم الأهالى بسلعهم على الذهب ، وبدأ هذا الذهب يتجه منذ ذلك الوقت إلى المحيط الأطلسى وليس إلى البحر المتوسط ، فشحت العملات الذهبية من مدن ايطاليا ، ثم بالتالى من مصر وبلاد الشام . ومما لاشك فيه أن كمية الفلوس التى كانت تسك من النحاس أيضا قد تأثرت أيضا فى أواخر عصر سلاطين المماليك حيث قل ورود النحاس الذى كان يجلبه البنادقة نتيجة لسياسة الاحتكار التى اتبعها السلاطين ، ومغالاتهم فى أسعار التوابل وغيرها من متاجر الشرق ، فضلا عما أضرت به تلك السياسة من قلة كمية النقد الذى كان يتدفق على البلاد ، وانخفاضه بنسبة كبيرة ، مما كان له أكبر الأثر فى اضطراب المعاملات التجارية وبالتالى قيمة العملة(٢٤٠) .

من هذا العرض عن الحياة الاقتصادية فى مدينة بيت المقدس على عصر سلاطين المماليك يتضح لنا كيف أثرت العوامل الطبيعية فى أحوالها النباتية ، وما أدى إليه ذلك من تنوع انتاجها الزراعى ، ثم ما ترتب عليه من نشاط التجارة والصناعة وأن المؤسسات التجارية المختلفة قد ساعدت على إزدهار ونمو التجارة الداخلية والخارجية ، فضلا عن تأثر المدينة بكثير من الأزمات الاقتصادية التى عرضناها وأسبابها ، وكيف انعكست سياسة سلاطين المماليك الدينية فى التخفيف عن كاهل الأهالى بالرغم من الأزمات التى عانت منها الدولة ، كذلك كيف انعكست أحوال المعاملات النقدية على المدينة .

هوامش

(١) راجع الأنس الجليل وبخاصة الجزء الثانى من الكتاب حيث يتضمن الكثير من ذكر العلماء الذين آثروا الحياة فيها والذين يشغل ذكرهم حوالى ثلاثة ارباع هذا الجزء ؛ سعيد عاشور : « بعض أضواء جديدة ... » ، ص ٢٨ .

(٢) عبد الحميد زايد : القدس الخالدة ، ص ١٣ — ١٥ ؛ Amiry: Jerusalem, P.8

(٣) معجم البلدان ، حـ ٥ ، ص ١٦٨

(٤) Hinckley: The Modern Wall of Jerusalem.» A.A.S.O.R. Vol. I, P. 36

(٥) Amiry Jerusalem P.8.

(٦) Hinckly: «The Modern Wall of Jerusalem» Vol. I P. 35 & Bartlett Jerusalem P.53

(٧) Adler: Jewish Travellers. P. 195

(٨) نقولا زيادة : رواد الشرق العربى ص ١٩٩ .

(٩) Aamiry: Jerusalem P.8

(١٠) A Visit to the Holy Places.

(١١) Treatise on the Holy Land PP. 218-19

(١٢) الأنس الجليل جـ٢ ، ص ٦٩٧ — ٦٩٨

(١٣) من المرجح أن المن هذا أحد المكاييل المستخدمه فى ذلك العصر راجع :— سفرنامه ، نقلة للعربية وقدم له وعلق عليه د . يحيى الخشاب ، القاهرة ١٩٤٥ ص ١٩ — ٢٠ .

(١٤) وادى جهنم يطلق عليه اسم وادى القدرون أو وادى اليوسيفيات أو وادى الساهرة أنظر Le strange: Palestine Under The Moslems. P. 218

(١٥) عبد الحميد زيد : القدس الخالدة ص ١٥ Foster, the Travels of John Sanderson in the Levant London 1931, P. 105;

(١٦) Fabri: The book of the wandering of Vol.I P., 279 Le Strange Palestin Under the Mosleims, P.84, Lees Vilage Life in Palestine P.139; Tweedie: Jerasalem and its environs. PP. 60-62; Wilkinson: Jerusalem Pilgrims P.100

يلا شير منتخبات من اثار الجغرافيين ص ١٦٧ .

(١٧) الأنس الجليل جـ٢ ص٤٢٣ .

(١٨) نفس المصدر جـ٢ ص٤٠٩

(١٩) عبد الحميد زايد القدس الخالده ص ١١٧ Stewart Perown: The Pilgrim's Companion P.39.

(٢٠) سفر نامه ، ص ٣٢ .

(٢١) Wright Early Travels .P 63; The Travels of Bertrandon. P.98; The rev. Henry:

(٢٢) مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة — A visit to the east P. 328

والبقاع طبع ليدن ١٨٥٠ — ١٨٦٢ ، جـ١ ص٤٨ .

(٢٣) Hinckly: «The modern wall of jerusalem.» Vol. I PP.1-28.

(٢٤) Newett: Casola's Pilgrims to Jerusalem P.250

(٢٥) Rev. samuel: those Holy fields. PP. 92-95

Warner: the survey of western palestine, P. 28; Wilkinson:

Warner: OP. Cit, P.22; Wilkinson:

(٢٦) Jerusalem Pilgrims P. 100.

(٢٧) Smith: Jerusalem Vol I P. 298-302; Wilkinson a p. cit P. 100

(٢٨) الانس الجليل جـ ٢ ص ٤٠٩ ؛ Warner, OP. cit; P. 16

(٢٩) Foster: The travels of John sanderson P. 112; charles dudly: In the Levant P. 29

(٣٠) Newett: Casola's pilgrims. P. 240.

(٣١) Wright: Earlytravels in palestine P. 288; P.P.T.S. Vol XII, P. 101

(٣٢) Suranino: Treatis P. 221-22; smith: jerusalem. Vol. I. P. 304

(٣٣) معجم البلدان جـ ٨ ص ١١٥ ؛ Newett; O.P. cit P. 240

(٣٤) الانس الجليل ، جـ ٢ ص ٤١٠ .

(٣٥) PP. T.S. Vol XII, P. 99

(٣٦) Newwtt: Gasola's Pilgrims P.237

(٣٧) Ashtor: A Social and Economic Hist. P. 300

(٣٨) Treatise on the Holy Land, P.319, Smith Op. Git. Vol. 1., P. 298

(٣٩) PP.T.S. Vol., XII, P.99

(٤٠) The rev. Henry. A visit to The East P.331

(٤١) ابن شداد : سيرة صلاح ، ص ٣٠١

(٤٢) مجير الدين : الانس الجليل ، جـ٢ ص٤٣٨ ، ٤٤٤ سعيد عاشور : بعض أضواء جديدة على مدينة القدس ؛ ص١٨ .

(٤٣) Conder: The City of jerusalem, P. 264.

(٤٤) P.P.T.S. Vol. XII., P. 99

(٤٥) رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبيه جـ٣ ، ص ٦٠٣ — ٦٠٤ .

(٤٦) إنباء المعصر بأنباء العصر ، ص ٤١٧ — ٤١٨

(٤٧) معيد النعم ، ص ٣٤ ؛ ابراهيم على طرخان ، النظم الاقتصادية ص ١٣ .

(٤٨) السلوك ، جـ٤ قسم٢ ، ص٥٨٤ .

(٤٩) The Travels of Martin Baumgarten, Vol. II, P. 460-61

(٥٠) ابراهيم على طرخان ، النظم الاقطاعية ، ص١٥٥ — ١٥٦ .

(٥١) الانس الجليل ، جـ٢ ص٦٧٦ .

(٥٢) Smith: Jeruslem Vol., I PP.38-39 ; Lapidus: Muslim cities, P. 39

(٥٣) Palastine Exploration Fund, (1965-66) P. 125

(٥٤) Ellis: Bible Lands P. 159, Charles Dudly: in the Levant. P. 19

(٥٥) Smith. Jerusalem. Vol., I,PP. 308-309

(٥٦) The travels of Sir John Mandeville, P. 48

(٥٧) Lapidus: Muslim cities PP. 50-52

(٥٨) Wright: Early Travels in Palestine P. 84; Ibid OP. Cit. PP. 65-66
(٥٩) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، جـ١٢ ص٢٢٩ ؛ أبو شامة الروضتين ، جـ٢ ص١٩٥ .
(٦٠) عارف المعارف : تاريخ القدس ، ص٢٢٩ .
(٦١) Foster: The Travels of John Sanderson P.106
(٦٢) Aamiry: Jerusalem P.9; Hinckly: The Modern Wall of Jerusalem» PP. 32-34
(٦٣) على محمد على : فلسطين ، ص١٩ — ٢٠ A Shrot: A Social and Economic Hist, P.306;
(٦٤) Pococke; Description of the East, Vol. II P.3 .
Smith; Jerusalem Vol. I, PP 319-320
(٦٥) العطار الشامى : رحلة العطار الشامى من دمشق الى القدس ، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ١٥١٨ تاريخ تيمور ، ورقة ٣٤ .
(٦٦) عارف العارف : تاريخ القدس ص٢١١ .
(٦٧) عارف العارف المرجع السابق ص٥٢ The Travel of Pero Tafur P. 55.; Amiry Jerusalem P.11.
(٦٨) زبدة كشف الممالك ص ٢٣ Lapidus: Musleim Cities
(٦٩) عارف العارف : نفس المرجع ص٢١٢ P. 33: Suriamoi Trestise. P. P. 222.
(٧٠) P.P.T.S. Vol. XII,P.99
(٧١) A Shtor: A Social & Economic Hist. P. 301
(٧٢) أبو شامة : الذيل على الروضتين ص٢١١ ؛ المقريزى : السلوك جـ٢ قسم١ ، ص٢٨٩ ؛ ابن حجر : إنباء العمر ، جـ١ ص٣٣٥ .
(٧٣) ابن قاضى شهبة : تاريخ ص٢٣٨ ؛ المقريزى : السلوك جـ١ قسم٢ ص٦١٩ ؛ مجير الدين : الانس الجليل ، جـ٢ ص ٦١٩ ، ٦٦٨ ، ٦٧٨
(٧٤) Lapidus. Muslim Cities P. 5
(٧٥) مجير الدين : المصدر السابق ، جـ١ ص٦٨٦
(٧٦) سفر نامه ، ص١٩ — ٢٠ .
(٧٧) مجير الدين : نفس المصدر ، جـ٢ ص٦٧٩ ؛ أحمد دراج : وثائق دير صهيون ص ٦٩
(٧٨) Lapidus. Muslim Cities P.56
(٧٩) Treatise on the Holy Land P. 10
(٨٠) Lapidus: Muslim Cities P. 31
(٨١) Ibid. Op. Cit., PP. 31-32
(٨٢) Newett: Casola's Pilgrims P. 243
(٨٣) P.P.T.S. Vol. VI., PP. 6-18
(٨٤) Ibid/ Vol. VI., P.18
(٨٥) Adler: Jewish Travellers. PP. 152-153
(٨٦) العطار الشامى : رحلة العطار الشامى ورقة ٥ — ٧ مخطوط .
(٨٧) نفس المصدر ، ورقة ١٦ مخطوط .
(٨٨) نعيم زكى : طرق التجاره الدولية ص ٦٩ ؛ Charles Dudly: In The Levan P.39
(٨٩) الخيارى : تحفه الأدباء وسلوة الغرباء المعروف برحلة الخيارى ، مخطوط بدار لكتب المصرية برقم ٥٤٥ جغرافيا ، ص ٢١ .
(٩٠) Prescott: Jerusalem Journey P.174
(٩١) Joshua Prawer: The Latin Kingdom of Jerusalem P208
(٩٢) القواصر هى أعناق النخيل ، راجع « مختار الصحاح » .
(٩٣) الأنس الجليل ، جـ١ ص ٦٣٧ .
(٩٤) Newett: Op. Cit. P.251
(٩٥) نقولا زيادة : لمحات من تاريخ العرب ص ٢٤٩ ؛ Prescott. Jerusalen Journey P. 175
(٩٦) رشاد الامام : مدينة القدس ١٥٠ .
(٩٧) مجير الدين : الأنس الجليل جـ٢ ص . ٤ ، اللقيمى : كتاب لطايف أنس الجليل ، ورقة ٣٤ مخطوط .

٩٨) زبدة كشف المالك ص ٢٣ .
(٩٩) اسم الفندق مأخوذ من الكلمة اليونانية Pandokeion والتى نقلت الى اللغة الايطالية لتدل على المبنى الذى أسفله مخازن وأعلاة حجرات نوم لسكنى الاجانب راجع : آدم ميتز : الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريده القاهرة ١٩٤١ جـ٢ ص ٣٢٦ –٣٢٧ .
(١٠٠) نعيم زكى : طرق التجاره الدولية ومحطاتها ص٢٨٣ — ٢٨٩ .
(١٠١) نفس المرجع ص ٢٩٣ — ٢٩٤ .
(١٠٢) الانس الجليل ، جـ١ ص٤٠٣ ، Conder: The City of Jerusalem P. 297
(١٠٣) لمزيد من المعلومات عن العمليات السابقة راجع : نعيم زكى : طرق التجارة الدولية ومحطاتها ص ٣٤٠ — ٣٤٧
(١٠٤) نفس المرجع ص ٢٩٤ .
(١٠٥) السلوك ، جـ١ قسم٢ ، ص٤٩١ .
(١٠٦) الروض الزاهر ، ص١١٨ .
(١٠٧) نعيم زكى : نفس المرجع ص ٢٩٤ .
(١٠٨) مسالك الأبصار جـ١ ص١٦٢ .
(١٠٩) نعيم زكى : نفس المرجع ص٢٨٧ .
(١١٠) الانس الجليل ، جـ١ ص٤٠٣ .
(١١١) الأنس الجليل ، جـ١ ، صـ ٤٠١ — ٤٠٥ .
(١١٢) Newelt: OP. Cit. P 251
(١١٣) رشاد الإمام : نفس المرجع ، صـ ١٥٢ .
(١١٤) P.P.T.S. Vol IV, . P. III.
(١١٥) The Travels of Lodovico, P. 14
(١١٦) مجير الدين : الأنس الجليل جـ١ ص ٢٠٤ ، ٤٨٦ Newett. Casolas Pilgrims P, 251
(١١٧) نفس المصدر ، جـ٢ ص ٤٠٤ .
(١١٨) Smith: Jerusalem. Vol. I, PP. 315-319
(١١٩) Rev. Samuel; Those Holy Fields, P. 98
(١٢٠) Travels and Adventures (1435-1439), London 1926, P.57
(١٢١) P.P.T.S. Vol. Ix, P.84.
(١٢٢) Conder: The City of Jeruslem P. 287
(١٢٣) Ency. Britanica Vol., 12 Scotland 1972, P.1009
(١٢٣) Arte. Pilgrims in Jerusalem.
(١٢٤) Stewart Perwon: The Pilgrim's Companion P.23
(١٢٥) P.P.T.S. Vol., VII, P,P. 226-227, P. 270
(١٢٦) Conder: The city of Jerusalem P268; Waron: The Surveyof Western plestine PP. 22 - 23.
(١٢٧) على محمد على : فلسطين ماضيها العربى ! ص ٢١ ؛ عمر صالح البرغوثى تاريخ فلسطين ص٢٦٠ ؛ Lapidus: Op. 268 Lees, Village life in Palastine PP. 180 - 187.
(١٢٨) Cunningham: The Holy Land and the Bible, Vol., I New York - James Pott., 1888, PP. 460 - 461
(١٢٩) Lees,. Op. cit,. P. 180
(١٣٠) lapidus: Muslim Cities P. 96
(١٣١) Bayard Dodge: Muslim Education P.5.
(١٣٢) Ibid: P.5

(١٣٣) ابن الأخوة : معالم القربة ، ص ٣٢١ .

(١٣٤) Ency Br., art., Pilgrimage

(١٣٥) نقولا زيادة : رواد الشرق العربى ، ص ٤١ Ibid, Loc. Cit

(١٣٦) نقولا زيادة : المرجع السابق ص٤٢ ــ ٤٢ .

(١٣٧) نفس المرجع ص٤٣

(١٣٨) Pocock: A Description of The east Vol. I,P.2

(١٣٩) Treatise on The Holy Land P. 186

(١٤٠) Graham: With The Russian Pilgrims To Jerusalem London 1927, P.81

(١٤١) نقولا زيادة : نفس المرجع ص١٥ .

(١٤٢) Roy John: A Collection of Curious Travels Vol. I, 1331

(١٤٣) Bartlett: Jerusalem Revisited PP. 53-59

(١٤٤) The Book of P.110

(١٤٥) Newett: Casola's Pilgrims, P.6

(١٤٦) Marie- Joseph, Apilgrimage to palestine p. 15

(١٤٧) نعيم زكى : طرق التجارة الدولية ومحطاتها ، ص ١٥٢ .

(١٤٨) Ashtor: A Social and economic hist. p. 298.

(١٤٩) Prescott: once to sinai p. 19, Aziz Suryal. The Crusade in the later middle Ages london, 1938. pp. 217-221.

(١٥٠) Pero Tufur: Op. Cit., P.59; Newett: Op. Cit., 292

(١٥١) Wright, Early Travels in Plastine P.288

(١٥٢) P.P.T.S. Vol. IX, PP. 105-107

(١٥٣) Wright: Early Travels In Palestine P. 165-166

(١٥٤) P.P.T.S., Vol. VII, PP. 642-646

(١٥٥) نعيم زكى : طرق التجارة الدولية ، ص١٥٢ .

(١٥٦) Tafur: Op. Cit., P. 56

(١٥٧) Treatiseon The Holy Land P.34

(١٥٨) نعيم زكى : طرق التجارة الدولية ٩ ص١٥٣ .

(١٥٩) أحمد دراج : وثائق دير صهيون ص ٧٥ ، ٧٨

(١٦٠) Newett: Casol's Pilgrims, P. 296.

(١٦١) The Travels of Bertrandon de La Brocquire P. 92

(١٦٢) Wright: Early Travels in Palestine P.288

(١٦٣) Fabri: The book of the wanderings. Vol. I, P. 286; A visit to the holy places P. 154

(١٦٤) P.P.T.S. Vol., IX, P.103; Bernhard von Breydenbach and his Journey to the holy Land. 1484-4, London 1911, P.XV.

(١٦٥) Foster: the Travels of John Sanderson, London 1931 PP. 109-110.

(١٦٦) نعيم زكى : طرق التجارة الدولية ص١٦٩ ؛ Eathen: A Clasic of Travel in the Middle east Univ. of Nebraksa Press Luncod 1970, PP. 188-190

(١٦٧) Prescott: Once to Sinao P.23

(١٦٨) Wright: Early Travels in Palestine P.288; The Travels of Bertrandon PP. 96-97

(١٦٩) Von Breydenbach: The Journey. P.XVI.

(١٧٠) The Travls. of Bertrandon PP. 96-97

(١٧١) Murray: Syria and Palestine Vol. I PP. LXV-IXV (intro)

(١٧٢) احمد دارج : وثائق دير صهيون ، ص٧٨ .

(١٧٣) Newett: Casola's Pilgrims P.225; P.P.T.S. Vol.

(١٧٤) The Travels. P.56

(١٧٥) مجير الدين : الانس الجليل ، جـ٢ ص٦٧٤ .

(١٧٦) قاسم عبده قاسم : دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى دار المعارف ١٩٧٩ م ، ص ١٤٨ .

(١٧٧) السلوك جـ٤ ، قسم ١ ص٦٠٩ .

(١٧٨) مجير الدين : الانس الجليل جـ٢ ص٦١٩ فى ذكر حوادث سنة ٨٧٣ هـ .

(١٧٩) نفس المصدر جـ٢ ص٦٢١ .

(١٨٠) نفس المصدر جـ٢ ص ٦٧٨ .

(١٨١) تاريخ ابن قاضى شهبة ، جـ٣ مجلد ١ ص٥٨١ .

(١٨٢) المصدر نفسه جـ٣ مجلد ١ ص ٢٣٨ ، ٢٨٩ .

(١٨٣) المقريزى : السلوك جـ٢ قسم ١ ص ٢٨٩ .

(١٨٤) شذرات الذهب ، ٦ ، ص ٦٢ .

(١٨٥) ابن قاضى شهبة : تاريخ ، جـ٣ مجلد ١ ، ص ٣٩ ؛ مجير الدين : الانس الجليل : جـ٢ ص ٣٤٨

(١٨٦) الأنس الجليل جـ٢ ، ص ٦٧٤ .

(١٨٧) سعيد عاشور : المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك ، القاهرة ١٩٦٣ ص ٨٨ .

(١٨٨) الذيل على الروضتين ، ص ٢١١ .

(١٨٩) سعيد عاشور : المجتمع المصرى ، ص ٨٨ .

(١٩٠) ابن حجر : إنباء الغمر ، جـ٢ ص ٩٢ ؛ مجير الدين : الأنس الجليل ، جـ٢ ، ص٢٩٧ ؛ أحمد عبد الرازق أحمد : البذل والبرطلة زمن سلاطين المماليك(دراسة عن الرشوة) طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٩ ، ص ١١٦ — ١٢٦ .

(١٩١) الأنس الجليل ، جـ٢ ، ص ٦٤٧ — ٦٦٦ .

(١٩٢) المصدر نفسه ، جـ٢ ص ٦٤٢ .

(١٩٣) منتخبات من حوادث الدهور ، جـ٢ ص ١٧٦ .

(١٩٤) المكوس : يقصد بها الضرائب التجارية التى كانت تفرض على بعض أنواع التجارة.راجع سعيد عاشور : الأيوبيون والمماليك بمصر ، نشر دار النهضة بالقاهرة ١٩٧٠ ص١٨٠ .

(١٩٥) زبدة كشف الممالك ، صـ ٩ ، ٢٣ .

(١٩٦) تاريخ أبو الفدا طبع القسطنطينية ١٢٨٣ هـ ، جـ٤ ص٩٥ .

(١٩٧) الأنس الجليل ، جـ٢ ، ص٦٠٨ ؛ سعيد عاشور : « بعض أضواء جديدة » ص٣١ .

(١٩٨) المصدر نفسه ، جـ٢ ص٦٤٧ .

(١٩٩) Van Berchem: Jerusalem Ville. Vol. 44, Pt. 1, P: 153

(٢٠٠) Lapidus: Muslim cities. PP. 9 - 11

(٢٠١) Wolf-Dieter: Histroical Geography. PP. 66-72: Ziadeh:
Urban life in Syria under the early Mamluks- American Univ. of Beirut, 1953, P. 27

طرخان : النظم الاقطاعية ، ص ٧٩

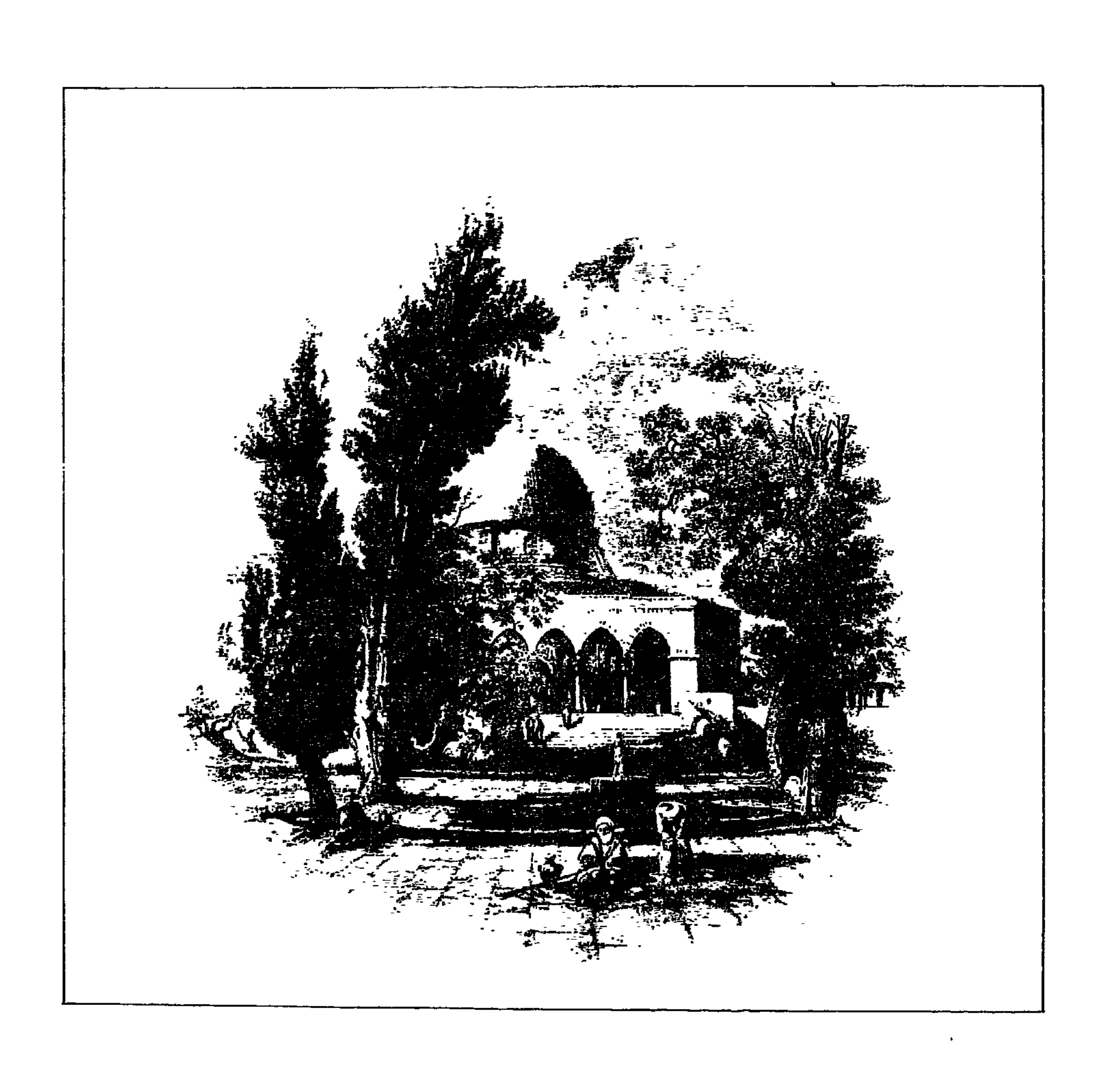
(٢٠٢) السلوك ـــ جـ٣ قسم ٣ ص ١١٥٤ .

(٢٠٣) الانس الجليل ، جـ٢ ص ٦٦٦ .

(٢٠٤) كرد علي : خطط الشام ، جـ٥ ، ص ٧٦ .
(٢٠٥) الروض الزاهر ، ص ٤٢٠ .
(٢٠٦) المواعظ والاعتبار ، جـ١ ص١٠٦ ؛ السلوك جـ١ قسم ٣ ص ٦٦١ .
(٢٠٧) مؤلف مجهول : حوليات ومشقية نشر وتحقيق حسن حبشي القاهرة ١٩٦٨ ص٥٣ .
(٢٠٨) ابن أجا : تاريخ الأمير يشبك ، نشر دار الفكر العربي ١٩٧٣ ص ٦٨ : مجير الدين : الأنس الجليل ، جـ٢ ، ص٦٧٨ .
(٢٠٩) Ashtor: A Social and Economic Hist. P. 330
(٢١٠) مفاكهة الخلان ، القسم الأول ، ص ٧٨ .
(٢١١) نعيم زكي : طرق التجارة الدولية ص ٣٠ ؛ Ziadah: Urban Life P.26;
(٢١٢) Van Berchem: Jerusalem Ville., Vol. 44 P. 374.
(٢١٣) المقريزى الخطط جـ١ ص١٦٤ طبعة دار الشعب ص٨٨ من نفس الجزء طبعة بولاق .
(٢٤) السلوك جـ٣ قسم ٣ص ١٠٦٦ فى ذكر حدادات سنة ٨٠٣ هـ .
(٢١٥) القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ٣ ، ٤٢٨ ؛ ابن طولون : إعلام الورى ، ص ٢٩ .
(٢١٦) ابن طولون إعلام الورى ص ٢٩ .
(٢١٧) المقريزى : الخطط جـ١ ص١٠٦ طبعة بولاق .
(٢١٨) ابن طولون نقس المصدر ص٢٩ .
(٢١٩) السلوك ، جـ١ قسم ٢ ص٧١٢ ؛ سعيد عاشور : « بعض أضواء جديدة » ص٣٠ .
(٢٢٠) المقريزى : الخطط جـ١ ص٨٩ — ١٠٦ ؛ إن طولون : إعلام الدورى ، صـ٢٩ ؛ طرخان : النظم الاقطاعية ، صـ٨١ — ٨٢ .
(٢٢١) القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ٣ ص ٤٦٠ ؛ عبد المنعم ماجد : دولة سلاطين المماليك ، صـ٧٦ .
(٢٢٢) المقصود بالغور هنا غور فلسطين وهو حوض نهر الشريعة الكبير المسمى نهر الأردن أنظر النجوم ، جـ١٢ ، ص١٨٢ .
(٢٢٣) السلوك ، جـ٤ قسم ١ ص٤٤٨ .
(٢٢٤) الأنس الجليل ، جـ٢ ص ٦٨٦ ، ٦٨٧ ، ٦٩٤ ، ٧٠٢
(٢٢٥) صبح الأعشى جـ٤ ص٩٩ ؛ نقولا زيادة : لمحات من تاريخ العرب ص٢٩٤ .
Lapidus Moslum Cities P.30 بالارشاد لا الايام مدينة القدس ص١٥٥ .
(٢٢٦) Ashtor: A Social and Economic Hist. P. 324
(٢٢٧) مسالك الأبصار ، جـ٥ ورقة ٦٨ مخطوط .
(٢٢٨) نفس المصدر والصفحة .
(٢٢٩) نزهة النفوس فى بيان التعامل بالفلوس ، مخطوط دار الكتب المصرية برقم ب ٢٥٨٧١ ورقة ١ — ٦ .
(٢٣٠) نفس المصدر ورقة ٢ مخطوط .
(٢٣١) نسبة إلى الملك الكامل بن العادل الأيوبى والتى سكها سنة ٦٢٢ هـ ، راجع المقريزى : شذور العقود فى ذكر النقود ، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ١٢٠٣٦ ح ، ورقة ١٠ .
(٢٣٢) نفس المصدر ورقة ١٦ — ١٩ .
(٢٣٣) السلوك ، جـ٤ ، صـ٢٣٢ .
(٢٣٤) نعيم زكى : طرق التجارة الدولية ص ٣٥٦ — ٣٥٨ .
(٢٣٥) The Book of the Wandering of. Vol. II, P. 138
(٢٣٦) لمزيد من المعلومات عن هذه العملات راجع القلقشندى صبح الاعشى جـ٣ ، ص٤٤١ ؛ توفيق اسكندر : نظام المقايضة فى تجارة مصر الخارجية فى العصر الوسيط ، المجلة التاريخية العدد السادس لسنة ١٩٥٧ ص ٣٨ — ٤٠ نقولا زيادة دمشق : فى عصر المماليك ص ١٦٨ ؛ أحمد دراج : وثائق دير صهيون ، ص ١٤٦ — ١٤٧ .
(٢٣٧) Adler: Jewish Travellers. P. 242
(٢٣٨) نقولا زيادة : نفس المرجع ص ١٦٨ .
(٢٣٩) القلقشندى : صبح الأعشى جـ٣ ، ص٤٤٢ ؛ نعيم زكى : طرق التجارة الدولية ص٣٥٩ .
(٢٤٠) نعيم زكى : نفس المرجع ، ص٣٦٠ — ٤١٣ .

الفصل الخامس

الحياة اليوميّة في مدينة بيت المقدس



المنشآت الاجتماعية

امتازت مدينة بيت المقدس فى عصر سلاطين المماليك – كما امتازت غيرها من المدن التى خضعت لحكم المماليك – بكثرة المنشآت الاجتماعية وتنوعها ، ويهمنا فى هذا المجال ماهو خاص بأهل المدينة من الأسبلة والحمامات والبيمارستانات .

كان الغرض من إنشاء الأسبلة هو تيسير الحصول على ماء الشرب ، ولذلك اهتم سلاطين وأمراء المماليك بإنشاء العديد من الأسبلة فى بيت المقدس فى كثير من المواضع المختلفة بها ، وتجدر الإشارة إلى أن اهتمام سلاطين وأمراء المماليك ببناء تلك الأسبلة ، كان نابعا بالدرجة الأولى من سياستهم الدينية التى سبقت الإشارة إليها ، بالإضافة إلى حاجة المدينه إلى مياه الشرب ، لما عرف عنها من قلة المياه وعدم وجود أنهار بها ، فضلا عما كان يعانيه الناس فى بيت المقدس بسبب قلة الأمطار (١) . وكما اهتم السلاطين بإنشاء الأسبلة ، فقد اهتموا بتوصيل المياه إلى المدينة عن طريق قناة العروب (٢) . وقد ظلت العناية بتوصيل المياه قائمة حتى دولة المماليك الثانية أو الجراكسة ، وتشير كثير من المصادر إلى أن تلك العناية لم تنقطع طوال عصر سلاطين المماليك (٣) وسنورد مثالين أحدهما من بداية عصر سلاطين المماليك والآخر فى أواخر العصر ، كدليل على تلك العناية التى بذلها السلاطين والأمراء المماليك لتوفير المياه بالقدس ، من ذلك ما يرويه لنا أبن عبد الظاهر فى ذكره لحوادث سنة ٦٦٦ هـ / ١٢٦٧ م أيام الظاهر بيبرس ، من أنه ورد كتاب قاضى القدس بأن الماء انتزح من بئر السقاية وعظمت مشقة الناس فنزل رجل إلى البئر وشاهد قناة مسدودة من زمن بختنصر الذى هدم بيت المقدس ، فأخذ الأمير علاء الدين الركنى والى المدينة البنائين وكشفت القناة السليمانية ، ومشوا فيها تحت الأرض إلى الجبل الذى تحت الصخرة المقدسة فوجدوا بابا مقنطرا ففتحوه ، فخرجت عين ماء كادت تغرقهم ، وكان خروج الماء من العين المذكورة فى ذي الحجة سنة خمس وستين وستمائة (٤)كذلك مايرويه مجير الدين – وهو معاصر – فى حديثه عن سنة ٨٨٨ هـ /

١٤٨٣م بقوله « وفيها ورد المرسوم الشريف إلى الأمير قانصوه اليحياوى بعمارة قناة العروب وعمارة بركة المرجيع وجهز له من الخزائن الشريفة خمسة آلاف دينار منها ألف دينار نفقة للأمير قانصوة وأربعة آلاف دينار للعمارة فتوجه فى عاشر صفر للعمارة وصحبته مائتا فاعل ونصب مخيمه وشرع فى العمارة إلى أن أكملها وتوجه إليه أعيان بيت المقدس وأكابرهم وكل من توجه إليه يصحب شيئا من أنواع المأكول كالعسل والسمن والغنم وغير ذلك وفيها في العشرين من شهر رجب دخلت عين العروب إلى القدس الشريف وخلع الأمير قانصوة اليحياوى على المعلمين وزينت المدينة ثلاثة أيام ... وكانت مدة عمارتها خمسة أشهر وخمسة عشر يوما وقد أنفق السلطان فى عمارتها مبلغا كبيرا » . (٥)والحقيقة أن هذا قليل من كثير من عناية السلاطين والأمراء والمماليك بتزويد المدينة بحاجتها من الماء .

أما عن عناية سلاطين وأمراء المماليك بالأسبلة فى بيت المقدس فقد أنصبت تلك العناية على تجديد بعض الأسبلة التي كانت موجودة فعلا أو إقامة بعض الأسبلة الجديدة ، من ذلك أن السلطان برسباى قد تم في عهده تجديد سبيل شعلان وهو السبيل الذي بناه الملك المعظم عيسى الأيوبى سنة ٦١٣هـ / ١٢١٦م (٦) .

كذلك الحال بالنسبة لسبيل علاء الدين البصير ، الذي يقع غربي الحرم الشريف ، والذي لانعرف متى بنى ، وإنما عليه كتابة تقول أن عمارته جددت بواسطة نائب السلطنة وناظر الحرمين الشريفين المقر الحسامى قبجا .. وكان ذلك في أيام الملك الأشرف برسباى سنة ٨٣٩هـ /١٤٣٥م ، وفى هذا خير دليل على اهتمام السلاطين والأمراء المماليك بالعناية بالأسبلة القائمة فعلا وتجديدها (٧) .

أما الأسبلة التى استحدثت في مدينة بيت المقدس فى ذلك العصر فمن أهمها ماتم فى عهد السلطان الأشرف اينال ففى عام ٨٦٠هـ / ١٤٥٥م تم إنشاء السبيل القائم بين المطهرة ومسجد الصخرة والمعروف بسبيل قايتباى لأنه جدد عمارته (٨) . ويصف لنا مجير الدين هذا السبيل بأنه داخل المسجد الأقصى « فوق البئر المقابل لدرج الصخرة الغربى وكان قديما على البئر المذكور قبة مبنية بالأحجار كغيره من الآبار الموجودة بالمسجد فأزيلت تلك القبة وبنى السبيل المستجد وفرش أرضه بالرخام وصار فى هيئة لطيفة ... » (٩) .

ويمكن أن نتخذ هذا السبيل باعتباره أهم الأسبلة في بيت المقدس نموذجا هندسيا لبقية الأسبلة فى المدينة فتقول « إنه يحتوى على طابقين الأول عبارة عن بئر محفورة فى الأرض لتخزين ماء الأمطار تعلوها خرزة أى غطاء أو سقف من الرخام أو الحجر أما الطابق الثاني فيرتفع عن سطح الأرض حوالى متر وتوجد بها المزملة لتوزيع الماء على الراغبين فيه ، ويقوم المزملاتى برفع الماء من البئر بواسطة قنوات تجرى تحت البلاط المصنوع من الحجر الصلد ، وينتهى الماء إلى فتحات معدة لرفع الماء ، قطر نافذة كل فتحة منها حوالى عشرين سنتيمترا ، وكان الماء يرفع من هذه الفتحات بواسطة كيزان مربوطة بسلاسل مثبتة بقضبان النوافذ ، أما طريقة تشغيل السبيل ، فكانت تتم بواسطة بكرة

فوق البئر محمولة على خشبة مربوط بها حبل .. وكان بطرف الحبل سطل يرفع به المزملاتى الماء إلى القنوات الموجودة تحت بلاط المزملة فيجرى إلى النوافذ القائمة عند فتحات القنوات ، وكان طالب الماء يصعد على سلالم موجودة أسفل كل نافذة إلى حيث يجد الماء فيحصل على حاجته بالكوز » (١٠) .

أما عن وظيفة المزملاتى وهو القائم بالإشراف على السبيل وتوزيع المياه به والعناية بالسبيل والأدوات المستخدمة فيه ، فإن المصادر والمراجع التي بين أيدينا لم تذكر صراحة الشروط التى كان يجب توفرها فيه في بيت المقدس ، إلا أننا يمكننا القول اعتمادا على أن هذه الوظيفة كانت هى نفسها فى المدن التي خضعت لحكم سلاطين المماليك ، وأن الشروط الصحية الخاصة بتوليها قد أصبحت تقليدا مرعيا ، لذا تنطبق عليها ماجاء في وثائق ذلك العصر من شروط . فالمزملاتى « رجل ثقة أمين جميل الهيئة نظيف الثياب سليم البدن والجسد من العاهات ، ذى قوة وشطارة ونهضة ومروة ، أما الصفات الخلقية التى اشترطت فيه فهي أن يسهل الشرب على الناس ويعاملهم بالحسنى والرفق ليكون أبلغ فى ادخال الراحة على الواردين صدقة دائمة وحسنة مستمرة » (١١) .

كما تجب الإشارة إلى أننا لم نعثر أيضا على أى ذكر للأدوات التى كانت تستخدم فى الأسبلة الخاصة ببيت المقدس ولعل السبب فى هذا يرجع إلى كونها لم تختلف عن غيرها من أدوات ، وهى التي استخدمت فى ذلك العصر فى المدن التى خضعت لكم لحكم سلاطين المماليك ، منها على سبيل المثل سلب الليف أو الكتان والأدلية الجلد ، وآنية الشرب الطسوت والأسطال النحاس ، والأباريق والقلل الفخار والسفنج والفوط للمسح ، ولعله تم تخصيص بعض الأماكن لحفظ تلك الآلات ، كما كان متبعا فى الأسبلة الأخرى فى مصر على سبيل المثال (١٢) .

كما تجب الاشارة أيضا إلى أنه روعى فى معظم الأسبلة التى انشئت فى مدينة بيت المقدس على عهد سلاطين المماليك ، أن تكون على الطريق الرئيسى المؤدى إلى قبة الصخرة والمسجد الأقصى ، ليتوافر للمصلين والزوار الحصول على ماء الشرب قبل دخولهم إلى المسجد لأداء فريضة الصلاة ، وكما أن معظم الأسبلة المقامة فى ساحة الحرم القدسى كانت مقامة على آبار تتجمع فيها مياه الأمطار (١٣) .

ولم تقتصر عناية سلاطين المماليك بتوفير المياه على إنشاء الأسبلة وعمارة القنوات ، بل تعدتها إلى إنشاء بعض الأحواض الكبيرة ، وبخاصة فى المنطقة بين مسجدى الصخرة والأقصى ، والتى توفر للواردين إليها مايحتاجون إليه من ماء ، من ذلك الحوض الذى أنشأه السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، والمصنوع من الرخام والذي يسمى « بالكأس » (١٤) وهذا الحوض يقصده المصلون من أجل الوضوء فى أوقات الصلاة ولاسيما في يوم الجمعة ، وكان يجرى إليه الماء من قناة تبدأ عند برك المراجيع الثلاثة المعروفة ببرك سليمان ، وهى واقعة على بعد عشرة أميال من القدس إلى الجنوب (١٥) . ويصف لنا عبد الغني النابلسي هذا الكأس بقوله « ثم سرنا فوجدنا « الكأس » قبالة أبواب المسجد الأقصى وهو كاس من الرخام كبير سعة باطنه مقدار خمسة أذرع فى خمسة أذرع موضوع شكل نوفره فى وسط البحرة الكبيرة المستديرة الجوانب على شكل الكاس الذى فى وسطها الماء يخرج

منه ويسقط في البحرة . ثم يسيل فى بالوعات حوله ويجرى إلى صهريج كبير ف أرض المسجد طوله نحو الأربعين ذراعاً وعرضه كذلك .. (١٦) .

أما عن استهلاك السكان للمياه فى ذلك العصر وكيفية ذلك فمن المرجح أنه لم يختلف عما كان عليه الحال منذ القدم ، فإن ماتوافر بالمدينة من الصهاريج التى شيدها الرومان كفل للسكان معظم احتياجاتهم من الماء (١٧) . وهذه الحقيقة نفسها يؤكدها لنا الرحالة بنيامين التطلى والذي زارها أواخر الحكم الصليبى للمدينة حيث يقول : وعادة ما يشرب السكان مياه الأمطار ، والتى يجمعونها فى منازلهم (١٨) ويؤكد لنا مجير الدين أن الوضع ظل كذلك حتى أواخر عصر سلاطين المماليك حيث يقول : « وهي كثيرة الآبار المعدة لخزن الماء لأن ماءها يجمع من الأمطار » (١٩) .

ويشير أحد الباحثين إلى أن معدل سقوط الأمطار فوق مدينة بيت المقدس والذى كان يصل إلى حوالى ٢٥ بوصة سنويا ، وهذا المعدل السنوى كان يحدث فى حوض يتراوح طوله مابين ٥ر٢ – ٣ أميال طولا ، و٢ – ٥ر١ ميل عرضا والذي يقع فى المنطقة الجبلية الصماء بحيث ساعد ذلك على تخزين المياه فى خزانات تحت الأرض وبحيث لم تكن لتتسرب منها وبذلك كانت الكمية المتجمعة منها تكاد تكون كافية لإعاشة عدد معقول من السكان (٢٠) .

هذا إلى جانب ماتشير إليه كثير من المصادر والمراجع من كثرة وجود البرك والقنوات . والتى اعتمدت عليها المدينة لسد احتياجاتها من ذلك على سبيل المثال بركة سلوان والبركة التحتانية أو البركة الحمراء كما تسمي بذلك ، وبركة ماملا وبركة السلطان وبركة حزقيا وبركة اسرائيل ،(٢١)ويصف لنا الأب سوريانو مياه تلك البرك بقوله : ولا أعرف إذا كان فى إمكانك أن تجد ماء أفضل فى كل أنحاء العالم إذا استقينا ماء نهر النيل من مياه تلك البرك ، وبخاصة ماء بركة سلوان والتى هى بلا شك أفضل من النبيذ الذي لدينا فى الغرب ، وهذه البرك موجودة منذ أقدم العصور وهي تخزن معظم المياه التى تستخدم . (٢٢) . أما عن القنوات التى أمدت المدينة ببعض حاجتها من المياه ، فمنها قناة السبيل التى عمرها المماليك مرارا ، فقد عمرها الملك الظاهر بيبرس ٦٦٥هـ /١٢٦٦م والأمير تنكز الناصرى ٧٢٧هـ / ١٣٢٦م ، والملك الظاهر برقوق ٧٨٤هـ ، ١٣٨٢م والملك الظاهر خشقدم ٨٦٥هـ /١٤٦٠م والملك الأشرف قايتباى ٨٨٨هـ / ١٤٨٣م (٢٣) هذا بالإضافة إلى قناة العروب (٢٤) .

كذلك تجب الإشارة إلى أن المصادر والمراجع التى بين أيدينا لم تشر صراحة إلى كيفية توزيع المياه على السكان ، وهل اكتفى السكان بما كان لديهم فى داخل منازلهم من صهاريج يجمعون منها مياه الأمطار ، وأن تلك المياه كانت تفى بحاجياتهم أم لا . ومع هذا يمكننا القول أنه إذا كان السكان داخل منازلهم قد كان لديهم مايسد حاجتهم من المياه فمما لاشك فيه أن المدينة قد عرفت كغيرها من مدن الشرق فى تلك الفترة نظام السقائين الذين يحملون قراب المياه والذين يرجح أنهم حملوها على الأقل إلى الأسواق لأصحاب المحلات ، لرشها فى الشوارع على الأقل صيفا وللشرب منها هم والمارة نظير أجر معلوم ، وربما أيضا للاستخدامات المختلفة وبخاصة فى الأسواق التى خصصت لإعداد

الأطعمة ولبيع الخضر والفاكهة وغيرها ، هذا بالإضافة إلى أنه قد وردت إشارة عند أحد الباحثين يؤكد فيها أن أحد الحجاج من بياكنزا أثناء توجهه إلى بيت لحم خارجا من القدس وعلى مقربة من مدينة بيت المقدس وجد عين ماء تنبع من الصخر وهناك أخذ حاجته من الماء بقليل من النقود وكل فرد يأخذ مايشاء منها والماء لاينفذ وحلاوة مائها لا توصف ، وفى هذا تأكيد إلى إن توزيع المياه لم يكن بالمجان(٢٥) .

وثمة نوع من المؤسسات الاجتماعية التى ذخرت بها مدينة بيت المقدس على عصر سلاطين المماليك ، وهي الحمامات العامة والتى قصدها الناس من مختلف الطبقات ، رجالا ونساء للاستحمام ، ذلك أن الناس فى ذلك العصر – وطوال العصور الوسطى – لم يألفوا الاستحمام فى منازلهم ، ولعل ذلك راجع إلى مشاكل الصرف الصحى فى مدن ذلك الزمان والتي كانت السبب فى عدم وجود حمامات فى المنازل بصفة عامة . إلا أنه يبدو أن مدينة بيت المقدس كانت قليلة الحمامات فى أوائل عصر سلاطين المماليك حيث يذكر ابن فضل الله العمرى فى حديثه عن سنة ٧١٠هـ / ١٣١٠م أيام السلطان الناصر محمد بن قلاوون أن الأمير تنكز نائب الشام قد عمر بالقدس حمامين جليلين « كانت أحوج شيء إليه لأنه لم يكن بها حمامات مرضية » ، (٢٦) ويذكر مجير الدين من هذين الحمامين الحمام الكائن بباب القطانين أحد أبواب المسجد الأقصى والمعروف بالحمام الجديد . (٢٧) . والذى كان من أكبر الحمامات وأتقنها فى المدينة ، كذلك نراه يذكر من حمامات المدينة حمام علاء الدين وهذا الحمام كان واقعا فى أحد شوارع بيت المقدس المسمى آنذاك بخط مرزبان بجوار بركة ليستمد منها الماء اللازم للوافدين عليه ، كذلك يذكر لنا الحمام المعروف باسم « حمام البترك » بحارة النصارى بجوار بركة أخرى ويقول عن البركتين المذكورتين أنه يحتمل أنهما كانتا بركتى سليمان وعياض (٢٨) .

هذا وتجب الإشارة إلى أنه لم ترد فى المصادر والمراجع التى تحدثت عن الحمامات فى بيت المقدس أية إشارة عن نوع تلك الحمامات ، وهل كانت مثل بقية الحمامات التى عرفت فى الشرق بعضها خاص بالرجال وبعضها خاص بالنساء أو أن بعضها يفتح للرجال قبل الظهر وللنساء بعد ذلك (٢٩) كذلك لم تشر تلك المصادر إلى عدد تلك الحمامات بل لم ترد سوى إشارة واحدة لدى ابن شاهين عن أنه كان بها كثير من الحمامات (٣٠) .

كذلك يجب أن نشير إلى أنه وجد فى مدينة بيت المقدس بعض الحمامات التى كانت تستخدم لعلاج بعض الأمراض نظرا لما بها من مياه معدنية ، حيث وردت إشارة لدى « مؤلف مجهول » عن وجود حمام يسمى « حمام الشفا » والذي يبدو أنه كان يقع داخل سوق القطانين بالقرب من الحرم الشريف ، والذى كان يستمد ماءه « من تحت الصخرة واظن أن ماءه من ماء عين سلوان لأن طعمها واحد » . (٣١) .

ومع أن المصادر العربية المعاصرة وكذلك المراجع لم تتعرض لوصف تلك الحمامات العامة

وتصميمها فى ذلك العصر ، إلا أننا يمكن أن نحصل على صورة طيبة لتلك الحمامات من خلال الوصف الذى ذكره لنا الرحالة فابرى عن تلك الحمامات التى رآها عند زيارته للأرض المقدسة أواخر القرن الخامس عشر الميلادى والتى جذبت انتباهه لأنها لم تكن معروفة في الغرب فيقول : عندما يدخل الزائر سيجد نفسه فى حجرة داخلية عبارة عن عدة مقاصير كل مقصورة منها عليها ستارة هى مخصصة للمستحمين وفى داخل هذه المقاصير يستحم الأشخاص عراة ثم يرتدون ملابسهم بعد الاستحمام وتوجد الفوط النظيفة الموضوعة فى تلك المقاصير حيث يلف الناس أجسادهم بها ، وفى وسط الحمام يوجد رواق مسقوف بين نافورة يخرج منها الماء على هيئة نافورات صغيرة من عمود من الرخام ، وحوائط الحمام الداخلية وعند المغطس كلها مكسوة بالرخام من أنواع مختلفة . وكان على المشاة داخل الحمام أن يحترسوا حتى لاتنزلق أقدامهم ، أما المغطس فهو مربع الشكل معقود ومطبق بجامات من الزجاج الملون والذى عن طريقها يدخل الضوء الكافى ، ثم هناك حجرة دافئة تلى المغطس لاتجد فيها مواقد أو تشم رائحة دخان ولكنك تشعر بالحرارة فقط وأسفل منها مستوقد الحمام حيث الفحم الذي كان يوقد فيدفىء الرخام كما أن الماء المغلى يجرى فى قناة تجعل المكان كله دافئا ، وفى مكان آخر يدخل الماء البارد ، كذلك تنوعت حجرات الحمام وتدرجت درجة حرارتها ، وتختلف الحمامات فى الأرض المقدسة عنها فى مصر ، من حيث الأحواض التى توضع فيها المياه المتدفقة والتى يمكن أن يجلس فيها المستحم . (٣٢) .

وبمقارنة هذه الأوصاف للحمام فى عصر سلاطين المماليك بما هو معروف عن الحمامات العامة والتى أوردها استاذنا الدكتور سعيد عاشور فى كتابه المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك ، يمكننا القول أن حمامات بيت المقدس لم تختلف كثيرا عن الحمامات التى عرفت فى مصر وغيرها من البلاد التى خضعت لحكم سلاطين المماليك من حيث أنه كان للحمام باب يؤدى إلى مسلخ به بعض الأواوين والتى كانت بمثابة المصاطب المكسوة بالرخام حيث يستريح طالب الاستحمام ، ومن المسلخ ينتقل المستحم إلى غرفة دافئة يتم فيها نزع ملابسه ويضع حول وسطه فوطة تصل إلى الركبتين ثم ينتقل إلى الغرفة الرئيسية وغالبا ماتسمى « بيت الحرارة » حيث يقوم عامل الحمام بتدليك جسد المستحم وغسله بالماء الساخن الذى يوجد بالمغطس ، وبعد الاستحمام يجفف المستحم جسمه بالمناشف ويزيل البلان الشعر من بعض المواضع إذا لزم الأمر ثم ينصرف المستحم إلى الغرفة الأولى حيث يقضى بعض الوقت ويرتدى ملابسه وقد يشرب بعض المرطبات (٣٣) .

والمعروف أن وظيفة الحمام فى العصور الوسطى لم تقتصر على مجرد الاستحمام بل امتدت إلى الحلاقة وإزالة الشعر من بعض مناطق الجسد (٣٤) . فضلا عن أن الحمام كان يعتبر أحد المراكز الاجتماعية فالمريض إذا دخل الحمام بعد فترة رقاد أعتبر ذلك إعلانا لشفائه من مرضه (٣٥) كذلك ربما تناقل المستحمون كثيرا من الأخبار الهامة التى تمس حياتهم اليومية داخل الحمام ، فضلا عن أن العريس أو العروس يجب على كل منهما أن يدخل الحمام قبل حفل الزفاف ، وكان ذلك بمثابة واحد من الأحداث العائلية الهامة ، كذلك اعتادت النساء أن يجتمعن فى الحمام لتبادل الأخبار أثناء الاستحمام ، وخاصة مايتعلق منها بأخبارهن وحياتهن اليومية . (٣٦) .

هذا وقد اشترطت بعض المصادر كثيرا من الصفات فى القائمين على الخدمة فى الحمام ، منها أنه اشترط أن يكون المزين خفيفا رشيقا بصيرا بالحلاقة وتكون الأمواس جديدة قاطعة ولا يأكل مايغير نكهته كالبصل والثوم والكراث فى يوم نوبته لئلا يتضرر الناس برائحة فيه عن الحلاقة ... (٣٧) .

وكذلك تجب الإشارة إلى أنه لم تصلنا أية معلومات فيما يتعلق بحمامات بيت المقدس من حيث تخصيص بعضها للمسلمين أو لأهل الذمة أم أنها كانت حمامات مشتركة ، وخاصة لنساء أهل المدينة بطوائفهم المختلفة حيث يجتمعن فى الحمامات مسلمات ونصرانيات ويهوديات (٣٨) . أم أن طبيعة المدينة الدينية أثرت فى سكانها من هذه الناحية بحيث طبقوا أوامر الشرع الاسلامى بأن « اليهودية والنصرانية لايجوز لها أن ترى بدن الحرة المسلمة وهن يجتمعن فى الحمامات مسلمات ونصرانيات ويهوديات فيكشف بعضهن على عورات بعض » أم أن الناس نظرا لما كان بينهم من تسامح تغاضوا عن هذا ، حسبما جرت العادة فى عاصمة الدولة نفسها (٣٩) .

ومن المنشآت الاجتماعية التى حظيت برعاية وعناية سلاطين وأمراء المماليك بل وأهل الخير « البيمارستان » (٤٠) . ويقصد به المستشفى فى عصرنا الحديث ويرجع وجود البيمارستان فى القدس إلى العصر الفاطمى وليس إلى العصر الصليبى كما تشير بذلك بعض المراجع ، حيث يذكر لنا الرحالة ناصر خسرو عندما زار المدينة سنة ٤٣٧هـ / ١٠٤٥م « وفى بيت المقدس مستشفى عظيم عليه أوقاف طائلة ويصرف لمرضاه العديد من العلاج والدواء وبه أطباء يأخذون مرتباتهم من الوقف ، وهذا المستشفى ومسجد الجمعة على حافة وادى جهنم » (٤١) . ومن المرجح أن يكون هذا البيمارستان عرفته مدينة بيت المقدس فى العصر الإسلامى (٤٢) وعندما فتح الصليبيون المدينة أقتبسوا من الفاطميين هذا النظام حيث أقاموا مستشفى القديس يوحنا والذى بناه الاسبتارية فى المكان المخصص لهم ، والذى اشتهر بهم طوال فترة الحكم الصليبي للمدينة (٤٣) .

والحقيقة أن الغموض يكتنف مصير هذا المستشفى الذى أسسه الاسبتارية لدى بعض المؤرخين ، فبينما يشير البعض إلى أن الفتح الصلاحى لمدينة بيت المقدس لم يصب ذلك المستشفى بسوء أو أذى ، وأن السلطان صلاح الدين سمح لعشرة من الأسبتارية بأن يبقوا فى المستشفى لمعالجة المرضى لمدة سنة ، ثم استخدمت أجزاء من هذا المبنى فى أغراض متعدده مع استمرار تقديم الخدمات الطبيه به على أنه مستشفى حتى سنة ١٢١٩ م وسمى باسم المارستان منذ ذلك الحين ، وقد ظل كذلك حتى أواخر القرن الخامش عشر حيث أعيد بناؤه فى اوائل القرن السادس عشر الميلادى فى عهد السلطان العثمانى سليمان العظيم ، والذى اتخذ من بعض حجارته أساسا لإعادة بناء أسوار المدينة (٤٤) كذلك يشير بعض الحجاج الذين زاروا المدينه فى القرن الرابع عشر لميلادى وخاصة سيرجون ماند يفيل الذى زارها عام ١٣٢٢ م — ما يؤكد وجود مستشفى بها حيث يقول : وأمام القبر المقدس وعلى بعد مائتى . خطوة إلى الجنوب هناك المستشفى الكبير وهو مستشفى القديس يوحنا والذى وضع أساسة الاسبتارية ، وفى الداخل فى أماكن المرضى فى تلك المستشفى هناك مائة وأربع وعشرون عمودا من الحجر ، وفى أسوار المنزل المجاور يقال أن هناك ٥٤ عمودا وهى التى تسند المنزل (٤٥) إلا أنه لم يذكر هل كان المستشفى مستخدما فعلا

أم أنها مجرد أطلال تدل عليه وباقية حين زار المدينة .

ومن المرجح أن تكون تلك المستشفى قد أصابها ما أصاب المجتمع الصليبي فى بيت المقدس من الخلال واهمال أواخر حكمهم للمدينة ، لذلك لاريب أنه عقب الفتح الصلاحى قد أضحت أطلالا باقية ، وفى الفترة التى أعقبت الفتح الصلاحى وحتى دخول المدينة تحت حكم المماليك ، هذه الفترة كانت كفيلة بانهيارها وجعلها فى طى النسيان ، والدليل على ذلك ما يرويه لنا الرحالة فابرى الذى زار المدينة أواخر القرن الخامس عشر الميلادى ، والذى يقول : أنه عقب وقوف الحجاج بعد وصولهم إلى القدس فى الميدان الواقع أمام كنيسة القيامة وصلاتهم به حيث كانت الكنيسة مغلقة ولم تفتح بعد ، فإنهم عبروا الميدان المواجه لها واتجهوا الى مستشفى القدبس يوحنا والذى كان عبارة عن مبنى ضخم ذى عقود حجرية خرب ومتهدم وقذر وجدير بالازدراء ، لأنه لم يذهب إليها (٤٦) . وفى هذا خير دليل على أن مستشفى الاسبتارية مع مرور الزمن قد تهدمت ولم تعد تستخدم كمستشفى بل كمكان لإيواء الحجاج القادمين من الغرب ، هذا فضلا عما يؤكده لنا أحد الباحثين أن البيمارستان الصلاحى كان يوجد فى حارة بالقدس تسمى الدباغه والمشهور والمتداول على ألسنة الناس أن البيمارستان الصلاحى كان فى هذه الجهة ثم أدركه الخراب كما أدرك غيره من الآثار ، ثم حدثت زلزلة فى سنة ٨٦٢ هـ (١٤٥٨ م) فجعلته أثرا بعد عين فعفيت آثاره واختلست أرضه (٤٧) .

كما أن المصادر العربية تحسم تلك النقطة بشكل يدعو للاطمئنان إلى صحة رأينا أن البيمارستان الصلاحى لم يكن مستشفى الاسبتارية ، من ذلك ما يروية لنا العماد الاصفهانى من أن السلطان صلاح الدين عقب فتحه لبيت المقدس ... « أتخذ لطلب مرضاة الله دار الأسقف بيمارستان المرضى ، وأتى بكل ما يحبه الله وبه يرضى ، فلم يبق سنة إلا خلدها ....(٤٨) . كما أن ابن واصل يؤكد ذلك بشىء من الاختلاف اللفظى حيث يقول « وجعل الكنيسة التى فى شارع قمامة بيمارستان للمرضى ونقل إليه جميع ما يحتاج إليه (٤٩) . كما أن ابن شداد والذى كان معاصرا للفتح يقول فى ذكره لحوادث سنة ٥٨٨ هـ / ١١٩٢ م أن السلطان صلاح الدين الأيوبى عقب صلح الرملة فى نفس السنة المذكورة فقد « أمرنى بالمقام فى القدس الشريف لعمارة بيمارستان أنشأه فيه وإدارة المدرسة التى أنشاها إلى حين عوده وسار من القدس الشريف ضحوة نهار الخميس سادس شوال .... »(٥٠) كذلك يقول أبو شامة عن صلاح الدين . « غير الكنيسة التى فى شارع قمامة بالبيمارستان ونقل إليه العقاقير والأدوية من جميع الأنواع والألوان (٥١) » كذلك يشير مجير الدين وهو يمثل أحد مؤرخى بيت المقدس فى أواخر عصر سلاطين المماليك ، أن السلطان صلاح الدين « جعل الكنيسه المجاورة لدار الاسبتارية بقرب قمامة بيمارستان للمرضى ووقف عليه مواضع ووضع فيه ما يحتاج من الأدوية والعقاقير وفوض النظر والقضاء فى هذا الوقف الى القاضى بهاء الدين يوسف ابن رافع ابن تميم المشهور بان شداد لعلمه بكفاءته (٥٢) » وفى موضع آخر يشير إلى مكان ذلك البيمارستان مما قد يفهم منه أن البيمارستان كان مازال موجودا حتى عصر مجير الدين ، حيث يقول فى ذكره لشوراع بيت المقدس . « خط الدركاه وبه البيمارستان الصلاحى وكنيسة قمامة ويليه حارة النصارى من جهة الغرب ممتدة قبلة بشام من باب الخليل إلى باب السرب(٥٣) » .

والحقيقة التي يجب أن نذكرها فيما يتعلق بعصر سلاطين المماليك أننا لم نعثر على أية إشارة عن بناء السلاطين أو الأمراء بيمارستانات جديدة فى بيت المقدس ، إلا أننا نستطيع القول بناء على ماسبق وأشرنا إليه من سياسة المماليك الدينية فى بيت المقدس أن من المعقول جدا أن يكون البيمارستان قد حظى برعايتهم وعنايتهم بدليل مايورده مجير الدين من كثرة الإشارات إلى من توفى « فى بيمارستان القدس الشريف » (٥٤) وفى هذا دليل قاطع على الرعاية التى حظى بها البيمارستان ، بل هناك إشارة لدى ابن حجر من أن ناظر الجيش محمد بن فضل الله القبطى الذى أسلم وتسمى محمدا وحج عشر مرات وزار القدس مرارا وأحرم مرة من القدس إلى مكة وكانت صدقته كل يوم ألف درهم قد بنى عدة مساجد وعدة أحواض لسقى الماء فى الطرقات وله مارستان بالرملة وآخر بنابلس من أعمال فلسطين وكان قد اتصل بخدمة السلطان الناصر محمد بن قلاوون ثم توفى سنة ٧٣٢هـ /١٣٣٢م ، مما يؤكد أن الاهتمام ببناء البيمارستانات لم يكن قاصرا على السلاطين والنواب بل شاركهم أصحاب الجاه والمال أيضا (٥٥) . ولعله وجد من هؤلاء من قام ببناء أحد البيمارستانات فى بيت المقدس .

كذلك تجب الإشارة على أنه لم يصادفنا شيء عن نظام العلاج داخل البيمارستان فى بيت المقدس ، مما يؤكد أن وظيفة البيمارستان هنا لم تكن تختلف عن غيره من البيمارستانات الإسلامية حيث يقسم البيمارستان إلى قسمين أحدهما للرجال والآخر للنساء ، وكانت هناك عنابر للأمراض المختلفة مثل الأمراض الباطنة والجراحة وأمراض العيون وغيرها ، أما المجانين فقد كانت تخصص لهم أقسام خاصة بهم وكانت تلك العنابر تزود بالمتخصصين (٥٦) .

ولم تكن مهمة البيمارستان قاصرة على مداواة المرضى بل كان فى نفس الوقت بمثابة مدرسة للطب يتخرج منها المتطببون والجرائحية والكحالون كما يتخرجون اليوم من كليات الطب ، كذلك كان للطبيب الحرية التامة فى العمل والتجريب واستنباط الأساليب المناسبة للعلاج ، كما كان لبعض الأطباء أنواع من العلاج من مبتكرات قرائحهم وكانت التجارب تدون فى كتب خاصة يقرؤها الجمهور من الأطباء . (٥٧) .

وكانت فى البيمارستان طريقتان للعلاج ، علاج خارجى أى أن المريض يتناول الدواء من البيمارستان ثم ينصرف ليتعاطاه فى منزله ، وفى هذه الحالة كان الطبيب يجلس على دكة ، ويكتب لمن يرد عليه من المرضى العلاج فى أوراق خاصة يصرفون بها تلك الأشربة والأدوية التى يصفها لهم الطبيب (٥٨) . هذا بالإضافة إلى العلاج الداخلى ، أى فى داخل البيمارستان حيث يوزع المرضى على العنابر أو القاعات بحسب أمراضهم ، وكان لكل قسم من أقسام البيمارستان طبيب أو اثنان أو ثلاثة بحسب اتساعه وكثرة المرضى ، وإذا دعى الحال يدعى الطبيب من قسم آخر غير القسم الذى فيه المريض لاستشارته(٥٩) .

كذلك كان للبيمارستان ناظر يشرف على إدارته ، وكان النظر على البيمارستان معدودا من الوظائف الديوانية الهامة ، وكان نائب المدينة يختار ناظر البيمارستان من أرباب الأقلام (٦٠) كذلك وجد لكل

قسم من أقسام الأمراض المختلفة رئيس مثل رئيس الجرائحية ورئيس المجبرين ورئيس الكحالين وغيرهم ، كذلك وجد بالبيمارستان كثير من الفراشين من الرجال والنساء والمشارفة والقوام للخدمة أيضا ولهم المعاليم الوافية ومن الجامكية الوافرة(٦١) .

وكان يلحق بالبيمارستان صيدلية تسمى شرابخاناه .وفيها من أنواع الأشربة والمعاجين النفيسة والمربيات الفاخرة وأصناف الأدوية والعطريات والآنية الصينى من الزبادى والبرانى والأزيار الكثير ، لكل شرابخاناه مهتار أى رئيس الصيدلية متسلم لحواصلها ، وله مكانة عالية ولديه غلمان برسم الخدمة يطلق على كل واحد منهم شراب دار (٦٢) .

أما فيما يختص بالمستشفيات الخاصة بأهل الذمة فقد سبقت الإشارة فى مجال الحديث عن الطب إلى أن كثيرا من أبناء الطوائف المختلفة كانت لهم مستشفياتهم الخاصة والملحقة بالكنائس أو الأديرة مثل طائفة الرهبان الفرنسيسكان ، كذلك يؤكد لنا أبن جبير فى حديثه عن جزيرة صقلية حيث يقول : وأبصرنا للنصارى فى هذا الطريق كنائس عدة لمرضى النصارى ولهم فى مدنهم مثل ذلك على صفة مارستانات المسلمين وأبصرنا لهم بعكة وصور مثل ذلك » (٦٣) . ومنه يتضح لنا أن الكنائس كانت تلحق بها المستشفيات بنفس النظام المتبع في بيمارستانات المسلمين ، وكذلك سبق أن أشرنا إلى نبوغ عدد كبير من الأطباء من بين أبناء تلك الطوائف المختلفة .

من هذا العرض يتضح لنا كيف كانت المؤسسات والمنشآت الاجتماعية من أسبلة وحمامات وبيمارستانات على جانب كبير من الأهمية فى حياة سكان مدينة بيت المقدس ، وأنها حظيت برعاية سلاطين وأمراء المماليك كما أنها كانت تمثل جزءا هاما من حياة السكان اليومية ، كذلك أوضحنا أن البيمارستان الصلاحى والذى أنشأه صلاح الدين الأيوبى ليس هو ماتشير إليه بعض المراجع وبخاصة الأوربية من أنه كان نفس مستشفى الاسبتارية بل هو منشأة قائمة بذاتها ، تختلف كل الاختلاف عنها وأنه ظل قائما على الأقل إلى عصر الأشرف قايتباى حيث يذكر مجير الدين ذلك فى أحاديثه المختلفة عمن ماتوا به والمعروف أن مجير الدين كان معاصرا لذلك السلطان .

السجون والعقوبات

فى بداية الحديث عن السجون والعقوبات فى بيت المقدس يجب أن نشير أنه لم تصادفنا فيما تيسر لنا الإطلاع عليه من مصادر ومراجع سوى إشارة واحدة لدى مجير الدين عن السجون في بيت المقدس فى عصر سلاطين المماليك . ففى حديثه عن المدرسة الأفضلية (٦٤)يذكر سجن الشرطة تجاه قمامة من جهة القبلة (٦٥) ويتضح من هذه العبارة أن سجون بيت المقدس زمن سلاطين المماليك كانت تتبع سلطات متنوعة ويؤكد هذه الحقيقة أيضا ما أورده نفس المصدر فى حديثه عن سنة ٧٨٩هـ/١٤٦٤م أيام السلطان الأشرف قايتباى بأنه فى يوم السبت السابع عشر صفر ورد مرسوم السلطان بالترسيم على القاضى فخر الدين بن نسيبة فأخذه نائب السلطنة الأمير عنده بمنزله وأقام مدة ثم ورد الأمر الشريف بالإفراج عنه (٦٦) .

وهنا لابد للباحث من وقفة ولو قصيرة لتفسير تلك الظاهرة الخاصة بالسجون فمن العبارة الأولى التى أوردناها عن « سجن الشرطة » ، ومن العبارة الثانية التى وردت بخصوص « الترسيم » والذى يقصد به تعويق الشخص ومنعه من التصرف بنفسه ، يتضح لنا تنوع السجون لتنوع السلطات المشرفة عليها ، وربما أيضا لتنوع الجريمة نفسها أو الاثم الذي يرتكبه الشخص ، فالمعروف أن الشرطة فى ذلك العصر كان من اختصاصها تنفيذ العقوبات الشرعية وغيرها بالإضافة إلى حفظ الأمن ليلا ونهارا (٦٧) . وبذلك اعتبرت الشرطة تابعة للوظائف الدينية وكانت مهمة « صاحب الشرطة على هذا الأساس تنفيذ أحكام القضاة فيما يتعلق بإقامة الحدود الشرعية فضلا عن أنها كانت أداة للحسبة لتنفيذ بعض أنواع العقوبات مثل التعزير وغيره » (٦٨) . وعلى هذا الأساس فإن « سجن الشرطة » كان لمعاقبة أرباب الجرائم من اللصوص وقطاع الطرق وغيرهم ممن ارتكبوا إحدى الجرائم التى يعاقب عليها الشرع . كذلك يفهم من العبارة الثانية أنه كان لدى نواب السلطنة فى القدس سجون أخرى داخل دار النيابة التى يقيمون بها ... وربما كان الهدف من تلك السجون هو الترسيم أو الحبس لمنع الشخص من التصرف أو الهروب حتى يبت فى أمره . ومن المرجح أيضا أن تكون هناك بعض السجون الأخرى لدى بعض القضاة أو بعض السجون التى خصصت للأمراء والأعيان ، فضلا عن بعض السجون الخاصة بالنساء كما هو متبع في بقية المدن التى خضعت للحكم المملوكى ، أو بعض السجون التى يحبس فيها من وجب عليه القتل أو القطع (٦٩) .

كذلك تجب الإشارة إلى أنه لم تصلنا أية معلومات عن وصف تلك السجون وطريقة معاملة المسجونين بها ، مما يرجح أن السجون فى بيت المقدس لم تختلف عن غيرها فى المدن الأخرى التى خضعت لحكم سلاطين المماليك ، حيث لقى المسجونون فيها كثيرا من الشدائد والأهوال ليس فقط بسبب سوء أحوال السجون نظرا لشدة الظلام فيها وكثرة الوطاويط والروائح الكريهه والقبائح المهولة (٧٠) بل ربما أيضا لما شاع فى ذلك العصر من كثرة نسيان أولى الأمر للمسجونين فى كثير من الأحيان وتركهم دون طعام أو شراب ، وربما لمدد كثيرة داخل تلك السجون ، مما كان يدفع المسجونين في بعض الأوقات إلى قتل سجانيهم وخروجهم من السجن (٧١) .

أما فيما يتعلق بالعقوبات فلم تختلف مدينة بيت المقدس عن غيرها من المدن الأخرى التى خضعت لحكم سلاطين المماليك فى كثير مما عرف من وسائل التعذيب فى ذلك العصر ، سوى وسيلة واحدة وهى التغريق ، حيث لم يرد ذكر لها فى المصادر والمراجع التى تحدثت عن بيت المقدس وهذه الوسيلة على مايبدو كانت شائعة فى المدن التى بها أنهار مثل مدينة القاهرة وغيرها ، حيث كان يؤخذ المحكوم عليه بتلك العقوبة إلى إحدى الأماكن بنهر النيل ويتم تغريقه فى المياه حتى تفيض روحه (٧٢) .

ومن العقوبات التى عرفت فى مدينة بيت المقدس فى ذلك العصر عقوبة الإعدام ، فكان إذا حكم على شخص بالإعدام سلم لأحد معاونى صاحب الشرطة المسمى بالمشاعلى وهو المكلف بقطع الرقاب وذلك لتنفيذ الحكم فيه بواسطة السيف ، وفى الحقيقة أن عملية تنفيذ الإعدام فى ذلك العصر

اتسمت بكثير من القسوة والعنف ، حيث تشير كثير من المصادر إلى أنه كثيرا مايخطىء ذلك المشاعلي عنق الشخص المحكوم عليه بالإعدام من أول مرة فيضطر إلى أنه يضربه بالسيف عدة مرات حتى يفصل رأسه عن جسده ، بل قد يضطر إلى حز الرقبة عدة مرات لهذا الغرض [٧٣] .

ومن العقوبات أيضا التي عرفت في ذلك العصر عقوبة التوسيط ، ويروى لنا الرحالة مارتن بوم جارتن – والذى سبقت الإشارة إليه أنه إذا دخل أحد المسيحيين الحرم الشريف بالقدس ، فقد كان عليه إما أن يعلن إسلامه أو كان يتم توسيطه عقابا على ذلك وذلك بأن يعرى الشخص من الثياب ثم يربط إلى خشبتين على شكل صليب ويطرح على ظهر جمل ثم يأتى السياف فيضرب المحكوم عليه بتلك العقوبة بقوة ضربة تقسم الجسم نصفين من وسطه [٧٤] .

ومن هذه العقوبات أيضا العصر بأن يعصر الشخص المعاقب في الأركاب إلى أن يموت في الآلة المخصصة لذلك والمسماة بالمعصرة ، وهى آلة مكونة من خشبتين مربوطتين ببعضهما تشدان شدا وثيقا على الشخص المعاقب وقد يوضع بينها وجه الشخص المعاقب أو رأسه أو رجلاه أو عقباه ثم تشد الخشبتان وغالبا ماينتهى الأمر بأن تكسر العظام المعصورة بين الخشبتين[٧٥] وكثيرا ما كانت تستخدم هذه الوسيلة لإجبار المذنب على الاعتراف بذنبه [٧٦] هذا إلى جانب قطع اللسان أو إخراج العينين أو قلع الأضراس ودقها في رأس الشخص المعاقب ، أو تسخين دست واجلاس الشخص المعاقب عليه أو أن تحمى طاسة في رأسه ، أو بضرب الوتد في الأذن ، أو بدق القصب في الأظافر[٧٧] .

كذلك استخدم الضرب في عقاب المذنبين ، ويكون الضرب على أى جزء من أجزاء الجسم سواء الرأس أو الجسد أو القدمين ، وغالبا ما كانت تستخدم فيه المقرعة[٧٨] ومن المرجح أيضا أن يكون ذلك النوع من العقوبة بقصد الاقرار بذنب اقترفه أحد الأشخاص ، من ذلك ما يرويه مجير الدين في حديثه عن نائب السلطنة في بيت المقدس سنة ٨٣٨ هـ/ ١٤٣٤ م وهو الأمير حسن قجا وناظر الحرم الشريف في نفس الوقت ففى « أيامه سرق مال الوقف الموضوع بصندوق الصخرة الشريفه واتهم به جماعة من الخدام فأخذهم الأمير حسن قجا إلى دار النيابة وضرب بعضهم بالمقارع »[٧٩] ومن المؤكد أن الضرب وصل حدا من الوحشية مما دفع بعض السلاطين إلى إبطال ذلك النوع من العقاب ، ففى سنة ٧٢٦ هـ/ ١٣٥٢ م نسمع أن السلطان الناصر محمد بن قلاوون قد أمر بإبطال الضرب بالمقارع من سائر مملكته ، وكتب بذلك مراسيم كثيرة قرئت على المنابر بمصر والشام ، ولكن لم يعمل بها[٨٠] .

مزارات القدس

نظرا لقداسة كثير من الأماكن داخل مدينة بيت القدس وارتباطها بالأديان السماوية الثلاثة ، وهى الإسلام والمسيحية واليهودية ، فقد غدت كثير من المواضع محط أنظار الكثيرين من أبناء تلك

الديانات ومهوى أفئدتهم ، وتدفقوا لزيارتها من شتى أنحاء المعمورة ، مما جعل مدينة بيت المقدس مركزا لتجمع العديد من الأجناس والطوائف الدينية المختلفة على مدار السنة ، ويهمنا فى هذا المقام أن نشير إلى أهم تلك الأماكن وكيف استمدت قدسيتها .

فبالنسبة للمقدسات الإسلامية ، فيمكننا القول أنه ما من موضع فى مدينة بيت المقدس إلا ويعتبر مقدسا لدى المسلمين جميعا على اختلاف مذاهبهم ، ويروى لنا كثير من كتاب الفضائل وبخاصة المنهاجى السيوطى كثيرا من الأحاديث النبوية التى تحث على زيارة المدينة لما لها من أفضال ، مما يفسر لنا حرص الكثيرين على زيارتها فى مختلف العصور . (٨٥) كذلك ليس بخاف علينا ما للقدس من أهمية دينية لدى المسلمين جميعا على اختلاف مشاربهم ، لارتباطها بقصة لإسراء والمعراج من جهة ، ولكونها قبلة المسلمين الأولى من جهة ثانية ، هذا بالإضافة إلى ارتباطها بسيرة عمر بن الخطاب ثانى الخلفاء الراشدين والذي فتحت المدينة فى عهده فى السنة السادسة عشرة من الهجرة النبوية . (٨٦)كذلك تجب الإشارة إلى أن كثرة الأحاديث التى كتبت عن فضائل بيت المقدس ربما كان الهدف منها الترويج للقدس كقبلة للحج وخاصة بعد مااشتد الصراع بين الزبير بين والأمويين ، مما جعل حج أهل الشام إلى مكة أمرا صعبا ، مما يجعلنا فى حذر من تلك الأحاديث والتى يزخر بها كتاب المنهاجى السيوطى .

ويهمنا أن نذكر أنه فى مقدمة المزارات الإسلامية بالمدينة الحرم الشريف والذى يقع فى طرف المدينة الشرق ، ويشتمل على عدة مساجد وأبنية دينية ، منها المسجد الأقصى ، ومسجد الصخرة ، ويصف لنا الرحالة ابن بطوطة المسجد الأقصى بقوله : « وهو من المساجد العجيبة الرائعة الفائقة الحسن ، يقال : إنه ليس على وجه الأرض مسجد أكبر منه ، وأن طوله من شرق إلى غرب سبعمائة وثنتان وخمسون ذراعا بالذراع المالكية ، وعرضه من القبلة إلى الجوف أربعمائة ذراع وخمس وثلاثون ذراعا ، وله أبواب كثيرة فى جهاته الثلاث ... والمسجد كله فضاء وغير مسقف إلا المسجد الأقصى ، فهو مسقف فى النهاية من إحكام العمل واتقان الصنعة ، مموه بالذهب والأصبغة الرائقة ، وفى المسجد مواضع سواه مسقفة ... » (٨٧)وترجع تسمية هذا المسجد بالأقصى — إلى إسراء النبى ﷺ ومعراجه ، وقد وردت هذه التسمية فى قوله تعالى : ﴿ سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله ... (٨٨)وكان المسجد الأقصى يقع فى صدر الحرم الشريف عند القبلة . (٨٩) طوله مائه ذراع وعرضه ستة وسبعون ذراعا بذراع العمل . (٩٠) أما عن صحن المسجد فيروى القزوينى أن « صحن المسجد طويل عريض طوله أكثر من عرضه ، وهو فى غاية الحسن والأحكام ، مبنى على أعمدة الرخام الملونة ، والفسيفساء الذى ليس فى شيء من البلاد أحسن منه . وفى صحن المسجد مصطبة كبيرة فى ارتفاع خمسة أذرع ، يصعد إليها من عدة مواضع بالدرج ، وفى وسط هذه المصطبة قبة عظيمة مثمنة على أعمدة رخام مسقفة برصاص ، منمقة من داخل وخارج بالفسيسفاء ، مطبعة بالرخام الملون . وفى وسطها الصخرة التى تزار ، وعلى طرفها أثر قدم النبى عليه السلام ، وتحتها مغارة ينزل إليها بعدة درج يصلى فيها . ولهذه القبة أربعة أبواب ، وفى شرقيها خارج القبة قبة أخرى على أعمدة حسنة يقولون إنها : قبة السلسلة .

وقبة المعراج أيضا على المصطبة ، وكذلك قبة النبى ، عليه السلام . كل ذلك على أعمدة مطبعة أعلاها بالرصاص .. (٩١) هذا وقد « حفرت فى أرض المسجد أحواض وصهاريج كثيرة ، فإن المسجد مشيد كله على صخرة ، يتجمع فيها ماء المطر ، فلا تضيع منه قطرة ، وينتفع به الناس .. (٩٢) وقد عدد لنا المنهاجى السيوطى الذى زار بيت المقدس عام ٨٧٤هـ /١٤٦٩م عدد أبواب المسجد الأقصى على النحو التالى :

باب الرحمة وهو شرق المسجد من السور ، وباب الأسباط وهو فى مؤخرة المسجد ممايلى الصخور التى هناك ، والمحراب الذى يقال له محراب داود عليه السلام ، وباب التوبة وهو باب الرحمة ، وباب حطة ، وباب شرف الأنبياء والذي يعرف أيضا بباب الدوادارية وهو من جهة المسجد من الشمال ، وباب الغوانمة وهو الذى عند دار النيابة فى أول جهة المسجد الغربية ، ويعرف هذا الباب قديما بباب الخليل ، وباب الناظر ، ويقال أنه باب غير مستجد ويعرف قديما بباب ميكائيل ، ويقال أنه الذى ربط فيه جبريل البراق ليلة الإسراء ، وباب الحديد ، وكان يعرف أيضا بباب أرغون الكاملى ، صاحب المدرسة الأرغونية التى على يسار الخارج منه ، وباب القطانين ، ويقال أنه مستجد فتحه السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، وباب السقاية ويقال أنه قديم ، وباب السكينة وهو المجاور لباب المدرسة المعروفة بالبلدية وهو مجاور للمنارة القبلية والمدرسة الأشرفية من جهة الشمال ، وباب السلسلة والذى كان يعرف قديما بباب داود عليه السلام ، وباب المغاربة وهو يقع فى آخر الجهة الغربية من المسجد والقبلة كذلك يسمى بباب النبى . (٩٣)هذا وقد أكد عبد الغني النابلسى فى رحلته إلى بيت المقدس وجود تلك الأبواب ، إلا أنه قد زاد عليها بابا وهو « باب المتوضأ » وبذلك أصبح عددها أربعة عشر بابا . (٩٤)كما يشير أحد الباحثين أنه كان للمسجد الأقصى أربعة مآذن مازالت قائمة حتى منتصف القرن العشرين ، وهى مئذنة باب المغاربة ، ومئذنة باب السلسلة ، ومئذنة الغوانمة ، ومئذنة باب الأسباط وكل هذه المآذن تم بناؤها فى عصر السلاطين المماليك ، وكذلك بعض الأروقة المحكمة البناء ،(٩٥) كذلك وجدت المحاريب بداخل المسجد الأقصى ، والتى قصدت بالزيارة والصلاة فيها ، كمحراب داود عليه السلام ، ومحراب زكريا ، ومحراب مريم عليها السلام ومحراب عمر بن الخطاب رضى الله عنه ومحراب معاوية .

هذا إلى جانب عدد من القباب التى بنيت فى صحن الصخرة وبجوارها مثل قبة المعراج ، وقبة محراب النبى ، قبة يوسف ، وقبة موسى ، وقبة الخضر ، وقبة سليمان .(٩٧) .

وجدير بالذكر أن سياسة المماليك الدينية كان لها أثرها المباشر فى مدينة بيت المقدس ، ونعنى بهذا العناية بالمنشآت الدينية بما يعطى انطباعا عند المعاصرين بأن قيام المماليك فى الحكم ليس ضروريا لحماية البلاد والعباد من الأخطار الخارجية فحسب ، بل أيضا لرفع راية الإسلام عن طريق إحياء شعائره ورعاية مقدساته ، ولذا استغل المماليك جزء كبيرا من ثرواتهم الضخمة فى العناية بالمسجد الأقصى وقبة الصخرة ، وتشير كثير من المصادر الى تلك الرعاية والعناية بترميم وتجديد تلك المقدسات الاسلامية (٩٨) تلك الرعاية التى تجلت فى دهشة واستحسان بعض الرحالة الغربيين الذين

زاروا – المدينة فى ذلك العصر . (٩٩) بحيث كان المسجد الأقصى أحد الاعمال الفنية الرائعة التى لفتت أنظارهم .

كما تجب الإشارة إلى أن الحرم الشريف بالقدس كانت له مكانه خاصة عند كثير من المسلمين ، فهو أول القبلتين وثالث الحرمين ، لذا حرص كثير منهم على زيارته فى مناسبات عديدة أهمها حضور صلاة التراويح التى كانت تقام بالمسجد الأقصى وبمغارة الصخرة وعند أبواب الحرم ، وكان العديد من المسلمين يحضرون تلك الصلاة التى تقام طوال شهر رمضان ، هذا بالإضافة إلى الاحتفال بليلة النصف من شعبان ، فضلا عن الاحتفال بلية الإسراء والمعراج فى السابع والعشرين من شهر رجب والتى تكاد تكون من أشهر أعياد القدس وأعظمها ، حيث يوقد أكثر من عشرين ألف من القناديل ، بينما فى الأيام العادية لايتجاوز عدد القناديل فى المسجد الأقصى والصخرة معا ألفا ومائتين وخمسين قنديلا ، بما يفوق الكثير من مساجد كثير من المدن الأخرى . (١٠٠) .

كذلك كانت تقام فى المسجد الأقصى أغلب الاحتفالات عندما يزور أحد السلاطين مدينة بيت المقدس ، حيث يصلى فيه ، ثم يجلس فى محراب المسجد لسماع شكاوى الناس وحل قضاياهم ، كذلك كان كل نائب جديد يصل إلى المدينة عليه أن يزور المسجد الأقصى يوم وصوله ، وهناك يستقبله الأهالى ، وكانت تقام الاحتفالات المختلفة احتفاء بهذا النائب الجديد ، بالإضافة إلى الاحتفاء بالخطباء والقضاة الجدد ، حيث تتم قراءة تواقيع التولية فى المسجد الأقصى عادة عقب صلاة الجمعة .(١٠١) .

كما كانت هناك بعض المزارات الإسلامية والتى حرص كثير من المسلمين على زيارتها والتبرك بها ، من ذلك مايذكره مجير الدين عم طور زيتا ، وهو الجبل الشرق من بيت المقدس ، وهو جبل عظيم مشرف على المسجد الأقصى ، وأن به بعض قبور الصحابة ، فضلا عن أن السيدة صفية زوجة رسول الله ﷺ قدمت إليه ، فصلت به وقامت على طرف الجبل وقالت من ها هنا يتفرق الناس يوم القيامة إلى الجنة وإلى النار ، وهذا الجبل هو الذى صعد منه عيسى عليه السلام إلى السماء حين رفعه الله إليه ، كذلك به قبر السيدة مريم عليها السلام ، وهو فى كنيسة فى داخل جبل طورزيتا وخارج باب الأسباط ، وهو مكان مشهور يقصده الناس للزيارة من المسلمين والنصارى . (١٠٢) .

ويروى لنا الهروى أيضا عن مزارات بيت المقدس أنه بظاهر القدس من الزيارات عين سلوان ، ماؤها مثل ماء زمزم وهى تخرج من تحت قبة الصخرة وتظهر بالوادى قبلى البلد .(١٠٣) كما يروى لنا القزوينى أن عين سلوان هذه كان يتبرك بها الناس وانها كانت تسقى كثيرا من البساتين ، وان ماءها يفيد السلو إذا شربه الحزين (١٠٤) كذلك تشير كثير من المصادر إلى أنه على مقربة منها كانت توجد بعض قبور الصحابة والصالحين والشهداء ، وقبر السيدة راحيل أم يوسف الصديق عليه السلام .(١٠٥) .

وفى نفس المنطقة أيضا كانت توجد قبة قبر سيدنا موسى عليه السلام ، هى عبارة عن بناء وداخله مسجد وعلى يمينه قبة معقودة بالحجارة ، وفيها ضريح يوضع عليه أيام موسم زيارته ستر من حرير

أسود وعليه طراز أحمر مزركش داير على جميع أطرافه ، والذى بنى هذه القبة المذكورة هو السلطان الظاهر بيبرس سنه ثمان وستين وستمائة ، وأهل بيت المقدس يقصدونه فى كل سنة عقب الشتاء ويقيمون عنده أياما . (١٠٦) وإلى جوارها أو بالقرب منها كانت هناك بئر منسوبة إلى سيدنا أيوب عليه السلام يقصدها كثير من أهل بيت المقدس للزيارة والتبرك » (١٠٧) .

ومن المزارات التى حرص كثير من المسلمين وغيرهم من أبناء أهل الذمة على زيارتها مقام نبى الله داود فى القلعة وهى داخل سور بيت المقدس من جهة الغرب ، ويصف لنا عبد الغني النابلسي هذا المكان بقوله : « ودخلنا إلى الجامع الذى فى داخل القلعة وفيه محراب داود ، ثم صعدنا إلى مكان مرتفع بدرج يقال أنه مكان جلوس داود . وهناك طاقة كبيرة من الحجر وفيها أثر مرفق غايص فى الحجر يقال أنه مرفق داود . كان يجلس هناك وينظر من تلك الطاقة . واضعا مرفقه على هاتيك البلاطة حتى أثر بها . وفى هذا الحصن برج عظيم البناء يسمى برج داود . من البناء القديم ..(١٠٨) .

كانت هذه هى أهم المزارات الإسلامية التى وجدت ، فى مدينة بيت المقدس ، وقد أوردنا بعضها على سبيل المثال لا الحصر ، لكى نبرهن على كثرة أماكن الزيارة بها ، خاصة فيما يتعلق بالمسلمين .

أما فيما يختص بالمزارات المسيحية فى بيت المقدس فإنها قد تعددت تعددا ظاهرا وواضحا ، مما جعل مجير الدين يقول ، « وفى القدس الشريف ، عدة من الكنائس والديارات من زمن الروم نحو عشرين مكانا ... » (١٠٩) ومما لاشك فيه أن الكثير من تلك الكنائس والأديرة ارتبط بنشأة المسيحية الأولى وبتاريخ السيد المسيح ، هذا بالإضافة إلى ارتباطها بتلاميذ المسيح الأوائل وبعض القديسين ، مما كان له أكبر الأثر على تدفق كثير من المسيحيين من مختلف الأقطار لزيارتها والتعرف عليها ، فضلا عن شغف المسيحيين المحليين فى بيت المقدس بإرشاد هؤلاء الزوار وصحبتهم إلى تلك الأماكن .(١١٠) .

وتأتى كنيسة القيامة فى مقدمة الأماكن التى حظيت بعناية كل من يرد إلى المدينة للزيارة من المسيحيين ، وهذا مايؤكده لنا كثير من المؤرخين المسلمين والمسيحيين على السواء ، فهذا هو الهروى يقول : « وأما زيارات الملة المسيحية فأعظمها كنيسة قمامة(١١١) وعمارتها من العجائب المذكورة .. ولهم فيها المقبرة التى يسمونها القيامة وذلك أنهم يعتقدون أن المسيح قامت قيامته في ذلك الموضع .. (١١٢) كذلك يقول عنها القزويني « وهى كنيسة عظيمة للنصارى فى وسط البلد ، لايضبط صفتها حسنا وتنميقا وكثرة مال .. » (١١٣)ويقول عنها أيضا مجير الدين فى حديثه عن الكنائس والأديرة التى في بيت المقدس « وعمدة النصارى منها كنيسة قمامة فإنها عندهم بمكان عظيم وبناؤها فى غاية الإحكام والإتقان يقصدونها فى كل سنة فى عدة أوقات من بلاد الروم والإفرنج ومن بلاد الأرمن ومن الديار المصرية والمملكة الشامية وسائر الأقطار ويسمونها القيامة ويزعمون أن حجهم إليها ... » (١١٤) .

وجدير بالملاحظة أن كل المؤرخين المسلمين الذين تحدثوا عن كنيسة القيامة قد أوردوا لنا وصفا

مقتضبا لها وبخاصة من داخلها ، ولعل أهم الأوصاف التى ذكرت لها ، هو ماسبق واورده لنا مجير الدين لها ، وكذلك ماأورده العماد الأصفهانى فى حديثه عنها عقب استيلاء صلاح الدين على المدينة ، وخروج الفرنج منها حيث يقول : « وكانت كنيسة قمامة وهى كنيستهم العظمى مبسوطة بالبسط الرقاع مكسوة بالستور من النسيج والحرير والممزوج من ساير الأنواع والذين يذكرون أنه قبر عيسى عليه السلام محلى بصفائح الفضة العين ومصوغات الذهب واللجين مصفح بالنضار مثقل من نفايس الحلى بالأوتار فأعاده البطرك منها عاطلا وتركه طللا ماثلا .. » (١١٥) .

هذا بعكس الحجاج والرحالة النصارى والذين اهتموا بذكر كل مايتعلق بهذه الكنيسة ، وأمدونا بتفصيلات كثيرة عنها ، ويهمنا هنا فى هذه الدراسة أن نقتصر على ما استجد فيها ، وذلك لأن بناءها الأصلى والذي يرجع إلى أيام الملكة هيلانة أم الملك قسطنطين ، حيث بنتها سنة ٣٣٥م ، ثم احرقت على يد الفرس سنة ٦١٤م وتم اعادة بنائها سنة ٦٣٦م على يد أحد الرهبان . (١١٦)ولم يتغير شىء من بنائها فى عهد سلاطين المماليك . (١١٧)كما أنها كانت تقع داخل أسوار المدينة ، ولها بابان يفتحان على ساحة جميلة المنظر ، أحدهما كان مفتوحا ، أما الآخر فقد كان مغلقا ، وكان يقف على باب الكنيسة ثمانية حراس من المماليك . (١١٨) ويروى لنا الرحالة فريسكوبا لدى الذى زارها يوم ١٤ نوفمبر عام ١٣٨٤ وصفا لها حيث دخلها وبقى بها حتى صلاة الغروب اليوم التالى ، فيقول : وأمام كنيسة القبر المقدس بداخل كنيسة القيامة ساحة فى وسطها حجر ، وهو الذى جلس عليه المسيح ، وفى هذه الساحة أربعة كنائس صغيرة ، الأولى منها للسيدة العذراء والقديس يوحنا الإنجيلى ، والثانية للقديس ميخائيل والثالثة للقديس يوحنا المعمدان ، والرابعة للقديسة مريم المجدلية ، ثم تدخل كنيسة القبر المقدس ، والتى لها ثلاثة مفاتيح ، واحد يحتفظ به أحد ممثلى السلطان ، والثانى لنائب القدس والآخر بيد أحد رجال الدين ، وكان على الحجاج المسيحيين أن يدفعوا قدرا من المال لكى يدخلوا هذه الكنيسة ، وداخلها يجد الانسان حجرا أسودا وهو الذى جلد عليه المسيح ، وكذلك بها جزء من العمود الذى ربط فيه المسيح وضرب فى ليلة الخميس المقدس ، كذلك يوجد السجن الذى وضع به المسيح ، كما توجد مقبرة دفن بها الملك جودفرى ، (١١٩)وأمامها مقبرة أخرى دفن بها أخوه ، وهما داخل كنيسة يقوم بالخدمة فيها الأرمن المسيحيون . وبالقرب منها توجد كنيسة على المكان حيث ظهر المسيح للقديسة مريم المجدلية ، وبالقرب منها كنيسة حيث ظهر المسيح للسيدة مريم ويقوم بالخدمة فيها الرهبان الفرنسيكان التابعين لجبل صهيون ، كما توجد كنيسة أيضا للقديسة هيلانة تحت الأرض تماما ، ثم هناك قبو تحت الأرض تصل إليه بدرج حيث توجد عدة كنائس صغيرة يقوم بالخدمة فيها الرهبان الفرنج ، والبعض الآخر يقوم بالخدمة فيها اليونان ، والبعض للأرمن والبعض لليعاقبة (١٢٠)هذا بالإضافة إلى وجود أعداد من الرهبان من مختلف الجنسيات ، ومختلف الطوائف فى كل مكان خاص بها ، ولها مذبحها ، ويبدو أن العداوة كانت شديدة بين بعض هذه الطوائف والبعض الآخرة . (١٢١) .

كذلك جدير بالذكر أنه منذ الفتح الصلاحى لبيت المقدس ، فقد سلمت مفاتيح كنسية القيامة إلى عائلتين مسلمتين هما نسبية وجودة ، ومازال أحفاد هاتين العائلتين يحتفظون بهذا الحق إلى

منتصف القرن العشرين حسبما يشير أحد الباحثين .(١٢٢) .

وبالإضافة إلى ما سبق وأشرنا إليه من أن كنيسة القيامة كان لها دور سياسى فى عصر سلاطين المماليك ، حيث استغلها السلاطين أداة للضغط على ملوك وأمراء الغرب الأوربى – وخاصة عندما تتعرض مصالح وأمن الدولة للتهديدات – الخارجية من جانب الفرنج – وهذا ما تشير اليه كثير من المصادر المعاصرة . (١٢٣) فقد كان لها دور اجتماعى بجانب دورها الدينى وهذا مايؤكده لنا أحد الحجاج « البياكنزى » من أن كنيسة القديسة مريم كان بها كثير من منازل الضيافة للرجال والنساء إلى جانب أماكن الإقامة لرجال الدين بها ، كذلك أعدوا بها للرحالة عددا كبيرا من المراكز الإعلامية حيث تعلق على جدرانها كثير من المراسيم الصادرة من السلاطين ، مثلها فى ذلك مثل المسجد الأقصى . (١٢٥) .

ومن الأماكن التى حظيت بالمرتبة الثانية بعد كنيسة القيامة ، « كنيسة صهيون المختصة بالإفرنج وهى فى آخر مدينة القدس من جهة القبلة ، ثم كنيسة ماريعقوب وتعرف بدير الأرمن وهى بالقرب من صهيون ، وكنيسة المصلبية المختصة بطائفة الكرج وهى بظاهر القدس الشريف من جهة الغرب فهذه الأربع كنائس هى عمدة النصارى والنهاية عندهم كنيسة قمامة .. (١٢٦)ومن المرجح أن تكون كنيسة ماريعقوب هذه قد حظيت بمكانة خاصة لدى الطوائف المسيحية المختلفة ، وذلك نظرا لما يرويه عنها الهروى من أنه كان « بها بئر يقال أن المسيح اغتسل منها وآمن السامرية على يديه عندها ويزورونها ويعتقدون بها ... (١٢٧) .

كذلك وجد بمدينة بيت المقدس العديد من الأديرة التى حظيت ليس فقط بزيارة المسيحيين من الطوائف المختلفة ، بل أيضا بزيارة الكثيرين من المسلمين ، من هذه الأديرة مايذكره لنا ابن فضل الله العمرى « دير المصلبة » ، وهو بظاهر مدينة القدس الشريف ، فى شامها بغرب . وهو دير رومى قديم البناء ، بالحجر والكلس . محكم الصنعة مونق البقعة . فى بحيرة من أشجار الزيتون والكروم وشجر التين ، بإزاء قرية ، تجرى على الدير بمرسوم السلطان . وهذا الدير دخلت إليه ورأيته ، وفيه صور يونانية فى غاية من محاسن التصوير ، وتناسب المقادير . وصعدت إلى سطحه ، فرأيت له حسن مشترف وسعة فضاء .. » (١٢٨) ، ومنها أيضا دير السيق « قبلى بيت المقدس . على نشز عال مشرف على الغور ، غور أريحا يطل على تلك البسائط الخضر ومجرى الشريعة ، وبه رهبان ظراف أكياس ، ولايأتيهم إلا قاصد لهم أو مار فى مزارع الغور . تحتهم وفوقهم الطريق الآخذة إلى الكثيب الأحمر . وقبر موسى عليه السلام فى القبة التى بناها عليه الملك الظاهر بيبرس .. » (١٢٩)ومنها أيضا « دير الدواكيس » ، شرق القدس ، حسن البناء ، له سمعة وذكر بين النصارى ، ويذكر لنا المصدر نفسه ونقصد بذلك ابن فضل الله العمرى « ولاأعرف بانيه ، ولا وقفت له على اسم ، ولا على السبب الذى سمى به بهذا الاسم . غير أن له وقفا يعود منه على الرهبان السكان جليل فائدة ونفع ،

وقد مررت غير مرة به فى أسفارى وخرج إلى رهبانه بميسور ماعندهم » . « والحقيقة ان ابن فضل الله لم يخبرنا صراحة فى السبب فى زيارته لتلك الأديار ، إلا أننا نستطيع من خلال قصيدة له يتحدث فيها عن تلك الأديار ترجيح أن الرهبان بتلك الأديار كانوا يستضيفون بعض المسلمين ويقدمون لهم النبيذ والخمور ، ودليل ذلك قوله :

دير الدواكيس أم ريش الطواويس   أم الشموس سنا تلك الشماميس
مأوى المياسير لكن بعد أوبتهم   منه يعدون فى حزب المفاليس
فأنزل به واقم فيما تريد وقل   املأ كؤوسى وفرغ عندها كيس
واقدح زناد سرور من مدامته   فهذه النار من تلك المقابيس(١٣٠) .

كذلك من تلك الأديار والتى حظيت بزيارة الكثيرين من أهل بيت المقدس ، دير القديس سابا ، وهو إلى الجنوب الشرقى من بيت المقدس على بعد ثلاث ساعات ونصف عنها على الراجل ، وعلى انخفاض ٥٦٠ مترا عنها عن الطريق المؤدى منها إلى البحر الميت فى وادى القدرون ، وكان أشبه بقلعة منيعة ، غريبة الأبنية ، ويصعد من الوادى إلى الدير بسلالم بعضها منقور فى الصخر ، والآخر مبنى على شكل أدراج ، ورهبانه يعيشون فيه عيشة تقشف ، وفى كل يوم جمعة يبعث لهم دير القبر المقدس فى القدس طعامهم مرة واحدة ، ولا يسمح للنساء بدخوله . (١٣١) .

كذلك يذكر لنا مجير الدين من المزارات التى كان يقصدها كثير من المسيحين والمسلمين بالقدس ، قبر مريم عليها السلام ، وهو فى كنيسة داخل جبل طور زيتا ، وهو الجبل الشرقى لبيت المقدس ، وهذا الجبل نفسه مشرف على المسجد الأقصى ، وهذه الكنيسة تسمى « الجيسمانية بخارج باب الأسباط وهو مكان مشهور يقصده الناس للزيارة من المسلمين والنصارى وهذه الكنيسة من بناء هيلانة أم قسطنطين .. (١٣٢) .

تلك كانت أهم المزارات المسيحية فى بيت المقدس ، بخلاف كثير من المزارات الأخرى خارج المدينة وخاصة فى بيت لحم مثل « مهد المسيح » بالإضافة إلى الخليل حيث قبور كثير من الأنبياء مثل آدم ، وابراهيم ، واسحق ، ويعقوب ، وزوجاتهم ، وجدير بالذكر أن المزارات الموجودة فى الخليل كان يسمح للمسيحيين بزيارتها بعد الحصول على إذن خاص بذلك من السلطات المملوكية وخاصة بالنسبة للمسيحين الغربيين (١٣٣)كذلك أهتم كثير من المسيحين وبخاصة الغربيين بزيارة بعض الأماكن الأخرى المجاورة لبيت المقدس لارتباطها بنشأة المسيحية ، مثل نهر الشريعة « الأردن » حيث عمد المسيح ، وكنيسة القديس يوحنا بالقرب من نهر الأردن وبعض الكنائس الأخرى . والتى يذكرها أحد حجاج القرن الخامش عشر الميلادى . (١٣٤) .

أما فيما يختص بأماكن الزيارة اليهودية ، فالحقيقة أن المصادر التى بين أيدينا لم تشر إلا إلى الأثر الذى اعتبره اليهود مقدسا ، والذى يشير إليه الحاج المجهول » بأن اليهود فى القرن الحادى عشر كانوا

يأتون إليه ويقومون بتقبيله والبكاء عنده ، يقصد بذلك حائط المبكى (١٣٥) .

وتشير بعض المراجع العربية إلى أن حائط المبكى هذا هو عبارة عن بقية سور مدينة أورشليم القديم ، وأنه الحائط الخارجي للهيكل والذي يبلغ طوله ١٥٦قدما وارتفاعه ٥٦ قدما ، وهو الذى رممه جيرود (١١ ق.م) ، ودمره تيطس ٧٠م ويقدسه اليهود ويزورونه بين كل آونة وأخرى ، وكلما زاروه تذكروا مجدهم الضائع فبكوا . (١٣٦)كما يشير أحد الباحثين إلى أن الأعتقاد بأنه جزء من معبد سليمان اعتقاد خاطىء ، لأنه فى الحقيقة جزء من السور الخارجي لمعبد جيرود ، كما أنه من الناحية التاريخية معروف أن سليمان بنى معبدا فى بيت المقدس لكن هذا المعبد دمر تماما أكثر من مرة ، وأن الأبحاث الأثرية التى تمت خلال المائة سنة الأخيرة لم تظهر أى دليل على وجود أى جزء من معبد سليمان . (١٣٧)كذلك يشير باحث آخر إلى أن هذا المكان نفسه هو المكان الذى يسمى بالبراق الشريف ، حيث يعتقد كثير من المسلمين أنه المكان الذى ربط عنده جبريل عليه السلام براق النبى ﷺ ليلة الإسراء ، ومن ثم أطلق عليه هذا الإسم منذ ذلك الوقت وحتى منتصف القرن العشرين ، وهذا الجزء مازال يؤلف قسما من الحرم القدسى الشريف (١٣٨)ويؤكد باحث آخر هذا القول (١٣٩) .

كذلك كان من الأماكن التى حظيت بزيارة بعض اليهود فى مدينة بيت المقدس على عصر السلاطين المماليك المقبرة التى لهم بجبل صهيون ، والتى يذكرها لنا الرحالة سيرجون مانديفيل . والذى زار المدينة عام ١٣٢٢م حيث يؤكد وجود تلك المقبرة والتى يعتقدون بأنه دفن فيها الملك داود ، والملك سليمان ، وكثير من ملوكهم الذين حكموا بيت المقدس فى قديم الزمان .(١٤٠) .

من هذا العرض الموجز عن أهم المزارات فى مدينة بيت المقدس فى عصر سلاطين المماليك ، يتضح لنا أن أبناء الديانات السماوية الثلاث الاسلام والمسيحية واليهودية ، كان لكل منهم أماكن خاصة بالزيارة يقدسونها ويجلونها لارتباطها بعقيدتهم ، فضلا عن الأماكن المشتركة التى كان يقدسها المسلمون والمسيحيون على السواء باعتبار أن الإسلام لم يفرق بين الأنبياء والرسل ، وكانوا ومازالوا كلهم محل تقديس واحترام ، وكذلك الأماكن التى أرتبطت بهم .

بعض عادات أهل بيت المقدس

عرفت مدينة بيت المقدس فى ذلك العصر كثيرا من العادات والتقاليد والتى توارثوها خلفا عن سلف ، سواء فى ذلك ماشاع منها لدى المسلمين أم المسيحيين أم اليهود ، وبالرغم من كثرة تلك العادات والتقاليد إلا أننا سنقتصر على إيراد بعضها خوفا من التطويل ومراعاة لطبيعة البحث نفسه ، وبما يعطى صورة كاملة عن أبناء بيت المقدس وعاداتهم فى ذلك العصر بطوائفهم المختلفة .

فمن العادات الطريفة والتى ظلت إلى وقت قريب لديهم ، والتى اشتركت فيها جميع الطوائف من مسلمين ومسيحين ويهود ، عادة إخفاء بعض النقود تحت الأرض ، فالاكتشافات الحديثة قد

أظهرت أن هذه العادة قديمة ، كما تم الكشف عن كثير من العملات وبكميات كثيرة ، وبخاصة ذات القيمة الصغيرة ، والتى وجدت حول بيت المقدس وغيرها من المدن ، فقد جرت العادة بأن يخفى الناس هذه النقود داخل أوانٍ فخارية ، خشية سطو اللصوص عليها ، وربما نظرا لكثرة تعرضهم للإغارات والمصادرات التى تكررت فى عصر سلاطين المماليك الجراكسة . وكما سبقت الإشارة بذلك . ومن المرجح أن هذه العادة كانت منتشرة بشكل واضح بين سكان القرى حول بيت المقدس ، وربما رجع ذلك إلى فقرهم وتعبهم فى الحصول على تلك النقود ، مما جعلهم يعتزون بها ويتفنون فى إخفائها . (١٤١) .

ومن العادات القديمة التى ظلت حتى أواخر عصر سلاطين المماليك والتى لفتت أنظار بعض الرحالة الأجانب ، أنه كان فى وادى اليوسيفات عين ماء تسمى « نبع العذراء » أو نبع النساء المتهمات حيث اعتيد تسميتها بذلك ، فقد جرت العادة أن يجرى بها نوع من الأختبار لمن تتهم من النساء بعدم الطهر ، فمن تشرب من ماء تلك العين وتكن مذنبة فإنها تموت ، أما إذا كانت بريئة فإنها لاتصاب بأى أذى أو ضرر (١٤٢) ، ومما يؤكد أن هذه العين وتلك العادة قديمتان مايرويه مجير الدين عنها بقوله إنها كانت تسمى « عين المقذوفات » وهى معروفة منذ زمن بنى اسرائيل وكانت بالقرب من عين سلوان وكانت « المرأة إذا قذفت أتوابها إليها فشربت منها فإن كانت بريئة لم يضرها وإن كانت غير بريئة طعنت فماتت .(١٤٣) . كما أن السيدة مريم عليها السلام عندما اتهموها بعدم النقاء ، فقد قبلت هذا الاختبار ، وشربت من هذا الماء وبرهنت على طهرها ، ومنذ ذلك الحين وهذا النبع يحمل اسمها (١٤٤) .

كذلك كانت غالبية سكان بيت المقدس من مسلمين ومسيحين ويهود يعتقدون فى الحسد ، « عين الحسود » ، ويعتقدون أنها تسبب المرض والحزن ، والموت ، وأنها يمكن أن تهدم المنازل ، وتوقف الحرث ، وتقتل الحيوانات والزرع ، كما أنهم يعتقدون أن الأشخاص أصحاب العيون الزرقاء هم الأكثر تأثيرا من حيث الحسد . وللوقاية من « عين الحسود » فإنهم كانوا يأخذون قطعة من ملابس الشخص الذى يعتقد أنه يحسد غيره ، ويحرقونها تحت الشخص الذى أصيب . كما كانت هناك طرق أخرى للتخلص من أثر « عين الحسود » سواء لدى المسلمين أم المسيحيين (١٤٥) .

ومن العادات التى تحدثنا عنها كثير من المصادر الأجنبية والعربية ، أن سكان بيت المقدس على اختلاف طوائفهم ، تراهم فى الصباح الباكر ، وفى المساء وعندما تقل درجة حرارة الشمس يخرجون إلى البساتين ويتمشون حول أسوار المدينة وهذا مالفت أنظار الرحالة فابرى أثناء زيارته للمدينة . (١٤٦) إلا أن بعض المصادر العربية تشير إلى أن تلك العادة كانت كثيرا ماتحدث فى فصل الربيع وفصل الصيف فقط حيث يخرجون إلى المتنزهات والحقول والبساتين ، وأن الكثير منهم كانت لهم أخصاص وسط البساتين لقضاء تلك الأوقات ، كذلك كثيرا مايحلو لأهل العلم عقد مجالسهم فى تلك الأماكن وسط الخضرة والهواء العليل . « حيث تنشرح الصدور وينجبر القلب المكسور » (١٤٧)

ومن العادات الطريفة ، والتى تدل على طيبة قلوب أهل بيت المقدس فى ذلك العصر مايرويه لنا

الرحالة فابرى من أنه جرت العادة لديهم إذا التقوا مع أحد أصدقائهم أو معارفهم بعد طول غياب فإنهم يسارعون إلى معانقته وتقبيله ، فعندما عاد فابرى وطلب سائس ركوبته فعندما رآه جرى نحوه وقبله كعادة الناس هناك ، وحياه بكل مناهج الفرح والسرور ، وكان يضحك ويتكلم معه كثيرا مما يدل على اشتياقه للحديث معه ، لأنه كان قد تركه لبعض الوقت لأداء مراسم الحج . (١٤٨) . كذلك جرت العادة لدى أهل البلاد ، أن الرجال الفقراء ، وأهل الريف ومتوسطى الحال كان عليهم أن يوسعوا الطريق للأمراء والأغنياء عندما يلتقون بهم (١٤٩) .

كذلك تشير بعض المراجع إلى أنه لم تجر العادة فى بيت المقدس ، بل وفى فلسطين كلها أن يقف الشخص أثناء ادائه بعض الأعمال التى يمكن أن يؤديها وهو جالس ، وهذا ماتفعله النساء أثناء غسل الملابس أو غزل الصوف وإلى غير ذلك من الأعمال ، فكن يجلسن على الأرض ويقمن بتلك الأعمال ، كذلك الحال بالنسبة للرجال ، فكانوا يقطعون الحجارة وهم جالسون . (١٥٠) .

ومن العادات التى سارت بين مختلف الطوائف المسيحية ، أنهم كانوا فى حالة المرض ينذرون للكنائس والمعابد والأديرة زيتا وشموعا وبخورا ، أو ينقلون بعض النباتات الموجودة فى جدرانها لإعطائها للمريض ، أو يحملون بعض الأيقونات إلى غرفته (١٥١) وكذلك من العادات الخاصة بالمرض ، أنهم كانوا يلجأون إلى تشريط جلد المريض بشفرة حادة كنوع من العلاج وإذا لم يحدث تقدم فى حالة المريض فإن الخطوة التالية عادة ماتكون الكى بالنار ، كذلك عند الإصابة بجرح من الجروح فإنهم يغطونه بعجينة من الغبار الدقيق المخلوط بالماء . (١٥٢) .

كذلك يروى لنا الرحالة بوم جارتن الذى زار مدينة بيت المقدس فى أواخر شهر نوفمبر عام ١٥٠٧م ، أنه جرت عادة كثيرين من أبناء بيت المقدس الخروج إلى بركة سلوان حيث يمارسون رياضتهم المفضلة وهى صيد الطيور ، فيقول « هناك كانت لدينا الفرصة لكى نشاهد طريقة صيد الطيور ، والتى لم نرها من قبل ، ذلك لأنهم لايصيدون الطيور– كما نفعل نحن – عن طريق الصقور والشواهين ، ولكن عن طريق المياه التى تصب على الصخور ، ولأن هذه البلاد جافة جدا ، والطيور عندما تطير فى الجو ، تكون مستعدة لأن تهبط فجأة بسبب العطش ، وعندما ترى المياه تلمع خلال أشعة الشمس المتساقطة عليها ، فإنها تتجه نحوها مباشرة ، وقبل أن تصل الطيور إلى المياه لتشرب تكون قد وقعت فى أيديهم عن طريق الشراك التى ينصبونها لها ... (١٥٣) .

كما يروى لنا الأب سوريانو والذى عاش فى مدينة بيت المقدس فترة من الزمن كما سبق وأشرنا – أنه شاهد أثناء إقامته فى المدينة ، وهو فى هذا المقام يقارن بين بعض العادات المتنوعة التى شاهدها ، وبين ماهو معروف لديهم فى الغرب الأوروبى فيقول « إن الرجال يقومون بالأعمال المنزلية ويحملون الماء ويغزلون وينسجون ، بينما تقوم النساء بعمليات البيع والشراء ، إن الرجال يهتمون أشد الاهتمام بتوفير الطعام لبناتهم ، ولايهتمون نفس الاهتمام بالصبية ، نحن نخلع غطاء الرأس عند التحية ، لكنهم يخلعون الأحذية عند التحية ، نحن نحب الكلاب وهم يحبون القطط ، نحن نربط الأحزمة فوق الملابس وهم يربطونها تحتها ، هم يرتدون الكتان ونحن نرتدى الصوف ، وهم يبيعون الدجاج

بالحجم ، والفاكهة مثل التين فى أقفاص ، والرجال عندهم يفضلون القطط بينما تفضل النساء الكلاب ... (١٥٤) .

ومن العادات الطريفة لدى العرب القائمين فى بيت المقدس وحولها أن كان لديهم نوع من اللبن الحليب ، والذين يقومون بإعداده بطريقة خاصة والذى يسمى « خثارة اللبن » ، أو اللبن المتخثر ، والذى يقدم للضيوف فقط ولكن يعتبر طعاما مترفا ، وهو مرطب جدا بالنسبة للمسافرين والرحالة ، عندما يتعبون أو يشعرون بالحرارة ، وله تأثير منوم ومهدىء غريب ، كما إنه ليس من عادتهم قتل المستجير بهم أو الضيف الذى ينزل لديهم .

وأخيرا تجب الإشارة إلى أنه من ضمن العادات التى كانت شائعة فى بيت المقدس فى ذلك العصر ، عادة الاعتقاد فى الأولياء والصالحين وأن لهم كرامات كثيرة ، من ذلك مايرويه لنا مجير الدين عن « الشيخ أحمد جعارة أنه كان مجذوبا وله كرامات ظاهرة وأهل بيت المقدس يعتقدون صلاحه ... توفى فى شهر رمضان سنة ثلاث وسبعين وثمانمائة ودفن بماملا بالقرب من القلندرية نفع الله به (١٥٦) .

وكذا الحال بالنسبة للمسيحيين المحليين فقد جرت العادة لدى بعضهم بالذهاب الى بركة ماء بداخل المدينة يقال انها بركة سليمان ، يذهب اليها المرضى ويظلون ينظرون حتى تتحرك مياهها وأول شخص ينزل إلى الماء عندما يتحرك يشفى من مرضه(١٥٧) . كذلك كان بعض المسيحيين يذهبون الى المكان الذى تم فيه صلب المسيح بكنيسة القيامة ، ويذهبون الى العمود الذى صلب عليه ويضعون عليه قطعا من القماش ثم يلتفون بها كنوع من التبرك ، ولمساعدتهم على الشفاء من كثير من الأمراض وهذه العادة قديمة وكانت متبعة أيضا طوال فترة الحكم الصليبى(١٥٨) .

من هذا العرض تتضح لنا بعض العادات التى كانت شائعة فى بيت المقدس فى عصر سلاطين المماليك ، وأنها تنوعت لتشمل شتى مجالات الحياة المختلفة ، كذلك كان لتنوع الديانات بها أثر فى تنوع تلك العادات والتقاليد ، كما تجدر الإشارة أنه فيما يختص باليهود فلم نعثر لهم فيها بين أيدينا من مصادر ومراجع عن بعض عاداتهم الخاصة والتى تميزوا بها عن غيرهم من سكان بيت المقدس . ومن المرجح أن يكون صمت تلك المصادر والمراجع عن الحديث عنهم راجع لكونهم كانوا أقلية بالنسبة لغيرهم من السكان فى ذلك الوقت ، وربما لأنهم لم يتميزوا عن غيرهم من السكان ببعض العادات الخاصة ، ولعلهم شاركوهم فى كثير من العادات والتقاليد التى عرفت فى ذلك الوقت ، وكما سبقت الإشارة — فإن غالبيتهم كانوا من الوافدين على البلاد والذين سرعان ما ألفوا الحياة العربية ، وتخلقوا بعادات العرب .

المواسم والاحتفالات الدينية فى القدس

تعددت المواسم والاحتفالات الدينية فى بيت المقدس على عصر سلاطين المماليك تعددا واضحا وملموسا ، سواء ماكان يتعلق منها بالمسلمين أم المسيحيين من سكان المدينة ، ويهمنا فى هذا المقام أن

،ول ما تميزت به القدس عن غيرها من مواسم واحتفالات لم تكن موجودة فى غيرها من المدن الإسلامية وخاصة ماكان منها خاضعا لحكم سلاطين المماليك .

من ذلك أن مدينة القدس عرفت بعض المواسم أو ما نسميه حاليا « بالموالد » مثل « موسم النبى عنير » ، و « موسم النبى صالح » ، و « موسم الحسين » ، و « موسم النبى موسى » ، و « موسم أبى عبيدة الجراح » ، وترجع نشأة المواسم الى السلطان صلاح الدين الأيوبى ، فعقب موقعة حطين وازاحة الصليبيين عن معظم مدن فلسطين ، شغرت معظم تلك المدن من السكان ، وعندئذ أسكنها القبائل العربية ومنها القدس ، والتى توطن بها كثير من قبائل بنى حارث ، والذين كانت منازلهم خارج المدينة عند القلعة ، وقبائل بنى مرة الذين قطنوا الجهة الغربية الشمالية ، وكذلك بنو سعد والجرامنة الذين كانت لهم حارة فى سوق القطانين ، وكان الهدف من تلك المواسم التى أنشأها صلاح الدين أن تكون موافقة لموسم عيد الفصح ، والذى يأتى فيه عدد كبير من الحجاج المسيحيين ، وبخاصة من الأوربيين – لزيارة القدس ، ولكن تكون القدس غاصة بأهالى الجليل ونابلس والمناطق الأخرى المجاورة ، وبذلك كانت القدس أشبه بثكنة عسكرية متأهبة لرد كل غارة ودفع كل اعتداء ، وبهذا العمل استطاع أن يأمن غدر الفرنج (١٥٩) .

هذا وقد جرت العادة أن يتوافد شباب القبائل المختلفة على مدينة القدس ومعهم أسلحتهم ، ويستمر الجميع فى مقام النبى موسى أسبوعا كاملا ، يكون الفرنج قد فرغوا من زيارتهم ، وعقب صلاة الجمعة يزفون أعلامهم فى المنطقة التى بين القدس وأريحا ، وعلى طول الطريق الذي تهبط فيه جموع الفرنج متوجهة إلى المغطس فى نهر الشريعة أو الأردن ، وبعد عودة الفرنج وفراغهم من زيارتهم للمدينة ، يعود المسلمون وقد انتهت تلك المواسم ، ويأخذ كل منهم فى العودة إلى بلده .(١٦٠) .

ولقد استمرت تلك المواسم فى عصر سلاطين المماليك ، فعندما تولى السلطان الملك الظاهر بيبرس ، استحسن رأى السلطان صلاح الدين فى هذا العمل ، فبنى مسجدا فوق قبر موسى عليه السلام ، وأكد ذلك الموسم ودعمه ، وكذلك فعل بقية السلاطين الذين حكموا بعده .(١٦١) والحقيقة التى يجب أن نشير إليها ، أن المصادر والمراجع التى بين أيدينا لم تشر إلى تلك المواسم أو إلى ماكان يتم فيها بما يتيح لنا فرصة الحديث عنها بشىء من التفصيل أكثر من هذا .

كذلك تجب الإشارة إلى أنه لم تصادفنا أية إشارة عن بعض المواسم الأخرى ، والتى عرفت مثلا فى القاهرة ، مثل يوم عاشوراء والذى اعتبره فقهاء المماليك من المواسم الشرعية الرئيسية .(١٦٢) كذلك لم ترد أية أشارة إلى الاحتفال بالمولد النبوى وكيفية ذلك ، كذلك لم ترد لنا أية معلومات عن الاحتفال بعيدى الفطر والأضحى ، مما يرجح أن الاحتفال بهما لم يكن يختلف عن أية مدينة أخرى إسلامية فى ذلك الوقت .

أما عن ليالى الوقود ، فهناك على رأس تلك الليالى تأتى ليلة الإسراء والمعراج ، والتى كانت عادة ماتتم فى السابع والعشرين من رجب من كل عام ، حيث كان يقام فى بيت المقدس احتفال عظيم

مهيب بقبة الصخرة ، التى تصبح وكأنها قبة من النور والضوء لكثرة ماكان يوقد فيها من القناديل(١٦٣) ولعل بعض المسلمين قد حرصوا على إحياء تلك الذكرى بالصيام وبزيادة الاجتماع فى المسجد الأقصى للذكر والقراءة ، ويذكر لنا مجير الدين فى تلك الذكرى كانت تتلى بعض القراءات الخاصة بالمعراج وكذلك سورة الإسراء ، وكان لها قراء معينون يقومون بتلك القراءات (١٦٤) كما كانت ليلة النصف من شعبان إحدى تلك الليالى المشهودة والتى توقد فيها القناديل بشكل يفوق كثيرا من مساجد بعض المدن مجتمعة ، ويبدو أن نائب لمدينة كان يحضر ذلك الاحتفال ، حيث يتصدر مجلس العلماء والفقهاء فى محراب المسجد الأقصى ، وكانت المدينة كلها تلبس حلة العيد القشيبة وتقام فيها الاحتفالات والزينة بتلك الليلة ، هذا فضلا عن تمركز الاحتفالات فى الحرم الشريف .(١٦٥)والتى غالبا مايتم فيها قراءة آيات من القرآن الكريم ، ثم صحيح البخارى ، ثم يقوم المداح بعد ذلك بالمدح وتكون ليلة مشهودة .(١٦٦) .

أما فيما يختص بشهر رمضان وإحياء لياليه ، فقد سبقت الإشارة فى الحديث عن المسجد الأقصى ، بأن طوال شهر رمضان كانت تقام صلاة التراويح بالمسجد الأقصى وبمغارة الصخرة وعند أبواب الحرم ، وكان أكثر سكان القدس يحضرون هذه الصلاة كامل شهر رمضان ، حتى أن عددا من الأئمة ، بداخل الأقصى والصخرة وعند أبواب الحرم ، كانوا لايقومون بوظيفتهم إلا فى صلاة التراويح طوال شهر رمضان فقط(١٦٧) وهذا يؤكد لنا أن المسلمين كانوا يحتفلون فى بيت المقدس بهذا الشهر احتفالا كبيرا ، يتفق ومكانة هذا الشهر الدينية لديهم . والحقيقة أن المصادر والمراجع التى بين أيدينا لم تشر إلى كيفية الاحتفال برؤية هلال رمضان ، وهل اختلف الاحتفال بتلك الرؤية فى بيت لمقدس عن غيرها من المدن ، مثال ذلك ماكان يحدث فى القاهرة حيث يذهب فقهاء المدينة إلى مكان مرتفع خارج المدينة – وهو مرتقب الهلال عندهم – ثم ينزل القاضى ومن معه يرتقبون الهلال ، ثم يعودون بعد صلاة المغرب وبين أيديهم الشموع والمشاعل والفوانيس ، فيكون ذلك دليلا على ثبوت رؤية الهلال ، ثم يقوم التجار ويوقدون الشموع بحوانيتهم (١٦٨) وبذلك يتحول الليل إلى نهار ، ولعل بعض الأهالى كانوا يحتفلون بليالى رمضان إما بإحياء لياليه بتلاوة آيات من القرآن الكريم ، أو ببعض وسائل السرور مثل دق الطبول والغناء وإلى غير ذلك من الوسائل .

كذلك تجب الإشارة إلى أنه لم تصادفنا أية إشارة عن طريق التسحير فى بيت المقدس طوال شهر رمضان ، وهل كانت مثل بعض المدن كالقاهرة والأسكندرية مثلا حيث كان يطوف أصحاب الأرباع وغيرهم بالطبلة على البيوت وهم يضربون عليها ، أو يدقون على الأبواب وينادون على أصحاب البيوت ، وربما كانت القناديل لايتم اطفاؤها إلا قبيل طلوع الفجر ، إيذانا بآخر فرصة للتسحير .(١٦٩) .

كذلك لعله من المرجح أن شهر رمضان كان فرصة طيبة للإكثار من الصدقات وإطعام الفقراء ، ومن مظاهر التوسعة فى ذلك الشهر الكريم ، ماسبق وأشرنا إليه فى الحديث عن الحياة العلمية من صرف رواتب إضافية لأرباب الوظائف وطلبة العلم والأيتام ، فضلا عن أن التوسعة ربما قد شملت

صرف كميات إضافية من السكر ، نظرا لأن كمية المستهلك منه تتزايد فى هذا الشهر بسبب الإكثار من عمل الحلوى ، وربما شملت التوسعة أيضا توزيع بعض أنواع من الأطعمة المعدة بالإضافة لبعض المبالغ والتى ربما كان يشترى بها كثير من الحلوى لتوزيعها على أرباب الوظائف والصوفية والأيتام والفقراء المجاورين لبعض المؤسسات الدينية والعلمية حسبما يفهم ذلك من الوثائق التى سبقت الإشارة إليها ، ومن كثير من الوثائق التى تميز بها عصر سلاطين المماليك فى المدن المختلفة التى خضعت لحكمهم .(١٧٠) .

أما عن الاحتفالات والأعياد الدينية المسيحية ، فإنه تجب الإشارة إلى أن هذه الأعياد تعددت فى بيت المقدس لتعدد الطوائف المسيحية ، فمنها ماهو خاص بالقديسين ، ومنها أعياد يمكن أن نسميها أعيادا قومية يشترك فيها غالبية أبناء الطوائف المسيحية ، ونظرا لطبيعة البحث نفسه فإننا سنقتصر على ذكر أهم الأعياد معتمدين على التقسيم الذى أورده القلقشندى لهذه الأعياد على النحو التالى(١٧١) .

أولاً : الأعياد الكبار :

١ – **عيد البشارة** : ويقصد به بشارة جبريل عليه السلام للسيدة مريم بميلاد المسيح(١٧٢) وهو عادة مايقع فى الخامس والعشرين من شهر مارس(١٧٣) هذا بينما يرى بعض المؤرخين أنه يأتى فى شهر أبريل(١٧٤) ولكن الأصح هو شهر مارس ، لأن المدة من ٢٥ مارس إلى ٢٥ديسمبر وهو ميلاد المسيح عليه السلام تسعة أشهر .

٢ – **عيد الشعانين** : ويطلق عليه أيضا الزيتونة ، أو أحد السعف أو أحد الشعانين(١٧٥) وكلمة الشعانين مأخوذة من السريانية (سعانين) ويقصد بها سعف النخيل(١٧٦) – ويقصد بهذا العيد التسبيح ، لأن اليوم الذى أتى فيه السيد المسيح إلى القدس راكبا (اليعفور) ، وهو (الحمار) ، فاستقبله الناس وهم يسبحون بين يديه ، والصبيان بأيديهم ورق الزيتون .(١٧٧) وقد جرت العادة عند المسيحيين أن تزين الكنائس فى هذا اليوم بأغصان الزيتون وقلوب النخيل ، ويفرق منها على الناس على سبيل التبرك .(١٧٨) كما كان المسيحيون فى بيت المقدس فى هذا العيد يحملون إلى كنيسة القيامة شجرة من أشجار الزيتون ، ويشقون بها شوارع المدينة بالقراءة والصلوات ، حاملين الصليب ومرتدين الملابس البيضاء(١٧٩) وعادة مايأتى هذا العيد فى الثانى والأربعين من الصوم ، أى فى سابع أحد لصومهم(١٨٠) .

وقد جرت العادة أن يلتقى جميع المسيحيين المختلفين فى داخل كنيسة القيامة ، وتتجمع كل طائفة منهم فى مكان معين حيث يقوم كاهن كل طائفة بترتيل القداس باللغة التى يتخاطب بها أفراد تلك الطائفة ، ويروى لنا فرانيكولو الذى زار القدس عام ١٣٤٦ م أنه شاهد بنفسه من الطوائف التى كانت تشارك الاحتفال بهذا العيد كل من الروم الأرثوذكس ، والأرمن واليعاقبة ، والهنود والأحباش ، والنوبيين ، واللاتين والكرج والنساطرة . (١٨١) .

٣ – **عيد الفصح** :يقول عنه القلقشندى وهو العيد الكبير عندهم ، يعملونه يوم الفطر من صومهم الكبير ، ويزعمون أن المسيح عليه السلام ، قام فيه بعد الصّلبوت بثلاثة أيام ، وأقام فى الأرض أربعين يوما آخرها يوم الخميس ، ثم صعد إلى السماء ..»(١٨٢) كما يطلق عليه أيضا عيد القيامة .(١٨٣) وكان هذا العيد فى الرابع عشر من شهر أبريل (نيسان) حتى قرب نهاية القرن الثانى الميلادى ، ولكن فى مجمع نيقية المسكونى سنة ٣٢٥م تقرر أن يكون عيد القيامة وعيد الفصح ، فى يوم الأحد التالى لليوم الرابع عشر من هلال إبريل نيسان الذى يقع فى وقت الأعتدال الربيعى ، وظل المسيحيون فى انحاء العالم يعيدون معا فى هذا اليوم حتى عام ١٨٥٢ ، حيث حدث الاختلاف نتيجة لاختلاف خطوط الطول بين الشرق والغرب ، لذا تختلف رؤية هلال كل شهر مما أوجد تفاوتا فى حساب الأيام والشهور(١٨٤)) .

ويروى لنا فرانيكولو أنه فى ذلك اليوم ، فقد كانت جموع المسيحيين بالقدس والزوار يذهبون إلى كنيسة القيامة ، حيث يكون رهبان كل طائفة من الطوائف قد تجمعوا عند المذبح الخاص بهم ، وهناك ينضم الزوار إلى رهبانهم ويقوم راهب كل طائفة بترتيل القداس بلغة تلك الطائفة ، ثم يقرأ الإنجيل ويرتلون « المسيح قام من بين الأموات » ثم تقرع الأجراس بعد منتصف الليل ، وتبقى الاحتفالات قائمة إلى ساعة متأخرة من الليل . (١٨٥) وتشير بعض المراجع إلى أنه كان يعمل فيه الكعك بالحليب ، ويسلق البيض ويلون بالألوان المختلفة ، ويهادى الناس بعضهم بعضا بالكعك والبيض ، كما تقام بعض الألعاب المسلية .(١٨٦) كذلك كانت تتزين فيه النساء المسيحيات ، ويرتدى الرجال الملابس الفاخرة ، ويخرجون إلى أماكن النزهة ، ويشارك كثير من المسلمين إخوانهم المسيحيين هذا العيد والاحتفال به .(١٨٧) .

كذلك تشير بعض المراجع إلى أن عيد الفصح أو القيامة هذا كان يعتبر موسم بيت المقدس ، ويعلل ذلك بأن كل الأماكن التى كان ينزل بها الحجاج المسيحيون غالبا ماتكون عامرة بالكامل ، لدرجة أن بعض الرحالة لايجدون مكانا ينامون فيه ، وهؤلاء الذين يصحبون معهم خيامهم فهم أسعد حظا لأنهم يستطيعون إقامتها خارج الأسوار ، وربما يجدون متعة أكثر من هؤلاء الذين ينزلون داخل المدينة المزدحمة .(١٨٨) .

٤ – **عيد الميلاد** يقصد به الاحتفال بيوم عيد ميلاد المسيح عليه السلام ، ويقال أنه ولد يوم الأثنين ، ولذا فإنهم يجعلون عشية الأحد ليلة الميلاد ، فيوقدون المصابيح فى الكنائس ويزينونها .(١٨٩) ويوافق هذا اليوم الخامس والعشرين من شهر ديسمبر(١٩٠) ، كما جرت العادة أن يوقد الأهالى فى هذه الليلة وهى عشية الأحد القناديل فوق الأسطح احتفالا بهذا العيد .(١٩١) كذلك كانوا يوقدون فيه النيران ، ويظهرون فيه الأفراح ، ويقيمون القداس فى سائر الكنائس إلى جانب مايعدون من أصناف المآكل والمشارب احتفالا بهذا اليوم (١٩٢) ويشترك فى هذه الاحتفالات عامة الناس وخواصهم ، وهم يوقدون النيران احتذاء بيوسف النجار عندما أشعل النيران للسيدة مريم ، وأطعمها بعض الجوز عقب ولادتها للمسيح عليه السلام .(١٩٣) وكانت بيت لحم فى يوم عيد الميلاد

المسيحى كعبة يحج إليها المسيحيون من أقطار العالم ، كما يحجون إلى كنيسة القيامة فى القداس فى عيد الفصح أو القيامة .(١٩٤) .

هذه كانت أهم الأعياد الدينية المسيحية أوردناها على سبيل المثال لا الحصر ، حيث يضيق بنا المقام عن ذكر كل الأعياد المسيحية نظرا لتنوعها وتعددها بتعدد الطوائف المختلفة ، وقصدنا بهذا إبراز بعض الأعياد التى كان يشارك فيها أغلبية المسيحيين فى ذلك العصر فى بيت المقدس .(١٩٥) .

وأخيرا تجب الإشارة إلى أن المصادر والمراجع التى بين أيدينا لم تعطنا فكرة ولو بسيطة عن بعض الأعياد والمناسبات الخاصة باليهود فى القدس ، ولعل السبب الرئيسى فى ذلك راجع أولا وقبل كل شيء إلى قلة هؤلاء اليهود بالنسبة لغيرهم من أبناء الديانات الأخرى ، وجدير بالذكر أنهم قد ظلوا كذلك طوال عصر سلاطين المماليك وكما سبق وأشرنا فى حديثنا عن سكان بيت المقدس .

ومن هذا العرض يتضح لنا أن مدينة بيت المقدس على عصر سلاطين المماليك كانت زاخرة بكثير من المواسم والأعياد الدينية المختلفة ، ولعلها كانت من المناسبات الهامة والتى تبادل فيها طوائف السكان التهانى ، فضلا عن مشاركتهم لإخوانهم فى العديد من تلك الاحتفالات نظرا لروح التسامح التى كانت سائدة فى المدينة فى ذلك الوقت .

الاحتفالات العائلية

تعتبر الاحتفالات والأفراح العائلية من الصفات البارزة ، التى اتصفت بها الحياة الإجتماعية فى بيت المقدس فى عصر سلاطين المماليك ، سواء لدى المسلمين أم أهل الذمة . وعلى الرغم من أنه لم تصلنا أية معلومات عن أهم الاحتفالات العائلية مثل الزواج والولادة وخاصة عند المسلمين ، بعكس ماأشارت إليه بعض المراجع عن المسيحيين إلا أننا نستطيع اعتمادا إلى ماهو معروف عن طبيعة ذلك العصر ، بالإضافة إلى تلك المراجع أن نقول أنه لم تكن هناك اختلافات جوهرية بين ماكان لدى أبناء الطوائف المختلفة إلا فيما كان يختص بإقامة بعض الطقوس الكنسية داخل الكنائس وبخاصة فيما يتعلق بمراسيم الزواج .

كذلك من المرجح أن تكون الخاطبة قد قامت فى ذلك العصر بدور كبير فى إتمام مهمة الخطوبة ، مثلما كان الحال فى كثير من المدن التى خضعت لسلطنة المماليك ، باعتبار أنها كان يتاح لها دخول البيوت والإطلاع على أسرار الحريم ، فتستطيع بذلك أن تأتى للعريس بالعروس التى تتفق مع رغباته ومطالبه (١٩٦) ويؤكد لنا الرحالة موشلام اليهودى الذى زار بيت المقدس عام ١٤٨١ بقوله « أنه كان للمسلم أن يتزوج بعدد كبير من النساء ، وكانوا يدفعون لزوجاتهم الصداق ، ولكنهم لايرونهن إلا بعد أن يدخلن بيوت الزوجية (١٩٧)وواضح من كلامه هذا المبالغة الشديدة حيث من المعروف أن الشرع الإسلامى لا يبيح للرجل أكثر من أربع زوجات .

ومن المرجح أيضا أن الفتاة لم يكن لها رأى لدى المسلمين فى اختيار شريك حياتها ، بل ظل الرأى

الأول والأخير لوالدها ، وربما شاركته فى ذلك أمها (١٩٨) وعندما تنتهى المرحلة الأولى وهى الخطوبة ، تأتى المرحلة الثانية وهى عقد القران ، ولسنا ندرى هل كان يتم عقد القران داخل المنازل ، أم أن بعض الناس كانوا يفضلون عقدها فى المساجد مثلما كان يحدث فى القاهرة مثلا ، حيث يجتمعون فى المساجد ومعهم المباخر المفضضة التى يحرقون فيها البخور ، وبعد الانتهاء من كتابة العقد ينصرفون فى حفل كبير (١٩٩) . ثم تأتى المرحلة الثالثة بعد عقد القرآن ، وهى إعداد الشوار ونقلة الى منزل العريس ، وربما جرت العادة بأن ينقل هذا الجهاز أو الشوار فى حفل يشترك فيه الأقارب والمعارف ، وربما يشارك فيه بعض الأمراء والمماليك بحسب مكانة العريس ، أو والد العروس ، أما عن هذا الجهاز فيقول ابن بطوطة « ومن عوائدهم فى تلك البلاد أن البنت يجهزها أبوها ويكون معظم الجهاز أوانى النحاس ، وبه يتفاخرون وبه ريتباهون (٢٠٠) .

أما عن ليلة الزفاف فمن المرجح أنه كانت تقام فيها وليمة كبيرة للأهل والأصدقاء وعقب الوليمة ربما كان يتوجه العريس إلى بيت العروس فى موكب كبير يحف به الأهل والأصدقاء متجهين إلى منزل العروس (٢٠١) حيث يتم إحياء العرس الذى قد تحييه عدة جوق من المغانى ، فيختلط فيه الغناء بضرب الدفوف وزغاريد النساء ، وقد تقام هذه الليلة فى منزل الزوجية أو فى منزل العريس ، حيث يقوم المدعوون بتقديم بعض الهدايا إلى أصحاب العرس .(٢٠٢) .

هذا عن الزواج لدى المسلمين ، أما عن الزواج لدى اليهود فلم ترد أية إشارة فى المصادر والمراجع التى بين أيدينا عن أفراحهم ، وربما السبب فى ذلك أنهم لم يختلفوا عن غيرهم ، وربما لقلة أعدادهم فى ذلك العصر .

أما عن المسيحيين المحليين فى بيت المقدس ، فقد جرت العادة أن يجرى الزواج على النحو الذى كان معروفا فى الشرق ، فتبدأ الخطوة الأولى بالخطوبة أى اختيار العروس بواسطة والدى العريس الراغب فى الزواج أو بعض أقاربه أو بعض الوسطاء ، فإذا تم ذلك فإنهم كانوا يصفونها له .(٢٠٣) كذلك لعبت الخاطبة دورا هاما فى اختيار العروس .(٢٠٤) وبعد ذلك غالبا مايتصل أهل العريس بأهل العروس ، وكانت أم العريس هى التى تقوم بهذا الدور ومعها بعض صديقاتها أو قريباتها ، أو يقوم أحد القساوسة مع من ينوب عن العريس بالتوجه إلى منزل العروس ويتفق الطرفان على الخطوبة بعد أن يسأل القسيس المخطوبة عن رأيها فى قبول هذا العريس زوجا لها ، وعندما توافق يقدم لها قطعة من الحلوى مرسلة من العريس .(٢٠٥)) بعد أن يكون القسيس قد تأكد من درجة القرابة إذا وجدت بين الطرفين ، لأن لكل طائفة درجات للقرابة يمنع الزواج بين أفرادها .(٢٠٦) وبعد ذلك تتم الخطوبة ، حيث يقدم العريس هدية لمخطوبته ، وعادةماكان يلبس كل من العريس والعروس الخواتم الذهبية ، بعد أن يعلن القسيس صيغة الخطوبة ثلاث مرات ، على كل من العريس والعروس بحيث يلمس جبهة كل منهما بتلك الخواتم على شكل صليب .(٢٠٧) ، ثم يدفع العريس جزءا من المهر المتفق عليه أو المهر كله وطبيعى أن يختلف المهر تبعا لجمال العروس ، وعمرها ومكانتها ، فإذا كانت صغيرة وجميلة فإن مهرها يكون كبيراً ، وكلما كبرت وقل جمالها قل مهرها .(٢٠٨) وعادة ماتطول

فترة الخطوبة بقصد اختبار كل طرف الآخر والتعرف عليه ، كذلك حرصت كثير من الأسر على حفظ الزواج بين أفرادها ، أو بينها وبين أسر من طبقتها ومكانتها .(٢٠٩) وبعد الخطوبة بيوم أو أكثر تذهب قريبات الخطيب لزيارة الخطيبة فيقدمن لها بعض الهدايا ، قد تكون على شكل مبالغ نقدية أو حلى من الذهب ، وتسمى هذه الزيارة « الشوفة » ،(٢١٠) كما يقدم الخطيب لمخطوبته بعض الهدايا فى بعض المواسم والأعياد بحسب مقدرته .(٢١١) .

وبعد ذلك يأتى حفل الإكليل فيذهب أهل العريس إلى بيت العروس ، للتشاور والاتفاق على الموعد المحدد وإعداد الترتيبات اللازمة ، ومتى تقرر الأمر تبدأ الدعوات من الطرفين ، وتذهب العروس مع بعض صديقاتها إلى الحمام ومعهن الصابون والطيب والعطور وتقوم الماشطة بإعداد العروس وإظهار جمالها ، كذلك يذهب العريس مع بعض أصدقائه من الشبان إلى الحمام لنفس الأمر .(٢١٢) بعد ذلك يقوم أهل العريس من النساء بزيارة العروس حاملين لها ثيابها بالمشاعل والأغانى ، ومعهن الحناء ، فيحنين العروس ثم يذهبن بها يوم السبت إلى الحمام ، ويقمن بغسلها وتزيينها ، وفى ليلة الأحد تذبح الذبائح وتعد الولائم لليوم التالى وهو يوم الزفاف وعادة مايكون يوم أحد .(٢١٣) .

وفى يوم الأحد هذا يرتدى الجميع الملابس الفاخرة ، ويذهب جمع من الرجال والنساء من أهل العريس لإحضار العروس ، وكثيرا ماكان يقدم العريس إلى أم العروس هدية تسمى خلعة الأم وهى فى الغالب عبارة عن عباءة(٢١٤) ، كذلك يضع المدعوون على العروس خمارها وإزارها ، وتكون جميع ملابسها بيضاء ، وتنتقل العروس بموكبها إلى الكنيسة لتكليلها من يد القساوسة على عريسها ، وقد يتم ذلك فى بيت العريس أو العروس أيضا ، حيث يمسك كل من العروسين الشموع الموقدة ويقرأ القسيس بعض التراتيل الخاصة بالزواج ، وكذلك يردد المنشدون بعضا منها ، ثم يوجه القسيس بعض الأسئلة للعروس وأهلها ليتأكد من أنها ليست مخطوبة لأحد ، ويعقب ذلك ترديد بعض الصلوات ، ثم يقوم القسيس بتتويج العروسين ، وبعد أن تنتهى التراتيل الخاصة ، يأخذ كأسا من النبيذ ويباركها ثم يطلب منهما أن يرتشف كل منهما ثلاث رشفات ، ثم يدور بهما وسط المدعوين مع ترديد بعض الأناشيد الدينية ، ثم يباركهما ، ويدعو لهما بالسعادة والتوفيق(٢١٥) . (ومتى تم ذلك خرجوا بهما من الكنيسة إلى البلدة والناس ترشقهم بالزهر والحلوى، وماء الورد(٢١٦) ، ويتوجه الموكب إلى منزل العريس ، حيث تستقبل أم العريس العروس بالبخور والزغاريد ، وتكثر عبارات التهانى ، مع عزف الموسيقى والرقص ، ويظل الجميع فى مرح إلى الهزيع الأول من الليل ، حيث تقدم الأطعمة للمدعوين ، ثم يعودون للسماع والطرب (٢١٧)ويظلون هكذا إلى منتصف الليل حيث يذهب العريس بعروسه إلى حجرة معدة لهما ، وينصرف المدعوون ولا يبقى منهم إلا من هم أشد قربا لهما ، وفى صباح ليلة العرس يقدم العريس هدية لعروسه (٢١٨)كذلك يتناول الحاضرون طعام الإفطار ، ويتحلق الحاضرون حول العروسين ويقومون بالرقص والغناء ، إلا أنه لم يكن يسمح للرجال بالرقص مع النساء ثم ينصرفون .(٢١٩) .

ومن الاحتفالات العائلية التى كان لها أهمية كبرى فى بيت المقدس فى عصر سلاطين المماليك ، الولادة حيث جرت العادة أن تختار كل إمرأة قابلة معينة كان يطلق عليها أيضا اسم « الداية »(٢٢٠) ويبدو أنه جرت العادة أيضا أن يتم الاتفاق مع تلك القابلة على أجر معلوم قبل الوضع ، وحتى لايحدث نزاع حول تحديد أجرها بعد الوضع ، وهذه القابلة لها كرسى مخصوص تصحبه معها عند اللزوم (٢٢١) فإذا وضعت الأم مولودها أقبلت عليها النساء يزغردن ويرفعن أصواتهن بذلك مع ضرب الدفوف والرقص واللهو واللعب ، أما عند المسيحيين فإذا كان المولود ذكرا قالت القابلة للأم « محبة بالمسيح » ، وإذا كانت أنثى قالت « محبة بالعذراء » ، كذلك كانوا يحضرون أحد رجال الدين من القساوسة يوم الولادة ليصلى على باب المنزل تبركا ، ويعلق للطفل التمائم والتعاويز ، كما يضعون له خرزة زرقاء للوقاية من الحسد ، ويقومون بوضع الكحل للطفل من يوم ولادته ، كما يلفونه بقماط لكى يقى جسمه من البرد أو الاهتزاز .(٢٢٢) .

كذلك يبدو أنه جرت العادة أن تقوم القابلة فى الأيام الثلاثة الأولى بتمليح الطفل ، إما بغسله بماء الملح ، أو وضع الملح الناعم على جسده ، وبالنسبة للطوائف المسيحية يأتى أحد رجال الدين فى اليوم الثالث من الولادة ويسمى الطفل باسم أحد أفراد العائلة ، إلا ماندر ، وهو فى الغالب اسم نبى أو قديس من القديسين المفضلين لدى أفراد الطائفة ، كذلك تقوم القابلة فى الأيام الثلاثة التالية بدهنه بالزيت ، وفى اليوم السابع تقوم بغسله بماء معطر وتسقيه منه ، وتدهن رأسه وأنفه ومفاصل جسده بالزيت المعطر ، ثم يعاد لفه فى القماط الذى لف به منذ ولادته ويستمر ملفوفا هكذا مدة أربعين يوما ، ثم يسمح له بارتداء الملابس العادية .(٢٢٣) .

كذلك من المرجح أن كثيرا من الناس قد أعتادوا الاحتفال بيوم السبوع احتفالا كبيرا ، حيث تلبس أم المولود الثياب الجديدة الجميلة ، وتطوف أنحاء الدار فى موكب كبير ، تحيط به الشموع من كل جانب ، والقابلة أمامها تحمل المولود ، وأمام القابلة أمرأة أخرى معها طبق به شىء من الملح تنشره فى البيت يمينا وشمالا ، هذا بالإضاغة إلى إحراق نوع من البخور المخصص لهذا الاحتفال ، كما يرجح عمل ألوان معينة من الطعام وتفريقها على الأهل والجيران والمعارف .(٢٢٤) .

كما تجب الإشارة إلى أن ولادة طفل كانت من أهم الأحداث فى القرى المحيطة بمدينة بيت القدس ، فعندما يحين موعد الولادة فإن الأب يترك منزله إلى الحدائق ، أو إلى الحقل تاركا أحد الأقارب فى منزله لكى يحمل إليه النبأ السار بالولادة ، فإن كان المولود صبيا ، فإنه يجرى خلال التلال وعلى وجهه علامات البشر والسرور ملوحا بيديه ، وصارخا بأعلى صوته مباركا ومبشرا الأب بولده . وسرعان ماتزول رهبة الأب ، ويسرع إلى منزله لكى يسمى ابنه ، ويقيم الأب وليمة لأصدقائه الذين يحضرون ومعهم بعض الهدايا ، وكل بحسب مقدرته يقدم بعضا من المال للمولود . أما إذا كان المولود أنثى فإن الرسول الذى ينتظره الأب يمشى بطريقة تدل على الحزن ، وعندئذ يدرك الأب أن كارثة قد حلت بمنزله .(٢٢٥) .

هذا ومن المرجح أيضا أن يحتفل المسلمون بختان الطفل احتفالا كبيرا وعظيما ، كذلك من

المرجح استمرار المبالغة فى إحياء هذا النوع منن الحفلات حتى العصور الحديثة وقد جرت العادة على أن يقوم بعملية الختان فى عصر المماليك « المزين » ، وعندئذ يقيم أهل الطفل حفلا كبيرا يدعون إليه سائر الأهل والأصدقاء ، ولابد للمدعوين فى هذه المناسبة تقديم النقوط لأهل الطفل .(٢٢٦) .

أما عند المسيحيين فقد جرت العادة بعد انقضاء أربعين يوما أن تذهب الأم بطفلها للكنيسة ، ليصلى أحد رجال الدين على رأسه . (٢٢٧) . وفى أول الربيع وعند ظهور الأزهار فإنهم يسقونه الزهورات وهى عصارة بعض الأزهار وخصوصا الرمان ، ويطعمونه من أول فاكهة وخصوصا الخيار ، ولو قطرة من عصير أو أن يدهن بها أنفه (٢٢٨) كذلك جرت العادة لديهم بضرورة العماد أو المعمودية ، فكما يحتفل المسلمون بالختان ، فعندهم لابد من تنصير أولادهم ، وذلك أنهم يغمسون المولود فى ماء معطر بالرياحين وألوان الطيب ويقرأون عليه من كتابهم ، ويزعمون أنه حينئذ ينزل عليه روح القدس ، ويسمون هذا العمل بالمعمودية (٢٢٩)وربما كان العماد فى البيت أو فى الكنيسة ، لأنه محرم فى المنازل الخاصة ، بينما عند الروم الأرثوذكس كان يسمح به فى المنازل (٢٣٠) ، كذلك فإن الموارنة كان يعمدون أطفالهم رشا ، بينما الأرثوذكس والكاثوليك يعمدون أطفالهم تغطيسا(٢٣١) ، ولايجوز اجتماع الأبوين عند التغطيس ، بل يخرج أحدهما ، وقد يولمون الولائم ويهادون الطفل وينقطون بهذه المناسبة السعيدة لديهم . (٢٣٢) .

حياة المرأة ومكانتها فى المجتمع

لعبت المرأة فى بيت المقدس على عصر سلاطين المماليك دورا بارزا فى حياة المجتمع ، سواء فى المدينة نفسها أم القرى المتاخمة لها ، كما تمتعت بقسط وافر من التقدير والاحترام من جانب الرجل فى ذلك العصر ، وليس أدل على تلك المكانة السامية مما يرويه لنا الأب سوريانو الذى عاش فى القدس فى أواخر القرن الخامس عشر الميلادى حيث يقول « يجب أن تعلم أن المرأة تلقى كثيرا من التقدير والاحترام من الرجل ، وعلى الرجل أن يقدم لها يوميا كثيرا من الأموال نظير تكاليف الحياة .. ومن هنا يتضح لنا أن المرأة كانت هي ربة الأسرة والتى تتولى توجيه الأموال لشراء مايلزم منزلها وأولادها ، ثم نراه يقول « ...وكذلك كان على الرجل أن يمنحها الكثير من النقود سنويا لشراء مايلزمها من ملابس وأحذية وكذلك الحال عندما تلد طفلا جديدا ... (٢٣٣) .

كذلك نراه يؤكد مدى ماتمتعت به من احترام واضح وتقدير ، حيث يقول فى حديثه عن نساء القدس إن الاحترام الواضح كان لكل النساء سواء المسيحيات أم اليهوديات أم المسلمات ، بحيث كن يتنقلن من مكان لآخر دون حارس ، ودون أن يتعرض لهن أحد بكلمة سوء ، سواء أكان صغيرا أم كبيراً ... وهذا يعكس لنا مدى احترام وتقدير المجتمع لها فى بيت المقدس فى ذلك العصر . كذلك من المرجح أنه جرت العادة إذا التقت واحدة منهن فى الطريق برجل لاتعرفه ، فإنها تميل عنه ببصرها ، ويصف لنا أحد الرحالة الذين زاروا مدينة القدس فى ذلك العصر وهو لود وفيكو فى سنة ١٥٠٣م ، بأن الواحدة منهن كانت تضع خمارا على وجهها بحيث لايمكن التعرف عليها ، وهذا

الخمار هو عبارة برقع أسود شفاف يسمح لها بأن ترى الناس ولايرى وجهها ، كما أنها كانت ترتدى الملابس الحريرية وفوقها عباءة من الصوف الرقيق اللامع والذى يشبه الحرير كذلك كانت تنتعل حذاء يبلغ منتصف الساق أبيض اللون أو أحمر وكثيرا من المجوهرات حول رأسها ، وفى أذنيها وفى يديها ، كذلك نراه يقول « وعلى الرغم مما يقال أن المسلمين عند الواحد منهم مابين خمس أو ست زوجات ، فلم أر مطلقا واحدا لديه أكثر من زوجتين أو ثلاث على الأكثر(٢٣٤) .

ويؤكد لنا الرحالة كازولا أيضا ذلك الاحتشام وأن المرأة المقدسية لم تحاول إبراز جمالها ومفاتنها بحيث تلفت الأنظار إليها ، بقوله ... وفى بيت المقدس لم أستطع أن أرى امرأة جميلة لأنهن يمشين ووجوهن مغطاه بحجاب سميك ، ويرتدين فوق رؤوسهن شيئا يشبه الصندوق ، يقصد بذلك القبعة التى كن يقمن بصنعها يدويا التى تغطى الرأس ، ويتدلى منها عصابتان من القماش الأبيض الطويل والتى تتدليان لأسفل .. (٢٣٥)إلا أنه من المرجح أن المرأة المقدسية لم تهمل العناية بنفسها وجسدها وإبراز محاسنها ، نظرا لما عرف فى ذلك العصر من أنواع الزينة المختلفة ، من طلاء الأظافر والوشم الذى أعتادت كثير من النساء أن يزين به أجزاء مختلفة من أبدانهن . (٢٣٦) وهذه الظاهرة واضحة لدى المرأة المسيحية بصفة خاصة ، حيث كانت تخرج إلى الكنيسة فى أبهى زينتها ، ولعل هذا مادفع كثيرا من رجال الدين المسيحيين إلى محاربة ذلك عن طريق عقد المجامع الدينية الخاصة لإثارة هذه المشكلة . (٢٣٧) .

على أنه من المبالغة أن نصور المجتمع فى بيت المقدس فى عصر سلاطين المماليك ، وقد قدر المرأة على طول الخط وأحلها المكانة اللائقة بها فى المجتمع ، على أساس أنها شريكة الرجل وساعده الأيمن ، فإذا رأينا بعض الإشارات تدل على تقدير المعاصرين للمرأة ، فإن هناك بعض الإشارات والمراجع أيضا يفهم منها أن المرأة ظلت محل الازدراء والاستخفاف ، فقد سبقت الإشارة إلى مكان يخيم على المنزل عندما يعلم الرجل بأن زوجته قد رزقت بطفلة ، فلايعطيها أحد الاهتمام حتى تكبر وتوشك على الزواج ، فمنذ الطفولة تبدو البنات وكأنهن سيدات صغيرات ، فملابسهن تشبه تماما ملابس أمهاتهن ولكنهن يختلفن من حيث الحجم ، كما تقع عليهن كل أعباء الحياة العائلية ، فبمجرد أن تصبح البنت قادرة على المشى والجرى فعليها أن تتعلم إحضار الماء من البئر ، وأن تخبز الخبز إلى جانب القيام بكل أعباء المنزل(٢٣٨) .

هذا فضلا عن أن نظرة الرجل لها كانت على أساس أنها خاضعة له ومعاونة له فى عمله ، فيتقدم عليها فى المجالس ، وكثيرا مايأكل الرجل وامرأته تخدمه بتقديم الطعام له ثم تأكل بعده ، إلى جانب الأعباء الكثيرة التى تلقى على عاتقها داخل المنزل (٢٣٩) .

أما فى القرية فيبدو أن المرأة كانت أكثر تحررا ، حيث كانت تسير غير محجبة ، وكان يسمح لها بأن ترى خطيبها – وخصوصا لدى الطوائف المسيحية – ولكن ليس على انفراد ، إلا أن دورها فى الحياة ومسئولياتها كانت أكثر بكثير منها فى القدس نفسها ، ومع هذا فقد كانت منزلتها أقل من الرجل ، فعندما يسير كانت تسير وراءه ، كما سمح لها بأن تكون لها ملكيتها الخاصة بها والتى تكونها

بمجهودها الشخصي (٢٤٠) وكان من أول واجبات المرأة التى تقوم بها فى الصباح أن تأخذ كمية من الحبوب التى لديها ، وتنادى على إحدى جاراتها وتطلب منها مساعدتها لطحن تلك الحبوب بالرحاة وطحن الغلال دائما هو عمل المرأة وليس من عمل الرجل ، ثم تقوم بعجن الطحين وخبزه ، وبينما تنشغل الأم فى الخبز فى الفرن فإن البنات يرسلن إلى البئر لجلب الماء اللازم للشرب ، كذلك كان عليها أن تحمل كثيرا من الخضراوات لبيعها فى سوق بيت المقدس ، كما كان عليها أن تقطف بعض الفاكهة وتقوم ببيعها لمن يمرون على القرية وبخاصة من الحجاج المسيحيين وغيرهم ، كما كانت تحمل الحطب لبيعه فى المدينة (٢٤١) هذا بالإضافة إلى قيام المرأة بكثير من الأعباء التى تتطلبها المناسبات المختلفة من أفراح وولادة حيث تقوم بواجب المشاركة فى تلك المناسبات ، كذلك فى حالة الوفاة ، حيث تخرج النساء كل خميس عقب الوفاة وحتى الأربعين لزيارة القبور حسب العادة ، وهذا الخميس كان يسمى الأموات حسبما يروى لنا النابلسى عند زيارته للمدينة (٢٤٢) . أما أوقات الفراغ لدى المرأة فيبدو أنها كانت قليلة جدا ، إلا أنها كانت تقضيها مع جاراتها أو فى الاحتفالات العائلية المختلفة من زواج وولادة ومعمودية إلى غير تلك الإحتفالات .

المنازل فى القدس

ومع هذا فيمكننا القول أن المرأة المقدسية وإن شاركت فى كثير من المجالات - المختلفة فى الحياة ، وكان لها دور بارز فى الحياة العائلية والعلمية والدينية فضلا عن الحياة اليومية ، إلا أنها كانت دائما الشريك المغبون بالنسبة للرجل فى ذلك العصر ، ولم تكن هذه الظاهرة تتميز بها بيت المقدس وحدها ، بل هى ظاهرة عامة فى بلدان المشرق عامة ، كذلك إذا وضعنا فى إعتبارنا ظاهرة إنتشار الجوارى فى ذلك العصر ، وشغف الناس باقتناء الجوارى الحسان ودفع الأموال الطائلة فى شرائهن ؛ وجدير بالذكر أننا لم نعثر فى المصادر والمراجع التى بين أيدنا عما يوضح تلك النقطة ، ولكن من المرجح أن نظرة الرجل لها فى تلك الآونة لم تتغير وخصوصا والمعروف عن سلاطين وأمراء المماليك أنهم أكثروا من شراء الجوارى ، كل حسب سعته ، فلا أقل من أن يجاريهم بعض ذوى اليسار فى بيت المقدس .

حظيت المنازل بعناية أفراد المجتمع فى بيت المقدس فى عصر سلاطين المماليك ، فلقد اهتموا اهتماما شديدا ببناء منازلهم لا لتكون مجرد مأوى لأصحابها ، بل لتوفر لهم سبل الراحة والرفاهية ، ومن الطبيعى أن تتفاوت تلك المنازل تفاوتا يتناسب مع مكانة أبناء المدينة من حيث وضعهم الاجتماعى وحالتهم الإقتصادية ، كذلك كان للطبيعة تأثيرها فى مبانى المدينة فيما يتعلق بمواد البناء ، حيث كانت المواد المستخدمة فى البناء هى حجارة الكلس ، وهى أحجار جذابة ذات لون وردى وشديدة الصلابة فى نفس الوقت ، بحيث أضفت على مبانى المدينة طابعا مميزا ، فضلا عن مقاومتها للرطوبة والأمطار ، بحيث لا يمكن أن يحدث لألوانها أى تغيير أو لأشكالها على طول الزمان(٢٤٣) وتشير كثير من المصادر المعاصرة الى تلك الحقيقة ، فالقزوينى يذكر نقلا عن المقدسى قوله « ولاترى أحسن من

بنيانها ولا أنظف .»(٢٤٤) ويقول عنها ابن فضل الله العمرى « ومدينة القدس مبنية بالحجر الكلس وغالب حجرها أسود ...(٢٤٥) كذلك يذكر مجير الدين قوله « وأما بناء بيت المقدس فهو فى غاية الإحكام والإتقان جميعه بالأحجار البيض النحت وسقفه معقود وليس فى بنائه لبن ولا فى سقفه خشب وقد ذكر المسافرون أنه لم يكن فى جميع المملكة أتقن عمارة ، ولا أحسن رؤيةمن بناء بيت المقدس وفى معناه بلد سيدنا الخليل عليه السلام ، لكن بناء القدس أمكن وأتقن ويقرب منه بناء مدينة نابلس فهذه المدن الثلاث بناؤها متقن لكونها فى الجبل والحجارة فيها كثيرة متيسرة » (٢٤٦) كذلك يصفها لنا الرحالة فابرى الذى زارها مرتين عام ١٤٨٠ ، ١٤٨١ م وكما سبقت الإشارة بذلك حيث يقول وبيوت القدس مبنية بالحجارة ... وقد رأيت فيها بيوتا جميلة وكبيرة (٢٤٧) .

أما عن نظام بناء هذه المنازل فيروى لنا أحد المؤرخين أن المنازل كانت منخفضة ومسطحة فى أعلاها كما هى العادة فى منازل الشرق بوجه عام ، لأنهم يغطون منازلهم بسقف مسطح لدرجة أنك يستطيع أن تمشى على أسطح تلك المنازل على طول امتدادها ، ويمكن للجيران أن يمشوا فوق أسطح هذه المنازل.أثناء قيامهم بزيارة أحد جيرانهم ، كما لم يكن لهذه المنازل أبواب كبيرة تطل على الشارع الرئيسى ، فيما عدا بعض بيوت قليلة ، ولهذا ففى الغالب كانت أبواب المنازل منخفضة ، وفى كثير من هذه المنازل فإن المدخل عادة ما يكون مظلما ، وعميقا لدرجة انك تعتقد أنك ستدخل أحد الكهوف ، وهذا المدخل ينتهى عادة بقاعة فسيحة حيث يوجد صهريج للمياه(٢٤٨) أما فى الداخل فكانت المنازل تحتوى على قاعات وممرات رائعة تطل على الحدائق التى زخرت بأشجار الفاكهة مثل العنب والبرتقال وغيره(٢٤٩) ، هذا الى جانب وجود عدد من الغرف لسكنى أهل المنزل ، كما كانت تخصص حجرة كبيرة لاستقبال الضيوف(٢٥٠) بينما كانت تتركز حياة أهل المنزل فيما يمكن أن نسميه حجرة المعيشة حاليا ، والتى عادة ما كانت تطل على القاعة الفسيحة أو الفناء (٢٥١) .

أما عن الجدران الداخلية لهذه المنازل ، فقد كانت مداخلها تزين بالمزايكو الذى يشكل جزء أساسيا فى الزينة الداخلية ، وغالبا ماكان يعرض تصميمات هندسية إلى جانب رسوم الزهور والحيوانات ، وفى المنازل الأكثر ثراء ، كانت أقواس السقوف تستقر على حواف منحوته ، أو على منظر عقود وأقواس .(٢٥٢) أما الجدران الداخلية فكانوا يتفننون فى إضفاء نوع من البذخ عليها حيث كانوا يلصقون عليها صفائح من الرخام ، ويموهون سقوفها بالذهب وبالنقوش الزاهية والتطاريز العربية المنظر الرائعة ، كذلك عادة ماتغلق هذه المنازل بأبواب خشبية ضخمة ، ولكل منها مزلاج من الخشب(٢٥٣) .

ومن المرجح أن يكون النمط الشائع فى بيت المقدس هو المنزل ذا الطابقين أو الثلاثة طوابق ، بيد أن المنازل ذات الطوابق الخمسة كانت معروفة أيضا وغالبا ماكانت أسقفها مرصعة بأشجار النخيل المزروعة فى أحواض أو بالأشجار دائمة الخضرة ، بحيث تصير مكاناً يستمتع فيه المرء بالنسمات الباردة بعد مغيب الشمس الحارقة ، وفى الداخل كانت الحوائط السمكية تحفظ الدفء فى الشتاء ، كما أنها فى الصيف تحفظ للحجرات برودتها حتى أثناء وقت الخماسين اللافحة . وقد استرعى انتباه

بعض الحجاج المسيحيين الغربيين ماجرت به عادة أهل القدس من استخدام أسطح المنازل المستوية ، فعندما تغرب الشمس كانوا يصعدون إليها حيث يستمتعون بالبرودة وهناك يقومون بأداء بعض أعمالهم ، ويأكلون ، ويعدون فراشهم وينامون كذلك كانوا يتسامرون مع أصدقائهم فوق تلك الأسطح ، كما أن الحاج Brasca وهو إيطالى الجنسية والذى زار القدس فى القرن الخامس عشر ، يروى أنه شاهد بعض النساء يرقصن على دقات الطبول وبعض الآلات الأخرى فوق الأسطح وقد شاهد ذلك وعرف أنه على الرغم من وجود الرجال فى الحفل إلا أنهم لايخالطون النساء فى الرقص ، مما يؤكد لنا أن هذه الأسطح كانت تستخدم في إقامة بعض الاحتفالات العائلية مثل الأفراح وغيرها (٢٥٦) .

كما تجب الإشارة إلى أن كل منزل من منازل بيت المقدس ، كان به صهريج لخزن المياه ، ففى كل منزل مهما كان حجمه صهريج أو أكثر ، حيث تتجمع فيه مياه الأمطار والصهريج عبارة عن حجرة صغيرة محفورة فى باطن الأرض ، ولها فتحة صغيرة من أعلى ومبطنة الجدران بالأحجار ومزودة بسافية ودلو ، وتظل مياهها نقية طوال الصيف ، وكثير من هذه الخزانات أو الصهاريج قديم ، مما يدفعنا إلى القول بأن هذه الطريقة كانت متبعة منذ أقدم العصور فى الحصول على الماء(٢٥٧) .

كذلك تجب الإشارة إلى أن تلك المنازل كانت مزودة بوسائل الصرف الصحى أو المجارى . ويروى لنا أحد الباحثين أن المجارى كانت معروفة فى القدس منذ العهد الرومانى ، وأنه ظهر من الحجارة المتنوعة التى استخدمت فى ترميمها واصلاحها شدة عناية سلاطين المماليك بها ، وأنها رممت عدة مرات فى ذلك العصر ، حتى يتيسر لسكان المدينة التخلص من الأقذار وتصريفها(٢٥٨) . كذلك يشير أحد الباحثين أن ماأنشأه الرومان قديما من نظام للمجارى مازال يسير على أحسن وجه حتى القرن العشرين ، مما ساعد على حفظ المدينة من كثير من الأمراض(٢٥٩) .

أما عن المنازل فى القرى التابعة لبيت المقدس والمتاخمة لها ، فقد كانت فى العادة تبنى على جانبى الطريق الرئيسى الذى يربط القرية بغيرها من القرى ، أو المدن وهذا الطريق كان بمثابة الشارع الرئيسى فيها ، وكانت كل المنازل متشابهه فى الطراز والحجم والشكل ، وإلى جوار تلك المنازل وجدت المعاصر لعصر العنب والزيتون ، والمطاحن التى تطحن الغلال لأهل القرية (٢٦٠)وغالبا ماكان المنزل فى القرية يستخدم للأسرة وحاجتها وبهائمها ، كما كنت بعض منازل القرية تبنى عادة من الحجارة لسهولة الحصول عليها ، إلى جانب رخصها بالنسبة للأخشاب ، بينما بنيت كثير من المنازل من خليط من الطين والقش وهذه المنازل كانت رخيصة التكاليف وعادة مايتكون المنزل من طابق واحد وله سطح مستو ، وغالبا ما كان يستخدم هذا السطح لتخزين الحطب أو مكان للنوم وخصوصا فى اليالى الصيف . (٢٦١) .

كما تجب الإشارة إلى أن منازل الفلاحين كانت تختلف عن منازل المدينة من حيث حجمها ، وكونها غير مريحة مثل منازل المدن ، إلا أنها تميزت بظاهرة رئيسية فى كل منها ، فهناك مصطبة تسمى بالإيوان مرتفعه عن سطح الأرض ، كانت توجد فى كل مسكن ، وهى عادة ماتستخدم

للعائلة بينما الحجرات السفلية من المنزل كانت تستخدم لتربية الدواجن وأحيانا الماعز والأغنام ، كذلك كان يوجد بداخل المنزل فناء متسع ، ومنتهى عند أحد أطرافه بالإيوان وعند الطرف الآخر بالباب المؤدى إلى الشارع ، وكان الإيوان يخصص أحيانا لاستقبال الزوار حيث تقدم لهم الأطعمة(٢٦٢) .

أما عن أرضية المنزل فكانت نادرا ماتبلط ، بل عادة كانت تدك حتى توفر البرودة فى الصيف ، وعادة ماكان يلحق بالمنزل مخزن للغلال ، كذلك تميز منزل رئيس أو شيخ القرية عن سائر المنازل الأخرى بكبر حجمه ، وكانت به قاعات معدة لاستقبال الزوار أو استضافتهم(٢٦٣) . كذلك عادة ماكان يلحق بأحد المنازل فرن ، وهذه الفرن لم تكن فى داخل ذلك المنزل ولكنها مبنى قائم بذاته ، وتعتبر الفرن مملوكة لعدة من عائلات أهل القرية والتى كان من واجبها جعلها دائما ساخنة ومعدة باستمرار للخبز ، وكانوا يستخدمون فى ايقادها الحطب والأعشاب والأوراق الأشجار ثم روث البهائم . (٢٦٤) .

وفى القرية كان يوجد مكان لإيواء الغرباء وأبناء السبيل والضيوف ، وهو مايسمى بالمضيفة حيث يقدم لهم الطعام والشراب . وفى بعض القرى كان يوجد أكثر من مضيفة لاستضافة الغرباء هذا بالإضافة إلى مضيفة رئيس القرية ، وفى بعض البلاد كبيت لحم فإن كل الأغنياء من رجالها لديهم حجرات مخصصة لاستقبال الضيوف ، ولعل هذا راجع لكونها إحدى الزارات الهامة والتى كان يتوافد على زيارتها أعداد كبيرة من المسلمين والمسيحيين من مختلف البلدان ، كذلك وجدت بعض الخانات حيث ينزل المسافرون بدوابهم ، وغالبا ماكانت تزدحم تلك الخانات بحيث لاتجد مكانا للنوم وبخاصة فى فترة قدوم الحجاج المسيحيين من الغرب وغيره من البلاد الأخرى (٣٦٥) .

كذلك يبدو أن المنزل فى القرية لم يكن به شىء من الأثاث إلا الحاجات الضرورية للنوم والأكل والشرب ، أما عن الأثاث داخل المنزل فقد كان بسيطا للغاية ، فمن أهم أنواعه الحصر أو السجاجيد أو الأكلمة ، والأغطية وكانت عادة خفيفة وسهلة الحمل وكانت تلف فى الصباح وتوضع بعيدا عن الحوائط بالإضافة إلى صوان أو صندوق خشبى تحفظ فيه الأغطية ، بينما الأدوات المنزلية كانت عادة من الفخار البدائى ، هذا إلى جانب وجود بعض الأجولة والسلال المصنوعة من الحبال ، بينما عند بعض الأسر وجدت بعض الأرائك وكانت تستخدم إما للنوم أو للجلوس عليها .(٢٦٦) .

وأخيرا تجب الإشارة إلى أن منازل القرية كانت مزودة بصهاريج للمياه لتخزين مياه الأمطار وبخاصة فى القرى البعيدة عن العيون والآبار ، حيث كان يتم تخزين المياه للشرب للناس ولحيواناتهم أيضا ، هذا إلى جانب ماكانوا يحفرون من آبار داخل منازلهم حتى تتجمع فيها المياه الجوفية ، وهذه الآبار كانت كثيرة ، ولم تخل دار منها(٢٦٧) كذلك كانوا يستخدمون القناديل المصنوعة من الفخار لإضاءة منازلهم فى الليل ، حيث تملأ بالزيت ويوضع بها فتيل مشتغل ، كما أن وجود هذا القنديل دليل على ثراء الفلاح ، فالشخص الذى لايشعله فقير ويقولون عنه أنه ينام دون ضوء(٢٦٨) .

الأمراض الاجتماعية فى بيت المقدس

إن عصر سلاطين المماليك تميز بمسحة براقة من الصلاح والتقوى ، والحرص على إقامة الكثير من المنشآت الدينية الفخمة والرغبة فى المبالغة فى إحياء شعائر الدين ، سواء فى بيت المقدس أم فى المدن الأخرى التى خضعت لحكم سلاطين المماليك ، لكم الباحث المتعمق يستطيع أن يرى أن تلك المسحة البراقة كانت تخفى وراءها بعضا من الأمراض الاجتماعية ، التى كان لها تأثيرها الواضح فى مجريات الحياة اليومية فى مدينة بيت المقدس على عصر سلاطين المماليك .

ولكن إحقاقا للحق نستطيع أن نقرر أن الأمراض الاجتماعية التى عرفت فى مدينة بيت المقدس فى ذلك العصر كانت أقل بكثير مما عرف فى غيرها من المدن الأخرى (٢٦٩) ، وهذا ماسوف يتضح بعد قليل من خلال استعراضنا لما وردت الإشارة إليه ، فى المصادر والمراجع التى تحدثت عن المدينة فى تلك الفترة . كذلك لعله مما ساعد على قلة تلك الأمراض الاجتماعية طبيعة المدينة الدينية من جهة وحرص سلاطين وأمراء المماليك على إظهار أكبر قدر من التقوى والورع والتدين ، وأثر تلك السياسة فى بيت المقدس . ومع هذا فإن ذلك لايخفف عن كاهل الأمراء المماليك وسلاطينهم ، بسبب ماأسهم به كثيرون منهم فى انتشار كثير من تلك الأمراض . وليس أدل على ذلك ممايشير إليه ابن قاضى شهبة فى ذكره لحوادث سنة ٨٠٠هـ / ١٣٩٧م فى عهد السلطان الظاهر برقوق ، من أنه فى العشر الأوسط من رمضان بلغ السلطان أن الأمير شيخ الصفوى المقيم بالقدس كان يتعاطى المنكرات ، ويمسك نساء الناس وأولادهم وأن نائب القدس كلمه فقبض عليه وضربه . فأمر السلطان بأن يعتقل فى قلعة المرقب (٢٧٠) والحقيقة أن هذا السلوك الذى كان يسلكه أحد كبار الأمراء المماليك إن دل على شيء فإنما يدل على حياة العبث والمجون التى كان يعيشها المماليك من سلاطين وأمراء وأجناد ، ولعل هذا العبث والمجون والفساد كان يرجع بالدرجة الأولى إلى ثراءِ تلك الطبقة ، وهذا مايؤكده لنا ابن خلدون . (٢٧١) .

والأمراض الاجتماعية التى تفشت فى بيت المقدس فى عصر سلاطين المماليك نوعان ، أولهما الفساد الخلقى المتمثل فى البذل والبرطلة ، أى الرشوة وثانيهما المعتقدات الباطلة ، أما غير ذلك من الأمراض الاجتماعية مثل الزنا والشذوذ الجنسى وتعاطى الحشيش وشرب الخمر ، وهى الأمراض التى كانت شائعة فى مختلف بلدان المشرق والمغرب العربى ، لم ترد أية إشارة تفيد انتشار تلك الأمراض فى القدس .

وفيما يتعلق بالبذل والبرطلة ونعنى بهما الرشوة بمصطلح العصر الحديث(٢٧٢) فهى من أهم الأمراض الاجتماعية التى تفشت فى عصر سلاطين المماليك فى جميع البلاد التى خضعت لحكمهم بوجه عام وفى بيت المقدس بوجه خاص ، وهذه الظاهرة إن دلت على شيء فهى تدل على مدى ما أصاب المجتمع الإسلامى بوجه عام ، والجهاز الإدارى بوجه خاص من إنحلال وتفكك ، نتيجة لتأصل هذه الظاهرة لدى كل من الحكام والمحكومين (٢٧٣) .

وترجع خطورة انتشار هذه الظاهرة إلى أن الرشوة أصبحت هى الوسيلة السهلة للوصول الى

المناصب والوظائف الهامة ، وبذلك انعدمت الكفاءة والجدارة حيث حل محلهما المال وسلطانة ، فأقبل أصحاب النفوس الضعيفة يزايدون على الوظائف الجليلة إما طمعا فى تحقيق كسب غير مشروع ، أو حرصا على الإحتفاظ بأحد المناصب الهامة أو المتوارثة ، أو نكاية فى بعض الأفراد(٢٧٤) وكان طبيعيا أن ينغمس هؤلاء فى الرشوة طالما أنهم بذلوا أموالا كثيرة على هذه الوظائف ، وليس بخاف علينا ما ينتج عن ذلك من أضرار تلحق بالناس ، نتيجة لتلك الإتاوات وتفشى الرشوة ، والذى غالبا ما يكون مصحوبا بإضطراب الأحوال ، فضلا عن أن كثيرا من الناس كانوا يقصدون أصحاب تلك الوظائف ، لقضاء حوائجهم نظير تقديمهم بعض الأموال نظير ذلك ، مما أفضى ليس فقط إلى إفساد هذه الوظائف وتدهورها بل إلى التدهور الخلقى وتدهور النظام المملوكى برمته ، كما أضطرب الأمن الداخلى نظرا لتهاون ولاة الأمور فى تتبع أصحاب الجرائم ، فانتشر قطاع الطرق واللصوص وامتدت أيديهم الى مابأيدى الناس من البضائع والأموال ، كل ذلك والولاة عنهم غافلون بسبب جمعهم المال ، كما ترتب على البذل ظاهرة جديدة هى الجمع بين عدة وظائف فى آن واحد . وأيضا الاستنابة فيها ، بل وأحيانا التنازل عنها نظير مبلغ معين من المال(٢٧٥) .

ومن الوظائف التى أمتدت إليها ظاهرة البذل والبرطلة ، وظيفة النيابة فى بيت المقدس ، وتحدثنا المصادر المعاصرة عن أسماء بعض من نجحوا فى الوصول إلى نيابة القدس عن طريق البذل ، ونذكر على سبيل المثال من هؤلاء الأمير خشقدم الذى تولى نيابة القدس أكثر من مرة بالبذل والبرطلة رغم كراهية أهل المدينة له ، وذلك نظرا لما اتصف به من ظلم وعنف(٢٧٦) .

كذلك كانت إمرة العربان من الوظائف التى لم تكن بمعزل عن البذل والبرطلة خاصة وقد جرت العادة بأن يعين السلاطين المماليك لكل قبيلة من قبائل العربان أميرا منها . ويكتبون له تقليدا سلطانيا بذلك ، وعلى هذا فقد أقبل هؤلاء الأمراء على البذل لسلاطين المماليك بهدف قضاء مصالحهم الشخصية(٢٧٧) .

كذلك تتضح لنا مدى خطورة هذه الظاهرة لأنها كانت شائعة فى الوظائف الدينية ، ولا شك أن المتتبع لأخبار هذه الوظائف فى المصادر المعاصرة سوف يلاحظ بوضوح مدى التدهور الذى آلت إليه هذه الوظائف ، وبخاصة القضاء ، والحسبة ، والخطابة ، ومشيخة الشيوخ ، ووكالة بيت المال نتيجة للبذل عليها ، وليس أدل على ذلك مما يذكره لنا مجير الدين فى حديثه عن قضاه بيت المقدس بأن جمال الدين الديرى ظل يسعى فى منصب القضاء حتى وليه فى ربيع الآخر سنة ٨٧٨ هـ / ١٤٧٣ م ، ومع ذلك لم يمكث فى المنصب سوى أربعة عشر يوما مات بعدها ، وقبل أن يحكم حكما واحدا بعد مال كثير بذله عليه (٢٧٨) وفى هذه الإشارة ما يؤكد لنا بصفة قاطعة أن القضاء وهو من أسمى المناصب الدينية — لم يعد بمعزل عن البذل والبرطلة ، وفى نفس الوقت تشير إلى ما قد يتبع ذلك من فساد خلقى ، حيث أنه لم يكن مستبعدا أن يكون القضاة أنفسهم قد حصلوا على كثير من الرشاوى لتعويض تلك الأموال التى دفعوها ، إلا أنه تجب الإشارة إلى أن هذه الظاهرة قد انتشرت فى عصر سلاطين المماليك الجراكسة ، حيث لم تصادفنا أية إشارة فى المصادر المعاصرة عن

تفشى تلك الظاهرة من قبل ، وخير ما يؤكد ذلك ما يشير إليه السخاوى فى ترجمة الكمال بن البدر الجعفرى أحد قضاة بيت المقدس فى ذلك العصر ، من أنه نسب إليه مزيد من الرشا ، هذا بالإضافة إلى ما يشير إليه مجير الدين فى حديثه عن القاضى شرف الدين يحيى المغربى أحد القضاة المالكية ببيت المقدس سنة ٨٩٢ هـ / ١٤٨٧ م والذى عزل بسبب تعاطيه البراطيل على الأحكام (٢٧٩) .

كذلك يؤكد لنا المؤرخ ابن حجر تفشى تلك الظاهرة فى منصب خطابة بيت المقدس فى عصر سلاطين المماليك الجراكسة ، ففى حديثه عن سنة ٨٠٢ هـ / ١٣٩٩ م فى عهد السلطان فرج بن برقوق يروى أنه « فى المحرم استقرا بن السائح الرملى فى خطابة القدس ، بذل فيها ثمانين ألف درهم .»(٢٨٠) .

كذلك يؤكد لنا مجير الدين تفشى الرشوة فى ذلك المنصب ، فى حديثه عن قاضى القضاة جمال الدين يوسف بن غانم المقدسى الذى ولى خطابة بيت المقدس سنة ١٣٩٨/٨٠١ م بمال بذله ، ثم سعى عليه القاضى جمال الدين عبدالله بن السائح قاضى الرملة بمائة ألف درهم ولم يقم بها غير ثلاثة أشهر وعزل بالباعونى (٢٨١) .

هذا وقد سبق لنا أن أشرنا فى حديثنا عن حرص بعض السلاطين المماليك على تخفيف الأعباء عن أهل بيت المقدس إلى ماكان يفرض على وظيفة الحسبةمن أموال ، والحق أن البذل على هذه الوظيفة يعتبر أحد الأسباب الرئيسية ، والتى عجلت بتدهورها وانهيارها ، خاصة وأن الأمر لم يعد قاصرا على توليتها بالرشوة والبراطيل وإنما استقر الحال على توليها حسب مصطلح العصر عن طريق البذل مما أدى إلى كثرة الطامعين فيها وإلى المزايدة عليها فيما بينهم ، وبالتالى لم يعد المحتسب بحاجة إلى مجرد تناول رشوة مقنعة أو خفية ، وإنما وصل به الحال إلى فرض مقررات شهرية على الباعة والتجار وأصحاب الحرف والبضائع ، ولهذا لم يكن عجيبا أن تسير الحسبة بخطى سريعة إلى الهاوية ، بسبب تلاعب الجهلة بهذا المنصب ، مما أدى إلى كثرة من يتولاها ، وماانتج عنه بسبب عدم استقرار هذه الوظيفة البالغة الأهمية بالنسبة للحياة الاقتصادية بوجه خاص ، وكذلك شتى نواحى الحياة المختلفة (٢٨٢)هذه بعض الأمثلة لقليل من كثير من المناصب الى تفشت فيها ظاهرة الرشوة ، والتى أدت إلى فساد تلك الوظائف من جهة ، ومن جهة أخرى فساد القائمين وشرههم للمال ، والذى أنصب بدوره على عامة سكان بيت المقدس ، ليشمل شتى نواحى الحياة المختلفة .

وهنا لابد للباحث من وقفة ولو قصيرة لتفسير تلك الظاهرة والتى كانت من أخطر الظواهر التى تفشت فى مدينة بيت المقدس وغيرها من البلاد التى خضعت لحكم سلاطين المماليك ، فضلا عن أن هذه الظاهرة وماأدت إليه من تفكك وانهيار النظام الإدارى لسلطة المماليك كانت أحد العوامل الرئيسية التى أدت إلى إنهيار دولتهم . ومن المؤكد أن من العوامل التى ساعدت على انتشار تلك الظاهرة ، ماعرف عن المماليك أنفسهم وبخاصة فى عصر سلاطين المماليك الجراكسة والذين عدوا مصدرا للفوضى ، وعدم الاستقرار بسبب كثرة المماليك الجلبان والذين وفدوا على البلاد كبارا ولم تصقلهم أيدى الفقهاء والمعلمين كما كان الحال من قبل فى عصر المماليك البحرية ، بحيث صاروا

مافيهم – حسب قول المقريزى – « إلا من هو أزنى من قرد ، وألص من فأرة ، وأفسد من ذئب » ، وبذلك كانوا معول هدم فى شتى أنحاء الدولة وليس أدل على ذلك أيضا مما يصوره لنا الأب سوريانو الذى عاش فى القدس فترة فى أواخر القرن الخامس عشر الميلادى حيث يقول إن أقل المماليك رتبة كان يضرب أكبر أبناء المدينة مركزا ، ولايجرؤ هذا الشخص أن يرد عليه أو يدافع عن نفسه أو يشكوه ، ولكنه يصمت حفاظا على حياته وممتلكاته ، وفى هذه الإشارة أيضا تأكيد لما سبق أن قلناه من أن عصر الجراكسة شهد تفكك السلطة المملوكية . (٢٨٤) .

ومن العوامل التى ساعدت أيضا على انتشار هذه الظاهرة ، سوء الأحوال – الاقتصادية فى دولة سلاطين المماليك نتيجة ماعانته الخزانة السلطانية من جراء إعداد الحملات التى كانت توجه إما لقمع بعض حركات التمرد والعصيان الداخلية ، كما حدث على عهد السلطان فرج بن برقوق الذى خرج على رأس ثمانى تجريدات عسكرية إلى الشام لقمع عصيان الأمراء الخارجين عليه ، تكلف كل منها زيادة على مليون دينار ، أو لصد بعض الأطماع الخارجية فى وقت اشتد فيه طمع الجند وزادت شراهتهم للمال وصاروا لايتحركون ولايخرجون فى تجريدة من التجريدات إلا بعد أن يتقاضوا الثمن أضعافاً مضاعفة ، وهذه الحروب الدفاعية جاءت لتلقى أعباء جديدة على خزانة الدولة ، وبالتالى لتزيد من إقبال السلاطين على تناول البراطيل على الوظائف والولايات فى محاولة منهم لملء خزانة الدولة الفارغة خاصة بعد أن كسدت تجارتهم بسبب إغلاق معظم المعابر التجارية ، وبخاصة بعد ظهور البرتغاليين فى الهند واكتشافهم طريق رأس الرجاء الصالح فى سنة ٩٠٤هـ/١٤٩٨م ، مما أنزل بالمماليك ضربة قاصمة ، وحرمهم من مورد هام من مواردهم المالية وجعلهم يبحثون عن مورد آخر يعوضهم عما فقدوه من أموال (٢٨٥) .

هذا بالإضافة إلى حياة الترف والدعة والتى أقبلوا عليها طوال سنوات حكمهم ، وماتطلبه ذلك من أموال ضخمة ، فضلا عن حاجة السلاطين الدائمة لشراء مماليك جدد مع قلة وارداتهم المالية من التجارة ، والإقطاعات بسبب فساد تلك الإقطاعات نتيجة لإهمال الأرض الزراعية بالإضافة إلى سعى بعض الفئات للوصول إلى المناصب الهامة ، رغبة منهم فى تحسين أوضاعهم الإجتماعية وربما وجدوا فيها موردا ماليا ضخما ، كذلك ربما وجد البعض الآخر فى البذل وسيلة للترقى والتدرج فى الوظائف ، وقد أدى ذلك إلى وصول كثير من أوباش الناس إلى الرتب العليا والمراتب السنية ، وانصرافهم عن مهام مناصبهم إلى جمع المال من كل صوب وحدب ، إما لتعويض مادفعوه ، وإما لجمع أكبر قدر منه(٢٨٦) .

ومن هذا العرض يتضح لنا أن سياسة البذل والبرطلة التى اتخذها سلاطين وأمراء المماليك وسيلة لجمع المال كانت وبالا على المجتمع الإسلامى فى ذلك العصر ، وأدت إلى كثير من الخلل فى شتى نواحى الحياة المختلفة وبخاصة الدينية ، مما كان سببا مباشرا فى ضعف الوازع الدينى فى تلك الفترة وشره الكثيرين إلى المال ، والذى أدى إلى ضربهم المثل والقيم والتقاليد بعرض الحائط ، وغير خاف على أحد أنه متى تفشت الرشوة فى مجتمع تفشت فيه كثير من عوامل الضعف والإنهيار والإنحلال الخلقى .

وأخيرا تجب الإشارة إلى بعض الأمراض الاجتماعية التى كانت منتشرة فى ذلك العصر الا وهى شيوع كثير من البدع والخرافات والمعتقدات الباطلة ، نذكر على سبيل المثال منها ماكان شائعا لدى المسلمين من الاعتقاد فى المشايخ والأولياء وأن لهم القدرة على الإتيان بالكثير من الخوارق من الأعمال وهذا ماسبقت الإشارة إليه ، كذلك ماكان شائعا لدى بعض الطوائف المسيحية ، من أنهم كانوا يستدلون من الحيوانات على بعض الأشياء فمثلا غسل القطة لوجهها يزعمون أنه دليل قدوم ضيف ، ونباح الكلب بصوت مقلوب يؤذن بمصاب ، ونعيق البوم إشارة إلى موت مدنف ، وطيران غراب واحد نحس وغرابين سعد ، وصياح الدجاجة كالديك إنذار بخطر ، وإلى غير ذلك من الأستدلالات .(٢٨٧) . كذلك مايرويه لنا الأب سوريانو عن وجود بعض الأحجار السوداء والتى عليها بقع بلون الذهب وبداخلها إما قطعة صغيرة من الحجر أو الرمل ، وهذه الأحجار كانت تسمى « أحجار الحمل » فالمرأة التى لايستمر حملها وينتهى بالإجهاض فإنها عندما تحمل إحدى هذه الأحجار فإن حملها يستمر وتنجب كثيرا من الأطفال ، ويؤكد أنه جرب تلك الأحجار عندما حضرت إليه إحدى السيدات الأجنبيات وكانت دائمة الإجهاض ، وكانت مخلصة لجماعة الرهبان الفرنسيكان ، فعندما وضعت تلك الأحجار فقد استمر حملها وانجبت الكثير من الصبية والبنات ، كذلك يروى أن لتلك الأحجار تأثيرا كبيرا على الأشجار فهى إذا وضعت فوق الشجرة فإن ثمارها لاتسقط ، وإذا كانت الشجرة غير مثمرة فإنها تثمر .(٢٨٨) وهذا يعكس لنا مدى تغلغل تلك المعتقدات الغريبة فى نفوس المعاصرين لتلك الفترة .

هوامش

(١) القزوينى : آثار البلاد وأخبار العباد ، نشر دار صادر بيروت ١٩٦٠ ص١٥٩ /١٦٣ ،
المقريزى : السلوك ، جـ١ ص٦٥٠ .
(٢) العروب بتشديد الراء اسم قريتين بناحية القدس فيها عينان عظيمتان وبركتان وبساتين
راجع ياقوت : معجم البلدان .
(٣) المقريزى : السلوك جـ٢ قسم ١ ص ٣٠٢ ، جـ٣ قسم ٢ ص٩٤٦ ، ابن تغرى بردى :
النجوم ، جـ١٢ ، ص١١٤ ، العينى : السيف المهند ص٢١١ ، ابن الصيرفى : نزهة
النفوس جـ١ ، ص٥٠٢ ،، ابن إياس بدائع الزهور ، جـ٣ ص٢٠١
(٤) الروض الزاهر ، ص٢٨٨ ، المقريزى : السلوك ، جـ١ قسم٢ ص٦٥٠ .
(٥) الأنس الجليل ، جـ٢ ص٦٦١ ، ٦٦٢
(٦) كتب بذلك لوحة تاريخية بخط النسخ المملوكى نصها « جدد هذا السبيل والمصلى والمحراب العبد الفقير إلى الله تعالى شاهين ناظر الحرمين ايام مولانا الملك الأشرف برسباى خلد الله ملكه بتاريخ شهر رمضان المعظم سنة اثنين وثلاثين وثمان مائة
راجع عارف العارف : المفصل فى تاريخ القدس ، ص٢٠٨ ، تاريخ القدس ص٨٤ ، سعيد عاشور « بعض أضواء جديدة .. ص٢٧
(٧) عارف العارف ، تاريخ القدس ، ص٣٠١ .
(٨) المرجع السابق ، ص٩٨ - ٣٠١
(٩) الأنس الجليل ، جـ٢ ، ص٦٦١ .
(١٠) سعيد عاشور : بعض أضواء جديدة ... « ص ٢٧ - ٢٨
(١١) محمد محمد أمين : الأوقاف والحياة الأجتماعية فى مصر ، ص١٥١ .
(١٢) المرجع السابق ، ص١٥٣ ، ١٥٤
(١٣) سعيد عاشور : « بعض أضواء جديدة » ص٢٧ ، محمود العابدلا : قدسنا ، ص٩٩
(١٤) عارف المعارف : تاريخ القدس ، ص٩٢ .
(١٥) المرجع السابق : ص٣٠١ - ٣٠٢
(١٦) الحضرة الأنيسية فى الرحلة القدسية طبع جريدة الأخلاص بمصر عام ١٩٠٢ ص٣١ ، ٣٤ .
(١٧) السيد الباز العرينى : الشرق الأوسط والحروب الصليبية جـ١ ص٢٦٧ .
(١٨) Thomas wright: Early travels in Plastine, P. 84
(١٩) الأنس الجليل جـ٢ ص٤٠١
(٢٠) George Adam Smith: Jerusalem PP. 77-79.
(٢١) عن موقع هذه البرك راجع عارف العارف : تاريخ القدس ص١٧٦ ، ١٧٨ .
(٢٢) Murry: Syria and palestine vol, I,PP. 136- 137;Treatise on the Holy land, P- 220

(٢٣) عارف العارف : تاريخ القدس ص١٧٨ – ١٧٩
(٢٤) عبد الحميد زايد : القدس الخالدة ٩ص ١٧ – ١٩
(٢٥) Wilkinson, Jerusalem Pilgrims P- 85
(٢٦) مسالك الأبصار جـ٥ ورقة ٩٣ مخطوط ، ابن حجر : الدرر الكامنة جـ١ صـ٥٢٢ .
(٢٧) الأنس الجليل : جـ٢ ص٣٨٧ ، رشاد الإمام : مدينة القدس ص١٨٤ .
(٢٨) الأنس الجليل : جـ٢ ص٤٠٧ – ٤٠٨ ، عارف العارف : تاريخ القدس ص٩٥ .
(٢٩) المقريزى : الخطط جـ٣ ص١٢٩ – ١٤٠ ؛ سعيد عاشور : المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك ، ص٩٣ – ٩٤ .
(٣٠) زبدة كشف الممالك، ص٢٣ .
(٣١) رحلة إلى فلسطين والقدس ونابلس والخليل ومافي بلاد الشام لم يعلم مؤلفها مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٧٥٤ جغرافية ورقة ٦٦ .
(٣٢) Prescott: once to sinai the further pilgrimage of Frir felix fabri, London, 1957, PP. 31-32.
(٣٣) سعيد عاشور : المجتمع المصرى ، ص ٩٤ – ٩٥ ؛ كامل جميل العسلى : نفس المرجع ، جـ١ ، ص١١٠
(٣٤) أسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار تحقيق فيليب حتى طبع جامعة برنستون عام ١٩٣٠ ص١٣٦ ، سعيد عاشور : أضواء جديدة على الحروب الصليبية القاهرة ١٩٦٤ص ١٠٨ .
(٣٥) ابن تغردى بردى : منتخبات من حوادث الدور جـ٢ ص٢٢٦ – ٢٢٧ ، ابن حجر : الدرر الكامنة جـ١ ص٤٠٣ ، سعيد عاشور : المجتمع المصرى ، ص٩٥ .
(٣٦) سعيد عاشور : المجتمع المصرى ص٩٦ .
(٣٧) ابن الأخوة : معالم القربة ص١٥٦ ، سعيد عاشور : المجتمع المصرى ص٩٦ .
(٣٨) ابن الحاج : المدخل ، جـ٢ ، ص٢٧ .
(٣٩) المصدر السابق نفسه والصفحة .
(٤٠) البيمارستان بفتح الراء وسكون السين ، كلمة فارسية مركبة من كلمتين « بيمار » بمعنى مريض أو عليل أو مصاب و « ستان » بمعنى مكان أودار ، فهى إذا دار المرضى ، ثم اختصرت فى الاستعمال فصارت مارستان ، راجع أحمد عيسى : تاريخ البيمارستان فى الاسلام ص ٣ – ٤ .
(٤١) سفر نامه ١ ص ٢١ .
(٤٢)الخالدى : المعاهد المصرية فى بيت المقدس ص ٦٠٥ .
(٤٣) المرجع السابق نفسه والصفحات .
(٤٤) Warren: The Survey of Western Palstine pp. 83-34, Murphy- Canon; The Holy land pp. 44-45.
(٤٥) Wright: Early travele s.P. 168.
(٤٦) The book of the wanderings of Vol. I, PP. 285-286
(٤٧) أحمد عيسى : تاريخ البيمارستانات فى الإسلام ، ص٢٣١ – ٢٣٢
(٤٨) الفتح القسى ، ص٩٥ .
(٤٩) مفرج الكروب ، جـ٢ ص٤٠٨ .
(٥٠) كتاب سيرة صلاح الدين المسماة بالنوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، طبع مطبعة الآداب والمؤيد بمصر ١٣١٧هـ ، ص٢٤٢ ، R.H.C. Tome 111, P.355
(٥١) الروضتين جـ٢ ، ص٢٠٥
(٥٢) الأنس الجليل ، جـ١ ، ص٣٤٥
(٥٣) نفس المصدر جـ٢ ، ص٤٠٤
(٥٤) نفس المصدر جـ٢ ، ٥٨٩ – ٥٩٠
(٥٥) أحمد عيسى : تاريخ البيمارستانات ، ص٢٦٠
(٥٦) Nicolo A Ziadeh: Urban life in syria PP. 159- 160
(٥٧) أحمد عيسى : تاريخ البيمارستانات ، ص٣١ – ٣٦
(٥٨) ابن أبي أطيعة عيون الأنباء فى طبقات الأطباء جـ٢ ص٢٤٣ ، المرجع السابق : ٣١

(٥٩) المصدر نفسه ، جـ١ ، ص١٧٩ .

(٦٠) القلقشندى : صبح الأعشى ج٤ ص١٨٣ .

(٦١) ابن أبى أصيبعة : نفس المصدر ، جـ١ ، ص٣٠٩ - ٣١٠

(٦٢) ابن أبى أصيبعة : عيون الأبناء ج١ ص٣٠٩ ، القلقشندى : صبح الأعشى ج٤ ص١٨٣

(٦٣) الرحلة ، ص٣٠٣

(٦٤) نسبة إلى الملك الأفضل بن صلاح الدين الأيوبى ، وقد أنشأ هذه المدرسة بحارة المغاربة وكانت على عهده تعرف بالقبة ووقف معها حارة المغاربة سنة ٥٨٩هـ/١١٩٣م راجع : عارف العارف تاريخ القدس ص٨٢ .

(٦٥) الأنس الجليل ، جـ٢ ، ص٤٠

(٦٦) نفس المصدر ، جـ٢ ، ص٦٣٧ .

(٦٧) ابن خلدون : المقدمة ص٢٢٤ (طبع دار الشعب) .

(٦٨) عبد المنعم ماجد : دولة سلاطين المماليك ورسومهم ص١٣٠ - ١٣٢

(٦٩) راجع السلوك للمقريزى جـ٢ قسم ٢ ص٥١٩ حاشية ١ ، الخطط جـ١ ص١٨٧ - ١٨٨

(٧٠) المقريزى : الخطط ، جـ٣ ، صـ٣٠٥ -٣٠٦ .

(٧١) السخاوى : التبر المسبوك ، صـ٤٦ .

(٧٢) ابن تغرى بردى : النجوم ، حـ٥ ، صـ٥٣٩ .

(٧٣) ابن إياس : بدائع الزهوّر ، جـ٢ ، صـ٣١٣ .

(٧٤) The ravels of martin Baumgarten. Vol I P. 463,

ويتفق هذا الوصف مع أورده كل من المقريزى السلوك جـ١ قسم ٢ ص٤٠٤ وابن تغرى بردى : النجوم ، جـ١٤ .

(٧٥) المقريزى : السلوك جـ١ ص٧٤٠ حاشية ٣ ؛ عبد المنعم ماجد : دولة سلاطين المماليك ص١٣٢ - ١٣٤ .

(٧٦) ابن تعزى : النجوم ج٥ ص٥٥٠ ؛ ابن إياس بدائع الزهور ، جـ٢ ، ص٤٥ .

(٧٧) ابن حجر : الدرر الكامنه جـ١ ص٤٠٤ ؛ عبد المنعم ماجد : نفس المرجع ص١٣٤ .

(٧٨) السخاوى : التبر المسبوك ص٣٠٥ ؛ مجير الدين الأنس الجليل ، جـ٢ ص٦١٠ .

(٧٩) الانس الجليل جـ٢ ص٦١٠ .

(٨٠) ابن دقماق : الجوهر الثمين ، صـ١٥١ مخطوط .

(٨١) ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ٨ ، صـ٢١٥ .

(٨٢) المقريزى : السوك ، جـ١ ، قسم ٢ ، صـ٥٦٤ .

(٨٣) ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ٩ ، صـ٣٢٣ .

(٨٤) Jozhua Prawer. Op. cit, p, 367

(٨٥) اتحاف الإخصا بفضائل المسجد الأقصى ، تحقيق أحمد رمضان أحمد ، القسم الأول ، الهيئة العامة المصرية للكتاب ١٩٨٢ ، ص١٠٨ - ١٣٩ .

(٨٦) المصدر السابق ، ص٢٤٠ .

(٨٧) الرحلة ، نشرد أرصاد بيروت ١٩٦٤ ، ص٥٧ - ٥٨ .

(٨٨) سورة الإسراء ، الآية ١ .

(٨٩) مجير الدين ، الأنس الجليل ، جـ٢ ، ص٣٣٦ .

(٩٠) ذراع العمل هو الذراع الذى كانت تقاس به أرض البنيان من الدور وغيرها ، طول هذا الذراع ثلاثة أشبار بشبر رجل معتدل ، راجع القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ٣ ، ص٤٤٢ - ٤٤٣ . ويقول لاسترانج أن ذراع العمل يساوى ٦٨,٥سم ، Palestine under the Musliman P. 110 .

(٩١) آثار البلاد وأخبار العباد ، نشر دار صادر بيروت ١٩٨ ، ص١٦١ .

(٩٢) ناصر خسرو ، سفرنا مه ، ص٢٥ .

(٩٣) اتحاف الأخصا بفضائل المسجد الأقصى ، مخطوط ، ورقة ٥١ - ٥٥

(٩٤) الحضرة الأنيسية فى الرحلة القدسية ، صـ١٧ .

(٩٥) عارف العارف : تاريخ القدس ، صـ٢٩٦ - ٣٠٠ .

(٩٦) المنهاجي السيوطي ، اتحاف الاخصا ، ورقة ٣٩ - ٤٨ مخطوط
(٩٧) المصدر السابق ، والصفحات نفسها ، عبد الحميد زايد ، قدسنا ، ص٢٦٢ ، رشاد الإمام ، مدينة القدس ص١٧١ .
(٩٨) ابن الوردى ، تتمه المختصر فى أخبار البشر ، طبع المطبعة الوهابية ، بالقاهرة ١٨٦٨ ، جـ٢ ، ٢١٩ ، مجير الدين ، الأنس الجليل ، جـ٢ ، ص٤٣٣ .
(٩٩) Newett: Casola's pilgrims. P249; Frescobaldi: Avisit to the holyplaces. P; 128.
(١٠٠) مجير الدين ، الأنس الجليل ، جـ٢ ، ص٣٨٥ ، رشاد الإمام ، مدينة القدس ، ص١٧٤ - ١٧٥
(١٠١) ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر ، ص٧٤ ، مجير الدين ، الأنس الجليل ، جـ٢ ، ص٤٤٠ - ٦٤٤ ، رشاد الإمام ، مدينة القدس ، ص١٧٦ .
(١٠٢) الأنس الجليل ، جـ٢ ، ص٤١١ .
(١٠٣) كتاب الإرشادات إلى معرفة الزيارات ، عنيت بنشره وتحقيقه جانين سورديل - طون ، دمشق ١٩٥٣ ، ص٢٧ .
(١٠٤) آثار البلاد وأخبار العباد ، ص١٦٣ .
(١٠٥) الذهبى ، سيرة أعلام النبلاء ، جـ٢ ، ص٤ - ٥ ، ابن شاهين ، زبدة كشف الممالك ، ص٢٣ .
(١٠٦) عبد الغني النابلسى ، الحضرة الأنيسية فى الرحلة القدسية ، ص٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ .
(١٠٧) المنهاجي السيوطى ، اتحاف الاخصا بفضائل المسجد الأقصى ، ظهر ورقة ٥٧ مخطوط ، المصدر السابق ، ص٤٤ ، مؤلف مجهول ، رحلة إلى فلسطين والقدس ورقة ١٤ مخطوط .
(١٠٨) الحضرة الانيسية فى الرحلة القدسية ، ص٧١ ، ٧٢ .
(١٠٩) الأنس الجليل ، جـ٢ ، ص٤٠١ .
(١١٠) Wilkinson: Op. Cit P. 37.
(١١١) تذكر كثير من المصادر أن السبب في تسمية كنيسة القيامة باسم قمامة يرجع إلى أن المكان الذى أقيمت به كان مزبلة للبلد كذلك كان يتم فيه قطع أيدى المفسدين وتصلب به اللصوص ، ولهذا سميت الكنيسة باسم هذا المكان ، أما المسيحيون فيطلقون عليها اسم القيامة لأنهم يعتقدون أن المسيح عليه السلام قامت قيامته في ذلك الموضع عن ذلك راجع الهروى : كتاب الإشارات ، ص٢٨ .
(١١٢) نفس المصدر السابق ، ص٢٨ .
(١١٣) آثار البلاد وأخبار العباد ، ص١٦٣ .
(١١٤) الأنس الجليل ، ص٢ ، ص٤٠١ - ٤٠٢ .
(١١٥) سنا البرق الشامى ، جـ١ ، ص٣١٦ .
(١١٦) عارف العارف تاريخ القدس ، ص ٢٦٥ ؛ حول القدس ص ٤٠ ؛ Warren, Op. cit, p34 ,
(١١٧) Fra Niccloa of Poggibonsi, Avọyage Beyond the Seas (from 1346-1350) Jerusalem The Franciscan Press 1945. p. 14
(١١٨) Ibid, PP. 12-22
(١١٩) هو وجود فرى بوايون دوق اللورين الأدنى والذى كان له دور هام فى بداية الحروب الصليبية ، نظرا لضخامة الجيش الذى أعدة وشارك به فى الحرب الصليبية الأولى ، وهو أول من تلقب بلقب حامى القبر المقدس من حكام الصليبين وكذلك أول حكام مملكة بيت المقدس اللاتينية وتوفى سنة ١١٠٠ م . لمزيد من المعلومات راجع ، رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية جـ٢ ، ص ١٦٨ ، ٢١١ ، ٤٤٢ ؛ سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، جـ١ ، ص ٢٥١ .
(١٢٠) Ȧvisit to the Holy p. 76-77.
(١٢١) Mundrell; Ajourney from Aleppo to Jerus alem pp. 92-93
(١٢٢) عارف العارف : بتاريخ القدس ، ص ٢٦٧ .
(١٢٣) ابن تغرى بردى : النجوم ، حـ٧ ، ص١٦٢ ، ابن إياس : بدائع الزهور ، جـ١ ، قسم٢ ، ص٤٠ - ١٠٠ ، جـ٢ ، ص٨٤ ، جـ٤ ، ص١٥٩ .
(١٢٤) Wilkinson: Jerusalem pilgrims. P. 84
(١٢٥) أحمد دراج : وثائق دير صهيون ، ص١١٥ .
(١٢٦) مجير الدين : الأنس الجليل ، جـ٢ ، ص٤٠١ - ٤٠٢ .

(١٢٧) كتاب الأشارات إلى معرفة الزيارات ، ص٢٧

(١٢٨) مسالك الأبصار ، جـ١ ، ص٣٩ .
(١٢٩) المصدر نفسه ، جـ١ ، ص٣٤٠ ، كرد علي : خطط الشام ، جـ٦ ، ص٣١ .
(١٣٠) مسالك الأبصار ، جـ١ ، ص٣٤٠ ، كرد علي : خطط الشام ، جـ٦ ، ص٢٩ .
(١٣١) كرد علي : خطط الشام ، جـ٦ ، ص٣٥ .
(١٣٢) الأنس الجليل ، جـ٢ ، ص٤١٠ - ٤١١ .
(١٣٣) Wright: op. cit. P. 161
(١٣٤) The travels of Bertrandon. P. 93.
(١٣٥) P.P.T.S; Vol. vi, p.1
(١٣٦) عارف العارف : تاريخ القدس ، ص٢٣٣ ، عبد الحميد زايد القدس الخالدة ، ص٢٥٦ .
(١٣٧) Aamiry: Jerusalem. p.10
(١٣٨) عارف العارف : نفس المرجع ، ص٢٣٣ - ٢٣٤ .
(١٣٩) حيث يروى أن القضية أثيرت دوليا عام ١٩٣٠ ، وشكلت لجنة دولية كان أعضاؤها من الدول المسيحية ، ووافق مجلس الأمم في ٥مايو عام ١٩٣٠ على تأليفها وأقر اليهود صلاحيتها وكان لهم ثلاثة وكلاء ، وأصدرت اللجنة قرارها بأن للمسلمين وحدهم تعود ملكية الحائط الغربي ولهم وحدهم الحق العيني فيه لكونه يؤلف جزءا من ساحة الحرم الشريف التي هي أملاك الوقف ، وللمسلمين أيضا تعود ملكية الرصيف الكائن أمام الحائط وأمام المحلة المعروفة بحارة المغاربة للحائط لكونه موقوفا حسب احكام الشرع الإسلامي لجهات البر والخير ، عن ذلك راجع عبد الحميد زايد : القدس الخالدة ، ص١٨٩ ، ١٩٠ .
(١٤٠) Wright: early Travels in palestine P. 174
(١٤١) Lees: Op. Cit. P. 198
(١٤٢) Charles dudly: In the levant. PP. 97-98
(١٤٣) الأنس الجليل ، جـ٢ ، صـ٤٠٧ - ٤٠٨
(١٤٤) Charles Dudly: Op. Cit. 97-98
(١٤٥) راجع عن الطرق الأخرى Lees: Op. cit. PP. 213-214
(١٤٦) The Book of.. Vol. 11, p. 117
(١٤٧) اللقيمي : موانح الأنس ، ورقة ٣٣ - ٣٤ مخطوط .
(١٤٨) The Book of.. Vol. I. P. 242
(١٤٩) Prescott: Op. Cit. P. 181
(١٥٠) Hinckley: op. cit. vol. I , P 35
(١٥١) لجنة من الأدباء : نفس المرجع ، صـ١٥٩ .
(١٥٢) Lees: op. cit. P. 112.
(١٥٣) The Travels of. vol. I, p. 462
(١٥٤) Treatis on the Holy.. pp. 203- 204
(١٥٥) Palestine Exploration fund (1855- 86) London 1889, P- 85.
(١٥٦) الأنس الجليل ، جـ٢ ، ص٥٣١ .
(١٥٧) Wilkinson: Op. cit. P. 129.
(١٥٨) Ibid, P. 84.
(١٥٩) عمر صالح البرغوثي : تاريخ فلسطين ، ص١٩٩ - ٢٠١ ، حول بيت المقدس صـ٣٤ .
(١٦٠) محمود العابدي : قدسنا ، ص١٢٢ - ١٢٣ .
(١٦١) عمر صالح البرغوثي : نفس المرجع ، ص٢٠١ ، Margo Liouth: Op. Cit. P. 208 .
(١٦٢) سعيد عاشور : المجتمع المصري ، ص١٧٧ نقلا عن ابن الحاج : المدخل ، جـ١ ، ص٢٨٩ .
(١٦٣) العمري : مسالك الأبصار ، جـ١ ، صـ٣٥ ، أحمد رمضان : المجتمع الإسلامي في بلاد الشام ص٢٤٢ .
(١٦٤) الأنس الجليل ، جـ٢ ، ص٤٦٨ .
(١٦٥) المصدر نفسه ، جـ٢ ، ص٣٨٥ ، رشاد الأمام : نفس المرجع ، صـ١٧٥ .
(١٦٦) المقريزي : السلوك ، جـ٤ ، قسم ١ ، ص٤٢١ .

(١٦٧) مجير الدين : نفس المصدر ، جـ٢ ، صـ٣٨٥ ، رشاد الأمام : نفس المرجع ، صـ١٧٥ .
(١٦٨) ابن بطوطة : الرحلة ، بيروت ١٩٦٤ ، صـ٣١ ، سعيد عاشور : المجتمع المصرى ، صـ١٨٥ .
(١٦٩) سعيد عاشور : نفس المرجع ، صـ١٨٥ ، ١٨٦ .
(١٧٠) محمد محمد أمين : نفس المرجع ، صـ١٤٢ - ١٤٨ .
(١٧١) صبح الأعشى ، جـ٢ ، ص٤١٩ - ٤٢٥ .
(١٧٢) المصدر نفسه ، جـ٢ ، ص٤١٥ .
(١٧٣) يوسف الدبس : الجامع المفصل ، ص٤٠٥ .
(١٧٤) الدمشقى : نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر ، طبع بطرسبرج ١٨٦٥ م ، ص٢٧٩ .
(١٧٥) آدم ميتز : الحضارة الإسلامية ، جـ٢ ، ص٢٠٨ .
(١٧٦) لجنة من الأدباء : لبنان مباحث عملية واجتماعية ، ص٦٥ .
(١٧٧) ابن الوردى : تاريخ ، جـ١ ، ص٨٠
(١٧٨) آدم ميتز : الحضارة الإسلامية ، جـ٢ ، ص٦٠٨ .
(١٧٩) المرجع السابق نفسه والصفحة ذاتها .
(١٨٠) ابن الوردى : نفس المصدر ، جـ١ ، ص٨٠ ، القلقشندى : نفس المصدر ، جـ٢ ، ص٤١٥ .
(١٨١) رشاد الأمام : نفس المرجع ، ص١٨٠ ، ١٨١ ؛ Avoyage. P. 12
(١٨٢) صبح الأعشى ، جـ٢ ، صـ٤١٥ - ٤١٦
(١٨٣) يوسف الدبس : نفسه ، ص٤٠٦
(١٨٤) جرجس فيلوثاؤس : تصحيح حساب الأيام صـ٤ ، ٥ ، ٦٣ - ٦٩ .
(١٨٥) A voyage Beyond The Sea, P. 22
(١٨٦) لجنة من الأدباء : نفس المرجع ، صـ١٦٦ .
(١٨٧) الدمشقى : نخبة الدهر ، صـ٢٨٠ .
(١٨٨) Murray: Op. Cit. vol. I, P. 77.
(١٨٩) القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ٢ ، ص٤١٦
(١٩٠) يوسف الدبس : الجامع المفصل ، صـ٤٠٥ .
(١٩١) الدمشقى : نفس المصدر ، صـ٢٨١ .
(١٩٢) المسعودى : مروج الذهب ، القاهرة ١٣٤٦هـ ، جـ١ ، صـ٣٥١ .
(١٩٣) آدم ميتز : الحضارة الإسلامية ، جـ٢ ، صـ٢٠٩ .
(١٩٤) فرح أنطون : أورشليم الجديدة ، الأسكندرية ١٩٠٤ ، صـ٤ .
(١٩٥) لمزيد من المعلومات عن الأعياد راجع القلقشندى ، صبح ، جـ٢ ، ٤١٥ - ٤٩٥ .
(١٩٦) سعيد عاشور : المجتمع المصرى ، ص١١٩ .
(١٩٧) Adler: Op. Cit. P. 194
(١٩٨) السخاوى : التبر المسبوك ، ص٣٩١ .
(١٩٩) سعيد عاشور : المجتمع المصرى ، صـ١٢٠ .
(٢٠٠) رحلة ابن بطوطة ، صـ٦٣ .
(٢٠١) السخاوى : التبر المسبوك ، ص٣٠٢ ، ابن تغرى بردى : منتخبات من حوادث الدهور ، جـ١ ، ص٦٦ - ٦٧ ، سعيد عاشور : المرجع السابق ، ص١٢١ .
(٢٠٢) المرجع السابق ، ص١٢١ .
(٢٠٣) أسعد منصور : تاريخ الناصرة من أقدم أزمانها إلى أيامنا الحاضرة ، طبع القاهرة ١٩٢٤ م ، ص٢٧٦ .
(٢٠٤) نعمان القساطلى : الروضة الغناء فى دمشق الفيحاء ، بيروت ١٨٧٩ ، ص١٢٧ .
(٢٠٥) كرد على : خطط الشام ، جـ٦ ، ص٢٩٣ .
(٢٠٦) عن درجات التحريم هذه راجع ، Bliss: Op. Cit. P. 145
(٢٠٧) Ibid: P. 147.

(٢٠٨) Less: Op. Cit. P. 118
(٢٠٩) لجنة من الأدباء : نفس المرجع ، صـ١٥٣ .
(٢١٠) أسعد منصور : تاريخ الناصرة ، صـ٢٢٧ .
(٢١١) المرجع السابق نفسه والصفحة ذاتها .
(٢١٢) لجنة من الأدباء : نفس المرجع ، صـ١٥٤ .
(٢١٣) أسعد منصور : نفس المرجع ، صـ٢٧٨ .
(٢١٤) المرجع السابق ، صـ٢٧٨ .
(٢١٥) Bliss: Op. cit. pp. 147- 149
(٢١٦) لجنة من الأدباء : نفس المرجع ، ص١٥٦ .
(٢١٧) كرد علي : خطط الشام ، جـ٢ ، صـ٢٩٤ .
(٢١٨) نعمان القساطلي : الروضة الغناء فى دمشق الفيحاء ، صـ١٢٨ .
(٢١٩) Lees: op. cit. PP. 145- 147.
(٢٢٠) لجنة من الأدباء : نفس المرجع ، صـ١٤٩ .
(٢٢١) أسعد منصور : تاريخ الناصرة ، صـ٢٧٥ .
(٢٢٢) المرجع السابق ، صـ٢٧٥ .
(٢٢٣) المرجع نفسه ، صـ٢٧٥ .
(٢٢٤) سعيد عاشور : المجتمع المصرى ، صـ١٢٤ .
(٢٢٥) Lees: op. cit. p. 106
(٢٢٦) سعيد عاشور : نفس المرجع السابق ، صـ١٢٤ — ١٢٥ .
(٢٢٧) لجنة من الأدباء : نفس المرجع ، صـ١٤٩ .
(٢٢٨) أسعد منصور : نفس المرجع ، صـ٢٧٥ .
(٢٢٩) المقريزى : ذكر دخول قبط مصر دين النصرانية ، صـ١٦٦ .
(٢٣٠) Bliss: op. cit. p. 140
(٢٣١) لجنة من الأدباء : المرجع نفسه ، صـ١٥٠ .
(٢٣٢) المرجع السابق ، صـ١٥٠ .
(٢٣٣) Treatise, p. 205
(٢٣٤) The Travels of. pp. 13- 14
(٢٣٥) Ne wett: Op. cit. pp. 257- 259
(٢٣٦) سعيد عاشور : المجتمع المصرى ، صـ١٢٧ .
(٢٣٧) لحد صعب ، مختصر تاريخ طائفة الروم ، بيروت ١٩١٤ ، صـ٢٠٣ .
(٢٣٨) Lees: op. cit. pp. 108- 113
(٢٣٩) لجنة من الادباء : لبنان مباحث علمية واجتماعية ، ١٤٧ .
(٢٤٠) Iees. Village life. pp. 120-197;
(٢٤١) Ibid Op cit pp.92-157 Bartlett: Jerusalem. p. 15.
(٢٤٢) الحضرة الأنيسية فى الرحلة القدسية ، ص ٥٥
(٢٤٣) Aamiry: op. cit. p. 9, Dudly: op. cit. p. 35
(٢٤٤) آثار البلاد وأخبار العباد ، صـ١٦١ .
(٢٤٥) مسالك الأبصار ، جـ٥ ، ص١٨٠ مخطوط .
(٢٤٦) الأنس الجليل ، جـ٢ ، صـ٤٠٦ .
(٢٤٧) P.P.T.S. vol. 1x, p. 226

(٢٤٨) Ray john: op. cit. p. 22
(٢٤٩) Conder: op. cit. p. 185
(٢٥٠) Lees: op- cit. p. 104
(٢٥١) Smail: The crusaders In Syria. p. 79

(٢٥٢) يوشع براور : عالم الصليبين ، صـ١٤٤ .
(٢٥٣) لجنـــــة من الأدبـــــاء : نفس المرجـــــع ، ص٢٦٧ ، Ray jahon: op. cit. p.22
(٢٥٤) يوشع براور : نفس المرجع ، ص١٤٣ .
(٢٥٥) Fabri: p.p.t.s. vol. v 11, p 261
(٢٥٦) Prescott: op. cit. p. 178.
(٢٥٧)
(٢٥٨) Murray: op. cit. vol. I, p 136, Smith: op. cit. p.112
(٢٥٩) عارف العارف : تاريخ القدس ، ص٢٠٣
(٢٦٠) رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، جـ١ ، ص٣٩٣ – ٣٩٤ ، ج٢ ، ص٥٠٨
(٢٦١) أسعد منصور : نفسه ، ص١٥ ، Smail: op. cit. p. 87
(٢٦٢) Lees: op. cit. p. 82
(٢٦٣) Joshua prawer: op. cit. pp. 336- 367
(٢٦٤) Lees: op. cit- p. 95

(٢٦٥) Lees: op. cit. pp. 103- 105
(٢٦٦) Ibid: PP. 82o 83
(٢٦٧) ابن جبير : الرحلة ، صـ٢٨٣ .
(٢٦٨) Ibid: op. cit. p. 84
(٢٦٩) عن كثير من هذه الأمراض الاجتماعية راجع سعيد عاشور : المجتمع المعدى ، صـ٢٢٥ – ٢٣٥ .

(٢٧٠)تاريخ ابن قاضى شهبة ، ص ٦٦٦ فى ذكر حوادث سنة ٨٠٠ هـ .
(٢٧١) مقدمة ابن خلدون ، ص ٤١٨
(٢٧٢) أحمد عبد الرازق أحمد : البذل والبرطلة زمن سلاطين المماليك ؛ دراسة عن الرشوة ؛ طبع الهيئة المصرية العامة لكتاب ١٩٧٩ ، ص٥٠ .
(٢٧٣) المرجع السابق والصفحة ذاتها .
(٢٧٤) أحمد عبد الرازق أحمد : نفس المرجع ، ص ٩٧ .
(٣٧٥) المرجع السابق ، ص ١٣٣ –١٣٩ .
(٢٧٦) مجير الدين الأنس الجليل ، جـ٢ ، ص ٢٧٦ ؛ المرجع السابق ، ص ٥٠ .
(٢٧٧) أحمد عبد الرازق أحمد : المرجع السابق ، ص ٦٥ .
(٢٧٨) الأنس الجليل ، جـ٢ ، ص ٢٩٧ ؛ المرجع السابق ، ص ١١٦ .
(٢٧٩) الضوء اللامع ، جـ٩ ، ص ١١٠ ؛ الأنس الجليل ، جـ ٢ ، ص ٣٤٠ – ٣٤١ ؛ احمد عبد الرازق : المرجع السابق ، ص ١١٦ .
(٢٨٠) إنباء الغمر ، جـ٢ ، ص ٩٢ ؛ احمد عبد الرازق : المرجع نفسه ، ص ١٢٦ .

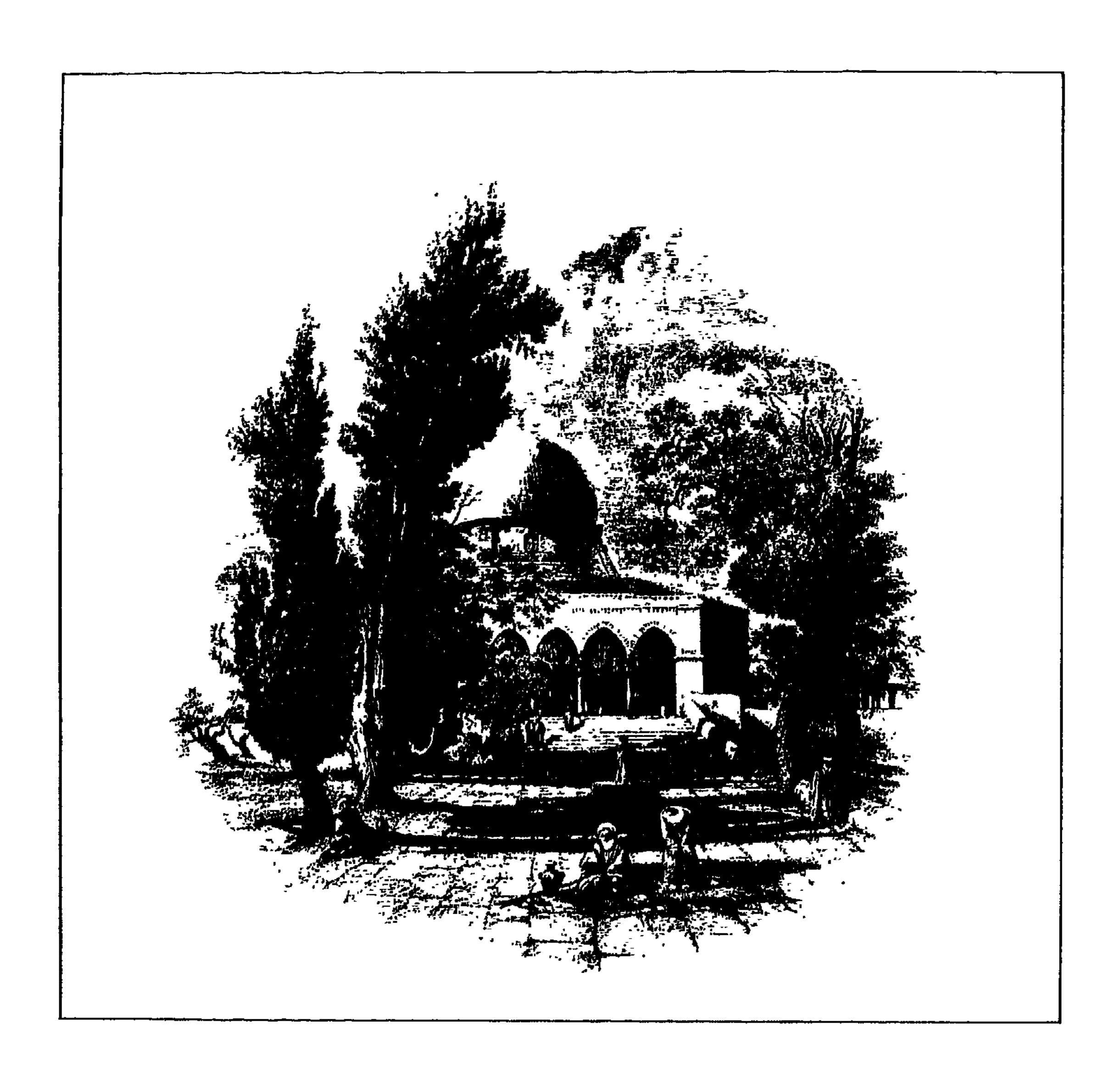
(٢٨١) الأنس الجليل ، جـ٢ ، صـ٩٢ .
(٢٨٢) أحمد عبد الرازق : البذل والبرطلة ، صـ١٤٨ ، ١٤٩ .
(٢٨٣) الخطط ، جـ٢ ، صـ٢١٤ ، المرجع السابق ، صـ١٣٢ .
(٢٨٤) Treatise on the holy land, p. 207.
(٢٨٥) أحمد عبد الرازق : نفس المرجع ، صـ١٣٣ – ١٣٤ .

(٢٨٦) المرجع السابق ، صـ١٣٤ – ١٣٨ .

(٢٨٧) أديب لحود : العادات والأخلاق اللبنانية ، صـ١٤٤ .

(٢٨٨) Treatls on the Holy and p. 233.

ملاحق الكتاب



ملحق رقم (١)

أسماء أمراء المماليك الذين نفوا إلى القدس والسنوات التي ورد ذكرهم فيها والمصدر .

اسم الأمير	السنة	المصدر والصفحة
الأمير علاء الدين ايدغوى الكبكى	٦٨٨	ابن حبيب : تذكرة النبيه جـ١ ص١٢٨
الأمير بلبغا التركمانى	٦٩٨	ابن تغرى بردى : النجوم جـ٨ص١٧٣
الأمير خاص ترك	٦٩٨	ابن تغرى بردى : النجوم جـ٨ص١٧٣
الأمير أيدمر المرتجى	٦٩٨	المقريزى السلوك جـ٢ قسم ١ص٣٥
الأمير كراى	٧٠٧	المقريزى السلوك جـ٢ قسم ١ص٣٧
جماعة من الأمراء	٧٠٧	المقريزى السلوك جـ٢ قسم ١ص٢٥٥،٢٣٨،٤٧٠
الأمير كافور الهندى	٧٤٧	المقريزى السلوك جـ٢ قسم ٣ص٧٠٦
الأمير عنبر السحرتى	٧٤٩	المقريزى السلوك جـ٢ قسم ١ص٧٩٦
الأمير سيف الدين حارس الطير	٧٥٦	المقريزى الخطط جـ٢ ص٤٠٧
الأمير أرغون الكاملى	٧٥٨	المقريزى السلوك جـ٣ قسم١ ص٥٨
الأمير فخر الدين ماجد	٧٦٢	المقريزى السلوك جـ٣ قسم١ص٥٨
الأمير طاز	٧٦٢	المقريزى السلوك جـ٢ قسم ١ص٩٥
الأمير طيبغا الطويل	٧٦٤	ابن تعرى بردى :النجوم ج١١ ،ص٣٢
الأمير طيبغا الطويل	٧٦٧	ابن إياس :بدائع الزهور ج١قسم٢ص٢٨
الأمير أرغون القشمرى	٧٦٨	ابن حجر الدور الكامنة ج١ص٣٥٣
الأمير أرغون الأحمدى	٧٦٨	

اسم الأمير	السنة	المصدر والصفحة
الأمير بشتاك العمري	٧٦٩	المقريزي : السلوك ج٣قسم١ص١٦١ ، ١٦٨ .
الأمير أشقتمر الماردينى	٧٧٨	ابن تغرى بردى :النجوم ج١١ص١٦٧
الأمير ناصر الدين محمد ابن اقبغا	٧٧٨	المقريزى : السلوك ج٣ قسم١ ص٢٦٨
الأمير بلاط أمير سلاح	٧٧٨	ابن تغرى بردى :النجوم جـ١١ ص١٦٢
الأمير بورى الأحمدى	٧٨٠	المقريزى : السلوك ج٣قسم١ ص٣٣٨ .
الأمير تمرباى الدمرداش	٧٨٠	المقريزى : السلوك ج٣قسم١ص٣٣٧
الأمير أشقتر نائب حلب	٧٨٠	ابن حجر : إبناء الغمر ،جـ١ص١٧٦
الأمير تمرباى	٧٨١	ابن قاضى شهبة : تاريخ ص٧
الأمير بيدمر الخوارزمى	٧٨١	المقريزى : السلوك ج٣قسم١ص٣٦٠
الأمير تمرباى نائب حلب	٧٨١	ابن حجر : إنباء الغمر ج١ص١٩٢
الأمير طشتمر الدويدار	٧٨٢	ابن حجر : إنباء الغمر ج١ص٢١٥
الأمير تغرى برمش	٧٨٢	تابن قاضى شهبه :تاريخ ،ص٦٥
الأمير اشقتمر الماردينى	٧٨٣	ابن قاضى شهبه : تاريخ ،ص٦٥
الأمير تمرباى	٧٨٣	ابن قاضى شهبه : ص٦٣
الأمير تغرى برمش	٧٨٣	المقريزى : السلوك ج٣ قسم٢ص٤٥٧
الأمير طشتمر الدويدار	٧٨٤	ابن قاضى سهبة :تاريخ ، ص٨٧
الأمير طشتمر بن عبدالله	٨٨٧	ابن تعرى بردى :النجوم ج١١ ،ص٣٠٤
الأمير اشقتمر الماردينى	٧٧٨	المقريزى : السلوك ج٣ ، قسم٢ص٥٤٩
الأمير شيخ الصفوى	٧٩٢	ابن تعرى بردى :النجوم ج١٢ص٧١
الأمير قدير نائب اسكندرية	٧٩٢	ابن تعرى بردى :النجوم ج١٢ص٦٧
الأمير بكلمش العلائى	٧٩٢	ابن تغرى بردى : النجوم ج١٢ص٨٩
الأمير قنقباى رأس نوبة	٧٩٦	ابن قاضى شهبة : تاريخ ص٥٠٢
الأمير قديد	٧٩٩	ابن حجر : إنباء الغمر ج١ص٥٢٧
الأمير بكلمش لعلائى	٨٠٠	ابن قاضى شبهه :تاريخ ص٦٦٦
الأمير شيخ الصفوى	٨٠٠	ابن حجر إنباء الغمر ج٢ص٩
الأمير علاء الدين الطبلاوى	٨٠١	ابن حجر انباء الغمر ج٢ص٥٢
الأمير تغرى بردى	٨٠١	ابن حجر انباء الغمر ج٢ص٤٥
الأمير قديد القلمطاوى	٨٠١	ابن حجر ابناء الغمر ج٢ص٨٠
الأمير أقبغا الأطروش	٨٠٢	المقريزى السلوك ج٣قسم٣ص١٠٢٣
الأمير تغرى بردى	٨٠٢	المقريزى السلوك جـ٢ قسم ١ص١٠٢٣

اسم الأمير	السنة	المصدر والصفحة
الأمير تمريغا المنجكي	٨٠٣	ابن الصيرفي :نزهة النفوس ج٢ص٨٠
الأمير أقبغا الجمالي	٨٠٣	البدر العيني : السيف المهندس٢٤٤
الأمير تغرى بردى	٨٠٤	ابن حجر ، إنباء الغمر ج٢ص٢٠٦
الأمير أقبغا نائب الشام	٨٠٤	المقريزي : السلوك ج٣قسم٣ص١٠٨٧
الأمير شيخ الأطروش	٨٠٥	ابن الصيرفي :نزهة النفوس ج٢ص١٥٧
الأمير آقبغا الجمالي	٨٠٥	ابن الصيرفي : نزهة النفوس ج٢ص١٥٧
الأمير سيف الدين آقبغا	٨٠٦	ابن تغرى بردى :النجوم ج١٣ص٣٦ .
الأمير نوروز الحافظي	٨٠٨	المقريزي السوك ج٤قسم١ حوادث٨٠٨
		ابن تغرى بردى : النجوم ج١٣،ص٤٩
الأمير تغرى بردى	٨١٣	ابن تغرى بردى :النجوم ج١٣ص١١٧
الأمير جرباش كباشة		
والأمير ارغمون من يشبغا	٨١٧	ابن تغرى بردى النجوم ج١٤ص٢٣
		ابن اياس بدائع الزهور ج٢ص٢٩
الأمير الطنبغا العثماني	٨٢٠	ابن تغرى بردى : النجوم ، ص١١٤، ص٥٩ .
		ابن الصيرفي : نزهة النفوس ، ج٢ ، ص٣٩٥
الأمير سيف الدين بيسق بن		ابن تغرى بردى النجوم ،ج١٤ ، ص١٥٠،
عبدالله الشيخي الظاهر ، أحد		ابن الصيرفي نزهة النفوس ج٢ص٤٤٣ ،
الأمراء الطبلخانات وأميرا آخورثاني	٨٢١	ابن اياس بدائع الزهور ج٢ص٣٨ .
الأمير قرا مراد خجا	٨٢٢	ابن تغرى بردى النجوم ،ص١٤ ،ص٩٠
		ابن الصيرفي نزهة النفوس ج٢ ص٤٤٩
الأمير يشبك الساقي الظاهري		ابن تغرى بردى:النجوم ،ج١٤
الأعرج	٨٢٤	ص١٧٩ ، ابن اياس : بدائع الزهور ج٢ ، ص٦٦ .
الأمير شرباش قاشق	٨٢٤	ابن الصيرفي :نزهة النفوس ج٢ص٥٠٥
والأمير أبطنبغا المرقبي		
الأمير طوغان أمير آخور	٨٢٤	ابن الصيرفي: نزهة النفوس ج٢ص٥٠٨
الأمير أيامش الخضري	٨٢٥	ابن تغرى بردى ، النجوم ج١٤ص٢٢٦ ص٢٣١
		ابن اياس بائع الزهور ج٢ص٧٨ .
الأمير سودون الفقيه الجركي	٨٢٦	ابن اياس بدائع الزهورج٢ص٨٥

اسم الأمير	السنة	المصدر والصفحة
الأمير ايشال الجكمي	٨٢٧	ابن تغرى بردى : النجوم ج١٤ ص٢٢٧
الأمير طرباي	٨٢٨	ابن تغرى بردى : النجوم ج١٤ ، ص٢٧٧
الأمير أزبك المحمدى الدوادار	٨٣١	ابن تغرى بردى : النجوم ج١٤ ، ص٣٢١
الأمير يبغا المظفرى	٨٣١	ابن تغرى بردى : النجوم جـ١٤ ، ص٣٢١٩ ابن إياس بدائع الزهور ، جـ٢ ، ص١٢١
الأمير الطنبغا المرقبى حاجب الحجاب والأمير أيتمش الخضرى الظاهرى الأستادار	٨٣٦	ابن تغرى بردى : النجوم ج١٤ ، ص٣٧٢ السخاوى الضوء اللامع جـ٢ ، ص١٠٦٠
الامير خجا سودون	٨٤٢	ابن اياس بدائع الزهور جـ١ ، ص ٢٠٠
الزينى عبد الرحيم بن الكويز	٨٤٦	ابن اياس بدائع الزهور جـ٢ ، ص ٢٣٥
شادبك الحكمى واينال الأبو بكرى	٨٥١	ابن إياس بدائع الزهور جـ٢ ، ص ٢٦١
وأعيد الأمير أيتال الأبو بكرى إلى القدس بطالا كما كان	٨٥٢	ابن أياس بدائع الزهور جـ٢ ، ص ٢٦٥
الامير جوهر النوروزى مقدم المماليك	٨٥٥	ابن إياس بدائع الزهور جـ٢ ص ٢٨٧
الأمير قراجا الخازندار وهو من مقدمى الألوف	٨٥٧	ابن أياس بدائع الزهور جـ٢ ص٣١٢ ابن أياس صفحات لن تنشر من بدائع الزهور .
الأمير تمراز الأشرفى الدوادار .	٨٥٨	ابن أياس بدائع الزهور جـ٢ ص ٣١٩
جماعة كبيرة من الأمراء	٨٧٢	مجير الدين الأنس الجليل جـ٢ ، ص ٦١٧ — ٦١٨ .
أمير حاج المحمل		ص ٩ .
الأمير سيف الدين الأشرفى . يرسبال	٨٧٣	ابن الصيرفى بدائع الزهور جـ٢ ص ٨٠ — ٨١ .

اسم الأمير	السنة	المصدر والصفحة
الأمير مغلباى ازن سقل الظاهرى الخشقدمى من مقدمى الألوف بمصر .	٨٧٤	ابن أياس بدائع الزهور ، جـ٣ ، ص٣٩ .
الأمير برديك بن عبدالله الأمير سيف الدين الفارسى الظاهرى جِقمق كافل المملكة الحلبية والشامية .	٨٧٥	ابن الصرف : إبناء الصهر بأنباء العصر ص٣٠٠ - ٣٠١ .
الأمير تانى بك المحمدى		ابن الصيرفى ابناء الصهر ص٢١٥
الأمير خلير بك الخشقدمى	٨٧٨	ابن إياس بدائع الزهور ،ج٣،ص٩٠
الأمير شادبك أتابك	٨٨٥	ابن طولون : مفاكهةُ الخلان القسم الأول ص٢٦.
الأمير قانصوه اليحياوى	٨٨٦	ابن طولون : مفاكهة الخلان القسم الأول ص٥١
جماعة من مماليك السلطان	٩٠٣	ابن طوون : فاكهة الخلان القسم الأول ص٢٦ .
الناصر محمد بن قايتباى		ص١٨٨ .
جماعة من أمراء الشام	٩٠٥	ابن طولون : مفاكهة الخلان القسم الأول ص٢٦٦ .
نائب الكرك	٩١٢	ابن إياس : بدائع الزهور ، ج٤ ص٩٤ .

هذا بخلاف ماتشير إليه بعض المصادر المعاصرة من أن بيت المقدس كانت مأوى لكثير من القارين والمستأمنين من الأمراء المماليك ، عن ذلك راجع ابن الصيرفى انباء الصهر فى ذكر حوادث سنة ٨٧٦هـ .

ملحق رقم (٢)

رسوم الحج كما أوردها د . أحمد دراج فى وثائق دير صهيون ص٧٥ - ٧٨ وهى الرسوم التى كان معمولا بها منذ سنة ١٣٦٥ م ووفقا للمعاهدة التى أبرمت بين فرسان القديس يوحنا والسلطان فرج سنة ١٤٠٣ م ، حيث كان لهم رعاية الحجاج .

بحارة يافا	١ درهم
الشاد واللمباشرون بالرملة	١ درهم
نائب القدس	٣ درهم
حارس كنيسة صموئيلل	٥ر١ درهم
حارس كنيسة المهد ببيت لحم	١ درهم
حارس برج سيدنا داود	٢ درهم
الحارس عند مكان عبور نهر الأردن	٢ درهم
حارس بيت عنيا وتربة لعاذر	٥ر١ درهم .

غير أن الحقيقة أن مجموع الرسوم والإتاوات التى كان يدفعها الحاج تتجاوز هذه المبالغ بكثير ، فكلما ازدادت الحالة الإقتصادية فى البلاد سوءا وازدادت حاجة الدولة إلى المال ، ازدادت بالتالى الرسوم التى كانت تجبى من كل حاج .

موجب السلطان ٥ دوكات ذهبية وكل دوكات ذهبية تساوى ٢٢ دوكات فضية ، والدوكات الفضية تساوى درهما فضيا ، أى أن كل حاج كان يدفع ١١٠ درهما موجب السلطان عند زيارته لكنيسة القيامة الأولى .

رسم الزيادة الثانية لكنيسة القيامة	٤ دراهم
رسم الزيارة الثالثة لكنيسة القيامة	٢ دراهم
رسم زيارة القبر المقدس فيما عدا الزيارات الثلاث	٢٢٠ درهما

هذا عدا ماكان يتحمله الحاج من أتاوات يدفعها لإرضاء ناظر كنيسة قيامة ومن تبعه من حراس الكنيسة والذى بلغ عددهم خمسة عشر حارسا .

ملحق رقم (٣)

رسوم الحج كما يرويها لنا الأب سوريانو رئيس طائفة الرهبان الفرانسيسكان ، والذى عاش فى بيت المقدس فترة طويلة ، إن الرسم كانت على النحو التالى ، راجع

Treatise on The Holy hand P. 34.

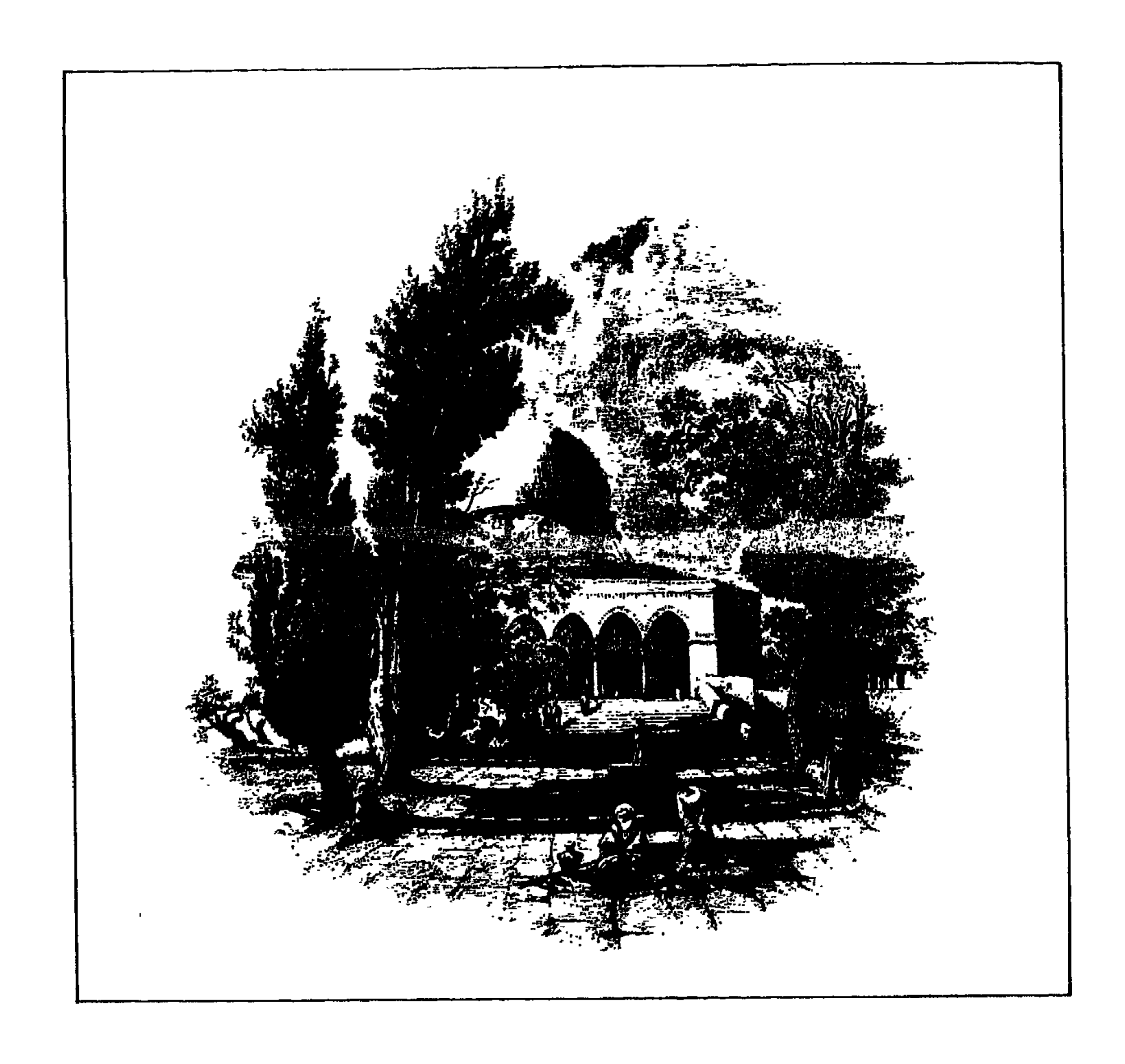
ضريبة السلطان (موجب السلطان)	٧ دوكات ذهبية ، ١٧ جروسى

مترجم السلطان	١ دوكات ذهبية
حارس باب كنيسة القيامة	٥ر٢٧ جروسى
لزيارة المنطقة الجبلية كلها	٣ دوكات ذهبية
لستة أماكن يزورها الحاج	٦ دوكات فضية
للمرشد الذى يرشدهم فى هذه الأماكن	٨ دوكات فضية
نزل الرملة	٤جروسى
حارس يافا	١ جروسى
حاكم الرملة	٣ جروسى
كنيسة القديس جورج	١ جروسى

ومجموع هذه المصاريف كان يبلغ ٥ر١٣ دوكات ذهبية أى مايعادل ٢٩٧ درهما فضيا .

أما الستة أماكن التى كان يقوم الحجاج بزيارتها ، ويدفعون عن كل مكان منها جروسى واحد كرسم ، وآخر للمرشد هى : بيت لحم ، بيسان ، عين كارم ، جبل الزيتون ، قبر العذراء ، والبرك .

الخاتمة



إن التاريخ يشهد على أن الفوضى وسوء الأحوال وإنتشار الأخطار والمخاوف كثيرا ما ينتهى بظهور أحد المصلحين الذى يضع حدا لتلك الفوض والأخطار ، ويوفر الأمن والأستقرار بعد كثرة المعاناة من القلق . ومن خلال دراستنا لمدينة بيت المقدس فى عصر سلاطين المماليك ، يتضح لنا أن هذا ما ينطبق تماما على أحوال المدينة فى عهد خلفاء صلاح الدين الأيوبى ، حيث عاشت المدينة فى حالة من الترقب والقلق ، تتطلع إلى اليوم الذى يتحقق فيه الأمن والاستقرار ، وقد تحقق لها هذا على يد دولة سلاطين المماليك الناشئة فى مصر وبخاصة عقب موقعة عين جالوت ٦٥٩ هـ / ١٢٦٠ م . حيث عجلت هذه الموقعة بزوال الامارات الصليبية ، إذا استعاد المسلمون قدرتهم بسرعة فائقة ، وأصبح بإمكانهم العمل للتخلص نهائيا من أعدائهم . وبذلك يمكننا القول أن معركة عين جالوت كانت نقطة التحول الحاسمة فى الصراع ضد الصليبيين والمغول فى وقت واحد ، وهنا تبدو أهمية هذه الموقعة فى نتائجها المباشرة على بيت المقدس ، اذ أدخلتها وبلاد الشام تحت سيطرة القوة الناشئة لدولة المماليك فى مصر ، والتى بقيامها بطرد البقايا الصليبية حققت للمدينة بصفة خاصة ما كانت تتوق إليه من زمن بعيد من أمن واستقرار .

ولكننى لا أرى بدا من الملاحظة من أن مدينة بيت المقدس ــ وقد كانت القبلة الأولى فى الاسلام ، وكان مسجدها الأقصى الذى تم الاسراء إليه ، وقد شهد فتحها عمر بن الخطاب ــ لم تحظ باهتمام المؤرخين المسلمين بالدرجة التى حظيت بها مدينتنا القاهرة ودمشق وبعض المدن الأخرى ذات الأهمية الإدارية أو السياسية ، وكأنهم يريدون إشعارنا بأن الاهتمام بها قد انتهى برجوعها لحوزة الإسلام ، هذا على عكس ما ملاحظة فى الغرب الأوربى فى تلك الفترة بالذات من الاهتمام بمدينة بيت المقدس ، والذى يتجلى بوضوح فى كتابات كثير من الحجاج والرحالة الغربيين ، سواء المسيحيين منهم أم اليهود ، والذين أفردوا كثيرا من الكتب للحديث عنها ، وهذا يعكس لنا مدى الاهتمام بها بعد فقدانها ، ولعل هذا يفسر لنا أيضا أن السر فى عظمة هذه المدينة وشهرتها فى جميع أنحاء العالم قديمه وحديثه يرجع إلى قدسيتها فى نظر أبناء الديانات السماوية المختلفة ، ولذا فلا غرابة فى أن تكون بمثابة القلب بالنسبة لكل البلدان العربية والأوربية فى تلك العصور التى تميزت بوضوح

النزعة الدينية وسيطرتها على المعاصرين . فالقدس الشريف معظم عند جميع المسلمين واليهود والنصارى ، ومكان زيارة لهم أجمعين وإنما اختلافهم فى أماكن الزيارة .

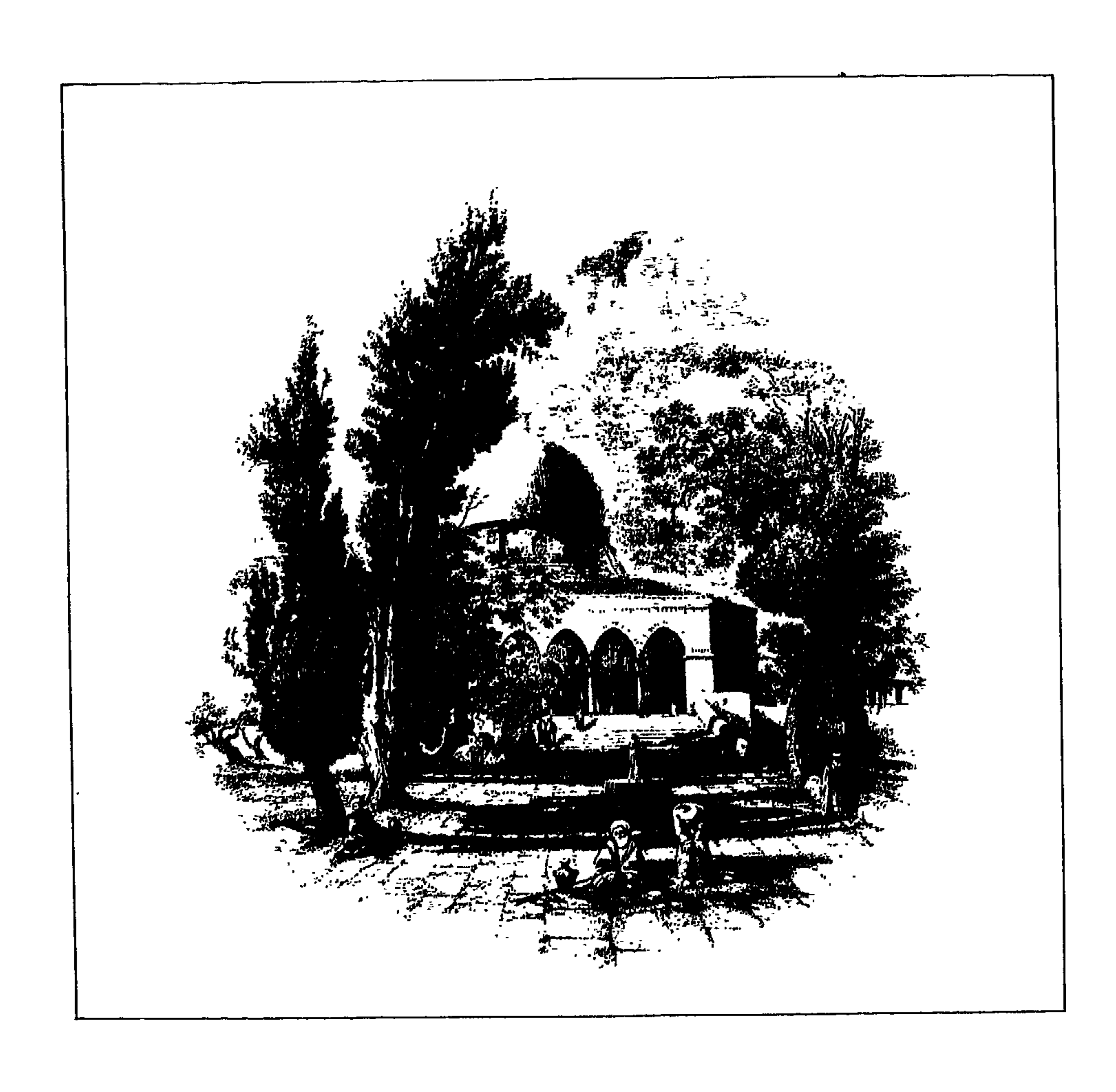
ومدينة بيت المقدس التى تتعرض لمحنة التهويد فى القرن الحالى أى القرن العشرين لم تعرف يوما التعصب والانحياز فى ظل العصر الاسلامى بوجه عام وطوال عصر سلاطين المماليك بوجه خاص ، وقد ظل أهلها يستقبلون الحجاج من كل دين وكل مكان ، ولا نغالى إذا قلنا أن أحدا من حكامها — طوال تلك الفترة من تاريخها التى نتحدث عنها والتى امتدت لأكثر من قرنين ونصف من الزمان — لم يتعرض لذمى فى ممارسة شعائر دينه أو أنه حدث اعتداء على أى من دور العباده الخاصة بأهل الذمة ، بل إن المؤرخين المنصفين وبخاصة من الحجاج المسيحيين واليهود الذين زاروها فى تلك الفترة من تاريخها قد أشادوا بحسن المعاملة التى كانوا يلقونها منذ أن تطأ أقدامهم الأراضى المقدسة الى حين عودتهم لأوطانهم ، فضلا عما لقيه أبناء أهل الذمة المحليين والوافدين على المدينة من السلطات المملوكية من رعاية وعناية تشهد بها كتب المعاصرين من الحجاج المسيحيين واليهود ، كذلك لم يستطع أحد أن ينكر على المسيحيين شوقهم للحج إلى الأماكن المقدسة التى شرفت برسالة عيسى عليه السلام . تماما كما لم ينكر أحد على اليهود يوما ما يربطهم بالقدس . وبذلك عاش كل من المسيحيين واليهود مع السكان المسلمين تحت لواء الحكم المملوكى الإسلامى فى أمن وحرية وطمأنينة . وليس أدل على العناية التى أولاها السلاطين أو الأمراء المماليك للمدينة من أنها لم تكن فى يوم من الأيام أقل مكانة من الأماكن المقدسة الاسلامية الأخرى فى مكة والمدينة ، من أنها ظلت تحمل أسم القدس الشريف مثل « مكة المشرفة » والمدينة « المدينة المشرفة » كذلك كان يطلق على القدس ومقام الخليل عليه السلام « الحرمان الشريفان » .

وبعبارة أخرى يمكننا القول أن سلاطين المماليك من خلال سياستهم الدينية التى لم تعرف التعصب ، والتى حرصوا فيها على تأكيد نفوذهم فى الأماكن المقدسة الاسلامية ، والتى تجلت أيضا فى العناية وعدم التفريق بين المؤسسات الدينية المختلفة ، فكما عنوا بالمقدسات الاسلامية باعتبارهم حماة الاسلام والمسلمين ، فقد كفلوا لأبناء الديانات السماوية الأخرى حرية العبادة ورعاية مقدساتهم ومؤسساتهم الدينية وعمارتها كلما دعت الحاجة إلى ذلك .

كذلك يمكننا القول أنه من خلال سياستهم الدينية ، والتى حرصوا فيها على تأكيد نفوذهم فى نظر المعاصرين أفادوا بيت المقدس كثيرا ، يظهر هذا من حرص الكثيرين منهم على زيارتها والعناية بمقدسات الاسلام والمسلمين ، فضلا عن تشجيعهم الدائم للنشاط العلمى فى المدينة بما شيدوه من مؤسسات تشهد على ذلك ، بحيث صارت المدينة بمدارسها وعلمائها الكثر قبلة طلاب العلم والمعرفة فى العالم الإسلامى ، وخاصة فيما يتعلق بالعلوم الدينية على مختلف فروعها ، فضلا عن كثرة الأوقاف المحبوسة على المؤسسات الدينية والخيرية المختلفة والتى كانت من أهم عوامل ازدهار الحياة العلمية فى ذلك العصر ، والتى امتد أثرها حتى أواخر عصر سلاطين المماليك .

قائمة المصادر والمراجع

العربيّة والأجنبيّة



المصادر العربية

أولاً : المخطوطات :

– **ابن دقماق** « صارم الدين ابراهيم بن محمد ت ٨٠٩ هـ » الجوهرى الثمين فى سير الملوك والسلاطين ، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ١٥٢٢ .

٢ – **الخيارى** : تحفة الأدباء وسلوة الغرباء المعروف برحلة الخيارى ، مخطوط بدار الكتب برقم ٥٤٥ جغرافياً .

٣ – **العطار الشامى** : رحلة العطار الشامى من دمشق إلى القدس ، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ١٥١٨ تاريخ تيمور .

٤ – **الشيخ العلمى** : « من علماء القرن الثانى عشر الهجرى » كتاب باعث النفوس إلى زيارة القدس المحروس ، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٢٤ تاريخ حليم ، كتبه سنة ١١٢٧ بالقدس الشريف .

٥ – **ابن غانم المقدسى** : « الشيخ نور الدين على » : مختصر الأعلام فى فضائل القدس والشام ، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ١٢٩٧١ ح .

٦ – **ابن غانم المقدسى** : « الشيخ عز الدين عبد السلام » : كتاب مفاتيح الكنوز وحل الرموز ، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٧٤٠ تصوف طلعت

٧ – **ابن فضل الله العمرى** : « شهاب الدين أبو العباس أحمد بن يحيى ت ٧٤٢ هـ » كتاب مسالك الأبصار فى مسالك الأمصار ، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم جـ ٤٣٧٦ .

٨ – **القليوبى** : « الشيخ أحمد شهاب الدين الأزهرى الشافعى من علماء القرن الحادى عشر

الهجرى » : نبذة لطيفة فى مباحث شريفة مشتملة على ما لا يستغنى عن معرفته مما يتعلق بمكة المشرفة والمدينة المنورة وبيت المقدس ، مخطوط بدار الكتب برقم ١٤٠٨ تاريخ تيمور .

٩ – **المقدسى** : « شهاب الدين أحمد بن محمد ت ٧٦٥ هـ » : مثير الغرام إلى زيارة القدس والشام ، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٢٤ تاريخ .

١٠ – **المقدسى** : « الشيخ مرعى بن يوسف الحنبلى » : نزهة الناظرين فى تاريخ من ولى مصر من الخلفاء والسلاطين ، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٣٠٣ تاريخ تمور .

١١ – **المقدسى** : « الشيخ العلامة المشرف بن المرجى بن ابراهيم من علماء القرن التاسع الهجرى » : كتاب مجموع نفيس فيه فضائل بيت المقدس والخليل عليه الصلاة والسلام وفضائل الشام – المسمى فضائل بيت المقدس ، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٢٥٤٢ تاريخ .

١٢ – **المقريزى** : « تقى الدين أحمد بن على ت ٨٤٥ هـ » : كتاب شذور العقود فى ذكر النقود ، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ١٢٠٣٦ ح .

١٣ – **اللقيمى** : « الشيخ مصطفى أسعد ، سبط العلامه نور الدين على بن غانم المقدسى ت ١١٧٨ هـ » : كتاب لطايف أنس الجليل فى تحايف القدس والخليل ، مخطوط بدار الكتب برقم ٥٥٢٥ تاريخ وموانح الأنس برحلتى الوادى المقدس ، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٥٥٣ جغرافية .

١٤ – **المنهاجى السيوطى** : « أبو عبد الله محمد بن شهاب الدين أحمد بن على ت ٨٨٠ هـ » : اتحاف الأخصا بفضائل المسجد الأقصى ، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٤٠٨ تاريخ .

١٥ – **ابن الهائم** : « أبو العباس بن محمد ت ٨١٥ هـ » :
– كتاب نزهة النفوس فى بيان التعامل بالفلوس ، مخطوط بدار الكتب برقم ٢٥٨٧١ .
– مرشدة الطالب إلى أسنى المطالب فى علم الحساب بدار الكتب برقم ك ٣٨١٥ .
– المعونة فى الحساب ، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٦٨ حساب ورياضة .
– اللمع وهى رسالة فى علم الحساب ، مخطوط بدار الكتب برقم ك ٣٨١٥ .
– المناسخات ، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٢٣٠٥ .

١٦ – **مؤلف مجهول** : رحلة إلى فلسطين والقدس ونابلس والخليل وما فى بلاد الشام ، مخطوط بدار الكتب برقم ٧٥٤ جغرافية .

ثانياً : المصادر العربية المطبوعة :

١ - ابن الأثير : « الشيخ العلامة عز الدين أبى الحسن علي ت ٦٣٠ هـ » كتاب الكامل فى التاريخ ، أجزاء ١١ - ١٢ ، طبع دار صادر بيروت ١٩٦٦ م .

٢ - **ابن الأخوة** : « محمد بن محمد بن أحمد القرشى ت ٧٢٩٠ هـ » : كتاب معلم القرية فى أحكام الحسبة ، نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب بالقاهرة ١٩٧٦ م .

٣ - **ابن أيبك الصفدى** : « صلاح الدين خليل ت ٧٦٤ هـ » : كتاب الوافى بالوفيات ، نشر جمعية المستشرقين الألمانية - استانبول ١٩٣١ م .

٤ - **ابن إياس** : « محمد بن أحمد بن إياس الحنفى ت ٩٣٠ هـ »

- صفحات لم تنشر من بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، نشره د . محمد مصطفى - الجمعية الملكية للدراسات التاريخية بالقاهرة ١٩٥١ م

- بدائع الزهور فى وقائع الدهور أجزاء ١ - ٤ ، تحقيق د . محمد مصطفى ، نشر جمعية المستشرقين الألمانية - القاهرة ١٩٦٠ - ١٩٧٢ م .

٥ - **ابن تغرى بردى** : « أبو المحاسن جمال الدين يوسف ت ٨٧٤ هـ »

- النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة أجزاء ٧ - ١٥ طبع دار الكتب المصرية ١٩٣٩ - ١٩٧٢ م

- المنهل الصافى والمستوفى بعد الدوافى جـ ١ تحقيق أحمد سيف نجاتى - طبع دار الكتب المصرية ١٩٥٦ م

- منتخبات من حوادث الدهور فى مدى الأيام والشهور ٤ أجزاء نشر وليام بوبر - كاليفورنيا ١٩٣٠ - ١٩٤٢ م .

٦ - **ابن أجا** : « شمس الدين محمد بن محمود بن خليل الحلبى ت ٨٨١ هـ » تاريخ الأمير يشبك الظاهرى ، تحقيق د . عبد القادر أحمد طليمات دار الفكر العربى ١٩٧٣ .

٧ - **ابن الجوزى** : « الشيخ أبو الفرج ت ٥٩٧ هـ » : فضائل القدس ، نشر دار الآفاق الجديدة - بيروت ١٩٨٠ م .

٨ - **ابن أبى أصيبعة** : « موفق الدين أبى العباس أحمد ت ٦٦٨ هـ » : عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ، نشر دار الفكر ، بيروت ١٩٥٦ .

٩ - **ابن بطوطة** : « أبو عبد الله محمد بن ابراهيم اللواتى ت ٧٧٩ هـ » : تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار المعروفة بالرحلة ، نشر دار صادر بيروت ١٩٦٤ م .

١٠ – **ابن الحاج** : « أبو عبد الله محمد بن محمد العبدرى الفاسى المالكى ت ٧٣٧ هـ » المدخل إلى الشرع الشريف ، ٣ أجزاء طبع المطبعة العامرة الشرقية بالقاهرة ١٣٢٠ هـ .

١١ – **ابن حبيب** : « الحسن بن عمر بن الحسن بن عمر ت ٧٧٩ هـ » تذكرة النبية فى أيام المنصور وبنيه جـ ١ ، تحقيق د . محمد محمد أمين – القاهرة ١٩٧٦ م .

١٢ – **ابن حجر** : « شهاب الدين أحمد بن على بن محمد بن على بن أحمد ت ٨٥٢ هـ »
– الدور الكامنة فى أعيان المائة الثامنة ، ٤ أجزاء ، طبع حيدر آباد الدكن ١٣٤٨ هـ .
– أنباء الغمر بأنباء العمر جزءان ، تحقيق د . حسن حبشى – القاهرة ١٩٦٩ – ١٩٧١ م .

١٣ – **الجيمى** : « الحسن بن أحمد لم تعلم سنة وفاته » : سيرة الحبشة ، تحقيق د . مراد كامل ، مطبعة دار العلم العربى بالقاهرة ت ٨٠٨ هـ .

١٤ – **ابن خلدون** : « عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن محمد بن الحسن بن محمد بن جابر ت ٨٠٨ هـ »
– تاريخ ابن خلدون ٧ أجزاء ، طبع دار الطباعة العامرة ببولاق مصر القاهرة ١٢٨٤ هـ
– المقدمة ، المطبعة الأميرية ببولاق ، ١٣٢١ هـ .

١٥ – **ابن خلكان** : « أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبى البركات ت ٦٨١ هـ » : كتاب وفيات الأعيان وأنباء الزمان ، تحقيق د . احسان عباس ، ٦ أجزاء – بيروت ١٩٦٨ م .

١٦ – **الدمشقى** : « شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبى طالب الأنصارى الدمشقى المعروف بشيخ الربوة ت ٧٢٧ هـ » : نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر – طبع ليبزج ١٩٢٣ م .

١٧ – **الدواداري** : « أبو بكر بن عبد الله بن أيبك ت ٧٣٤ هـ » : كنز الدرر وجامع الغرر – الجزء الثامن وهو « الدرة الزكية فى أخبار الدولة التركية » تحقيق أوليرخ هارمان – القاهرة ١٩٧١ والجزء التاسع وهو « الدر الفاخر فى سيرة الملك الناصر » تحقيق هانس روبرت رويمر – القاهرة ١٩٦٠ م .

١٨ – **الذهبى** : « شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان ت ٧٤٨ هـ » : سير أعلام النبلاء ، ٣ أجزاء ، نشر معهد المخطوطات العربية ودار المعارف بمصر .

١٩ – **السبكى** : « تاج الدين عبد الوهاب ت ٧٧١ هـ » : معيد النعم ومبيد النقم – دار

الكتب العربى بمصر ١٩٤٨م .

٢٠ – **سبط ابن الجوزى** : « أبو محمد يوسف ت ٦٥٤ هـ » : مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان – القسم الأول والثانى من الجزء الثامن – الطبعة الأولى طبع حيدر أباد الدكن – الهند ١٣٧٠ هـ – ١٩٥١ م .

٢١ – **السخاوى** : « شمس الدين محمد بن عبد الرحيم ت ٩٠٢ هـ » : الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، أجزاء ٥ – ١٢ طبع مكتبة القدس بالقاهرة ١٣٥٤ – ١٣٥٥ هـ
– التبر المسبوك فى ذيل السلوك ، نشر مكتبة الكليات الأزهرية القاهرة ١٩٧٤ م .

٢٢ – **السيوطى** : « جلال الدين بن عبد الرحمن بن أبى بكر ت ٩١١ هـ » : حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة جزءان ، القاهرة ١٣٢٧ هـ : نظم العقيان فى أعيان الأعيان ، تحقيق د . فيليب حتى – نيويورك ١٩١٧ : تاريخ الخلفاء ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد القاهرة ١٣٧١ هـ – ١٩٥٢ م .

٢٣ – **ابن شاكر الكتبى** : « فخر الدين محمد بن شاكر بن أحمد ت ٧٦٤ هـ » : فوات الوفيات ، جزءان ، طبع بدار الطباعة العامرة ببولاق مصر – القاهرة ١٢٨٣ هـ .

٢٤ – **أبو شامة** : « شهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل ت ٦٦٥ هـ »
– الروضتين فى أخبار الدولتين ، جزءان ، القاهرة ١٢٨٧ هـ
– الذيل على الروضتين ، الطبعة الثانية ، نشر دار الجيل ١٩٧٤ م .

٢٥ – **ابن شاهين** : « غرس الدين خليل ت ٨٧٣ هـ » : كتاب زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك تصحيح بوليس راويس ، باريس ١٨٩٤ .

٢٦ – **ابن شداد** : « القاضى بهاء الدين ت ٦٣٢ هـ » : كتاب سيرة صلاح الدين الأيوبى المسماة بالنوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، طبع مطبعة الآداب والمؤيد بمصر سنة ١٣١٧ هـ .

٢٧ – **ابن صرى** : « محمد بن محمد ت كتاب الدرة المضيئة فى الدولة الظاهرية – تحقيق وليم مربرينر بركلى ١٩٦٣ .

٢٨ – **ابن الصيرفى** : « على بن داود ابراهيم المعروف بالخطيب الجوهرى ت ٩٠٠ هـ » : نزهة النفوس والأبدان فى تواريخ الزمان أجزاء ١ ، ٢ تحقيق د . حسن حبشى – القاهرة ٧٠ – ١٩٧١ م .
: أنباء الهصر بأنباء العصر – تحقيق د . حسن حبشى – القاهرة ١٩٧٠ .

٢٩ – **ابن طولون** : « شمس الدين محمد بن على بن محمد الصالحى الحنفى ت ٩٥٣ هـ »

– إعلام الورى بمن ولى نائبا من الأتراك بدمشق الكبرى أو تاريخ الشام من قيام دولة المماليك فى مصر إلى صدر العهد العثمانى – تحقيق عبد العظيم حامد خطاب – مطبعة جامعة عين شمس ١٩٧٣
– مفاكهة الخلان فى حوادث الزمان – قسمان ، تحقيق د . محمد مصطفى زيادة – القاهرة ١٩٦٢ .

٣٠ – **عبد الغنى النابلسى** : الحضرة الأنيسية فى الرحلة القدسية – طبع جريدة الاخلاص بمصر ١٩٠٢ م .

٣١ – **ابن عبد الظاهر** : « محيى الدين أبو الفضل عبد الله السعدى ت ٦٩٢ هـ »
– تشريف الأيام والعصور فى سيرة الملك المنصور – تحقيق د . مراد كامل القاهرة ١٩٦١ م .
– الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر – نشر وتحقيق فاطمة صديق ، اكسفورد ١٩٥٦ م .
– الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر – نشر عبد العزيز الخويطر ، الرياض ١٩٧٦ م .

٣٢ – **ابن العبرى** : « غر يغوريوس الملطى ت ١٢٨٦ م » : تاريخ مختصر الدول – نشر الأب أنطون صالحانى اليسوعى – بيروت ١٩٥٨ م .

٣٣ – **ابن العماد الحنبلى** : « أبى الفلاح عبد الحى ت ١٠٨٩ هـ » : شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ، ثمانية أجزاء – نشر مكتبة القدس بالقاهرة ١٣٥١ هـ .

٣٤ – **العماد الأصفهانى** : « أبو عبد الله محمد بن صفى الدين أبى الفرج محمد ت ٥٩٧ هـ »
– سنا البرق الشامى – تحقيق د . فتحية النبراوى – القاهرة ١٩٧٩ م
– الفتح القسى فى الفتح القدسى – القاهرة ١٩٠٣ م .

٣٥ – **العينى** : « بدر الدين أبو محمد محمود بن أحمد بن موسى ت ٨٥٥ هـ » : السيف المهند فى سيرة الملك المؤيد « شيخ المحمودى » القاهرة ١٩٦٦ – ١٩٦٧ م

٣٦ – **أبو الفدا** : « الملك المؤيد اسماعيل ت ٧٣٢ هـ »
– كتاب تقديم البلدان ، حققه م . رينود والبارون ماك كوكين دى سلان ، باريس ١٨٤٠ م
– المختصر فى أخبار البشر ، ٤ أجزاء فى مجلدين – المطبعة الحسينية بالقاهرة ١٣٢٥ هـ
– تاريخ أبى الفدا – أجزاء ٣ ، ٤ طبع القسطنطينية ١٢٨٣ هـ .

٣٧ – **ابن فضل الله العمرى** : « أحمد بن يحيى ت ٧٥٥ هـ »

– التعريف بالمصطلح الشريف – طبع بمطبعة العاصمة بمصر سنة ١٣١٢ هـ .
– مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار ، جـ ١ تحقيق أحمد زكى باشا ، طبع دار الكتب المصرية ١٩٢٤ م .

٣٨ – **ابن الفوطى** : « كمال الدين أبى الفضل عبد الرازق بن الفوطى البغدادى ت ٧٣٢ هـ » : الحوادث الجامعة والتجارب النافعة فى المائة السابعة – بغداد ١٣٥١ هـ .

٣٩ – **ابن قاضى شهبة** : « تقى الدين أبو بكر بن أحمد ت ٨٥١ هـ » : تاريخ ابن قاضى شهبة – الجزء الثالث من المخطوط ، تحقيق عدنان درويش – دمشق ١٩٧٧ م .

٤٠ – **القزوينى** : « زكريا بن محمد بن محمود ت ١٢٨٣ م » : آثار البلاد وأخبار العباد – نشر دار صادر بيروت ١٩٦٠ م .

٤١ – **القلقشندى** : « أبو العباس أحمد بن على ت ٨٢١ هـ » : نهاية الأرب فى معرفة أنساب العرب – منشورات دار البيان بغداد ١٩٥٨ م
– صبح الأعشى فى صناعة الانشا أجزاء ٤ – ١٠ طبع المطبعة الأميرية بالقاهرة ١٩١٤ م .

٤٢ – **ابن كثير** : « الإمام الحافظ عماد الدين أبى الفدا اسماعيل ابن عمر بن كثير القرشى الدمشقى ت ٧٧٤ هـ » : البداية والنهاية فى التاريخ ، أجزاء ١٣ ، ١٤ ، طبع مطبعة السعادة بالقاهرة ١٩٣٩ م .

٤٣ – **مجير الدين الحنبلى** : « أبو اليمن ت ٩٢٧ هـ » : الأنس الجليل بتارخي القدس والخليل ، جزءان طبع المطبعة الوهبية بالقاهرة ١٢٨٣ هـ .

٤٤ – **المقريزى** : « تقى الدين أحمد بن على ت ٨٤٥ هـ »
– البيان والاعراب عما بأرض مصر من الاعراب – تحقيق عبد الحميد عابدين القاهرة ١٩٦١ م
– إغاثة الأمة بكشف الغمة ، نشر د . مصطفى زيادة و د . جمال الدين الشيال – القاهرة ١٩٤٠ م
– كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك الجزء الأول والثانى فى ستة أقسام طبعة ثانية ، تحقيق د . محمد مصطفى زيادة – طبع القاهرة ١٩٤٢ – ١٩٧١ .
والجزء الثالث والجزء الرابع فى ستة أقسام ، تحقيق د . سعيد عبد الفتاح عاشور – القاهرة ١٩٧٠ – ١٩٧٢ م
– الخطط المقريزية – المسماة بالمواعظ والاعتبار ٣ أجزاء طبع بولاق بمصر ١٢٧٠ هـ .

٤٥ – **ناصر خسرو علي** : سفر نامه – نقله للعربية وقدم له د . يحيى الخشاب – طبعة أولى – القاهرة ١٩٤٥ م .

٤٦ – **النعيمي** : « عبد القادر بن محمد النعيمي الدمشقي ت ٩٢٧ هـ » : الدارس في تاريخ المدارس – الجزء الأول – تحقيق جعفر الحسني – مطبعة الترقي بدمشق ١٩٤٨ م .

٤٧ – **الهروى** : « أبو الحسن علي بن أبي بكر ت ٦١١ هـ »
– كتاب الإشارات إلى معرفة الزيارات – تحقيق جانين سورديل – طومين دمشق ١٩٥٣ م .

٤٨ – **الواسطي** : « أبو بكر محمد بن أحمد – من علماء القرن الخامس الهجرى » : فضائل البيت المقدس – نشر معهد الدراسات الآسيوية والأفريقية الجامعة العبرية – أورشليم ، حققه وقدم له ا . حسونه – القدس ١٩٧٩ م .

٤٩ – **ابن واصل** : « جمال الدين محمد بن سالم ت ٦٩٧ هـ »
– مفرج الكروب في أخبار بني أيوب الأجزاء من ١ – ٣ تحقيق د . جمال الدين الشيال القاهرة ٥٣ – ١٩٦٠ م والأجزاء ٤ ، ٥ تحقيق د . حسنين ربيع ، القاهرة ١٩٧٢ – ١٩٧٧ م .

٥٠ – **ابن الوردى** : « الشيخ زين الدين عمر ت ١٣٣١ م »
– تاريخ ابن الوردى ، جـ ٢ طبع النجف ١٩٦٩ م .

٥١ – **ياقوت الحموى** : « شهاب الدين أبو عبد الله ت ٦٢٦ هـ » : معجم البلدان – مجلد ٨ طبع القاهرة ١٩٠٦ م .

٥٢ – **المؤلف المجهول** : « حوليات دمشقية ، نشر وتحقيق د . حسن حبشي – القاهرة ١٩٦٨ م .

ثالثاً : مراجع عربية حديثة :

١ – **ابراهيم علي طرخان** : « دكتور » : النظم الاقطاعية في الشرق الأوسط في العصور الوسطى – القاهرة ١٩٦٨ م .

٢ – **أحمد دراج** : « دكتور » : حجة وقف الأشرف برسباى – مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية – القاهرة ١٩٦٣
– وثائق دير صهيون بالقدس الشريف – مكتبة الانجلو المصرية القاهرة ١٩٦٨
– المماليك والفرنج في القرن التاسع الهجرى – الخامس عشر الميلادى – دار الفكر العربي بالقاهرة ١٩٦١ م .

٣ - **أحمد رمضان** : « دكتور » : المجتمع الإسلامى فى بلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية - القاهرة ١٩٧٧ م .

٤ - **أحمد عبد الرازق أحمد** : « دكتور » : دراسات فى المصادر المملوكية المبكرة - القاهرة ١٩٧٤ م المرأة فى مصر المملوكية - القاهرة ١٩٧٤ البذل والبرطلة زمن سلاطين المماليك « دراسة عن الرشوة » طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٧٩ م .

٥ - **أحمد عيسى** : « دكتور »
- تاريخ البيمارستانات فى الإسلام - المطبعة الهاشمية بدمشق ١٩٣٩
- معجم الأطباء من سنة ٦٥٠ هـ إلى يومنا هذا (ذيل عيون الأنباء فى طبقات الأطباء) لابن أبى أصيبعة القاهرة ١٩٤٢ م .

٦ - **أحمد مختار العبادى** : « دكتور » : قيام دولة المماليك الأولى فى بلاد الشام - الاسكندرية ١٩٨٢ .

٧ - **آدم ميتز** : « الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ، جزءان - تعريب محمد عبد الهادى أبو ريه القاهرة ١٩٤٠ م .

٨ - **أديب لحود** : العادات والأخلاق اللبنانية - طبع بيروت ١٩٥٣ .

٩ - **اسماعيل باشا بن سليم** : « إيضاح المكنون فى الذيل على كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون - جزءان - القاهرة ١٩٤٥ م .

١٠ - **الباز العرينى** : « دكتور » : الشرق الأوسط والحروب الصليبية ، الجزء الأول القاهرة ١٩٦٣ م .

١١ - **البغدادى (اسماعيل باشا)** : هدية العارفين - أسماء المؤلفين وآثار المصنفين فى مجلدين = استانبول ٥١ - ١٩٥٥ .

١٢ - **بلاشير وهدرمون** : « منتخبات من آثار الجغرافيين فى القرون الوسطى الطبعة الثانية ، باريس ١٩٥٧ م .

١٣ - **الخالدى** : « أحمد سامح »
- رجال الحكم والإدارة فى فلسطين من عهد الخلفاء الراشدين إلى القرن الرابع عشر الهجرى - طبع المطبعة العصرية بالقدس بدون تاريخ .
- المعاهد المصرية فى بيت المقدس - القدس ١٩٤٦ م .
- أهل العلم بين مصر وفلسطين - القدس ١٩٤٧ م .

١٤ - **الخربوطلى** : « على حسنى دكتور » : العلاقات السياسية والحضارية بين العرب واليهود فى العصور القديمة الإسلامية - القاهرة ١٩٦٩ م .

١٥ - **خليل سركيس** : « تاريخ أورشليم أى القدس الشريف بيروت ١٨٧٤ م .

١٦ - **رشاد الإمام** : « دكتور » : مدينة القدس فى العصر الوسيط - تونس ١٩٧٦ م .

١٧ - **رقسيمان** : « : تاريخ الحروب الصليبية ، ٣ أجزاء ترجمة د . السيد الباز العرينى - بيروت ١٩٦٩ م .

١٨ - **الزركلى (خير الدين)** : « الإعلام - قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعمرين والمستشرقين ، عشرة أجزاء ، الطبعة الرابعة بيروت ١٩٧٩ م .

١٩ - **سعيد عبد الفتاح عاشور** : « دكتور »
- « بعض أضواء جديدة على مدينة القدس » بحث مقدم للمؤتمر الدولى الثالث لتاريخ بلاد الشام ابريل ١٩٨٠ م
- الناصر صلاح الدين ، من سلسلة أعلام العرب - طبع القاهرة ١٩٦٥ م
- الأيوبيون والمماليك فى مصر والشام طبع القاهرة ١٩٧٠ م
- الحركة الصليبية - جزءان - طبع القاهرة ١٩٦٣ م .

٢٠ - **عارف العارف (الباشا)** : « : تاريخ القدس ، طبع دار المعارف بالقاهرة ١٩٥١ م ، المفصل فى تاريخ القدس - مطبعة المعارف ١٩٦١ م .

٢١ - **عبد الحميد زايد** : « دكتور » القدس الخالدة - طبع دار الكتب المصرية ١٩٧٤ م

٢٢ - **عبد اللطيف ابراهيم** : « دكتور » وثيقة السلطان قايتباى - دراسة وتحليل المدرسة بالقدس والجامع بغزة - القاهرة ١٩٦١ م
- من الوثائق العربية - دراسات فى الكتب والمكتبات الإسلامية القاهرة ١٩٦٣ م .

٢٣ - **عبد اللطيف حمزة** : « دكتور » الحركة الفكرية فى مصر فى العصرين الأيوبى والمملوكى الأول - طبعة أولى - دار الفكر العربى بالقاهرة ١٩٤٧ م .

٢٤ - **على محمد على وابراهيم الحمصانى** : فلسطين فى ماضيها العربى وحاضرها الصهيونى ، طبع الدار القومية للطباعة والنشر تاريخ طباعه .

٢٥ - **عمر صالح البرغوثى** : تاريخ فلسطين - طبع القدس ١٩٢٣ م .

٢٦ - **عمر عبد السلام تدمرى** : الحياة الثقافية فى طرابلس الشام فى العصور الوسطى ، بيروت ١٩٧٠ م .

٢٧ - **عمر رضا كحالة** : معجم المؤلفين ، تراجم مصنفى الكتب العربية ٥ أجزاء دمشق ١٩٥٧

– أعلام النساء فى عالمى العرب والإسلام ٥ أجزاء – دمشق ١٩٤٠
– معجم قبائل العرب القديمة والحديثة . دمشق ١٩٤٩

٢٨ – **فرج أنطون** : أورشليم الجديدة – أو فتح العرب بيت المقدس ، الاسكندرية ١٩٠٤

٢٩ – **فتحية النبراوى** : « دكتورة »
– العلاقات السياسية والإسلامية وصراع القوى الدولية فى العصور الوسطى القاهرة ١٩٨٢

٣٠ – **قاسم عبده قاسم** : « دكتور »
– دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى دار المعارف بالقاهرة ١٩٧٩
– الرؤية الحضارية للتاريخ عند العرب والمسلمين دار المعارف القاهرة

٣١ – **كامل جميل العسلى** : « دكتور »: وثائق مقدسية تاريخية ، جـ ١ طبع عمان ١٩٨٣

٣٢ – **كرد على محمد** : « : خطط الشام ، ٦ أجزاء – طبع دمشق ١٩٢٥

٣٣ – **لجنة التعريف بالإسلام** : حول بيت المقدس ، نشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٩٦٩

٣٤ – **لحد صعب** : « مختصر تاريخ طائفة الروم – بيروت ١٩١٤

٣٥ – **محمد أبو الهدى الصيادى الرفاعى** : كتاب الروض البسام فى أشهر البطون القرشية بالشام – طبع مطبعة الاقدام بالاسكندرية ١٨٩٢

٣٦ – **محمد الحبيب بن الخوجة** : « دكتور » : يهود المغرب العربى ، جامعة الدول العربية – قسم البحوث والدراسات الفلسطينية ١٩٧٣ م .

٣٧ – **محمد أديب العامرى** : عروبة فلسطين فى التاريخ – المكتبة العصرية – صيدا – بيروت ١٩٧٢

٣٨ – **محمد جمال الدين سرور** : « دكتور » : دولة بنى قلاوون فى مصر – نشر دار الفكر العربى بالقاهرة ١٩٤٧ م

٣٩ – **محمد محمد أمين** : « دكتور » : الأوقاف والحياة الاجتماعية فى مصر ٦٤٨ – ٩٢٣ هـ / ١٢٥٠ – ١٥١٧ م دار النهضة بالقاهرة ١٩٨٠

٤٠ – **محمد عبد الله عنان** : نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين – طبعة ثانية – مطبعة مصر ١٩٥٨ .

٤١ – **محمود العابدى** : قدسنا ، من منشورات جامعة الدول العربية قسم البحوث والدراسات الفلسطينية ١٩٧٢

٤٢ – **ميخائيل مكس اسكندر** : القدس عبر التاريخ – دراسة جغرافية تاريخية أثرية للمدينة

المقدسة – القاهرة ١٩٧٢

٤٣ – **ظفر الإسلام خان** : تاريخ فلسطين – الطبعة الثانية ، بيروت ١٩٧٩ .

٤٤ – **نعمان القساطلي** : الروضة الغناء فى دمشق الفيحاء بيروت ١٨٧٩

٤٥ – **نعيم زكى** : « دكتور » : طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب أواخر العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٧٣

٤٦ – **نقولا زيادة** : « دكتور »

– رواد الشرق العربى فى العصور الوسطى – بيت المقدس ١٩٤٣ م

– دمشق فى عصر المماليك – مكتبة لبنان – دمشق ١٩٦٦

– لمحات من تاريخ العرب – بيروت ١٩٦١

٤٧ – **نظير حسان سعداوى** : « دكتور » : الحرب والسلام زمن العدوان الصليبى – القاهرة ١٩٦١

٤٨ – **وليم فهمى** : الهجرة اليهودية إلى فلسطين المحتلة من منشورات جامعة الدول العربية ١٩٧١

٤٩ – **يوشح براور** : عالم الصليبيين – ترجمة وتقديم د . قاسم عبده قاسم و د . محمد خليفة حسن – نشر دار المعارف القاهرة ١٩٨١

رابعاً : الدوريات :

١ – :**المجلة التاريخية المصرية** المجلد السادس ١٩٥٧ ، المجلد السابع ١٩٥٨ المجلد الثامن ١٩٥٩ ، المجلد الحادى عشر ١٩٦٣ ، المجلد الرابع والعشرين ١٩٧٧

٢ – **مجلة كلية الآداب – المجلد الثامن والعشرين ١٩٦٦**

خامساً – رسائل علمية :

١ – **سليمان اسحق عطية** :

– تاريخ التعليم فى فلسطين على عهد سلاطين المماليك – رسالة دكتوراه من جامعة القاهرة ١٩٥٧

٢ – **عبد الغنى محمود عبد العاطى** : – التعليم فى مصر زمن الأيوبيين والمماليك – رسالة ماجستير بجامعة القاهرة ١٩٧٥ .

المصادر الأجنبية

1) Adler "Elkan Nathan": Jewish Travellers, 1st, Published London 1930.
2) Baumgarten "Martin": The travels of Martin Baumgarten throught Egypt, Arabia, Palestine and Syria, 3 vols. N.D.
3) Bertvandon De La Brocquiere: The Travels of Betrandon De La Brocquire to Palestine (1432-33 AD, Trans., By Thomas Johnes" Esa, at the hated Press. 1807.
4) Bernhard von Breydenbach and his Journey to the Holy land (1483-4) A Bibliography compiled by W.M. Davis, London, 1911.
5) Burchard of Mount Sion (A.D. 1280) In P.P.T.S. Vol. XII Trans from the Original Latin By, Aubery Stewart London 1896.
6) Canon Pietro Casola's Pilgrims to Jerusalem in the year 1494 By, M. Margaret Newett, Manchester, The university Press 1907.
7) Felix Fabri: "The Book of the Wanderings of Brother Felix Fabri (circa 1480-1483 A.D.) 2 Vols. Trans. by Aubrey Stewart London 1892.
8) Palestine Pilgrims Text-Socity Vol., 9-10 London 1897
9) Foster "William"; The Travels of John Sanderson In the Levant London, 1931.
10)Francesco Souriano: Treatise on the Holy Land Trans. From the Italian By. Fr. Theophilus Bellorini, Jerusalem 1948.
11)Frescobaldi, Gucci and Sigoli: A visit to the Holy Places Trans from the Italian By, Theophilus Bellorini-Jerusalem 1948.
12)Henry Maundrell. A Journey from Aleppo to Jerusalem in 1697, Birut, 1963.

13)Joinville & Villehardouim: Chronicles of the Crusades, Penguin classics-London 1963.
14)Ludovico De Varthema: The Travels of Ludovice Di Varthema in Egypt, Syria, Arabia Desert and Aralia Felix.
In Persia, India, And Ethiopia (AD 1503-1508) Trans from the Italian By John Winter Esa,.F.S.A; London 1863.
15)Nicolo of Poggibonsi (1346-1350 AD): A voyage Beyond the seas, Jerusalem, The Franciseen Press, 1945.
16)Pero Tafur: Travels and adventures (1435-1439) Publised by George Routledge & Son Ltd., London 1926.
17)Thomas Wright: Early Travels in Palestine, London 1886.

18)Amiry (M.A.): Jerusalem, Arab Origin and heritage, London 1948.
19)Alexander, R. Khoori: Jerusalem, How to see it, London 1927.
20)Alexander, Max,: Studies In Jewish History and Booklore, New York, 1944.
21)Ali Ibrahim (Dr.) Jews of the Arabs countries, Palestine Liberation organization research centre Beirut 1971.
22)Amnon cohen and Bernard Lewis: Population and Revenue in the towns of palestine in the sixteenth century Princeton University Press-New Jersy 1978.
23)Andrew Gray: A pilgrimage to Bible Lands, London 1903.
24)Annual of the American school of Oriental Research in Jerusalem vols., I-8, New Haven Conn. 1920-1927.
25)Aziz Suryal Atiya: The crusade in the Later Middle Ages: London, 1938.
26)Bartlett (W.H.): Jerusalem Revisited ed. Thomas Nelson, London, 1854.
27)Bayard Dodge: Muslim Education in Medieval Times-The Middle East Institute Washington D.C., 1962.
28)Ben-Sason: Jewish Society Through the Ages. New York 1973.
29)Charles Dudley: In the Levant. Cambridge 1907.
30)Charles Warren and Conder: The survey of Western Palestine, Jerusalem Published for the committe of the Palestine Exploration Fund, London, 1884.

31)Conder: The city of Jerusalem - London 1909.
32)The Latin Kingdom of Jerusalem 1099-1291, London 1897.
33)Cunningham Geikie: The Holy Land and the Bible. Vol. 1, New York James Patt. 1888.
34)De Saulcy: Jerusalem Paris 1882.
35)Eothen: Aclasic of Travel in the Middle East. University of Nebraska Press, Lincoln 1970.
36)Goitein (S.D.): Jews and Arabs-their contacts through the Ages, Third revised Edition Schocken Books New York, 1974.
37):"the Social and Religious History of the Jews" Speculum Vol., 36, 1961.
38)Graham (Stephen): With the Rusian Pilgrims to Jerusalem, London, 1927.
39)Henry Formly (Rev): A visit to the East London. 1843.
40)The Jewish Encyclopedia - Art Jerusalem Vol., VII New York and London, MD CCC VI.
41)Joshua Prawer: The Latin Kingdom of Jerusalem, London 1973.
42)"The settlement of the Latins In Jerusalem" Speculum Vol. XXVII, PP 490-503.
43)Joh Wilkinson: Jerusalem Pilgrims-England 1977.
44)Kathleen M. Kerryon: Digging up Jerusalem, London Tonbridge 1974.
45)Lane-Poole: A History of Egypt in the Middle Ages London 1925.
46)Lapidus (Ira. Marvin): Muslim cities in the Later Middle Ages, Harvard University Press, Cambridge, Massachusetts 1967.
47)Lees (Robinson): Village Life in Palestine, London 1905.
48)Le Strange (Guy): Palestine under the Muslems, Florance 1890.
49)Margoliouth: Cairo, Jerusalem and Damascus, Three chief cities of the Egyptian sultans-London 1907.
50)Marie-Jospeh De Geramb: A Pilgrimage to Palestine, Egypt and Syria London 1840.
51) Marmorosch: Old And New Places in Palestine, Syria and Lebanon-A New Guide-Jerusalem 1946.
52) Murphy-O'connor'J: The holy Land. Oxford University Press 1980.
53) Murray: Syria And Palestine 2 vols, London 1858.
54) Nicola A. Ziadeh: Urban Life in syria under the Early Mamluks,

American University of Bierut-Bierut 1953.

55) Palestine Exploration Fund; Twenty one years work in the Holy land, June 22, 1865-June 22, 1880-London 1889.
56) Palestine Digest Vol., 8. No. 4 - July 1978.
57) Prescatt: Once to Sinai, The further pilgrimage of Friar Eelix Fabri - London 1957.
58) Jerusalem, Journey - Pilgrimage to the Holy Land in the Fifteenth Century, London 1954.
59) Ray John: A collection of Curious Travels and Voyages - London 1693.
60) Recueil Des Historien Des Croisades. Historiens Orientaux Tomes 105 Paris 1967.
61) Richard Pococke: A Description of the East and some other countries Vol. 11 Part I. London MD CCXL V.
62) Runciman: The Historical Role of the Christian Arab of Palestine, London 1970.
63) Samuel Hanning (Rev): Those Holy fields. London the Religious Tract Society 1874.
64) Sauvaget et G. Wiet: Repertoire chronologique D'Epigraphie Arabe - 16 tomes - Le Caire 1941-1946.
65) Smail: The Crusades in Syria and the Holy land, southampton 1973.
66) Smith (George Adam): Jerusalem, The topography, Economic and History from the Earliest times to A.D. 70; 2 vols. Hodder and Stoughton London MCM VII.
67) Standshut: Jewish communities in the Muslim countries of the Middle East, A survey Published by the Jewish Chronic le, London 1950.
68) Stewart Perown: The pilgrim's companion in Jerusalem and Bethlehem - London 1964.
69) Tweedie: Jerusalem and its environs-Nelson and sons. London MD CCCLXII.
70) Van Berchem (Max): Materiaux Pour un Corpus Inscriptionum Arabicarum, Syrie Du Sud, Jerusalem ville, Vol. 43 pt. 1, Vol. 44 pt. 1, Le Caire 1922.
71) William T. Ellis:; Bible Lands Today. New York, London 1927.
72) Wolf-Dieter Hütteroth, Kamal Abdulfattah: Historical Geo-

graphy of Palestine, Transjordan and Southern Syria in the Late 16th century-Erlangen 1977.
73) Wolf Leslau: "Ethiopian Itineraries Ca. 1400-1524" Speculum, vol. XXXIV, No., 2, 1959.

رقم الايداع ٨٦/٤٤٢٤



International Press
انترناشيونال برس
• شارع جمال الشاهد ـــ مدينة الصحفيين ت ٣٤٧٤٢٥٩

القدس
في العصر المملوكي

القدس ليست مجرد مدينة من عشرات الألوف من مدن الأرض ، ولكنها رمز دار من حوله الصراع على مدى أجيال عدة في تاريخ المنطقة العربية .

والقدس اليوم رمز لى صراع جديد قديم بين القوى العربية لى المنطقة وقوى البغى والعدوان ، الآتية من خارج المنطقة تفرض منطق الاستيطان العنصرى المتسربل برداء الدين .

والقدس فى ماضينا القريب كانت رمزاً لصراع بين العرب والقوى الصليبية التى وفدت إلى المنطقة تزرع فيها كيانا دخيلا ، فما أشبه اليوم بالبارحة !

من هنا ، كانت أهمية هذا البحث المستفيض ـــ الذى يقدم صورة شاملة للقدس خلال قرنين ونصف قرن من الزمان إبان العصر المملوكي ـــ حيث يكشف لنا جميعا ، أن المدينة المقدسة ليست بالنسبة لحضارتنا وماضينا وحاضرنا مجرد مدينة احتلها العدو ، وإنما هى قطعة حية من تاريخنا ، ومعرض حى لإنجازات الحضارة العربية .

دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع
القاهرة ـ باريس
القاهرة : ش هشام لبيب ـ رقم ٢٥ / ٤٢
مدينة نصر ـ المنطقة الثامنة

الثمن . .